

من الأدب العالمي

ابن البلد

للكاتب الزنبي الأمريكي
ريتشارد رايت

ترجمة
سعد زغلول نصار

مراجعة
محمد فتحي

www.liilas.com/vb3/florist



ابن البلد

ابن البلد

www.liilas.com/vb3/

florist

ريتشارد رايت

للكاتب الزنجي الأمريكي

سعد زغلول نصار

ترجمة

محمد فتحي

مراجعة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمطاهرة



www.liilas.com/vb3/
florist



www.lilas.com/vb3/
florist

[www.liilas.com/vb3/
florist](http://www.liilas.com/vb3/florist)

الفلاف والرسم الداخلية

للفنان سعيد السري



الجنون

[www.lillas.com/vb3/
florist](http://www.lillas.com/vb3/florist)



ن ن ن ن ن ٠٠ !!

دق جرس المنبه فى الحجرة الساكنة المظلمة
و « طقطق » زميرك سرير ٠٠ وارتفع صوت امرأة
تصيح فى غير ما صبر : « بيجر ٠٠ أوقف هذا الشيء ! »
ارتفعت نخرة محنقة غطت على صوت الجرس المعدنى • وخطت
أقدام عارية متناقلة عبر ألواح الأرض الخشبية ٠٠ ثم توقف الجرس
فجأة •

– أضىء النور يا « بيجر » •
ورد صوت نائم فى دمدمة :
– حاضر ٠٠

وغمر النور الحجرة فكشف عن ولد أسود يقف فى الفراغ الضيق
مابين سريرين معدنيين وهو يمسح عينيه بظفر يديه • ومن فوق السرير
الذى على يمينه عادت المرأة تقول :
– « بدى » ٠٠ انهض الآن • ان لدى غسيلا ضخما اليوم وأريد أن
تخرجوا جميعا من هنا •

وتدحرج ولد أسود آخر من فوق سريريه ٠٠ ونهض واقفا على حين
نهضت المرأة هى الأخرى ووقفت وهى لاتزال مرتدية منامتها ثم قالت :
– أديروا رهوسكم حتى أرتدى ملابسى •

وأدار الولدان رأسيهما واتجها ببصرهما الى الركن البعيد من الحجرة
على حين خلعت السيدة منامتها فى سرعة وارتدت زوجا من الملابس الداخلية
ثم استدارت نحو السرير الذى نهضت هى من فوقه وصاحت :

- فىرا : انهضى .

وتساءل صوت رفيق متثائب من تحت الأغطية :

- كم الوقت الآن ياماما ؟

- انهضى قلت لك .

- حاضر ياماما .

ونهضت من فوق السرير فتاة سمراء ترتدى منامة من القطن ورفعت
ذراعيها فوق رأسها وهى تتثائب وجلست كالنائمة فوق أحد المقاعد وهى
تتحسس مكان جواربها على حين ظل الولدان واقفين ينظران الى ركن الغرفة
البعيد حتى تدندى أمهما وأختهما مايكفى من الملابس لأن يبعد بهما عن
الاحساس بالخل ، وكذلك فعلت الأم والأخت عندما بدأ الولدان يرتديان
ملابسهما . وفجأة ، سككت الجميع . . . وتوقفوا وهم لا يزالون ممسكين
بملابسهم فى أيديهم . . . واتجهت أبصارهم جميعا نحو بصيص من الضوء
يلوح من حائط الغرفة رقيقة الطلاء . . . ونسوا مؤامرتهم ضد الخجل
وتسمرت أعينهم على أرض الحجرة . وصاحت المرأة :

- هاهو ذا مرة أخرى يا « بيجر » .

ثم تكهرب المسكن ذو الحجرة الواحدة الصغيرة وتحول الى حركة
صاخبة عنيفة ، وسقط مقعد على الأرض على حين اندفعت المرأة تلهث فوق
السرير وهى ترتدى نصف ملابسها وجواربها . ووقف ولداها بأقدامهما
العارية جامدين بلا حراك وعيناها تبحثان فى قلق تحت السرير والمقاعد .
أما الفتاة فقد جرت الى ركن من أركان الحجرة وهى نصف منحنية . . . تلملم
أطراف سروالها بكلتا يديها وتضمه باحكام فوق ركبتيها وتصيح :

- أوه . . . أوه !!

وصاحت المرأة وهى تشير باصبع مرتعشة وقد اتسعت عيناها فى
فزع شديد :

- هاهو ذا .

- أين ؟

- لا أستطيع أن أراه .

وقالت الفتاة في صوت مرتعش :

- بيجر .. انه خلف صندوق الملابس .

وصاحت المرأة ..

- فيرا .. اصعدى فوق السرير .. لا تدعى هذا الشيء يعضك .

وقفزت « فيرا » فوق السرير في رعب والمرأة تسندها ، وأحاطت كل واحدة منهما الأخرى بذراعيها وهما تحدقان الى صندوق الملابس بركن الغرفة .. وقد فغرتا فاهيهما .

ونظر « بيجر » فى أرجاء الغرفة .. ثم قفز نحو ستارة أزاحها فى سرعة ؛ وجذب من خلفها مغرقتين معلنتين على الحائط أعلى فرن من أفران « الجاز » واستدار مناديا شقيقه فى صوت خافت وعيناه تتجهان نحو الصندوق :

- « بدى » .

- نعم .

- خذ .. أمسك بهذه المغرفة .

- حاضر .

- اتجه الآن نحو الباب .

- حاضر .

وربض « بدى » الى جوار الباب ممسكا فى يده بالمغرفة الحديدية وقد تحفز ، وكانت الغرفة ساكنة هادئة الا من صوت الأنفاس العميقة للأربعة داخلها . وزحف « بيجر » على أطراف أصابعه نحو الصندوق وهو ممسك بقوة بالمغرفة الحديدية وعيناه تجولان وتراقبان كل شبر من أرض الغرفة أمامه ، ثم توقف قليلا وصاح دون أن يحول عينيه أو تختلج له عضلة :

- « بدى » .

- هه ..

- ضع الصندوق أمام الجحر حتى لا يستطيع الخروج .
- .. وهو كذلك .

وأسرع « بدى » نحو الصندوق الخشبي وحركه فى سرعة أمام الجحر ثم عاد الى مكانه الى جوار الباب ممسكا بالمغرفة .. فى وضع الاستعداد . وتقدم « بيجر » نحو الصندوق فى هدوء وأطل خلفه فى حذر فلم ير شيئا . وفى عناية ، مد قدمه العارية ودفع بالصندوق بضع بوصات . وصاحت الأم مرة أخرى :

- هاهو ذا !!

وبرز فأر ضخيم الجثة .. وصرخ صرخة حادة وهو يقفز الى سروال « بيجر » ويتشبث فيه بأسنانه . وهمس « بيجر » فى قسوة : « عليك اللعنة » ثم طوح بساقه بكل قوته فطار الفأر فى الهواء وارتطم بالحائط ولكنه مالبت أن تدحرج وقفز مرة أخرى ، فراغ « بيجر » من طريقه .. واستقر الفأر عند ساق المائدة . وجز « بيجر » على أسنانه وهو ممسك بالمغرفة الحديدية فى يده وهو يخشى أن يخطئ الفأر اذا طوح بها ليضربه . وصرخ الفأر واستدار يجرى فى دائرة ضيقة باحثا عن مكان مناسب يختبئ فيه ، وقفز مرة أخرى بالقرب من « بيجر » وظل يدور حول الصندوق من جانب الى جانب وهو يبحث عن حجره .. ثم استدار وتراجع على ساقيه الخلفيتين .. وصاح « بدى » :

- اضربه يا بيجر .
- وصاحت المرأة :
- اقتله .

وكان بطن الفأر ينبض وينبسط من الذعر . وتقدم « بيجر » خطوة على حين صاح الفأر فى تحد وعيناه السوداوان البراقتان تلمعان وساقاه الصغيرتان الأماميتان تضربان الهواء فى يأس ، وطوح « بيجر » بالمغرفة . فارتطمت بالأرض بعد أن أخطأت الفأر .. واستقرت الى جوار الحائط .

- اللعنة .

وقفز الفأر ، وقفز « بيجر » جانبا . ووقف الفأر تحت مقعد من المقاعد وهو يصرخ فى ثورة . وتحرك « بيجر » فى ببطء الى الخلف فى اتجاه الباب وقال فى هدوء دون أن تغفل عيناه عن الفأر :

- أعطنى المغرفة يا « بدى » .

ومد « بدى » يده .. وأمسك « بيجر » بالمغرفة ورفعها عالية فى الهواء .. واندفع الفأر عبر أرض الغرفة ثم توقف مرة ثانية عند الصندوق يبحث فى لهفة عن جحره .. ثم تراجع مرة أخرى كاشفا عن أطافره الصفراء الطويلة .. صارخا فى حدة .. وجسده يرتعش .

وصوب « بيجر » المغرفة .. ثم طوح بها بكل قوته . وانهار الصندوق محدثا صوتا عاليا . وصرخت المرأة وهى تخفى وجهها بين يديها . وظهر « بيجر » وهو يتقدم على أطراف أصابعه .. وصاح وقد بدت أسنانه البيضاء وهو يبتسم : « لقد أصبته .. بحق الله ؛ لقد أصبته »

وركل الصندوق المحطم بعيدا عن طريقه .. فظهرت جثة الفأر ممددة .. وظهر بوضوح ناباه الطويلان الصفراوان . وتناول « بيجر » حذاء أخذ يسحق به رأس الفأر وهو يلعن فى هستيرية :

- يا ابن اللبوة !

وانهارت المرأة فوق السرير على ركبتيها وأخفت وجهها وسط الأغذية وهى تنشج وتقول :

- يارب .. يارب .. الرحمة ..

وقالت « فيرا » وهى تنحنى نحوها :

- أوه يا ماما .. لا تبكى .. لقد مات الآن ..

ووقف الشقيقان أمام الفأر الميت وقالا فى اعجاب وفخر :

- ابن حرام .. !

- ابن اللبوة هذا كان فى مقدوره أن يقطع رقبتك .

- ان طوله أكثر من قدم

- كيف بالله يكبر على هذا النحو ؟

- من أكل القمامة ، وأكل كل شئ آخر يمكن أن يجده .

- انظر يا بيجر : .. هناك مزق فى سروالك طوله ثلاث بوصات .

- نعم .. لقد كان يتعقبنى .. لا بأس .

وقالت « فيرا » فى رجاء :

- أرجوك يا بيجر .. خذه بعيدا عن هنا .

وصاح « بدى » :

- أوه .. لا تخافى هكذا :

وظلت المرأة على السرير تنشج بالبكاء على حين تناول « بيجر » قطعة ورق من صحيفة ، ورفع الفأر من ذيله بحماس .. وأمسك به على طول ذراعه .. وعادت « فيرا » تتوسل :

- بيجر .. خذه بعيدا ..

وضحك « بيجر » وتقدم نحو السرير والفأر فى يده يتطوح مثل بندول الساعة وهو مستمتع بخوف شقيقته . وشهقت « فيرا » فى حدة وصرخت وأشاحت بيدها وأغمضت عينيها ثم ارتمت فوق أمها وتدحرجت كالمسلولة حتى سقطت على الأرض . ونهضت الأم وانحنت فوقها وصاحت وقد غصت بالبكاء

- « بيجر » بالله عليك .. لا تفعل هذا ألق بهذا الفأر فى الخارج .

وألقى « بيجر » بالفأر على الأرض وبدأ يرتدى ملابسه وعادت أمه تقول :

- بيجر .. ساعدنى على حمل شقيقنك الى السرير .

وتوقف « بيجر » لحظة .. ثم استدار وتساءل متظاهرا بالجهل :

- ما الحكاية ؟

- افعل ما طلبته منك يا ولد ؟

واتجه « بيجر » الى السرير وساعد أمه على حمل شقيقته « فيرا » التى كانت قد أغمضت عينيها . وعاد يكمل ارتداء ملابسه ، ثم لف الفأر فى ورق الصحيفة واتجه خارجا من الباب ثم هبط السلم وألقى به فى صحيفة قمامة بركن الزقاق .. وعندما عاد الى الغرفة كانت أمه لا تزال منحنية فوق « فيرا » وهى تضع منشفة مبللة فوق رأسها .. واعتدلت الأم وواجهته وقد بللت الدموع عينيها وخديها .. وزمت شفتيها فى غضب وهى تقول :

- يا ولد .. أحيانا أتساءل عما يجعلك تتصرف مثل هذه
التصرفات ..

- وتساءل « بيجر » فى أسلوب من يستعد للشجار :

- وماذا فعلت الآن ؟

- أحيانا تتصرف مثل أكبر أحمق وقعت عليه عيناي ..

- عم تتحدثين ؟

- لقد أفرغت شقيقتك بذلك الفأر .. حتى أغمى عليها .. أليس
لديك عقل على الإطلاق ؟

- أوه .. لم أكن أدري أنها تخاف الى هذه الدرجة ..

وصاحت الأم تنادى ابنها الآخر ..

- بدى

- نعم « يا ماما » ..

- خذ صحيفة وغط بها هذه البقعة ..

- حاضر يا ماما ..

وفتح « بدى » صحيفة غطى بها آثار الدماء على الأرض حيث لقي
الفأر مصيره على حين اتجه « بيجر » نحو النافذة ووقف ينظر شاردة من
خلالها الى الشارع ..

ونظرت أمه نحوه وقالت فى مرارة .

- « بيجر » .. أحيانا أندم على أننى أنجبتك ..

ونظر « بيجر » نحوها ثم استدار بعيدا وهو يقول :

- ربما كان من الأفضل ان لم تفعلى .. ربما كان من الأفضل أن
تدعينى حيث كنت ..

- أغلق فمك القذر هذا ..

وقال « بيجر » وهو يشعل سيجاره :

- أوه .. بحق المسيح .. !

وعادت الأم تقول :

- « بدى » .. ارفع هاتين المغرقتين وضعهما فى الحوض .

- حاضر يا ماما

وسار « بيجر » عبر أرض الغرفة وجلس على السرير وأمه تتابعه
ببصرها وتقول :

- لم يكن يجوز أن نعيش فى هذه « المزبلة » لو كنت تتحلى بقدر
من الرجولة .

- أوه .. لا تبدئى هذه الحكاية من جديد ..

وتساءلت الأم :

- كيف حالك يا فيرا ؟

ورفعت فيرا رأسها ونظرت حولها وكأنما تتوقع أن ترى فأرا

آخر :

www.liilas.com/vb3/
- أواه يا ماما
- أيتها المسكينة

- لم أحتمل .. لقد أفزعنى بيجر .

- هل أصابك أذى ؟

- لقد ارتطمت رأسى بالأرض .

- لا بأس .. اطمئنى أنت على ما يرام .

وعادت « فيرا » تبكى وهى تقول :

- لماذا فعل « بيجر » هذا ؟

وقالت الأم :

- انه مجنون . مجرد أحرق أسود مجنون .

وقالت فيرا :

- سوف أتأخر عن درس الحياكة فى جمعية الشبان المسيحية .

فقالت أمها :

– تمددى فوق السرير .. وسوف تشعيرين بتحسّن فى لحظات قليلة .

وتركت « فيرا » ممددة على السرير ثم تطلعت الى « بيجر » فى غضب وقالت :

– تصور أنك استيقظت يوما فوجدت أختك ميتة ؟ .. ماذا كنت تفعل اذن ؟ ماذا يحدث لو أن هذه الفئران مزقت عروقنا بالليل ونحن نيام ؟ أبدا .. لا شئ من هذا يهملك .. كل ما يهملك هو متعتك الشخصية .. حتى حين يمنحك مكتب المساعدات وظيفة فأنت لا تقبلها الا بعد أن يهددوك بقطع الطعام عنك حتى تموت من الجوع .. « بيجر » .. تريد الحق ؟ أنت أفسد انسان رأيته طوال حياتى .

وقال « بيجر » دون أن ينظر الى أمه :

– لقد قلت لى ذلك ألف مرة .

– وهأنذا أقولها مرة أخرى .. وتذكر كلماتي هذه .. سوف يأتى يوم ترتدى فيه على الأرض وتبكي .. سوف يأتى يوم تتمنى فيه لو أنك كنت قد صنعت شيئا من نفسك بدلا من أن تظل هكذا مجرد مخلوق ضائع .. ولكن حين يأتى هذا اليوم فلسوف يكون قد فات الأوان .

– كفى أرجوك عن تنبؤاتك بشأنى .

وصاحت الأم :

– أنا أتنبأ كما أريد .. وإذا لم يعجبك ما أقول تستطيع أن تخرج من هنا .. ونستطيع نحن أن ندبر أمورنا بدونك .. نستطيع أن نعيش فى حجرة واحدة كما نعيش الآن حتى بدونك .

وصاح « بيجر » وقد امتلأ صوته بالثورة العصبية : « أوه .. كفى بحق المسيح » على حين استمرت أمه تعنفه :

– لسوف تندم يوما على ما أسلفت يداك .. إذا لم تكف عن العريضة مع عصابتك وتسلك سلوكا قويا فسوف ينتهى بك الأمر الى ما ثم يخطر لك ببال . أنت تظن يا ولد أنى لا أعرف ماذا تفعلون .. ولكنى أعرف ! والمشائق تنتظر فى نهاية الطريق الذى تسلكونه .. تذكر هذا جيدا .

ثم استدارت نحو « بدى » وقالت :

— ألق هذا الصندوق فى الخارج •

— حاضر يا ماما •

وساد الصمت •• وحمل « بدى » الصندوق الى الخارج وخطت الأم خلف الستارة متجهة نحو فرن « الجاز » وجلست « فيرا » فوق السرير وقد تأرجحت ساقاها •• وعادت الأم تقول :

— تمددى على السرير •

— اننى أشعر بتحسن الآن يا ماما •• يجب أن أذهب الى درس الحياكة •

— حسن •• اذا كنت تشعرين بتحسن فأعدى المائدة •

ثم عادت الأم مرة أخرى خلف الستارة وهى تقول :

— يا الهى •• لقد تعبت من هذا كله ولا أعرف ماذا يمكن أن أفعل •

وانساب صوتها فى وضوح من خلف الستارة :

— لقد حاولت دائما أن أهيب من أجلكم بيتا يا أولاد •• ولكنكم لا تقيمون لذلك وزنا وقالت « فيرا » تحتج :

— أوه يا ماما •• لا تقولى هذا •

— أحيانا يا « فيرا » أشعر برغبة فى أن أموت وأستريح •

— ماما •• أرجوك •• لا تقولى هذا •

— لا أستطيع أن أستمر على هذا الحال سنين طويلة أخرى •

— سوف أكبر يا ماما حالا •• وسوف أشتغل •

— أنا واثقة من أننى سأكون ميتة حينئذ •• أنا واثقة من أن الله

سيختارنى الى جواره •

واتجهت « فيرا » نحو أمها خلف الستارة وسمعها « يبجر » وهى تحاول تهدئتها فأزاح أصواتهما عن تفكيره • لقد كان يكره أسرته لأنه كان يعلم أنها تقاسى مرارة العيش وهو عاجز عن مساعدتها • وكان يعلم أنه فى اللحظات التى يسمح فيها لنفسه بأن يحس بعمق حقيقة الحياة التى تحياها أسرته • وحقيقة اليأس المؤسف لهذه الحياة ، فانه لا يلبث أن يذوب تحت وطأة الخوف واليأس • ومن ثم فقد وطن نفسه على أن يعيش فى

مغزل حديدى : كان يعيش بينهم ولكن خلف جدار .. ستار ، ولقد كان فى ذلك أمينا مع نفسه ، فقد كان يعلم حق العلم أنه فى اللحظة التى يسمح فيها لحقيقة حياته ومغزاها بالدخول فى وعيه الكامل فسوف يقتل نفسه .. أو يقتل شخصا آخر .. ومن أجل هذا كان ينكر نفسه .. ويتصرف بقسوة .

نهض « بيجر » وسحق عقب السيجارة بأصابعه فوق افريز النافذة .. وعادت « فيرا » الى وسط الحجرة ووضعت السكاكين « والشوك » فوق المائدة . وصاحت الأم :
تهيئوا لتناول الطعام .. كلكم .

وجلس « بيجر » الى المائدة .. وتسلمت الى خياشيمه من خلف الستارة رائحة قلى شرائح لحم الخنزير .. والقهوة .. وانساب الى سمعه صوت أمه تغنى :

مثل الحياة كمثل سكة حديدية فوق جبل

وبمساعدة مهندس شجاع ..
علينا أن نعبر هذا الطريق بنجاح .
من المهد الى اللحد ..

.. وضايقته الأغنية .. وأحس بالسرور حين توقفت أمه عن الغناء وعادت الى الحجرة تحمل اناء القهوة وطبقا من شرائح اللحم المقدد على حين أحضرت « فيرا » الحبز ، وجلس الجميع حول المائدة .. وأغمضت الأم عينيها وطأطأت رأسها وتمتمت بالصلاة :

« يا الهى .. نحن نشكر ذاتك من أجل الطعام الذى منحتنا اياه لتغذى أجسادنا .. آمين » .. ثم رفعت بصرها وقالت دون أن تغير نبرة صوتها : « عليك أن تتعلم كيف تصحو مبكرا أكثر مما تعودت يا «بيجر» حتى تستطيع الحصول على عمل » .

ولم يجب « بيجر » .. بل ولم ينظر الى أمه . وسألته أخته فيرا :

— هل تريد أن أصب لك بعض القهوة ؟

— نعم ..

وعادت أمه تسأله :

- سوف تقبل هذا العمل • أليس كذلك يا بيجر ؟
- والقى « بيجر » « بالشوكة » فوق المائدة • ثم نظر الى أمه وقال :
- لقد قلت لك فى الليلة الماضية اننى سأقبله • كم مرة اذن تريد ان تسألينى ؟ وصاحت فىرا :
- انتهينا • لا ترد عليها بهذا الأسلوب • انه مجرد سؤال منها فحسب •
- أعطينى الحبز • وكفى عن هذه « الحداقة ! » •
- وقالت الأم :
- انك تعرف أنه يجب عليك أن تقابل المستر « دالتون » فى الخامسة والنصف •
- لقد قلت لى ذلك عشر مرات •
- أريد أن أذكرك حتى لا تنسى يا ولدى •
- وقالت فىرا :
- وأنت تعلم جيدا كيف تستطيع أن تنسى •
- وصاح أخوه « بدى » :
- أوه • كفوا عن « بيجر » • لقد قال لكم انه سيقبل العمل •
- وقال بيجر :
- لا تقل لهم شيئا يا بدى •
- وصاحت الأم :
- أغلق فمك يا « بدى » أو اترك المائدة • أنا لست مستعدة لتفاهاتك • يكفى أحمق واحد فى العائلة •
- وعاد « بدى » يقول :
- كفى يا ماما •
- فقالت الام :
- ان « بيجر » يجلس هنا الآن وكأنه ليس سعيدا بالحصول على عمل •

وتساءل بيجر :

- وماذا تريد منى أن أفعل ؟ •• هل أصبح ؟

وصاحت أخته مستنكرة •• فقال لها :

- أرجو أن تغلقى فمك الكبير وتخرجى أنت من هذا الموضوع ••

وعادت الأم تقول فى صوت منخفض ونبرة حانية وهى تمضغ قطعة من الخبز :

- أستطيع أن أنتقى لكم مكانا طيبا يا أولاد •• يمكن أن ترتاحوا فيه فلا تضطرون الى أن تعيشوا مثل الحنازير •

وقالت فيرا :

- ليس « بيجر » حصيفا بما يكفى لأن يفكر فى شىء كهذا •

وصاح بيجر :

- يا الهى •• أحب أن تدعونى جميعكم أتناول طعامى •
وعادت أمه تتكلم كما لو أنها لم تسمعه •• وتوقف هو عن

الانصات فقالت فيرا :

- ماما تكلمك يا بيجر •• !

- ثم ماذا ؟

- لا تتصرف هكذا يا بيجر ••

وألقى بيجر « بالشوكة » وأمسك بحافة المائدة بأصابعه السوداء القوية ، وساد الصمت الا من « طرقة » الشوكة فى يد شقيقه على حافة الطبق • وظل « بيجر » يحدق الى عيني شقيقته حتى أرخت هى عينيها • فقال :

- أرجو أن تدعونى أكل طعامى ••

وأحس وهو يأكل بأنهم كانوا يفكرون فى العمل الذى كان من المفروض أن يحصل عليه فى ذلك المساء •• وأغضبه ذلك ، فقد أحس بأنهم اضطروه بالحيلة الى الاستسلام الرخيص • فعاد يقول :

- أريد أجرة المواصلات •

.. هذا كل ما معنى ..

وأزاحت الى جانب طبقه خمسة وعشرين سننا تناولها « بيجر »
ووضعها في جيبه ثم تجرع قهوته دفعة واحدة .. وأحضر معطفه وقبعته
ثم اتجه الى الباب على حين قالت له أمه :

- أنت تعرف يا « بيجر » أنك اذا لم تحصل على هذا العمل فان
مكتب المساعدات سوف يرفعنا من قائمته .. ولن نحصل عندئذ على
الطعام .

وصاح « بيجر » وهو يصفق الباب :

- قلت لك اننى سأقبل هذا العمل .

ثم هبط السلم .. وتوقف قليلا في بئر السلم يتطلع الى الشارع من
خلال زجاج باب المنزل ، ومن حين لآخر كان يرتفع صوت سيارة ..
لقد ضاق بحياته في هذا البيت فالأيام تتتابع ولا شيء فيه سوى الصياح
والعراك .. ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ وفي كل مرة يسأل نفسه
هذا السؤال كان عقله يصطدم بحائط من الفراغ يتوقف بعده عن التفكير
.. وعبر الطريق أمامه مباشرة ، ورأى عربة تتوقف عند الحاجز الحديدي
ويقفز منها رجلان من البيض يرتديان « الأوفرول » ومعهما « الجرادل »
و « الفرشات » . نعم ، بوسعه أن يقبل الوظيفة عند « دالتون » فيصبح
بائسا تعسا أو يرفضها فيموت من الجوع . انه يكاد يجن وهو يجد أن
مجال الاختيار أمامه ليس فسيحا . حسنا ، انه لا يستطيع أن يبقى
واقفا هكذا طوال النهار ما الذى يريد أن يفعله بنفسه ؟ لقد حاول أن
يقرر ما اذا كان يريد أن يشتري صحيفة بعشر سنتات أو أن يذهب الى
« السينما » أو الى صالة « البلياردو » ليتحدث الى أفراد « الشلة » أو أن
يكتفى بمجرد التجول هنا وهناك . وقف ويداه في جيبه وسيجارته في
فمه تتدلى الى ذقنه .. يتأمل .. وينظر الى الرجال وهم يتابعون أعمالهم
عبر الطريق ويثبتون اعلانا ضخما على لوحة اعلانات .. اعلانا ظهر فيه
وجه رجل أبيض .

وقال « بيجر » لنفسه فى هدوء : « انه « بكلى » ، .. الذى يريد أن
يرشح نفسه لمنصب المدعى العام للولاية من جديد .. وكان العمال
يثبتون الاعلان « بفرشهم » المبتلة على حين أخذ هو يحرق الى الوجه
الناضر ويهز رأسه .. ويمضى يحدث نفسه : « أراهن أن ابن اللبوة

هذا يكسب مليوناً من الدولارات في العام الواحد .. لو أنني كنت في مكانه ولو ليوم واحد .. لما انتابني القلق قط .

وعندما انتهى العمال من عملهم جمعوا دلاءهم وفرشاتهم ومضوا الى العربات التي انطلقت بهم .. ونظر « بيجر » مرة أخرى الى الاعلان . كان وجه الرجل الأبيض سميماً ولكنه كان عبوساً . وكان الرجل يرفع إحدى يديه وسبابته موجهة عبر الشارع نحو كل عابر سبيل .. كان الاعلان يظهر واحداً من هذه الوجوه التي تنظر اليك مباشرة حين تنظر أنت إليها .. وتظل نظراتها موجهة اليك أينما كنت في الطريق حتى تباعد كثيراً وتضطر أخيراً الى أن ترفع عينيك عنه .. حتى يختفي الوجه كما تختفي الصورة في « السينما » .. وفي أعلى الاعلان عبارة كتبت بحروف طويلة حمراء : « اذا أنت خرقت القانون .. فلن تكسب ! »

.. ونفص « بيجر » سيجارته وضحك في صمت وهو يقول : « أيها المخادع » .. وهز رأسه وهو يقول : « انك تجعل كل من يدفع لك يكسب » ثم فتح الباب واستقبل هواء الصباح .. وسار في الطريق مطأطأ رأسه وهو يداعب بأصابعه داخل جيبه ربع الدولار .. ثم توقف فجأة وهو يبحث في كل جيوبه حتى وجد في أحد جيوبه سنتاً وحيداً برونزياً جعل المبلغ الذي معه ستة وعشرين سنتاً، أربعة عشر منها ينبغي أن توفر أجراً للمواصلات التي ستنقله الى بيت مستر « دالتون » .. هذا اذا استقر رأيه على أن يقبل الوظيفة ، فاذا كان يريد أن يشتري صحيفة ويذهب الى « السينما » ينبغي أن يكون معه بعد هذا عشرون سنتاً أخرى .. « يا للجنة ، دائماً أنا مفلس » .

ووقف « بيجر » عند إحدى النواصي تحت أشعة الشمس وهو يرقب السيارات والمارة . لقد كان يحتاج الى مزيد من النقود . ولو هو لم يحصل على المزيد من النقود لما عرف كيف سيمضي بقية يومه هذا . لقد كان يريد أن يذهب الى « السينما » وكان متلهفاً على ذلك ، ففي « السينما » كان يوسع أن يحلم دون جهد ، كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يستند بظهره الى المقعد .. ويظل فاتحاً عينيه .

وتذكر « جس » و « ج . هـ » و « جاك » . هل يتوجه الى « صالة البلياردو » ويتحدث معهم ؟ ولكن لم تكن هناك فائدة من وراء ذهابه الا اذا كان في نيتهم أن ينقذوا ما دبروه من قبل . فاذا كان يوسعهم أن يفعلوا ذلك فان ذلك يعني نقوداً سريعة مؤكدة . فمن الساعة الثالثة

حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر لم يكن هناك شرطى واحد فى الخدمة على المبنى الذى يقع فيه متجر « بلوم » . وكل شيء اذن آمن . . . ويستطيع واحد منهم أن يهدد « بلوم » بمسدسه ويمنعه عن الاستغاثة . ويستطيع آخر أن يراقب الباب الأمامى على حين يراقب ثالث الباب الخلفى . . . فى الوقت الذى يأخذ فيه الرابع النقود من الصندوق أسفل البنك ويستطيع الأربعة بعد ذلك أن يحبسوا « بلوم » فى المتجر ويهربوا من الباب الخلفى ليقتربوا ثم يتجمعوا بعد ذلك بساعة فى « صالة البلياردو » أو فى نادى شباب « الحى الجنوبى » لكى يقتسموا النقود فيما بينهم .

ان عملية سرقة متجر « بلوم » لا ينبغي أن تستغرق أكثر من دقيقتين على الأكثر . . . وينبغي كذلك أن تكون آخر عمل يقومون به . . . فهى أكبر من أى عمل آخر قاموا به من قبل . كل ما كانوا ينفذونه قبل ذلك من عمليات هو أن يسطوا على « أكشاك » الصحف أو محال الفاكهة أو المنازل . وفى كل هذه العمليات لم يكونوا يجرون على سرقة رجل أبيض . لقد كانوا دائما يسرقون الزنوج . فقد كانوا يشعرون بأنه من الأسهل أن يسرقوا قومهم ، لأنهم كانوا يعلمون أن رجال « البوليس » البيض لا يبحثون جددا عن الزنوج الذين يرتكبون جرائم ضد أقرانهم الزنوج . ومنذ شهور وهم يبحثون عن عملية سرقة محل « بلوم » ولكنهم لم يجروا بعد على تنفيذ هذه العملية . لقد أحسوا بأن عملية كهذه سوف تكون خرقا رهيبا لأقدس المحرمات . سوف تكون انتهاكا لمنطقة يمكن أن يرتد عليهم فيها عالم البيض كله . لأنها ستكون تحديا رمزيا لحكم عالم البيض المسيطر عليهم ، تحديا يحلمون به ولكنهم يخشونه بنفس القدر . نعم ، اذا استطاعوا أن يسرقوا محل « بلوم » فلسوف يكون هذا العمل ضربة قوية ، كل ما سبقه من أعمال يعتبر لهوا بالقياس اليه .

— الى اللقاء يا بيجر . .

والنفث « بيجر » فرأى « فيرا » تمر الى جواره وقد تدلت من ذراعها حقيبة أدوات الحياكة ، وتوقفت قليلا عند الناصية ثم عادت اليه :

— والآن . . ماذا تريدین ؟

— بيجر . . أرجوك . . ان أمامك فرصة لوظيفة طيبة . فلماذا لا تبتعد عن « جاك » و « جس » و « جـ هـ » وتبتعد بذلك عن المتاعب .

- ليس هذا شأنك .. اهتمى بأمورك أنت فحسب .

- ولكن يا بيجر ..

- اذهبي الى مدرستك .. هيا .

واستدارت .. وتابعت سيرها ، وعرف هو أن أمه تحدثت بشأنه مع « فيرا » و « بدى » وأخبرتهما أنه اذا انغمس فى مزيد من المتاعب فسوف ينتهى به الأمر الى السجن وليس الى مجرد مدرسة للأحداث كما حدث بالنسبة له آخر مرة . ولم يكن ليهتم بما تقوله أمه لشقيقه « بدى » فهو مثله صلب المراس . أما « فيرا » فقد كانت رقيقة تصدق كل مايقال لها .

وسار متجها الى «صالة البلياردو» ، وعندما دلف من باب الصالة رأى « جس » غير بعيد يتجه نحوه . فتوقف وانتظر . لقد كان « جس » هو أول من فكر فى سرقة محل « بلوم » .

- « هالو » بيجر .

- ماذا تقول يا جس ؟

- لا شيء .. هل رأيت ج . هـ وجاك ؟

- لا .. وأنت ؟

- أنا أيضا لم أرهما .. هل معك سجائر .. ؟

- نعم .

وأخرج « بيجر » علبة السجائر لكي يقدم سيجارة لصديقه «جس» ، وأشعل لنفسه سيجارة ومد يده بعود الثقاب نحو « جس » على حين استند الاثنان بظهريهما الى حائط المبنى . وهما يدخان وينفثان دخان السيجارتين حول ذقنيهما الأسودين . وفى الشرق رأى « بيجر » الشمس صفراء محرقة . وفى السماء بضع سحبات بيضاء كثيفة متفرقة . وأخذ ينفث دخان سيجارته فى صمت واسترخاء وليس فى ذهنه أمر معين . وكانت كل حركة فى الشارع - ولو ضئيلة - تثير فى أعماقه انتباها وقتيا . فكانت عيناه تتبعان بحركة آلية كل سيارة تنساب على الأرض الناعمة . ومرت بحذاءه امرأة . فأخذ يراقب مشيتها المتهاوية حتى اختفت داخل أحد الأبنية . وتنهد . وحك ذقنه وقال :

- الجو دافئ اليوم .

- نعم .
- حرارة الشمس أشد وطأة من أجهزة التدفئة القديمة في البيت .
- نعم . . فهؤلاء الملاك البيض حريصون على ألا يوفرنا لنا الدفء .
- بينما هم يطرقون بابك دائما في طلب النقود !
- سوف أكون سعيدا عندما يقدم الصيف .
- وأنا أيضا . .

ومد ذراعيه ورفعهما فوق رأسه وهو يتمطى ، وقد تندت عيناه ،
وذاب عالم الصلب والحجارة في موجات معتمة . . ثم رمشت عيناه .
وعاد العالم أمام ناظريه واضحا صلبا آليا . . وأثارت انتباهه حركة في
السما فرفع بصره الى أعلى فرأى خيوطا من الدخان الأبيض في صفحة
السما الزرقاء . . كانت هناك طائرة تكتب شيئا في الجو . . وقال ييجر :

- انظر .
- ماذا ؟
- هذه الطائرة التي تكتب شيئا ما في السما . .
- وأشار الى الطائرة فقال « جس » :
- أوه . .

وتطلع الاثنان الى خيط رفيع من الدخان بدأ يكتب : « استخدم »
. . وكانت الطائرة بعيدة بما يكفى أن يخفيها عن البصر توهج أشعة
الشمس بضع لحظات .

- وقال « جس » :
- رؤيتها صعبة .
- انها تشبه الطائر الصغير .
- هؤلاء البيض يستطيعون الطيران حقا .
- وقال « ييجر » وكأنه يحلم :
- نعم . . لديهم الفرصة لأن يفعلوا أى شيء .
- ودون ما صوت ، كانت الطائرة تلف وتدور . . تختفى وتظهر ،
مخلقة وراءها خيوط الدخان الأبيض مثل حلقات معجون يخرج مضغوطا

من أنبوبة ، حلقات تكبر وتتضخم ثم ما تلبث أن تختفى فى بطء فى الهواء ٠٠ وكانت الطائرة قد كتبت كلمة أخرى « جازولين ٠٠ » وتساءل بيجر :

– ترى كم ترتفع هذه الطائرة عن الأرض ؟

– لا أدري ، ربما مائة ميل ٠٠ وربما ألف ٠

وقال « بيجر » فى انفعال وكأنه يحدث نفسه :

– أستطيع أن أطيّر بواحدة من هذه الطائرات إذا أتيحت لى الفرصة :

ومط « جس » شفتيه وخطا بعيدا عن الحائط وهو يشد صدره ويرفع عن رأسه قبعته وينحن كثيرا ويقول فى لهجة ساخرة :

– تماما ٠

وقال « بيجر » مبتسما :

– اذهب الى الجحيم ٠

وقال « جس » بنفس اللهجة :

– أمركم !

– أستطيع فعلا أن أطيّر لو أوتيت الفرصة ٠

– لو لم تكن أسود ولو كان عندك نقود ولو أنهم سمحوا لك بالالتحاق بمدرسة الطيران لاستطعت فعلا أن تقود طائرة ٠

وأعمل « بيجر » فكره فى كل « لو » ذكرها صديقه « جس » ، ثم ما لبث الاثنان أن انفجرا ضاحكين وكلاهما ينظر الى الآخر ٠٠ وعندما خفتت ضحكاتهما قال « بيجر » فى أسلوب نصفه تقرير ونصفه تساؤل :

– انه لأمر مضحك حقا هذه المعاملة التى نلقاها من البيض ٠

– الأفضل أن تكون مضحكة ٠

– ربما كانوا محقين فى منعنا من الطيران ٠٠ لأننى لو أخذت طائرة لزودتها بقبيلتين وأسقطتهما فوقهم كالجحيم ٠

وضحك الاثنان مرة أخرى وهما لا يزالان يتطلعان الى السماء ..
وكانت الطائرة قد كتبت كلمة ثالثة : « السرعة .. »

وقال « بيجر » مرددا ببطء العبارة التى كتبتها الطائرة « استخدم
جازولين السرعة » .. ثم عاد يقول : « يا الهى .. انى لأحب حقاً أن
أطير عالياً فى هذه الطائرة .. »

وقال جس : « سوف يدعك الله تطير عندما يمنحك جناحين
تصعد بهما الى السماء .. »

وعادا يضحكان مرة أخرى وهما يستندان الى الحائط ويدخان
وهما يرمشان فى مواجهة الشمس على حين السيارات تحدث أصواتها
وهى تمرق على أرض الشارع . وبدأ وجه « بيجر » أسود جامدا تحت
أشعة الشمس المحرقة . وبدت فى عينيه متعة يقشاهها تأمل حزين مثلما
يحدث لرجل يواجهه ويمضه سؤال محير يبدو جوابه دائما بعيدا عنه
ولكنه برغم ذلك يدفعه الى أن يبحث عن حل له . وضايق الصمت
« بيجر » ، لقد كان تواقا الى أن يفعل شيئا يتفادى به النظر فى صراحة
الى هذه المشكلة .. فقال بشير الى لعبة يقلد فيها البيض هو وأصدقؤه:
« هيا نلعب لعبة الأبيض » .

فقال « جس » :
- لست أرغب فى اللعب .

وصاح « بيجر » فى لهجة جادة وهو ينظر الى « جس » مترقبا :
- سيدى الجنرال .

- أوه .. يا للجحيم .. لست أرغب فى اللعب .

فقال « بيجر » وهو يضيف على كلماته لهجة عسكرية :

- لسوف تحاكم عسكريا .

وضحك « جس » وهو يقول :

- أيها الزنجى النفاية .

وحاول « بيجر » مرة أخرى .. فقال فى تصميم : « جنرال » .

ونظر « جس » الى « بيجر » فى ضيق .. ثم مالبت أن شد قامته
ورد التحية وأجاب :

- أمرك يا سيدى .

فقال بيجر بلهجة أمرة :

- ابعث برجالك عبر النهر فى الفجر وهاجم جناح العدو الأيسر .

- أمرك يا سيدى .

- وابعث بالكتيبة الخامسة والسادسة والسابعة وهاجم بالدبابات والطائرات والمشاة .

- أمرك يا سيدى .

قالها « جس » وهو يحيى التحية العسكرية ويدق كعبي حذائه وساد الصمت لحظات وأحدهما يواجه الآخر وقد شد كلاهما قامته وزم شفتيه ليكتم الضحك . ثم مالئ الاثنان أن انفجرا فى الضحك .. الضحك من أنفسهما والضحك من العالم الأبيض الذى يمتد ويرتفع فى أشعة الشمس أمامهما .

وتساءل « جس » :

- قل لى ، ماهو الجناح الأيسر ؟

- لا أدرى . هكذا سمعتها فى « الأفلام » ..

وضحك الاثنان مرة ثانية .. ثم سكتا واستندتا الى الحائط وهما يمدخان . ورأى « بيجر » أن « جس » يضع راحة يده اليسرى فوق أذنه كما لو كان يمسك بسماعة « تليفون » . ويفعل نفس الشيء براحة يده اليمنى التى يضعها بالقرب من فمه كما لو كان يتحدث فى السماعة .. وقال « جس » :

- ألو ..

- ألو .. من المتكلم ؟

- أنا المستر « ج.ب. مورجان » .

وقال « بيجر » وقد بدت فى عينيه علائم الاحترام الساخر :

- أمرك يا سيدى المستر « ج.ب. مورجان » ..

- أريد منك أن تشتري لى عشرين ألف سهم من أسهم شركة صلب

الولايات المتحدة هذا الصباح .

- بأى سعر يا سيدى ؟

- أوه .. لا يهم ، .. أى سعر .

ثم أردف يقول بضيق مفتعل : « لدينا الكثير » .

- أمرك يا سيدى

- واتصل بى فى النادى فى الثانية بعد ظهر اليوم وقل لى ٠٠ اذا كان « الرئيس » قد طلبنى ٠٠

- أمرك ياسيدى المستر مورجان ٠٠

وتظاهر كل منهما بأنه يضع سماعة التليفون ، ثم انحنى كل منهما مرتين وهو يضحك وقال «جس» :

- أراهنك على أن هذا هو أسلوبهم •

- وأنا أصدقك ٠٠

وساد الصمت مرة أخرى ، ومرة أخرى أيضا رفع «بيجر» يده اى فمه ليتكلم من خلال سماعة تليفون وهمية :

- ألو

وأجاب « جس » :

- ألو ٠٠ من المتكلم ؟

- أنا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية •
- أوه ٠٠ أمرك ياسيدى الرئيس ٠٠

- لقد دعوت الى اجتماع لمجلس الوزراء فى الرابعة بعد ظهر اليوم ،
وعليك أن تكون حاضرا باعتبارك وزيرا للدولة •

- ولكن يا سيدى الرئيس ٠٠ اننى مشغول جدا ، انهم يشيرون
المتاعب هناك فى ألمانيا وعلى أن أرسل اليهم مذكرة •

- ولكن الأمر هام •

- ولكن ما الذى ستبحثه فى هذا الاجتماع ؟

- آه ٠٠ أنت ترى أن السود يشيرون المتاعب هنا فى البلد كلها •

ثم قال وهو يجاهد فى ضحكة يكتمها : « وينبغى أن نفعل شيئا
لمواجهة هؤلاء السود • »

- أوه ٠٠ اذا كان الأمر يتعلق بالسود فسوف أحضر يا سيدى

الرئيس •

ومرة أخرى وضع الاثنان السماعتين الوهميتين وأغرقا فى الضحك

٠٠ ووقفت سيارة بانقرب منهما وتنهده « بيجر » وصاح بحقق :

— ماذا حدث ؟

— انهم لا يدعوننا نفعل شيئا ..

— من ؟

— البيض .

— انك تتحدث كما لو كنت قد اكتشفت ذلك الآن فحسب .

— كلا ولكنى أدركت الآن فحسب أننى لا يمكن أن أصبر على ذلك ،

وأقسم أننى لا أستطيع .

أنا أعلم أنه لا ينبغي أن أفكر فى هذا الموضوع ، ولكننى لا أملك ذلك . وكلما فكرت فى ذلك أحسست كما لو أن أحدا يلقي داخل حلقي حديدا أحمر مصهورا .. الملاعين .. انظر : نحن نعيش هنا وهم يعيشون هناك . نحن سود وهم بيض .. هم يملكون ونحن لا نملك ، هم يفعلون ما يشاءون ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا . ان هذا أشبه ما يكون بالحياة داخل سجن . اننى أحس نصف الوقت كما لو كنت أعيش خارج العالم ولا أفعل أكثر من أن استرق النظر من خلال فرجة ضيقة فى الجدار ..

— أوه .. لا فائدة ترجى من شعورك هذا .. اننى لا أحتمل التفكير

بهذه الصورة .

— هل تعلم ؟

— ماذا ؟

وقال « بيجر » فى اعتزاز تشوبه المرارة :

— أحيانا أحس .. كما لو أن شيئا مروعا سوف يحدث لى

وسأله « جس » وهو ينظر اليه بسرعة وقد بدا الخوف فى عينيه :

— ماذا تعنى ؟

— لست أدرى : مجرد احساس بذلك .. فى كل مرة أفكر فى أننى

خلقت أسود وأنهم خلقوا من البيض ، وأننى هنا وأنهم هناك ، أحس ..

كما لو أن هناك شيئا فظيعا سوف يحدث لى .

— أوه .. بحق المسيح .. ليس هناك ما يمكن أن تفعله فى هذا

الصدد . فلماذا تقلق نفسك ؟ أنت أسود .. وهم الذين يضـعون

القوانين .

– لماذا يجعلوننا نعيش فى ركن من أركان المدينة ؟ لماذا لا يدعونا نقود الطائرات والسفن ؟

وضرب « جس » صديقه « بيجر » بيده على مؤخرته وقال فى طيبة :
– آه .. يازنجى ، دعك من التفكير فى هذا الأمر .. والا فقد
تجن .

كانت الطائرة قد اختفت من السماء مخلفة وراءها دخانها الذى بدأ يتبعثر ويتفرق .. ثم يختفى .. ورفع « بيجر » يده الى أعلى وهو يشن ضجرا وقال يشكو :

– لا شىء أبدا يحدث .

– وماذا تريد أن يحدث ؟

– أى شىء .

قالها وهو يطوح براحة يده بأسلوب يشير الى كل النشاطات الممكنة فى الدنيا .

ثم أدارا بصرفهما الى حمامة ملونة حطت بين السيارات الواقفة ومضت تقفز هنا وهناك وقد اشرب عنقهـا فى تيه . وتحركت إحدى السيارات فارتفعت الحمامة فى سرعة تمزق فى الهواء بجناحيها فى قوة واندفاع .. واستطاع « بيجر » أن يرى أشعة الشمس الذهبية من خلال أطراف جناحيها . وثبت « بيجر » نظره الى الحمامة الملونة التى حومت قليلا ثم حطت على حافة سطح مرتفع .. وقال :

– لو كان فى مقدورى أن أفعل مثل هذا .

وضحك « جس » وقال :

– أيها الأسود .. أنت تخرف .

– اننى واثق من أننا نحن « الأشياء » الوحيدة فى هذه المدينة التى لا تستطيع أن تذهب الى حيث تشاء .. أو تفعل ما تريد .

– لا تفكر فى هذه الأمور .

– لا أستطيع أن أكف عن التفكير فيها .

– وهذا هو السبب فى أنك تشعر كما لو كان هناك شىء مروع سيحدث ذلك ..

– انك تفكر كثيرا .

واستندار « بيجر » الى « جس » وهو يقول :

- بحق الجحيم ، ماذا يستطيع المرء أن يفعل ؟

- تشرب حتى تغيب عن الوعي .. ثم تنام .

- لا أستطيع .. فأنا مفلس

وسحق « بيجر » بقايا سيجارته وأخذ واحدة أخرى ثم ناول «جس»
العلبة وعادوا الاثنان التدخين . ومرت سيارة ضخمة تلقى قصاصات من
الورق الأبيض تحت أشعة الشمس .. وكانت القصاصات تستقر على
الأرض ببطء ..

- جس ؟

- هه ؟

- هل تعلم أين يعيش البيض ؟

وأشار «جس» فى اتجاه الشرق وقال :

- نعم .. عبر « الخط » ، هناك فى طريق « كوتيج جروف » .

- لا .. ليس كذلك .

وتساءل «جس» فى حيرة : « ماذا تعنى ؟ فأين يعيشون اذن ؟ »

وضم «بيجر» راحتي يديه وضرب بهما بطنه وقال :

- هنا .. هنا فى معدتي تماما .

ونظر « جس » الى « بيجر » فى تساؤل ، ثم أدار بصره بعيدا
وكأنما يفعل ذلك من الحجل ، ثم قال هامسا :

- نعم .. أنا أعرف ماذا تقصد .

- عندما أفكر فيهم . أشعر بهم هنا ..

- نعم ، وفى صدرك وحلقك أيضا .

- كالنار .

- .. وكشيء لا تستطيع أن تتنفسه .

واتسعت عينا « بيجر » تحدق الى الفراغ .. ثم قال :

- هذا عندما أحس بأن شيئا مروعا سوف يحدث لى .

ثم صمت قليلا . وضأقت عيناه .. وأردف يقول :

- كلا .. ليس الأمر كما لو أن شيئا سيحدث لي .. بل .. كما لو كنت مقدما على شيء لا قبل لي به .

وقال « جس » فى لهفة وشغف « نعم » وبدأت فى عينيه نظرة الى « بيجر » . نظرة هى مزيج من الخوف والاعجاب ، ثم قال :

- نعم .. أنا أعرف ماذا تقصد . الأمر أشبه ما يكون بأنك تحسن .. كما لو كنت ستسقط .. ولكنك لا تدري الى أين ستستقر .

وضأعت كلمات « جس » ، واختفت الشمس خلف سحابة بيضاء ضخمة وغمر الشارع ظل بارد ، وسرعان ما ظهرت الشمس من جديد .. وعاد الدفء . ومرقت بهذاثما سيارة سوداء طويلة وهى تبرق مثلما يبرق الزجاج تحت أشعة الشمس . ثم انحرفت عند منحنى غير بعيد .. وانفجرت شفتا « بيجر » وهو يغنى :

--- زوووووووم

- انهم يملكون كل شيء .
- انهم يملكون الدنيا بأسرها .

- .. يالجهنم .. هيا بنا الى « صالة البلياردو » .
- .. هيا ..

واتجه الاثنان نحو « الصالة » .. وتساءل « جس » :
- قل لي .. هل ستقبل العمل الذى حدثتنا عنه ؟
- لست أدري .

- انك تتحدث كما لو لم تكن راغبا فيه .
- بالعكس . اننى راغب فيه .

وتبادل الاثنان النظر وهما يضحكان ثم دلفا من باب الصالة التى كانت خالية الا من رجل أسود سمين يضع فى شفثيه سيجارا مطفا قد دخن نصفه من قبل وينحنى الى « البنك » .. وصاح « بيجر » :
- هيه .. « دوك » !

- لقد حضرتما مبكرين .
وسأله « بيجر » :

– أَلَمْ يحضر «جاءك» أو «ج.ه.» بعد ؟

– نعم

وقال «جس» :

– هيا نلعب دورا .

وقال «بيجر» :

– اننى مفلس

– لدى بعض النقود

وقال «دوك»

– أضيئا النور . فالكرات مبعثرة .

وأضاء «بيجر» النور . وكسب الرمية الأولى ثم بدأ الاثنان اللعب

ولكن «بيجر» لم يكن موفقا فقد كان ذهنه مشغولا بسرقة محل «بلوم» .

وكان خائفا بعض الشيء . وما لبث أن تساءل فى نبرة لا تنم عن انفعال

معين :

– هل تذكر ما تحدثنا بخصوصه كثيرا ؟
– لا .

– «بلوم»

– أوه . لقد تحدثنا فى هذا الشأن شهرا كاملا . فلماذا تذكرته

فجأة ؟

– فلنسرقه

– لست أدري !

– لقد كانت فكرتك منذ البداية .

وشد «جس» قامته ونظر الى «بيجر» ثم الى «دوك» الذى كان

يتطلع من النافذة وقال :

– هل تريد أن يسمعك «دوك» ؟ ألا تستطيع أبدا أن تتعلم كيف

تتحدث بصوت منخفض ؟

– أوه . كان مجرد سؤال . هل تريد أن نجرب ؟

– لا .

– لماذا ؟ هل أنت خائف لأنه رجل أبيض ؟

— لا ٠٠ ولكن « بلوم » يحتفظ دائما بمسدس ٠ ماذا يحدث لو أنه استخدمه معنا ؟

— أوه ٠٠ كل ما فى الأمر أنك خائف ٠٠ انه رجل أبيض وأنت خائف

وصاح « جس » يدافع عن نفسه بحماس
— لست خائفا ٠

واتجه « بيجر » نحو « جس » وأحاط كتفيه بذراعه وقال :

— اسمع ٠٠ تستطيع ألا تدخل ، ما عليك الا أن تقف عند الباب للمراقبة ٠٠ وأنا و « جاك » و « ج ٠ هـ » ندخل ، فاذا اقترب شخص فما عليك الا أن تصفر بفمك فنخرج نحن من الناحية الخلفية ٠ هذا كل ما فى الأمر ٠

وفتح الباب الأمامى ؛ فتوقف الاثنان عن الحديث وأدارا رأسيهما ٠٠
ثم صاح « بيجر » :

— هاقد حضر « جاك » و « ج ٠ هـ »
واتجه جاك و « ج ٠ هـ » نحو مؤخرة « الصالة » ٠ على حين قال « جاك » :

ماذا تفعلان ؟

وقال « بيجر » :

— نلعب ٠٠ هل تريد أن تشاركنا ؟

وقال « جس »

— أنت تطلب منهما أن يلعبا ٠٠ وأنا أدفع !

وضحك الجميع ٠٠ وضحك « بيجر » معهم ولكنه توقف عن الضحك بسرعة ٠ فقد أحس بأن « النكتة » تعنيه هو ٠٠ ثم انتحى بمقعده الى الحائط وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا ٠٠ على حين استمر « جاك » و « ج ٠ هـ » يضحكان ٠ وصاح « بيجر » :

— أنتم السود مخابيل ، تضحكون كالقروذ على حين لا تحتمل أعصابكم أكثر من مجرد الكلام ٠٠

وسأله « ج ٠ هـ » :

— ماذا تعنى ؟

عندى عمل جاهز تماما

— أى عمل ؟

— محل « بلوم » العجوز .

وساد الصمت . . وأشعل جاك سيجارة ونظر « جس » بعيدا كأنما يتجنب المناقشة .

— لو كان « بلوم » العجوز رجلا أسود لكنتم الآن تتحرقون شوقا الى الذهب . . ولكنه أبيض ؛ ولهذا فأنتم مذعورون .

وقال « جاك » .

— أنا لست خائفا . . أنا معك . .

وتساءل « ج . ه » .

— تقول ان كل شئ جاهز ؟

وتنهذ « بيجر » بعمق ونقل بصره من وجه الى آخر ، وبدأ له كما لو أنه ليس مجبرا على الشرح والتفسير . . ولكنه ما لبث أن قال :

— اسمعوا . . الأمر كله سهل . ليس فى الأمر ما يمكن أن نخشاه فيما بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة لا يكون هناك أحد فى المحل سوى الرجل العجوز . ورجل الشرطة يكون فى الطرف الآخر من المبنى بعيدا عن المحل . سيبقى أحدهما فى الخارج للمراقبة على حين يدخل الثلاثة الباقون . . تمام ؟! أحدهما سوف يهدد « بلوم » بمسدسه على حين يتجه الثانى الى صندوق النقود أسفل « البنك » ، أما الثالث فسوف يتجه الى الباب الخلفى ليفتحه حتى يكون فى وسعنا أن نخرج بسرعة . . هذا كل ما فى الأمر . . لن تستغرق الحكاية كلها أكثر من ثلاث دقائق .

وقال « ج . ه » :

— حسبت أننا قلنا من قبل اننا لن نستخدم مسدسا ، كما أننا لن نفعل مثل هذا مع أحد من البيض من قبل . .

وقال « بيجر » :

— ألا ترى أن الأمر هذه المرة كبير .

ثم سكت ينتظر اعتراضات أخرى . وعندما لم يجد اعتراضا آخر تابع حديثه :

- نستطيع أن نفعل ذلك اذا لم تكونوا خائفين يا سود ..

وساد الصمت الا من صغير « دوك » الذى كان يتطلع من النافذة .
وأخذ « بيجر » يراقب « جاك » عن كثب ؛ فقد كان يعرف أن الأمر كله متوقف على كلمة « جاك » الأخيرة . وكان « بيجر » يخشى « جس » لأنه كان يعلم تماما أن « جس » لن يرفض اذا ما قبل « جاك » . وجلس « جاك » الى المائدة يلعب بعصا صغيرة وقد استقرت عيناه فى تكاسل على كرات البلياردو المبعثرة فوق المائدة فى شكل مباراة لم تتم . ونهض « بيجر » وطوح الكرات براحة يده فتدحرجت على المائدة يخبط بعضها بعضا .. ثم نظر الى « جس » . وبالرغم من أن « بيجر » كان قد سأل « جس » أن يشاركه فى « عملية » السرقة ؛ فان الخوف من أن يقبل « جس » الدخول فى « العملية » جعل عضلات بطن « بيجر » تتوتر وتتقلص ، وأحس لحظتها بأن جسمه قد أصبح ساخنا وبأنه يريد أن يعطس فلا يقدر ، لقد كانت أعصابه متوترة .. وأحس بأن حرارته ترتفع وبأن أعصابه تتوتر أكثر وأكثر وبأن أسنانه تصطك .. وبأن شيئاً ما لا يلبث أن ينفجر داخله . فما لبث أن صاح :

- ياللعنة .. قولوا شيئاً .. ليقل أحدكم شيئاً

وقال جاك :

- أنا معك

- وقال « ج . ه » .

- سوف أذهب اذا ذهب الباقون .

ووقف « جس » دون أن يتكلم وأحس « بيجر » بشيء مبهم غريب - نصفه نتيجة مجرد الاحساس .. ونصفه الآخر نتيجة التفكير . لقد كان موزعا .. مشدودا ضد ذاته . لقد دبر كل شيء على ما يرام . ولم يبق سوى « جس » . كان هناك ثلاثة ضد « جس » وكان هذا هو ما أراده بالضبط . لقد كان « بيجر » يخشى أن يقدم على سرقة رجل أبيض ، وكان يعرف تماما أن « جس » يخشى ذلك مثله . لقد كان محل « بلوم » صغيرا .. و « بلوم » نفسه يظل وحده فى المحل فى هذه الفترة ولكن « بيجر » لم يجزؤ على التفكير فى سرقة دون أن يكون مؤيدا من زملائه الثلاثة . ولكنه لا يزال خائفا حتى مع مشاركة زملائه هؤلاء .. لقد أقنعهم ماعدا واحدا بمشاركته فى « العملية » ، وكان يشعر ازاء الرجل موضوع « العملية » بالكراهية ممزوجة بالخوف .. ومن ثم

نقل احساسه بالخوف من البيض نحو « جس » • لقد كره « جس » لأنه كان يعلم أن « جس » خائف مذعور تماما كما أنه هو أيضا خائف مثله ، كذلك فقد كان يخشى « جس » لأنه كان يعرف أنه سيقبل المشاركة في « العملية » مضطرا وظل يتطلع الى « جس » وهو ينتظر موافقته • • ظل يتطلع اليه باحساس الرجل المقبل على الانتحار الذي يخاف أن يطلق على نفسه الرصاص في الوقت الذي يدرك فيه أنه لابد من أن يفعل ذلك • • ويحس بكل ذلك بقوة وفي نفس الوقت • ولكن « جس » لم يتكلم • وضغط « بيجر » فكيه بشدة ألتتهما • واتجه نحو « جس » ونظر اليه وهو يحس بوجوده يغمر جسده كله • • ويكرهه ويكره نفسه من أجل احساسه هذا • ثم لم يستطع أن يصبر أكثر من ذلك ، فقد دفعته « هستيرية » توتر أعصابه الى أن يتكلم حتى يحرر نفسه • واجه « جس » وعيناه محمرتان من الغضب والخوف وقبضتاه مضمومتان في حدة الى جنبه وقال في صوت لم تتغير نبرته :

يا أسود يابن اللبؤة • • أنت خائف لأنه رجل أبيض •

وقال « جس » بهدوء :
- لا تشتمنى يا « بيجر »

- ولكننى سأشتمك • •
- ليس لك أن تشتمنى

وسأله « بيجر » :

- إذن فلماذا لا تستخدم لسانك الأسود ؟ لماذا لا تقول لنا ماذا ستفعل ؟

- ليس هناك ما يجبرنى على استخدام لسانى ما لم أرد ذلك •

- يابن الحرام • • يابن الحرام يامذعور •

- أنت لست رئيسى أو سيدى

- يا أصفر • • أنت خائف من سرقة رجل أبيض •

وقال « ج • ه » :

- أوه يا « بيجر » • • لا تقل ذلك ، دعه وشأنه •

- انه أصفر • • انه لا يريد أن يذهب معنا •

- أنا لم أقل اننى لا أريد أن أذهب •

فصاح بيجر :

- اذن فبحق المسيح قل انك ستفعل .

واستند « جس » على العصا وظل يحدق الى « بيجر » .. على حين توترت عضلات بطن بيجر كما لو كان يتوقع ضربة توجه اليها فهو يستعد لها . وشد قبضتيه أكثر وأكثر . وتصور للحظة كيف يكون وقع ضربة يوجهها الى فم « جس » ليسيل دمه . سوف يسقط « جس » على اثر ضربته ثم يخرج وينتهى التفكير فى حكاية السرقة . ولقد تسبب هذا الاحساس فى أن يصعد التوتر من بطنه الى حلقه . وبدأ « جس » يتكلم فى لهجة تتأرجح ما بين العطف والكرامة :

- اسمع يا « بيجر » .. انك أنت سبب كل المشاكل التى صادفتنا من قبل .. هذا بسبب حدثك . والآن قل لى .. لماذا تشتمنى؟ أليس لى الحق فى أن أفكر بطريقتى ؟ ولكن لا .. هذا ليس أسلوبك أنت تبدأ بالشتيم . أنت تقول اننى خائف ، ولكن الخائف هو أنت .. أنت خائف من أن أقول نعم فتضطر عندئذ الى أن تنفذ « العملية » : وأحس « بيجر » بجرح عميق فى كرامته .. فقال بسرعة :

- قل هذا مرة ثانية .. قل مرة ثانية وسوف أحطم فمك اللعين بأحدى هذه الكرات ..

وقال « جاك » مهدئا .. :

- بحق المسيح اسكتوا ..

وقال « جس »

- أنت نفسك ترى ما به !

وتساءل « بيجر » :

- لماذا لا تقول انك موافق ؟

- حسن .. سوف أذهب معكم جميعا ..

قالها « جس » فى نبرة عصبية حاولت أن تخفى نفسها ؛ نبرة سبقت غيرها .. ثم أكمل يقول :

- سوف أذهب ، ولكن ليس من حق « بيجر » أن يتصرف هكذا .
ليس من حقه أن يشتمنى .

وقال « بيجر » وقد ارتفع غضبه الى درجة الحمى :

— لماذا لم تقل هذا منذ البداية .. انك تجعل المرء متلهفا على ضربك .. وتابع « جس » كلامه كما لو لم يكن « بيجر » قد قال شيئا :

— .. وسوف أتولى العمل الموكول الى .. سوف أساعد كما فعلت دائما ، ولكنى سأكون ملعوناً اذا تلقيت أوامر منك أنت يا بيجر .. أنت لست أكثر من جبان مذعور . أنت تقول اننى جبان حتى لا يرى أحد مبلغ ذعرك أنت .

وقفز « بيجر » نحوه ، ولكن « جاك » وقف يحول بينهما على حين أمسك « ج . هـ » بذراع « جس » وأخذه معه جانبا . وقال « بيجر » :

— ومن الذى طلب منك أن تتلقى الأوامر ؟ اننى لا أحب أبدا أن أصدر الأوامر الى تافه مثلك .

وصاح « دوك » من بعيد :

— يا أولاد كفوا عن هذا .

ووقف الأربعة صامتين حول مائدة « البلياردو » و « بيجر » يتطلع نحو « جس » الذى كان يضع العصا جانبا وينفض الطباشير عن سرواله ويبتعد عنهم قليلا . وأحس « بيجر » بأن بطنه يحترق وبأن سحابة سوداء تحجب عن عينيه الرؤية لحظات . ثم غادر المكان وتتابعت في ذهنه صور مختلطة من صور العنف جافة متلاحقة ، ثم اختفت بسرعة . ان فى مقدوره أن يظن « جس » « بمطواته » ؛ نعم .. يستطيع أن يفعل ذلك ، ويستطيع أن يركله ، ويستطيع أن يضربه ويطيح به الى الأرض منكفئا على وجهه . يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة بزميله « جس » الذى جعله يحس بهذا الاحساس .

وقال « جس » :

— هيا بنا يا « ج . هـ » .

— الى أين ؟

— نسير ..

— حسن .

وتساءل « جاك » :

— ماذا سنفعل ؟ هل نتقابل هنا فى الساعة الثالثة ؟

وقال « بيجر » :

— بالطبع .. ألم نقرر ذلك من لحظات ؟

وقال « جس » وهو يدير ظهره :

— سوف أكون هنا فى الثالثة •

وعندما اختفى « جس » و « ج • ه » ؛ جلس « بيجر » وقد أحس بالعرق البارد يغمر جسده •• لقد انتهى كل شيء ، وعليه الآن أن يأخذ نصيبه فى العملية •• واصطكت أسنانه وظل يسترجع صورة « جس » وهو يختفى خارجا من باب « الصالة » • لقد كان بمقدوره أن يتناول عصا من عصى البلياردو ويهوى بها على رأس « جس » حتى يشعر بها تحطم عظام فروة رأسه •• ولقد ظل « بيجر » تحت وطأة تلك الرغبة وهو يعلم أنه لن ينقذه منها سوى أن تتم « العملية » بالفعل •• أن يقتحموا المخزن ويسرقوا النقود • وسمع « جاك » يقول وهو يهز رأسه :

— يبدو أنك و « جس » لستما على وفاق اليوم •

وأدار « بيجر » رأسه ونظر الى « جاك » • لقد كاد ينسى انه لايزال

موجودا « بالصالة » •• ثم قال :

— آه •• هذا الأسود الصفراوى ابن الحرام •

— « جس » لا بأس به

— انه مذعور جبان • انك لكى تجعله مستعدا للقيام بعمل ما

ينبغى أن تخيفه بطريقة خاصة •• عليك أن تجعله يخاف مما يحدث له

إذا لم يقم بهذا العمل أكثر من خوفه مما يحدث إذا قام به بالفعل •

— إذا كنا سنذهب اليوم « بلوم » ينبغى ألا نتشاحن هكذا ••

لقد وجدنا عملا بين أيدينا نقوم به •• عملا حقيقيا •

— معك حق •• معك حق ، أنا أعرف ذلك ••

وأحس « بيجر » بحاجة ملحة الى أن يخفى مشاعر « الهستيريا »

العميقة النامية فى أعماقه والى أن يتخلص منها قبل أن يستسلم لها ،

وشعر أيضا بحاجته الى دافع قوى يكفيه لأن يركز انتباهه ويبقى على

حيويته • لقد أحس لحظتها •• كما لو كان يريد أن يهرب ، أو أن

يستمتع الى شيء من موسيقى « السوينج » أو أن يضحك أو يتبادل النكات

أو أن يقرأ قصة بوليسية ، أو أن يذهب الى « السينما » ، أو أن يزور

صديقه « بيسى » • لقد ظل طوال الصباح محتجبا خلف ستار من

الفتور واللامبالاة وهو ينظر الى الأشياء ويتطلع الى أى شىء يمكن أن يخرج من خلف هذا الستار . ولقد خرج الآن بالفعل ؛ ان التفكير فى « العملية » والمشاحنة التى كانت بينه وبين « جس » قد دفعت به الى صميم الأمور : واختفى من ثم كل أثر للثقة بالنفس . هذه الثقة التى لا يمكن أن تعود اليه مرة أخرى الا من خلال عمل عنيف يمكن أن ينسبه كل شىء كانت هذه هى ايقاعات حياته : اللامبالاة والعنف : فترات من التأمل المجرد وأخرى من الرغبة العارمة ؛ لحظات من الصمت وأخرى من الغضب مثل الماء المتدفق الذى تدفعه قوة بعيدة غير منظورة . ولقد كان هذا الأسلوب فى الحياة يمثل حاجة ملحة بالنسبة اليه تماما مثل حاجته الى الطعام . لقد كان أشبه شىء بنبات غريب يزهر فى النهار ويدبل فى الليل ، ولكن الشمس التى تزدهر بأشعتها أغصانه ، والظلام البارد الذى يحمل هذه الأغصان الى الذبول ؛ كلاهما شىء لا يراه أبدا . لقد كانت له شمس وظلامه . . وكلاهما شىء خاص به . ولقد كان « بيجر » يعتز فى مرارة بطبيعته المتقلبة . . ويمارى اذا كان عليه أن يتحمل نتيجة هذا التقلب . ويقول دائما ان هذه هى طبيعته التى لا يستطيع أن يغيرها . ولقد كانت حذلقته المنكودة وما تبعها من عمل عنيف هى التى جعلت « جس » و « جاك » و « ج . هـ » يكرهونه ويخشونه بقدر ما ما يكره ويخشى نفسه هو ذاته .

تساءل « جاك » :

— الى أين تريد أن تذهب ؟ لقد سئمت الجلوس .

— هيا نسر قليلا .

واتجه الاثنان نحو الباب الأمامى « للصالة » ، وتوقف « بيجر » لحظة وتطلع حوله فى « الصالة » وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات وحشية وضم شفتيه فى اصرار . وسألها « دوك » دون أن يدير رأسه :

— هل أنتما ذاهبان ؟

وأجابه « بيجر » . . نعم .

وقال جاك : « الى اللقاء » .

وسار الاثنان عبر الشارع تحت أشعة شمس الصباح وهما يتوقفان فى تكاسل عند المنحنيات حتى تمر السيارات العابرة . . لا لأنهما يخافان

السيارات . . ولكن لمجرد أن لديهما فائضا كافيا من الوقت . ووصلا الى طريق « بارك الجنوبي » وهما يدخانان سيجارتين وقال «بيجر» :

– أريد أن أذهب الى «السينما» .

– «سينما رجال» تعرض فيلم « التاجر هورن» مرة ثانية . انهم يعيدون هذه الأيام عرض كثير من الأفلام القديمة .

– بكم التذكرة ؟

– . . عشرون سنتا .

– حسن . . هيا بنا .

وسار «بيجر» صامتا الى جوار «جاك» مسافة قصيرة . وكان الوقت ظهرا عندما بلغا ملتقى الشارع السابع والأربعين بشارع «بارك الجنوبي» . وكانت السينما قد فتحت أبوابها منذ لحظات قليلة . وانتظر «بيجر» في البهو الأمامي يتطلع الى الاعلانات المعلقة حتى ينتهي «جاك» من ابتياع التذاكر . وكانت الاعلانات تشير الى أن السينما ستعرض فيلمين معا : « المرأة المرحة » . . . حيث صورته المعلقة بالخارج تظهر رجلا ونساء من البيض يمرحون ويسبحون على الشواطئ ويرقصون في النوادي الليلية . . و « التاجر هورن » ، وقد بدا في الصور رجال ونساء من السود يرقصون وخلفهم تظهر أدغال غابة وحشية . ونظر «بيجر» الى أعلى . . ثم رأى جاك يقف الى جواره وهو يقول :

– هيا بنا ندخل .

– هيا .

ثم تبعه الى صالة السينما المظلمة وهو لا يكاد يرى سوى أشباح بعد أن خلف وراءه وهج الشمس في خارج الدار . ولم يكن الفيلم قد بدأ عرضه بعد . . فألقى «بيجر» بنفسه على مقعد غاص فيه وهو ينصت الى نغمات عزف على الأرغن . . وتلمل في ضيق وهو ينظر حوله كأنما يترقب شخصا يبحث عنه . وارتفعت نغمات موسيقى الأرغن ثم انتهت وساد الصمت . وتساءل « بيجر » في صوت منخفض يشوبه القلق :

– هل تظن أننا سننجح في عملية «بلوم» ؟

– طبعا . . بالتأكيد .

ولكنه قالها والقلق أيضا يشوب صوته .

- أتعرف .. اننى أحس .. كما لو كنت مقبلا على الدخول الى السجن وأنا أفكر فى هذه المهمة اللعينة .

- لا تقل هذا .. كل شىء سيكون على ما يرام .

- أوافق أنت تماما ؟

- بالتأكيد .

- لست مطمئنا .

- دعنا نفكر كيف سنقوم بالمهمة بدلا من التفكير فى القبض علينا .

- هل أنت خائف ؟

- لا .. وأنت ؟

- لا بالطبع .

وساد الصمت وعادت موسيقى الأرغن ثم اختفت لتعود مرة أخرى فى نغمات هامسة تكاد لا تسمع . وعاد «بيجر» يقول :

- أفضل أن نأخذ معنا مسدساتنا هذه المرة .

- حسن .. ولكن ينبغى أن نكون على حذر .. لا نريد أن نقتل

أحدا .

- نعم ولكننا سوف نشعر بالأمان هذه المرة والمسدسات معنا .

- كم أود أن تكون الساعة الآن الثالثة ، بل كم أود لو أننا كنا

انتهينا من « العملية » بالفعل .

- وأنا أيضا مثلك ..

وصمت الأرغن عن العزف .. وبدأت الصور تتتابع على الشاشة ..

بدأ العرض بجريدة اخبارية مصورة تابعها «بيجر» بغير ما اهتمام . ثم

بدأ عرض الفيلم الأول « السيدة المرحة » .. يحكى قصة سيدة بيضاء

صغيرة ثرية تعيش حياتها وسط حفلات الكوكتيل والرقص ولعب الجولف

والسباحة والمقامرة فى «صالات الروليت» وتضرب المواعيد لعشيقها على

لكز «بيجر» بكوعه صديقه «جاك» أكثر من مرة وهمما يريان السيدة

ما تفعل .. وقال «بيجر» :

الصغيرة الساحرة وهى تخدع زوجها وتنجح فى أن تخفى عنه حقيقة

حين يكون زوجها المليونير مشغولا فى مكتبه بمصنع بعيد للورق . وقد

- يبدو أنها نجحت فى خداع هذا الزوج العجوز .

- يبدو ذلك .. انه مشغول عنها بجمع المال حتى ليجهل كل
ما يجرى حوله .. هؤلاء الأغنياء يفعلون كل شيء ..

واستمر عرض الرواية ورأى «بيجر» أحد النوادى الليلية وقد غص
بالراقصين أزواجا .. واستمع الى فرقة تعزف موسيقى «السوينج»
الراقصة .. ورأى السيدة الصغيرة الثرية ترقص مع صديقها وتضحك .
وقال « بيجر » وكأنه يحلم :

- كم أود لو أننى مدعو فى مكان كهذا حتى أرى كيف يكون شعور
المرء فيه .

- يارجل . انهم سيهربون من وجهك اذا راوك .. وربما ظنوا أنك
«غوريللا» هاربة من حديقة الحيوان وترتدى بذلة السهرة !

وانحنى الاثنان يضحكان . وعندما اعتدل «بيجر» نظر الى الشائنة
ورأى ساقيا طويل القامة يقدم كأسين رقيقتين من الشراب للسيدة الصغيرة
الثرية وصديقها .. فقال :

- أراهنك على أن وسائد هؤلاء الناس محشوة بالدولارات .

- هؤلاء الناس لا يتقلبون على جنوبهم فى نومهم .. ان الساقى
يقف الى جوارهم وهم ينامون على أسرتههم ، فاذا سمعهم يتنهّدون أسرع
يقلبهم على جنوبهم فى رقة ..

وعاد الاثنان يضحكان .. ثم ساد الصمت . وخفتت الموسيقى
المصاحبة للفيلم واستدارت السيدة الصغيرة الثرية تنظر نحو الباب الأمامى
للنادى الليلي حيث ارتفعت ضجة وصياح وصرخات .. وقال «جاك» :

- أراهنك أنه زوجها قد حضر .

- نعم ..

ورأى «بيجر» شابا تصيب العرق على وجهه وجمحت عيناها وقد
اقتحم طريقه وسط مجموعة من السقاة والراقصين . وعاد بيجر يسأل
كما لو كان هو نفسه يعجب لمراى هذا الدخيل الغاضب :

- هذا الرجل ماذا تظنه يريد ؟

– لعننى الله اذا كنت أعلم ..

ورأى «بيجر» الشاب الغاضب يزيح السقاة جانباً ويجرى متجهاً الى مائدة السيدة الثرية وقد توقفت الموسيقى الراقصة وأسرع الراقصون والراقصات مذعورين الى أركان «الصالة» ونحو الباب ، وارتفع الصياح : أوقفوه .. امسكوه ، وتوقف الشاب الثائر على بعد أقدام قليلة من السيدة الثرية ودس يده فى جيب معطفه وأخرج شيئاً أسود .. وارتفعت الصرخات : فى يده قنبلة .. أوقفوه .. امنعوه .. ثم رأى «بيجر» صديق السيدة يقفز الى وسط الصالة ويطوح يده الى أعلى فيلتقط القنبلة فى نفس اللحظة التى ألقى بها الشاب الثائر . وبينما أغمى على السيدة الثرية قذف صديقها بالقنبلة من النافذة محطماً زجاجها . ورأى «بيجر» ضوءاً ساطعاً فى ظلام الليل خارج الملهى مع انفجار القنبلة الذى يصم الآذان . ثم رأى الشاب الغاضب وقد سقط ممدداً على الأرض مثبتاً اليها بعشرات من الأيدي . وسمع امرأة تصرخ .. انه شيوعى ..

وتساءل «بيجر» :

– قل لى يا جاك ..

– «هه» .. !

– ما معنى شيوعى ؟

– شيوعى يعنى أحمر ، أليس كذلك ؟

– بلى .. لكن من هو الأحمر ..

– لعننى الله اذا كنت أعرف . يقولون انه من جنس يعيش فى

روسيا ..

هذا الرجل كان على وشك أن يقتل أحداً .

وأظهرت المشاهد التالية الرجل الثائر يبكى وهو راكع على ركبتيه ويصب اللعنات وسط دموعه وينشج وهو يقول : « كنت أريد أن أقتله » وأدرك «بيجر» الآن أن قاذف القنبلة الثائر كان شيوعياً أخطأ فظن أن صديق الزوجة الثرية هو زوجها .

وتتابع أحداث الرواية .. تظهر السيدة الصغيرة الثرية وهى تشكر صديقها لأنه أنقذ حياتها وتقول له فى نفس الوقت ان ما حدث علمها أن زوجها فى حاجة اليها . وتتمتم وسط دموعها : « ماذا لو كان هو معى الليلة ؟ » .

وعاد «بيجر» يقول :

- انها ستعود الى زوجها العجوز .

- نعم .. ويجب أن يتبادلا قبلة النهاية ..

ورأى «بيجر» السيدة الصغيرة الثرية تهرع الى زوجها المليونير ..
ثم كان عناق طويل وقبلات حارة والزوجان يقسمان ألا يترك أحدهما الآخر .. وأن يغفر أحدهما للآخر .

وتساءل «بيجر» وقد ملأت قلبه صورة حياة لم يعرفها قط من قبل:

- أحقا يفعل الناس هكذا ؟

- بالتأكيد .. انهم أغنياء .

- ترى هل سيكون الرجل الذى سأعمل عنده غنيا كهذا الرجل ؟

- ربما ..

- هل تعرف .. اننى أكون ذكيا حقا لو قبلت هذا العمل .

- بالتأكيد . فأنت لاتدرى ماذا يمكن أن تراه .

وضحك الاثنان . وأدار «بيجر» عينيه نحو الشاشة ولكنه لم ينظر الى الصور فوقها ، فقد امتلأت نفسه بصور أخرى مثيرة حول عمله الجديد ترى : هل كان ماسمعه عن البيض الأغنياء حقيقى ؟ هل سيعمل حقا عند قوم يشبهون أولئك الذين رآهم على الشاشة ؟ اذا كان هذا ما سيحدث له فعلا فلا بد أنه سيرى أشياء كثيرة . وبدأ «بيجر» يشاهد رواية «التاجر هورن» فرأى صورا لرجال ونساء من السود يرقصون رقصات مجنونة . وسمع دقات الطبول .. ثم مالبت المشهد الأفريقى أن اختفى وحلت محله صور أخرى فى مخيلته هو فحسب ، صور لرجال ونساء من البيض يرتدون ملابس سوداء وبيضاء ويضحكون ويتبادلون الأحاديث ويشربون ويرقصون . وكان هؤلاء قوما ذوى أناقة يعرفون كيف يكسبون الأموال .. الملايين .. وربما كان من حظه أن يكسب جانبا من هذه الأموال لو أنه عمل عند واحد منهم . فقد يستطيع أن يعرف كيف يحصلون على أموال كهذه .. بالتأكيد .. فالأمر كله لا يبدو أن يكون مباراة ، والبيض يعرفون كيف يكسبون هذه المباراة ، وأغنياء البيض ليسوا شديدى الغلظة تجاه الزوج . البيض الفقراء هم الذين يكرهون الزوج . انهم يكرهون الزوج لأنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا نصيبهم من الأموال . وكثيرا ما قالت له أمه

إن أغنياء البيض يحبون الزواج أكثر مما يفعل فقراؤهم . ولقد أحس أنه لو كان رجلا أبيض فقيرا ولم يستطع أن يحصل على نصيب من هذه الثروات لاستحق أن يركله الناس بأقدامهم . إن فقراء البيض أغنياء حقيقي ، أما أغنيائهم فهم ذوو أناقة ويعرفون كيف يعاملون الناس . ولقد تذكر أنه سمع البعض مرة يحكى حكاية سائق زنجى تزوج بفتاة بيضاء ثرية . . وأن أسرة الفتاة أجبرت الزوجين على السفر الى خارج البلاد بعد أن منحتهم نقودا كافية .

نعم ، سوف يعمل لدى عائلة «دالتون» . . فهو عمل طيب ولاشك . وربما كان مستر «دالتون» هذا مليونيرا . . وربما كانت لديه ابنة جميلة . . وربما كانت هذه البنت ممن ينفق النقود على سعة ، وربما رغبت هذه البنت فى أن ترافقه الى حى «ساوث سايد» لتشاهد معالم الحى ! وربما كان لها صديقها الذى لن يعلم بأمره سواء لأنه هو الذى سيقود لها السيارة . وربما منحتة نقودا حتى لا يكشف سرها .

انه أحقق ولا شك اذا فكر بعد هذا فى سرقة محل «بلوم» فى الوقت الذى يوشك فيه أن يلتحق بعمل طيب . لماذا لم يفكر فى ذلك من قبل ؟ لماذا يجازف هذه المجازفة الحفقاء فى الوقت الذى يمكن أن تحدث فيه أشياء أخرى رائعة ؟ لو أن الأمور تعقدت هذا المساء لما حصل على هذا العمل . . وربما كان السجن نصيبه . ثم انه على أية حال ليس متحمسا كثيرا لسرقة محل «بلوم» . . وقطب «بيجر» جبينه فى الظلام وهو يستمع الى دقات الطبول وابقاعات الرقصات وصرخات الرجال السود والنساء السوداوات وهم يرقصون فى انطلاق وجنون . . والنساء والرجال الذين يحيون فى أوطانهم وعالمهم متلائمين معه . . فى أمان من الخوف والهستيريا . وفجأة سمع «جاك» يقول له :

— هيا بنا . . يجب أن نخرج الآن .

— هه ؟

— الساعة الآن الثالثة الا الثلث .

ونفض « بيجر » وسار عبر الممر المظلم فوق السجادة اللينة . والواقع أنه لم ير شيئا من الرواية الأخيرة ، ولكنه لم يهتم بذلك . وبينما كان يسير عبر الردهة الأمامية للسينما بدأت أعماقه تتوتر مع التفكير فى «جس» و «بلوم» .

- غرور .. أليس كذلك ؟

وقال « بيجر » :

- بلى .. لقد كان قاتلا .

ثم سار الى جوار «جاك» فى صمت حتى وصلا الشارع التاسع والثلاثين .. فقال :

- يجدر بنا الآن أن نحضر مسدساتنا .

- نعم .

- أماننا خمس عشرة دقيقة .

- حسن .

- الى اللقاء .

واتجه الى منزله وقد بدأ الخوف يزحف الى صدره . وعندما وصل الى باب المنزل تردد قبل الدخول . انه لا يريد أن يسطو على محل «بلوم» انه خائف .. ولكن ينبغي له أن يمضى فى «العملية» الآن . وبدون أن يحدث صوتا ، صعد فى السلم ووضع المفتاح فى ثقب الباب حتى فتحه بهدوء وسمع أمه تغنى خلف الستار :

يا الهى .. أريد أن أكون مسيحية .

بقلبي .. بقلبي ..

يا الهى .. أريد أن أكون مسيحية

بقلبي .. بقلبي ..

وسار على أطراف أصابعه داخل الحجرة ورفع حشية سريره وأخرج مسدسا وضعه داخل قميصه . وفى اللحظة التى أوشك فيها أن يفتح الباب .. سكنت أمه عن الغناء .. ونادت :

- أهذا أنت يا بيجر ؟

ومرق «بيجر» بخفة الى الخارج وصفق الباب وأسرع يهبط السلم .. حتى اذا أصبح فى الشارع أحس بالتوتر فى أعماقه يزداد ويثقل على بطنه وصدره .. وفتح فمه ليتنفس .. وأسرع متجها الى «صاله البلياردو» ونظر من خلال بابها فرأى «جاك» و «ج.ه»، يلعبان على المائدة البعيدة الخلفية ، ولم يكن «جس» موجودا . وأحس بأن ما بأعماقه من التوتر يخف قليلا . ونظر حوله فى الشارع فلم ير الا قليلا من المارة .. ولم ير أثرا لرجل الشرطة . ورأى من خلال نافذة عبر الشارع .. ساعة تشير الى الثالثة الا اثنى عشرة دقيقة . حسنا ، انتهى الأمر .. ولا بد أن يمضى

فيه الى نهايته • ورفع يده اليسرى وأزاح العرق المتصبب فوق جبهته بحركة بطيئة طويلة ، وتردد لحظات على باب «الصالة» ثم حزم أمره ودخل بخطوات ثابتة متجها الى المائدة الخلفية • ولم يتحدث الى «جاك» أو الى «ج.ه» كذلك لم يكلمه واحد منهما • وأشعل سيجارة بأصابع مرتعشة وهو يراقب الكرات فوق «أرضية» المائدة الخضراء وهي تبرق وتدور هنا وهناك حتى تختفى داخل الثقوب بعد أن تدفعها أطراف العصي • وأحس برغبة فى أن يقول شيئا ما يخفف من حدة التوتر فى حنايا صدره • فأسرع يطفى سيجارته فى مطفأة ونفث آخر دخانها من خياشيمه السوداء وصاح بجفاف :

— أراهنك بسنتين أنك لن تنجح فى هذه اللعبة •

ولم يجبه «جاك»، ولكنه ضرب الكرة عبر المائدة حتى اختفت فى جيبه من جيوبها الجانبية ثم قال :

— لم أنجح •

وقال «بيجر» :

— لقد تأخرت •• لم يكن يجب أن تراهن ، ولهذا خسرت الرهان •

وكان يتحدث دون أن ينظر اليه • فقد كان جسده كله جائعا •• الى شيء من الاثارة والعنف يستغرق جانبا من التوتر فى أعماقه • لم يكن باقيا على بدء «العملية» سوى عشر دقائق ولم يحضر «جس» بعد • ولو أن «جس» تأخر لتأخر الوقت • وكان «جس» يعلم ذلك • واذا كانوا سيقدمون على اتمام العملية ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك قبل أن يخرج الناس الى الشوارع ليبتاعوا طعام العشاء وفى أثناء وجود الشرطى فى الجانب الآخر من المبنى •

وصاح «بيجر» :

— ابن الحرام •• كنت أعرف أن هذا سيحدث •

وقال «جاك» ••

— سوف يحضر

وقال «بيجر» وهو يتحسس السكين فى جيبه :

— أحيانا أحس برغبة فى أن أنزع قلبه الصفراوى ••

وقال «ج.ه» :

— ربما كان لايزال يتناول غذاءه •

فقال «بيجر» :

— انه خائف ليس الا .. خائف من أن يسرق رجلا أبيض .

وتضاربت كرات «البلياردو» ، ومسح «جاك» طرف عصاه بالطباشير .. وأحدثت العصا والكرات أصواتا «صر» لها «بيجر» أسنانه في ألم .
ان الصوت يزعجه ويجعله يحس .. كما لو كان يمزق شيئا ما بسكينه .
وعاد «بيجر» يقول :

— اذا أخرجنا «جس» عن اتمام هذه العملية فسوف يكون لى معه شأن ..
وليساعدنى الله . لم يكن ينبغى له أن يتأخر هكذا . فى كل مرة .
بتأخر أحدنا .. لاتسير الأمور كما ينبغى . انظر الى الكبار .. أسمعت
مرة أنهم يتأخرون .. أسمعتهم ؟ أبدا . انهم يعملون كالساعة .

وقال « ج . هـ » :

— ليس هناك واحد منا فعل أكثر مما فعله «جس» . لقد كان معنا
دائما فى كل مرة .

وصاح «بيجر» فى وجهه :
— أوه .. أغلق فمك .

— هأتتذا تعود مرة أخرى .. لقد كان «جس» يتحدثنى عن تصرفاتك
هذا الصباح .. انك تصبح عصبيا للغاية عندما تكون مقبلين على عمل ما .
— لا تقل لى اننى عصبى .

وقال «جاك» :

— اذا لم نستطع أن نفعل ذلك اليوم .. فلنفعله غدا .

— غدا الأحد يا أحق ..

وقال « جاك » بشئ من الحدة :

— «بيجر» .. بحق المسيح .. لا تثر هكذا .

ونظر «بيجر» الى «جاك» نظرة طويلة حادة .. ثم استندار فى غضب
وعاد «جاك» يقول هامسا :

— هل تريد أن تفضحنا وتقول للدنيا ما سنفعله ؟

وسار «بيجر» متجها الى مدخل الصالة ثم وقف ينظر من خلال زجاج

النافذة وفجأة أحس بألم ، فقد رأى «جس» مقبلا عبر الشارع . وتوترت عضلاته . لابد أن يفعل شيئا بـ «جس» . ماذا ؟ . انه لا يدري بالضبط . . . وعندما اقترب «جس» سمعه «بيجر» يصفر بفمه أغنية مألوفة . . . ثم فتح الباب . . . وصاح «جس» . . .

– هالو «بيجر» . . .

ولم يجب «بيجر» ، وتخطاه «جس» متجها الى المائدة الخلفية ، فاستدار «بيجر» وركله بشدة ، فسقط «جس» على وجهه بحركة واحدة من جسمه . وبنظرة واحدة باسمه متنقلة متباطئة الى «جس» الملقى على الأرض والى «جاك» و «ج . هـ» الى جوار المائدة الخلفية . . . والى «دوك» الذى كان ينظر الى الجميع – ضحك «بيجر» برقة فى بادئ الأمر ، ثم ارتفعت ضحكته أكثر وأكثر حتى أصبحت ضحكة «هستيرية» وهو يحس . . . كما لو أن هناك ماء يغلي بداخله يحاول أن يتقيأه . . .

ونفض «جس» واقفا فى هدوء . . . وقد فغرفاه . . . وارتسمت الكراهية فى نظرة عينيه . . . وقال «دوك» الواقف خلف «البنك» :

– اهدءوا يا أولاد . . .

ثم عاد ينحنى على «البنك» كما كان . . . وتسائل «جس» :

– لماذا تركلنى ؟

– لأننى أردت ذلك . . .

ونظر «جس» الى «بيجر» ثم أرخى عينيه على حين استند «جاك» و «ج . هـ» كل على عصاه وهو ينظر فى صمت . . . ثم عاد «جس» يقول مهددا :

– سوف يكون لى معك شأن يوما ما . . .

– قل هذا مرة ثانية . . .

وضحك «دوك» وهو ينظر مباشرة الى «بيجر» . . . ويقول :

– دع الولد وشأنه يا «بيجر» . . .

واستدار «جس» متجها الى المائدة الخلفية فقفز «بيجر» وجذبه من «ياقة» قميصه وهو يصيح :

- لقد طلبت منك أن تقولها مرة ثانية .

وخر «جس» على ركبتيه متعثرا .. وقال :

- اهدأ يا «بيجر» .

- لا تقل لي هذه الكلمة !

وأحس بعضلات جسده تتوتر ورأى قبضة يده تهوى على رأس «جس»
لقد ضربه قبل أن يدرك حقيقة ما فعل .. وقال « جاك » :

- لا تؤذه يا بيجر ..

- وقال «بيجر» وهو يصر بأسنانه ويشدد قبضته على ياقة «جس»
ويهرزه بعنف أكثر :

.. سوف أقتله .

وصاح «جس» وهو يحاول التملص :

- دعنى .. دعنى ..

وشدد «بيجر» قبضته أكثر وأكثر وهو يقول :

- أجبرنى على أن أفعل ذلك !

وكان «جس» لا يزال فى مكانه جاثيا فوق ركبتيه .. ثم ما لبث أن
قفز على قدميه مثل قوس مشدود .. واستدار يحاول الخروج
وارتطم «بيجر» بالحائط وهو يلثث للحظات .. وفجأة تحركت يده بسرعة
لم يلحظها أحد من الموجودين بالصالة .. وقد برقت فيها مديّة حادة .
ثم تقدم خطوة واسعة مثلما يقفز الحيوان وطوح بساقه اليسرى وقذف
بـ «جس» الى الأرض . وحاول «جس» أن ينهض ولكن «بيجر» رمى بنفسه
فوقه والمديّة فى يده جاهزة .. وصاح :

- انهض .. انهض ولسوف أدق عنقك .

وكف «جس» عن الحركة . ثم مالبت أن قال فى استسلام :

- لا بأس .. دعنى الآن .

- تحاول اذن أن تسخر منى ؟ .. أليس كذلك ؟

وقال «جس» وشفتاه لا تكادان تتحركان :

- نعم ..

- طبعا أنت لا تستطيع .

وخفت الغضبة من على وجهه بعض الشيء . . وماتت فى نظرتة وان
ظل جاثما على صدر «جس» ومديته فى يده . . ثم وقف وقال :

- انهض . .

- أرجوك يا بيجر . .

- هل تريد أن . . أشرحك ؟

ثم عاد ثانية يضع السكين فوق رقبة «جس» . . ولم يتحرك «جس»
يل نظر بعينه السوداوين نظرة رجاء . ولكن ذلك لم يكف لارضاء
«بيجر» فقد أحس مرة أخرى بعضلاته تتوتر . . فصاح فى «جس» :

- انهض . . ولن أطلب منك شيئا آخر !

ونهض «جس» ببطء . . على حين قرب «بيجر» طرف المديّة من شفّتي
جس وقال فى نشوة :

- العنق هذه المديّة

وامتلأت عينا «جس» بالدموع . .

- أقول لك العنقا . . أم تظن أننى ألعب ؟

ونظر «جس» حوله فى «الصالة» دون أن يحرك رأسه . . عيناه
فحسب دارتا فى محجريهما وكأنما ينشد المساعدة . ولكن أحدا لم يتحرك
. . وتحركت قبضة «بيجر» اليسرى ببطء جاهزة للضرب . وتحركت شفّتا
«جس» نحو المديّة ثم لعقها . وارتعشت الشفتان . . وانحدرت دموعه على
خديه . . وارتفعت ضحكات . . «دوك» :

- ها ها ها . .

وصاح «جاك» :

- دعه الآن يا بيجر . .

ونظر «بيجر» الى «جس» . . ولوى شفّتيه فى ابتسامة خبيثة . .

على حين عاد «دوك» يقول :

- ألم تفزعه بما فيه الكفاية يا «بيجر» ؟

ولم يجبه «بيجر» . . وعادت عيناه تلمعان بقسوة من جديد . . ثم

قال :

- ارفع يديك .. ارفعهما الى أعلى ..
وابتلع «جس» لعبه ثم رفع ذراعيه الى أعلى على حين قال «ج.ه»
فى تخاذل :

- دعه وشأنه الآن يا بيجر ..

وقال «بيجر» :

- اننى أفعل هذا الآن .

ثم وضع طرف المديّة فى قميص «جس» ثم حرك ذراعه حركة دائرية
وكأنه يقطع بمديته دائرة .. وعاد يقول :

- ماذا لو أننى أخرجت أمعاءك الآن ؟

ولم يحرك «جس» جوابا .. وظل العرق يتصبب على وجهه .. وفمه
مفتوح فى ارتخاء ..

وصاح «بيجر» :

- أغلق هاتين الشفتين الحمراءين ..

ولم يحرك «جس» عضلة واحدة فى جسده .. فضغط «بيجر»
بالمديّة على بطنه .. وقال «جس» هامسا فى رجاء :

- بيجر ..

- أغلق فمك ..

وأغلق «جس» فمه .. وضحك «دوك» .. وضحك «جاك» و «ج.ه»
ثم تراجع «بيجر» خطوة الى الخلف ونظر الى «جس» بابتسامة وقال :

- والآن أيها المهرج .. أنزل يديك واجلس على هذا المقعد .. وسوف
يعلمك هذا ألا تتأخر مرة ثانية .. أسمعت ؟

- اننا لم نتأخر يا بيجر .. لا يزال لدينا وقت ..

وصاح «بيجر» مصرا فى لهجة أمرة :

- أغلق فمك .. لقد تأخر الوقت ..

ثم استدار «بيجر» جانبا .. وما لبث أن سمع صوتا حادا .. فقد قفز
«جس» من فوق مقعده والتقط كرة من كرات «البلياردو» .. وطوح بها
وهو ينشج ويلعن .. ورفع «بيجر» يديه ليحمى وجهه وارتطمت الكرة
برسغه .. وكان قد أغمض عينيه عندما ملح الكرة تطير نحوه فى الهواء ..
وعندما فتحهما رأى «جس» يجرى هاربا من الباب الخلفى .. وفى نفس

اللحظة سمع صوت الكرة وهي تسقط على الأرض وتتدحرج .. وأحس
بألم شديد فى يده .. فقفز يلعن ويصيح :
- يا بن اللبؤة .

وتعثر فى عصا من عصى «البلياردو» ملقاة على الأرض .. على حين
صاح «دوك» وهو يضحك :
- هذا يكفى يا «بيجر» .

وضحك «جاك» و «ج.ه» على حين نهض «بيجر» يواجههما وقد رفع
يده المضروبة .. واحمرت عيناه من الغضب .. ونظر إليهما فى كراهية
شديدة وصاح :

- استمرا فى الضحك .

- وصاح «دوك» :

- الزم حدك يا بيجر .

- قلت لكما استمرا فى الضحك .

ثم لوح بالمديّة فى يده ..

وقال «دوك» محذرا :

- انتبه الآن الى ما تفعله يا بيجر .

وتراجع «جاك» الى الخلف نحو الباب الخلفى وهو يصيح :

- بيجر ..

وقال .. «ج.ه» .

- لقد أفسدت الآن كل شيء .. وأنا واثق من أن هذا هو ما كنت

تريده .

وصاح «بيجر»

- اذهب الى الجحيم ..

وانحنى «دوك» قليلا خلف البنك .. وعندما اعتدل كان هناك شيء
ما فى يده لم يظهره تماما .. وظل يضحك فى مكانه على حين تنافر اللاعب
حول شفتى «بيجر» الذى اتجه ناحية مائدة البلياردو وعيناه مثبتتان نحو
«دوك» .. ثم بدأ يمزق بمديته غطاء المائدة الأخضر بضربات طويلة وسريعة
من يده .. دون أن يرفع عينيه عن «دوك» الذى صاح :

- يابن اللبؤة .. يجب أن أضربك بالرصاص .. فليساعدنى الله
.. اخرج من هنا والا استدعيت الشرطة .

واتجه «بيجر» فى بطة ناحية «دوك» وهو ينظر اليه ويمسك بالمديّة
مفتوحة فى يده ثم توقف قرب الباب ونظر الى الخلف . ورأى أن «جاك»
و «ج.ه» قد اختفيا .

وصاح «دوك» وقد أظهر المسدس فى يده :

- اخرج من هنا .

- ألا يعجبك هذا ؟

- قلت لك أخرج قبل أن أطلق عليك الرصاص .. ولا تطأ هذا
المكان مرة أخرى بقدميك السوداوين .

كان «دوك» يغلى بالغضب .. وكان «بيجر» خائفا . فأطلق المديّة
ووضعها فى جيبه وقفز من الباب الى الشارع . وفى الشارع أغمض عينيه
قليلا عندما واجه الشمس المشرقة .. وأحس بضيق فى التنفس من حدة
توتر أعصابه .. وبالقرب من المبنى من بحذاء محل «بلوم» وتطلع نحوه
بركن عينيه من خلال زجاج «الواجهة» ورأى أن «بلوم» وحده فى المحل
الحالى من الزبائن .

نعم ؛ .. لقد كان لديهم الوقت الكافى ليسرقوا محل «بلوم» .
بل الحقيقة أنه لايزال هناك وقت كاف حتى هذه اللحظة . لقد كذب على
«جس» و «ج.ه» و «جاك» !! وتابع سيره ، ولم ير هناك شرطيا واحدا .
نعم ؛ لقد كان بمقدورهم أن يتموا العملية وأن يفروا بعيدا . لقد كان
يرجو أن يغطى الشجار الذى أثاره مع «جس» حقيقة ما كان يحاول أن
يخفيه ، أو أن يجعله على الأقل يحس بأنه ند لهم . بل انه أحس بأنه ند
لـ «دوك» أيضا .. ألم يمزق مائدته وأجبره على أن يستخدم مسدسه ؟

أحس بعد ذلك بحاجة الى أن ينفرد بنفسه ، فسار حتى منتصف
المبنى التالى واستدار متجها الى شارع خلفى ضيق ثم بدأ يضحك فى رقة
ثم توقف عندما أحس بشيء دافئ ينحدر على خديه .. فمسحه بيده وتهدد
يقول لنفسه : « يا للمسيح .. لقد ضحككت بشدة حتى بكيت» وفى حرص ،
جفف وجهه بكم «سترتة» ثم توقف دقيقتين كاملتين يحدق الى ظل عمود
من أعمدة التليفون على أرضية الشارع . وفجأة اعتدل وشد قامته وتابع
سيره حتى اصطدم بعنف فى شرح بأرضية الشارع .. فأخذ يلعن . وعندما
وصل الى نهاية الشارع الحلقى استدار وعاد مرة أخرى الى الطريق الرئيسى

سار ببطء تحت أشعة الشمس ويداه في جيوبه ورأسه منخفض .. والضيق يستبد به .

وعاد الى البيت وجلس على مقعد الى جوار النافذة وتطلع خلالها حاملا .. ونادته أمه من خلف الستارة :

— أهذا أنت يا بيجر ؟

— نعم ..

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟ ولماذا خرجت بسرعة منذ لحظات ؟

— لاشئ ..

— لا تقحم نفسك فى المتاعب الآن يا ولدى .

— أوه يا ماما .. دعينى وحدى ..

وأنصت قليلا اليها وهى تنفض الملابس على «عارضة الغسيل» المعدنية ، ثم أخذ يحدق الى الشارع بلا هدف ويفكر فيما أحس به عندما يتشاجر مع «جس» فى «صالة البلياردو» .. وأحس بالراحة والسرور عندما تذكر أنه سوف يذهب فى خلال ساعة الى بيت «دالتون» من أجل العمل الجديد . لقد أحس باحتقار لتلك العصابة من أصدقائه ، وأدرك أن ما حدث اليوم قد وضع نهاية لعلاقته معهم واشتراكه فى أى أعمال أخرى . وكما يحدق رجل بأسى ممزوج بالأمل فى طرف ذراع أو ساق مقطوع أدرك «بيجر» لحظتها أن خوفه من الاقدام على سرقة رجل أبيض قد كان يسيطر عليه عندما بدأ يتشاجر مع «جس» ، ولكنه أدرك ذلك بطريقة منعت تلك الفكرة من أن تقتحم ذهنه بشكل قاس أو حاد . لقد جعلته مشاعره المختلطة المضطربة يحس بأنه من الأفضل أن يتشاجر مع «جس» وأن يفسد خطة السرقة بدلا من أن يواجه رجلا أبيض ويده ممسكة بمسدس . ولكنه حصر هذا الاحساس بداخله ، فان شجاعته على مواجهة الحياة كانت تتوقف على مدى نجاحه فى اخفاء خوفه عن ادراكه الواعى . لقد تشاجر مع «جس» لأن «جس» كان قد تأخر ، وكان هذا هو العذر الذى تقبلته مشاعره .. ولم يحاول أن يبرر سلوكه أمام نفسه ذاتها ، أو أمام أعين زملائه . لأنه لم يفكر فيهم بالقدر الذى يكفى أن يجبره على أن يفعل ذلك .. كذلك فهو لم يعتبر نفسه مسئولا أمامهم عما فعله بالرغم من أنهم كانوا قد تورطوا فى خطة السرقة بالقدر الذى تورط هو فيها . ولقد كان هذا هو نفس احساسه تجاه كل الآخرين . فعلى قدر مايتذكر .. لم يحدث مرة أنه جعل نفسه مسئولا أمام أى انسان آخر ، فقد كان يشور

فى اللحظة التى تصل فيها الأمور الى الحد الذى يمس شيئاً فيه .. كان هذا هو أسلوب حياته .. لقد كانت أيامه تضى وهو يحاول أن يهزم أو يرضى دوافع قوية فى عالم يشعر ازاءه بالخوف .

وفى الخارج .. من خلال النافذة ، رأى الشمس تميل الى المغيب خلف سطوح البيوت فى الأفق الغربى .. وشاهد هبوط أول خيط فى ظلام ما قبل الغروب . ومن آن لآخر كانت تمر سيارة . وفى أقصى الحجرة كانت مواسير التدفئة تنز . لقد كان اليوم بطوله أشبه بيوم من أيام الربيع .. ولكن السحب الداكنة بدأت تبتلع قرص الشمس ببطء .. واضيئت مصابيح الانارة بالشارع مرة واحدة وبدأت السماء سوداء فوق سطح المنازل .

ومن داخل قميصه ، أحس ببرودة معدن المسدس الذى كان لا يزال مستقرا على جسده العارى . يجب أن يعيده الى مكانه تحت الحشية . كلا ، ربما كان من الأفضل أن يحتفظ به معه . ربما كان من الأفضل أيضا أن يأخذه معه عندما يتوجه الى بيت آل «دالتون» .. فقد أحس بأنه سيشتعر بالأمان اذا أخذه معه .. لم يكن يريد بالطبع أن يستخدمه ، ولم يكن هناك شئ بالذات يمكن أن يخشاه . ولكن كان هناك شئ ما بداخله جعله يحس بأنه ينبغي له أن يحتفظ به معه .. انه متوجه الى قوم من البيض .. ولابد أن يأخذ معه مديته ومسدسه ، فسوف يجعله ذلك يشعر بأنه مساو لهم ، وسوف يمنحه أيضا احساسا بالكمال . ثم فكر فى سبب آخر يبرر به ذلك لنفسه .. فهو مضطر لكى يصل الى بيت آل «دالتون» الى أن يخترق أحياء البيض . صحيح أنه لم يسمع عن أى زنجى تعرض للاعتداء فى الفترة الأخيرة ، ولكنه أحس بأن ذلك أمره محتمل .

ومن بعيد .. دقت ساعة خمس دقائق .. وتنهى ونهض وتثائب ومد ذراعيه الى أعلى لكى تسترخى عضلات جسده ، ثم أخذ معطفه لأن البرد كان يشتد فى الخارج .. ثم وضع قبعته على رأسه ومشى رقيقا نحو الباب يريد أن ينسل دون أن تسمعه أمه . وفى اللحظة التى أوشك فيها أن يفتح الباب نادته أمه :

- بيجر

وتوقف عابسا

- نعم يا ماما ..

- هل أنت ذاهب الى آل «دالتون» ؟

- نعم

- فهلا أكلت ؟

- ليس لدى وقت لذلك .

وجاءت أمه نحو الباب وهى تجفف الصابون من على يدها بمبدعه ..

وتقول :

- خذ .. هذا ربع دولار .. اشتر شيئا تأكله .

- حسن .

- وانتبه لنفسك يابنى .

وخرج «بيجر» وسار جنوبا متجها الى الشارع السادس والأربعين .. ثم انحرف شرقا .. حسن .. لسوف يرى فى خلال دقائق أن آل «دالتون» الذين سيعمل عندهم يشبهون أولئك القوم الذين رأهم وسمعهم فى دار «السينما» أولا .. ولكنه لم يشعر وهو يسير فى تلك الضاحية الهادئة التى يسكنها البيض .. بذلك الغموض الذى يلف الأشياء بالصورة التى رآها فى السينما .. كانت المنازل عالية والضوء يتسلل رقيقا من النوافذ والشوارع خالية الا من سيارة عابرة تمرق بسرعة على عجل من الكاوتشوك كان عالما بعيدا وباردا .. عالم أسرار البيض .. عالما تحت الحراسة الجيدة انه ليشعر بالفخر والثبات والثقة فى هذه الشوارع والمنازل . وعندما وصل الى طريق «دريكسيل» بدأ يبحث عن رقم ٤٦٠٥ .. وعندما عثر على المنزل توقف وانتظر أمام سور حديدى أسود مرتفع وقد أحس بأن شيئا ما يعتصر أعماقه . لقد اختفى كل ما أحس به داخل السينما .. ولم يعد يملأ صدره سوى الخوف والفراغ .

ترى .. هل سيسمحون له بالدخول من الباب الأمامى أو من الباب الخلفى ؟ من العجيب حقا أنه لم يفكر فى ذلك من قبل .. اللعنة ! وسار بحذاء السور الحديدى باحثا عن طريق يؤدى الى المدخل الخلفى ، ولكن لم يكن هناك شئ من هذا القبيل . فلم يكن هناك بخلاف الباب الأمامى سوى طريق للسيارة مدخله مغلق جيدا . ماذا لو أن شرطيا رآه يحوم فى حى البيض بهذه الطريقة ؟ ربما ظنه يحاول أن يسرق أو يغتصب انسانا . وثار غضبه . لماذا جاء ليتسلم هذا العمل اللعين ؟ كان بوسعه أن يظل مقيما وسط أهله فيتجنب هذا الشعور بالخوف والكراهية . ليس هذا عالما ، انه كان شديد الحمق اذ فكر أنه قد يحب هذا العالم . ووقف فى منتصف الطريق الجانبى وقد ضغط فكيه بقوة .. وأحس برغبة فى أن يضرب

شيئا .. أى شيء .. بقبضته .. ياللعنة ! ليس هناك مايفعله اذن سوى أن يتجه الى المدخل الأمامي ، فاذا كان فى ذلك خطأ منه فهم على الأقل لن يقتلوه ، كل ماسيفعلونه أنهم سيقولون له : انه لن يحصل على هذا العمل .

ورفع «سقاطة» الباب الخارجى للسور فى خوف ٠٠ واتجه الى السلم
ثم توقف ينتظر أن يعترضه أحد ٠٠ ولكن شيئاً لم يحدث ٠ ربما لم يكن
هناك أحد فى الداخل ؟ واتجه نحو الباب ورأى ضوءاً خافتاً يبدو من
تجويف فى أعلى جرس الباب ٠ وضغط الجرس وأذهله أن يسمع دقة
ناعمة ٠٠ ألا يحتمل أن يكون قد دق الجرس بعنف أكثر من اللازم ؟ ياللعنة
٠٠ يجب أن يتصرف أفضل من ذلك ٠٠ أرخى عضلاته ووقف فى استرخاء
ينتظر ٠٠ وفتح الباب ٠ ورأى وجهاً أبيض ٠٠ وكانت امرأة ٠٠

.. هاللو -

— نعم یاسیدتی •

— هل تريد أحدا

– هل تريد أحدا
– أر .. أر .. أريد أن أقابل مستور دالتون .

— هل أنت الولد «توماس» ؟

• نعم یاسیدتی

• ادخل

ودخل من الباب في بطاء ثم توقف ، وكانت المرأة قريبة منه لدرجة
أنه استطاع أن يرى شامه دقيقة بركن فيها • وحس «بيجر» أنفاسه •
وبدا له أنه ليس هناك فراغ يكفي أن يمر دون أن يلمسها بالفعل ••
وقالت المرأة :

.. هيا .. ادخل ..

ہمس « بیجر »

• أمرك یاسیدتی

ومر في حذر وقد استجمع شتات نفسه ثم وقف في ردهة ناعمة
الاضاءة وقالت المرأة :

• اتبعنی

تبعها «بیجر» وقبعته فی یدہ ۰۰ وکتفاه منحنیتان ، وسار فوق

سجادة ناعمة سميكة أحس وهو يسير فوقها بأنه سوف يتعثر مع كل خطوة يخطوها . حتى انتهى الى حجرة خافتة الضوء . وقالت المرأة :

- اجلس هنا . . وسوف أخبر مستر «دالتون» أنك هنا . . وسوف يكون هنا بعد لحظة . .
- أمرك ياسيدتى . .

وجلس . . وهو ينظر الى المرأة التى كانت تحقق الى وجهه . . ثم أدار بصره فى اضطراب وأحس بالراحة عندما خرجت من الحجرة . . هذه العجوز ابنة الحرام !! هل هناك شئ مضحك يبدو فيه ؟ . . اننى مثلها تماما . . وأحس بأن الوضع الذى يجلس فيه كان شاذاً . . ووجد أنه يجلس على أقصى حافة المقعد . ونهض فى ببطء لكى يجلس مستريحاً الى الخلف ، ولكنه عندما فعل ذلك وجد نفسه يغرق فجأة فى المقعد لدرجة أنه تصور أن المقعد قد انهار تحته . وعاد يجلس فى منتصف المقعد فى خوف . . وعندما تيقن حقيقة ما حدث أغرق نفسه فى المقعد مرة ثانية . . فى تردد . . وأجال بصره فى الحجرة التى كانت تضيئها مصابيح خافتة الضوء من مصادر مخبوءة . . وقد حاول أن يعثر على مصدر الاضاءة ولكنه لم يستطع . انه لم يكن يتوقع أن يرى شيئاً كهذا . . انه لم يتصور أن يكون هذا العالم مختلفاً هذا الاختلاف كله عن عالمه هو . وفوق الحائط ، رأى لوحات كثيرة لم يستطع أن يدرك طبيعتها وفجواها . . ولقد أحس برغبة فى أن يجربها عن كثب . . ولكنه لم يجرؤ على أن يفعل ذلك . ثم أرهف السمع . . لقد تناهى اليه صوت «بيانو» من مكان ما . . لقد كان يجلس فى بيت أبيض : الأضواء الخافتة تغمر المكان جوله . . أشياء كثيرة تتحداه ، وأحس بالغضب والضيق .

- حسن . . تعال معى .

- وانتبه على صوت رجل .

- سـ . . سيدى ؟

- اتبعنى .

- ونسى لحظتها الى أى بعد كان يجلس على المقعد . . وعندما حاول أن ينهض لم يستطع . . وتزحلق الى الخلف . . ومن ثم تشبث بذراعى المقعد وجذب نفسه ونهض . . ورأى رجلاً طويلاً القامة نحيلاً أبيض الشعر يمسك بورقة فى يده . وكان الرجل يحرق اليه بابتسامة جعلته يحس بكل بوصة مربعة من جسده الأسود وسأله الرجل :

- «توماس» ؟ «بيجر توماس» ؟

- نعم ياسيدى .

قالها وهو يهمس ، انه لم يتكلم فى الواقع .. ولكنه سسمع هذه الكلمات تخرج غصبا من بين شفثيه كأنما هى تخرج بقوة ذاتية لها .

- تعال معى ..

- أمرك يا سيدى

وتبع الرجل خارجا من الحجرة عبر ردهة أخرى . ثم توقف الرجل فجأة فتوقف «بيجر» فى اضطراب .. ثم رأى شخصا يقبل نحوه .. امرأة بيضاء تسير ببطء ويدها مرفوعة فى رقة وهى تلمس الحائطين المتقابلين .. وتراجع «بيجر» لكى يفسح لها الطريق . وكان شعرها أبيض كوجهها .. وبدت أمامه كما لو كانت شبعا . وأمسك الرجل بيدها فى رقة وأبقاها فى يده لحظة .. ورأى «بيجر» أنها امرأة عجوز عينهاها المراديتان تبدوان مقطعتين من الحجارة وسألها الرجل :

هل أنت على ما يرام ؟

- نعم

- اين «بيجى» ؟

- انها تعد العشاء .. أنا على ما يرام يا «هنرى» ..

- لا يجب أن تخرجى هكذا وحدك .. متى ستعود مسز «باترسون» ؟

- يوم الاثنين القادم . ولكن «مارى» هنا .. أنا على ما يرام .

لا تقلق نفسك بشأنى هل معك أحد ؟

- آه .. نعم .. هذا هو الدلد الذى بعث به مكتب المساعدات .

وقالت المرأة دون أن تحرك جسدها أو وجهها .. ولكنها تكلمت فى لهجة تدل على أنها توجه كلامها لبيجر :

- ان رجال المكتب كانوا مهتمين كثيرا بأن تعمل عندنا .. وأرجو

أن يعجبك العمل ..

وقال بيجر فى صوت منخفض :

- نعم ياسيدتى ..

ثم تساءل بينه وبين نفسه : هل من الواجب أن يقول شيئاً على الإطلاق ؟

وعادت المرأة تسأله :

— الى أى مدى وصلت فى تعليمك بالمدرسة ؟

— الفصل الثامن ياسيدتى ..

وقالت المرأة توجه حديثها الى الرجل :

— ألا ترى من الحكمة أن نحقنه حقنة بيئته الجديدة على الفور حتى

يستطيع أن يلمس حقائقها ؟

وقال الرجل فى تردد :

— حسن .. فى الغد متسع لذلك .

— أعتقد أنه من المهم من الوجهة العاطفية أن يحس بحريته فى أن

يثق فى هذه البيئة .. وإذا نحن استخدمنا التحليل الذى يتضمنه

سجل مكتب المساعدات الذى بعث به إلينا ، فأنا أعتقد أن من الخير أن

نبث فيه على الفور الشعور بالثقة ..

— ولكن هذا ليس أوانه .

وأنصت «بيجر» .. وهو يرمش بعينه وقد تملكته الحيرة ، ان هذه

الكلمات الطويلة الغربية جديدة على أذنيه ، كأنما هى من لغة غريبة .

وقد أحس من نبرة صوتيهما أنهما يحملان رأيين مختلفين بشأنه ، ولكنه

لم يستطع أن يجزم بطبيعة موضوع هذا الاختلاف . ولقد جعله ذلك

يحس بالضيق والتوتر وكأنما هناك مؤثرات وأشياء حوله يستطيع أن

يحسها دون أن يراها .. ويحس معها أيضا .. كأنما هو أعمى .

وقالت المرأة :

— حسنا . فلنجرب ذلك .

وقال الرجل :

— لا بأس .. سوف نرى .. سوف نرى ..

وترك الرجل يد المرأة .. فسارت فى ببطء وأصابع يديها البيضاء

الطويلة تلمس الحائطين .. سارت ومن خلف أهداب ثوبها سارت قطعة

بيضاء كبيرة تخطو على الأرض دون أن تحدث صوتا . انها عمياء .. هكذا

ظن «بيجر» وهو مذهول :

وعاد الرجل يقول :

- تعال من هنا ..

- أمرك يا سيدى .

وتساءل « بيجر » بينه وبين نفسه . هل رآه الرجل وهو يحدق الى السيدة .. هنا يجب عليه أن يكون حذرا . هناك أشياء غريبة فى هذا المكان . وتبع الرجل الى داخل الحجرة .

- اجلس .

- أمرك يا سيدى .

- ثم جلس .

وقال الرجل :

- هذه مسز دالتون .. انها كفيفة

- نعم يا سيدى

- انها تهتم كثيرا بشئون الملونين

وهمس « بيجر » قائلا :
- نعم يا سيدى

— وبدأ يحس بأنه يتنفس بصعوبة . فلحق شفتيه وأمسك بقبعته فى عصبية ..

- أنا مستر « دالتون » ..

- نعم يا سيدى

- هل تظن أنك ستحب قيادة سيارة ؟

- أوه .. نعم يا سيدى .

- هل أحضرت الأوراق ؟

- سيدى ؟

- ألم يعطك مكتب « المساعدات » مذكرة لى ؟

- أوه .. نعم يا سيدى .

لقد نسى كل شئ تماما عن هذه الأوراق .. ووقف لكى يخرجها من جيبه . وعندما فعل ذلك سقطت قبعته على الأرض . وفى لحظة ، عجز عن التصرف . لم يدر ما يفعل . أكان عليه أن ينحنى ليلتقط القبعة

أولا ثم يخرج الأوراق ٠٠ أو يفعل العكس !! وأخيرا قرر أن يلتقط القبة ٠٠ وأشار مستر « دالتون » الى مكان فوق مكتبه وقال :

- ضع قبعتك هنا .

- أمرك يا سيدى

ثم وقف ساكنا عندما مرت القطة البيضاء بحذاءه ثم قفزت فوق المكتب وجلست تنظر اليه بعينين واسعتين براقنتين وهى تموء .

وقال مستر « دالتون » :

- ماذا بك يا كيت ؟

وأخذ يرتب على القطة وهو يبتسم ثم استندار نحو « بيجر »

وقال :

- هل وجدت الأوراق ؟

- لا يا سيدى ٠٠ ولكنها معى هنا ٠٠ فى مكان ما ٠٠

وكره نفسه فى تلك اللحظة . لماذا يتصرف ويحس بهذه الطريقة ؟

أحس لحظتها بأنه يود لو طوح بيده رهوى بها على الرجل الأبيض الذى جعله يحس بذلك الاحساس . أو أن يضرب نفسه . انه لم يستطيع أن يرفع بصره الى مستوى وجه مستر « دالتون » منذ أن وطئت قدماه أرض البيت وظل واقفا وقد حنى ركبتيه قليلا وانفجرت شفثاه وطأطا كتفيه ووجه بصره الى مجرد سطح الأشياء . كان هناك اقتناع عضوى بداخله يقول له ان هذه هى الطريقة التى يجب أن يمثل بها أمام البيض . ان أحدا لم يسبق أن قال له ذلك بالكلمات ٠٠ ولكن تصرفاتهم كانت تشعره بأنهم يفعلون ذلك . ووضع القبة على المكتب وهو يلاحظ أن مستر « دالتون » يراقبه عن كثب . ترى هل تصرفاته سليمة حتى الآن ؟ ياللعنة ٠٠ لقد أخذ يبحث عن الورقة بأسلوب قمىء ؛ ولم يجدها فى بادئ الأمر وأحس بأن من واجبه أن يقول شيئا يبرر به تأخيره ٠٠ فتمتم هائلا :

- لقد كانت هنا فى جيبي .

- خذ راحتك .

- أو ٠٠ ها هى ذى .

ثم أخرج الورقة « مكرمشة » ؛ ومد بها يده فى عصبية الى مستر دالتون وهو يمسك بها من أقصى طرفها .. وقال مستر « دالتون » :

- لا بأس الآن . فلنر ما كتب عنك بداخلها . هل تسكن فى ٣٧٢١ بطريق انديانا ؟

- نعم يا سيدى

وصمت مستر « دالتون » ، وعبس قليلا ثم قال وهو ينظر الى السقف :

- أى نوع من المساكن هو ؟

- تقصد مسكنى يا سيدى ؟

- نعم

- انه مجرد مبنى قديم

- وأين تدفعون الايجار ؟

- فى الشارع الحادى والثلاثين يا سيدى
- لشركة عقارات الحى الجنوبى ؟

- نعم يا سيدى

- وتعجب « بيجر » .. ماذا يمكن أن تعنيه هذه الأسئلة ؟ لقد سمع أن مستر « دالتون » هو الذى يملك تلك الشركة ولكنه لم يكن واثقا من ذلك .

- وكم يبلغ الايجار ؟

- ثمانية دولارات فى الأسبوع

- كم حجرة ؟

- واحدة فحسب يا سيدى .

- آه . هكذا .. الآن يا بيجر قل لى ، كم عمرك ؟

- عشرون يا سيدى

- متزوج ؟

- لا يا سيدى

- اجلس . لا داعى للوقوف وأنا لن أطيل عليك .

- أمرك يا سيدى •
وجلس والقطعة البيضاء لا تزال تتأمله بعينيها الواسعتين المبللتين •

- والآن •• لك أم وشقيق وأخت ؟

- نعم يا سيدى

- أنتم جميعا أربعة ؟

- نعم يا سيدى •• نحن أربعة ••

وضغط على الكلمات الأخيرة حتى يظهر أنه ليس من الغباوة على ما قد يبدو •• لقد أحس بحاجة الى أن يتكلم أكثر من ذلك لأنه أحس بأنه من المحتمل أن يكون مستر « دالتون » يتوقع منه أن يفعل ذلك •
وفجأة تذكر المرات الكثيرة التى قالت له أمه فيها ألا ينظر الى الأرض عندما يتحدث الى البيض أو عندما يسألهم عملا ، فرفع بصره ورأى أن المستر « دالتون » لا يزال يراقبه عن كثب •• فأرخى بصره مرة ثانية •

- ينادونك بـ « بيجر » ؟

- نعم يا سيدى

- والآن يا بيجر • أود أن أتحدث اليك قليلا ••

نعم ، يالجنة الله •• لقد أدرك ما سيحدث • لسوف يسأله عن تلك المرة التى اتهم فيها بسرقة اطارات سيارة وقضى بعدها فترة فى مدرسة الاصلاحية • وأحس بأنه مذنب محكوم عليه ، وبأنه كان من الواجب ألا يجرى الى هنا •

- يقول المسئولون فى مدرسة الاصلاحية أشياء مضحكة عنك ،
وأود أن أتحدث معك بشأنها •

ثم ابتسم وقال :

- لا داعى لأن تخجل منى ، فقد كنت أنا نفسى صبيا فى يوم من الأيام وأعتقد أننى أعرف كيف تجرى الأمور فى أيام الصبا •• فلتكن اذن طبيعيا •

ثم أخرج علبة سجائر وقدمها لبيجر قائلا :

- خذ واحدة •

- لا يا سيدى • شكرا

- ألا تدخن ؟

- أَدخن يا سيدى .. ولكنى لا أريد التدخين الآن .

- والآن يا بيجر .. يقول المسئولون فى مدرسة الاصلاحية انك كنت عاملا مجتهدا عندما كنت تولى عملك الاهتمام .. هل هذا صحيح ؟

- نعم يا سيدى .. فأنا أقوم بعملى جيدا .

- ولكنهم يقولون انك كنت دائما فى مشاكل . كيف تفسر

ذلك ؟

- لست أدرى يا سيدى

- لماذا أرسلوك الى مدرسة الاصلاحية ؟

ورمى ببصره الى أرض الحجره

- قالوا اننى كنت أسرق .. ولكننى لم أفعل يا سيدى .

- هل أنت واثق ؟

- نعم يا سيدى

- حسن .. فكيف اذن تورطت فى هذه الحكاية .

- كنت مع بعض الصبية وألقى « البوليس » القبض علينا .

ولم يقل مستر « دالتون » شيئا . وسمع « بيجر » دقائق ساعة فى مكان ما خلفه .. وشعر برغبة حمقاء فى أن ينظر الى الورا .. ولكنه كبح جماح نفسه .

- حسن .. يا بيجر .. كيف تشعر الآن ؟

- سيدى .. عن أى شىء ؟

- اذا منحناك عملا .. فهل تسرق الآن ؟

- أوه .. لا ياسيدى .. أنا لا أسرق ..

- حسن .. يقولون انك تستطيع أن تقود سيارة ، وسوف أمنحك

أنا عملا ..

وسكت « بيجر »

- هل تظن أنك تستطيع القيام بهذا العمل .

- أوه .. بالطبع يا سيدى .

- ان أجر هذا العمل عشرون دولارا فى الاسبوع ، ولكننى سأمئحك خمسة وعشرين دولارا . وهذه الخمسة الزيادة من أجلك . . من أجل أن تنفقها أنت كما تشاء . وسوف تحصل على الملابس اللازمة وتتناول طعامك هنا وتنام فى الغرفة الخلفية بأعلى المطبخ وتستطيع أن تعطى أمك العشرين دولارا تنفقها فى مصروفات المدرسة لشقيقك وشقيقتك . . . فما رأيك ؟

- حسن جدا يا سيدى .

- أعتقد أننا سنتفق .

- نعم يا سيدى .

- وأعتقد أنك لن تلقى هنا أية متاعب .

- . . حق يا سيدى .

- والآن يا بيجر ، ما دمنا قد اتفقنا . . فلنوضح تفاصيل عملك اليومى . أنا أغادر البيت الى مكتبى فى التاسعة من صباح كل يوم . . والمسافة من البيت الى المكتب تستغرق عشرين دقيقة ، وعليك أن تعود فى العاشرة لتوصيل الأنسة « دالتون » الى المدرسة . وفى الثانية عشرة عليك أن تذهب للأنسة « دالتون » فى الجامعة . ومنذ الثانية عشرة حتى الليل تصبح حرا تقريبا واذا خرجت أنا أو الأنسة « دالتون » فى أثناء الليل فستقود أنت السيارة بالطبع . . وسوف تعمل كل يوم ولكننا لا نستيقظ أيام الاحاد قبل الثانية عشرة ظهرا . . وعلى هذا فسوف تكون حرا حتى هذا الوقت فى أيام الاحاد ما لم يحدث شئ غير متوقع . وسوف تحصل على اجازة يوم كامل كل أسبوعين .

- أمرك يا سيدى .

- هل ترى أنك تستطيع أن تتحمل مسئولية هذا العمل ؟

- بالطبع يا سيدى .

- واذا ضايقت شئ فتعال وأخبرنى حتى نسويه معا .

- أمرك يا سيدى .

ورن صوت فتاة من بعيد :

- أوه . . أبى .

- ورد مستر دالتون .

- نعم يا مارى .

واستدار بيجر ورأى فتاة بيضاء نحيلة تدخل الحجرة قائلة :

— أوه .. لم أكن أدري أنك مشغول .

— لا بأس يا مارى .. ماذا تريدين ؟

ورأى بيجر أن الفتاة تنظر اليه . وهى تسأل أباها :

— هل هذا هو السائق الجديد ؟

— ماذا تريدين يا مارى ؟

— هل ستحضر « التذاكر » لحفل الأربعاء ؟

— فى قاعة « أوركسترا » ؟

— نعم .

— نعم سوف أحضرها .

— هل هذا هو السائق الجديد ؟

— نعم .. هذا هو « بيجر توماس » .

وقالت الفتاة :

— هاللو بيجر ..

واضطرب « بيجر » ونظر الى مستر « دالتون » ثم أحس بعدها

بأنه لم يكن ينبغى له أن يفعل ذلك .. وقالت الفتاة :

— مساء الخير يا رجل ..

ثم اقتربت حتى أصبحت فى مواجهة مقعده تماما ثم عادت تسأله :

— بيجر .. هل تنتمى الى أى اتحاد ؟

وعبس مستر « دالتون » وقال :

— وبعد يا مارى !؟

وأدارت الفتاة بصرها الى أبيها وقالت :

— يجب أن يفعل ذلك يا أبى .

ثم اتجهت نحو بيجر وعادت تقول :

— هل أنت منتم الى أى اتحاد ؟

وصاح مستر دالتون : « .. مارى »

— مجرد سؤال يا أبى

وتردد بيجر .. لقد كره هذه الفتاة فى تلك اللحظة ، ما الذى

يدفعها الى أن تفعل ذلك في الوقت الذى يحاول فيه هو أن يحصل على عمل . . . حنى رأسه وعينه تلمعان . وقال : لا ياسيدتى .
- ولماذا ؟

وسمع « بيجر » المستر « دالتون » يتمم بشئ . . . وتمنى لحظتها أن يتكلم مستر « دالتون » وينهى « هذه الحكاية » . ورفع بصره ورأى مستر « دالتون » يحدق الى الفتاة . « انها ستفقدنى عملى ! » . . . كان هذا تفكيره فى تلك اللحظة . يا للجنة . . . انه لا يعرف شيئاً عن الاتحادات سوى أنها كانت تعتبر شيئاً سيئاً . وما الذى تقصده هذه الفتاة من الحديث اليه بهذه الطريقة أمام مستر « دالتون » . الذى لا بد أنه يكره الاتحادات ؟

وقال مستر « دالتون » :

- سوف نبحث مسألة الاتحاد فيما بعد يا مارى .

- ولكن الفتاة عادت تسأله :

- ولكنك ألا يهكم أن تنضم الى أحد الاتحادات ؟

- لست أدري يا سيدتى .

- وأخيراً قال مستر دالتون :

- والآن يا مارى . . . أنت ترين أن الولد جديد فى العمل . . .

اتركيه وشأنه الآن ؟

- واستدارت الفتاة وأخرجت لايها لسانها الأحمر وهى تقول :

- حسن ياسيدى الرأسمالى !

- ثم استدارت مرة أخرى الى بيجر وقالت :

- أليس رأسماليا يا بيجر ؟

- وأرخى بيجر بصره دون أن يحير جواباً . انه لا يعرف ماذا تعنيه

هذه الكلمة !

- وتهيات الفتاة للانصراف . . . ثم توقفت وهى تقول :

- أوه . . . اذا لم يكن لديه عمل آخر الآن فليوصلنى بالسيارة الى

محاضرة فى الجامعة الليلة . . .

- حسن . . . أنا أتحدث معه الآن . . . وسوف يكون مستعداً فى

لحظات .

- ورفعت الفتاة القطة وخرجت من الحجرة . . . وساد صمت قصير

وتمنى « بيجر » لو لم تكن الفتاة قد أشارت الى مسألة الاتحادات . ربما رفضه مستر « دالتون » الآن . وحتى اذا هو استأجره فسوف يتعرض للفصل قريبا اذا ظلت الفتاة تتصرف بهذا الأسلوب . انه لم ير فتاة مثل هذه من قبل . . انها لا تشبه أبدا ذلك الصنف الذى كان يتخيله .

وصاح مستر دالتون :

— أوه . . مارى

— نعم يا أبى . .

وسمعا بيجر ترد على أبيها من الردهة . ورأى مستر « دالتون » ينهض ويفادر الحجرة فجلس ساكنا ينصت . . وخيل اليه أنه يسمع الفتاة تضحك مرة أو مرتين ولكنه لم يكن واثقا من ذلك . . أفضل شيء يفعله الآن هو أن يدع هذه الفتاة المجنونة وشأنها . لقد سمع عن الاتحادات ، كانت الاتحادات فى ذهنه تقترب بالشيوعيين . . واسترخى قليلا ثم انتبه عندما سمع وقع أقدام مستر « دالتون » مقبلا الى الحجرة . واتجه الرجل الى خلف مكتبه دون أن يتكلم وأخرج ورقة نظر اليها طويلا فى صمت . وكان « بيجر » يراقبه بطرف عينه ، كان يعلم أن مستر « دالتون » يفكر فى شيء ما غير تلك الورقة التى فى يده ، ولعن من أعماقه تلك الفتاة المجنونة . . ربما كان مستر « دالتون » الآن قد صرف النظر عن استخدامه . . يا للعنة ! . . أو ربما لن يحصل على هذه الدولارات الخمسة الزيادة كل أسبوع . لعن الله هذه الفتاة . . لقد أفسدت كل شيء . . ربما بدأ مستر دالتون يحس بأنه لا يستطيع أن يثق به . وأخيرا قال مستر دالتون :

— بيجر . .

— نعم ياسيدى . .

— أريد أن تعرف السبب فى أننى أستخدمك .

— نعم ياسيدى .

— أنت ترى أننى أنا الذى أدم « اتحاد تقدم الملونين » . . ألم

تسمع عن هذه المنظمة من قبل ؟

— نعم ياسيدى .

— لا بأس . . لا يهم . . هل تناولت عشاءك ؟

— لا ياسيدى . .

— حسن . . أعتقد أنه يجب أن تناول عشاءك الآن .

وضغط مستر دالتون على أحد الأزرار فوق مكتبه . وكان صمت ، ثم مالبث أن رأى السيدة التى فتحت له الباب تدخل الحجرة .

— نعم يامستر دالتون

— « بيجى » .. هذا هو « بيجر » .. انه سيقود سيارتنا .
قدمى له شيئا يأكله وأطعنيه على مكان نومه وعلى مكان السيارة .

— أمرك يامستر دالتون ..

— وسوف يقود « بيجر » السيارة فى الثامنة والنصف ليوصل
الآنسة دالتون الى الجامعة وينتظرها هناك .

— حسن ياسيدى ..

— هذا كل شيء الآن .

— أمرك ياسيدى .

ثم قالت « بيجى » :

— تعال الآن معى .

ونهض « بيجر » وتناول قبعته وتبع المرأة عبر البيت الى المطبخ .. وكان الجو يعبق برائحة الطعام .. والأواني تثر فوق الموقد .

— اجلس هنا .

وهيأت له مكانا على مائدة بيضاء . فجلس ووضع قبعته فوق
ركبتيه وأحس بارتياح أكثر لأنه أصبح بعيدا عن الجانب الأمامى للبيت .. ولكنه لم يكن قد ارتاح تماما .

وقالت « بيجى » :

— العشاء لم ينته بعد .. فهل تحب لحم الخنزير بالببيض ؟

— نعم ياسيدتى

— والقهوة ؟

— نعم ياسيدتى ..

وجلس يتطلع الى حوائط المطبخ البيضاء وسمع المرأة تقول من
خلفه :

— هل أخبرك مستر « دالتون » عن الفرن ؟

— لا ياسيدتى

- حسن .. لابد أنه نسي . المفروض أنك ستديره أيضا وسوف اريك مكانه قبل أن تخرج .

- هل تقصدين أنه يجب أن أبقى النار مشتعلة فيه ؟

- نعم .. ولكن الأمر سهل .. ألم توقد أفرانا من قبل ؟

- نعم يا سيدتى ..

- تستطيع أن تتعلم .. الأمر ليس صعبا .

- حسن ياسيدتى .

كانت « بيجى » تبدو طيبة للغاية ، ولكن ربما كانت تتظاهر بذلك حتى تلقى اليه ببعض أعباء عملها .. لا بأس .. فلينتظر حتى يرى فإذا ساءت تصرفاتها تحدث فى ذلك الى المستر دالتون . ونفذت الى خياشيمه رائحة لحم الخنزير المقلى . وأدرك أنه جائع جدا ، فقد نسى أن يشتري شطائر بربع الدولار الذى أعطته اياه أمه .. ومعنى ذلك أنه لم يكن قد تناول طعاما منذ الصباح . ووضعت « بيجى » أمامه على المائدة طبقا وسكينا « وشوكة » وملعقة ووعاء مملوءا بالسكر وقشدة وخبزا ، ثم أتبعته ذلك بطبق لحم الخنزير والبيض وهى تقول له .

- تستطيع أن تطلب المزيد اذا أردت .

وكان الطعام جيدا .. لن يكون العمل هنا رديئا .. الشئ الوحيد السيئ هو هذه الفتاة المجنونة .. وأخذ يمضغ اللحم والبيض وهو يفكر فى هذه الفتاة الثرية وكيف تختلف عن تلك التى رآها فى « السينما » . لم تكن تلك المرأة التى رآها على « الشاشة » تبدو خطيرة ، وقد استطاع عقله أن يفعل بها ما شاء ، ولكن هذه الفتاة الثرية قد غيرت كل شئ ، وضعت نفسها فى الطريق وبدت أبعد من أن يفهمها وتحدثت وتصرفت ببساطة وبأسلوب مباشر سبب له الحيرة . ونسى تماما أن « بيجى » كانت معه بالمطبخ .. وعندما فرغ الطبق أمامه تناول قطعة لينة من الخبز وأخذ يأكلها بلا اداام فى مضغات كبيرة .

- هل تريد المزيد ؟

وكف عن المضغ ووضع الخبز جانبا ، فلم يكن يريد أن تراه يفعل ذلك .. انه يفعل ذلك فى البيت فحسب .

- لا ياسيدتى .. لقد أكلت ما فيه الكفاية .

— هل سيعجبك العمل هنا ؟
— نعم ياسيدتى .. أرجو ذلك .
— انه مكان طيب .. كأى مكان آخر . ان آخر رجل ملون خدمنا
هنا بقى فى هذا البيت عشر سنين .
وتعجب « بيجر » لماذا تقول « خدمنا » لابد أن مكانتها هنا طيبة .
وتساءل :

— عشر سنين ؟
— نعم . عشر سنين . كان اسمه « جرين » .. وكان رجلا
طيبا أيضا ..

— ولماذا ترك العمل ؟
— .. انه كان ذكيا لقد حصل على عمل فى الحكومة .. وقد
كان مستر دالتون يسمح له بالذهاب الى مدرسة ليلية . ان مستر
دالتون يحب مساعدة الناس دائما . نعم .. كان « بيجر » يعرف
ذلك . ولكنه لن يذهب الى أية مدرسة ليلية ..
ونظر الى « بيجى » وهى تنحنى الى الحوض وتغسل الأطباق .. لقد
تحدثه بكلماتها وجعلته يحس بأنه لابد أن يقول شيئا :
— نعم ياسيدتى .. لقد كان ذكيا ولا شك .. وعشر سنين عمر
طويل ..

— أوه .. لم تكن طويلة جدا فأنا هنا منذ عشرين عاما .. لقد
كنت دائما هكذا أقول لنفسى مادمت قد حصلت على عمل فلتبقى فيه .
فالمثل يقول ان الحجارة المستديرة لا تجمع حولها الطحالب .. وهذا
صحيح ..

ولم يقل « بيجر » شيئا : فعادت بيجى تقول :
— كل شىء هنا سهل وجميل .. انهم أصحاب ملايين ولكنهم
يحيون مثل باقى الأغنياء ولا يحيطون أنفسهم بالمظاهر أو « النفخة »
.. ومسز دالتون تؤمن بأن الناس ينبغي أن يعيشوا هكذا .

— تماما ياسيدتى .
— انهم مسيحيون مؤمنون .. ويؤمنون أيضا بالعمل والحياة النظيفة .

أن الكثيرين يرون أنه ينبغي أن يكون لدينا مزيد من الخدم .. ولكننا مستريحون هكذا .. أننا نكون أسرة واحدة كبيرة .

– بالضبط ياسيدتى .

– ومستر دالتون رجل طيب .

– .. بالتأكيد ياسيدتى .. انه كذلك .

– هل تعرف .. انه يفعل الكثير من أجل قومك

وتساءل « بيجر » فى حيرة

– قومى ؟

– نعم .. الملونون .. انه منح مدارس الملونين خمسة ملايين من

الدولارات .

– أوه ..

– ومستر دالتون .. أنها هى الطيبة بحق . فلولاها لما فعل هو

ما فعل .. هى التى جعلته غنيا . لقد كانت تملك الملايين عندما

تزوجته .. وهو أيضا قد كون ثروة طائلة بعد ذلك بالطبع ولكن أكثر

الثروة ملكها هى . أنها عمياء .. مسكينة .. لقد فقدت بصرها منذ

عشر سنوات .. هل رأيتها ؟

– نعم ياسيدتى

– وحدها ؟

– نعم ياسيدتى .

– مسكينة .. ان مسز « باترسون » التى تعتنى بها فى اجازة

نهاية الأسبوع .. وهى هنا وحيدة أليس ذلك أمرا مؤلما ؟

– بلى ياسيدتى .. بالتأكيد ..

قالها وهو يحاول أن يضى على صوته شيئا من الشفقة على

مسز دالتون .. فقد أحس أن بيجى لابد تنتظر منه ذلك .. وعادت

بيجى تقول :

– انك قد حصلت فى الحقيقة على أكثر من عمل هنا . انه

سيصبح مثل بيتك . اننى دائما أقول لمسز دالتون ان هذا هو بيتى

الوحيد الذى عرفته فى حياتى .. أنا لست من هذه المنطقة ولكننى

قدمت اليها قبل عامين من بدء عملى هنا ..

ونظر اليها « بيجر » وهز رأسه .. فتابعت حديثها :

— اننى أيرلندية .. ونحن الأيرلنديين نحس نحو انجلترا بمثل ما تحسونه أنتم الملونين نحو هذه البلاد . لهذا فأنا أعرف بعض الشيء عن الملونين .. أوه .. أنهم قوم طيبون .. فى غاية الطيبة والرقّة . حتى أبنتهم .. هل قابلتها ؟

— نعم ياسيدتى ..

— الليلة ؟

— نعم ياسيدتى ..

واستدارت اليه « بيجى » ونظرت اليه بحدة ثم قالت :

— انها رقيقة .. لقد عرفتھا منذ كانت فى الثانية من عمرھا .

انھا لا تزال بالنسبة الى نفس الطفلة الصغيرة .. وستظل كذلك دائما . ولكنها عنيفة بعض الشيء .. دائما عنيفة وتسبب لأسرتها القلق المميت ، انها تختلط مع حفنة شاذة من الحمر .

وصاح « بيجر » فى دهشة :

— الحمر ؟

— ولكنها لا تقصد بذلك شيئا .. انها مثل أمھا وأبيھا تحس بآلام الناس وتتصور أن الحمر سوف يفعلون شيئا من أجلهم . والله وحده يعلم من أين جاءتھا هذه النزعات العنيفة .. ولكنها كذلك . وإذا أنت اختلطت بھا فسوف تعرفھا جيدا . ولكن لا تعر أصدقاءھا الحمر اهتماما ، فهم لا يسببون سوى المتاعب .

وأراد « بيجر » أن يسألھا أن تخبره بالمزيد عن الفتاة . ولكنه رأى

أن من الأفضل ألا يفعل ذلك .

— عندما تنتهى سوف أريك مكان الموقد والسيارة ومكان حجرتك .

ثم أطفأت الموقد تحت الأوانى .. ونهض « بيجر » وتبعھا خارج المطبخ عبر ممر ضيق ينتهى الى « بدروم » مظلم . وسمع « بيجر » نقرة أضىء النور بعدها .

— من هنا .. قلت لى ما اسمك ؟

— بيجر ياسيدتى ..

— ماذا ؟

— بيجر —

واشتم رائحة الفحم المحترق وسمع زفيف النار ورأى جمرات حمراء ملتهبة تتوهج داخل الموقد .

— هذا هو الموقد .

— حسن ياسيدتى .

— فى كل صباح ستجد « القمامة » هنا لتحرقها فى الموقد وتضع

فوقه الخزان .

— حسن ياسيدتى .

— ولست مضطرا الى استخدام جاروف للفحم .. فالموقد يتكفل

بذلك آليا .. انظر ؟

وجذبت « بيجى » رافعة صدر بعدها هدير قطع الفحم تسقط

من وعاء معدنى . ووقف بيجر ينظر الى الفحم وهو يسقط داخل الموقد

.. وتمتم فى اعجاب :

— شئ رائع ..

— كذلك لا تقلق من أجل المياه .. فالخزان هو الآخر يملأ نفسه .

وشعر بيجر بالارتياح .. كان الأمر سهلا .. بل وأقرب الى

التسلية .

— كل ما ستتعب فيه هو أن تستخرج الرماد وتنظف الموقد .

على أن تتنبه الى كمية الفحم المتساقط ، فاذا كانت قليلة اخبرنى أو

اخبار مستر دالتون حتى نطلب كمية أخرى .

— حسن ياسيدتى .. أستطيع أن أفعل ذلك .

— والآن .. لكى تذهب الى حجرتك . فكل ما عليك أن تفعله

هو أن تصعد فى هذه السلالم .. تعال ..

وتبعها صاعدا على درجات السلم . وفتحت هى بابا وأضاءت

النور ورأى « بيجر » حجرة واسعة غطيت جدرانها بصور وجوه لفتيات

ومصارعين .

— هذه كانت حجرة جرين .. انه كان يحب الصور ولكنه ترك

كل شئ منظما ونظيفا ان الجو دافئ فى الحجرة .. آه .. قبل أن

انسى .. هذه هى مفاتيح حجرتك ومفاتيح « الجاراج » والسيارة

والآن ، سوف أدلك على مكان « الجاراج » .. عليك أن تصل اليه من الخارج .

وتبعها هابطا الى السلم . وأحس بدفع أكثر في الطريق الموصل الى « الجاراج » .

وقالت بيجى :

– يبدو أن هناك ثلجا يتساقط .

– نعم ياسيدتى

– هذا هو « الجاراج » .

ثم فتحت بابه ودفعته فاضىء النور بطريقة آلية .

وقالت بيجى :

– أخرج السيارة كل يوم وانتظر بها أفراد الأسرة عند الباب الجانبى .. هيا لنرى .. تقول انك ستوصل الانسة دالتون الى الجامعة الليلة ؟

– حسن .. انها ستخرج فى الثامنة والنصف .. فأنت اذن حر

– نعم ياسيدتى ..

حر حتى ذلك الوقت وتستطيع أن تعود الى حجرتك اذا شئت .

– حسن ياسيدتى .. أعتقد أننى سأفعل ذلك .

وتبعها « بيجر » الى « البدروم » .. وذهبت هى الى المطبخ وتوجه هو الى حجرتة . ووقف فى وسطها يتطلع الى حوائطها . كانت هناك صور لجاك جونسون وجولويس وجاك دمبسى وهنرى أرمسترونج . كما كانت هناك أخرى لجنجر روجرز وجين هارلو وجانيت جانيور . كانت الحجرة واسعة مزودة بجهازين للتدفئة ، وعندما تحسس الفراش وجده لينا . آه .. حجرة له وحده !! يستطيع اذن أن يحضر زجاجة خمر ويشرب فى هدوء وأمان .. ولن يضطر الى التسكع هنا وهناك بعد الآن .. ولن يضطر الى أن ينام مع شقيقه « بدى » الذى لا يفتأ يركله طول الليل . وأشعل سيجارة وتمدد بطوله فوق السرير .. أووووه !! أنه سرير ممتع حقا . وتطلع الى ساعته التى ابتاعها يوما ما بدولار واحد ، ورآها تشير الى السابعة .. ينبغى أن يهبط بعد لحظات ليختبر السيارة ويعدها . ولا بد بعد

هذا من أن يشتري ساعة أخرى .. فساعة قيمتها دولار لم تعد تصلح له وهو في مثل هذا العمل . يجب أن يشتري ساعة من الذهب . هناك أشياء كثيرة جديدة يستطيع أن يحصل عليها . آه ياولد !! سوف تكون حياة طيبة وسهلة . كان كل شيء يسير على مايرام .. ماعدا تلك الفتاة .. لقد سببت له القلق . وربما أفقدته هذا العمل ان هى ظلت تتحدث عن الاتحادات انها فتاة مضحكة حقاً .. لا بأس . انه لم ير طوال حياته فتاة تشبهها .. انها تحيره . كانت غنية ولكنها لا تتصرف مثلاً يتصرف الأغنياء .. انها تتصرف مثل .. لا بأس ، انه لا يدرى بالضبط مثل من ، ولكنه يدرى تماماً أن كل النساء البيض اللائى قابلهن فى العمل أو فى مراكز المساعدة (الضمان) كن يتصرفن دائماً بالبرود والتحفظ ويتحدثن اليه على بعد ويحافظن على المسافة بينه وبينهن . ولكن هذه الفتاة اقتحمت طريقها نحوه وعيناها فى عينه بكلماتها وأسلوبها .. أوه ! .. يالللجحيم . ماذا يفيد من التفكير فيها بهذه الطريقة ؟ ربما كانت على حق . ربما كان من واجبه أن يعتاد ذلك .. لابد أنها تنفق كثيراً . فهذا الرجل وهب لمدارس الملونين خمسة ملايين من الدولارات فاذا كان قد فعل ذلك حقاً فلا بد أن الملايين فى يده أشبه « بالفكرة » . نهض ، وجلس على حافة السرير .

أى نوع من السيارات سيقود ؟ انه لم يفكر فى أن ينظر الى السيارة عندما فتحت « بيجى » باب « الجاراج » . كم يود لو كانت من طراز باكار أو لينكولن أو رولزرويس . « ياولد » !! .. ترى هل سيقود واحدة من هذا النوع . فلينتظر وسيرى . ولابد بالطبع أن يكون حريصاً فى قيادته مع الأنسة دالتون أو أيها المستر دالتون .. ولكن عندما يكون وحده .. آه .. لسوف يحرق أرض الشارع .. لسوف يجعل هذه الاطارات تدخن !

ولعق شفثيه .. فقد أحس بالعطش . وتطلع الى ساعته ، وكانت تشير الى الثامنة الا عشر دقائق .. يستطيع أن يمضى الى المطبخ ويشرب كوب ماء ثم يخرج السيارة من « الجاراج » .. وهبط السلم عبر البدروم الى السلام المؤدية الى باب المطبخ .. وسار على أطراف أصابعه وفتح الباب ودخل ثم حبس أنفاسه من المفاجأة .. كانت مسر دالتون تقف فى وسط المطبخ وهى ترتدى ثوبا أبيض طويلاً .. وساد صمت ، الا من دقائق بطيئة رتيبة لساعة معلقة فوق الحائط الأبيض وظل لحظة متردداً بين أن يدخل وبين أن يعود أدراجه هابطاً السلم . وكان وجه السيدة دالتون قد كف عن الحركة فجأة فى أسلوب

من ينصت باهتمام على حين تدلت يداها الى جانبها فى ارتخاء ، وبدا وجهها أمام « بيجر » كما لو كان قادراً على أن يستمع بكل جزء من بشرته الى أقل الأصوات خفوتا . ورأى القطة البيضاء تجلس هادئة على الأرض الى جوارها وقد ثبتت انيه عينيها الواسعتين السوداوين فى نظرات سلبته الطمأنينة . وكان « بيجر » على وشك أن يفتح الباب وينسل فى هدوء حينما سمع السيدة تتكلم :

— هل أنت الولد الجديد ؟

— نعم ياسيدتى

— هل تريد شيئاً ؟

— لم أكن أقصد أزعاجك ياسيدتى .. « فقط » كنت أ .. أ ..

أريد أن أشرب .

— حسن .. ادخل وأعتقد أنك ستجد كوبا هنا أو هنا .

واتجه « بيجر » الى الحوض وهو يراقبها فى أثناء سيره ويحس انها قادرة على أن تراه حتى بالرغم من أنه كان يعلم تماماً أنها عمياء . وأحس « بتنميل » فى بشرته .. وتناول كوبا من فوق رف ضيق وملاه من « الحنفية » وبينما كان يشرب الماء استرق نظرة الى السيدة من فوق حافة الكوب .. ورأى وجهها ساكناً جامداً مترقباً وذكره منظر وجهها بوجه رجل ميت رآه يوماً . ثم تحقق أن المسز دالتون قد استدارت تنصت الى وقع أقدامه وهو يسير وقال لنفسه : انها تعرف بالضبط أين أفق .

وسألته مسز دالتون :

— هل أعجبتك حجرتك ؟

وبينما كانت هى تتكلم أدرك بيجر أنها كانت تقف هناك وتنتظر أن تسمع صوت الكوب عندما يضعه فى الحوض .

— أوه .. بالطبع ياسيدتى ..

— بالتأكيد ياسيدتى .. سوف أكون حريصاً ..

— بالتأكيد يا سيدتى .. سوف أكون حريصاً .

— هل قدت سيارات من قبل ؟

— نعم ياسيدتى . ولكنها كانت سيارات « بقالة » ..

وأحس بأن الحديث مع شخص أعمى يشبه الحديث مع شخص لا يستطيع هو نفسه أن يراه الا « بالكاد » .

— قلت لى .. الى أى مدى وصلت فى دراستك ؟

— الصف الثامن ياسيدتى ..

— ألم تفكر فى العودة الى المدرسة ؟

— سيدتى .. لقد أصبحت أعمل الآن .

— واذا واثقت الفرصة الى أن تعود الى الدراسة الى جانب عملك ؟

— حسن .. لست أدري بالضبط ياسيدتى .

— آخر رجل كان يعمل هنا كان يذهب الى مدرسة ليلية ليتعلم

— تماما ياسيدتى ..

— ماذا تريد أن تصبح لو أنك أكملت تعليمك ؟

— لست أدري ياسيدتى

— ألم تفكر فى ذلك قبل الآن ؟

— نعم ياسيدتى

— أفضّل العمل ؟

— أعتقد ذلك ياسيدتى ..

— لا بأس .. سوف نتحدث فى هذا الشأن فى وقت آخر ، اعتقد

انه يجب عليك الآن أن تعبد السيارة للأنسة دالتون .

— أمرك ياسيدتى ..

وتركها واقفة فى وسط المطبخ فى نفس المكان الذى وجدها فيه عندما دخل .. ولم يدر لحظتها أى نوع من السيدات هى .. لقد جعلته يحس بأنها ستحكم على كل تصرفاته بحزم .. ولكنه حزم مقرون بالطيبة .. وأحس تجاهها أيضا بنفس ما يحسه تجاه أمه ، مع فرق واحد هو أن السيدة دالتون تريد منه أن يفعل ما يريد «هو» أن يفعله بعكس أمه التى تريد منه أن يفعل ما تعتقد هى أنه «يحسن» به أن يفعله . ولكنه لم يكن يريد الالتحاق بمدرسة ليلية . فالمدارس الليلية شىء لا بأس به حقا ولكن كانت لديه خطته الخاصة به .. صحيح انه لا يدرى ماذا ستكون هذه الخطط .. ولكنه كان على أية حال يحاول أن يرسمها لنفسه .

كان الليل قد بدأ يزداد دفئا . وهبت بعض الرياح ، وأشعل
سيجارة ثم فتح باب « الجاراج » وأدهشه وأمتعته أن يرى الأضواء
تغمر المكان بطريقة آلية مع فتح الباب .. وقال لنفسه : « ان هؤلاء
الناس يتمتعون بكل شيء » . السيارة .. كانت زرقاء داكنة جديدة
من طراز « بويك » عجالاتها ذات « طاسات » معدنية . وخطا خطوة
بعيدا عنها وأخذ يتأملها ثم فتح بابها ونظر إليها من الداخل .. وأحس
بقليل من خيبة الأمل عندما رأى أن السيارة ليست فاخرة جدا كما
كان يأمل .. ولكنها برغم رخصتها كانت رائعة في المظهر واللون وقال
في صوت مسموع : « لا بأس بها » ودلف الى داخلها ثم عاد بها الى الخلف
نحو المرء المخصص لها ثم أدارها وأوقفها عند الباب الجانبى وسمع
صوتا :

– أهذا أنت يابيجر ؟ .

ورأى الفتاة تقف على درجات الباب

– نعم ياسيدتى

وخرج وفتح لها الباب الخلفى ..

– شكرا

ولس بأصابعه أطراف قبعته وهو يتساءل : هل كان هذا هو ما
ينبغى عمله ؟

– أهى الجامعة التى تقع فى طريق « ميدواى » ؟

ومن خلال زجاج المرآة أمامه رأى أنها ترددت قبل أن تجيبه :

– نعم .. انها هى

وتحرك بالسيارة الى الشارع واتجه جنوبا وهو يقودها بسرعة
خمسة وثلاثين ميلا فى الساعة . كان يقودها بمهارة ودراية وهو يزيد
السرعة فى بداية كل مبنى ثم يخففها عندما يقترب من مفارق الطرق .

وقالت الفتاة : « أنت تحسن القيادة »

فأجاب بفخر : « نعم ياسيدتى » ..

وأخذ يراقبها من خلال المرآة فى أثناء القيادة ، كانت جميلة ..
ولكنها كانت ضئيلة الجسم . كانت تشبه عروسا فى « واجهة » أحد
المحال ، سوداء العينين بيضاء الوجه حمراء الشفتين . ولم تكن تتصرف
الآن كما كانت تفعل عندما رآها لأول مرة . والحق أن نظراتها كانت

عميقة . وأوقف السيارة عند الشارع السابع والأربعين حتى تفتح الإشارة ، ولم يعد أمامه ما يوقفه حتى الشارع الحادى والخمسين عندما أوقفه طابور من السيارات . فخفف من مسكته لعجلة القيادة ينتظر أن يتحرك الطابور أمامه .. كان يحس بالقوة وهو يقود السيارة .. فقد أضفت عليه السيارة شيئاً ما . وكان يعشق الضغط على بدال السرعة وينطلق بالسيارة وهو يرقب الآخرين لا يزالون واقفين أماكنهم ويرى أرض الشارع تمرق تحته . وتغير ضوء الإشارة من الأحمر الى الأخضر .. وبدأت السيارة تتحرك .

— يجز —

— نعم ياسيدتى

— در عند هذه « الناصية » وتوقف عند جانب الطريق .

— هنا ياسيدتى ؟

— نعم .. هنا

ماذا حدث .. وما معنى هذا ؟ وأوقف السيارة عند طريق « كوتيج جروف » ، واستدار ينظر إليها وجفل عندما رآها تجلس على أقصى حافة المقعد الخلفى لا يفصله عن وجهها سوى بوصات قليلة ..

وسألته برقة وابتسامة :

— هل أخفكتك ؟

وتتمت فى حيرة :

— أوه .. لا ياسيدتى

وعاد يراقبها من خلال المرآة وراها تسند يديها الرقيقتين الببضاوين على ظهر المقعد الامامى .. وهى تنظر نظرة فارغة ، ثم مالبثت أن قالت :

— لست أدرى كيف أقول لك ما أريد أن أقوله الآن .

ولم يقل هو شيئاً . وساد صمت طويل . بحق الجحيم .. ماذا تريد هذه الفتاة ؟ ومرقت بحدائه سيارة .. ونظر الى المرآة ورأى أضواء اشارات المرور تتغير ما بين الأحمر والأخضر .. حسنا .. أيا كان ماتريد أن تقوله له فهو يتمنى أن تسرع بقوله وتنتهى . هذه الفتاة غريبة حقاً . انها تفعل كل دقيقة مالا يتوقعه المرء . وانتظر

أن تتكلم .. ورفعت هى يدها من فوق ظهر المقعد الأمامى وفتحت
حقيبة يدها :

— امك ثقاب ؟

— نعم ياسيدتى

وأخرج علبة ثقاب من جيبه

— أشعل عودا ..

وجفل .. وأشعل العود وقرب لهبه منها .. وأخذت هى تدخن
لحظات فى صمت .. ثم ما لبثت أن سألته وهى تبتسم :

— أنت لست ثرثارا .. اليس كذلك ؟

وفتح فمه ليجيبها .. ولكنه عجز عن الكلام . ولقد أحس بأن
كلماتها والطريقة التى ألقتها بها تستلزم منه أن يقول شيئا .. ولكن
ماذا يستطيع أن يقول ؟

وعادت هى تقول :

— أنا لست ذاهبة الى الجامعة .. وتستطيع أن تنسى ذلك
تماما .. أريد أن توصلنى الى « لوب » ولكن اذا سألك أحد .. فقل
اننى ذهبت الى الجامعة ..

مفهوم يابيجر ؟

وتمتم يقول :

— نعم ياسيدتى .. لا مانع ..

—أعتقد أننى أستطيع أن أثمنك ؟

— نعم ياسيدتى .

— وأنا قبل كل شيء .. فى صفك .

آه .. ماذا تقصد بهذه العبارة ؟ انها فى « صفه » ، ففى أى
صف هو اذن ؟ هل تعنى أنها تحب الملونين ؟ حسنا .. لقد سمع ذلك
عن أسرتها كلها هل هى حقا مجنونة ؟ الى أى مدى يعلم أهلها تصرفاتها؟
ولكن .. اذا كانت حقا مجنونة وحمقاء فلماذا يدعه مستر دالتون
يقود لها السيارة ؟

وعادت الفتاة تقول :

— سوف أقابل أحد أصدقائى .. وهو أيضا صديق لك ..

ولم يسعه سوى أن يقول بدهشة :

- صديق لى ؟

- طبعا أنت لم تعرفه بعد

- آه !

- توجه الى « أوتر درايف » ثم الى رقم ١٦ فى شارع « لىك »

- أمرك يا سيدتى .

ربما كانت تقصد الحمر ؟ هذا بالضبط ما تقصده .. ولكن أحدا من أصدقائه ليس من الحمر .. ما « الحكاية » ؟ ربما سألته مستر « دالتون » : هل أوصلها حقيقة الى الجامعة .. وفى مثل هذه الحالة سوف يقول انه فعل ، وعليها هى أن تحميه . ولكن . ألا يحتمل أن يكون لمستر دالتون عيون يخبرونه بحقيقة الأماكن التى تذهب إليها ؟ لقد سمع أن كثيرين من الأغنياء يستأجرون مخبرين سرّيين لمثل هذه الأمور . لو أنه عرف « فقط » ما هى « الحكاية » كلها .. إذن لاستراح . ثم هى تقول انها ذاهبة لتقابل شخصا هو صديق له . وهو لا يريد أن يقابل شيوعيين . أنهم لا يملكون نقودا . وهو يرى أنه من الحق أن ينتهى الرجل الى السجن عندما يسرق ، ولكن أن يذهب الى السجن لأنه يختلط بالحمر .. فهذه مصيبة . لا بأس . سوف يذهب بها حيث تشاء ، فمن أجل هذا استأجروه . ولكنه سيخطو بحذر فى هذه « الحكاية » . كل ما يتمناه هو ألا تتسبب هذه الفتاة فى أن يفقد عمله .. واتجه بالسيارة الى « أوتر درايف » فى الشارع السابع . ثم اتجه شمالا فى طريق ميشيجان الى شارع « لىك » .. ثم اتجه غربا مسافة قليلة وهو يبحث عن رقم ١٦ .

- هنا يا بيجر .

- أمرك يا سيدتى .

وهذا السرعة ليقف أمام مبنى مظلم .

وقالت له وهى تخرج من السيارة :

- انتظر ..

ورآها تبتسم ابتسامة عريضة .. أقرب الى الضحك .. وأحس

أنها تدرك كل مشاعره وكل ما ساوره من أفكار فى تلك اللحظة ..

فأدار رأسه فى اضطراب .. لعن الله هذه الفتاة .

- لن أتأخر كثيرا .

ثم استدارت وهى تقول :

- لا تقلق يا بيجر .. سوف تفهم ذلك شيئا فشيئا .

وحاول أن يبتسم ولكنه لم يستطع .. فقال :

- أمرك ياسيدتى .

- أليست هناك أغنية مثل هذا المعنى ؟ أغنية يغنيها قومك .

- مثل ماذا ياسيدتى ؟

- « سوف تفهم ذلك شيئا فشيئا » ؟

- أوه .. بالضبط ياسيدتى

لقد كانت فتاة شاذة .. لا بأس . وأحسن بشيء ما فيها .. طغى على الخوف الذى بثته فى صدره ، لقد كانت تعامله كأدمى كأنما يعيش فى نفس العالم الذى تعيش هى فيه ، وهو شيء لم يسبق أن أحس به أمام شخص أبض آخر . ولكن لماذا ؟ أهى لعبة « تلعبها عليه » ؟ أن احساسه بالحرية وهو يستمع إليها لم يكن خاليا من الحاح الحقيقة التى تقول انها بيضاء وغنية وانها جزء من عالم لأناس تعودوا دائما أن يحددوا له ما يستطيع وما لا يستطيع أن يفعل .

وتطلع نحو المبنى الذى دخلته ، ورآه مبنى قديما بلا طلاء وبلا أضواء تتسلل من نوافذه أو من مدخله .. ربما كانت ستتلقى هناك بالصدى . اذا كان هذا هو كل ما فى الأمر استقامت الأمور ، ولكن ماذا اذا كانت قد ذهبت لتقابل هؤلاء الشيوعيين ؟ .. وعلى أية حال ، فكيف يبدو هؤلاء الشيوعيون ؟ أهى واحدة منهم وما الذى ياترى يجعل الناس شيوعيين ؟

وأرهدف السمع عندما فتح مدخل المبنى وخرجت الأنسة دالتون يتبعها شاب أبض . واتجه الاثنان نحو السيارة ، ولكنهما توقفا الى جانبها بدلا من أن يدخلا المقعد الخلفى .. ثم أصبحا فى مواجهته . وقالت الأنسة دالتون :

- بيجر .. هذا هو « جان » .. هذا هو « بيجر توماس » .

وابتسم « جان » ابتسامة عريضة ثم مد يده ليصافح بيجر الذى أحس بالمفاجأة والخوف وقال « جان » :

– كيف حالك يا بيجر .

وشدد بيجر على عجلة القيادة بيده اليمنى وهو فى نفسه ..
يتساءل : هل عليه أن يصافح يد الرجل الأبيض الممدودة اليه .. ثم
تمتم قائلا له :

– بخير

وكان « جان » لا يزال مادا يده ، وارتفعت يد « بيجر » اليمنى
ثلاث بوصات تقريبا ثم توقفت .. وقال جان :

– هيا .. صافحنى .

ومد « بيجر » راحة شبه مشلولة وقد ففرناه من الدهشة .
وأحس بأصابع « جان » تشدد على قبضته ، وحاول أن يجذب يده
بعيدا .. وفى رقة ، ولكن جان أمسك بيده فى قوة وهو يبتسم ثم
قال :

– يجب أن نتعارف .. أنا صديق مارى .

– نعم ياسيدى .

ووضع جان قدمه على رفرف السيارة وتابع كلامه :

– قبل كل شئ .. لا تقل لى « ياسيدى » . سوف أناذك
باسمك وتنادينى أنت باسمى فحسب .. هكذا ستكون الطريقة بيننا
.. فما رأيك ؟

ولم يجبه « بيجر » وكانت مارى تبتسم على حين كان جان
لا يزال يشد على قبضة بيجر ، وهذا يحنى رأسه فى زاوية حادة
ويجبل نظره بين جان وبين الشوارع كلما رغب فى ألا تلتقى عيناه
بنظراته . وسمع مارى تضحك فى رقة وهى تقول :

– لا بأس يا بيجر .. ان « جان » يريد ذلك حقا .

وأحس بالفضيب . فلتذهب روحها الى الجحيم .. أهى اذن
تسخر منه ؟ أهما معا يسخران منه ؟ ما الذى يريدانه بالضبط ؟ لماذا
لا يدعانه وشأنه ؟ انه لا يضايقهما .. حقا .. ان كل شئ ممكن
الحدوث مع أناس مثلهما ! لقد تركز كل عقله وجسده فى زاوية انتباه
واحدة .. أن يحاول بكل ما أوتى من جهد أن يفهم حقيقة ما يجرى
أمامه وأحسن بأنه غبى أحرق وهو يجلس خلف عجلة القيادة ويترك

رجلا أبيض يمسك بيده .. ترى ، ما الذى يمكن أن يظنه المارة فى الطريق ؟ انه شديد الاحساس بسواد بشرته .. وهو أيضا شديد الاقتناع بأن « جان » وأمثاله من البيض هم الذين أكدوا لديه هذا الاحساس . ألا يحتقر البيض البشرة السوداء ؟ اذن ، فلماذا يفعل « جان » هذا ؟ ولماذا تقف « مارى » هكذا بنظراتها المتألقة وكأنها شغوفة بما يجرى ؟ ما الذى يريدانه من وراء هذا كله ؟ أychتمل أنهم لا يحتقرونه ؟ ولكنهم يجعلونه يحس بقوة بسواد بشرته بمجرد وقوفهم هكذا وهم ينظرون اليه .. واحد يضغط على يده والأخرى تبتسم .. أحس لحظتها بأن وجوده الجثمانى قد انتهى .. وبأنه أصبح شيئاً بكرهه هو ذاته . ان شارة العار التى عرفها دائما ، مقرونة بالبشرة السوداء . فهناك أرض حرام .. منطقة مظلمة تفصل بين عالم البيض وعالم السود . وأحس لحظتها أيضا بأنه قد أصبح عاريا .. «شفافا» وبأن الرجل الأبيض الذى هوى به الى الحضيض وتسبب فى أهدار انسانيته ، يحاول الآن أن يرفعه لينظر اليه ويتسلى بمنظره . وتسالت فى صدره كراهية عمياء باردة خرساء نحو مارى وجان .

وترك جان يد بيجر وفتح باب السيارة الأمامى وهو يقول :
— دعنى أقد السيارة قليلا ..

ونظر بيجر الى مارى التى تقدمت نحوه ولمست ذراعه وهى تقول :

— لا بأس يابيجر .

وتحرك ليخرج من السيارة ولكن « جان » أوقفه قائلا :

— كلا .. ابق هنا .. « فقط » تحرك قليلا .

وتحرك « بيجر » وأخذ « جان » مكانه على عجلة القيادة وكان « بيجر » لا يزال يحس بأن يده أصبحت غريبة عنه كما لو أن « جان » خلف فوقها أثرا لا يزول .. ودلفت « مارى » هى الأخرى لتأخذ مكانا فى المقعد الأمامى . وهى تقول :

— تحرك قليلا يابيجر ..

وتحرك « بيجر » قريبا من جان واندست مارى الى جانبه وقد حشرت نفسها بينه وبين باب السيارة .. وأصبح محصورا بين أبيضين من كلا الجانبين .. بين جدارين بيضاوين عاليين .. لم يسبق له فى

حياته أن اقترب من امرأة بيضاء الى هذا الحد ! واشتم عطر شعرها وأحس بضغط جسدها على جسده . وتراجع « جان » بالسيارة الى شارع « آوتر درايف » ثم بدأ يتحرك يمينا ويسارا وسط صف السيارات العابرة وما لبث أن انطلق بالسيارة على طول شاطئ البحيرة بحذاء صفحة ساكنة من الماء .. وكانت السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة المحملة بالبرد ، والرياح تهب بشدة .

وقالت ماري :

— أليست ليلة رائعة ؟

— يا الهي .. انها رائعة حقا .

وانصت « بيجر » الى نبرة صوتيهما ونغماته .. والى الكلمات الرائقة التي تنساب بحرية من شفثيهما .

— يا لروعة السماء

— وهذا البحر

— أن مجرد النظر الى جمالها يذيب المشاعر

واستدار « جان » نحو « بيجر » وهو يقول :

— انه عالم جميل يا بيجر .. انظر الى الأفق .

ونظر بيجر دون أن يدير رأسه .. فقط أدار عينيه جانبا حيث بدت حيث بدت الأبنية العالية وقد تخللتها مربعات صفراء من الضوء ..

ولوح جان بيده وهو يقول :

— لسوف يكون كل هذا ملكا خالصا لنا في يوم من الأيام ، سوف يصبح لنا بعد الثورة .. ولكن علينا أن نقاتل من أجل ذلك اليوم .. انه عالم جدير بأن نفعل ذلك يا بيجر .. وعندما يجيء هذا اليوم سوف تتغير الأمور . لن يكون هناك أبيض أو أسود .. ولن يكون هناك غني وفقير ..

ولم يقل بيجر شيئا .. وظلت السيارة منطلقة . ثم قالت « ماري » :

— يبدو أننا نظهر كغرباء بالنسبة اليك .. اليس كذلك يا بيجر ؟

وتنفس بيجر في هدوء وقال وهو واثق من أنها لن تصدقه :

— أوه .. نعم ياسيدتى
وقد أحس بأنه لا يستطيع أن يجيبها بغير ذلك .

واشتد ألم ذراعيه وساقيه وهو مضطر الى أن « يلم » نفسه في
مساحة ضيقة .. ولكنه لم يجرؤ على أن يتحرك ولو قليلا ليريح نفسه .
وكان واثقا من أنهما لن يلقيا إليه بالا اذا هو حاول ذلك ، ولكنه أدرك
أنه اذا تحرك ولو قليلا فسوف يثير ذلك انتباههما اليه والى بشرته
السوداء .. وهو لم يكن يريد ذلك . انهما يجعلانه يحس بأشياء لم
يكن يريد أن يحس بها ، ولو أنه كان أبيض .. لو أنه كان مثلهما لتغير
كل شيء ، ولكنه كان أسود .. ومن ثم فقد جلس ساكنا .. والألم
يسرى في ذراعيه وساقيه ..

وعاد جان يسأل :

— قل لى يابيجر .. أين يمكننا أن نتناول طعاما جيدا فى «الحى
الجنوبى» ؟

— نعم .. ؟

واستدارت مارى نحوه فى مرح وقالت :

— نريد أن نزور مكانا « حقيقيا »

وسألها « بيجر » فى أسلوب من يشير ببساطة الى الأسماء
ولا يحدد منها اسما معينا :

— هل تريدان الذهاب الى ناد ليلى ؟

— لا .. نريد أن نأكل .

— اسمع يابيجر . نريد مكانا من هذه الأمكنة التى يأكل فيها
الملونين .. ولا نريد أماكن من التى يقدمون فيها الاستعراضات .

ماذا يريدان ؟ .. أجاب بنبرة محايدة :

— حسن .. هناك « مطعم ايرنى » .

— هذا يبدو جميلا ..

وقالت مارى :

— حسن .. فلنذهب اليه يا جان .

وقال جان :

— حسن .. أين هو ؟

وأجاب بيجر :

— على « ناصية » الشارع السابع والأربعين وطريق انديانا

وانجه « جان » بالسيارة الى الشارع الحادى والثلاثين ثم اتجه غربا الى طريق انديانا . وود « بيجر » لو قاد « جان » السيارة بسرعة أكبر ، حتى يصلوا الى « مطعم ايرنى » فى أقرب وقت ممكن ، فسوف يمنحه ذلك الفرصة لأن يجلس بداخل السيارة ويمدد ساقيه المتعبتين حتى ينتهى الاثنان من الطعام . واستدار جان بالسيارة فى طريق انديانا ثم اتجه جنوبا .. وتساءل بيجر بينه وبين نفسه : ماذا يمكن أن يقوله جاك وجس وج . هـ . اذا هم رأوه جالسا بين اثنين من البيض داخل سيارة ؟ لسوف يجعلون من ذلك ولا شك فرصة « للتريقة » كلما تذكروا منظره .. وأحس « بمارى » تتحرك فى جلسيتها وتضع يدها فوق ذراعه . ثم تشير الى بناءين للسكنى مرتفعين مضامين على جانبى الطريق :

— اتعلم يا بيجر .. لقد تمنيت دائما أن أدخل بيتا من هذه البيوت .. أنظر كيف يعيش قومك .. هل تعرف ماذا أقصد ؟ لقد زرت انجلترا وفرنسا ومكسيكو ولم أكن أعرف كيف يعيش الناس على بعد عشر مبان من حيث كنت أسكن . ان بعضنا يعرف القليل جدا عن البعض . أريد فحسب أن أرى وأعرف .. أعرف هؤلاء الناس . اننى لم أدخل طوال حياتى بيت زنجى ، ومع ذلك فيجب أن يعيشوا مثلما نعيش .. فهم آدميون .. هناك اثنا عشر مليوناً منهم .. وهم يعيشون فى بلادنا .. معنا فى نفس المدن ..

ثم ساد الصمت .. واجتازت السيارة « الحزام الأسود » عبر مجموعة من الأبنية العالية المخصصة لسكنى السود . وكان « بيجر » يعلم أنهم يفكرون فى حياته وحياة قومه . وأحس فجأة بأنه يريد أن يمسك بكتلة من مادة ثقيلة الوزن ويقدر ما يستطيع من قوة ثم يقف فى مكان خال يشرف منه على هذه السيارة المسرعة ، ثم يلقي بحمله فوقها فى ضربة واحدة عنيفة تطيح بها — وهو معهم بداخلها . كان قلبه يدق بعنف .. وكان يجاهد كيما يسيطر على نفسه ومشاعره . ولكنه لم يستطع . لماذا لا يدعانه وشأنه ؟ ما الذى ارتكبه فى حقهما حتى ينكأ كل منهما جراحه ؟ ما الذى يستفيدانه من جلوسهما حوله ومن اشعارهما له بالمذلة والبؤس ؟

وقال جان :

— دلتى على المكان يابيجر ..

— أمرك ياسيدى

ونظر « بيجر » خارج السيارة ورأى أنهما اقتربا من الشارع السادس والأربعين ..

فقال :

— فى نهاية المبنى التالى ياسيدى ..

— هل أستطيع أن « أركن » السيارة هنا ..

— أوه بالطبع ياسيدى

— بيجر .. أرجوك .. لا تقل ياسيدى .. أنا لا أحب هذه الكلمة . انك رجل مثلى تماما .. أنا لست أفضل منك . ربما يحب ذلك رجل آخر أبيض .. ولكننى لا أحب ذلك أفهمت يابيجر ؟

— نعم ..

ثم صمت قليلا وابتلع ريقه وأرخبى بصره ينظر الى يديه السوداوين . ثم قال :
— حسن .

وتمنى ألا يكونا قد انتبها الى اضطراب صوته ..

— هكذا يابيجر ..

ومدت ماري يدها من خلف ظهر بيجر .. ولمست كتف جان وقالت فى لهفة :

— هيا بنا ..

وأوقف جان السيارة وفتح الباب وغادرها .. وتحرك « بيجر » يأخذ مكانه على عجلة القيادة مرة أخرى سعيدا بأنه سيربح ذراعيه وساقيه . وخرجت « ماري » من الباب الآخر .. ه .. يستطيع الآن أن يسترق بعض الراحة . ولقد استغرقت أحاسيسه فى تلك اللحظة الى درجة أنه لم يرفع بصره الا عندما أحس فجأة بأن هناك صمتا غريبا طويلا ، وعندما رفع بصره رأى « ماري » تدير بصرها عن وجهه ورآها تنظر الى « جان » ورأى « جان » ينظر اليها . ولم يكن هناك مجال للخطأ فى معنى النظرة فى عينيهما .. كان معناها بالنسبة لبيجر : ما الذى ألم به ؟ وضغط « بيجر » على فكيه بشدة ونظر أمامه مباشرة .

وتساءلت ماري في لهجة عذبة جعلته يود أن يقفز نحوها :

— ألا تجيء معنا يا بيجر ؟

ان الناس في مطعم ايرني هذا يعرفونه ، ولم يكن يريد أن يجعلهم يرونه مع هؤلاء البيض . فقد كان واثقا من أنهم سيتساءلون : من هؤلاء البيض الذين يرافقهم بيجر ؟

وقال هامسا :

— أ ... أ ... أنا لا أريد الدخول .

وسأله جان :

— ألسنت جائعا ؟

— نعم .. لسنت جائعا .

واقترب الاثنان من السيارة وقال جان :

— لا بأس .. تعال واجلس معنا .

— أ ... أ ...
وقالت ماري :

— تعال .. هيا ..

— أستطيع أن أبقى هنا .. فيجب أن يبقى أحد في السيارة .

وصاحت ماري :

— فلتذهب السيارة الى الجحيم .. هيا اخرج .

وقال بيجر في عناد :

— لا أريد أن أكل ..

وتنهّد جان وقال :

— حسن اذا كان هذا رأيك فلن ندخل نحن أيضا ..

وأحس بيجر بأنه قد وقع في المصيدة .. أوه .. ياللعنة .. وأدرك في لحظة أنه كان بوسعه أن يجعل ذلك كله سهلا لو أنه تظاهر ببساطة منذ البداية كما لو أنهما لم يفعلا شيئا غير مألوف . ولكنه لم يفهمهما انه لم يثق فيهما .. بل انه كرههما .. ولقد حيره أنهما عاملاه بهذه الطريقة . ولكن .. لماذا يظل على اصراره . هذا عمله على أية حال .. فهو سائق السيارة .. واذا كان يؤلمه أن يجلس هكذا ويتعرض لنظراتهما فلن يكون ألمه هذا بأشد من ألمه اذا رافقهما الى الداخل ..

وتمتم أخيرا فى غضب :

— حسن .

وغادر السيارة وصفق بابها خلفه ، واقتربت مارى منه وأمسكت بذراعه وحدق هو إليها طويلا وفى صمت ، وكانت هذه أول مرة ينظر فيها إليها مباشرة . . . ولو لم يكن غاضبا لما استطاع أن يفعل ذلك . وقالت مارى :

— بيجر . . . لست مجبرا على المجيء معنا اذا لم تكن راغبا فى ذلك . أرجوك . . .

لا تفكر يا بيجر . . . نحن لا نحاول أن نضايقك . . .

وتوقفت عن الكلام . وعلى الضوء الشاحب لمصباح الطريق رأى دموعا حيرى فى عينيها ورأى شففتيها ترتعشان ثم ارتمت تستند الى السيارة فتراجع خطوة كأنها هى مصابة بعدوى خفية وأسرع «جان» يحيط خصرها بذراعه ليسندها واستطاع «بيجر» أن يسمع نسيجها الخافت . يا الهى ! لقد أحس لحظتها برغبة مجنونة فى أن يستدير ويتعد عنهما ، وبأنه قد غرق وسط أعماق من الظلال . . . الظلال حالكة السواد كالليل الذى يهيمن فوق رأسه . لقد تصرف بأسلوب جعلها تبكى ، ومع ذلك فقد تصرفت هى الأخرى بأسلوب جعله يشعر بأنه مضطر الى أن يسلك ذلك السلوك نحوها . انه فى علاقته بها يحس كما لو كان يركب منشارا . . . فلم يكن الاثنان قط على نفس المستوى ، أحدهما كان دائما فى الهواء . وجففت «مارى» دموعها وهمس «جان» بشئ فى أذنها وتعجب «بيجر» ماذا يمكن أن يقوله لأمه ولكتب الضمان أو لمستر دالتون اذا هو ترك العمل . لا بد أنهم سيسألونه عن السبب الذى من أجله فعل ذلك . . . ولن يستطيع حينئذ أن يقدم تبريرا واحدا . وسمع مارى تقول :

— أنا بخير الآن يا جان . انى آسفة . أنا حمقاء ولا شك . . . لقد تصرفت بسخف .

ثم رفعت بصرها الى بيجر وقالت :

— لا عليك يا بيجر . . . لقد كنت سخيفة . . . أعتقد اننى كنت كذلك . . .

ولم يقل بيجر شيئا . . .

وقال جان يريد أن ينهى الموقف :

– هيا يا بيجر .. هيا نأكل ..

وأمسك «جان» بذراعه وحاول أن يدفعه معه الى الأمام ولكن «بيجر» تشبث بمكانه .. فسار جان ومارى نحو مدخل المطعم وتبعهما «بيجر» مضطربا محنقا . واتجه «جان» الى مائدة صغيرة قرب الحائط وقال :

– اجلس يا بيجر ..

وجلس «بيجر» وجلست «مارى» فى مواجهته .. وسأله جان :

– هل تحب الدجاج المشوى ؟

– نعم ياسيدى

ثم حك رأسه .. كيف بالله يستطيع أن يتعلم فى ليلة ألا يقول «نعم ياسيدى» و «نعم ياسيدتى» وهو يخاطب البيض ، وهو الذى تعود أن يقولهما طوال حياته ؟ .. نظر أمامه بطريقة يتحاشى بها أن يلتقى بصره بهما .. وأقبلت فتاة المطعم .. وطلب «جان» ثلاث زجاجات من البيرة (البيرة) وثلاث قطع من الدجاج المشوى .
– هه .. يا بيجر ..

واستدار فرأى «جاك» يلوح له على حين يحدق فى نفس الوقت الى جان ومارى .. ورد عليه بإشارة جافة من يده . ياللعنة ! لقد أسرع «جاك» بعيدا وهو يهرول .. وفى حذر ، تطلع «بيجر» حوله ، ورأى فتيات المطعم (الساقيات) وكثيرين من رواده حول الموائد يحدقون اليه . كانوا جميعا يعرفونه .. وكان هو واثقا فى تلك اللحظة من أنهم يعجبون مثلما كان يمكن أن يحدث له لو أنه كان فى مكانهم . ولمست مارى ذراعه وقالت :

– هل جئت الى هنا من قبل يا بيجر ؟

وحاول أن يجد كلمات محايدة .. كلمات ذات معنى ولكنها تخفى كل ظل لمشاعره ..

– قليلا ..

– مكان رائع حقا

ووضع البعض قطعة نقود معدنية فى «فونوغراف» آلى .. وارتفعت الموسيقى وهنا أحس بيجر بيد تقبض على كتفه :

– هيه يابيجر .. أين كنت ؟

ورفع بصره ورأى صديقته « بيسي » تضحك في وجهه ..

وحياها بجفاف فقالت وهي تبتعد وتنقل بصرها بين جان ومارى :

– أوه .. معذرة .. لم أكن أعرف أن معك صحبة .

وقالت مارى :

– دعها تجلس معنا يابيجر ..

وكانت « بيسي » قد ذهبت الى مائدة بعيدة وجلست الى جوار فتاة

أخرى .. فقال بيجر :

– انها بعيدة الآن .

وأحضرت فتاة المطعم الجعة والدجاج .. وصاحت مارى :

– رائع ..

وقال جان وهو ينظر الى بيجر :

– يبدو أنهم يعرفونك هنا .. أليس كذلك يابيجر ؟

ونردد بيجر .. ثم قال فى بساطة :

– بلى ..

وبدأ جان ومارى يأكلان ، وأمسك بيجر بقطعة من الدجاج وقضمها .

وعندما حاول أن يلوكها فى فمه .. وجد أن فمه شديد الجفاف . وبدأ

أن كل وظائف جسده العضوية قد توقفت عن العمل ، وعندما أدرك هو

ذلك .. وفهم السبب ، لم يعد قادرا على أن يمضغ الطعام .. وبعد

قضمتين أو ثلاث : توقف .. وبدأ يحتسى الجعة .

وقالت مارى :

– كل الدجاج .. انه طيب .

– لست جائعا ..

وسأله جان بعد طول صمت :

– أتريد مزيدا من الجعة .

ربما يفيد أنه يشرب قليلا .. فقال :

– لا مانع .

وطلب جان ثلاث زجاجات أخرى ثم سأل بيجر :

- أليس عندهم هنا مشروب أقوى من الجعة ؟
- لديهم كل شيء تريده •
- وطلب جان زجاجة من الروم صب منها ثلاث كئوس وأحس «بيجر»
بالشراب يبعث فيه الدفء •• وبعد كأس أخرى بدأ جان يتكلم :
- أين ولدت يا بيجر ؟
- فى الجنوب
- أين ؟
- الميسيسبى
- والى أى مدى وصلت فى المدرسة ؟
- الصف الثامن •
- ولماذا توقفت ؟
- لا نقود •
- هل ذهبت الى المدرسة فى الجنوب أو الشمال ؟
- فى الجنوب أكثر •• أمضيت هنا عامين فحسب فى المدرسة
- منذ متى أنت فى شيكاغو ؟
- منذ حوالى خمس سنوات
- وهل أعجبتك الحياة هنا ؟
- لا بأس
- هل تعيش مع أسرتك ؟
- أمى وأخى وأختى
- وأين أبوك ؟
- مات ••
- منذ متى ؟
- لقد قتل فى أحد الاضطرابات عندما كنت صغيرا •• فى الجنوب
- وساد الصمت •• وأحس «بيجر» بأن الروم يساعده •• وعاد جان
يسأله :
- وماذا حدث بشأن مقتله ؟

— لا شيء .. على قدر ما أعرف .

— وما رأيك فى هذا ؟

— لست أدرى .

— اسمع يا بيجر .. هذا ما نريد أن نضع له حدا . هذا ما نريد نحن الشيوعيين أن نحاربه .. نريد أن نضع حدا لأن يعامل الناس الآخرين بهذه الطريقة .. أنا عضو فى الحزب .. ومارى تتعاطف معنا .. ألا ترى أننا نستطيع أن نتعاون كيما نوقف أشياء كهذه ..

وقال بيجر وهو يحس بأثر الشراب فى رأسه :

— لست أدرى .. هناك بيض كثيرون فى الدنيا ..

— هل سمعت عن أولاد « سكوتسبورو » ؟

— نعم .. سمعت عنهم .

— ألا تعتقد أننا فعلنا شيئاً طيباً بأن ساعدنا على أن نبعد هؤلاء

الأولاد عن القتل ؟

— لا بأس .

وقالت مارى :

— أتعرف يا بيجر .. نريد أن نكون أصدقاءك .

ولم يقل « بيجر » شيئاً . ازدرد بقايا الكأس وصب « جان » دوراً آخر .. وأحس « بيجر » بأنه قد أثقل فى الشراب بما يكفى أن يواجههم ببعصره . وكانت « مارى » تبتسم له وهى تقول :

— سوف تألفنا يا بيجر .

ووضع جان زجاجة الروم وهو يقول .

— يجدر بنا الآن أن ننصرف .

وقالت مارى :

— نعم ..

ثم استدارت الى بيجر وقالت :

— أوه .. بيجر أنا ذاهبة الى « دترويت » فى التاسعة صباحاً وأريد منك أن تحمل حقيبتي الصغيرة الى المحطة . قل لوالدى وسوف يتيح لك الوقت .. والأفضل أن تكون مستعداً بالحقيبة فى الثامنة والنصف .

– سوف أوصلها ..

ودفع «جان» الحساب وعادوا جميعا الى السيارة . وجلس بيجر خلف عجلة القيادة وقد أحس بأنه أحسن حالا . ودلف جان ومعه ماري الى المقعد الخلفي .. ورآها بيجر في أثناء القيادة وقد استراحت بين ذراعي « جان » .

– در قليلا في المتنزه يا بيجر .

– حسن ..

واستدار بيجر بالسيارة داخل متنزه واشنطن .. وقادها في بطء عبر الممرات الطويلة الملتوية . ومن لحظة لأخرى كان يرى من خلال زجاج المرأة .. «جان» وهو يقبل «ماري» .. وسألته ماري :

– أليديك صديقة يا بيجر ؟

– نعم .. لي صديقة .

– أود أن أراها يوما .

ولم يجب بيجر .. وبدت عينا ماري كما لو كانت تحلم وكما لو كانت تخطط لأشياء في المستقبل . ثم استدارت نحو «جان» وألقت بيدها في رقة فوق ذراعه ثم قالت :

– كيف كانت المظاهرة ؟

– رائعة .. ولكن الشرطة ألقت القبض على ثلاثة رفاق ؟

– من هم ؟

– أي . س . ل . وامرأتان زنجيتان .. آه بالمناسبة يا ماري . نحن في أشد الحاجة الى النقود من أجل الكفالات .

– كم ؟

– ثلاثة آلاف ..

– سوف أرسل لك « شيكا » بالبريد .

– هذا جميل

– هل تعبتي اليوم ؟

– نعم . كنت في اجتماع حتى الثالثة من صباح اليوم . كنت أنا وماكس نبحث أمر الكفالة طوال اليوم ..

– «ماكس» هذا لطيف جدا .. أليس كذلك ؟

- انه واحد من أمهر المحامين عندنا
 وكان بيجر يسمعهما ، وأدرك أنهما كانا يتحدثان عن أمور شيوعية
 وحاول أن يفهم ولكنه عجز ..
- جان
- نعم يا حبيبتي .
- سوف أنهى الدراسة فى الربيع وسوف ألتحق بعد ذلك بالحزب .
- مرحى .. أنت رائعة ..
- ولكن ينبغى أن أكون حذرة .
- اسمعى .. ما رأيك فى أن تعملى معى فى المكتب ؟
- لا .. أريد أن أعمل وسط الزوج .. فهم الذين يستحقون
 الاهتمام .. يخيّل الى أنهم قد منعوا عن كل شئ .
- هذا صحيح ..
- عندما أرى ما فعلوه بهؤلاء الناس .. أحس بالألم والحزن .
- نعم .. انه أمر مزعج ...
- وأحس بأننى عاجزة ولا فائدة منى .. أريد أن أفعل شيئا .
- كنت أعرف أنك لها وزيادة .
- قل لى يا « جان » .. هل تعرف كثيرين من الزوج ؟ أريد أن
 أقابل بعضهم .
- لا أعرف أحدا منهم معرفة وثيقة . ولكنك ستلتقين بهم عندما
 تصبحين فى الحزب .
- ان عواطفهم جياشة . يالهم من قوم . لو أننا استطعنا أن ندفعهم
 الى الحركة ..
- لن نستطيع احداث ثورة بدونهم .. ولكن ينبغى أن ننظمهم ،
 فهم على جانب من الجرأة .. وسوف يمنحون الحزب شيئا يحتاج اليه .
- وأغانيهم .. يالروعتها وروحانيتها .. أليست رائعة ؟
- ورآها « بيجر » تستدير نحوه وتقول :

- قل لى يا بيجر ٠٠ هل تجيد الغناء ؟
 - لا ٠٠ لا أستطيع .
 - أوه يا بيجر ٠٠
 ثم طوحت برأسها فى رفق وأغمضت عينيها وبدأت تغنى :
 تارجى فى رقة ياعربتى الجميلة ٠٠
 التى جاءت لتحملنى الى البيت ٠٠
 وشاركها جان فى الغناء ٠٠ وابتسم بيجر ٠٠ بازدرء ٠٠ فما كانت
 تلك النعمة ٠٠
 وقال جان مشجعاً :
 - هيا يا بيجر . ساعدنا فى الغناء .
 - لا أستطيع الغناء ٠٠
 ثم ساد الصمت مرة أخرى ٠٠ وتابعت السيارة سيرها . ثم سمع
 «جان» يقول فى صوت منخفض :
 - أين الزجاجة ؟
 - هنا ٠٠
 - أريد رشفة ٠٠
 - وأنا أيضاً يا حبيبى ٠٠
 - لقد أثقلت الليلة ٠٠ أليس كذلك ؟
 - مثلك أنت أيضاً ٠٠
 وضحك الاثنان ٠٠ وقاد بيجر السيارة فى صمت . ثم ما لبث أن
 سمع صوت شراب ٠٠
 - جان
 - ماذا ؟
 - هذه كانت رشفة كبيرة
 - اليك ٠٠ خذى أنت أيضاً مثلها ٠٠
 ومن خلال زجاج النافذة رآها ترفع الزجاجة وتشرب .
 - ربما يحب «بيجر» أن يشرب يا جان ٠٠ سله ٠٠
 - آره ٠٠ قل لى يا بيجر ؟ أتحب أن تشرب ؟

وأبطأ بيجر قليلا ، ثم مد يده وتناول الزجاجاة ورفعها الى شفتيه
مرتين .. وجرع جرعتين ضخمتين ..

وصاحت ماري ضاحكة .. « ووووو .. »

وقال جان :

- احسنت يا بيجر ..

وسمح « بيجر » فمه مرتين بظهر يده وتابع قيادة السيارة فى بطء
وسط المتنزه المظلم . وكان يسمع من حين لآخر صوت «قرقرة» زجاجاة
الروم نصف الفارغة فقال لنفسه «انهما سوف يشملان» .. وخاصة أنه
أحس بتأثير الروم يكاد يزحف حتى أطراف أصابعه وحتى شفتيه . وسمع
«مارى» تعاود الشرب . ياللحجيم ، انها ثملت حتى قبل هذه الزجاجاة !!
وتابعت السيارة سيرها البطيء خلال المنحنيات المتتالية وحرارة الروم
تنتشر من معدته الى جسده كله . والحق أنه لم يكن يقود السيارة بالمعنى
المفهوم .. ولكنه كان يجلس ويسبح بنعومة وسط الظلام فحسب وبداه
مستقرتان فى رفق فوق عجلة القيادة وجسده مسترخ فى خمول فوق
المقعد .. وحينما نظر الى المرأة مرة أخرى رأهما لا يزالان يشربان وقد
بدأ السمكر يلعب برأسيهما .. وتابعت السيارة سيرها خلال المنحنيات
وهو ينظر أمامه لحظة والى المرأة أخرى . وسمع جان يهمس لمارى ..
ثم سمع الاثنین يتنهذان . وأحس بأن شفتيه أصبحتا عاجزتين عن
الحركة .. ماذا ؟ هل سكر هو الآخر ؟ انه لم يعد يرى المدينة أو المتنزه
بوضوح .. كان يسبح داخل السيارة .. وفى الخلف كان جان ومارى
يتبادلان القبلات .. ومر الوقت .. ثم قالت ماري :

- الساعة الآن الواحدة يا حبيبى .

- حسن .. ولكن لنستمر قليلا فالمكان هنا رائع .

- أبى يقول انى فتاة سيئة .

- وأنا آسف يا عزيزتى ..

- سوف أتصل بك فى الصباح قبل أن أخرج .

- فى أى ساعة ؟

- حوالى الثامنة والنصف .

- جميل .. ولكنى لا أحب أن تسافرى الى دترويت .

- أنا أيضا لا أريد ذلك .. ولكن يجب أن أفعل . أنت ترى
يا حبيبى أنه ينبغي أن أمهد لما سيكون بينى وبينك فى فلوريدا . ويجب
أذن أن أفعل ما يريده أبى وأمى بعض الوقت .

- ولكننى أكره لك أن تفعل ذلك .

- سوف أعود فى خلال يومين فحسب .

- ويومان وقت طويل .

- أنت أحق .. ولكنك « حلو »

ثم ضحكت .. ومنحته قبلة .. وقال جان لبيجر :

- الأفضل أن نعود الآن

وخرج بيجر بالسيارة من المتنزه الى طريق «كوتيج جروف» واتجه
شمالا . وكانت شوارع المدينة قد أصبحت خالية هادئة وسط الظلام .
وعندما وصل الى الشوارع السادس والأربعين ، وعلى بعد مبنى واحد من
بيت آل «دالتون» ، سمع صوت «عربة» ركاب خلفهم .. وقال جان وهو
يتطلع من زجاج النافذة الخلفية :

- هذه « عربتى » ..

وقالت مارى :

- يا حبيبى . أمامك طريق طويل للعودة . كنت أود أن أوصلك
ولكننى تأخرت كثيرا و « ماما » بدت كثيرة الشكوك هذه الأيام .

-- لا تقلقى .. سوف أكون على ما يرام .

- اسمع . هل تحب أن يوصلك بيجر ؟

- هراء ! لماذا يوصلنى كل هذه المسافة فى هذا الوقت من الصباح ؟

- اذن يحسن بك أن تلحق هذه « العربة » .

- لا .. سوف أوصلك أولا الى البيت

- ولكن السيارة يا حبيبى لا تمر الا كل نصف ساعة فى مثل هذا
الوقت المتأخر . وسوف تتعب اذا انتظرت هنا فى البرد . اسمع ، الحق
بهذه السيارة .. وسوف أصل الى البيت فى أمان . ان المسافة قصيرة
جدا .

- هل أنت واثقة من أن كل شيء على مايرام ؟
- بالطبع .. ان البيت قد ظهر الآن .. هذا هو .. انظر .
- ومن خلال المرأة .. رآها «بيجر» تشير الى بيت آل «دالتون»
- حسن ..
- ثم قال لبيجر :
- قف يا بيجر .. فسأنزل هنا .
- وأوقف بيجر السيارة وسمعهما يتهاامسان .
- الى اللقاء يا جان ..
- الى اللقاء يا حبيبتي ..
- سوف أتصل بك غدا ..
- بالتأكيد ..
- ووقف «جان» الى جوار الباب الأمامي للسيارة ومد يده يصافح «بيجر» .. وصافحه «بيجر» في تردد .
- لقد سعدت بلقائك يا بيجر ..
- وتتمم «بيجر» ..
- حسن ..
- أنا سعيد حقا بمعرفتك .. اسمع ، خذ رشفة أخرى .
- وتناول بيجر رشفة كبيرة . وقالت ماري :
- أعطني أنا أيضا رشفة يا جان .. فسوف تساعدني على النوم .
- ألم تثقل في الشراب ؟
- أوه .. هيا يا حبيبي !
- ثم خرجت من السيارة واستندت الى « افريز » السيارة وأعطاهما «جان» الزجاجاة فرفعتها الى شففتيها ..
- وصاح « جان » في مرح :
- و و و و و و
- ماذا حدث ؟
- لا أريد أن تسكري
- أستطيع أن أحتمل ..

ثم رفع جان الزجاجاة وأفرغها تماما .. ثم ألقى بها فى الشارع ..
ودس يديه فى «جيبية» يبحث عن شيء .. وبدأ يترنج من السكر ..
وسألته مارى وقد بدا السكر أيضا فى صوتها :

— هل فقدت شيئا يا حبيبى ؟

— لا .. ولكن .. معى شيء أريد أن يقرأه « بيجر » .. اسمع
يا بيجر .. معى هنا بعض النشرات أريد أن تقرأها ..

ومد بيجر يده وتناول حزمة صغيرة من المطبوعات وهو يقول :

— حسن ..

— أريد حقيقة أن تقرأها .. وسوف أحدثك بشأنها فى خلال
يومين ..

— سوف أقرأها ..

وتشاءب وهو يدس الحزمة فى جيبه .. على حين قالت «مارى» :

— سوف أتيقن بنفسى أنه قرأها ..
وقبلها «جان» مرة أخرى .. وسمع « بيجر » صوت الحافلة تقترب
خلفهم فصاح «جان» :
— الى اللقاء ..

— الى اللقاء يا حبيبى .. وسوف أركب الى جوار بيجر ..

ثم جلست فى المقعد الأمامى وتوقفت الحافلة وقفز جان اليها ..
ثم تحركت متجهة شمالا .. على حين استدار « بيجر » ناحية طريق
«دريكسيل» .. واسترخت «مارى» فى مقعدها وهى تتنهد وقد باعدت
ما بين ساقيهما .. وتابعت السيارة سيرها .. وأحس « بيجر » برأسه
يدور ..

— أنت رقيق للغاية يا بيجر ..

ونظر اليها .. ورأى وجهها الأبيض وعينيها اللامعتين .. وأدرك
أنها سكرى تماما .. فقال :

— لست أدرى !

وصاحت مارى :

- أنت تقول أشياء غريبة حقا ..

- ربما ..

وأسندت رأسها على كتفه :

- هل تمنع ؟

- لا ..

- هل تعلم أنك لم تقل «نعم» أو «لا» طوال «ثلاث ساعات»

ثم ضحكت .. وعاد هو يحس بالكراهية نحوها . ها هي ذى مرة أخرى تنسل الى أعماقه ، وهو لا يحب أن تفعل ذلك . وجلست هي تسمح عينيهما بمنديل على حين ثبت هو بصره الى الامام ودخل بالسيارة الممر المخصص لها ثم توقف ونزل ليفتح لها الباب ولكنها لم تتحرك . وكانت قد أغمضت عينيهما .. وقال بيجر :

- ها قد وصلنا .

وحازلت أن تهض ولكنها ما لبثت أن ارتمت مرة أخرى فوق المقعد . وهي تصيح :

- أوه ..

كانت سكرى .. سكرى بحق . ومدت له يدها وقالت :

- اقترب .. ساعدنى على النهوض .. فأنا متعبة ..

وكانت مسترخية على ظهرها وقد انحسر ثوبها كثيرا عن ساقها حتى أن «بيجر» استطاع أن يرى أقصى جواربها مشدودين على فخذيها . ووقف ينظر اليها لحظة .. ورفعت هي بصرها ونظرت اليه ثم ضحكت وقالت :

- هيا ساعدنى .. لقد التصقت بالمقعد .

وساعدها .. وأحست يدها بجسدها اللين وهي تنزل من السيارة . وكانت عيناها محمومتين تنظران اليه .. وشعرها يلامس وجهه وتعبق رائحته فى خياشيمه .. وضغط فكيه وقد أحس بشئ من الدوار .. وعادت تقول :

- أين قبعتى ؟ لقد نسيتها ..

وكانت تترنج وهي تتكلم ، وشدد هو ذراعيه حولها يمسك بها .
ونظر حوله ورأى قبعتها ملقاة فوق « أرضية » السيارة .

— هذه هي ..

والتقط قبعتها وهو يتصور ما يمكن أن يحدث لو أن رجلا أبيض
رآه معها فى هذا الموقف . ماذا يمكن أن يحدث لو رآه الرجل العجوز
« دالتون » ؟ ونظر تلقائيا الى البيت الكبير وكان الظلام والصمت يلفانه ..
وتنهدت « ماري » وهي تقول :

— حسن .. أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب الى فراشى .

وأرخی ذراعيه قليلا .. ولكنه أسرع يسندها مرة ثانية حتى
لا تسقط على الأرض .. ثم قادها نحو عتبة الباب وهو يقول :

— هل تستطيعين ؟

ونظرت اليه .. وكأنه تحداها .. ثم قالت :

— بالتأكيد .. دعنى الآن ..

ورفع ذراعيه .. وصعدت هي الدرجات القليلة فى ثبات ولكنها
ما لبثت أن تعثرت بقوة وارتطمت بالحاجز الخشبي . وأسرع ييجر
نحوها ، ثم توقف ويداه ممدودتان وقد جمدهما الخوف . يا الهى !
لسوف توقظ كل من بالبيت . كانت تنحني نصف انحناءة وهي تستريح
على ركبة واحدة ويد واحدة ، وتنظر خلفها فى دهشة . هذه البنت
مجنونة ولا شك ! وتحاملت على نفسها ونهضت وسارت فى ببطء تصعد
الدرجات الباقية وهي تستند الى الحاجز . ثم ما لبثت أن ترنحت أمامه
وهي تبتسم وتقول :

— لا بد أننى أثقلت فى الشرب .

وراقبها وقد خامره مزيج من الاحساس بقلة الحيلة . والاعجاب
والكراهية . لو أن أباه رآه معها الآن لكان فى ذلك نهاية عمله . ولكنها
كانت جميلة رقيقة ، كل تصرفاتها تؤكد أنها لا تكرهه مثلما يكرهه
البيض .. ولكنها كانت بيضاء قبل كل شئ وبعده .. ولهذا كرهها .
رآها تغمض عينيها فى ببطء ثم تعود فتفتحهما . اذا لم تكن قادرة على أن
تصل الى حجرتها وحدها، فهل يدعو المستر دالتون أو بيجي؟ لا .. لسوف
يفضحها ذلك . كذلك فانه وان كان يكرهها فقد أثاره منظرها وهي

تقف هكذا وقد أغلقت عينيها مرة أخرى وترنحت تميل نحوه .. وأمسبك بها وقال :

– يجدر بي أن أساعدك ..

– فلنذهب من الباب الخلفي يا بيجر . سوف أرتطم حتما بشيء ما فأوقظ الجميع اذا حاولت الصعود من هنا ..

وقادها نحو «البدر» وهي تجر ساقها جرا . وأضاء النور وهو يسندها بيده الأخرى .. وسمعتها تتمتم قائلة :

– لم أكن أظن أنني سكرى الى هذه الدرجة .

وقادها في ببطء عبر السلالم الضيقة المؤدية الى باب المطبخ ، وهو يحيط بيديه خصرها .. وأطراف أصابعه تشعر بلين صدرها البارز . وفي كل لحظة كان ثقلها يزداد وطأة عليه .

وعندما وصلا الى باب المطبخ همس اليها في حزم :

– حاولي أن تقفي جيدا ..

فقد فكر في أن مسر « دالتون » قد تكون واقفة بداخل المطبخ في ملابسها البيضاء الفضفاضة تحديق بعينيها العمياء المتحجرتين كما رآها عندما دخل المطبخ في الصباح ليشرّب . وفتح الباب في هدوء .. وتطلع جيدا .. وكان المطبخ خاليا مظلم الا من ضوء أزرق خافت يتسلل من الخارج خلال النافذة .

– هيا ..

واستندت اليه بقوة وأحاطت عنقه بذراعيها .. ودفع الباب وخطا خطوة ثم توقف يرهف السمع . وتطلع الى وجهها في الضوء الخافت .. وتوقف لحظة ثم همس اليها في اضطراب وخوف :

– هيا .. يجب أن تذهبي الى حجرتك .

وقادها خارج المطبخ عبر الردهة وهو يحرص على أن يوقظها مع كل خطوة .. وكانت الردهة خالية مظلمة .. ومضى يقودها ويدفعها دفعا الى السلم الخلفي . ومرة أخرى أحس بكراهيته لها .. وهزها في عنف :

– هيا .. استيقظي .. انتبهى ..

ولكنها لم تتحرك أو تفتح عينيها ، وأخيرا تمتمت بكلمات غير مفهومة
ثم ترنحت كالمشلولة وأحست أصابعه بلين أعطافها وكان لا يزال يتطلع
إليها . . . واستدار بها يصعد فى درجات السلم . . . واحدة فواحدة . . . وسمع
صوتا ضئيلا وتوقف ونظر حوله وأخذ يحدق فى الظلام . . . ولكنه لم ير
أحدا . . . وعندما وصل الى أعلى السلم كانت « ماري » كالمشلولة تماما وهى
لا تزال تحاول أن تقول شيئا . . . ياللعنة ! انه لا يستطيع أن يحركها
الآن الا بأن يحملها تماما . . . وأمسك بها بين ذراعيه وحملها عبر البهو ثم
توقف . ترى أين باب حجرتها ؟ ياللعنة . . . وهمس يسألها :

— أين حجرتك ؟

ولكنها لم تجبه . . . أهى غائبة تماما عن وعيها ؟ انه لا يستطيع أن
يتركها هنا ، ولو أنه رفع عنها يديه لسقطت فوق الأرض وظلت نائمة
فوقها طوال الليل . . . وهزها بعنف ، وهو يسألها بأقصى صوت يمكن أن
يصدر عنه .

— أين حجرتك ؟

ودارت عيناها نحو أحد الابواب . . . ورفعها مرة ثانية حتى وصل الى
الباب ثم توقف . أهذه حجرتها حقا ؟ ألا يحتمل أن يكون السكر قد
أعجزها عن أن تعرف أين حجرتها ؟ وماذا لو أنه فتح الباب واتضح أنها
حجرة مستر « دالتون » أو مسز « دالتون » حسنا . . . كل ما سيفعلانه
أنهما سيفصلانه من عمله . انها ليست غلطته أن تكون ابنتهم قد شربت
كثيرا وسكرت . . . أحس لحظتها كما لو كان يؤدى دورا على المسرح فى
مواجهة الجماء الغفير . . . ورفع يده من حول جسدها فى بطاء وعناية ثم أدار
« أكرة » الباب وانتظر . . . ولم يحدث شيء . . . فدفع الباب فى هدوء ورأى
الحجرة غارقة فى الظلام والصمت . . . وتحسس الحائط بأصابعه ولم يستطع
أن يعثر على مفتاح النور ووقف يمسك بها بين ذراعيه فى خوف . . . وبدأت
عيناها تتعودان الظلمة . . . ورأى على ضوء خافت يتسلل من خلال النافذة
معالم سرير أبيض فى أقصى الحجرة . . . ورفعها بين ذراعيه وأدخلها . . . ثم
أغلق الباب خلفه فى هدوء .

— هيا . . . أفيقى . . . هيا . . .

ثم جفل فى ذعر ، فقد أحدث الباب خلفه صريحا . . .

واستدار وقد استبد به رعب « هستيرى » كما لو كان قد هوى فى

حلم من ارتفاع شهاق . كان هناك جسم أبيض يقف الى الباب . . . ساكناً
كأنه شبح . . . رآه يملأ عينيه ويثير الرعدة فى جسده . . . كانت مسز
« دالتون » ! وود لو أنه ضربها بيده فأوقعها واندفع خارجاً من الحجرة .

ثم ما لبث أن سمعها تنادى فى صوت ناعم « ماري »

وحبس « بيجر » أنفاسه . . . وعادت « ماري » تتمتم فانحنى فوقها
بسرعة وقد أطبق قبضتيه فى ذعر وأدرك لحظتها أن مسز « دالتون » وان
كانت لا تستطيع أن تراه فانها سوف تقبل نحو « ماري » تتحسسها ان
هى ردت على ندائها . . . وقد تلمسه حينئذ . . . وانتظر وقد ألجمه التوتر
وهو يخشى أن يتحرك فيتعرش فى شيء ما وسط الظلام ويكشف عن وجوده
. . . وعادت مسز دالتون تنادى : « ماري »

وأحس بأن « ماري » تحاول أن تنهض . . . فدفع برأسها فى سرعة
داخل الوسادة .

وتمتمت مسز دالتون : - « لابد أنها نائمة » .
وأراد أن يتحرك بعيداً عن السرير ولكنه خشى أن يتعرش فى شيء
فتسمعه مسز « دالتون » وتعلم أن هناك شخصاً الى جوار « ماري » داخل
حجرتها . . . واستبد به الرعب فوضع يده على قمها وحنى رأسه فى زاوية
يمكنه من أن يرى « ماري » ومسز « دالتون » بمجرد حركة عينيه .
وتمتمت « ماري » مرة وهى تحاول مرة أخرى أن تنهض وجذب هو طرف
الوسادة فى ذعر وضغط بها شفيتها ليمنعها من أن تحدث صوتاً حتى
لا ينكشف أمره . . . وكانت مسز « دالتون » تتحرك نحوه فى ببطء . . . وزاد
توتره وذعره وكأنما هو على وشك أن ينفجر . . . وامتدت أصابع يدي
« ماري » تدفع يديه بأظافرها وأمسك هو من ناحيته بالوسادة فغطى بها
كل وجهها وهو يضغط عليها بقوة . . . وتموج جسده « ماري » يعلو ويهبط
. . . وزاد هو من ضغطه على الوسادة بكل ثقله وهو يصير على ألا تتحرك
أو تحدث صوتاً يكشفه . . . وكانت عيناه لا تتحولان عن الشبح الأبيض
المقيل نحوه وسط عتمة الحجرة . . . ومرة أخرى ماج جسده « ماري » . . .
ومرة أخرى أيضاً ضغط هو على الوسادة بكل ما تبقى لديه من قوة وهو
يحس بالآلام الذى تحدثه أظافرها فى معصميه . . . وكان الشبح الأبيض
لا يزال يقترب . . .

- ماري ؟ أهذه أنت ؟

وكان فى مقدوره الآن أن يرى مسز « دالتون » بوضوح ، وبينما كان يرفع يده من فوق الوسادة سمع تنهيدة طويلة بطيئة تصدر من الفراش فى جو الحجرة المظلم ، .. تنهيدة بدا له عندما تذكرها فيما بعد أنها كانت الأخيرة .

– مارى .. هل أنت مريضة ؟

ووقف « بيجر » .. وكلما تحركت بجسدها نحو السرير كان هو يتحرك بعيدا عنها وقدماءه لا ترتفعان من فوق الأرض بل تنزلقان فى نعومة وضمت فوق السجادة الناعمة السمكية .. وقد أصبح كتلة من الأعصاب والعضلات المتوترة التى أمضها الألم .. وكانت مسز « دالتون » قد أصبحت تقف الى جانب السرير تماما .. ومدت يدها لتحسس مارى :

– مارى .. هل أنت نائمة ؟ لقد سمعتك تتحركين ..

واعتمدت مسز دالتون فجأة وتراجعت خطوة سريعة .

– أنت سكرى للغاية .. تفوح منك رائحة الوسكى الكريهة ووقفت صامتة وسط الضوضاء الأزرق الشاحب ثم ركعت الى جوار السرير .. وسمعتها بيجر تهمس .. كانت تصلى .. وخيل اليه أن صدى كلماتها الخافتة كان يتردد فى رأسه كأنما يرفع بها أحد عقيرته . وأخيرا نهضت مسز « دالتون » وارتفع رأسها بنفس الزاوية التى ترفعها بها دائما .. وانتظر هو وقد ضغط أسنانه وشد قبضتيه .. وتحركت هى فى ببطء نحو الباب حتى لم يعد يراها الا بصعوبة .. ثم أغلق الباب .. وساد الصمت .

وأرخبى « بيجر » جسده وارتقى على الأرض وهو يصعد أنفاسا طويلة .. كان الضعف قد أنهكه والعرق يبيلل جسده .. وظل فى مكانه متوقعا ينصت الى أصداء أنفاسه تملأظلام الحجرة .. ثم بدأت أحاسيسه تهدأ .. وبدأ ينتبه الى وجوده داخل الحجرة .. أحس بأنه كان فى قبضة لعنة غامضة رهيبة وأنه أصبح الآن مطلق السراح .. ورأى آثار أصابعه غائرة فى السجادة وكان جسده كله يهتز من ضربات قلبه العنيفة .. عليه الآن أن يخرج من الحجرة .. وبسرعة .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان مستر « دالتون » هو الذى فتح باب الحجرة ؟ اذن لكان هروبه ضربا من المستحيل !

وعاد ينصت .. لابد أن مسز « دالتون » قد أصبحت الآن فى البهو .

كيف يستطيع اذن أن يغادر الحجرة ؟ ان جسده كله يرتعش بثقل غضبه من هذا البيت ومن كل ما دفعه الى أن يحس به منذ أن قدم اليه فى هذه الليلة ، ومد يده الى الخلف ولمس الحائط ، وأسعده أن يرى شيئاً صلباً خلفه . . ونظر فى اتجاه السرير ثم تذكر « ماري » كما لو كان يتذكر شخصاً لم يره منذ زمن بعيد . كانت لا تزال هناك . هل آلمها يا ترى ؟ اتجه ناحية السرير . . ووقف الى جوارها ورأى وجهها يستند الى منتصف الوسادة وتحركت يده نحوها ولكنها توقفت عند منتصف المسافة بينهما . وزوى ما بين حاجبيه وهو يحدق الى وجهها . رآه داكنا أكثر من المرة الأولى التى انحنى فيها فوقها . وكان فمها مفتوحاً . . وكانت عينها أيضاً مفتوحتين . . تلمعان كالزجاج . . وخصرها . . وخصرها . . خصرها لا يتحرك ! لم يعد يسمع أنفاسها مثلما كان يسمعها عندما جاء بها الى الحجرة ! وانحنى نحوها وحرك رأسها بيده ووجد أنها ساكنة كالمشلولة . وجذب يده بسرعة وقد انتابته الهواجس ، كان هناك شيء ما يريد أن يقوله لنفسه فى يأس ، ولكنه لم يستطع . وهنا امتص أنفاسه . . ورنّت كلمات ضخمة تتكون فى أذنيه فى ببطء . .

انها ميتة . . !!
www.liilas.com/vb3/

ولم يحس لحظتها بأنه موجود بالحجرة ، فقد حلت محل الحجرة مدينة واسعة أهلها من البيض ، قائمة فى الخارج . كانت ميتة . . وهو الذى قتلها . انه قاتل ، زنجى قاتل ، أسود قاتل . لقد قتل امرأة بيضاء . يجب أن يخرج من هنا . لقد كانت مسن «دالتون» « موجودة » بالحجرة فى أثناء وجوده ، ولكنها لم تكن تعرف ذلك . ولكن هل هى حقاً لم تعرف ؟ كلا . بل نعم ؟ ربما كانت قد خرجت فى طلب المساعدة . كلا . لو أنها عرفت اذن لصرخت . انها قطعاً لم تعرف . وعليه الآن أن ينسل خارجاً من البيت . نعم ؛ يستطيع أن يذهب الى البيت لينام ويقول لهم فى الصباح أنه أوصل « ماري » الى البيت وتركها عند مدخل الباب الجانبي .

وقفز من خوفه عنصر استبد به . . عليه أن يهيب قصة يحكيها لهم ! ولكن « جان » أوه !! « جان » يستطيع أن يهلكه . اذا وجدوها ميتة فان « جان » سيقول انه تركهما معا داخل السيارة عند « ناصية » الشارع السادس والأربعين وطريق « كوتيج جروف » . ولكنه يستطيع أن يقول ان هذا غير صحيح . وأهم من هذا . . أليس « جان » واحداً

من الحمر ؟ أليست كلمته فى قوة كلمة « جان » ؟ سيقول ان « جان » قدم معها الى البيت ولا ينبغى أن يعلم أحد بأنه كان آخر شخص معها .

بصمات الأصابع . لقد قرأ عنها فى المجلات . لسوف تفضحه بصمات أصابعه . . بالتأكيد سوف تفضحه . ويستطيعون أن يثبتوا أنه كان معها داخل الحجرة . ولكن ماذا لو قال لهم انه دخل الحجرة ليأخذ الحقيبة ؟ آه . . هكذا : الحقيبة . من حق بصمات أصابعه أن تكون موجودة اذن . . وأجال بصره حوله ورأى حقيبتها الى الجانب الآخر من السرير مفتوحة . . بوسعه أن يأخذ الحقيبة الى « البدروم » ويدخل السيارة الجاراج . وسوف يقول ان « جان » جاء الى البيت وأنه ترك « جان » فى الخارج داخل السيارة . ولكن لا تزال هناك طريقة أفضل . لماذا لا يجعلهم يعتقدون أن « جان » هو الذى فعلها ؟ ان الحمر يفعلون أى شىء . ألا تقول الصحف ذلك ؟ سوف يقول لهم انه أوصل « جان » ومارى الى البيت فى السيارة وان « مارى » طلبت منه أن يذهب معها الى حجرتها ليأخذ الحقيبة - وان « جان » كان معها . وانه أخذ الحقيبة وتركها فى « البدروم » وأنه عندما ذهب ترك مارى وجان - اللذين كانا قد عادا الى السيارة - جالسين بداخلها يتبادلان القبلات .

www.lilas.com/vb3/

نعم هكذا . .

وسمع دقات الساعة . . وبحث عنها بعينه ، فرآها معلقة فوق فراش « مارى » وميناؤها الأبيض يلعب فى الظلمة الزرقاء . . كانت الساعة تشير الى الثالثة وخمس الدقائق . لقد تركهما « جان » عند ناصية الشارع السادس والاربعين وطريق « كوتيج جروف » . لا . . « جان » لم يتركهما هناك . . بل ركب معهما . .

واتجه ناحية الحقيبة وجرها الى منتصف الحجرة . وتحسس ما بداخلها وكانت نصف فارغة . ثم جمده لحظة . . وأنفاسه تكاد تتوقف وقد وافته فكرة أخرى . ألم يقل له مستر « دالتون » انهم لا يستيقظون مبكرين فى صباح أيام الأحد ؟ ألم تقل « مارى » انها مسافرة الى « دترويت » ؟ لو أن « مارى » لم تكن موجودة عندما يستيقظون من النوم: ألا يعتقدون أنها قد سافرت الى « دترويت » ؟ انه . . نعم . . انه يستطيع! يستطيع أن يضعها داخل الحقيبة . لقد كانت صغيرة الحجم . نعم ؛ يضعها داخل الحقيبة . لقد قالت انها ستغيب ثلاثة أيام . ثلاثة أيام اذن ربما لن يعلم بأمرها أحد خلالها . أمامه اذن ثلاثة أيام . لقد كانت

فتاة مجنونة على أية حال . كانت دائما تصاحب الحمر ، ألم تكن كذلك ؟
يمكن اذن أن يحدث لها أى شيء . سوف يظن الناس عندما يفتقدونها
انها غابت لبعض شئونها المجنونة . نعم ؛ الحمر يفعلون أى شيء . ألا
تقول الصحف ذلك ؟

واتجه « بيجر » الى السرير . . . وكان عليه أن يرفعها ليضعها داخل
الحقيبة . لم يكن يريد أن يلمسها . . . ولكنه كان مضطرا الى ذلك . .
انحنى عليها ومد يديه المرتعشتين . كان عليه أن يلمسها . . . وأن
يحملها . . . وأن يضعها داخل الحقيبة . . . وحاول أن يحرك يديه ولكنه
لم يستطع ، وخيل اليه أنها سوف تصرخ عندما يلمسها . . . ياللعنة .
حماقة منه ولا شك . وشعر برغبة فى الضحك . . . انه لا يكاد يصدق
أن ما حدث قد حدث بالفعل . انه أشبه بالكابوس . كان عليه أن يحمل
الفتاة الميتة ومع ذلك فهو خائف . أحس بأنه كان يحلم بشيء كذلك
منذ زمن طويل مضى ؛ وفيجأة . . . تحقق هذا الشيء . . . وتناهى الى سمعه
صوت دقات الساعة ، وكان عليه أن يتصرف بسرعة فليس فى وسعه أن
يبقى هكذا طول الليل . . . فسوف يقوده ذلك حتما الى المقعد الكهربائى
واقشعر بدنه . . . ورخف شيء ما بارد الى بشرته . . . ياللعنة .

دفع يده برفق تحت جسدها ثم رفعها ووقف وهو يحملها فوق
ذراعيه . . . وكان ساكنا . . . وحملها الى الحقيبة . . . ونظر تلقائيا حوله
فرأى شبحا أبيض يقف الى الباب . . . وفى لحظة ؛ كان الفزع القاتل
يغمر جسده . . . والألم يعصر رأسه . . . ثم ما لبث الشبح الأبيض أن
اختفى . « كنت أظنها هى . . . » ودق قلبه بعنف .

ووقف يحملها بين ذراعيه داخل الحجرة الساكنة الهادئة . . . وكانت
الحقائق الباردة الجامدة تناوشه بضربات كأيها أمواج يقذف بها البحر :
لقد ماتت ؛ وهى بيضاء ، وهى امرأة ، وهو الذى قتلها ، وهو أسود ،
ويحتمل أن يقبضوا عليه ، وهو لا يريد أن يحدث ذلك ، ولو حدث ذلك
لقتلوه .

وتوقف لكى يضعها داخل الحقيبة . هل يستطيع أن يفعل ذلك ؟
نظر مرة أخرى نحو الباب وهو يتوقع أن يرى ذلك الشبح الأبيض .
ولكنه لم ير شيئا . وأدارها على جنبها فوق ذراعيه وهو يتنفس بصعوبة
بالغة وجسده يرتعش ، ثم أنزلها وهو ينصت الى حفيف ثيابها الناعم ،
ثم دفع رأسها فى ركن الحقيبة ولكن ساقها كانتا أطول من أن يستطيع
ذلك .

وخيل اليه أنه سمع صوتا .. وتحفز . وخيل اليه لحظتها أن أنفاسه كانت أعلى صوتا من هدير الرياح فى عاصفة . أنصت .. ولم يسمع شيئا . يجب أن يدخل ساقيتها .. يجب أن يلوى ساقيتها من الركبة . نعم . هكذا .. وأكثر قليلا .. لوأهما أكثر والعرق يتصبب من ذقنه ويتساقط فوق يديه . وعندما انتهى من ثنى ركبتيها تماما حشرهما داخل الحقيبة . لقد نجح ، وأغلق الحقيبة واندفع فى الظلام نحو « أكرة » الباب ، وسمعها تحدث صوتا عاليا .

وتوقف وهو يمسك بإحدى يدي الحقيبة ويجذبها الى الخارج بقوة ولكنها لم تتحرك من مكانها .. وكان الضعف قد استبد به ويداها زلقتان من العرق . وضغط على أسنانه بقوة وجذب الحقيبة بكلتا يديه ثم فتح الباب وجال ببصره فى الردهة ورأها خالية ساكنة فأوقف الحقيبة على جنبها ثم رفع يده اليمنى خلف كتفه اليسرى ثم انحنى وأمسك بحزامها ورفعها فوق ظهره . الآن ؛ يجب أن ينهض وأقفا . وتحامل على نفسه بقدر ما أوتى من جهد وقد ارتعشت عضلات كتفيه وساقيه ثم نهض مترنحا وهو يعض شفتيه .

وخطا بقدمه فى حذر واتجه عبر الردهة ثم هبط السلم ثم عبر ردهة أخرى الى المطبخ . ثم توقف قليلا . وآلمه ظهره ، وكان حزام الحقيبة يحز فى راحة يده فيلهبها كالنار . وخيل اليه أن الحقيبة تزن طنا كاملا وتوقع لحظتها أن يعترض الشيخ الابيض طريقه فى أية لحظة ويطلب منه أن يريه محتويات هذه الحقيبة . وأحس برغبة فى أن ينزل الحقيبة ويستريح قليلا .. ولكنه خشى ألا يستطيع أن يرفعها مرة ثانية . وسار عبر أرض المطبخ ثم هبط السلم وترك باب المطبخ مفتوحا خلفه ثم توقف داخل « البدروم » المظلم والحقيبة فوق ظهره وأنصت الى هدير الموقد ورأى الفحم ملتهبا خلال فرجته . وأنزل الحقيبة بهدوء وهو يترقب صوت لمسها للأرض .. وانحنى أكثر ، واسترخى على إحدى ركبتيه . ياللجنة . ان يديه الملتهبتين قد تراختا عن حزام الحقيبة فسقطت فوق الأرض محدثة صوتا عاليا ! وانحنى هو الى الإمام وضغط يده اليمنى داخل يده اليسرى لكى يخفف الألم الملتهب .

ونظر الى الموقد وواتته فكرة أخرى ارتعش لها . انه يستطيع – يستطيع – أن – انه يستطيع أن يضعها داخل الموقد . يستطيع أن « يحرقها » . هذه أضمن وسيلة !! واتجه ناحية الموقد وفتح بابه ورأى سادة كثيفة من الفحم تلتهب ويرتعش لهبها .

وفتح الحقيبة ، ورأى الفتاة بالحالة التى وضعها فيها بداخلها :
رأسها محشور فى الركن وركبتها منحنيتان الى بطنها . ينبغى أن
يخرجها مرة ثانية . وانحنى يمسك بكتفيها ويرفعها بين ذراعيه ثم اتجه
الى باب الموقد . . وتوقف لحظة . ورأى النار تمور بداخله . ترى .
أيدفع برأسها أولا أم بساقيها ؟ لقد بدأ بساقيها لأنهما كانتا أقرب اليه
فى تلك اللحظة ، ولأنه أيضا كان خائفا . وأحس باللهب يلفح يديه .
لم يستطع أن يدفع بها الى أكثر من كتفيها . ونظر الى داخل الموقد،
وكانت ثيابها قد اشتعلت والدخان يملأ جوف الموقد ويكاد يخفى الرؤية،
وارتفع اللهب صاخبا فى أذنيه . وأمسك بكتفيها . . ودفع بها الى
الداخل بأقصى قوته ولكن جسدها ظل كما هو . وحاول مرة أخرى ولكن
رأسها ظل خارج الموقد . وبعد !! ياللجنة ! أحس برغبة فى أن يضرب
شيئا - أى شيء - بقبضة يده . ماذا بوسعه أن يفعل الآن ؟ . . تراجع
وهو ينظر الى الموقد .

وتناهى اليه صوت أدار رأسه ، رأى بركتين خضراوين ملتهبتين -
بركتين من الاتهام والجريمة - تحدقان اليه من شبح أبيض جالس على حافة
الحقيبة . وفغر « بيجر » فاه فى صرخة صامتة وقد شل جسده . كانت
القطعة البيضاء تحدق بعينيها المستديرتين الخضراوين فى الوجه الابيض
المتدلى من باب الموقد . يالله ! أغلق فمه . . وابتلع ريقه . هل يمسك
بالقطعة ويقتلها ويضعها هى الأخرى داخل الموقد ! تحرك نحوها . .
ووقفت القطعة وقد قف شعرها وقوست ظهرها فى تحفز . وحاول أن
يمسك بها ولكنها قفزت بحذائه وهى تعوى عواء طويلا من الخوف . .
ثم انطلقت تعدو فوق السلم حتى خرجت من الباب واختفت عن ناظره .
هذا أحسن ! أغلق الباب ووقف مرة أخرى فى مواجهة الموقد . . يفكر
. . « ان القطط لا تستطيع أن تتكلم . . »

وأخرج « بيجر » « مطواته » من جيبه وفتحها ووقف الى جوار
الموقد وهو ينظر الى عنق « مارى » الابيض . هل يستطيع ؟ يجب أن
يفعل ذلك . ترى هل تكون هناك دماء ؟ أوه . . يارب . نظر حوله
نظرة حيرى ورأى كومة من أوراق الصحف القديمة فأخذ منها كهيئة سميكة
أمسك بها أسفل الرأس . ولمس العنق بطرف المديدة الحادة . . مجرد
لمسة . . كما لو أنه كان يتوقع أن تقوم المديدة وحدها بالعمل وكأنه لم
يكن محتاجا الى ضغطة من يده . وظل يحدق الى طرف المديدة وهى مستقرة
فوق البشرة البيضاء تلمع على ضوء الفحم الملتهب . نعم ؛ يجب أن

يفعل • وجز العنق بالمدية •• في رقة حتى ارتطم معدنها بالعظم • فضغط فكيه وزاد من ضغط يده •• وصتى تلك اللحظة لم تكن هناك دماء الا فوق سلاح المدية ، ولكن العظام عاقت طريقها • وأحس بالعرق يغمر ظهره • ثم ما لبثت الدماء أن تفجرت في دوائر قرمزية تنداح في اتساع على أوراق الصحف القديمة •• وتنتشر في سرعة • وأعمل المدية حول العظام •• وتبدل الرأس نحو أوراق الصحف وقد غرق الشعر في الدماء •• أعمل المدية بعنف أكثر •• ولكن الرأس لم ينفصل •

وتوقف في دعر « هستيرى » وأحس برغبة في أن يهرب خارجا من « البدروم » ويبتعد عن المكان بقدر ما يستطيع •• بعيدا عن هذا العنق الدامي • ولكنه لم يستطع • ينبغي ألا يفعل ذلك ، يجب عليه أن يحرق هذه الفتاة • وبعينين براقتين وأعصاب مشدودة مضطربة ، نظر حوله •• ورأى ساطورا • نعم ! هذا ينهى الأمر •• ونثر مزيدا من الصحف تحت الرأس الدامي حتى لا تسقط الدماء على الأرض •• ثم تناول الساطور وأمسك بالرأس بيده اليسرى •• وتوقف لحظة كما لو كان يصلى ويدعو •• ثم ضرب العنق بكل قوته •• وسقط الرأس •• لم يكن يبكي أو يصرخ ، ولكن شفثيه كانتا ترتعشان وصدره يعلو ويهبط •• وود لو استطاع أن يرتدى على الأرض وينام •• ليبعد عن عينيه ذلك المشهد الفظيع •• ولكنه رأى أنه مضطر الى أن يغادر ذلك المكان •• ولف الرأس بأوراق الصحف في لهفة ودفع به الى الموقد بعد أن أزاح بقية الجسد أكثر الى الداخل •• ثم طوح بالساطور هو الآخر •• داخل الموقد •

أهناك ياترى فحم يكفى حرق هذه الجثة ؟ لن يحضر أحد الى هنا قبل العاشرة صباحا •• ونظر الى ساعته ورآها تشير الى الرابعة •• وأمسك بقطعة أخرى من ورق الصحف مسح بها « مطوانه » ثم طوح بالورقة داخل الموقد ووضع المدية في جيبه ثم جذب الرفاعة وانهاهال الفحم داخل الموقد وارتفع اللهب •• وعلا أواره •• وعندما رأى الفحم قد كسا الجسد أعاد الرفاعة الى مكانها •

ثم ابتعد عن الموقد وهو ينظر اليه بغم مفتوح • يا للبحيم • ربما اشتتم أحد الرائحة ؟ لسوف تكون هناك رائحة وقد يتطلع البعض داخل الموقد • وأخذ ينظر بلا هدف في أرجاء « البدروم » آه •• قد تنفح هذه ! رأى مروحة كهربائية معلقة فوق الحائط خلف الموقد •• وأدار مفتاحها ••

ودارت المروحة وارتفع أزيزها .. كل شيء سيكون الآن على مايرام ،
ولسوف تطرّد الهواء من « البدروم » .. ولسوف تختفى الرائحة ..

وأغلق الحقيبة ودفعها الى الركن . فى الصباح .. يستطيع أن
يأخذها معه الى المحطة .. وتطلع حوله يتيقن أنه لم يترك شيئا يدل
عليه .. ولم ير شيئا .

وخرج من الباب الخلفى وكانت السماء تمطر بردا خفيفا والجو قد
ازداد برودة . وكانت السيارة لاتزال فى الممر . نعم ، يجب أن يدعها
فى مكانها .

« جان » ومارى كانا يجلسان داخل السيارة يتبادلان القبل .. قالا
معا : أسعدت مساء يا بيجر .. وقال هو : أسعدتما مساء .. ثم لمس
قبعته بطرف يده يحييهما .. »

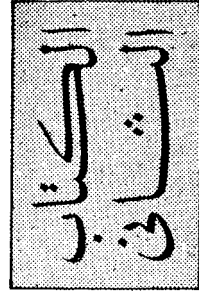
وعندما مر بحذاء السيارة رأى بابها لايزال مفتوحا ورأى حقيبة
يد « مارى » ملقاة على الأرض . فالتقطها وأغلق باب السيارة . « لا .
دع الباب مفتوحا ! » وفتح الباب مرة ثانية ثم سار عبر الممر .

كان الشارع خاليا سكاكيا والرياح تهز جسده المبلل ، ووضع
الحقيبة تحت ابطه وسار . ترى ماذا يحدث الآن ؟ هل يجرى ؟ توقف
عند منحني أحد الشوارع وتطلع الى داخل الحقيبة ورأى بداخلها حزمة
دائرية من ورق النقد .. من فئة العشر والعشرين دولارا .. جميل .
يمكنه أن ينتظر حتى الصباح لكى يقرر مايفعله بشأنها ، فهو الآن
متعب .. يرغب فى النوم .

وأسرع الى منزله .. وصعد فى السلم وثبا ثم تسلل الى حجرته
على أطراف أصابعه ورأى أمه وإخاه وأخته يتنفسون بانتظام وهم
نائمون . وبدأ يخلع ملابسه ويقول لنفسه .. « سوف أقول لهم اننى
تركنتها مع جان داخل السيارة بعد أن حملت الحقيبة الى البدروم » وفى
الصباح سوف أحمل الحقيبة الى المحطة كما طلبت هى نفسها منى .

وأحس بشيء ثقيل داخل قميصه .. كان مسدسه ، فأخرجه وأحس
به دافئا مبللا فدسه تحت الوسادة : « لن يستطيعوا القول بأننى
فعلتها .. وان قالوا ذلك .. فلن يستطيعوا اثباته » ..

وأرخى غطاء السرير .. ودس نفسه تحته وتمدد الى جوار شقيقه
« بدى » ، وفى دقائق خمسة .. كان قد استغرق فى النوم .



الشيخ

www.illias.com/vb3/
florist



الى «بيجر» أنه لم يكد يغمض عينيه حتى استيقظ
فجأة وبغنف كما لو أن أحدا قد أمسك به من كتفه
وجعل يهزه ، فاسترخى على ظهره وهو لا يرى ولا
يسمع شيئا . ثم انتبه فجأة الى أن الحجرة تسبح فى ضوء النهار الشاحب
وكان مصباحا « كهربائيا » قد أضاءها ومالبثت فكرة أن قفزت الى مكان ما
بأعماقه : انه صباح الأحد ! وارتكز على مرفقيه وأرهمف أذنه ينصت ،
وسمع أمه وأخاه وأخته يتنفسون بانتظام وقد راحوا فى نوم عميق ، ورأى
الحجرة . . ورأى من خلال النافذة . . الثلج يسقط فى الخارج .
ولكن ذهنه لم يستطع أن يحدد صورة لشيء مما رآه . كانت هذه
الأشياء موجودة فحسب بعضها منفصل عن بعض ، الثلج وضوء
النهار وصوت أنفاس أفراد أسرته ، كانت كلها تلقى عليه تهوية
غريبة . تهوية كانت تنتظر عصا رقيقة من الخوف تلمسها وتبث فيها
الحقيقة والمعنى . وظل مسترخيا على الفراش وقد جافاه النوم ، تقعده
نبضات معقدة عن أن ينهض الى دنيا الحياة .

وألح عليه هاتف من جانب مظلم من عقله فقفز من الفراش ووقف

بقدميه العاريتين فى وسط الحجرة وقد ارتفع وجيب قلبه وانفجرت شفتاه وارتعشت ساقيه وجاهد كى تنتبه حواسه تماما وارخى عضلاته المتوترة وقد أحس بالخوف وهو يتذكر كيف قتل « مارى » . كيف خنقها وفصل رأسها عن جسدها ودفع بها الى الموقد المشتعل .

انه صباح يوم الأحد وينبغى له أن يحمل الحقيبة الى المحطة . . وأدار بصره فرأى كيس نقود « مارى » الأسود اللامع ملقى فوق سرواله على المقعد . يا الهى ! بالرغم من أن جو الحجرة كان باردا فقد كانت حبات العرق تتساقط من جبهته وكان يتنفس بصعوبة بالغة . ونظر حوله فى سرعة ورأى أمه وأخته نائمتين ورأى أخاه « بدى » لا يزال نائما فوق السرير الذى نهض هو من فوقه لتوه « ألقى هذا الكيس بعيدا ! » ربما يكون قد نسى شيئا آخر . . فتش جيوب السروال بأصابع عصبية ووجد المديّة ، فتحها واتجه نحو النافذة على أطراف أصابعه ورأى بقايا دماء جافة على حواف سلاح المديّة ، فوضعها داخل الكيس ثم ارتدى ملابسه فى سرعة وصمت وألقى بالكيس فى صفيحة القمامة . كل شيء تمام الآن ! ارتدى معطفه وحين وضع يده فى أحد جيوبه وجد بداخله حزمة المنشورات التى أعطاه اياها « جان » هل يلقى أيضا بهذه المنشورات . . لا . توقف قليلا ثم أمسك بالحزمة بين أصابعه السوداء والتمتع ذهنه بفكرة مأكرة . لقد أعطاه « جان » هذه المنشورات . . ولسوف يبقئها معه ويطلع عليها « البوليس » اذا ما تعرض لسؤاله ، نعم . . هكذا . لسوف يحملها معه الى حجرته فى بيت آل « دالتون » ويضعها فى درج « دولابه » ، وسوف يقول انه لم يفتحها لأنه لم يرد أن يفعل ذلك . وسوف يقول أيضا انه لم يأخذها الا لأن « جان » ألح عليه فى ذلك . وتحسس الحزمة فى رقة حتى لا يفسد ترتيبها وبدأ يقرأ عناوينها : « التحيز العنصرى فى قفص الاتهام . مشكلة الزنوج فى الولايات المتحدة . السود والبيض يتحدثون ويناضلون » ولكن ذلك لم يبد شيئا خطيرا . وتطلع الى قاع الحزمة ورأى صورة سوداء وبيضاء لمطرقة ومنجل ، وقرأ تحتها عبارة تقول : « الحزب الشيوعى للولايات المتحدة » . الآن . هذا هو الشيء الخطير . وجالت نظرته فى بقية المنشورات فرأى رسما بالخبر يمثل يدا بيضاء تشد على يد سوداء فى تماسك ووحدة وتذكر اللحظة التى وقف فيها « جان » الى جوار السيارة وهو يصفحه . لقد كانت لحظة كريمة تفيض بالكرهية والحزى . نعم ، لسوف يقول لهم انه خشى الحمر وانه لم يكن يريد أن يجلس داخل السيارة مع « جان » و « مارى » أو أن يتناول طعامه معهما . ولسوف

يقول أيضا : انه لم يفعل ذلك الا لأن ذلك كان جزءا من عمله ، وأن تلك كانت أول مرة يجلس فيها على مائدة واحدة مع بعض البيض .

ودس المنشورات داخل جيبه ونظر الى ساعته ورآها تشير الى السابعة الا عشر دقائق وعليه أن يسرع فيجمع ملابسه لكي يحمل الحقيبة الى المحطة في الثامنة والنصف . ثم أحس بالخوف يسرى الى ساقيه فيكادان يتهاويان تحته . ماذا لو أن ماري لم تحترق تماما ؟ ماذا لو انها كانت لاتزال هناك يمكن رؤيتها ؟ أحس لحظتها برغبة في أن يلقي بكل شيء جانبا ويسرع الى هناك ليتحقق هو نفسه . ولكن ربما يكون قد حدث ما هو أسوأ ، ربما تكون جريمته قد اكتشفت وربما كان « البوليس » يبحث عنه الآن ؟ ألا ينبغي له أن يغادر المدينة في الحال ؟ ووقف في وسط الحجرة وقد سيطرت عليه نفس الدوافع التي استبدت به وهو يحمل « ماري » صاعدا بها في السلم . كلا ، لسوف ينتظر . ان الأمور تسير في مصلحته وصفه ، ان أحدا لم يشك في موتها . . . لسوف ينتظر ويلقى بالتبعة على أكتاف « جان » . وأخذ مسدسه من تحت الوسادة ووضعه داخل قميصه .

وتسلل « بيجر » خارجا من الحجرة على أطراف أصابعه وهو يتطلع الى أمه وأخته وأخيه النائمين ، ثم هبط السلم الى الشارع المضيء البارد . وكان الثلج لا يزال يتساقط والرياح الباردة تهب . . والشوارع حواليه خالية ، وسار « بيجر » والكيس تحت ابطه متجها الى ركن بعيد حيث صندوق القمامة وقد غطاه الجليد . أمن الأفضل له أن يترك الكيس هنا؟ لسوف يفرغ عمال القمامة هذا الصندوق في الصباح المبكر . . ولن يراه أحد في هذا الوقت من يوم الأحد والجليد يتساقط حوله في كل مكان . ورفع غطاء الصندوق ثم ألقى بالكيس . . ودفنه بعيدا الى الداخل وسط كومة متجمدة من بقايا البرتقال والحيز . . ثم أعاد الغطاء الى مكانه ونظر حوله . . ولم ير أحدا .

وعاد « بيجر » الى حجرته وأخرج حقيبة ملابسه من تحت السرير وكان أفراد الأسرة لا يزالون نائمين . وكان عليه لكي يجمع ملابسه أن يحرك « الدولاب » قليلا الى الجانب الآخر من الحجرة ، ولكن كيف يستطيع ذلك وسرير أمه وأخته يعترض الطريق . ياللعنة . ود لو استطاع أن يزيحهما بعيدا بضربة من يده . . انهم دائما قريبون منه . . قريبون الى درجة لا يستطيع معها أن يفعل ما يريد . واتجه نحو السرير في حذر وخطا فوقه فتحركت أمه قليلا ثم سكنت ، فجذب درج « الدولاب »

وأخرج ملابسه ووضعها داخل الحقيبة .. وبينما كان يفعل ذلك تراقصت أمام عينيه صورة رأس « ماري » ملقى على أوراق الصحف المبتلة وشعرها الأسود وهو غارق في الدماء ..

— « بيجر » —

وحبس أنفاسه والتفت حوله وقد برقت عيناه ، ورأى أمه تستند بمرفقها فوق السرير وأدرك في الحال أنه ينبغي أن يتصرف بهدوء دون أن يظهر الخوف على أساريه .

وسأله أمه في همس :

— ما « الحكاية » يا ولدى ؟

فأجابها في همس :

— لا شيء .

— لقد كنت تقفز كما لو أن شيئاً قد لدغك .

— أوه .. دعيني وشأني . يجب أن أجمع ملابسي .

وكان يعرف أن أمه تنتظر منه أن يحكى لها كل شيء .. ومن أجل ذلك كان يكرهها لماذا لا تنتظر حتى يقول هو نفسه كل شيء ؟ وإن كان يعرف على أية حال أنها ان انتظرت فلن يقول شيئاً .

— هل حصلت على العمل ؟

— نعم .

— كم سيدفعون لك ؟

— عشرون ..

— هل تسلمت العمل ؟

— نعم .

— متى ؟

— في الليلة الماضية ؟

— لقد قلقنت لتأخرى .

وقال في صبر نافذ :

— كان لدى عمل ..

— انك لم تحضر الا بعد الرابعة ..

واستدار نحوها ونظر اليها ثم قال :

- لقد حضرت فى الثانية •

واستدارت هى نحوه ونظرت الى ساعة معلقة خلفها على الحائط ثم

قالت :

- بعد الرابعة يا بيجر • لقد حاولت أن أنتظره ولكنى لم أستطع،

وعندما سمعتك تدخل نظرت الى الساعة ورأيتها تشير الى ما بعد

الرابعة •

- أنا أعرف متى جئت يا ماما •

- ولكنها كانت تشير الى ما بعد الرابعة يا بيجر •

- بل بعد الثانية بقليل •

- أوه يا الهى • اذا كنت تريدها كذلك فلتكن الثانية • كل ما

أخشاه أنك كنت تتصرف كما لو أنك كنت تخشى شيئا •

- والآن • هل تريدان أن تبدئى شجارا من جديد ؟

- شجار ••؟ ولد !

- قبل أن أنهض من الفراش كنت تتجسسين على ؟

- بيجر •• أنا لا أتجسس عليك يا حبيبى •• اننى سعيدة

بحصولك على عمل •

- ولكنك لا تتصرفين كذلك •

ثم أحس بأن تصرفه بهذه الطريقة كان خطأ منه ، فلو أنه ظل

يتحدث عن الوقت الذى وصل فيه الى حجرته فى الليلة الماضية ، لكان

فى عمله هذا تركيز على شىء لا بد أن تذكره جيدا •• وربما قالت

شيئا فيما بعد يضره ، فاستدار بعيدا وتابع جمع ملابسه • ينبغي أن

يتصرف أفضل من ذلك ، •• ينبغي له أن يضبط أعصابه •

- هل تريد أن تأكل ؟

- نعم •

- سوف أعد لك شيئا •

- حسن •

- هل ستعيش هناك ؟

- نعم .

وسمعتها تنهض من فوق سريرها ولم يعد يجرؤ على أن ينظرو
حوله . كان مضطرا الى أن يبقى مديرا لها ظهره حتى ترتدى ملابسها .

- ما رأيك فى هؤلاء الناس يا بيجر ؟

- لا بأس بهم .

- ولكنك لا تبدو سعيدا .

- أوه يا ماما .. بحق المسيح . هل تريدني منى أن أصرخ ؟

- بيجر . أحيانا أتساءل فى دهشة عن السبب الذى يدعوك الى
أن تتصرف هكذا .

لقد أخطأ فى اختيار اللهجة المناسبة لكلماته ، وعليه أن يكون
حذرا الآن ، وبدأ يغالب الغضب المستولى عليه ، فقد كانت تكفيه المتاعب
التي لديه عن أن يثير شجارا مع أمه .

وقالت أمه :

- هانتذا قد حصلت على عمل جيد . وينبغي لك أن تحسن عملك
وتحاول أن تجعل من نفسك رجلا . لسوف تحتاج يوما ما الى أن تتزوج
فيكون لك بيتك الخاص بك . وهانتذا قد حصلت على فرصتك . لقد
كنت تقول دائما انه لم تتح لك قط فرصة .. والآن .. قد واثتت هذه
الفرصة .

وسمعتها تتحرك .. وأدرك أنها قد ارتدت من الملابس ما يسمح
له بأن يستدير ، فدفع بالحقيبة الى جوار الباب ثم وقف الى جوار النافذة
يتطلع الى الثلج المتساقط :

- بيجر .. ماذا بك ؟

- ودار رأسه .. وقال وهو يتساءل بينه وبين نفسه : هل لاحظت
عليه تغييرا :

- لا شيء .. كل ما فى الأمر أنك ضايقتنى .

وأحس بأنه يجب أن يواجهها بشدة حتى لو كان قد قال شيئا لم

يكن ينبغي له أن يقوله .. ترى .. كيف تبدو كلماته ؟ أتختلف نبراتهما عن الأيام الأخرى ؟ هل هناك يا ترى شيء غير عادي في صوته منذ أن قتل « ماري » ؟ أيستطيع الناس أن يقولوا انه ارتكب اثماً .. من مجرد الطريقة التي يتصرف بها ؟ رأى أمه تهز رأسها وتتجه خلف الستارة لتعد له الطعام . ثم سمع تشاؤباً . ونظر خلفه فرأى « فيرا » تستند الى مرفقها وتبتسم له وتقول :

– هل حصلت على العمل ؟

– نعم .

– وكم يبلغ أجرك ؟

– أوه يا فيرا . اسأل ماما . لقد قلت لها كل شيء .

وهتفت « فيرا » وكأنها تغنى :

– أوه .. يا الهى . لقد حصل « بيجر » على عمل .

– أوه .. أغلقى فمك .

وقالت أمها :

– دعيه وشأنه يا فيرا ..

– ما « الحكاية » ؟

فقال أمه :

– وماذا تكون « الحكاية » معه « دائماً » ؟!

وقالت « فيرا » فى رقة : « بيجر » !

فعادت الأم تقول :

– هذا الولد قد فقد عقله ولا شك .. انه لا ينطق أمامك حتى

بكلمة واحدة معقولة .

وقالت فيرا :

– أدر رأسك حتى ارتدى ملابسى .

وتطلع « بيجر » من النافذة وسمع أحدا يتأوه .. وأدرك أن شقيقه

« بدى » قد استيقظ . وسمع « فيرا » تقول :

— « بدى » .. أدر رأسك .

— حاضر .

وسمع « بيجر » أخته وهى ترتدى ملابسها فى سرعة .. ثم سمعها تقول :

— تستطيع الآن أن تنظر .

ورأى « بدى » يجلس على السرير وهو يمسح عينيه وكانت « فيرا » تجلس على حافة مقعد وقد رفعت قدمها اليمنى على مقعد آخر لتلبس حذاءها .. وظل « بيجر » يحدق الى اتجاهها دون امان .. وتمنى لو استطاع أن يصعد الى أعلى وينفذ من السقف ويسبح خارج هذه الحجرة .. وإلى الأبد . وقالت « فيرا » :

— أرجو ألا تنظر الى ..

— هه ؟

ثم تطلع فى دهشة الى شفتيها « المزمومتين » فى غضب .. وحين أدرك ما تقصده « زم » هو الآخر شفتيه فى غضب .. وقفزت هى فى سرعة والتقطت حذاءها وقذفت به نحوه فمرق بحذاء رأسه وارتطم بزجاج النافذة .. وصرخت « فيرا » فى وجهه :

— قلت لك لا تنظر الى هكذا .

ووقف « بيجر » وقد احمرت عيناه من الغضب وقال :

— كنت أرجو فحسب أن يصيبني هذا الحذاء !

وصاحت أمها :

— أنت يا فيرا !؟

وصاحت « فيرا » مولولة :

— ماما .. قولى له .. ألا ينظر الى ..

وصاح « بيجر » :

— ان أحدا لم ينظر اليك .

— بل كنت تنظر تحت ملابسى وأنا أربط الحذاء .

وقال « بيجر » مرة أخرى :

— كنت أود فحسب أن يصيبني هذا الحذاء !

— أنا لست كلبية .

وقالت الأم :

— تعالى وأكمل ارتداء ملابسك هنا في المطبخ . .

وبكت « فيرا » وقالت وهي تدفن وجهها بين راحتيها وتتجه خلف

الستارة :

— انه يجعلني أشعر . . كما لو كنت كلبية .

وقال « بدى » :

— ولد . . لقد حاولت أن أظل مستيقظا حتى تحضر في الليلة

الماضية ولكنني لم أستطع ، واضطرت الى أن أنام في الساعة الثالثة .

لقد غلبني النوم ولم أستطع أن أبقى مستيقظا .

فقال « بيجر » :

— لقد وصلت أنا هنا قبل ذلك .

— أوه . . كلا . لقد كنت مستيقظا حتى الثالثة .

— أنا أعرف جيدا متى وصلت .

وتبادل الاثنان نظرة في صمت . . ثم قال « بدى » :

— حسن .

ولم يكن « بيجر » مرتاحا . . وأحس بأنه لا يزال عاجزا عن أن

يتصرف بكياسة .

وعاد « بدى » يسأل :

— هل حصلت على العمل ؟

— نعم .

— سائق ؟

— نعم .

— أى نوع من السيارات ؟

— بويك •

— هل أستطيع أن أصحبك مرة ؟

— بالتأكيد • • بمجرد أن أستقر فى عملى •

وأحس بأن أسئلة « بدى » قد أراحته قليلا ، لقد كان دائما يحب الرقة والإعجاب اللذين يبديهما « بدى » نحوه • • وعاد « بدى » يقول :

— آه • هذا هو العمل الذى أتمنى أن أحصل على مثله •

— هل أمر سهل •

— هل ستبحث لى عن عمل مماثل ؟

— بالتأكيد • • امنحنى فرصة فحسب •

— هل معك سجاثر ؟

— نعم •

وساد الصمت • • وأخذ الاثنان يدخانان على حين « بيجر » يفكر فى الموقد • ترى • • هل احترقت « مارى » تماما الآن ؟ نظر الى ساعته ورآها تشير الى الساعة • أينبغى له أن يخرج دون أن ينتظر الافطار ؟ ربما يكون قد نسى شيئا ملقى هناك يقودهم الى معرفة مصير « مارى » ؟ • • ولكن لو أنهم استيقظوا متأخرين فى صباح هذا الاحد كما قال مستر « دالتون » ، فلن يكون هناك ما يدعوهم لأن يبحثوا هناك عن شىء •

وقال « بدى » :

— لقد رأيت « بيسى » فى الليلة الماضية •

— حقا ؟

— وقالت انها رأتك فى مطعم « ايرنى » مع بعض البيض •

— نعم • • لقد كنت أقود بهم السيارة فى الليلة الماضية •

— كانت تتحدث عنك • • وعن الزواج •

— هه • •

كيف تتصرف الفتيات هكذا يا « بيجر » ؟ بمجرد أن يحصل الرجل على عمل • • يرغب فى الزواج على الفور ؟

– لست أدري •

– لقد حصلت الآن على عمل طيب وتستطيع أن تجد فتاة أفضل

من « بيسى » •

ولم يقل « بيجر » شيئا • بالرغم من أنه كان يوافق « بدى »

على رأيه ••

ونادت « فيرا » من خلف الستار :

– سوف أقول لـ « بيسى » •

وصاح « بيجر » :

– وإذا أنت قلت لها فسوف أحطم عنقك •

وقالت الأم :

– كفوا عن هذا الحديث هنا •

وقال « بدى » :

– أوه •• لقد قابلت « جاك » الليلة الماضية وقال لى انك كنت

على وشك أن تقتل « جس » •

وقال « بيجر » مؤكدا :

– لن يكون لى شأن بعد اليوم بهذه العصابة •

فقال « بدى » :

– ولكن « جاك » شاب طيب •

– نعم •• « جاك » فحسب •

ان « جاك » و « جس » و « ج • ه » يبدون الآن جميعا بعيدين كل البعد عن « بيجر » ؛ فى حياة أخرى ، وكل ذلك لأنه عاش فى بيت آل « دالتون » ساعات قليلة •• قتل خلالها فتاة بيضاء • وتطلع حوله فى الحجرة •• وكأنه يراها لأول مرة •• لم تكن هناك سجاجيد تغطى الأرض •• وكان بياض الحجرة والسقف متساقتا فى كثير من أجزائهما •• ولم يكن بداخل الحجرة سوى سريرين قديمين من الحديد وأربعة مقاعد « ودولاب » قديم ومائدة هزيلة يتناولون طعامهم عليها • كان ذلك يختلف تماما عن بيت آل « دالتون » • الكل هنا ينامون فى حجرة واحدة وهناك سوف تكون له حجرة خاصة له وحده • واشتم رائحة الطعام وتذكر أن أحدا لا يستطيع أن يشم رائحة الطعام فى بيت آل « دالتون » وأن

الأواني لاتحدث صوتا بكل أرجاء البيت . وتذكر أن كل شخص يعيش في حجرة خاصة وينعم بعالم خاص به وحده . لقد كره هذه الحجرة ؟ . . . وكره كل من فيها . . . حتى نفسه . لماذا يضطر هو وبنو جلدته الى أن يعيشوا هكذا ؟ ما الذى ارتكبوه فى حياتهم ؟ ربما لم يفعلوا شيئا على الإطلاق . . . ربما كانوا مجبورين على أن يعيشوا هكذا لمجرد أن واحدا منهم لم يفعل شيئا طوال حياته . . . صوابا أو خطأ ؛ يمكن أن يكون ذا أهمية .

وصاحت الأم :

- جهزى المائدة يافيرا . . . فالافطار جاهز .

- أمرك يا ماما .

وجلس « بيجر » ال المائدة ينتظر الطعام . وربما كانت هذه هى آخر مرة يتناول فيها طعامه هنا ، وأسعده ذلك . . . وساعده على أن يتذرع بالصبر . ربما كان القدر يدخر له طعاما داخل السجن ؟ انه هنا ؛ يجلس معهم ، وهم لا يعلمون أنه قد قتل فتاة بيضاء وقطع رأسها وأحرق جسدها . ان تفكيره فيما فعله ، والرعب القاتل المقرون به ، والمخاطر التى صاحبت ذلك . . . كل هذا قد أقام لأول مرة فى حياته الممزوجة بالخوف حاجزا من الوقاية بينه وبين عالم يخشاه . . . لقد ارتكب جريمة قتل ؛ ومن ثم خلق لنفسه حياة جديدة . حياة خاصة به . . . ولعلها كانت أول مرة فى حياته يستطيع فيها أن يخلق لنفسه شيئا لا يستطيع الآخرون أن يسلبوه اياه . . . نعم ؛ انه يستطيع أن يجلس هنا هادئا ويأكل ولا يهتم بما تفكر فيه أسرته أو بما تفعله . كان هناك حائط طبيعى قائم ، يستطيع أن ينظر اليهم من خلفه . كانت جريمته أشبه بمرساة تثبته فى أمان وتضفى عليه نوعا من الثقة لم تستطع مديته ولا استطاع مسدسه أن يضيفاها عليه . لقد أصبح الآن خارج نطاق أسرته . . . أعلى منها . . . وبعيدا عنها ؛ فهم لا يقدرّون على مجرد التفكير فى أنه ارتكب فعلة كهذه . وهو نفسه ؛ قد أقدم على ارتكاب فعلة لم يكن يتصور أنها ممكنة .

وبالرغم من أنه لم يقتل عمدا فانه لم يحس مرة واحدة بأنه قتل بطريق المصادفة . . . انه أسود؛ وقد كان وحده مع فتاة بيضاء داخل حجرة . . . وقد قتلت هذه الفتاة ، فيكون هو اذن الذى قتلها . هذا هو ما سيقوله الجميع بصرف النظر عما يمكن أن يقوله هو . . . ومن ثم أدرك

- باحساس معين - أن موت الفتاة لم يكن قبيل المصادفة . لقد قتل مرات كثيرة من قبل ، ولكن لم تكن هناك فى تلك المرات السابقة ضحية مباشرة أو ظروف تجعل من نية القتل لديه ظاهرة . أو تجعل منها مأساة . . ان جريمته هذه تبدو طبيعية يحس معها بأنه كان طوال حياته مقودا الى شئ مثلها . ولم يعد الآن فى حاجة الى أن يحس احساسا غامضا بأن شيئا ما سوف يحدث له ولبشرته السوداء ؛ فقد أصبح الأمر واضحا الآن . لقد أفصح الآن معنى حياته - معنى لم يره أحد من قبل وحاول هو دائما أن يخفيه - كلا ، وأبدا لم يكن الأمر مصادفة ؛ ولن يقول أبدا انه كان كذلك . كان هناك نوع من الاعتزاز المرتعب فى مشاعره وتفكيره بأنه سيستطيع فى يوم من الأيام أن يقول علانية وأمام الجميع انه قد فعل ذلك ، وكان ذلك يبدو كما لو أنه يحس بدين غامض عميق يوفيه تجاه نفسه بقبوله ارتكاب تلك الفعل .

والآن ، وبعد أن ذاب الجليد ، ألا يستطيع أن يفعل أشياء أخرى؟ ما الذى يمكن أن يوقفه بعد هذا ؟ أحس وهو يجلس الى المائدة فى انتظار الفطور ، بأنه يوشك أن يصل الى شئ طالما ذاب اليه شوقا . لقد أصبحت الأمور واضحة ، ويستطيع أن يعرف كيف يتصرف ابتداء من الآن . ما ينبغي أن يفعله هو أن يتصرف كما يتصرف الآخرون ، وأن يعيش مثلما يعيشون . . وأن يفعل ما يشاء وهم لا ينتظرون اليه . ولن يعلموا شيئا . وأحس أيضا فى وجود أمه وأخيه وأخته ، بقوة صامتة لا واعية تتطلع الى الحياة بدون تفكير ، الى الطمأنينة والمألوف ، الى الأمل الكفيف ، وبأنهم يريدون أن يروا الحياة بصورة ما ويشتاقون الى ذلك وبأنهم فى حاجة الى صورة معينة للعالم حولهم . وكان هناك نوع واحد من الحياة يفضلونه على ما عداه . . وكانوا جميعا عاجزين عن أن يروا ما لا يناسبهم . كانوا جميعا لا يريدون أن يروا ما يفعله الآخرون اذا كان ذلك لا يشبع رغباتهم الخاصة . وكل ما كان ينبغي للمرأة أن يفعله هو أن يتذرع بالجرأة وأن يقدم على فعل أشياء لا يفكر فيها أحد . ولقد أدرك كل هذا فى شكل احساس بسيط ولكنه قوى : ان فى أعماق كل انسان ميلا بالغا الى أن يصدق ما يجعله أعمى ، واذا ما استطاع أن يرى ، على حين الآخرون عاجزون عن الرؤية ، فلسوف يصبح فى مقدوره اذن أن يحصل على ما يريد دون أن يمسك به أحد . والآن ، من ذا الذى يستطيع أن يصدق أنه وهو الولد الأسود الخجول يستطيع أن يقتل ويحرق فتاة ثرية بيضاء وأن يجلس بعد ذلك هكذا ينتظر الافطار ؟ . . وأحس بالارتياح يغمره .

جلس الى المائدة يراقب الثلج المتساقط عبر النافذة .. وازدادت الأمور بساطة وسهولة أمامه . كلا ، لا ينبغي أن يخفى نفسه الآن خلف حائط أو ستار ، .. هناك طريق أكثر أمانا .. وأكثر « بساطة » وسهولة . وذلك الذى فعله فى الليلة الماضية يؤكد ذلك . لقد كان « جان » أعمى . وكانت « ماري » عمياء . وكان مستر « دالتون » أعمى . وكانت مسز « دالتون » هى الأخرى عمياء .. نعم ؛ كانوا جميعا عمياء فى أكثر من ناحية . وابتسم « بيجر » ابتسامة خفيفة . ان مسز « دالتون » لم تعرف أن « ماري » كانت ميتة عندما وقفت الى جوار سريرها فى الليلة الماضية ، وقد ظنت أن « ماري » كانت سكرى لأنها تعودت أن تعود « ماري » الى البيت وقد أسرفت فى الشراب . كذلك هى لم تعرف أنه كان معها داخل الحجرة ؛ فقد كان ذلك ولا شك آخر ما يمكن أن تتصوره أو تفكر فيه . لقد كان أسود اللون ، ولم يكن ليقفز هو قط الى مخيلتها فى مناسبة كهذه . وأحس « بيجر » بأن هناك أناسا كثيرين جدا .. عيانا مثل مسز « دالتون » ..

وقالت الأم وهى تضع طبقا من البرغل فوق المائدة :

— هيا .. كل يا « بيجر » .

وبدأ « بيجر » يتناول طعامه وهو يحس بتحسن أكبر بعد أن فكر فيما حدث له فى الليلة الماضية ، ويحس أيضا بأنه أصبح قادرا الآن على أن يسيطر على مشاعره وتساءل وهو ينظر حوله :

— أئن تأكلوا معى ؟

— كل أنت .. فعليك أن تذهب الى عملك . وسوف نأكل نحن فيما بعد .

ولم يكن فى حاجة الى نقود ، فقد كانت لديه النقود التى أخذها من كيس نقود « ماري » ، ولكنه أراد أن يخفى كل آثار فعلته .. فقال :

— ألدك نقود يا ماما .

— قليل يا « بيجر » .

— أريد شيئا ..

— هاك نصف دولار . ولن يبقى معى بعده سوى دولار واحد حتى يوم الخميس .

ووضع نصف الدولار فى جيبه ، وكان « بدى » قد ارتدى ملابسه وجلس على حافة السرير . وفجأة رأى « بدى » .. رآه وكأنه « جان » يمثل أمامه . كان « بدى » يبدو أمامه شبها مهزوزا ، عيناه مخدولتان لا تصل نظراتهما الا الى سطح الأشياء ..

ولقد كان غريبا حقا أنه لم يلاحظ ذلك . لقد كان « بدى » هو الآخر أعمى ؛ لقد كان يجلس هناك فى مكانه وهو يتوق الى عمل مثل العمل الذى حصل عليه « بيجر » . ان « بدى » هو الآخر .. يدور ويدور ولا يرى الأشياء ، وملابسه هى الأخرى تبدو متهدلة مثل ملابس « جان » . وهو يبدو بلا هدف ، ضائعا دونما ارادة ؛ . تماما مثل دمية مترهلة . لقد أحس وهو ينظر الى « بدى » ويفكر فى « جان » وفى مسز « دالتون » ، بأنه يرى فيه نوعا من السكون والوحدة والافتقار الى الهدف .

— لماذا تنظر الى هكذا يا « بيجر » ؟

— هه ؟

— أنت تنظر الى بطريقة مضحكة .

— لم أكن أعلم .. لقد كنت أفكر .

— فيم ؟

— لاشئ ..

ودخلت أمه الحجرة وفى يدها مزيد من أطباق الطعام .. ورأى « بيجر » كم هى رقيقة . كانت عيناهما متعبتين غائرتين محوطين بهاتين من السواد نتيجة الافتقار الى الراحة . وكانت تتحرك فى ببطء .. وتلمس الأشياء بأصابعها وهى تمر بحذائها مستندة اليها . وكانت تجر أقدامها فوق أرض الحجرة الخشبية وقد بدت على وجهها علائم الجهد الشديد . وكانت كلما أرادت أن تنظر الى شئ حتى ولو كان قريبا منها؛ تستدير بكل جسدها لكى تراه .. بدلا من أن تدير بصرها فحسب .. وكأنما قلبها مثقل بحمل تخشى أن تحركه ان هى أقلقته لحظة . ورأته ينظر اليها :

— تناول فطورك يا « بيجر » .

— أنا أفعل ..

وأحضرت « فيرا » طبقها وجلست فى مواجهته . وأحس « بيجر »

بأنه بالرغم من أن وجهها كان أصغر وأكثر نعومة من وجه أمها؛ فقد بدأت مظاهر التعب ذاته تبدو عليه . كم تختلف « فيرا » عن « ماري » . . انه يستطيع أن يرى ذلك في الطريقة التي تحرك بها « فيرا » يدها عندما ترفع « الشوكة » الى فمها . كانت تبدو كما لو كانت ترتعش ذعرا من الحياة في كل لفظة أو حركة تبدو منها ، بل ان طريقة جلستها ذاتها تكشف خوفا بلغ من العمق ما يكفي أن يصبح جزءا عضويا منها . كانت تدخل الطعام في فمها في قضمات صغيرة وكأنما تخشى أن يخنقها . . أو كأنما تخشى أن ينتهي الطعام بسرعة .

وارتفع صوت « فيرا » تصرخ :

- بيجر . .

- هه . . ؟

- كف عن النظر الى يا « بيجر » .

- أوه . . اخرسى وتناولى فطورك .

- ماما . . دعيه يكف عن النظر الى .

- أنا لا أنظر اليها يا ماما . .

- أنت تنظر . .

فقالت الأم :

- تناولى فطورك وأنت ساكنه يا فيرا . .

- ولكنه يحدق الى يا ماما . .

وقال « بيجر » :

- أنت يا بنت . . انك مجنونة ولا شك !

- أنا لست مجنونة . . بل أنت المجنون . .

وصاحت الأم مرة ثانية :

- كفى . . اصمتا كلاكما . .

فقالت « فيرا » :

- لن أكل وهو ينظر الى .

ثم نهضت وجلست على حافة السرير ، فنهض « بيجر » وجذب قبعته وقال :

- هيه .. كلى طعامك .. أنا خارج من هنا .
- وتساءل « بدى » :
- ماذا حدث لك يا فيرا ؟
- فقال « فيرا » والدموع تجول فى عينيها :
- اهتم بأمرورك فحسب .
- وصرخت الأم :
- كفوا عن هذا واسكتوا أرجوكم .
- فقال « فيرا » :
- ماما .. ينبغى ألا تدعيه يعاملنى بهذه الطريقة .
- والتقط « بيجر » حقيبة ملابسه وعادت « فيرا » الى المائدة وهى تجفف دموعها فسألته الأم :
- متى سنراك ثانية يا « بيجر » ؟
- فقال « بيجر » وهو يصفق الباب خلفه .
- لست أدرى .
- وعندما أصبح فى منتصف السلم سمع من يناديه :
- « بيجر » ..
- وتوقف ونظر خلفه ورأى شقيقه « بدى » يهبط السلم فانتظره الى ماذا حدث :
- ماذا تريد ؟
- ووقف « بدى » أمامه يبتسم فى حياء :
- أ.. أنا ..
- ماذا حدث ؟
- هس .. فكرت فحسب فى ..
- وتصلب « بيجر » من الخوف .
- لماذا أنت مضطرب هكذا ؟
- أوه .. أعتقد أن المسألة « بسيطة » . فكرت فحسب فى أنه
- « ربما تكون قد وقعت فى بعض المتاعب ..

وصعد « بيجر » فى السلم ووقف فى مواجهة « بدى » وسأله فى همس وخوف :

— متاعب ؟ ماذا تقصد ؟

— أ .. أنا .. أظن أنك كنت عصبيا بعض الشيء ، وأردت أن أساعدك . هذا كل ما فى الأمر .. لقد فكرت فحسب ..

— كيف فكرت بهذه الطريقة ؟

وأمسك « بدى » حزمة يده وهو يقول :

— لقد سقطت منك هذه على الأرض .

وتراجع « بيجر » مشدوها ، وتحسس جيبه ولم يجد حزمة النقود . وتناول الحزمة من « بدى » ووضعها داخل جيبه فى لهفة وهو يقول :

— هل رأيتها أُمى ؟

— لا ..

ونظر الى « بدى » فى صمت وأدرك أنه يتلهف على أن يكون معه ويحوز ثقته ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا الآن . فأمسك بذراع « بدى » بقبضة يده القوية وقال وهو يخرج من الحزمة ورقة نقدية :

— اسمع .. لاتقل لأحد شيئا ، مفهوم ؟ خذ .. خذ هذه واشتر لنفسك شيئا .. ولا تقل شيئا لأى مخلوق .

— ياه .. شكرا .. أ .. أنا لن أقول لأحد ، ولكن هل أستطيع أن أساعدك ؟

— لا .. لا ..

وبدأ « بدى » يصعد فى السلم فناداه « بيجر » طالبا منه أن ينتظر ، فعاد يهبط السلم ويقف فى مواجهته وعيناه تلمعان باللهفة . ونظر اليه « بيجر » وقد تصلب جسده مثل حيوان يوشك أن يقفز . ولكن شقيقه لا يمكن أن يكشف أمره ، انه يستطيع أن يثق به . ومرة أخرى أمسك بذراع « بدى » وضغط عليه حتى تأوه من الألم .. ثم قال له :

— لاتقل شيئا لأى مخلوق .. أفهمت ؟

— لا .. لا .. لن أفعل .

— عد الآن .

وأسرع « بدى يصعد فى السلم ويختفى . ووقف « بيجر » يتأمل الظلال فى المدخل ويحاول أن يخفى مشاعره لا بدافع الخجل . ولكن بدافع من صبر نافذ . . لقد أحس تجاه « بدى » منذ لحظات بنفس ما أحس به تجاه « ماري » وهى ملقاة على سريرها والشبح الأبيض يتحرك نحوه فى ضوء الحجرة الأزرق الشاحب . ولكن « بدى » لن يقول شيئا . .

ثم تابع هبوط السلم . . وخرج الى الشارع . وكان الجو بارداً وان كان الثلج قد توقف عن الهطل وبدأت السماء تصفو قليلاً . وعندما اقترب من أحد المحال التى تظل مفتوحة طوال الليل . . تساءل : هل أحد من « الشلة » قريب من المكان . ربما كان « جاك » أو « ج . هـ » لم يعودا الى بيتيهما ولا يزالان يتسكعان كعادتهما أحياناً . وبالرغم من أنه أحس بأن علاقته بهما قد انتهت الى الأبد ؛ فقد ساورتها رغبة شاذة فى أن يكونا قريبين ليرى ماذا يكون شعوره عندما يراهما مرة ثانية . كان كرجل ولد من جديد ، يريد أن يختبر كل شيء الآن ويتذوقه ليرى كيف يكون طعمه . ومثلما يفعل رجل أبل من مرض طويل ، انتابته أحاسيس عميقة غريبة .

وأطل من خلال الزجاج الذى يعلوه الجليد ، نعم لقد كان « ج . هـ » بالدخل ففتح الباب ودخل . وكان « ج . هـ » يجلس أمام خزان الصوتا يتحدث الى العامل عليه ، فجلس « بيجر » بجانبه . . ولم يتكلما . وابتاع « بيجر » علبتين من السجائر طوح بواحدة منها نحو « ج . هـ » الذى نظر اليه فى دهشة وقال :

— لى أنا ؟

وأشار « بيجر » اليه براحة يده وقال وقد زم شفتيه :

— نعم لك .

وفتح ج . هـ العلبة وقال :

— « يا الهى . لقد كنت فى أشد الحاجة اليها . . . » وأردف

قائلاً :

— أتعلم الآن ؟

— نعم .

- وكيف ترى العمل ؟

- عظيم .

قال ذلك وشبك يديه .. فقد كان يرتعش من الاضطراب ..
وكان العرق يكسو جبهته . كان مضطربا .. وكان هناك شيء ما يزيد
من اضطرابه ، شيء ما يشبه العطش يقفز من دمائه .
.. وفتح الباب .. ودخل « جاك » :

- من ؟ « بيجر » ؟

وهز « بيجر » رأسه وقال للبائع :

- .. أنت .. هات علبة أخرى ..

ثم استدار نحو جاك وقال :

- هذه العلبة لك .

وصاح « جاك » وهو يلمح حزمة النقود في يد « بيجر » :

- بحق المسيح .. ما هذا كله .. ؟

وسأله « بيجر » ؟

- أين « جس » ؟

- سوف يكون هنا بعد لحظات .. لقد كان يتسكع عند « كلارا »
طول الليل .

وفتح الباب مرة أخرى ، واستدار « بيجر » ورأى « جس » يدخل
.. ثم يتوقف لحظة .

وقال « جاك » :

- كلا .. لا مشاجرات الآن .

واتناع « بيجر » علبة سجائر أخرى وطوح بها نحو « جس »
الذى التقطها ووقف في مكانه في حيرة ، فقال « بيجر » :

- أوه .. تعال يا « جس » .. انس كل شيء ..

واقترب « جس » في ببطء ، ثم فتح العلبة وأشعل سيجارة ، وقال
في ابتسامة خجول :

- بيجر .. أنت مجنون ولاشك .

وأدرك « بيجر » أن « جس » كان سعيدا اذ انتهى ما بينهما .
ولم يعد « بيجر » يخشاهم الآن ؛ فقد جلس وهو يضع قدميه فوق حقيبته
ملا بسه وينتقل ببصره من واحد الى الآخر . وقال « جاك » :

– أعطني دولارا يا بيجر . .

وسحب « بيجر » دولارا لكل واحد منهم ثم قال ضاحكا :

– لاتقولوا الآن اننى لم أعطكم شيئا قط . .

وقال « جس » وهو يضحك فى مرح :

– بيجر أنت بلا أدنى شك زنجى آخر مجنون . .

وكان على « بيجر » أن ينصرف ، فلم يكن يستطيع أن يظل هناك
يتحدث اليهم ، فأمر بثلاث زجاجات من البيرة ثم التقط حقيبته ونهض
. . وسأله « ج . ه » :

– الن تشرب أنت الآخر زجاجة ؟

– نعم . . يجب أن أنصرف . .

– سوف نراك قريبا . .

– الى اللقاء . .

ولوح لهم بيده ثم اندفع خارجا من الباب وسار على الأرض المكسوة
بالثلج وهو يحس بالبهجة والراحة وقد فغر فاه ولمعت عيناه . كانت
هذه أول مرة يجلس معهم فيها دون أن يحس بالخوف ، وأحس بأنه
يسير فى دهليز غريب بأرض غريبة . . وتسأله : الى أين يقود هذا
الدهليز ؟ وعند نهاية مجموعة من الأنبيّة ، وضع حقيبته على الأرض
ووقف ينتظر احدى الحافلات وقد دس أصابعه فى جيوبه يتحسس حزمة
الأوراق المالية . انه يستطيع ، بدلا من أن يتوجه الى بيت آل «دالتون»،
أن يستقل الحافلة الى محطة السكة الحديدية ويغادر المدينة . ولكن ما الذى
يحدث يا ترى بعد أن يفعل ذلك ؟ لو أنه هرب الآن لساد الظن على
الفور بأنه يعرف شيئا عن « مارى » ما دامت هى الأخرى غائبة . كلا ،
لسوف يكون من الأفضل له أن ينتظر ويرى ما يحدث . . ولربما مر
وقت طويل قبل أن يفكر أحد فى أن « مارى » قد لقيت مصرعها . . ووقت
آخر أطول قبل أن يفكر أحد فى أنه هو الذى قتلها . ثم هناك شيء
آخر ؛ ألن يفكروا على الفور فى الحمر عندما يفتقدون « مارى » ؟

وارتفع صوت السيارة وصعد هو اليها متوجها الى الشارع السابع

والأربعين حيث انتقل الى سيارة أخرى متجهة الى الشرق ، وجلس ينظر في قلق الى صورة وجهه المعتمدة في زجاج النافذة المبتل . ترى هل يتصور واحد من البيض الجالسين معه في الحافلة أنه قتل فتاة بيضاء ثرية ؟ كلا . قد يتصورون أنه سرق نصف دولار أو أسرف في الشرب، أو جرح انسانا ، . . . ولكن : . . أن يقتل ابنة مليونير ويحرق جسدها . . . وابتسم وهو يحس بدغدغة تسرى في جسده كله . لقد وضع له كل شيء الآن « ببساطة » : « تصرف كما يريد الناس أن تتصرف . . ولكن افعل ما تريده أنت » . لقد كان يفعل ذلك طوال حياته بدافع ما ؛ ولكنه كان يفعله بأسلوب صاحب وجاف . وفي الليلة الماضية فحسب - حين خنق « ماري » بدخل حجرتها - على حين أمها العمياء واقفة الى جوارها مادة ذراعيها - أحس بأن ذلك أمر « بسيط » وميسور . وبالرغم من أنه كان يرتعش قليلا فانه لم يكن في الحقيقة خائفا ، ولكنه كان متلهفا ومضطربا الى أقصى حد ، وقال لنفسه : أستطيع أن أدبر أموري معهم . قالها وهو يفكر في مستر « دالتون » وفي مسز « دالتون » .

ولم يكن هناك سوى شيء واحد يقلقه ، . . يجب أن ينزع من أمام عينيه تلك الصورة المفزعة لرأس « ماري » الدامي وهو ملقى على تلك الأوراق القديمة من الصحف . . . ولو أنه استطاع أن يفعل ذلك لأصبح كل شيء بالنسبة له على ما يرام . . . وتذكر « ماري » . . وكيف كانت تصرفاتها ، ثم قال لنفسه : « كم كانت حمقاء . لماذا تصرفت بهذا الأسلوب ؟ يا للجهيم ، لقد اضطررتني الى أن أفعل ذلك ، لم أستطع أن أحتمل . . كان ينبغي أن تكون أكثر دراية من ذلك . كان ينبغي أن تدعني وشأني . . لعنة الله عليها » لم يشعر بالأسف لما حدث « لماري » ، فلم تكن تمثل بالنسبة اليه شيئا من الواقع والحقيقة . . لم تكن بالنسبة اليه مخلوقا آدميا ، ولم يكن هو يعرفها جيدا من قبل لكي تمثل ذلك بالنسبة اليه . لقد أحس بأن قتله لها كان أكثر من مجرد عمل يبرره خوفه وعاره اللذان جعلته يشعر بهما ، صحيح أن تصرفاتها قد أثارت في أعماقه الخوف والعار ؛ ولكنه عندما فكر جيدا في حقيقة ما حدث ، بدا له أنه من المستحيل أن يكون ذلك وحده سببا كافيا يدفعه لقتلها . بل انه لا يعلم على وجه اليقين متى استبد به احساسه بالخوف والعار . كل ما في الامر أنه كان يحس بذلك وقتها ، وأن ذلك الاحساس كان يلهب دماغه في كل لحظة التقى فيها بها .

على أن « ماري » لم تكن في حقيقة الامر الدافع المباشر لاحساسه بذلك الخوف والحزى ؛ ولكنها ساعدت على الهاب مشاعره . . تلك المشاعر

التي كونتها لديه أكثر من « ماري » واحدة .. وعندما قتل « ماري » أحس بأن التوتر في عضلاته قد خفت حدته وبأنه ألقى عن كاهله عبئا خفيا كان يثقل كاهله ..

وبينما كانت السيارة تنطلق فوق الطريق المغطى بالثلج ، رفع بصره ورأى أناسا من السود يسرون على الطريق الجانبية المكسوة هي الأخرى بالثلج . كثيرا ما وقف مع هؤلاء عند « نواصي » الطرق والشوارع يتحدث ويتحدثون عن البيض على حين السيارات تمرق الى جوارهم ؛ ولم يكن هو ولا كانوا هم ، يعتبرون البيض آدميين حقيقيين .. بل كانوا يرونهم نوعا من أنواع القوى الطبيعية « الهائلة » ؛ ربما مثل سماء عاصفة تحوم فوق الرؤوس .. أو كنهر عميق هادر يمتد في الظلام فجأة تحت أقدام المرء . ولم يكن هناك ما يدعوهم الى الخوف من هذه القوة البيضاء ما داموا يدركون مدى حدودهم التي لا ينبغي أن يتخطوها ، ولكنهم بالرغم من ذلك - وسواء أكانوا يخشونها أم لا يخشونها - فقد كانوا يعيشون معها ، وكانوا يدركون حقيقة الكلمات حتى لو لم تفصح هذه الكلمات عن معانيها . ولقد ظلوا طوال حياتهم في ذلك الركن المعين لهم يدفعون الاتاة لها .

وكانت هناك لحظات قليلة ونادرة يشعر فيها برغبة في الوحدة والتماصك مع السود الآخرين .. ولربما حلم مرة بأن يقف معهم في مواجهة تلك القوة البيضاء ؛ ولكن ذلك الحلم كان لا يلبث أن يختفى عندما ينظر الى السود الآخرين حوله ، فقد كان يحس بالرغم من أنه أسود مثلهم ؛ بأن هناك اختلافا كبيرا بينه وبينهم يقضى على امكانية الحياة المشتركة الواحدة .. ذلك لم يكن يحدث الا عندما يتعرضون لخطر الموت .. وعندما يغمرهم الاحساس بالخوف والعار وهم مجبرون على الوقوف بظهورهم الى الحوائط . ولكنهم لم يستطيعوا قط أن يغرقوا أوجه اختلافهم في بحر الأمل ..

وعندما بدأ يتطلع من داخل السيارة الى السود في الطرقات الجانبية ، أحس بأن طريقة من الطرق يمكن أن يقضوا بها على الخوف والعار ؛ هي أن يتحدثوا ويعملوا معا .. وأن تحكمهم وتدلبهم على ماينبغي أن يفعلوه ؛ لكي تجبرهم على أن يفعلوه ، كذلك أحس بشكل غامض بأنه لا بد أن يكون هناك اتجاه واحد يسير فيه هو وكل السود الآخرين بقلوبهم .. وبأنه لا بد أن يكون هناك طريق ينهي ذلك الجوع .. وأن يكون هناك أسلوب للعمل بقود العقل والجسد الى الحقيقة والايان . ولكنه أحس بأن ذلك لا يمكن أن يحدث له أو لغيره من السود ؛ ولهذا

كرههم وود لو استطاع أن يطوح بقبضته فتنزل فوق رموسهم . وبالرغم من ذلك فهو لا يزال متعلقا بأمل شاحب باهت . لقد كان يحب في الماضي أن يسمع حكايات عن أناس يستطيعون أن يحكموا الآخرين ؛ ففي مثل ذلك كان يشعر بأن هناك وسيلة ما يهرب بها من ذلك الخوف والعار اللذين يقبعان في أعماق حياته . كان يحب أن يسمع عن اليابان وكيف كانت تغزو الصين، وعن «هتلر» وكيف ينكل باليهود ، وعن «موسوليني» وكيف يغزو أسبانيا ، ولم يكن يهمه أن يكون ذلك كله صوابا أو خطأ فقد كانت كلها تستهويه «ببساطة» لأنها كانت تمثل بالنسبة إليه طريقا للهروب . وأحس بأنه سيجيء في يوم من الأيام رجل أسود يجمع بعزمه شمل السود ويجعل منهم عصابة متماسكة تعمل معا وتنهي ذلك الخوف والعار . ولم يفكر هو قط في ذلك كله بصور عقلية محدودة وواضحة . . ولكنه كان يحس بها فحسب . وكان يحس بها لحظة ثم ينساها ؛ ولكن الأمل كان دائم الانتظار . . هناك في مكان ما بأعماقه .

لقد كان الخوف هو الذي جعله يتشاجر مع « جس » في « صالة البلياردو » . . ولو كان متمكنا من نفسه ومن « جس » لما كان قد فعل ذلك . ولكنه كان يعرف « جس » بقدر ما يعرف نفسه ذاتها ، وكان يعرف أيضا أن واحدا منهم قد « يفشل » في اللحظة الحاسمة نتيجة الخوف . فكيف إذن يفكر في سرقة محل « بلوم » والحال هذه . .؟ لم يكن يثق بـ « جس » . . وكان يخشاه ، وكان يعلم أن « جس » هو الآخر يخشاه ولا يثق به ، وكان من ثم يكره « جس » ويكره نفسه في اللحظة التي يوشك الاثنان فيها أن يتعاونوا للقيام بعمل ما . وبالرغم من ذلك فان الكراهية والأمل كانا ينقلبان في النهاية من « جس » ومنه هو نفسه الأمل . . الى شيء غامض يخلصه ويساعده ويقود خطاه ؛ والكراهية للبيض لأنه كان يحس بأنهم يحكمونه حتى وهم بعيدون عنه ولا يفكرون فيه . يحكمونه ويتحكمون حتى في علاقاته بأبناء جلدته .

وتابعت الحافلة سيرها وسط الثلوج واقتربت من طريق «دريكسيل» . ورفع الحقيبة ووقف بجوار الباب . . لسوف يعرف في خلال دقائق قليلة أن « ماري » قد احترقت تماما أولا . وتوقفت الحافلة ، وقفز منها وسار وسط الثلوج التي بلغت عقبه متجها الى بيت آل « دالتون » الذي كان يبدو أبيض ساكنا . وفتح الباب ومر بحذاء السيارة وهو يرى أمام ناظريه صورة « ماري » وعنقها الدامي داخل الموقد . . ورأسها وشعرها الأسود المتموج يتدل على صفحات الجرائد القديمة . وتوقف لحظة . يستطيع الآن أن يستدير ويخرج . . ثم يعود،

ويستطيع أن يستغل السيارة فيصبح على بعد أميال قبل أن يدرك أحد ما حدث . ولكن ؛ لماذا يهرب بلا سبب كاف يبرر هروبه ؟ ان معه بعض النقود التي يستطيع أن يستخدمها فى الهرب فى الوقت المناسب
ومعه أيضا مسدسه . وارتعشت أصابعه حتى أنه لم يستطع أن يفتح الباب الداخلى بسهولة ، ولكنها لم تكن ترتعش من الخوف ؛ بل كان يحس بنوع من اللفة والترقب والثقة والكمال والحرية ، فقد أصبح لحياته كلها معنى . ودفع الباب . . ثم وقف مشدوها وقد حبس أنفاسه . . رأى شبحا يقف الى جوار الموقد . . أهذه مسز « دالتون » ؟ ولكنها كانت أطول من مسز « دالتون » . . أوه . . انها « بيجى » . كانت تقف وظهرها اليه وقد انحنت قليلا وكأنها تطل داخل الموقد . ولم تسمعه وهو يدخل . وقال لنفسه لحظتها . . « لعله ينبغى لى أن أخرج » . وقبل أن يتحرك استدارت نحوه « بيجى » - أوه . . صباح الخير يا « بيجر » . . ولم يجبها . .

- أنا سعيدة بأنك وصلت . كنت على وشك أن أضع مزيدا من الفحم داخل الموقد .
- سوف أفعل أنا ذلك .

وتقدم نحوها وهو يحدق الى الموقد ليرى أية آثار لـ « مارى » داخل الموقد . . وعندما وصل بحذاء « بيجى » رآها تحدق من فرجة باب الموقد الى كومة الفحم المشتعلة . ثم قالت :
- كانت النار شديدة فى الليلة الماضية . . ولكنها خفت هذا الصباح .

- سوف أدبر كل شيء . .

ثم وقف دون أن يجروء على فتح باب الموقد على حين هى تقف الى جواره وسط الظلمة المشوبة بالاحمرار .

وسمع أوار اللهب يتصاعد . . وتساءل بينه وبين نفسه : هل كانت تشك فى شيء وأدرك لحظتها أنه كان ينبغى له أن يضىء المصباح . ولكن ؛ ماذا يحدث لو أنه فعل ذلك فكشف الضوء عن بعض بقايا « مارى » داخل الموقد . . وقال مرة أخرى :

- سوف أدبر كل شيء يا سيدتى . .

وفكر فى لحظة خاطفة فى أن يقتلها حتى لا تكشف أمره اذا أضاءت المصباح ورأت شيئا يجعلها تظن أن « مارى » قد قتلت . وبدون أن

يدير رأسه • رأى « جاروفا » فى الركن •• وتصلبت يده •• وتحركت «بيجى» من جانبه نحو مصباح مدلى من السقف فى نهاية الحجرة قرب السلم • ثم قالت :

— سوف أضئ لك المكان ••

وتحرك هو فى صمت وسرعة نحو الجاروف ، وانتظر ليرى ماذا يمكن أن يحدث •• وغمر الضوء المكان باهرا •• ورمش بعينه على حين وقفت « بيجى » بالقرب من السلم وقد رفعت يدها اليمنى فوق صدرها ممسكة بشوئها تحاول أن تغطى به جسدها •• وادرك « بيجر » على الفور حقيقة الموقف • انها لم تكن تفكر قط فى الموقد ، بل كانت تحس ببعض الخجل من أنه رآها فى « البدروم » وهى ترتدى « الروب » •• وسألته وهى تصعد فى السلم :

— ألم تنزل الآنسة « دالتون » بعد ؟

— نعم •• لم أرها ••

— هل حضرت الآن فحسب ؟

— نعم يا سيدتى •

وتوقفت ونظرت إليه •• :

— ولكن السيارة لا تزال فى الممر ••

— نعم ياسيدتى •

— معنى هذا أنها ظلت هكذا طوال الليل ؟

— لا يا سيدتى • لقد طلبت منى الآنسة « دالتون » أن أدعها

• هكذا •

— أوه •• اذن فقد بقيت خارج « الجاراج » طوال الليل • هذا هو

السبب اذن فى انها مغطاة بالثلج ••

— أعتقد هذا يا سيدتى •

وهزت « بيجى » رأسها وتنهدت وقالت :

— حسن •• أعتقد أنها ستكون جاهزة خلال دقائق لكى توصلها

الى المحطة •

— نعم يا سيدتى •

— أرى أنك أنزلت الحقيبة ••

- نعم يا سيدتى .. لقد طلبت منى أن أفعل ذلك فى الليلة الماضية .

- لاتنسها اذن .

ثم مرقت من باب المطبخ .

ولم يتحرك « بيجر » فترة طويلة بعد خروج « بيجى » . ثم نظر حوله فى امعان وهو يدير رأسه ويرهف سمعه وبصره مثلما يفعل الحيوان كيما يثب من أن كل شىء على ما يرام .. ورأى الحجره على نفس حالها الذى تركها عليه فى الليلة الماضية .. وبدأ يجوس خلالها وهو ينعم النظر . وتوقف فجأة وقد اتسعت عيناه ، فقد رأى أمامه مباشرة قطعة صغيرة من أوراق الصحف ملوثة بالدماء تبدو على الضوء المنبعث من فرجة باب الموقد . ترى هل رأتها « بيجى » ؟ .. وأسرع يطفىء مصباح الحجره وعاد فى لهفة الى قطعة الورق فعثر عليها بصعوبة . معنى هذا أن « بيجى » لم يكن فى مقدورها أن تراها فى ظلام الحجره . ولكن ماذا حدث بالنسبة لمارى ؟ هل احترقت تماما ؟ .. عاد يضىء المصباح مرة أخرى ويلتقط قطعة الورق الملوثة بالدماء ، ثم أدار بصره يميناً ويساراً ليرى .. اذا كان أحد يراقبه .. ثم فتح باب الموقد وأطل من خلاله وقد ملأت مخيلته صورة « مارى » وعنقها الدامى . وكان جوف الموقد يemor بالفحم المشتعل ، ولكنه لم ير أثراً للجنة .. وبالرغم من ذلك فقد ظلت صورة الجنة تتأرجح بين عينيه وبين وسادة الفحم المشتعل داخل الموقد . على أنه استطاع أن يميز وسط جمرات الفحم الملتهب .. خطوط جسد « مارى » فى انحنائه كما تكشف آثار الطين والتراب عن قبر حفر حديثاً . وأحس أن جسد « مارى » سينتصب أمامه كاملاً لو أنه تحسس بأصابعه تلك الآثار .. وكان منظر الفحم يدل على أنه أحرق الجسد مخلفاً جمرات ملتبهة تكون ما يشبه « محارة » من اللهب خالية من الوسط تكشف خلال الفحم وارتعاشات اللهب فيه . رسم جسد « مارى » . ورمش « بيجر » بعينه .. وأفزعه أنه كان لا يزال يمسك بقطعة الورق الملوثة بين أصابعه ، فرفعها الى مستوى باب الموقد ثم قذف بها الى داخله وراح يشاهدها وهى تتطاير داخل اللهب المرتعش الأحمر ثم يتصاعد دخانها وتتحول الى شىء أسود ثم أحمر ثم تختفى ، وأبطل المروحة ، فلم يكن هناك خطر الآن من ظهور أية رائحة .

وأغلق باب الموقد وزوده بمزيد من الفحم .. وتناهدت الى أذنيه

أصوات ارتطام حبات الفحم بجوانب الموقد .. عالية صاحبة على حين
أوار اللهب داخل الموقد يتحول بالتدريج الى اللون الأسود .. ثم يعود
الى التوهج . وأوقف الرافعة التى تزود الموقد بالفحم .. وأحس بأن
كل شيء يجرى على مايرام وأنها ستظل كذلك مالم يدس أحد أفه داخل
الموقد .. هو نفسه لا يريد أن يفعل ذلك مرة أخرى حتى لا تقع عيناه
على جزء لايزال باقيا من جسد « ماري » ، ولو أن كل شيء سار على
مايرام حتى المساء .. اذن لاحتترقت « ماري » تماما . ولضمن السلامة .
واستندار فرأى الحقيبة .. آه .. لا ينبغي أن ينساها .. وينبغي أيضا
أن يضع هذه المنشورات الشيوعية داخل حجرته على الفور . وأسرع
يبتعد عن الموقد ثم صعد فى السلم الى حجرته ودس المنشورات بعناية
فى ركن درج « الدولاب » . نعم ، يجب أن يحفظها بعناية . ويجب أن
يعتقد الجميع أنه لم يقرأها .

ولكنه ما لبث أن عاد الى « البسدروم » ووقف دونما هدف أمام
الموقد وهو يحس بأنه ربما يكون قد نسي شيئا يكشف فعلته . ربما
كان ينبغي له أن يقلب جوف الموقد . نعم .. يجب أن يفعل ذلك حتى
لا تبقى أجزاء غير محترقة تماما . وفى لهفة ، تهيأ ليمسك بيد الجزء
الأسفل من الموقد ليحركه الى الأمام وإلى الخلف .. ولكنه ما لبث أن
تراجع كالمسوع عندما قفرت الى مخيلته صورة وجه « ماري » كما رآه
على ضوء الحجرة الأزرق وهى نائمة فوق سريرها .. يلمع أمام ناظريه
وسط الجمرات الملتهبة .. وقفز « بيجر » وقد استسبد به الذعر
« وهستيرية » الخوف والشعور بالذنب . وتوقفت يده ولم يعد فى
فى مقدوره أن يفعل شيئا . يجب أن يغادر الحجرة ليشم الهواء النقي
بعيدا عن هذا المكان الذى يخيل اليه أن حوائطه يقترب بعضها من
بعض ليضيق أكثر وأكثر ويزيد من صعوبة تنفسه .

وعاد الى الحقيبة وأمسك بمقبضها وسحبها نحو الباب ثم رفعها
فوق ظهره وحملها الى السيارة .. ونظر الى ساعته ورآها تشير الى
الثامنة والنلت . يجب عليه الآن أن يتقرب خروج « ماري » .. فاحتل
مقعده على عجلة القيادة وانتظر خمس دقائق .. الآن يجب عليه أن
يدق الجرس لينبها . واتجه ببصره نحو الدرجات المؤدية الى الباب
الجانبى للبيت وهو يتذكر كيف تعثرت فيها « ماري » الليلة الماضية
وكيف أعانها هو على النهوض . وبدون ما قصد ، تطلع فى خوف الى
أشعة الشمس التى سقطت فجأة من السماء وانعكس بريقها فوق الثلوج

فى دنيا من البياض الناصع بلا صوت • الوقت اذن يتأخر : وربما كان من واجبه أن يصعد ليسأل عن الأنسة « دالتون » ، فلو أنه بقى فى مكانه لكان ذلك دليلا على أنه كان يتوقع ألا تنزل « مارى » من حجرتها • فغادر السيارة واتجه صاعدا فى السلم الى الباب الجانبى ، ونظر خلال الزجاج ولم ير أحدا • وحاول أن يفتح الباب فوجده مغلقا ، فدق الجرس وسمع صوته رقيقا فى الداخل •• وانتظر لحظة ثم رأى « بيجى » تسرع داخل البهو متجهة الى الباب •• ثم تفتحه وتقول :

- ألم تنزل بعد ؟

- نعم . يا سيدتى •• والوقت يمضى ••

- انتظر •• سوف أدعوها •

وأسرعت « بيجى » تصعد فى السلم وهى لاتزال ترتدى «الكيمونو» •• نفس السلم الذى صعد فيه « بيجر » وهو يكاد يجرمعه « مارى » والذى تعثر فيه فى الليلة الماضية وهو يحمل الحقيبة ، ثم رآها « بيجر » بعد لحظات تهبط السلم بسرعة أقل من التى صعدت فيه بها •• وتقدمت نحو الباب وقالت له :

- ليست هناك • ربما كانت قد سافرت ، ولكن هل قالت لك ؟

- لقد طلبت منى أن أقود بها السيارة الى المحطة وأحمل حقبيتها

يا سيدتى •

- حسن •• انها ليست فى غرفتها •• ولا فى غرفة مسز

« دالتون » •• كذلك فان مسز « دالتون » لا تزال نائمة • هل أخبرتك

أنها ستخرج فى صباح اليوم ؟

- هكذا قالت لى فى الليلة الماضية يا سيدتى •

- وطلبت منك أن تنزل الحقيبة فى الليلة الماضية ؟

- نعم يا سيدتى ••

وفكرت « بيجى » لحظة وهى تنظر وراه الى السيارة المكسوة

بالجليد ثم قالت :

- حسن ربما كان الأفضل أن تأخذ الحقيبة الى المحطة ، ولعلها

لم تقض الليلة الماضية هنا ••

- أمرك يا سيدتى

- ثم استدار ليهبط للمسلم ..

- « بيجر » .

- نعم ياسيدتى .

- هل قلت انها طلبت منك أن تترك السيارة فى الخارج طوال الليل ؟

- نعم ياسيدتى .

- هل قالت لك انها ستستخدمها مرة أخرى ؟

- لا ياسيدتى .. فقد كان بداخلها .

- من ؟

- السيد .

- آه .. نعم . خذ الحقيبة الآن ، أعتقد أن « مارى » قد خرجت لبعض شئونها .

ودلف الى السيارة واتجه بها خارجا من الممر المخصص لها الى الشارع ، ثم انحرف فى اتجاه الشمال فوق الثلوج .. وود لو نظر الى الخلف ليرى .. اذا كانت « بيجى » تراقبه .. ولكنه لم يجرؤ ، فربما جعلها ذلك تتصور أنه يظن أن هناك شيئا ما فى الأمر ، وهو لا يريد أن يظهر هذا الانطباع الآن . حسن ، هناك الآن شخص واحد على الأقل ينظر الى المسألة كما أرادها هو .

ووصل الى محطة شارع « لاسال » فأوقف السيارة فى مكان ضيق بين سيارتين ورفع الحقيبة ثم وقف ينتظر أحدا يعطيه تذكرة الحقيبة . وتصور .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن أحدا لم يسأل عن الحقيبة . ربما أخبروا مستر دالتون . على أية حال . يستطيع أن ينتظر ويرى . لقد فعل ماعليه ، فقد طلبت منه الأنسة « دالتون » أن يحمل حقيبتها الى المحطة .. وهو قد نفذ أمرها .

وأسرع يقود السيارة فى طريق العودة بأقصى سرعة سمحت له بها الشوارع المغطاة بالثلج ، فقد كان يريد أن يعود الى مسرح الأحداث ليرى مايمكن أن يحدث وليكون هناك وأصابه فوق نبض الزمن . ووصل الى الممر المخصص لدخول السيارة واندفع بها الى داخل « الجاراج » ثم

أغلقه خلفه ووقف يفكر .. هل ينبغي له أن يعود الى حجرته أو الى المطبخ ؟ ربما كان من الأفضل أن يذهب مباشرة الى المطبخ كما لو أن شيئا لم يحدث .. وهو أيضا لم يكن قد تناول فطوره بعد على أساس ما يمكن أن تتصوره « بيجي » ، ومن ثم يكون دخوله الى المطبخ أمرا طبيعيا . وذهب عن طريق « البدروم » وهو يتوقف لحظة ليتطلع الى الموقد المائر باللهب ، ثم اتجه نحو باب المطبخ ودخل فى هدوء . وكانت « بيجي » تقف الى جوار موقد الغاز وظهرها اليه ، ثم استدارت ونظرت نحوه مباشرة وقالت :

- كل شيء على ما يرام ؟

- نعم ياسيدتى .

- هل رأيته هناك ؟

- لا ياسيدتى .

- هل أنت جائع ؟

- قليلا ياسيدتى .

- قليلا ؟

ثم ضحكت وأردفت تقول :

- سوف تتعود نظام هذا البيت أيام الآحاد .. ان أحدا لا يستيقظ من نومه مبكرا .. وهم عندما يستيقظون يكونون فى غاية الجوع .

- حسن ياسيدتى .

- تد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى ضايق « جرين » خلال عمله هنا . لقد كان يقسم أننا نجوعه فى أيام الآحاد .

واغتصم « بيجر » ابتسامة وأرخى بصره الى « أرضية » الحجرة السوداء والبيضاء . ترى ماذا يمكن أن تقول لو أنهسا عرفت ؟ أحس بعطف بالغ نحوها فى تلك اللحظة ، لأنه أحس بأنه يملك شيئا ما ذا قيمة لا يمكنها أن عليه إياه حتى لو كانت تحتقره . وسمع رنين جرس « التليفون » فى الردة .. واعتدلت « بيجي » ونظرت اليه وهى تمسح يديها بميدعتها تقول :

— من ذا الذى يطلبنا فى هذا الوقت المبكر من يوم الأحد ؟

وخرجت •• وجلس هو ينتظر • ربما كان « جان » هو المتحدث •• يريد أن يسأل عن « ماري » وتذكر أن « ماري » كانت قد وعدته بأن يطلبه « تليفونيا » ، وفكر لحظتها فى المدة التى يستغرقها السفر الى « دترويت » •• خمس أو ست ساعات ؟ ان « دترويت » ليست بعيدة •• وقطار « ماري » غادر المحطة بالفعل والمفروض أن تكون قد وصلت الى « دترويت » قبل الساعة الرابعة • أليس من المحتمل أن يكون هناك شخص فى انتظارها هناك ؟ فإذا لم يجدها فى القطار فمن المحتمل أن يسأل عنها تليفونيا أو برقيا • وعادت « بيجى » واتجهت من فورها الى فرن الغاز تتابع الطهى •• ثم قالت :

— سوف أنتهى فى دقائق •

— أمرك ياسيدتى •

ثم استدارت نحوه وقالت :

— من ذلك السيد الذى كان مع الآنسة « دالتون » فى الليلة الماضية ؟

— لست أدرى يا سيدتى •• ولكنى أتذكر أنها كانت تناديه بـ « جان » •• أو اسم كهذا •

— جان ؟ لقد كان هو الذى يتكلم فى « التليفون » •

ثم هزت رأسها وزمت شفيتها وقالت :

— انه شخص لا خير من ورائه ، انه واحد من أولئك الفوضويين

المعادين للحكومة •

واستمع « بيجر » دون أن ينطق بكلمة •

— لست أدرى ما الذى يدفع فتاة طيبة مثل « ماري » الى التعلق بمثل هذه الجماعة المجنونة • الله وحده يدري • ولكم ذلك لن يؤدي الى خير •• وتذكر كلماتى هذه • لو لم تكن هنلا « ماري » هذه وتصرفاتها الشاذة لسارت الأمور فى هذا البيت من الساعة • وهى مسكينة على أية حال • ان أمها هى الطيبة عينها وليس هناك رجل فى الدنيا أرق من أبيها مستر « دالتون » •• ولكم « ماري » سوف تعود

الى رشدها فى الأيام القادمة .. كلهن كذلك .. انهن يتصورن انهن
يفتقدن شيئا اذا لم ينطلقن على أهوائهن وهن صغيرات حمقاوات .

وأحضرت له صحيفة من الشعير الساخن واللبن .. وبدأ « بيجر »
يتناول طعامه ، ووجد صعوبة بالغة فى بلع فطوره فلم تكن « شهيته »
مفتوحة ، ولكنه اضطر الى أن يأتى عليه كله على حين كانت « بيجى »
لا تزال تتحدث وهو يتساءل بينه وبين نفسه : هل يمكن أن يقول هو
شيئا ؟ ووجد فى النهاية أنه لا يستطيع أن يقول شيئا . كذلك فربما
كانت هى لا تتوقع منه أن يقول شيئا . وربما كانت تكلمه لأنه لا أحد
معها غيره تستطيع أن تفعل معه ذلك ، تماما كما تفعل أمه أحيانا . نعم ،
سوف يلقي نظرة أخرى على الموقد عندما يذهب الى « البدروم » ...
ولسوف يملأ الموقد بالفحم على قدر ما يسمح اتساع الموقد ويتيقن أن
« مارى » قد احترقت بسرعة . ويبدو أن حرارة المطبخ جعلته يحس برغبة
فى النوم .. وقال وهو يتمطى :

— ماذا سأفعل اليوم يا سيدتى ؟
— انتظر حتى يطلبك أحد . ان يوم الأحد دائما يوم كئيب ،
وربما خرج مستر « دالتون » أو مسز « دالتون » .
— أمرك يا سيدتى ..

وأنهى طعامه ثم قال :

— هل تريدن منى شيئا الآن يا سيدتى ؟
— لا . ولكنك لم تأكل جيدا . هل تريد لحما أو بيضا ؟
— لا يا سيدتى .. لقد أكلت « كفايتى » .
— حسن المكان مكانك . ولا تخف من أن تطلب شيئا من هنا .
— شكرا .. أعتقد أنه من المناسب أن أفحص الموقد الآن .
— لا بأس يا « بيجر » وانتظر الجرس فى حوالى الثانية .. ولست
أعتقد أنك مطلوب قبل ذلك ..

وذهب الى « البدروم » ورأى النيران مشتعلة وجمرات الفحم حمراء
ملتهبة وأوارها يتصاعد . لا داعى لمزيد من الفحم . ونظر مرة أخرى

حوّله في « البدروم » .. الى كل ركن من أركانه ليرى .. اذا كان قد ترك خلفه أثرا مما حدث في الليلة الماضية .. ولم يجد شيئا ..

وصعد الى حجرته واستلقى على فراشه . حسن ، هاهو ذا يعود مرة أخرى . ترى ما الذي سيحدث ؟ كانت الحجرة هادئة . كلا .. بل سمع شيئا . وأرهف السمع ، وتناهدت الى أذنيه أصوات الأواني في المطبخ ، فنهض وسار نحو أقصى الحجرة . وارتفعت الأصوات . ثم سمع خطوات « بيجي » الهادئة في ثبات وهي تسير داخل المطبخ .. انها تحته تماما .. ووقف بلا حراك .. ينصت . وسمع صوت مسز « دالتون » .. ثم صوت « بيجي » .. وانحنى ليضع أذنه على أرض الحجرة . ترى هل يتكلمان عن « ماري » ؟ لم يستطع أن يميز ما كانتا تقولانه ، وعاد فنهض ثم نظر حوله ورأى على بعد قدم واحدة منه باب مخزن الملابس .. ففتحه وتناهدت اليه الاصوات أكثر وضوحا ، فدلف الى داخل المخزن وتوقف عندما « طقطقت أرضية » المخزن تحت قدميه . ترى هل سمعاه ؟ هل ستدركان أنه يتسمع عليهما ؟ آه .. لقد واثته فكرة أحضر حقيبته وفتحها وأخرج بعض ملابسه . لو أن أحدا جاء الى الحجرة الآن لرآه وهو يخرج ملابسه .. وعاد الى المخزن .. وأرهف السمع ..

- .. اذن فقد بقيت السيارة طوال الليل في المر ؟

- نعم ، لقد قال لي ان الأنسة «دالتون» هي التي طلبت منه ذلك .

- وكم كان الوقت آنذاك ؟

- لست أدري يا مسز «دالتون» .. فلم أسأله .

- لا أفهم ذلك أبدا ..

- أوه .. انها بخير . لست أرى موجبا لقلقك ..

- ولكنها لم تترك أية مذكرة يا « بيجي » . و « ماري » لم تتعود

أن تفعل ذلك .. حتى في المرة التي هربت فيها الى « نيويورك » ، تركت وراءها مذكرة .

- ربما لم تسافر . ربما حدث شيء اضطرها الى أن تقضى الليل

كله في الخارج يا مسز « دالتون » .

- ولكن لماذا تترك السيارة في الخارج ؟

- لست أدري .

- وهل قال ان رجلا كان معها ؟
 - انه جان يا مسز « دالتون »
 - جان ؟
 - نعم . الشاب الذى كان معها فى « فلوريدا » .
 - آه . . . ينبغى لها أن تكف عن مصاحبة هؤلاء القوم المزعجين .
 - لقد طلبها « بالتليفون » هذا الصباح . . . وسأل عنها ؟
 - طلبها ؟
 - نعم . . .
 - وماذا قال ؟
 - يبدو أنه تضايق عندما قلت له انها خرجت . . .
 - ترى أى مصير ينتظر هذه البنت المسكينة ؟ لقد قالت لى انها لن تراه مرة ثانية .
 - لعلها هى التى طلبت منه أن يتصل بها يا مسز دالتون . . .
 - ماذا تقصدين ؟
 - حسن . . . ياسيدتى ، كنت أفكر فى أنه ربما تكون هى معه الآن مرة أخرى ، مثلما حدث فى « فلوريدا » ، وربما طلبت هى منه أن يتصل بالبيت ليرى . . . اذا كنا قد عرفنا أنها خرجت . . .
 - أوه . . . « بيجى » . . .
 - أوه . . . معذرة يا سيدتى . . . ألا يحتمل أن تكون أمضت ليلتها مع بعض أصدقائها ؟
 - ولكنها كانت داخل حجرتها فى الثانية من صباح اليوم يا بيجى . . . الى أى منزل تستطيع اذن أن تذهب فى مثل ذلك الوقت ؟
 - لقد لاحظت شيئا يا مسز « دالتون » عندما دخلت حجرتها هذا الصباح . . .
 - ماذا ؟
 - سيدتى . . . لقد رأيت أن سريرها يبدو كما لو لم يكن أحد قد نام فوقه . . . كان الغطاء فى مكانه ويبدو كما لو ان أحدا قد اكتفى بالتمدد قليلا ثم نهض من فوقه . . .

– أوه ..

وأنصت « بيجر » باهتمام ، ولكن الصمت ما لبث أن ساد . لقد عرفوا الآن أن شيئا ما قد حدث . ثم سمع صوت مسز « دالتون » مرة ثانية وقد شابه الشك والخوف :

– اذن فهي لم تنم فى حجرتها الليلة الماضية .
– يبدو ذلك .

– هل قال هذا الولد ان « جان » كان بالسيارة ؟
– نعم . فقد رأيت أن وجود السيارة فى الخارج طوال الليل تحت الثلج أمر غريب ..

ومن أجل هذا سألتها فقال انها طلبت منه أن يترك السيارة هناك .. وقال أيضا ان جان كان بداخل السيارة .

– اسمعى يا « بيجى » .
– نعم يا مسز « دالتون » ..
– لقد كانت « مارى » ثملة الليلة الماضية ، وأرجو ألا يكون قد حدث لها شيء .

– أوه .. يا للمسكينة .
– لقد ذهبت الى حجرتها بمجرد عودتها .. وقد أعجزها السكر عن الكلام .. كانت ثملة ، ولم أكن أتصور أن تحضر الى البيت فى مثل تلك الحالة .

– سوف تكون بخير يا مسز « دالتون » .. أنا واثقة من ذلك ..
وساد الصمت مرة أخرى .. وتساءل « بيجر » . هل مسز « دالتون » قد غادرت المطبخ فى طريقها الى حجرتها ، وعاد الى سريره واستلقى عليه .. ينصت . ولم يسمع صوتا .. وظل فى مكانه فترة طويلة لا يسمع فيها شيئا ، ثم سمع فجأة وقع أقدام فى المطبخ ... فأسرع الى مخزن الملابس .. ينصت :

– بيجى .
– نعم يا مسز « دالتون » ..

– اسمعى .. لقد جئت لتوى من حجرة « مارى » ، وهناك أمر

يقلقنى ، فهمى لم تكمل جمع ملابسها فى الحقيبة . نصف حاجاتها على الأقل لا تزال فى مكانها .

— لقد قالت لى انها ستذهب الى « دترويت » للمشاركة فى بعض حفلات الرقص ولكنها لم تأخذ معها الأشياء الجديدة التى ابتاعتها .
— ربما لم تذهب الى دترويت .
— فأين ذهبت اذن ؟

وكف ييجر عن الانصات وهو يحس بالخوف لأول مرة . انه لم يفكر قبل ذلك فى أن حقيبتها لم تكن كاملة ، فكيف يمكن اذن أن يفسر أنها طلبت منه أن يحمل الى المحطة حقيبة نصف فارغة ؟ أوه . . . لقد كانت الفتاة ثملة . نعم ، هذا هو الرد ، لقد كانت « مارى » ثملة الى الحد الذى لم تكن تدري فيه ماذا تفعل ، وفى وسعه أن يقول انها طلبت منه أن يأخذها فأخذها . . وهذا كل ما فى الأمر . واذا سأله أحد : لماذا حمل حقيبة نصف فارغة الى المحطة أجابه أن ذلك لم يكن يختلف عن كل الحماقات الأخرى التى بدرت منها فى تلك الليلة . ألم يشاهده الناس وهو يأكل معها هـى و « جان » فى مطعم « ايرنى » ؟ يستطيع أن يقول كلاهما كان ثملا وانه فعل ما أمرته به لأن ذلك كان طبيعة عمله . . وعاد ينصت الى الأصوات :

— . . وأرسلنى الولد الى بعد لحظات فأنا أريد أن أتحدث معه . .
— أمرك يا مسز دالتون . .

ومرة أخرى عاد يسترخى فوق سريره . انه يستطيع أن يمضى الى النهاية فى روايته وأن يؤكد بها بالبراهين . ولكن ألا يحتمل أنه تصرف تصرفا خاطئا بالنسبة للحقيقة ؟ ربما كان من الأفضل أن يحمل « مارى » بين ذراعيه ثم يحرقها ؟ ولكنه كان مضطرا الى أن يضعها داخل الحقيبة حتى لا يراها أحد بين ذراعيه . . فقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع أن يخرجها بها من الحجرة . . أوه . . يا للجحيم . لماذا يشغل نفسه بالتفكير ؟ ما حدث . . . قد حدث . . . وسوف يصير على روايته تلك وهو يركز ذهنه عند كل التفاصيل بها . لسوف يقول انها كانت سكرى . . سكرى الى درجة كبيرة . وظل مسترخيا فوق سريره داخل الحجرة الدافئة وهو ينصت الى أزيز جهاز التدفئة ويفكر فى خول : لقد كانت « مارى » سكرى . . وساعدها هو على صعود السلم . . وضغط على وجهها بالوسادة . . ووضعها داخل الحقيبة وعانى كثيرا حتى استطاع

أن يهبط السليم المظلم .. واحترقت أصابعه من الألم عندما تعثر بها فسقطت بوم - بوم - بوم ... وأحدثت صوتا عاليا لا بد أن الدنيا كلها سمعته .

ثم انتبه الى نفسه وقفز عندما سمع نقرة على الباب .. وارتفعت دقات قلبه .. وجلس على حافة السرير ومضى يجيل بصره في أرجاء الحجرة كالنائم . هل دق أحد الباب ؟ ونظر الى ساعته ورآها تشير الى الثالثة . يا الهى . لا بد أنه كان نائما عندما دق الجرس فى الساعة الثانية .. وسمع الدق مرة أخرى .

- .. حسن .

- أنا مسز « دالتون »

- أمرك يا سيدتى .. دقيقة واحدة .

ووصل الى باب الحجرة فى خطوتين طويلتين ثم وقف لحظة يحاول أن يجمع شتات نفسه .. ورمش بعينه وبلل بلسانه شففيه ثم فتح الباب ورأى أمامه مسز « دالتون » وهى تبتسم ، وقد ارتدت ملابس بيضاء ووجهها يبدو شاحبا تماما كما رآها تقف فى الظلام على حين كان هو يخنق « مارى » على فراشها ..

- ن .. نعم يا سيدتى .. لقد كنت نائما ..

- يبدو أنك لم تنم ما فيه الكفاية فى الليلة الماضية ... أليس كذلك ؟

- نعم .. نعم ياسيدتى .

- لقد دقت « بيجى » لك الجرس ثلاث مرات ولكنك لم تجب ..

- معذرة يا سيدتى .

- لا بأس .. أريد أن أسألك عن الليلة الماضية .. أوه : هل

أخذت الحقيبة الى المحطة ؟

- نعم يا سيدتى .. أخذتها صباح اليوم .

- كذا ..

ثم وقفت وهى ترفع رأسها نحو الممر نصف المظلم على حين وقف هو واضعا يده على مزلاج حجرته وقد توترت عضلاته . يجب عليه منذ هذه اللحظة أن ينتبه جيدا الى كل ما يقول ، وان كان واثقا من أن لديه

ما يحميه : فقد كان يعرف أن مسز « دالتون » سوف يمنعها الحجل من أن تسأله كثيرا حتى لا يعرف أنها قلقة . كان هو صبيا . . . وهى سيدة عجوز . كان هو العامل . . . وكانت هى صاحبة العمل ، ومن ثم فقد كانت هناك مسافة معينة تفصل بينهما .

– هل تركت السيارة فى الخارج الليلة الماضية ؟

– نعم يا سيدتى . . . كنت أتهيا لادخالها الى « الجاراج » . . . ولكنها طلبت منى أن أدعها بالخارج . . .

قالها كمن يؤكد أن كل ما يهمه هو الإبقاء على عمله وأداء واجبه . . .
– وهل كان هناك أحد معها ؟

– نعم يا سيدتى . . . كان معها أحد السادة .

– لا بد أن ذلك كان فى وقت متأخر . . . أليس كذلك ؟

– بلى يا سيدتى . . . قبل الثانية بقليل يا سيدتى . . .

– وأنت أخذت الحقيبة قبل الثانية بقليل ؟

– نعم يا سيدتى . . . هى التى أمرتنى بذلك .

– هل أخذته الى حجرتها ؟

ولم يود هو أن تعلم أنه كان مع ابنتها فى الحجرة ، وسرعان ما تذكر تفاصيل روايته وقال :

– نعم يا سيدتى . . . لقد صعدا معا . . .

– أوه . . . هو وهى ؟

– نعم يا سيدتى .

– آه . . . هكذا . . .

– هل حدث شئ يا سيدتى ؟

– أوه . . . كلا . . . أنا . . . أنا . . . أنا . . . كلا ، لا شئ . . .

ووقف بالقرب من الباب . . . ونظر هو الى عينيها الرماديتين العماوين وأدرك أنها قلقة حقا وأنها كانت تود أن توجه اليه مزيدا من الأسئلة . ولكنه أدرك أيضا أنها لا تريد أن يحكى لها شيئا عن سكر ابنتها . ثم ان هناك شيئا هاما فى النهاية ، هو أنه أسود وهى بيضاء . . . وهو فقير وهى ثرية ، ولسوف ينتابها الحزى ان هى تركته يتصور أن

شيئا ما قد حدث لأسرتها .. شيئا يضطرها الى أن تسأله هو ، ..
الخادم الأسود . وأحس بالثقة .

– هل هناك شيء أفعله الآن يا سيدتى ؟

– لا .. تستطيع فى الحقيقة أن تأخذ اجازة بقية اليوم اذا شئت .
ان مستر « دالتون » يحس بالتعب .. ونحن لن نخرج اليوم ..

– أشكرك يا سيدتى ..

وابتعدت .. وأغلق هو الحجرة ووقف ينصت الى وقع أقدامها
وهى تتجه الى البهو ثم تهبط السلم ، وتصورها وهى تتلمس طريقها
ويدها تتحسس الحوائط . لا بد أنها تعرف أجزاء هذا البيت مثلما
يحفظ المرء سطور كتاب . وأحس برعشة الاثارة : كانت هى بيضاء ..
وهو أسود .. كانت ثرية وهو فقير .. كانت عجوزا وهو صغير ...
وكانت هى سيدهته وهو العامل لديها . ومع ذلك فهو يحس بالأمان ،
نعم ، انه يحس بالأمان . وعندما سمع صوت باب المطبخ يفتح ثم يغلق
عاد الى مخزن الملابس ولكنه لم يسمع صوتا .

– حسن .. يستطيع أن يخرج الآن لكى يعوض الضيق الذى أحس
به وهو يتحدث الى مسز « دالتون » .. يستطيع أن يذهب الى « بيسى »
.. نعم .. هكذا . وضع قبعته فوق رأسه وذهب الى « البدروم » وسمع
صوت الهواء الذى يمتصه جوف الموقد ، ورأى اللهب أبيض ساطعا ،
لا بأس ، .. هناك قدر كاف من الفحم حتى يعود .

ومضى متجها الى الشارع السابع والأربعين ، ثم وقف على « ناصية »
ينتظر قدوم سيارة . نعم ، ان « بيسى » هى بغيته الآن . شيء مضحك
حقا . انه لم يفكر فيها كثيرا خلال اليوم واللييلة الماضيين الذين حفلا
بالأحداث المثيرة . ولم يكن هناك ما يدعو الى أن يفكر فيها . ولكن ينبغى
له الآن أن ينسى ويريح جسده .. ولهذا أراد أن يراها ، وهى دائما تظل
فى البيت فى أُمسيات أيام الأحد . انه يحتاج اليها الآن بشدة ، ويحس
بأنه اذا رآها فسوف يكون أكثر قوة لمواجهة ما يأتى به الغد .

ووصلت الحافلة وصعد اليها وهو يفكر فيما حدث ذلك اليوم .
كلا ، انه لا يعتقد أنهم سيشكون فيه . انه أسود . ومرة أخرى أحس
بحزمة الأوراق المالية داخل جيبه ، اذا تعقدت الأمور ففى مقدوره أن
يهرب . ولم يكن يدرى كم المبلغ الذى تضمه الحزمة . فهو لم يفكر حتى

فى أن يعده ، ولكنه سيعدها عندما يصل الى « بيسى » . لم يكن هناك ما يبعث على الخوف قط . وتحسس المسدس تحت قميصه لصق جسده . ان المسدس دائما يبقى الناس بعيدا ويحملهم على التفكير مرتين قبل أن يتعرضوا له .

ولكن هناك نقطة واحدة تضايقه فى الحكاية كلها ، كان ينبغي له أن يحصل منها على مزيد من النقود ، وكان عليه أن يرسم خطته لذلك . لقد تصرف بعجلة . وبالمصادفة . ولكن الأمور ستختلف فى المرة القادمة ، سوف يخطط ويدبر أموره لكي يحصل من النقود على قدر يكفيه أطول مدة ممكنة . وتطلع من خلال نافذة الحافلة . ثم استدار يجيل النظر فى الوجوه البيضاء القريبة منه . وأحس فجأة بأنه يود لو وقف فجأة وصاح . وأخبرهم بأنه قتل فتاة بيضاء ثرية . فتاة من عائلة يعرفونها جميعا . نعم ، ولو أنه فعل ذلك لعلت هذه الوجوه نظرات الفزع والرعب . ولكن ، لا ، لا يجب أن يفعل ذلك حتى لو غمره بالارتياح والرضا . فلسوف يتعرفون عليه ويقبضون عليه . . . ويحاكمونه وينفذون فيه حكم الإعدام . كان يوده لو أنه أدهشهم . ولكنه أحس بأن ذلك سيكلفه الشيء الكثير . كان يود لو أنه أوتى من القوة والسلطة ما يمكنه من أن يفعل ذلك دون أن يخشى القبض عليه ، أو لو أنه أصبح فكره فى عقولهم . . . أو لو أن سواد بشرته ومنظره وهو يخنق « مارى » ويقطع رأسها ويحرقها تظل جميعا تتماوج أمام عيونهم كصورة مفزعة لحقيقة يستطيعون أن يروها وأن يحسوا بها ولكنهم لا يستطيعون أن يحطموها . لم تعد تكفيه أو ترضيه طبيعة ما وصلت اليه الأمور ، فقد كان أشبه برجل وصل الى هدفه ، وكسب هذا الهدف . ثم ما لبث وهو بسبيل تحقيق هدفه أن رأى قيد قبضته هدفا آخر أكبر وأعظم . طالما تعلم كيف يصرخ . . بل طالما صرخ ورفع صوته ولكن أحدا لم يسمعه ، وطالما تعلم كيف يسير . . ولقد سار ولكنه لم يكن يستطيع أن يرى الأرض تحت قدميه . . وطالما تحرق شوقا الى أن تقبض يده ، على سلاح ، وما هو ذا قد أتيح له أن يمسك بسلاح . . ولكنه يدرك الآن أنه سلاح غير مرئى .

وتوقفت السيارة على بعد مجموعة من الأبنية من بيت « بيسى » . . فنزل . . وعندما وصل الى المبنى الذى تسكن فيه رفع بصره الى « الطابق » الثانى ورأى ضوءا يبدو من نافذتها . . وفجأة أضيئت مصابيح الشارع وسطعت أضواؤها فوق الجليد وغمرت الطرق الجانبية بوسادة من الضوء

لقد هبط الظلام مبكرا ٠٠ ودخل المبنى ٠٠ ودق الجرس ورد عليه
طنين ٠٠ فصعد في السلم ووجد « بيسى » تنتظره أمام الباب وهي تبتسم :

— هالو ٠٠ أيها الغريب .

— هيه ٠٠ بيسى .

ووقف قبالتها ٠٠ ثم أمسك بيديها ، فابتعدت عنه في حياء .

— ماذا حدث ؟

— أنت تعرف ما حدث .

— لا ٠٠ لا أعرف شيئا .

— لماذا فعلت ذلك ؟

— أردت أن أقبلك يا حبيبتي .

— بل أنت لا تريد ذلك .

— لماذا ؟

— أنا التي يجب أن تسألك لماذا ؟

— ماذا حدث ؟

— لقد رأيته مع أصدقائك البيض في الليلة الماضية .

— أوه ٠٠ انهم ليسوا أصدقائي .

— فمن يكونون اذن ؟

— الذين أعمل عندهم .

— وتأكل معهم ؟

— أوه ٠٠ يا بيسى .

— انك لم تكلف خاطرك حتى الحديث معي .

— بل فعلت .

— آه ٠٠ مجرد تميمة ٠٠ ثم تلويح باليد .

— أوه يا طففتي ٠٠ لقد كنت في ذلك الوقت أقوم بعملي . أنت

تفهمين ولا شك .

— تصورت أنك خجلت مني وأنت تجلس هناك مع فتاة بيضاء ترتدى

ملابس من الحرير والساتان .

- أوه . . . بيسي . يا للجحيم . وبعد معك ؟ لا تتصرفي هكذا .
- هل تريد حقا أن تقبلني ؟
- بالتأكيد . فلماذا اذن جئت الى هنا ؟
- فلماذا اذن لم تحضر منذ مدة طويلة ؟
- قلت لك انني كنت أعمل يا حبيبتي . لقد رأيتني أنت نفسك .
- في الليلة الماضية . . . هيا هيا . . . لا تتصرفي هكذا .
- وهزت « بيسي » رأسها وقالت :
- لست أدري . . .
- وأدرك أنها تحاول أن ترى الى أي مدى افتقدها . . . والى أي مدى
- لا يزال تأثيرها عليه .
- وتنهدت هي وقالت :
- أنا متعبة الليلة . . .
- من ذا الذي كنت ستقابلينه ؟
- لا أحد . . .
- فلماذا اذن تتصنعين التعب ؟
- اذا كنت تنوي أن تخاطبني بهذه الطريقة تستطيع اذن أن تخرج
- من الآن . . . فأنا لم أسألك عمن جعلك تغيب عني هذه المدة .
- أنت غريبة الليلة .
- كان بوسعك حتى أن تقول لي « هاللو يا كلبة »
- حقيقة يا حبيبتي انني كنت مشغولا .
- لقد كنت تجلس هناك الى تلك المائدة مع أولئك البيض وكأنك
- أحد المحامين أو شيء كهذا . . . حتى النظرة لم توجهها الى عندما كلمتك .
- أوه . انسى ذلك أرجوك ودعينا نتحدث في شيء آخر .
- وحاول أن يقبلها مرة أخرى ولكنها ابتعدت عنه في خفر .
- حبيبتي .
- من يكونون ؟
- لا أحد . . . أقسم لك . لقد كنت في عملي وكنت أفكر فيك طوال

الوقت • لقد كنت مشتاقا اليك • اسمعى ، لقد حصلت على حجرة خاصة
بى فى البيت الذى أعمل فيه وتستطيعين أن تبقى معى هناك فى بعض
الليالى • • أرايت ؟ آه • • لقد اشتقت الى رؤيتك كثيرا يا حبيبتى • وبمجرد
أن أتيحت لى الفرصة • • جئت اليك •

ووقف ينظر اليها على ضوء الحجرة الشاحب • • كانت « بيسى »
تضايقه بأسئلتها • • ولكنه كان يحبها • انها تبعده على الأقل عن تلك
الصورة المفزعة لرأس « مارى » الدامى ملقى على أوراق الصحف • وفيجأة
عرف كيف يستميلها ويبعد عن تفكيرها كل ما من شأنه أن يحملها على
مضايقته • دس يده فى جيبه وأخرج حزمة الأوراق النقدية • • وأمسك
بها فوق راحة يده وابتسم • • وبدأ يتكلم وكأنما يتحدث الى نفسه :

– حسن • • أعتقد أن أحدا غيرك سيجب هذه • • اذا لم تكونى
أنت •

وتقدمت نحوه خطوة • • وقالت :

– بيجر • • ياه • • من أين حصلت على هذه النقود ؟

– ألا تريدين أن تعرفى ؟
– كم المبلغ ؟

– وماذا يهمك ؟
واقتربت منه :

– كم المبلغ حقا ؟

– ولماذا تريدين أن تعرفى ؟

– أرنى هذه الحزمة • • سوف أعيدها اليك •

– سوف أريك اياها ، ولكن من بين أصابعى • • انظرى ؟

وراقب تعبيرات وجهها وهى تتحول الى دهشة بالغة على حين هو
يعد الأوراق المالية •

– يا الهى « بيجر » من أين حصلت على هذه النقود ؟

– ألا تريدين أن تعرفى ؟

ثم أنزل يده الى جوار خصره •

– هل هى نقودك ؟

- وماذا أفعل اذن بها بحق الجحيم ؟
- قل لى يا حبيبي .. من أين حصلت عليها ؟
- هل ستكونين لطيفة معى ؟
وأحس بجسدها يرتخى شيئاً فشيئاً ، ولكن عينيها كانتا مثبتتين فوق وجهه :

- انت لم ترتكب حماقة .. أليس كذلك ؟
- هل ستكونين لطيفة معى ؟
- أوه .. بيجر .
- قبلينى يا حبيبتى .
وأحس بها تستسلم تماماً ، وقبلها .. وجذبتة هى الى السرير حيث جلسا ، ثم أخذت الحزمة من يده برفق . فسألها :

- كم المبلغ ؟

- ألا تعرف ؟

- كلا ..
- ألم تعدها ؟
- كلا ..

- بيجر . من أين لك هذه النقود ؟
فقال وهو يستند بظهره الى الخلف ويسند رأسه فوق الوسادة :

- ربما قلت لك يوماً ما .

- لا بد أنك فعلت شيئاً .

- كم المبلغ ؟

- مائة وخمسة وعشرون دولاراً .

- هل ستكونين لطيفة ورقيقة معى ؟

- ولكن من أين حصلت على هذه النقود يا بيجر ؟

- وماذا يهمك ؟

- هل ستشتري لى شيئاً ؟

- طبعاً ..

- ماذا ؟

- أى شىء تريدينه .

وساد الصمت لحظة • وأخيرا وضع هو النقود فى جيبه وانحنى اليها وهمس قائلا :

- يا حبيبتي •• لقد افتقدتك بشدة ••

- حقا ؟

- بحق الرب ••

وانحنى عليها أكثر •• وسمعها تقول :

- لا تبق بعيدا عنى مدة طويلة يا حبيبى •

- لن أفعل •

- هل تحبنى ؟

- بالتأكيد •

وعاد يقول :

- « بيسى » ؟

- « هه » ؟

- يا حبيبتي ••

- بيجر ••

- « هيه » ؟

- هل أعجبك عملك الجديد ؟

- نعم •• لماذا ؟

- مجرد سؤال •

- اطمئنى •

- حقا ؟

- بالتأكيد •

- أين تعمل ؟

- فى شارع « دريكسل »

- أين •• ؟

- فى المبنى رقم ٤٦٠٠

- أوه •

- ماذا ؟

- لا شئ ••

— ماذا تعنين حقا ؟

— ٠٠ أبدا ٠٠ مجرد فكرة •

— قولى لى ٠٠ ماذا ؟

— لا شىء ٠٠ لا شىء يا حبيبى بيجر ٠٠

ماذا قصدت من وراء هذه الأسئلة ؟ هل لاحظت عليه شيئا ، الى متى تظل « حكاية » « ماري » وخنقها وحرقها تخيفه هكذا ؟ ٠٠ ولكنه يريد حقا أن يعرف لماذا سألته عن مكان عمله •

— هيا يا حبيبتي ٠٠ قولى لى ٠٠ فيم كنت تفكرين ؟

— ليس شيئا مهما يا « بيجر » ٠٠ لقد تعودت أن أعمل فى هذا القسم من المدينة ، قريبا من عائلة « لويب » •

— لويب ؟

— نعم ٠٠ احدى عائلات واحد من هؤلاء الأولاد الذين قتلوا ذلك الولد المدعو « فرانك » ٠٠ هل تذكر ؟

— لا ٠٠ ماذا تعنين ؟

— ألا تذكر أنك سمعت الناس يتحدثون عن « لويب » •
و « ليوبولد » ٠٠

— أوه •

— هؤلاء الذين قتلوا الولد ثم حاولوا بعد ذلك أن يحصلوا على نفرد من أسرته ٠٠ « بعد أن أرسلوا اليها خطابا ٠٠ »

ولم يكن « بيجر » ينصت اليها ٠٠ فقد اختفى عالم الصوت ٠٠ وارتسمت أمام ناظره صورة بعيدة زاخرة بمعان كثيرة • وظلت عيناه مفتوحتان وقلبه يدق وشفتاه منفرجتان قليلا وأنفاسه لا تكاد تحس ، وكأنما هو لا يتنفس أبدا • « هل تذكرهم ٠٠ أوه ٠٠ انك لا تستمع الى » ولم يقل شيئا • « لماذا لا تنصت الى عندما أتكلم ؟ وكان يفكر ٠٠ لماذا لا يرسل خطابا لعائلة « دالتون » يطلب منها نقودا ؟ ٠٠ يستطيع أن يطلب منها عشرة آلاف دولار ٠٠ وربما عشرين ألفا • كانت أعصابه فى أشد حالات التوتر وهو يحاول جاهدا أن يتذكر شيئا • الآن نعم ، « لويب » و « ليوبولد » الذين رسما خطة أجبرا فيها والد الطفل القتل

على أن يلقي بمبلغ من النقود من نافذة القطار وهو يمر بنقطة معينة
حدداها له . نعم يستطيع « بيجر » أن يجبر الأسرة على وضع النقود في
صندوق من صناديق الأحذية ثم القائه من السيارة في مكان ما « بالحي
الجنوبي » ونظر حوله وأحس بأصابع « بيسي » فوق ذراعيه . . فتنبه إلى
نفسه . . وتنهد بعمق .

— ماذا بك يا حبيبي ؟

— « هه » .

— فيم تفكر ؟

— لأشياء .

— كلا . . لا بد أن هناك شيئا . فأنت تبدو قلقا .

— . . أبدا . . أبدا .

— هكذا ؟ لقد قلت أنا لك ما كنت أفكر فيه . . وهأنتذا ترفض أن

تصارحني بأفكارك وليس هذا عدلا .

— . . أبدا . . مجرد شيء نسيت ، وهذا كل ما في الأمر .

— ليس هذا ما كنت تفكر فيه .

وعاد وهو يحس برأسه يدور . هل يستطيع أن يفعل ذلك ؟ هذا
هو الشيء الذي نسي أن يفكر فيه . . وهو أيضا الشيء الذي يكمل
« الحكاية » ، ولكنه عمل ضخم ينبغي أن يفكر فيه جيدا . . وبعناية .

— حبيبي « بيجر » قل لي من أين حصلت على هذه النقود ؟

— أي نقود ؟

— أوه . . أنا واثقة من أن هناك شيئا في الأمر ، قلق ويبدو أنك

تفكر في شيء .

— وهل تريدني مني أن أخترع أي شيء لأقوله لك ؟

— لا بأس إذا كان هذا يرضيك .

— أوه يا بيسي .

— تكن مضطرا إلى أن تحضر الليلة إلى هنا .

— ربما كان من الأفضل حقا ألا أحضر . .

- ربما كان من الأفضل ألا تأتي بعد الآن .
- ألا تحبينني ؟
- بقدر ماتحبنى أنت .
- وما مقدار هذا الحب ؟
- المفروض أن تعرفه أنت .
- أوه .. دعينا اذن من هذا « الهذر » .

وأخذ يحاول فى جهد أن يدرك طبيعة العلاقة ومداها بينه وبينها .
أيستطيع أن يثق فيها ؟ والى أى مدى يستطيع أن يصارحها ؟ هل
ستشاركه دون تفكير .. وتصدق كل مايقوله ؟

وسمعها تقول :

- هيا .. لنشرب شيئاً .
- أو - كى .
- ان تصرفك الليلة ليس ككل مرة .
- لأننى أفكر فى شىء .
- ألا تستطيع أن تقول لى ماهو ؟
- لست أدرى .
- ألا تثق بى ؟
- بل أثق بالتأكد .
- اذن لماذا لا تخبرنى ؟

ولم يحر جواباً . وكان صوتها يصل اليه فى همس ، .. همس
يعرفه جيداً وسمعه أكثر من مرة ويعنى أنها تتلهف بشدة الى شىء ما .
ولقد أعاد اليه هذا الهمس احساساً كاملاً بطبيعة حياتها .. وأعاد الى
ذهنه أيضاً كل ماكان يفكر فيه ويحس به وهو يضع يده فوق كتفها ،
كذلك أعاد اليه نفس الادراك العميق الذى خامره فى الصباح وهو يجلس
الى مائدة الفطور فى البيت مع « فيرا » و « بدى » وأمه ، كانت « بيسى »
وحدها هى التى ينظر اليها فى تلك اللحظة ويرى كم هى عمياء ، ويحس
بضيق مسار حياتها : من حجرتها الى مطبخ البيض الذين تعمل عندهم ،
كانت هذه المسافة هى أقصى ماتستطيع أن تتحرك خلاله كانت تعمل
ساعات طوالاً .. ساعات مضنية حارة سبعة أيام فى الأسبوع ولا تحصل
على راحة الا فى أمسيات أيام الآحاد .. فترة محدودة ضيقة تتلهف

خلالها على المتعة السريعة التى تجعلها تحس بأنها تعوض مرارة العيش الذى تعيشه . ولقد كان يحبها . . وهى فى أكثر الليالى تكون متعبة ولا تستطيع الخروج . . ومن ثم لا تريد سوى أن تشرب . كانت هى تريد الشراب وكان هو يريد لها . وكان هو يمنحها الشراب ، ولقد سمعها تشكو مرارا من قسوة العمل الذى يفرضه عليها البيض . . ولقد قالت له مرارا أيضا انها تحيا حياتهم وهى تعمل فى بيوتهم . . وأنها لا تحيا فى أثناء ذلك حياتها هى ، وأن هذا هو السبب الذى يجعلها تدمن الشراب . وكان يعرف السبب الذى من أجله تحبه « بيسى » ، لقد كان يعطيها النقود لتشرب ، وكان يعرف أيضا أنه اذا لم يفعل ذلك فسوف يفعله آخرون غيره . ان « بيسى » عمياء هى الأخرى . فماذا ياترى يستطيع أن يقوله لها ؟ ربما مدت له يد المساعدة فحسب . وأدرك لحظتها أنه مهما كان الكلام الذى سيقوله لها فلا بد ألا يشعرها هذا الكلام بأنه يخفى عنها شيئا . . بل لابد أن يشعرها على العكس من ذلك بأنها قد عرفت منه كل شيء . . باللعنة . انه لا يستطيع حتى أن يفعل ذلك ، ولم يكن من الواجب أن يجعلها تظن أن لديه شيئا لا يريد أن تعلم به .

— امتحيتى بعض الوقت يا حبيبتى . . وسوف أقول لك كل شيء .

- لا تقل شيئا اذا لم تحس بأنك تريد ذلك .
- لا تتصرفى هكذا يا « بيسى » .

— كل مافى الأمر يا بيجر أنك لن تستطيع معاملتى بأساليبك القديمة .

— أنا أحاول يا حبيبتى .

- ولن تستطيع أن تعاملنى بهذا الأسلوب الرخيص .
- هونى عليك يا « بيسى » . . فأنا أعرف ماذا أفعل .
- أرجو ذلك .

- بحق المسيح .
- أوه . . هيا بنا . . أريد أن أشرب .
- كلا . . اسمعى .

— احتفظ بأسرارك لنفسك ، فلست مضطرا الى أن تقول لى شيئا . ولكن لا تهرع الى اذن عندما تحتاج الى صديق . . أفهمت ؟

- عندما نشرب معا سوف أقول لك كل شيء .

- افعل ما يحلو لك .

ورآها تنتظره بجوار الباب فارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه وسار الاثنان فى ببطء .. ثم هبطا السلم دون أن يتبادلا كلمة واحدة . وكان الجو دافئا فى الخارج يوحى بأن السماء ستمطر ثلجا من جديد .. وبدت السماء داكنة ملبدة بالسحب القريبة .. والرياح تهب ، وغاصت قدماء فى الثلج وهو يسير الى جوارها . وكانت الشوارع خالية ساكنة تمتد أمام البصر بيضاء ناصعة على ضوء خط طويل من مصابيح الانارة . ونظر بركن عينيه الى « بيسى » وهى تسير الى جواره وأحس بعقله .. باهتزازات جسدها الرقيقة الناعمة .. ولكنه تطلع الى وجهها ورأى نظرة قاسية بعيدة .. نظرة فصلته عنها وأقامت بينه وبينها مسافة شاسعة .. والحق ، أنه لم يكن يريد أن يخرج معها الليلة ، ولكن أسئلتها وشكوكها جعلته يستجيب لرغبتها فى الخروج وتناول الشراب . ولقد أحس وهو يسير الى جوارها بأن هناك « بيسى » أخرى تسير معه . كانت مجرد وجهها الذى يتساءل .. وأحس لحظتها برغبة عارمة فى أن يرفع قبضته ويهوى بها عليها .

- الى أين سنذهب ؟

- حيث تريدان .

- فلنذهب الى حانة « بارى جريل » .

- ليكن .

وانحرفا الى « ناصية » .. وسارا حتى وصلا الى المبنى الذى تقع الحانة بداخله .. وتناهى صوت « فونوغراف آلى » .. واتجه الاثنان الى مائدة فى المؤخرة وطلب « بيجر » كأسين « جن » .. وجلس الاثنان صامتين .. ينظر أحدهما الى الآخر .. ويبتظران .. ورأى « بيجر » كتف « بيسى » تهتز مع ايقاعات الموسيقى .. ترى ، أيمكن أن تساعدك حسن ، يستطيع أن يسألها .. كما يستطيع أن يجيبك قصته بحيث لا تستطيع أن تعرف كل شيء .. وكان يعرف جيدا أنه ينبغي له أن يسألها أن ترقص معه ، ولكن اضطرابه منعه من ذلك . لقد كان يحس فى تلك الليلة بما لم يحس بمثله فى كل الليالى السابقة ، لم يكن يريد أن يرقص أو يغنى أو يقفز فوق الأرض فيضيع يوما وليلة فى لا شيء .

كان اضطرابه شديدا • وأحضر الساقى الزجاجة • • ورفعت «بيسى» كأسها •

— فى صحتك • • حتى ولو لم تكن تريد أن تتكلم • • وحتى بالرغم من تصرفاتك الشاذة •

— بيسى • • أنا قلق •

— أوه • • هيا اشرب •

— • • طيب •

• وتناول الاثنان رشفتين •

— بيجر ؟

— « هه » ؟

— هل أستطيع أن أساعدك ؟

— ربما •

— أريد أن أساعدك •

— هل تثقين بى ؟

— لقد وثقت بك دائما •

— أنا أقصد الآن ؟

— نعم • • اذا أنت أخبرتنى عما سأثق بك فيه •

— واذا لم أستطع ؟

— فأنت اذن لا تثق بى •

— يجب أن أتصرف هكذا يابيسى •

— هل تقول لى اذا أنا وثقت بك ؟

— ربما •

— لا تقل « ربما » يابيجر •

وقال « بيجر » :

— اسمعى يا حبيبتى • • ان السبب الذى يجعلنى أتصرف بهذه

الطريقة ، هو أننى أفكر فى عمل كبير •

— ماذا ؟

— وسوف يعنى هذا العمل نقودا كثيرة •

- اسمع .. اما أن تقول لى واما أن تكف عن الكلام حول هذا الموضوع .

وساد الصمت .. ورآها « بيجر » تفرغ كأسها .

- هيا نخرج .

- أوه .

- أريد أن أنام .

- هل أنت مجنونة ؟

- « ربما » .

ولم يعجبه ذلك . ولكن كيف يستطيع أن يبقئها معه ؟ والى أى مدى يستطيع أن يخبرها ؟ هل يستطيع أن يجعلها تثق به دون أن يقول لها شيئا ؟ أحس فجأة بأنها ستقترب منه أكثر ان هو جعلها تحس بأنه فى خطر . نعم .. هكذا .. سيجعلها تهتم به .

- ربما وجدت نفسى مضطرا الى مغادرة المدينة فى أقرب فرصة ممكنة .
www.liilas.com/vb3/

- « البوليس » ؟

- ربما .

florist

- ماذا فعلت ؟

- اننى أدبر الخطة الآن .

- ولكن من أين حصلت على هذه النقود ؟

- اسمعى يا « بيسى » .. اذا أنا اضطرت الى مغادرة المدينة واحتجت الى المساعدة .. فهل تساعدنى ؟

- اذا أنت أخذتنى معك فلن تحتاج الى شيء .

وساد الصمت ، فلم يكن يفكر فى أن يصحب « بيسى » معه . ان امرأة .. أى امرأة ، لتصبح عبئا ثقيلا على رجل هارب ، ولطالما قرأ عن رجال ألقى القبض عليهم بسبب النساء وهو لا يريد أن يحدث له ماحدث لهم . ولكن ماذا لو أنه قال لها شيئا بالقدر الذى يجعلها فحسب تعمل معه ؟

- حسن .. سوف آخذك معى اذا أنت ساعدتنى ..

— حقا ؟

— بالتأكيد ..

— اذن فستخبرنى ؟

نعم .. يستطيع أن يحبك قصة • ليس هناك حتى مايدعو الى أن يشير الى « جان » ولكن لماذا لا يقول لها حتى اذا حدث وتعرضت للاستجواب والسؤال قالت مايريده هو أن تقول ، وما يمكن أن يساعده ويكون فى صفه ؟ ورفع كأسه وأفرغها فى جوفه ثم مال نحوها وهو يداعب سيجارة بين أصابعه .. ثم بدأ يتكلم وهو يتنفس بصعوبة :

— اسمعى .. ان الفتاة التى أعمل عندها .. ابنة رجل ثرى عجوز ، مليونير ، ..

قد هربت مع الحمر ..

— مع صديق ؟

— « هه » ؟ .. نعم .. مع صديقها •

— مع واحد من الحمر ؟

— نعم ، مع واحد من هؤلاء الشيوعيين •

— أوه .. ماذا دهاها ؟

— أوه .. انها مجنونة • ولا أحد يعرف أنها هربت ، ولهذا

أخذت النقود من حجرتها فى الليلة الماضية ..

— أوه ..

— انهم لا يعرفون أين هى الآن ..

— ولكن ماذا تنوى أنت أن تفعل ؟

— انهم لا يعرفون أين هى ..

— ماذا تقصد ؟

وجذب نفسا من السيجارة ورآها تنظر اليه وقد اتسعت عيناها السوداوان فى لهفة واهتمام • وأعجبته تلك النظرة .. وكره لحظتها أن يقول لها مايريد على الفور لأنه أراد أن يجعلها تحدس وتخمن .. كما أراد أن يتمهل بقدر مايستطيع حتى يستمتع بتلك النظرة الحيرة على وجهها .. النظرة التى تجعله يحس بأنه حى .. وتمنحه مزيدا من الاحساس بقيمته •

وأخيرا قال :

- لقد واثنتى فكرة .
- أو .. بيجر . قل لى .
- لا ترفعى صوتك هكذا ..
- حسن .. قل لى .
- انهم لا يعرفون أين ذهبت ، وربما تصوروا أن أحدا قد اختطفها .
- وأحسن بجسده يزداد توترا وبشفتيه ترتعشان .
- آه .. هذا اذن هو السبب فى أنك اضطربت عندما أخبرتك
« بحكاية » « لويب » و « ليوبولد » ..
- حسن .. فما رأيك ؟
- ولكن هل يظنون حقا أنها اختطفت ؟
- نستطيع نحن أن نجعلهم يعتقدون ذلك .
- ونظرت الى كأسها الفارغة .. واستدعى « بيجر » الساقى وطلب
منه كأسين آخرين .. ثم جذب نفسا عميقا وقال :
- لقد اختفت الفتاة .. أفهمت ؟ وهم لا يعرفون أين ذهبت ؟
- ولا أحد يعرف ذلك ، ولكنهم قد يعتقدون أن أحدا « فعلها » اذا نحن
أخبرناهم .. أفهمت ؟
- هل تقصد .. هل تقصد أننا نستطيع أن ندعى أننا نحن
الذين « فعلناها » ؟ هل تقصد أن نكتب اليهم ؟
- ... ونطلب منهم نقودا . بالضبط . ونستطيع فعلا أن نحصل
على النقود .. أترين أننا نستطيع أن نفعل ذلك لأن أحدا غيرنا لن
« يفعله » .
- ولكن ماذا لو أنها ظهرت ؟
- لن تظهر ..
- وكيف تتأكد ؟
- أوكد لك أنها لن تظهر ..

- بيجر .. لابد أن تعرف شيئاً عن هذه الفتاة . هل تعرف أين هي ؟

- كل شيء على مايرام بالنسبة لمكان وجودها . أنا واثق من أنه لا داعى للقلق من مسألة ظهورها .. فما رأيك ؟

- أوه يا بيجر .. هذا هو الجنون بعينه .

- ياللعجيم .. فلنكف اذن عن الحديث حول هذا الموضوع .

- أوه .. لست أقصد ذلك .

- ماذا تقصدين اذن ؟

- أقصد أنه ينبغي أن نكون فى غاية الحذر .

- نستطيع أن نحصل على عشرة آلاف دولار .

- كيف ؟

- نستطيع أن نجبرهم على أن يتركوا المبلغ فى مكان ما ..

وسيعتقدون أنهم بذلك سوف يستردون ابنتهم ..

www.lilas.com/vb3/ بيجر .. هل تعرف مكان الفتاة ؟
لا ..

- فسوف تظهر اذن نفسها عندما تنشر الجرائد القصة ..

- لن تفعل .

- وما الذى يدريك ؟

- أقول لك انها لن تفعل .

ورأى شفتيها تتحركان .. ثم سمعها تتكلم فى رقة وهى تنحنى

نحوه .

- بيجر .. هل فعلت شيئاً بهذه الفتاة ؟

وأحس بالخوف يسرى فى أوصاله .. وأحس فجأة بأنه يود

لو كان بيده شيء ثقيل وصلب .. مسدسه .. « مطواته » .. أو حتى

قالب طوب ..

- اذا قلت هذا مرة ثانية فسوف أطوح بك بعيداً عن هذه

المائدة .

- أوه ..

- لا تكونى حمقاء ..
- يبجر .. ما كان لك أن تقول هذا .
- هل ستساعديننى ؟ قولى نعم أو لا ..
- يبجر ..
- خائفة ؟ .. خائفة بعد أن ساعدتنى على سرقة تلك الحلية
- الفضية من بيت مسز « هيرد » ؟ وبعد أن ساعدتنى على سرقة راديو
- مسز « ماسى » .. تخافين الآن ؟
- لست أدرى ..
- لقد أردت منى أن أخبرك بكل شيء .. حسن ، هأنذا قد
- أخبرتكَ . ولكن هكذا المرأة دائما . تريد أن تعرفى شيئا ما .. ثم
- لا تلبثين أن تفرى مذعورة مثل الأرنب ..
- ولكن سوف يقبضون علينا ..
- لن يحدث هذا إذا نحن أحسننا التصرف .
- ولكن كيف يا « يبجر » ؟
- سوف أدبر هذه المسألة .
- ولكننى أريد أن أعرف .
- الأمر سهل .
- ولكن كيف ؟
- أستطيع أن أهيم لك الأمر بحيث تأخذين النقود دون أن
- يضايقك أحد ..
- !نهم يقبضون على الناس الذين يفعلون مثل هذا ..
- إذا كنت ستخافين ، فسوف يقبضون عليك .
- وكيف أستطيع أن آخذ هذه النقود ؟
- سوف نخبرهم أين يتركونها ..
- ولكن « البوليس » سوف يراقب المكان .
- لن يحدث هذا إذا كانوا يريدون أن تعود اليهم ابنتهم . نحن
- نملك الورقة الرابعة .. أفهمت ؟ كذلك فسوف أراقب أنا الأمور ، فأنا
- أعمل عندهم .. وإذا حاولوا أن يخدعونا فسوف أخبرك على الفور .

- هل أنت واثق من أننا نستطيع أن « نفعلها » ؟
- نستطيع أن نجعلهم يلقون بالنقود من السيارة ، وستكونين أنت في مكان يسمح لك برؤية أى أحد للمراقبة ، فاذا رأيت أحدا فلا تقتربى من النقود .. أفهمت ؟ .. ولكنهم يريدون ابنتهم ، ولن يفعلوا ذلك .
- وساد صمت طويل ..
- بيجر .. لست أدري ماذا أقول .
- ونستطيع أن نهرب الى نيويورك ونقيم فى حى « هارلم » اذا نحن حصلنا على النقود .. ان نيويورك مدينة كبيرة ونستطيع أن نختفى هناك مدة معينة .
- ولكنهم ربما ميزوا النقود بعلامات ..
- لن يفعلوا هذا ، واذا هم فعلوه فسوف أخبرك .. أنت ترين أننى أعيش معهم فى بيتهم .
- ولكننا اذا هربنا فسوف تتجه شبهاتهم الينا ولسوف يداومون البحث عنا سنين طويلة ..
- لن نهرب على الفور .. سوف نبقى كما نحن فترة من الزمن .
- لست أدري يا بيجر ..
- وأحس بالارتياح .. وأدرك من نظراتها أنه يستطيع أن يقنعها تماما بشيء من الجهد .. فهى خائفة وفى مقدوره أن يجعلها تتغلب على خوفها ، وتطلع الى ساعته ورأى أن الوقت أصبح متأخرا .. عليه أن يعود الآن ويفحص الموقد .
- اسمعى .. ينبغى أن أعود الآن .
- ودفع الحساب ، وخرجا . وكانت هناك وسيلة أخرى لاقناعها ..
- ودس يده فى جيبه واستبقى لنفسه ورقة مالية ثم قدم لها باقى الحزمة وهو يقول :
- خذى .. اشترى لنفسك شيئا وادخرى الباقى لى .
- أوه ..
- ونظرت الى النقود .. وترددت .
- ألا تريدينها ؟

وتناولت الحزمة وهى تقول :

- نعم أريدها .
- اذا أنت شاركتنى فسوف تحصلين على المزيد .
- ثم توقفا عند باب المبنى الذى تقع جسرته بداخله . . ووقف ينظر اليها ثم قال :

- حسن . . مارأيك ؟
- بيجر . . يا حبيبى . . أنا . . أنا لست أدري
- لقد طلبت منى أن أقول لك كل شئ .
- ولكنى خائفة . .
- ألا تثقين بى ؟
- ولكننا لم نفعل شيئا مثل هذا من قبل ، ولسوف يبحثون عنا فى كل مكان من أجل عمل كهذا . ولا يمكن أن يقارن هذا العمل بما كنت تفعله عندما تحضر ، حيث أعمل بالليل فى بيوت البيض ، لشرق شيئا وهم بالخارج . ليس هذا . .
- الأمر متروك لك على أية حال .
- أنا خائفة يا بيجر . .
- ومن ذا الذى يتصور أننا نحن الذين فعلنا ذلك ؟
- لا أدري . ولكن هل تعتقد حقا أنهم لن يعرفوا شيئا عن مكان الفتاة ؟

- نعم .
- وهل تعرف أنت ؟
- لا .
- ولكنها قد تعود .
- لن تعود . ثم انها فتاة مجنونة على أية حال ، وربما ظنوا أنها هى نفسها التى دبرت هذه « الحكاية » لمجرد أن تحصل على نقود من أسرتها . . وربما ظنوا أنها من فعل الحمر ، ولن يتطرق أبدا الى تفكيرهم أننا نحن الذين « فعلناها » فلن يتصوروا على الاطلاق أننا نملك المرأة على أن نفعل ذلك . . فهم يظنون أن الزوج أجبن من أن يقدموا على عمل كهذا . .

- لا أدري .
- وهل سبق لى أن خدعتك ؟
- لا .. ولكننا نفعل شيئاً كهذا من قبل .
- حسن .. وأنا الآن لا أخدعك ..
- ومتى تريد أن تبدأ ؟
- بمجرد أن يبدأ القلق يساورهم على الفتاة .
- هل أنت واثق من أننا نستطيع ؟
- لقد قلت لك رأيى .
- كلا يابيجر .. لن أفعل ذلك .. أعتقد أنك ..
- واستدار فى جفاء وسار مبتعداً عنها ..
- ييجر ..

وأسرعت تجرى فوق الثلوج حتى أمسكت بكمه فتوقف ولكنه لم يستدر إليها ، وأمسكت بمعطفه وأدارته نحوها .. ووقف الاثنان وجها لوجه فى صمت .. على الضوء الأصفر لمصباح من مصابيح الانارة وليس هناك حولهما سوى الليل .. والثلج الأبيض . وكأنهما قد فصلا عن العالم أجمع فلا يحس أحدهما بغير وجود الآخر أمامه .. ونظر إليها فى صمت .. ينتظر . وكانت عيناها مثبتتين على وجهه فى خوف وشك . ووقف هو وقفة توحى بأنه يضع قدميه فوق خط أشبه بالخيط وينتظر أن تجذبه إليها أو تدفعه بعيداً عنها . وارتسمت على شفثيها هى ابتسامة شاحبة ثم رفعت يدها وتحسست وجهه بأصابعها . وأدرك لحظتها أنها تجاهد لى تدرك حقيقة مايعنيه هو بالنسبة إليها .. وأمسكت بيده وضغطت عليها وكأنما تقول له بأصابعها انها تريده .. ثم قالت :

- ولكن يابيجر ياحبيبي .. لا داعى لأن نفعل هذا .. فنحن الآن على مايرام .

فجذب يده من بين أصابعها وقال :

- أنا ذاهب الآن .
- حسن .. هل سأراك ياحبيبي ؟
- لست أدري ..

وبدأ يسير مرة ثانية ولكنها عادت تعترضه وتحيطه بذراعيها :

- بيجر .. يا حبيبي ..

- هيا يا بيسي .. قولى لى ، ماذا ستفعلين ؟

ونظرت اليه بعينين سوداوين ، وكان هو لا يزال يترقب ، هل ستشده انيها أو تدعه يسقط وحده ؟ وكانت حيرتها تمتعه وهو يرى ويحس مقدار أهميته لديها . وارتعشت شفتاها وبدأت تبكى . وعاد هو يسألها :

- ماذا ستفعلين ؟

وقالت وسط دموعها :

- اذا أنا « فعلتها » فلأنك تريد أن « أفعلها » .

ووضع ذراعيه حول كتفيها وقال :

- لا تبكى يا بيسي ..

وتوقفت عن البكاء وجففت دموعها فنظر اليها فى امعان . لسوف تفعلها ..

- يجب أن أنصرف .

- لن أدخل أنا الآن ..

- فال أين ستذهبين اذن ؟

ووجد أنه بدأ يخاف مما ستفعله بعهد أن أصبحت تشاركه فى « العملية » الآن . ولن يهدأ باله اذن الا اذا عرف ماذا ستفعل .. ولماذا .

- سوف أشتري زجاجة ..

لا بأس .. انها تشعر بمثل مايعرفه عنها دائما .

- حسن . سوف أراك فى الليلة القادمة .. « هه » ؟

- نعم يا حبيبي .. ولكن كن حريصا ..

- اسمعى يا بيسي ، لا تقلقى بشأنى . فقط .. أولينى ثقتك ؛ ومهما

حدث .. فلن يقبضوا علينا . بل انهم لن يعرفوا أبدا أن لك يدا فى الأمر .

- ولكن أين نستطيع أن نختبئ يا « بيجر » اذا هم بدءوا يبحثون

عنا ؟ أنت تعرف أننا من السود ولا نستطيع أن نذهب الى حيث نشاء .

فنظر حوله قليلا ثم قال :

- هناك أماكن كثير جدا • أنا أعرف الحي الجنوبي من الألف الى الياء • ونستطيع أن نخفي ولو حتى داخل أحد هذه المباني القديمة ..
أرأيت ؟ مثلما فعلت فى آخر مرة ، فلا أحد يفكر فى البحث بداخلها .
ثم أشار بيده نحو مبنى أسود قريب • فتنهدت وقالت :

- حسن ..

- أنا ذاهب الآن اذن ..

- الى اللقاء يا حبيبى ..

وسار الى حيث يستطيع أن يستقل الحافلة ، وعندما نظر خلفه رآها لاتزال واقفة وسط الثلج • انها لم تتحرك من مكانها • وقال لنفسه : « سوف تكون على مايرام • • وسوف تشترك معى فى (العملية) » •

وكان الثلج يتساقط من جديد ، والشوارع تبدو وكأنها ممرات طويلة تقود الى غابة كثيفة تتخللها هنا وهناك مشاعل من الضوء • • عالية مرتفعة كأنما تمسك بها أيد خفية • • انتظر عشر دقائق • • ولكن السيارة لم تصل • واستدار وترك « الناصية » وسار مطأثنا رأسه ويده داخل جيوبه متجها الى بيت آل « دالتون » •

كانت الثقة تملأ صدره • لقد تناوشته مخاوف جديدة فى اليوم السابق • ولكن مشاعر جديدة ساعدت على طرد تلك المخاوف • ان الخوف من الاعداد بالكبرى « الكهربائى » قد تسلسل الى لحمه ودمه فى تلك اللحظة التى وقف فيها الى جانب سرير « ماري » وعرف أنها ماتت ولكنه مالميث أن أحس بشعور جديد يولد فى جسده وهو فى البيت يتناول فطوره مع أمه وشقيقته وأخيه ويرى كم هم عمى لا يدركون • ثم وهو يسترق السمع ابان تحدث « بيجى » ومسرز « دالتون » فى المطبخ • • بعدها أحس بشعور أطاح بكل الخوف من الموت ، واذا كان قد تحرك فى حذر وعرف ما هو مقدم عليه فانه قادر على أن يفعل مايريد • • وبقدر ما يضع حياته فوق كفيه ويفعل بها مايشاء وبقدر ما يستطيع أن يقرر متى والى أين تكون خطوته التالية ، بقدر ما يستطيع أن يأمن من الخوف •

وأحس بأنه هو نفسه الذى يملك مصيره فى يده • وبأنه حقيقة

حي يرزق بقدر لا يذكر أنه شعر بمثله من قبل .. وبأن عقله وانتباهه كانا مركزين على هدف بعينه . ولأول مرة في حياته أحس بأنه يتحرك في وعى وإدراك كاملين بين أمرين واضحين : كان يتحرك بعيدا عن عقوبة الموت .. بعيدا عن أوقات شبيهة بالموت دفعت الى صدره بالتوتر والانقباض ، متجها نحو احساس بالرضا والامتلاء لم يكن يحس به الا من حين لآخر في المجلات ودور «السينما» .

ان مشاعر الخزي والخوف والكراهية التي أثارتها في صدره « ماري » وأثارها « جان » ومستر « دالتون » .. بل وأثارها ذلك البيت الثرى الضخم .. قد بردت الآن وهدأت .. ألم يفعل ماكانوا يظنون أنه غير قادر على فعله ؟ ان سواد بشرته ووجوده في قاع الدنيا مما زوده بقوة حديدية ، وأصبح قتله « لماري » خفية يعنى بالنسبة اليه ماكانت تعنيه من قبل « مطوانه » أو مسدسه .. وليس يعنيه الآن في شيء أن يضحكوا من لون بشرته أو يسخرخوا من شكله الذي يشبه المهرج في نظرهم ، فهو قادر على أن ينظر اليهم الآن دون أن يحس بالغضب .. فقد زايله الى الأبد احساسه بأنه كان دائما سجين قوة غامضة خفية .

وعندما بدأ يدلف الى طريق « دريكسل » ميمما صوب بيت آل « دالتون » تذكر حياته المملوءة بالتعب والجوع المتصل . لا بأس ، لقد هدأت نفسه في تلك الليلة الى حد ما .. ولسوف تهدأ تماما بمرور الزمن . انه لم يطلب الى ييسى أن تعمل معه الا لكي يحس بأنه قادر على أن يجعلها تفعل مايريد وبأنها ترتبط به بروابط أوثق وأعمق من رباط الزواج .. وبأنها له ، وبأن الخوف من القبض عليها أو الموت سوف يشدها اليه بكل مافي حياتها من قوة .

واستدار خارجا من الطريق الجانبى وسار في ممر السيارة متجها الى « البدروم » ، ثم تطلع من خلال الفرجات المضيئة لباب الموقد فرأى كومة حمراء من الفحم المشتعل وسمع أوار اللهب وهو يتصاعد .. وجذب الرافعة وسمع صوت تساقط الفحم على جوانب الموقد من الداخل ورأى جمرات الفحم وهي تسود شيئا فشيئا فدفع الرافعة الى مكانها فتوقف سقوط الفحم .. ثم فتح باب الجزء السفلى من الموقد وكان قد امتلأ بالرماد المتخلف عن احتراق الفحم ، ورأى أنه يجب عليه أن يخرج ذلك الرماد بالجاروف في الصباح ويتيقن أنه لم تبق بداخل الموقد عظام

لم تحترق بعد . وما كاد يغلق الباب ويتجه الى غرفته حتى سمع صوت « بيجي » .

- بيجر .

وتوقف وأحس قبل أن يجيبها بالاضراب يسرى في أوصاله . وكانت « بيجي » تقف بأعلى الدرج على الباب المؤدى الى المطبخ .

- نعم ياسيدتى

واتجه الى أسفل الدرج ونظر اليها .

- مسز « دالتون » تريد منك أن تحضر الحقيبة من المحطة .

- الحقيبة ؟

وانتظر أن تجيبه « بيجي » عن سؤاله . ربما لم يكن ينبغى أن يسألها بهذه الطريقة .

- لقد اتصلوا بنا هناك وقالوا ان أحدا لم يطلبها ، كما أن المستر « دالتون » تلقى مكالمة تليفونية من « دترويت » تفيد أن « ماري » لم تذهب الى هناك .

- أمرك يا سيدتى .

وهبطت « بيجي » السلم ونظرت داخل « البدروم » وكأنها تبحث عن شيء . وأحس بجسده يتصلب ، . لو أنها رأت شيئا يدفعها الى أن تسأله عن « ماري » ، فسوف يمسك بالجاروف ويهوى به على رأسها ثم يأخذ السيارة ويخرج بها من الباب بسرعة . وقالت « بيجي » :

- ان المستر « دالتون » قلق . ان « ماري » لم تحزم ملابسها الجديدة التى اشترتها لتأخذها معها فى رحلتها . والمسز « دالتون » لا تفتأ تذرع أرض حجرتها وتسال أصدقاء « ماري » « بالتليفون » طوال اليوم .

وسألها بيجر :

- ألا يعلم أحد أين ذهبت ؟

- نعم . ولكن هل طلبت منك « ماري » أن تحمل الحقيبة كما كانت ؟

- نعم يا سيدتى . كانت الحقيبة مغلقة وموجودة بركن الحجرة فأخذتها وحملتها معى ووضعتها حيث رأيته أنت فى الصباح .

وتناهى اليهما صوت مسز « دالتون » ينادى :

- أوه . « بيجي » .

والتفت « بيجر » ورأى مسز « دالتون » بأعلى السلم تقف بملابسها البيضاء المألوفة وقد رفعت رأسها الى أعلى .

- ألم يعد الولد بعد ؟

- انه هنا يا مسز « دالتون » .

- هلا أتيت الى المطبخ لحظة يا « بيجر » ؟

- أمرك يا سيدتى . .

وتبع « بيجى » الى المطبخ وكانت مسز « دالتون » تشبك يديها أمامها ورأسها لا يزال مرتفعا وشفتاها البيضاءوان منفرجتان .

- هل تكلمت معك « بيجى » عن الحقيقة ؟

- نعم يا سيدتى . . سوف أذهب الآن لحضارها .

- متى غادرت البيت فى الليلة الماضية ؟

- قبل الساعة الثانية بقليل يا سيدتى .

- وهى التى طلبت منك أن تنزل الحقيقة ؟

- نعم يا سيدتى .

- وهى أيضا التى طلبت منك أن تترك السيارة فى مكانها ؟

- نعم يا سيدتى .

- فى نفس المكان الذى وجدت فيه فى الصباح ؟

- نعم يا سيدتى .

وأدارت مسز « دالتون » رأسها عندما سمعت الباب الداخلى للمطبخ

يفتح ، وظهر المستر « دالتون » .

- هاللو « بيجر »

- يوم سعيد يا سيدى .

- كيف حالك ؟

- بخير يا سيدى .

- لقد اتصلت بنا المحطة منذ لحظات بخصوص الحقيقة . . وعليك

أن تحضرها .

- أمرك يا سيدى . . سوف أذهب الآن الى المحطة .

- اسمع يا « بيجر » . . ما الذى حدث بالضبط فى الليلة

الماضية ؟

- لا شيء يا سيدى . لقد طلبت منى الآنسة « دالتون » أن أنزل الحقيبة حتى أستطيع حملها معى الى المحطة .. وقد فعلت ما أمرتنى به .
- هل كان « جان » معك ؟

- نعم يا سيدى .. نحن الثلاثة معا صعدنا فى السلم بعد أن أوصلتهما بالسيارة .. وتوجهنا الى الحجرة لأخذ الحقيبة ، ثم أنزلتها ووضعناها فى « البدروم » .

- هل كان « جان » ثملا ؟
- لست أدرى يا سيدى .. ولكنهما كانا يشربان ..
- وماذا حدث ؟

- لا شيء يا سيدى . كل ما فعلته أننى أدخلت الحقيبة «البدروم» ثم غادرت البيت ، وكانت الآنسة « دالتون » قد طلبت منى أن أدع السيارة فى الخارج وقالت ان « جان » سيهتّم بها .

- عم كانا يتحدثان ؟
واشرأب « بيجر » بعنقه وقال :
- لست أدرى يا سيدى ..

ورأى مسز « دالتون » ترفع يدها اليمنى .. فعرف أنها تنبه المستر « دالتون » الى ألا يوجه اليه مثل هذه الأسئلة الدقيقة .. وأحس بما تشعر به من خجل . ثم ما لبثت أن قالت :
- لا بأس يا « بيجر »

ثم استندارت نحو المستر « دالتون » وقالت :
- أين تظنه يكون هذا المدعو « جان » الآن ؟
- ربما يكون « موجودا » فى مكتب « المدافعين عن العمال » .
- هل تستطيع الاتصال به ؟

وقال المستر « دالتون » وهو يقف بالقرب من « بيجر » وينظر الى الأرض فى حدة :

- أستطيع طبعاً ، ولكن من الأفضل أن أنتظر فما زلت أعتقد أن « مارى » تزاوّل عملاً من أعمالها الحمقاء .. « بيجر » ، يجدر بك أن تذهب الآن الى المحطة .

— أمرك يا سيدى .

واستقل السيارة وقادها فوق الثلوج . . . لقد أحس لحظتها بأنه نجح لدى اجابة أسئلتهم فى أن يوجه انتباههم مباشرة الى « جان » ، ولو أن الأمور سارت فى هذا الاتجاه ينبغى له أن يرسل اليهم فوراً رسالة طلب الفدية . . سيقابل « بيسى » غداً لينهى هذه المسألة . نعم ، وسوف يطلب فى رسالته عشرة آلاف دولار . وسوف يطلب من « بيسى » أن تطل من نافذة أحد المباني القديمة على « ناصية » من الشوارع مضاءة جيداً . . على أن يكون فى يدها بطارية ، وسوف يطلب فى رسالته من المستر « دالتون » أن يضع النقود فى صندوق من صناديق الأحذية ثم يلقى بالصندوق عند « الناصية » . . وسوف يطلب منه أيضاً أن يتابع السير بالسيارة ويصدر منها أضواء متقطعة وألا يلقى بالنقود الا عندما يرى ضوءاً متقطعاً من البطارية ثلاث مرات . . نعم ، هكذا ينبغى أن يكون التدبير المحكم . . وعندما ترى « بيسى » أضواء السيارة المتقطعة . . وبعد أن تبتعد السيارة ، تستطيع أن تأخذ الصندوق . هكذا ستكون الأمور سهلة و « بسيطة » .

وأوقف السيارة فى فناء المحطة وأبرز التذكرة وأخذ الحقيبة ووضعها داخل السيارة ثم استدار بها عائداً الى بيت آل « دالتون » . . وعندما بلغت السيارة الممر المخصص لها كان الثلج يتساقط كثيفاً بحيث لم يعد يرى الى أبعد من عشرة أقدام أمامه ، وأدخل السيارة « الجاراج » ثم أخرج الحقيبة وأغلق باب « الجاراج » . . ثم رفع الحقيبة وحملها فوق ظهره واتجه الى مدخل « البدروم » . . نعم ، لقد كانت الحقيقة خفيفة . . نصف فارغة ، ولا شك أنهم سيسألونه مرة أخرى بخصوص هذه المسألة ، وفى هذه المرة ينبغى له أن يذكر كل التفاصيل وأن يتذكر جيداً كل كلمة ينبغى أن يقولها حتى يستطيع أن يكررها ولو ألف مرة اذا احتاج الأمر الى ذلك ، ولقد كان يستطيع ولا شك أن يدع الحقيبة ملقاة فوق الثلوج ثم يستقل سيارة عمومية ويأخذ النقود من « بيسى » ويغادر المدينة على الفور ، ولكن لماذا ؟ لماذا يفعل ذلك ما دام يستطيع أن يواجه الموقف . . الأمور كلها لا تزال تسير كما تصورها ، فهم لا يشكون فيه ومن ثم فإن فى مقدوره أن يتنبه عندما تميل شكوكهم نحوه . . كذلك كان سعيداً بأن جعل « بيسى » تحتفظ بتلك النقود . خشية أنهم يفتشونه فى أثناء عمله ؟ ان وجود النقود معه يكفى وحده القاء الشكوك كلها حوله بشكل نهائى ومحدود . .

فتح الباب وأدخل الحقيبة وقد حتى ظهره تحت ثقلها .. ثم سار في بطة وعيناه مثبتتان على الظلال الحمراء المتموجة فوق أرض «البدر» ، وهو يسمع صفير النار داخل الموقد . واتجه بالحقيبة الى الركن الذى وضعها فيه فى الليلة الماضية .. ثم أنزلها من على ظهره ووقف يتطلع اليها .. وأحس برغبة فى أن يفتح الحقيبة وينظر بداخلها .. وأوشك أن يفحص قفلها المعدنى ولكنه ما لبث أن اعتدل فى عنف :

- « بيجر » ..

ودون أن يجيب .. وقبل أن يتحقق ما يفعله ، دار على عقبيه وقد اتسعت عيناه من الخوف ورفع يديه قليلا كأنما يتقى ضربة توشك أن تهبط فوقه . وفى اللحظة التى استدار فيها بدا له ولأحاسيسه المضطربة أنه يواجه جيشا من الرجال البيض .. وحبس أنفاسه .. ورمشت عيناه وسط الظلام الأحمر وقد أدرك أنه كان ينبغى أن يتصرف بهدوء أكثر ، ثم رأى المستر « دالتون » ورجلا آخر أبيض يقفان فى نهاية « البدر » .. وقد سقطت أضواء الموقد على وجهيهما فأحالتهما الى دائرتين بيضاوين من الخطر يسبحان أمامه فى جو الغرفة .. ثم ما لبث أن قال بهدوء :

- أوه ..

وكان الرجل الأبيض الآخر يحدق اليه بامعان .. وأحس «بيجر» بأن الفزع المستبد الحاد يعاوده مرة أخرى . وأضاء الرجل مصباح «البدر» ، ورآه « بيجر » بوضوح : رأى أن مظهره الجماد البارد يحتم عليه ان يكون فى غاية الحرص والحذر . وسأله الرجل :

- ماذا حدث يا ولد ؟

ولم يقل « بيجر » شيئا .. ولكنه تماسك وتقدم نحوهما فى هدوء وما زالت نظرات الرجل الأبيض مثبتة فوقه .. واستبد به الذعر عندما رآه عن كذب : يزوى ما بين حاجبيه وقد تدلى معطفه من الخلف .. ودس يديه فى جيوب سرواله وقد ظهرت على صدره شارة معدنية براقية . وصخبت الكلمات فى ذهن « بيجر » : انه شرطى ، ولم يستطع لحظتها أن يرفع عينيه عن الشارة المعدنية ، وفجأة غير الرجل من هيئته وتعبيرات وجهه وأخرج يديه من جيوبه ثم ابتسم ابتسامة لم يصدقها « بيجر » :

- أنا لست القانون يا ولد .. فلا تخف .

وضغط « بيجر » فكيه .. وحاول أن يتماسك أكثر .. فلا ينبغي أن يراه الرجل وهو يحرق الى الشارة .

- أمرك يا سيدى .

وقال المستر « دالتون » :

- « بيجر » .. هذا هو المستر « بريتن » ، انه مخبر خاص ملحق بهيئة مكتبى .

- أمرك ياسيدى .

- وهو يريد أن يسألك بضع أسئلة .. فاهداً وحاول أن تخبره بكل ماتعرفه .

- أمرك ياسيدى .

وقال « بريتن » :

- قبل كل شيء ، أريد أن « أفحص » هذه الحقيبة .

وتنحى « بيجر » لكي يمر الرجلان .. ثم ألقى بنظرة سريعة الى المدفأة التى كانت لاتزال مشتعلة يعلو أوار الذهب بداخلها .. ثم اتجه هو أيضا نحو الحقيبة ووقف الى جانب منها بعيدا عن الرجلين ينظر اليهما وقد دس يديه فى جيوبه ووقف مرهفا كل حواسه لكي يكون متنبها لكل ما يقولانه أو يفعلانه .. وحرص فى نفس الوقت على أن يكون بعيدا عنهما بقدر كاف . وأخذ يراقب « بريتن » وهو يدير الحقيبة ثم ينحنى عليها محاولا فتح قفلها .. ولحظتها قال لنفسه : « ينبغي الآن أن أكون فى غاية الحرص والحذر ، فان خطأ واحدا فحسب يكفى أن يفسد كل شيء » . وأحس بالعرق يكسو عنقه ووجهه . ولم ينجح « بريتن » فى فتح الحقيبة ورفع بصره الى « بيجر » وقال :

- انها مغلقة .. هل معك مفتاح ياولد ؟

- لا ياسيدى .

هل يحاول أن ينصب له فخا ؟ .. سوف يحرص منذ الآن على أن يلتزم الجانب الآمن فلا يتكلم الا اذا طلب منه أن يتكلم .

- هل لديك مانع من أن أحطم القفل ؟

- لا مانع .. بيجر ، أحضر ساطورا للمستر « بريتن » .
- أمرك ياسيدى .

وفكر بسرعة . هل يقول لهما ان الساطور فى مكان ما بالببيت ويعرض عليهما أن يخرج لاحضاره ثم ينتهز الفرصة ويهرب ؟ الى اى مدى ياترى يشكون فيه ؟ ألا يحتمل أن يكون كل هذا الذى يفعله الرجلان مجرد خطة للايقاع به ؟ .. ونظر اليهما فى حدة وامعان .. وكأننا ينتظران الساطور . نعم ، يجدر به أن يبقى وأن يتابع الكذب لكى يخرج من هذه المسألة تماما ، واستدار واتجه الى مكان الساطور .. نفس المكان الذى تناوله منه فى الليلة الماضية ليفصل به رأس « مارى » عن جسدها .. وتوقف قليلا وتظاهر بأنه يبحث عنه .. ثم اعتدل وقال :

- ليس هنا .. لقد .. لقد رأيته هنا البارحة .
- لا بأس .. أستطيع أن أدبر الأمر بدونه .

واستدار « بيجر » واتجه نحوهما فى ببطء .. ينتظر .. ويراقب .. ورفع بريتن قدمه وضرب الفقل ضربة سريعة مباشرة بكعب حذائه .. ثم رفع الغطاء .. وكانت الحقيبة نصف فارغة والملابس غير مرتبة .

- هل ترى يا « بريتن » انها لم تأخذ كل حاجاتها ؟

- نعم ، يبدو من شكل الحقيبة أنها لم تكن تحتاج اليها على الاطلاق .

- بيجر ، هل كانت الحقيبة مغلقة عندما طلبت منك أن تنزل بها ؟

- نعم يا سيدى .

- هل كانت ثملة الى درجة لا تعرف معها ماذا كانت تفعل ؟

- لقد دخلا معا الحجرة ودخلت أنا خلفهما ثم طلبت منى أن أنزل الحقيبة ففعلت وهذا هو كل ماحدث .

وقال « بريتن » :

- كان بمقدورها أن تضع هذه الأشياء فى حقيبة ملابس صغيرة .

وارتفع صوت لهب الموقد فى أذنى « بيجر » ٠٠ ورأى الظلال
الحمراء تتراقص فوق حوائط الحجرة ٠٠ وظل يضغط فكّيه بعنف وهو
يقول لنفسه : « فليحاولوا أن يكتشفوا بأنفسهم الفاعل » ٠

وقال « بريتن » :

— اجلس يا « بيجر » ٠

ونظر إليه « بيجر » فى حيرة ودهشة ٠

— اجلس فوق الحقيبة ٠

— أنا ؟

— نعم ٠٠ اجلس ٠

وجلس « بيجر » ٠

— والآن تذكر جيدا كل ما حدث ٠٠ فأنا أريد أن أسألك بعض

الأسئلة ٠

— أمرك ياسيدى ٠

— متى خرجت بالآنسة « دالتون » فى الليلة الماضية ؟

— حوالى الساعة الثامنة والنصف ياسيدى ٠

وأدرك « بيجر » أن المسألة تأخذ الآن دور الجد ٠ فهذا الرجل
موجود الآن لكى يعرف كل شيء ٠ وكان هذا اختبارا له ، وعليه أن
يجيب بما يبعد عن نفسه الشبهة تماما ، وينبغى أيضا أن يبدأ فى سرد
حكايته وبلقى بالحقائق واحدة بعد الأخرى فى يسر وسهولة وكأنما هو
لا يعرف مدلولاتها جميعا ٠٠ وأن يجيب فحسب عندما يسأل ٠

— هل أوصلتها الى المدرسة ؟

ورفع « بيجر » رأسه ٠٠ ولم يجب ٠

— أجب ياولد ٠٠ هيا ٠

— حسن ياسيدى ٠٠ أنت ترى أننى ٠٠ أننى مجرد خادم هنا ٠

— ماذا تقصد ؟

واقترب منه المستر « دالتون » ونظر إليه فى حدة وقال :

— أجب عن أسئلته يا « بيجر » ٠

— أمرك ياسيدى ٠

وعاد « بريتن » يسأله :

- هل أوصلتها الى المدرسة ؟
- ومرة أخرى .. لم يجب « بيجر » .
- لقد وجهت اليك سؤالاً يا ولد .
- لا ياسيدي .. لم أفعل ذلك .
- فالى أين أوصلتها اذن ؟
- لقد طلبت منى عندما وصلت بها بالقرب من الحديقة ، أن
- أستدير بالسيارة الى منطقة « لوب » .
- وسأله المستر « دالتون » وقد فغر فاه من الدهشة :
- اذن فهى لم تذهب الى المدرسة ؟
- لا ياسيدى .
- ولماذا لم تقل لى ذلك من قبل يا « بيجر » ؟
- هى التى طلبت منى ذلك ياسيدي .
- وساد الصمت .. وارتفع أوار اللهب داخل الموقد .. وغطت الظلال
- الحمراء جدران الغرفة .. وعاد « بريتن » يوجه أسئلته :
- فالى أين أوصلتها اذن ؟
- الى منطقة « لوب » ياسيدي .
- الى أى مكان فى المنطقة ؟
- شارع « ليك » ياسيدي .
- هل تذكر الرقم ؟
- رقم ١٦ على ما أظن ياسيدي .
- رقم ١٦ شارع « ليك » ؟
- نعم ياسيدي .
- وقال المستر « دالتون » وهو يستدير نحو « بريتن » :
- انه مكتب « المدافعين عن العمال » .. « جان » هذا من الحمر .
- وكم أمضت بداخل المبنى ؟
- حوالى نصف ساعة يا سيدى .
- ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟
- انتظرتهما ياسيدي .. داخل السيارة .

- وظلت هي بالداخل حتى عدت بها الى البيت ؟
- لا ياسيدى •
- هل خرجت •• ؟
- خرجا معا ياسيدى •
- خرجت مع ذلك الرجل ؟
- نعم ياسيدى •• كان هو معها ، ويبدو لى ياسيدى أنها دخلت لكى تحضره معها •• ولم تنقل شيئا : لقد دخلت المبنى وبقيت بعض الوقت فى الداخل ثم خرجت وهو معها •
- ثم قدمت السيارة •
- هو الذى قادها •
- ألم تكن أنت الذى قدتها ؟
- نعم ياسيدى •• أراد هو أن يقودها وهي أمرتنى أن أدعه يفعل ذلك •
- وساد الصمت مرة أخرى •• كانوا يريدون منه أن يرسم صورة كاملة لما حدث ، وكان هو يرسم الصورة بالشكل الذى يريده ، كان يرتعش من الاضطراب • ألم يتعودوا هم فى الماضى أن يرسموا له ماشاءوا من صور ؟ يستطيع هو الآن بدوره أن يقول مايشاء دون أن يخشى شيئا •• كان يلقي الشكوك حول « جان » •• و « جان » كان من الحمر وبدأت لهجة العداء تزايل صوت « بريتن » وهو يتابع أسئلته :
- وهل انتظرتكما فى مكان ما ؟
- لا ياسيدى •• كنت معهما داخل السيارة •
- والى أين ذهبا ؟
- وأراد « بيجر » أن يخبره كيف طلبا منه أن يجلس بينهما ، ولكنه رأى أنه من الأفضل أن يقول ذلك فيما بعد عندما يتحدث عن المشاعر التى أحس بها وهو معهما •
- •• لقد طلب منى المستر « جان » أن أوصلهما الى مكان جيد يتناولان طعامهما فيه •• وكنت أعرف أن المكان الوحيد الذى يتناول فيه البيض طعامهم •••

ونطق كلمة « البيض » فى بطء شديد حتى يدركا ما يقصده بهذه الكلمة .

- فى الحى الجنوبى ، هو مطعم « ايرنى » .
- هل أوصلتهما الى هناك ؟
- مستر « جان » قاد السيارة الى هناك ياسيدى .
- وكم أمضيا داخل المطعم •• ؟
- ربما نكون ياسيدى قد أمضينا ••
- ماذا ؟ ألم تنتظريهما داخل السيارة ؟
- نعم ياسيدى •• لقد فعلت ما أمرانى به •• وكنت فى خدمتهما .
- أوه •• أعتقد أنهما سمحا لك بأن تأكل معهما •
- لم أكن أريد ذلك ياسيدى •• وأقسم على ذلك ، ولكنه ألح على الحاحا شديدا حتى قبلت .
- وابتعد « بريتن » عن الحقيقة وهو يتخلل شعر رأسه بأصابعه فى عصبية •• ثم استدار مرة ثانية الى « بيجر » :
- وهل شربا ؟
- نعم ياسيدى •
- وماذا قال لك هذا المدعو « جان » ؟
- حدثنى عن الشيوعيين •
- وهل شربا كثيرا ؟
- يبدو ذلك ياسيدى •
- ثم عدت بهما الى البيت ؟
- قادت بهما السيارة داخل المتنزة يا سيدى •
- ثم عدت بهما الى البيت ؟
- نعم ياسيدى •• فى حوالى الساعة الثانية .
- وهل شربت الآنسة « دالتون » كثيرا ؟
- حسن •• انها لم تكن قادرة على أن تنصب قامتها ياسيدى ••
- وعندما عدنا الى البيت اضطر الى أن يحملها ليصعد بها فى السلم •
- حسن جدا يا ولد •• حدثنا عن هذه النقطة بالتفصيل ، الى أى مدى كانت هى ثملة ؟

- يبدو ياسيدى أنها كانت غائبة عن الوعى .

ونظر «بريتن» الى « دالتون » وقال :

- اذن لم يكن باستطاعتها أن تترك البيت بمفردها . واذا كانت مسز « دالتون » على حق فيما تقول ، فلم يكن من الممكن لها أن تترك البيت .

ثم عاد ينظر الى « بيجر » . . وأحس هذا بأن هناك سؤالا يجول فى خاطر « بريتن » :

- ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

آه . . يستطيع الآن أن يبدأ بالقاء قذائفه .

- لقد قلت لك ان الأنسة « دالتون » طلبت منى أن أنزل الحقيبة . . وقد قلت لك انها أمرتنى ألا أخبر أحدا عن ذهابهما الى منطقة «لوب» ولكن المستر « جان » هو الذى طلب منى أن أنزل الحقيبة وأن أدع السيارة فى مكانها .

- هل طلب منك أن تترك السيارة . . وتنزل الحقيبة ؟

- نعم ياسيدى .

وسأله المستر « دالتون » :

- ولماذا لم تخبرنا بذلك من قبل يا « بيجر » ؟

- لقد أمرتنى ألا أخبر أحدا .

وسأله « بريتن » :

- كيف كانت تصرفات هذا المدعو « جان » ؟

- كان ثملا .

قالها وهو يحس بأنه قد آن الأوان لأن يجرد قدم « جان » . . ثم أردف يقول :

- كان المستر « جان » هو الذى أمرنى بأن أنزل الحقيبة وبأن أترك السيارة بالخارج . . لقد قلت لك ان الأنسة « دالتون » هى التى طلبت ذلك . . ولكن الحقيقة هى أن « جان » هو الذى أمرنى بذلك . ولو أننى كنت قد قلت ذلك من قبل لاتضح كل شيء .

واتجه « بريتن » نحو الموقد ثم عاد مرة أخرى . . وكان الموقد

لا يزال يمور باللهب .. وتمنى « بيجر » ألا ينظر أحد بداخله فى تلك اللحظة .. وأحس بجفاف فى حلقه ثم انتبه فى عصبية الى « بريتن » وهو يشير اليه باصبعه ويقول :

- ماذا قال لك عن الحزب ؟ (البارتى) (١) .
- .. سيدى ؟

- أوه .. هيا يا ولد .. لا تدعى البلاهة . قل لى ماذا قال لك عن « الحزب » ؟

- الجماعة ؟ .. لقد طلب منى أن أجلس معه الى المائدة .
- أنا أقصد « الحزب » .

- لم تكن هناك « جماعة » ياسيدى .. وقد طلب منى أن أجلس معهما الى المائدة . وطلب دجاجا .. وطلب منى أن أكل معهما .. ولم أكن أريد ذلك ولكنه ألح على فقبلت فى النهاية .. وكنت مضطرا الى ذلك .

واقترب « بريتن » من « بيجر » وزوى ما بين حاجبيه وضافت عيناها الرماديتان :

- الى أى وحدة تنتمى ؟
- ماذا ياسيدى ؟
- هيا هيا .. يا « رفيق » .. قل لى الى أى وحدة تنتمى ؟
- وحدتى اليه « بيجر » دون أن يتكلم .. وقد أحس بنذير الخطر .
- ما اسم رئيس التنظيم ؟
- وقال « بيجر » فى صوت مرتعش :
- لست أدرى عم تتحدث ياسيدى .
- ألا تقرأ الـ « يومية » ؟
- « يومية » ماذا ؟
- ألم تكن تعرف « جان » قبل أن تعمل هنا ؟
- نعم ياسيدى .. نعم .
- ألم يعيشوا بك الى روسيا ؟

ونظر اليه « بيجر » دون أن يحير جوابا . وعرف أن « بريتن » كان يحاول أن يعرف اذا كان شيوعيا .. وهو شئ لم يحسب حسابه

(١) - كلمة بارتى فى الانجليزية تعنى (حزب) كما تعنى صحبة أو جماعة

من قبل .. ووقف يرتعش . فهو لم يفكر قبل ذلك فى أن تتجه الأمور
فى طريقين .. وهز رأسه فى ببطء ثم تراجع وهو يقول :

- نعم ياسيدى .. لقد أخطأت الظن بى . لم يسبق لى قط أن
اختلفت بهؤلاء القوم . ان المس « دالتون » والمستر « جان » هما أول
من قابلت منهم .. هذه هى الحقيقة وليساعدنى الله .

وتبع « بريتن » .. « بيجر » حتى اصطدم رأس الأخير بالحائط .
وكان « بيجر » ينظر نحوه مباشرة .. وفجأة .. وقبل أن يدرك « بيجر »
حقيقة ما حدث .. جذبته « بريتن » من « ياقته » وضرب برأسه الحائط
حتى رأى بريقاً من ضوء أحمر .

- أنت شيوعى أيها الملعون الأسود ابن الد .. وسوف تقول لى
كل شئ عن الأنسة « دالتون » وعن هذا ال « جان » ابن ال ..

- لا ياسيدى .. لست شيوعا .. أبدا ياسيدى .

- حسن .. فما هذا اذن ؟

وأخرج « بريتن » من جيبه حزمة المنشورات التى كان « بيجر »
قد وضعها فى درج « دولابه » .. ولوح بها أمام عينيه .

- أنت تعرف جيدا أنك تكذب . هيا . تكلم .

- .. أبدا ياسيدى . أنت تخطئ الظن . لقد أعطانى « جان »
هذه الأشياء . هو والأنسة « دالتون » طلبا منى أن أقرأها .

- هل كنت تعرف الأنسة « دالتون » من قبل ؟

- لا ياسيدى .

ووضع المستر « دالتون » يده فوق ذراع « بريتن » وقال :

- انتظر يا « بريتن » .. انتظر ، هناك شئ ما فى كلامه يستحق
النظر . لقد حاولت « مارى » أن تتحدث اليه عن الاتحادات عندما رآته
البارحة لأول مرة . واذا كان « جان » قد أعطاه هذه المنشورات ، فلا بد
اذن أنه لا يعرف شيئا عنها .

- أوافق أنت ؟

- أنا أقول ما حدث بالفعل . لقد ظننت فى البداية عندما أحضرت
لى هذه المنشورات أنه لابد يعرف شيئا . ولكنى لا أعتقد الآن ذلك ،
ولا فائدة من لومه على شئ لم يفعله .

وأرخی « بریتن » أصابعه عن « یاقه » « بیجر » وهز كتفيه ٠٠ واسترخی « بیجر » وهو لا يزال واقفا فی مكانه ورأسه یستند الى الحائط ٠٠ والألم یعصره ٠ لم یكن یتصور أن أحدا سیفكر فی أنه وهو الزنجی الأسود یمكن أن یكون شریك « جان » ٠٠ ورأى فی « بریتن » عدوا له ٠ وأدرك أن البریق الحاد فی عینی « بریتن » لیس الا اتهاما صریحا له ٠٠ لمجرد أنه أسود البشرة ٠٠ وأحس بكراهیة شدیة نحوه وهو یقف أمامه وشفته منفرجتان وعیناه كالنائم ٠٠ وود لو استطاع أن یمسك بالجاروف الملقى فی ركن الحجرة ثم یهوى به علی جمجمته فیشطرها شطرتین ٠ وأحس لحظات بصوت كالزئیر یملاً أذنیه ، ولكنه كظم غیظه وتمالك نفسه ٠٠ ثم مالبت أن سمع « بریتن » یتكلم :

— ٠٠ یجب أن نقبض علی « جان » هذا ٠

وقال المستر « دالتون » وهو یتنهذ بعمق :

— یبدو أن هذه هی الخطوة التالية ٠

وأحس « بیجر » بأنه اذا قال شیئا ما للمستر « دالتون » مباشرة فسوف یكون ذلك فی مصلحته ، ولكنه لم یدر ماذا یمكن أن یقول بالضبط ٠ وعاد « بریتن » یسأل :

— هل تعتقد أنها هربت ؟

فقال المستر « دالتون » :

— لست أدری ٠

واستدار « بریتن » الى « بیجر » ونظر الیه ٠٠ وظل « بیجر » من ناحيته ینظر الى الأرض ٠

— ولد ٠٠ أرید أن أعرف فحسب ، ٠٠ هل تقول الصدق ؟

— نعم یاسیدی ٠٠ أنا أقول الصدق ٠٠ اننی لم أبدأ العمل هنا الا فی اللیلة الماضیة ، ولم أفعل شیئا ٠ مافعلت الا ما أمرت به ٠

وعاد « بریتن » یسأل « دالتون » :

— أوأثق أنت من أنه لا غبار علیه ؟

— نعم ٠

وأسرع « بیجر » یقول :

— اذا لم تكن ترید أن أعمل عندك فسوف أعود الى بیتی یامستر

« دالتون » .. والحق أننى لم أكن أريد أن أحضر الى هنا .. ولكنهم هم الذين أرسلونى اليك .

وقال « دالتون » لـ « بريتن » :

— هذا صحيح .. لقد بعث به الى مكتب المساعدات . لقد كان فى مدرسة اصلاحية ، وأنا منحته الفرصة .

ثم استدار الى « بيجر » وقال :

— انس ماحدث يا « بيجر » .. كنا نريد أن نتيقن .. ابق هنا وتابع عملك .. أنا آسف لأن ذلك كان لابد أن يحدث ؛ ولكن لا تدع ماحدث يؤثر عليك .

— أمرك ياسيدى .

وقال « بريتن » :

— مادمت أنت تقول لا بأس .. فأنا أيضا أقول لا بأس .

وقال المستر « دالتون » :

— عد اى حجرتك يا « بيجر » .

— أمرك ياسيدى .

وسار « بيجر » الى مؤخرة « البدروم » ثم صعد فى السلم الى حجرته وأغلق بابها من خلفه بالمزلاج ثم أسرع الى مخزن الملابس ليسترق السمع . وتناهت اليه الأصوات واضحة ، وكان « بريتن » والمستر « دالتون » قد وصلا الى المطبخ :

قال « دالتون » :

— كان الجو حارا فى « البدروم » .

— نعم .

— لقد أسفت قليلا لأنك ضايقته .. انه جاء الى هنا لكى يرى صورة جديدة للأشياء .

— حسنا .. أنت تصرفت بطريقة .. وأنا واجهته بأخرى . وبالنسبة لى أنا فان الزنجى هو الزنجى .

— ولكنه ولد تحيط به المشاكل .. وهو فى حقيقة الأمر ليس شيئا .

— يجب أن تكون شديدا معهم يا « دالتون » .. انظر كيف

استخلصت منه تلك المعلومات .. تؤكد لك أنه لم يكن ليقولها لك أنت .

– ولكنني لا أود أن أقع هنا في خطأ ، فلم يكن ذلك خطؤه هو ، فقد كان يفعل ما أمرته به ابنتي المجنونة هذه ، ولست أريد أن أقدم على تصرف أندم عليه فيما بعد .. ثم إن هؤلاء الأولاد السود لا يحصلون أبدا على فرصة .

– اذا أردت رأيي .. فهم ليسوا في حاجة الى فرصة .. انهم يقعون في المتاعب بدونها .

– حسن .. ماداموا يؤدون أعمالهم .. فلنمنحهم الفرصة .

– الرأي ماتقول .. والآن ، هل تريد مني أن أستمع في هذه « العملية » ؟

– طبعا يجب أن نرى « جان » هذا .. فأنا لازلت أستبعد أن تذهب « ماري » دون أن تقول شيئا .

– أستطيع أن أحضره لك بالقوة .
– لا ، لا .. ليس هكذا . فقد يعرف هؤلاء الحمر فيحملون علينا في الصحف .

– حسن .. فماذا تريدني اذن أن أفعل ؟

– سوف أحاول أن أجعله يحضر الى هنا ، سوف أتصل «تليفونيا» بمكتبه ، فاذا لم يكن هناك فسوف أتصل به في بيته .

وسمع « بيجر » وقع أقدامهما تختفي ثم سمع صوت باب يغلق .. وساد الصمت .. فخرج من مخزن الملابس ونظر في درج « الدولاب » حيث وضع المنشورات . نعم ، لقد فتش « بريتن » حجرته .. فقد كانت ملابسه متقلوبة « مشوشة » . لسوف يعرف كيف يعالج الأمور مع « بريتن » في المرة التالية .. ذلك أن « بريتن » كان مألوا لديه . فقد قابل في حياته أكثر من ألف « بريتن » .. ووقف « بيجر » في وسط الحجرة يفكر : عندما يستجوب « بريتن » « جان » هل ينكر « جان » كلية أنه كان مع « ماري » .. بدافع من حماية « ماري » نفسها ؟ لو أنه فعل ذلك لكان هذا في مصلحته ، فإن « بريتن » يستطيع أن يتيقن صحة عدم ذهاب ماري الى المدرسة في الليلة الماضية . واذا قال « جان » انهما

لم يشربا استطاع « بريتن » أن يثبت عكس ذلك من تحرياته بالمطعم ،
وإذا كذب جان فى شىء واحد صدق الجميع أنه يكذب فى الأشياء
الأخرى . . فإذا قال « جان » مثلا انه لم يذهب الى البيت ، فمن ذا الذى
سيصدق به بعد أن كذب وادعى أنه لم يشرب وأن مارى ذهبت الى المدرسة؟
وإذا حاول « جان » أن يحمى « مارى » - وهذا هو الأرجح - فلن ينجح فى
مثل هذه الحالة الا فى أن يثبت التهمة على نفسه .

واتجه « بيجر » الى النافذة وتطلع من خلالها الى ستارة الشلج
المتساقطة من السماء . . وفكر فى خطاب الاختطاف . هل يحاول أن
يحصل منهم على نقود الآن ؟ . . ياللجيم . . بالطبع يستطيع . . لسوف
يرى هذا الـ « بريتن » . . وسوف يعمل بسرعة ، ولكنه سينتظر حتى
يدلى « جان » بقصته . . وينبغى له أن يقابل « بيسى » الليلة على أن يأخذ
معه الورقة والقلم اللذين سيستخدمهما . . ويجب ألا ينسى أن يرتدى
قفازين قبل أن يكتب المذكرة حتى لا تظهر على الورقة بصمات أصابعه ،
ولسوف يهيئ لهذا الـ « بريتن » شيئا يقلقه حقا . . حسن . . انتظر
فحسب .

ولقد أحس « بيجر » بأنه قوى بالقدر الذى يمنحه قدرة على الحياة
غير محدودة وهو يشعر بأنه يستطيع أن يهرب اذا أراد تاركا وراءه كل
شىء . ولكنه كان قد بدأ ينتبه الى ميزات هذا البيت الدافئ النظيف
الثرى ، والحجرة ذات السرير الناعم ، والناس البيض الذين يخطرون
فى الرفاهية حوله من كل جانب . . البيض الذين يعيشون فى جو من
النظافة والأمان والثقة لم يسبق له أن عرفه من قبل ، ولقد أحس بأنه
أصبح مساويا لهم بعد أن قتل فتاة بيضاء يحبونها وينظرون اليها
باعتبارها نموذجا للجمال . . وكأنه رجل تعرض للخديعة ثم رد الصاع
صاعين .

وكلمنا تذكر « بريتن » ، أحس بحاجة ملحة الى أن يواجهه مرة
أخرى وهو يحاول أن يستخلص منه شيئا ، ولسوف يحسن التصرف فى
المررة التالية . . فقد سمح له فى المرة الأولى بأن يوقعه فى « حكاية »
الشيوعية ، وعليه بعد الآن أن ينتبه جيدا وان كان يشعر بأنه كان
محظوظا لأن « بريتن » هذا ألقى بكل مافى جعبته مرة واحدة . .
« وكشف أوراقه » كلها . ومادامت الأمور قد أصبحت « على المكشوف »
فسوف يعرف كيف يتصرف وبالإضافة الى هذا كله فان « بريتن » قد

يحتاج اليه كشاهد ضد « جان » . رابتسم وهو يرقد على فراشه في
الظلام . اذا حدث هذا ففي مقدوره أن يرسل خطاب القدية وهو آمن .
في مقدوره أن يرسل هذا الخطاب في اللحظة التي يظنون فيها أنهم قد
القوا تبعة اختفاء « ماري » على « جان » ولسوف يقلب هذا كل شيء .
ولسوف يضطرون بعده الى الاستسلام فيدفعوا على الفور كيما ينقذوا
الفتاة .

وسرى دفء الحجرة الى دمائه . . وأحس بالتعب يحمله على النوم
.. فتمدد تماما وتنهَّد بعمق وتقلب على ظهره . . ثم أغمض عينيه . .
ووسط السكون والظلمة تناهت اليه - في أثناء نومه - دقات كنيسة
بعيدة . . خافتة ولكن واضحة . . ثم بدأت ترتفع شيئا فشيئا حتى
أصبحت عالية بدرجة تساءل معها : أين يكون مصدر هذا الجرس ؟
لقد كان يدق فوق رأسه مباشرة ، وعندما نظر اليه لم يجده وان ظل
يتابع دقاته وهو يحس مع كل لحظة تمر بحاجة ملحة الى أن يختفى . .
وكان الجرس يدق انذارا له . . ورأى أنه وقف عند ناصية شارع
يفيض عليه ضوء أحمر مثل ذلك الذي ينبعث من المدفأة ، وقد حمل بين
يديه لفافة ضخمة . . مبتلة ، وثقيلة الى درجة كان يحملها معها بصعوبة
.. وأراد أن يعرف ما بداخل هذه اللفافة فتوقف عند « ناصية » أخرى
بعيدة وفتحها . . فسقطت من يده . . ورأى - رأسه هو - رأسه
هو نفسه ملقى بوجهه الأسود وعينيه نصف المغلقتين . . وشفتين
منفرجتين تبدو من خلالهما أسنانه البيضاء . . وشعر ملوث بالدماء ، . .
واللهب الأحمر يعلو ويزداد بريقه مثل ضوء قمر أحمر ونجوم حمراء في
ليل صيف حار . . وكان العرق يتصبب فوق جسده وهو يتنفس بصعوبة
من وقع صوت الجرس الذي يعلو ويعلو . . ويعلو حتى ليستطيع أن
يسمع صوت لسان الجرس وهو « يدق » جوانب المعدن في كل مرة
جيئة وذهابا . . وأخذ يجري في شارع « مرصوف » بالفحم الأسود . .
وأخذ حذاؤه يقذف في أثناء جريه بشظايا فحم دقيقة كانت ترتطم بعلب
من الصفيح . . وأدرك أنه في حاجة الى أن يختفى في الحال في مكان
ما ، ولكنه لم يجسد مكانا . . بل وجد أمامه أناسا من البيض جاءوا
يسألون عن الرأس الذي سقط من اللفافة والذي كان قد أصبح مغطى
بالدماء اللزجة بين يديه العاريتين . . ثم استسلم . . ووقف في منتصف
الشارع وسط الظلمة الحمراء يلعن الجرس الرنان والناس البيض وهو
لا يدري بالضبط ماذا حدث له ، وحين التف حوله الناس . . قذف في
وجوههم بالرأس الدامي . . دونج دونج دونج . . .

وفتح عينيه ونظر حوله وسط ظلال الحجرة .. فسمع صوت جرس يدق .. فنهض جالسا .. وعاد الجرس يدق .. ترى كم من الوقت ظل هذا الجرس يدق ؟ .. وقف على قدميه وهو يتمايل محاولا أن يطرد النوم .. وذلك الحلم المفزع .. وتتمت :

- حاضر يا سيدتى .

ودق الجرس مرة أخرى .. وسار يتعثر وسط الظلام وجذب سلسلة الإصاصة .. وانتابه الاضطراب على الفور . هل حدث شيء ؟ هل حضر « البوليس » ؟

وصاح صوت محقق من الخارج :

- « بيجر » .

- حاضر ياسيدى .

وهيأ نفسه لكل ما يحتمل أن يحدث ثم اتجه الى الباب وفتحه .. وأحس بأن هناك شخصا يدفع الباب من الخارج وتبدو عليه الدهشة . وتراجع « بيجر » وهو يرمش بعينه : لقد كان « بريتن » أمامه :

- أريد أن نتحدث معك .

- أمرك ياسيدى .

ولم يسمع ماقاله « بريتن » بعد ذلك لأنه سرعان ما رأى خلفه وجها جعله يحبس أنفاسه . ولم يكن ذلك عن خوف .. ولكنه التوتر . واستجماع كل ما فى جسده من قوة للمشهد التالى .

وقال « دالتون » :

- ادخل يامستر « ايرلون » .

ورأى « بيجر » أن « جان » ينظر اليه فى ثبات .. ثم يخطو الى داخل الحجرة وخلفه المستر « دالتون » ، ووقف « بيجر » وقد انفرجت شففتاه قليلا وتدلّى ذراعاه الى جنبه .. وهو ينظر خلسة .. وقال « بريتن » :

- اجلس يا ايرلون .

فقال جان :

- لاداعى .. سأظل واقفا .

ورأى « بيجر » أن « بريتن » يخرج من جيبه حزمة المنشورات ثم

يمدها تحت بصر « جان » .. وابتسم هذا ابتسامة خفيفة وقال :

.. نعم .

فقال « بريتن » :

- أنت اذن واحد من هؤلاء الحمر .. « هه » ؟

- لا داعى لهذه المقدمات .. ما الذى تريده ؟

- هون عليك .. ففى الوقت متسع .. أنا أعرف صنفيكم .. أنتم تحبون الاندفاع والتصرف بالأسلوب الذى يعجبكم .

ورأى « بيجر » المستر « دالتون » يقف الى جانب منهما يتطلع فى قلق .. وينتقل ببصره من أحدهما الى الآخر وهو يوشك أن يقول شيئاً فى كل مرة ولكنه لا يلبث أن يتوقف وكأنه ليس واثقاً مما سيقول .

وعاد « بريتن » يسأل :

- بيجر .. هل هذا هو الرجل الذى صحبته الآنسة دالتون فى الليلة الماضية ؟

وانفجرت شففتا « جان » .. وحذق الى « بريتن » .. ثم الى « بيجر » :

وقال « بيجر » فى همس :

- نعم ياسيدى .

قالها وهو يحاول أن يسيطر على مشاعره ويحس بكراهية عنيفة نحو « جان » لأنه كان يدرك لحظتها أنه يؤذيه .. وود لو استطاع أن يضربه بشيء .. أى شيء ، لأن نظرة « جان » اليه جعلته يحس بالجرم من قمة رأسه الى أخمص قدمه .

وقال « جان » :

- أنت لم تحضرنى الى هنا يا « بيجر » .. فلماذا تقول لهم ذلك ؟

ولم يجبه « بيجر » .. فقد قرر ألا يتحدث الا الى « بريتن » والمستر « دالتون » .. وساد الصمت .. على حين « جان » يحدج « بيجر » بنظراته .. أما « بريتن » والمستر « دالتون » فقد استقرت نظراتهما فوق « جان » .. وتحرك « جان » متجها نحو « بيجر » ولكن ذراع « بريتن » حالت بينه وبين ذلك .. وقال « جان » :

- ما هذا ٠٠ لماذا تجعلون هذا الولد يكذب ؟
- فسأله « بريتن » :
- أعتقد أنك ستقول لنا انك لم تكن ثملا فى الليلة الماضية ٠٠
- هه « ؟
- وصاح « جان » فى وجهه :
- وما شأنك أنت بهذا ؟
- أين الآنسة « دالتون » ؟
- ونظر « جان » حوله فى حيرة ٠٠ وقال :
- فى « دترويت » .
- آه ٠٠ لقد « استذكرت » قصتك تماما ، أليس كذلك ؟
- فقال « جان » :
- بيجر ٠٠ ما الذى يفعلونه بك ؟ لا تخف ٠٠ تكلم .
- ولم يجر « بيجر » جوابا ، وظل يوجه نظراته الى أرض الحجره .
- وعاد بريتن يسأل :
- أى مكان أخبرتك الآنسة « دالتون » أنها ستذهب اليه ؟
- قالت لى انها ستسافر الى « دترويت » .
- هل رأيته فى الليلة الماضية ؟
- وتردد « جان » ٠٠ ثم قال :
- لا ٠٠
- ألم تعط الولد هذه المنشورات فى الليلة الماضية ؟
- وهز « جان » كتفيه ٠٠ ثم ابتسم وقال :
- ٠٠ حسن ٠٠ لقد رأيته ٠٠ فماذا اذن ؟ ٠٠ أنت تعرف لماذا
- لم أقل هذا فى البداية ٠٠
- فقاطعه « بريتن » قائلا :
- لا ٠٠ لست أعرف .
- حسن ٠٠ ان المستر « دالتون » لا يحب الحمر كما تدعونهم
- أنتم ، وكنت أريد أن أبعد الآنسة « دالتون » عن المتاعب .
- اذن فقد قابلتها فى الليلة الماضية ؟

- نعم .. قابلتها .
- وقد شربتما حتى السكر .. أنت والآنسة « دالتون » ..
- أوه .. ماهذا . نحن لم نشمل .. وما شربنا الا قليلا .
- وأوصلتها الى البيت فى حوالى الثانية ؟
- وأرهف « بيجر » السمع .
- نعم .
- وقلت للولد : أنزل الحقيبة الى « البدروم » ؟
- وفغر « جان » فاه .. ولكنه لم يتكلم .. بل نظر الى « بيجر » ثم الى « بريتن » ، .. وقال :
- ماهذا بالضبط ؟
- وسأله المستر « دالتون » :
- أين ابنتى يامستر « ايرلون » ؟
- قنت لك اننى لا أعرف ..
- فعاد « دالتون » يقول :
- اسمع .. فلنكن صرحاء يامستر « ايرلون » ، نحن نعرف أن ابنتى كانت ثملة فى الليلة الماضية عندما أوصلتها الى هنا .. كانت ثملة الى درجة لا تستطيع معها أن تغادر البيت بمفردها ، فهل تعرف أين هى ؟
- أنا .. أنا لم أحضر الى هنا فى الليلة الماضية .
- وأدرك « بيجر » على الفور أن « جان » ذكر من قبل أنه حضر مع « مارى » الى البيت فى الليلة الماضية حتى يجعل المستر « دالتون » يعتقد أنه - أى « جان » - لا يقبل أن يدع ابنته وحدها فى السيارة مع سائق غريب .. وأدرك « بيجر » أيضا أنه بعد أن أقر « جان » بأنهما شربا فقد كان لزاما عليه أن يقول انه أوصلها هو نفسه الى البيت . وهكذا ، فإن رغبة « جان » فى حماية « مارى » قد ساعدت « بيجر » نفسه . ولئن يصدق أحد « جان » الآن اذا أنكر أنه حضر مع « مارى » الى البيت ، واذا حاول ذلك فسوف يعتقد « بريتن » والمستر « دالتون » أنه يحاول أن يخفى بانكاره هذا أمرا على جانب أكبر من الخطورة .

- وعاد المستر « دالتون » يسأله :
- ألم تحضر معها فى الليلة الماضية ؟
- نعم . .
- ألم تطلب من الولد أن ينزل الحقيبة ؟
- ماذا ؟ . من الذى قال اننى طلبت منه ذلك ؟ لقد غادرت السيارة لأستقل . . « الثروولى » الى البيت .
- ثم استدار يواجه « بيجر » ويقول :
- ما الذى تقوله لهؤلاء الناس ؟
- ولم يجر « بيجر » جوابا . . فقال « بريتن » :
- لقد قال لنا ما فعلته فى الليلة الماضية .
- وتساءل « جان » :
- أين « مارى » ؟ . أين الآنسة « دالتون » ؟
- فقال « بريتن » :
- نحن ننتظر منك أنت أن تجيبنا عن هذا السؤال .
- أ . . ألم . . ألم تسافر الى دترويت ؟
- فقال المستر « دالتون » :
- نعم . .
- وتقدم « جان » من « بيجر » فقال « بريتن » :
- لا شأن لك به . .
- فقال « جان » :
- بيجر . . لماذا تقول لهؤلاء الناس اننى حضرت الى هنا ؟
- فقال المستر دالتون :
- تقول انك لم تحضر الى هنا كلية فى الليلة الماضية ؟
- نعم . . بيجر ، قل لهم متى غادرت السيارة . .
- ولم يقل « بيجر » شيئا .
- عيا تكلم يا « ايرلون » . أنا لا أعرف نواياك . . ولكنك كنت تكذب منذ أن دخلنا هذه الحجرة . . قلت انك لم تحضر الى هنا فى الليلة الماضية ثم عدت فقلت عكس ذلك ، . . قلت انك لم تكن نملا ثم

عدت فقلت العكس • قلت انك لم تر الآنسة « دالتون » فى الليلة الماضية
ثم عدت فقلت انك رأيتها •• هيا اذن ولا تراوغ وقل لنا أين الآنسة
« دالتون » • ان والدها ووالدتها يريدان أن يعرفا أين هى ••

ورأى « بيجر » عينى « جان » الحائرتين •• ثم سمعه يقول وهو
يزيح قبعته قليلا الى الوراء :

— اسمع ، لقد قلت لك كل ما أعرفه •• واذا لم تقل لى ماذا
تقصدون من وراء كل هذه « اللعبة » ، فسوف أعود من فورى الى بيتى •
فقال المستر « دالتون » :

— انتظر دقيقة •

ثم تقدم نحوه وواجهه قائلا :

— نحن •• أنت وأنا لسنا متفقين ، •• فلننس ذلك • ولكننى
أريد أن أعرف أين ابنتى ••

— أهى « لعبة تلعبونها » ؟ •

— لا •• لا ، أنا أريد أن أعرف •• فأنا قلق عليها ••

— قلت لك اننى لا أعرف •

— اسمع يامستر « ايرلون » ، ان « مارى » هى ابنتى الوحيدة ،
ولست أريد أن يصيبها أذى • قل لها لابد أن تعود •• أو أعدها أنت
الى بيتها •

— مستر « دالتون » ، لقد صدقتك القول •

— اسمع •• سوف أصل معك الى اتفاق •

واحمر وجه « جان » وسأله :

— ماذا تقصد ؟

— سوف أجازيك •

وصرخ « جان » :

— يابن ال ••

ثم توقف •• واتجه نحو الباب • فقال « بريتن » :

— دعه يخرج ولن يستطيع أن يذهب بعيدا ، فسوف أتصل

« تليفونيا » لكى يقبضوا عليه • انه يعرف أكثر مما يخبرنا به •
وتوقف « جان » عند الباب وهو ينظر الى ثلاثتهم ثم خرج •
وجلس « بيجر » على حافة سريره •• وسمع وقع أقدام « جان » وعو
يهبط السلم ثم صوت باب •• ثم ساد الصمت • ورأى « بيجر » أن
المستر « دالتون » يحدق الى وجهه بطريقة غريبة ، ولم تعجبه نظرته •
ولكن « بريتن » كان يدون شيئا فى ورقة صغيرة وقد شحّب وجهه
وارتسمت حلية الصلابة تحت ضوء المصباح الأصفر • وسأله « دالتون »

– هل قلت الحقيقة حول هذا الموضوع يا بيجر ؟

– نعم ياسيدى •

وقال « بريتن » :

– لا بأس عليه •• هيا بنا الى « التليفون » • سوف أطلب القبض
على هذا الرجل لاستجوابه فهو الشئ الوحيد الذى ينبغى أن يحدث الآن
•• وسوف نطلب من بعض الرجال أن يبحثوا داخل حجرة الأنسة
« دالتون » •• وسوف نعرف ما حدث •• وأراهنك على ذراعى الأيمن
أن هؤلاء الحمر الملعين يدبرون شيئا •

وخرج « بريتن » وتبعه المستر « دالتون » تاركين « بيجر » وهو
لا يزال جالسا فوق حافة السرير •• وعندما سمع الباب يصفق خلفهما
نهض والتقط قبعته وهبط السلم الى « البدروم » فى هدوء ثم وقف
لحظة ينظر من خلال فرجات باب الموقد الى النار المتأججة بداخله وقد
ازداد احمرارها وتوهجها • ولكن الى متى ستظل هكذا ان لم يهز الفحم
ليتساقط الرماد ؟ وتذكر آخر مرة حاول فيها أن يفعل ذلك ثم نكص
بطريقة « هستيرية » • فى المرة التالية ينبغى أن يحسن عمله أكثر من
ذلك • وتوقف ولمس رافعة صندوق الفحم بأصابع يده اليمنى وهو
ينظر اليها فى حرص •• وتصور أنه اذا حرك الرافعة فقد يرى قطعا من
العظام تسقط داخل الصندوق •• وأدرك أنه لن يحتمل رؤيتها حينئذ ،
فاعتدل فى وقفته فى حركة سريعة وتراجع نحو الباب وقد لسعته ألسنة
حارقة من الخوف والاحساس بالجرم •• ووجد نفسه عاجزا عن أن
يفعل ذلك خشية منه على حياته ، ولكن ، هل هذا ضرورى كلا ••
وحاول أن يطمئن نفسه بأنه قد أصبح فى أمان وبأن أحدا لن يفحص

الموقد من الداخل . ولماذا يفعلون ذلك ؟ ان أحدا لا يشك في أمره . .
والأمور كلها تجري على مايرام ، ويستطيع من ثم أن يكتب خطاب الفدية
ويحصل على النقود دون أن يقلق باله الرماد المتخلف عن احتراق
الفحم . . وقبل أن يكتشف أحد أن « ماري » قد لقيت مصرعها وأحرقتهما
النيران . ثم خرج الى الممر المخصص للسيارة وهو يسير تحت الثلج
المتساقط . . يجب أن يقابل « بيسي » في الحال ، ويجب أن يرسل
خطاب الفدية على الفور دون أن يضيع الوقت . وإذا افتقده « بريتن »
أو المستر « دالتون » أو « بيجي » ، . . وإذا سأل أحدهم عنه فسوف
يقول انه خرج لبيتنا علبه سجائر . وعلى أية حال فان أحدا لن يفكر
فيه وسط هذا الجو من الاضطراب . . فهم الآن يهتمون بـ « جان » . .
وهو في أمان ولاشك .

— « بيجر » .

وتوقف ودار على عقبيه وامتدت يده الى داخل قميصه تمسك
بالمسدس . . ورأى « جان » يقف عند باب أحد المتاجر . . واقترب
« جان » من « بيجر » فتراجع الأخير . ثم وقف « جان » وهو يقول :
— بحق المسيح . لا تخف مني . . أنا لن أؤذيك .

وواجه كل منهما الآخر في الضوء الأصفر لمصباح من مصابيح
الانارة بالشارع والثلج يتساقط في بطء وكأنه يقيم ستارة رقيقة
بينهما ، وكان « بيجر » لا يزال يضع يده داخل قميصه ويمسك
بالمسدس وظل « جان » يحدق اليه وغمه مفتوح :

— ماذا حدث يا بيجر ؟ أنا لم أرتكب خطأ في حقك . . أليس
كذلك ؟ أين « ماري » ؟

وأحس « بيجر » بوطأة الجرم . . ان وجود « جان » يؤكد اتهامه ،
وبالرغم من ذلك فقد كان يعرف أنه لا سبيل أمامه الا أن يتصرف كما
كان يتصرف من قبل . فتمتم قائلا :

— لا أريد أن أتحدث معك .

فقال « جان » في يأس :

— ولكن ما الذي ارتكبته في حقك ؟

ان « جان » لم يرتكب شيئا في حقه . . بل ان براءته هي التي تثير
غضب « بيجر » . . وتصلبت أصابعه على المسدس وعاد يقول :

— لا أريد أن أتحدث معك ..

وأحس بأنه اذا ظل « جان » واقفا هكذا يزيد من شعوره بالذنب ،
فقد يضطر الى أن يطلق عليه الرصاص بالرغم منه .. وبدأ جسده
يرتعش وانفجرت شفثاه .. واتسعت عيناه .. وقال :

— ابتعد عني ..

— اسمع يا « بيجر » .. اذا كان هؤلاء القوم يضايقونك ، فقل
لى . لا تخف .. فقد تعودت أن أصادف أمورا كهذه .. والآن اسمعنى
جيذا .. فلنذهب معا الى مكان نتناول فيه قهحين من القهوة رتحدث
حول هذا الموضوع .

واقترب « جان » من « بيجر » الذى أخرج مسدسه . وتوقف
« جان » وقد ابيض وجهه .

— ماذا تفعل يارجل .. ؟ بحق الرب، ماذا تفعل ؟ .. لا تطلق
النار .. أنا لم أضايقك .. لا تطلق .

وصاح « بيجر » فى « هستيرية » :
— دعنى وشأنى .. دعنى وشأنى .. دعنى وشأنى قلت لك .

وابتعد « جان » .

وعاد « بيجر » يقول فى صوت أقرب الى الصراخ :

— دعنى وشأنى .

وتراجع « جان » ثم استدار وانطلق يسير بسرعة وهو ينظر خلفه ،
وعندما وصل الى « الناصية » انطلق يجرى وسط الثلوج حتى اختفى
على حين وقف « بيجر » والمسدس فى يده . ولحظتها نسى من يكون ..
على حين لايزال يحدق الى المكان الذى رأى فيه « جان » يتراجع لآخر مرة .
واستبد التوتر بجسده حتى هبطت ذراعه الى جنبه والمسدس لايزال فى
يده . وبدأ يتنبه ، وأحس بأنه كان خلال الدقائق الثلاث التى انقضت
واقعا تحت وطأة لعنة غريبة وقوة يكرهها ولكنه لا يملك الا أن يستسلم
لها . وجفل عندما سمع وقع أقدام رقيقة تقترب منه . واستدار فرأى
امراة بيضاء ما ان وقع بصرها عليه حتى توقفت ثم استدارت فجأة
وانطلقت تعدو عبر الشارع . ودس « بيجر » المسدس فى جيبه وانطلق
هو الآخر يعدو نحو « الناصية » ، ثم نظر خلفه ورأى المرأة تختفى وسط
الثلوج فى الاتجاه المقابل .

وتابع سيره وهو يحس بإرادة جامدة تقوده .. يجب أن ينهى الأمر ويعمل بسرعة فقد رأى فى «جان» اصرارا أقوى مما كان يتصوره ، وإذا كان ينوى أن يرسل خطاب الفدية فينبغى أن يفعل ذلك قبل أن يتمكن « جان » من اثبات براءته التامة . ولم يهتم « بيجر » فى تلك اللحظة بأنه من المحتمل أن يقبض عليه . فيكفيه فحسب أن يجبر كلا من « جان » و « بريتين » على أن ينحنيا فى احترام وخوف أمامه وأمام بشرته السوداء .. وأخلاقه الوضيعة .

واقترب من احدى « النواصى » ودخل محلا اقترب منه صاحبه الأبيض فقال له :

— أعطنى « مظروفا » وورقا وقلما .

ودفع الثمن ، ووضع الحزمة فى جيبه وعاد الى « الناصية » ينتظر السيارة وأقبلت احدى السيارات العامة فقفز الى داخلها متجها الى الشرق وهو يفكر فيما يمكن أن يكتبه فى الخطاب . ثم جذب جرس السيارة لكى تقف .. ونهض .. وخرج منها الى شوارع الزنوج الهادئة ، وسار وهو يمر من حين لآخر بمبنى من المباني الخالية البيضاء الساكنة فى ظلام الليل . فى مقدوره أن يجعل « بيسى » تختفى داخل واحد من هذه المباني لتراقب سيارة المستر « دالتون » .. ولكن المباني التى مر بها كانت قديمة متداعية ربما انهضت اذا دخلها أحد . وتابع سيره يبحث عن مبنى تستطيع « بيسى » أن تقف باحدى نوافذه لترى حزمة النقود حين يلتقى بها « دالتون » من السيارة .. ووصل الى طريق « لانجلي » واتجه غربا الى طريق « ووباش » حيث تقع مجموعة من المباني الخالية ذات النوافذ السوداء وكأنها عيون لا تبصر ، .. مبان مثل الهيكل تنتصب والثلوج تغطى عظامها تحت رياح الشتاء . ولكن شيئا من هذه المباني لم يكن على « ناصية من النواصى » ، وأخيرا رأى فى طريق « ميتشيجان » والشارع السادس والثلاثين المبنى الذى يريده .. مبنى مرتفعا أبيض هادئا يقع على « ناصية » جيدة الاضاء وتستطيع « بيسى » أن ترى من خلال أى نافذة من نوافذه كل مايدور فى كل اتجاه . أوه . يجب أن يحصل على بطارية . واتجه الى أحد المحال وابتاع واحدة بدولار .. وبحث فى جيبه الداخلى عن قفازيه . الآن أصبح مستعدا .. عبر الشارع ووقف ينتظر سيارة وقد سرى البرد فى قدميه .. وحوله آخرون ينتظرون السيارة مثله . ولم يحاول النظر اليهم .. فقد كانوا جميعا أناسا عميا « بسطاء » ، عميا مثل أمه وأخيه وأخته ، ومثل

« بيجي » و « برتين » ٠٠ و « جان » ومستر « دالتون » ٠٠ ومسر « دالتون » الضريرة ٠٠ ومثل هذه البيوت الفارغة بنوافذها السوداء .

واتجه ببصره فى أرجاء الشارع ورأى « لافتة » فوق أحد المباني كتبت عليها عبارة : « من أملاك شركة عقارات الحى الجنوبي » . لقد سمع أن المستر « دالتون » هو الذى يملك هذه الشركة ٠٠ والشركة تملك هذه البيوت التى يسكن فى واحد منها ، انه يدفع ثمانية دولارات فى الأسبوع أجرا لحجرة واحدة تزخر بالفئران ٠٠ وهو لم ير مستر « دالتون » قبل أن يقابله ليعمل عنده ، وأمه تحمل الايجار دائما وتدفعه فى مكتب الشركة ٠٠ لقد كان المستر « دالتون » مخلوقا رقيقا ٠٠ عظيما ٠٠ يمتلك الكثير على طول « الحزام الأسود » (المنطقة التى يسكنها السود) ٠٠ ويمتلك أيضا الكثير فى الأحياء التى يسكنها البيض ٠٠ ولكن « بيجر » لم يكن ليستطيع أن يسكن فى مبنى يقع خلف ذلك الحزام ٠٠ وبالرغم من أن المستر « دالتون » منح ملايين الدولارات لمؤسسات تعليم الزنوج فانه لم يكن يسمح بتأجير منازل للزنوج فى غير تلك المنطقة المحدودة من المدينة ٠٠ المنطقة التى هوى بها التهرؤ والفساد ٠٠ ولقد كان « بيجر » يحس بكل ذلك فى أعماقه ٠٠ نعم ، لسوف يرسل خطاب الاختطاف ٠٠ ولسوف يخرج هؤلاء البيض عن صوابهم .

ووصلت السيارة ، واستقلها جنوبا ثم غادرها فى الشارع الحادى والخمسين واتجه الى منزل « بيسى » واضطر الى أن يقرع الجرس خمس مرات قبل أن يتلقى الرد . ياللعنة ، لابد أنها الآن ثملة للغاية ٠٠ وصعد فى السلم ورآها تطل من فرجة الباب بعينين حمراوين من أثر النوم والكحول ٠٠ وعاوده الشك والخوف منها ٠٠ وأثار غضبه .

— بيجر ؟

— ادخل .

وتراجعت وقد فغرت فاهها من الدهشة وقالت :

— ماذا حدث ؟

— دعينى أدخل . افتحى الباب .

وفتحت الباب على مصراعيه وهى تتعثر فى حركتها .

— أضيئى المصباح .

— ماذا حدث يا بيجر ؟

- كم مرة تريد أن أطلب منك أن تضيئي المصباح ؟

• وأضاءت المصباح

- أسدلى الستائر

وأسدلتها .. ووقف هو ينظر إليها « لا أريد الآن متاعب تأتيني من ناحيتها » واتجه ناحية « التسريحة » وأزاح أمشاطها « وفرشاتها » جانبا وأخرج اللفافة من جيبه ووضعها أمامه .

- ييجر

ونظر إليها وقال :

- ماذا ؟

- أنتوى حقا أن تفعل ذلك ؟

- وماذا تظنين غير ذلك بحق الجحيم ؟

- لا .. لا ياييجر

وأمسك ذراعها وضغطه بكل مافي صدره من خوف وكراهية وقال :

- لعلك تريد أن تتراجعى الآن .. ليس الآن .. عليك اللعنة

ولم تقل شيئا . فخلع قبعته ومعطفه وألقى بهما فوق السرير .
- انهما مبتلان ياييجر ؟

- ثم ماذا ؟

- لن أشارك فى هذه المسألة .

- بل ستشتركين

- لا تستطيع أن تجبرنى على ذلك .

- لقد ساعدتنى من قبل على سرقة هؤلاء الذين يعملين عندهم
بالقدر الذى يكفى للزج بك الى السجن .

ولم تجبه .. وأدار هو بصره عنها وجذب مقعدا بالقرب من « التسريحة » ثم فض اللفافة وكور الورقة ثم قذف بها الى ركن من أركان الحجرة .. ودون أن تدري ماذا تفعل ، قفزت « بيسى » لكى تلتقطها فضحك « ييجر » فاعتدلت فجأة . نعم ، لقد كانت « بيسى » هى الأخرى عمياء .. هو على وشك أن يكتب خطاب الاختطاف وهى تهتم فحسب بنظافة الحجرة .

وسألته « بيسى » :

- ماذا حدث ؟

- لا شيء .

وكان يبتسم فى غيظ . ثم أخرج القلم من اللقافة ولم يكن مبريا .

- أعطنى سكيناً .

- أنيس معك سكين ؟

- نعم . . أعطنى سكيناً .

- وماذا فعلت « بمطواتك » ؟

ونظر إليها فى امعان . . وتذكر أنها تعرف أن لديه « مطواة » .

وعاودته صورة سلاح المدينة الملوث بالدماء تحت وهج لهب الموقد . .
وسرى الخوف فى بدنه .

- هل تريدنى منى أن أصفعك ؟

واتجهت خلف الستارة وجلس هو ينظر الى الورقة والقلم . ثم
مالبتت أن عادت وفى يدها سكين ذبح .

- بيجر . . أرجوك . لا أريد أن أشترك فى هذه المسألة .

- ألدك شىء من الحمر ؟

- نعم .

- حسن اشربى منه قليلا وعودى الى سريرك واستقرى فى هدوء .

ووقفت دون أن تدري ماذا تفعل ، ثم مالبتت أن أخرجت الزجاجاة
من تحت الوسادة وبدأت تشرب . واستلقت على بطنها فوق السرير وقد
اتجهت اليه ببصرها ، على حين ظل هو يثطر إليها من خلال مرآة
« التسريحة » . . وهى القلم كما ينبغى ثم بسط الورقة أمامه وتهى للبدء
فى الكتابة ثم تذكر فجأة أنه لا يرتدى القفاز . ياللعنة .

- أعطنى قفازى .

- « هه » ؟

- أخرجى قفازى من جيب معطى .

وترنحت . . ونهضت لتحضر القفاز . . ثم عادت به ووقفت خلفه

وهى تمسك به بيدين واهيتين .

- هاتى .

- بيجر .

- هذه آخر مرة أطلب منك فيها أن تغلقى فمك .

ثم أزاح السكين جانبا حتى يستطيع أن يكتب .

ودس يده فى القفاز وأمسك القلم بأصابع مرتعشة . . يجب أن
يغير من خطه . . وأدار القلم من يده اليمنى الى يده اليسرى . . يجب
أيضا ألا يكتب بالطريقة المعتادة ، بل سيكتب بطريقة الحروف المتفرقة .
وازدرد لعبه بحلق جاف ، الآن ، . . كيف يكتب رسالة جيدة ؟ أخذ
يفكر . . اننى أمرك بأن تضع عشرة آلاف . . كلا ليس هكذا . لا ينبغي
أن يقول « اننى » . . ولكن الأفضل أن يقول « نحن » . . وبدأ يكتب
ببطء بحروف ضخمة « ان ابنتك فى أيدينا » . . نعم . . هكذا . . يجب
أن يقول شيئا يظن معه المستر « دالتون » أن ابنته لاتزال حية ترزق . .
وتابع الكتابة : « وهى فى أمان » . . والآن ، يجب أن يأمره بالأخبار
الشرطة . كلا ، يجب أولا أن يقول له شيئا عن مارى ، وانحنى يتابع
الكتابة : « وهى تريد أن تعود الى بيتها . . » الآن يستطيع أن يأمره بالأخبار
يخبر الشرطة : « لا تلجأ الى الشرطة اذ كنت تريد أن تعود اليك ابنتك
سليمة » كلا ، . . ليس هكذا . . وأحس « بفروة » رأسه تقشعر من
الاضطراب ، وخيل اليه أنه يستطيع أن يحس بكل شعرة فى رأسه وقد
وقفت . . وعاد يقرأ ماكتب . . ومسح كلمة « سليمة » ووضع مكانها
كلمة « حية » . . وأحس للحظات بأنه تجمد ، وبأن هناك حركة بطيئة
باردة تنقلص لها معدته . . ولكنه مالبث أن تماسك وركز انتباهه على
الكتابة ، والآن ، ماذا يكتب عن النقود ؟ . . أى مبلغ ؟ نعم . . فلتكن
عشرة آلاف « احضر عشرة آلاف دولار من فئتي الخمسة والعشرة وضعها
فى صندوق من صناديق الأحذية . . » هذا رائع . . فقد قرأ مثل هذا
من قبل . . « واتجه بسيارتك غدا فى الليل الى طريق ميتشيغان فى
المسافة مابين الشارع الخامس والثلاثين والشارع الأربعين » . . فذلك
لن يتيح لأحد أن يعرف أين ستكون « بيسى » . . ثم عاد يكتب : « ثم
خفف أضواء السيارة ، وعندما ترى ثلاث ومضات فى احدى النوافذ . .
ألق بالصندوق فوق الثلج وتابع السير . . افعل ما هو مدون فى هذا
الخطاب » الآن يستطيع أن يوقع الخطاب . . ولكن بماذا يوقع ؟ . . يجب
أن يتم التوقيع بطريقة تبعدهم عن الأثر . . آه . . نعم . . سيكون التوقيع
بكلمة « الحمر » . . وكتب الكلمة . . ثم مالبث أن أحس بأن ذلك ليس

كافيا . آه . نعم . . يجب أن يرسم الى جوار هذا التوقيع تلك الشارة
التي رآها مطبوعة فى المنشورات الشيوعية . وحاول أن يتذكر شكلها ،
كانت هناك مطرقة بداخل سكن دائرية . وبدأ يرسم المطرقة ويحيطها
بالسكين الدائرية الشكل . . ولكنها لم تعجبه ، فأخذ « يفحصها » فى
امعان حتى أدرك أنه نسى أن يرسم مقبض السكين . . فرسمه . كل
شئ كامل الآن . . وعاد يقرأ . أوه . لقد نسى شيئا . . الوقت الذى يريد
أن يحضروا النقود فيه . . وعاد ينحنى ويكتب : « ملحوظة : أحضر
النقود فى منتصف الليل تماما » . . وتنهى بعمق . . ورفع بصره ورأى
« بيسى » تقف خلفه فاستدار نحوها على حين همست هى فى ذعر :

— بيجر . . أتتوى حقا أن تفعل هذا ؟

— بالتأكيد .

— أين الفتاة ؟

— لست أدري .

— بل أنت تدرى . فلم تكن لتفعل هذا لو لم تكن تدرى .

— أوه . . وهل يغير هذا من الأمر شيئا ؟

ونظرت الى عينيه . . ثم قالت هامسة :

— بيجر . . هل قتلت هذه الفتاة ؟

وأحس بفكيه يتصلبان . . فنهض واقفا وابتعدت هى عنه وقذفت
بنفسها فوق السرير وراحت تبكى . وبدأ « بيجر » يحس بالبرودة
تتسلل اليه واكتشف أن العرق يكسو جسده كله . . وسمع حفيفا
خافتا وأرخت بصره فرأى الخطاب يهتز بين أصابعه المرتعشة . . وقال
لنفسه : « ولكننى لست خائفا » ثم طوى الخطاب ووضعه داخل الغلاف
وألصقه بعد أن بلل طرفه بلسانه ثم دسه فى جيبه . . وحاول أن يكلم
« بيسى » ولكنه وجد صعوبة فى النطق . . من حلق بالغ الجفاف . .
وأخيرا استطاع أن يهمس :

— هيا . . هيا يابنت . .

— بيجر . . ماذا أصابك ؟

— لا شئ . . لن تفعل شيئا كبيرا .

— لا أريد .

— لا تخافى .

- لقد قلت لى من قبل انك لن تقتل أحدا .
- أنا لم أقتل أحدا .
- بل قتلت ، . أستطيع أن أرى ذلك فى عينيك . . فى كل تصرفاتك .

- ألا تثقين بى ياطفتى ؟
- أين الفتاة يا بيجر ؟
- لا أدرى .
- فكيف عرفت اذن أنها لن تعود ؟
- لأنها لن تعود .
- أنت قتلتها .
- أوه . . انسى هذه الفتاة .
- ووفقت « بيسى » وقالت :

- اذا كنت قد قتلتها فسوف تقتلنى أنا أيضا . . أنا لست معك فى هذه المرة .
- لا تكونى غبية . . فأنا أحبك .
- لقد قلت لى انك لن ترتكب جريمة قتل أبدا .
- حسنا . . انهم من البيض . . ولطالما قتلوا الكثيرين منا .
- هذا لا يبرر فعلتك .

وبدأ يشك فيها ، فلم يسبق له أن سمع تلك اللهجة من قبل فى صوتها . ورأى عينيها الدامعتين تنظران اليه فى خوف . . وتذكر أن أحدا لم يره وهو يغادر حجرته . . ومن السهل أن يقضى على « بيسى » الآن بعد أن عرفت كل شيء . . يستطيع أن يمسك بسكين الذبح ويقطع عنقها ، فمن الضروري الآن أن يأمن جانبها بطريقة أو بأخرى قبل أن يعود الى بيت آل « دالتون » . واقترب منها بسرعة وقد شدد قبضتيه وأحس بمثل ما أحس به وهو يقف الى جوار سرير « ماري » عندما اقترب منه الشبح الأبيض . . وكان من الممكن فى تلك اللحظة أن يدفعه مزيد من الخوف الى أن يرتكب جريمة أخرى .

- لا أريد منك هزلا ابتداء من الآن .
- أنا خائفة يا بيجر .

وحاولت أن تنهض ، وأدرك هو أنها رأت النظرات المجنونة في عينيه ، وأحس بالخوف يحرق جسده .. فقال فى همس كالفحيح :

- لا تتحركى .. أنا لا أهزل الآن .. اسمعى يا جميلتى .. ربما اقتفوا أثرى وطاردونى وأنا لن أسمح لهم بالقبض على .. أفهمت ؟ لن أسمح لهم .. وأول شئ سيفعلونه عندما يقتفون أثرى هو أن يجيئوا اليك هنا .. ولنسوف يطحنونك بالأسئلة حول وحولك وأنت أيتها السكيرة الحمقاء سوف تقولين حينئذ كل شئ .. سوف تقولين كل شئ .. سوف تقولين كل شئ لتتقذى نفسك .

وكانت تبكى بحرقة .. وقد أجمها الخوف حتى عن أن تصرخ .. ثم همست :

- لا .. لا يابيجر .

- هل ستفعلين ما أمرك به .

وتخلصت منه .. وتدحرجت فوق السرير ثم وقفت الى الجانب الآخر منه فأسرع يجرى حول السرير وتبعها الى ركن الحجرة وقال فى صوت صدر كالصفير :

- لن أدعك ورائى لكى « تلعبى بذيالك » .

- لن أفعل شيئا .. أقسم لك أننى لن أفعل .

واقترب بوجهه من وجهها .. وأحس بأنه مضطر الى أن يربط مصيرها بمصيره .. فقال :

- نعم .. لقد قتل الفتاة .. الآن عرفت . وعليك أن تساعدنى أنت فى « اللعبة » بقدر ما أنا فيها .. لقد أنفقت بعض تلك النقود .

وارتمت مرة أخرى على السرير وهى تنشج بالبكاء وأنفاسها تتعثر فى حلقها ، على حين وقف هو ينظر اليها وينتظر الى أن تهدأ .. وعندما تمالكت نفسها جذبها فنهضت واقفة .. ثم وضع يده تحت الوسادة وأخرج الزجاجة ورفع سدأها ، ثم وضع يده الأخرى حول عنقها وقرب وجهها الى الزجاجة وهو يقول :

- اشربى قليلا ..

- لا

- اشربى

ودفع بفوهة الزجاجة بين شفثيها فرشفت رشفة • وعندما حاول
أن يبعد الزجاجة أخذتها من يده •

– هذا يكفى الآن •• حتى لا تغيبى عن الوعى •

وحررها من قبضة يده فعاتت ترتعى فوق السرير كالمشلولة وتبكي
وانحنى بيجر عليها وقال :

– اسمعى يا « بيسى »

– بيجر •• أرجوك • لا تفعل هذا معى • أرجوك • ان حياتى كلها
عمل فى عمل •• أنا أعمل مثل الكلبة من الصباح حتى الليل لم أعرف
السعادة فى حياتى •• ولم أكسب شيئا • أنا لم أكسب شيئا فى حياتى
وأنت تفعل هذا معى ، مع أننى كنت دائما طيبة معك • والآن، هأنثدا
تفسد حياتى كلها ، لقد فعلت من أجلك كل شىء فى وسعى ، وأنت تفعل
هذا معى • أرجوك يا بيجر • ثم أدارت رأسها بعيدا وأرخت بصرها الى
الأرض وعادت تقول :

– يا الهى •• لا تجعل ذلك كله يحدث لى •• فأنا لم أفعل شيئا
أستحق عليه ذلك •• فأنا لا أكف عن العمل • أنا لم أعرف السعادة ••
بل لم أعرف أى شىء كل ما أفعله هو أن أعمل وأعمل •• اننى سوداء ••
وأعمل ولا أؤذى أحدا •

وهز « بيجر » رأسه •• كان يعرف أنها صادقة فى كل ما تقول ••
ثم ما لبث أن قال :

– أكملى •• أكملى وانظرى اذا كان ذلك سيفيدك •

– ولكننى لا أريد أن أفعل هذا يا بيجر • سوف يقبضون علينا •
يعلم الله أنهم سوف يقبضون علينا •

– لن أدعك هنا لكى تخونينى •

– لن أتكلم • بشرفى • لن أتكلم • هأنذا أرسم الصليب على قلبى
وأقسم بالله أننى لن أتكلم • وتستطيع أنت أن تهرب •

– ليس معى نقود •

– بل معك نقود • لقد دفعت الايجار وابتعت بعض الحمر من
النقود التى أعطيتنيها ، ولكن باقى المبلغ هناك •

- انه لا يكفي .. يجب أن أحصل على مبلغ حقيقي .
 وعادت تبكي .. فأمسك بالسكين . وانحنى فوقها :
 - أستطيع أن أوقف هذا البكاء في الحال .
 ونظرت اليه في هلع وقد فتحت فمها لتصرخ .
 - اذا صرخت فسوف أقتلك . وليساعدني الله .
 - لا يا بيجر . لا . لا تقتلني . لا تقتلني .
 وفي بطاء .. ارتخي ذراعه الى جنبه .. فعادت هي تبكي . وخشى
 هو أن يضطر الى قتلها قبل أن تنتهي « اللعبة » .. انها قد - تنكص على
 عقبيها ، وهو لا يستطيع أن يتركها وراءه ..
 - حسن .. ولكن يجب أن تتصرفي بتعقل .
 ووضع السكين فوق « التسريحة » وأخرج البطارية من جيب معطفه
 ثم عاد وانحنى نحوها وقد أمسك الخطاب والبطارية في يده .
 - هيا انهضي .. وضعي معطفك فوق كتفيك .
 - ليس الليلة يا بيجر . ليس الليلة .
 - لن يكون هناك شيء الليلة . ولكن يجب أن أريك ماذا ستفعلين .
 - ولكن الجو بارد .. ان الثلج يتساقط .
 - أعلم هذا . ولن يرانا أحد . هيا .
 وتحاملت على نفسها .. ورآها ترتدى معطفها بصعوبة وهي تنظر
 اليه من حين لآخر وتمسح دموعها . وعندما ارتدت المعطف ارتدى هو
 الآخر معطفه ووضع قبعته فوق رأسه وخرجا الى الشارع ، وكان الثلج
 يتساقط كثيفا والرياح تهب بقسوة كأنها اعصار ، ومصابيح الانارة تلقى
 أضواؤها الصفراء الخافتة على أرض الشارع المغطى بالثلج . وسار الاثنان
 حتى بلغا « الناصية » وانتظرا قدوم السيارة .
 وقالت « بيسي » :
 - كنت أفضل أن أفعل أى شيء الا هذا .
 - كفى الآن .. لقد أصبحنا في صميمها .
 - بيجر يا حبيبي . طالما اشتركت معك .. وعملت من أجلك
 يا طفلي العزيز ، وليس هناك ما يدعو الى أن نقدم على هذا العمل . ألا
 تصدق اننى احبك ؟

• لا تحاولى التأثير على الآن •

ووصلت السيارة فساعدتها على الصعود اليها وجلس الى جوارها ينظر خلال النافذة الى الثلج الأبيض المتساقط فى صمت ، ثم أدار بصره نحوها فرآها تحديق بعينين فارغتين مثل امرأة عمياء تنتظر كلمات تدلها الى أين تذهب •• ولمحها تبكى فضغط على كتفها بقوة حتى توقفت وقد ألمها ضغط أصابعه الفولاذية أكثر من أن يؤلمها التفكير فى مصيرها •• وخرجا من السيارة عند الشارع السادس والثلاثين وسارا فى طريق « متشيجان » حتى انتهيا الى « ناصية » توقف عندها « بيجر » وأوقفها معه بأن ضغط على ذراعها • ووقف الاثنان فى مواجهة مبنى أبيض خال ذى نوافذ سوداء •

– الى أين سنذهب ؟

– هنا •

وانتجبت « بيسى » وهى تستعطفه :

– بيجر ••

– هيا هيا • لا تستأنفى الاسطوانة •

– ولكنى لا أريد ••

– لا بد أن تفعلى ••

ونظر حوله فى أرجاء الشارع الممتد على طوله مصابيح كالأشباح تلقى سلسلة من الأضواء التى تبدو كمخروطات صفراء حين تصطدم أشعتها بالثلج المتساقط ، وقادها نحو المدخل الأمامى الذى يؤدى الى بحيرة واسعة ساكنة من الصمت المظلم ، ثم أخرج البطارية وركز ضوءها على سلم يؤدى الى « الطوابق » العليا وسط ظلمة أشد •• وكانت عوارض السلم تحدث صريرا تحت وقع أقدامهما •• وكان يحس من حين لآخر بأن حذاءه يغوص فى مادة هشة وبأن خيوط العنكبوت تداعب وجهه ، على حين تغمر المكان رائحة الحشب العطن • وتوقف فجأة عندما اعترضت طريقه قطة أفزعت بيسى فصرخت فى ذعر ودار « بيجر » على عقبه وركز ضوء البطارية على وجه « بيسى » فرآها قد فغرت فاهها ورفعت يديها الى وجهها •

– ما هذا ؟ تريدان أن تعرف الدنيا كلها أننا هنا ؟

– أوه •• بيجر

– هيا •• تقدمى

وسارا خطوات قليلة ثم توقف ووجه ضوء البطارية حوله فرأى
حوائط متربة تشبه الى حد كبير حوائط بيت آل « دالتون » . . . وكانت
الأبواب أكثر اتساعا من أبواب أى بيت رآه طوال حياته . « لابد أن
قوما من الأثرياء كانوا يسكنون هنا » قوما من البيض الأثرياء . هكذا
معظم بيوت الحى الجنوبي ، قديمة مزخرفة عاش فيها يوما أغنياء البيض
ويعيش فيها اليوم زنوج فقراء أو بقبت مظلمة خالية بنوافذها السوداء
بلا « درف » . وتذكر أن القنابل ألقيت مرة على هذه البيوت عندما تحرك
الزنوج لأول مرة الى الحى الجنوبي . . . وحرك « بيجر » البطارية فى يده
وسار عبر ردهة انتهت الى حجرة فى الجزء الأمامى من البيت يغمرها ضوء
شاحب ينتهى اليها من مصابيح الانارة فى الشارع . وأطفأ ضوء البطارية
ونظر حوله . كانت حجرة ذات نوافذ ست كبيرة اذا أطل المرء من واحدة
منها استطاع أن يكشف الشوارع باتجاهاتها الأربعة بوضوح .

— أرايت يا بيسى . .

واستدار ينظر اليها فلم يجدها فصاح فى اضطراب .

— بيسى . .

ولم يتلق جوابا . . . فهرع الى الباب وأضاء البطارية فوجدها تستند
الى الحائط وهى تبكى ، واقترب منها وأمسك بذراعها وجذبها معه الى
داخل الحجرة .

— هيا . . ينبغي أن تكون تصرفاتك أفضل من هذا .

— لعله من الأفضل أن أدعك تقتلنى الآن .

— لا تقولى هذا مرة أخرى .

وسكنت على حين رفع هو راحة يده المفتوحة فى حركة خاطفة تجاه
وجهها وقال :

— هل تريدن أن أوقفك جيدا ؟

حنت رأسها بين ركبتيها فعاد يمسك بها ويجرها الى النافذة وقال
وهو يلهث :

— الآن اسمعى جيدا . كل ما عليك أن تفعله هو أن تحضرى الى
هنا فى الليلة القادمة . أفهمت ؟ لن يضايقك شيء . لقد رتبت كل شيء
فلا تقلقى اذن . افعلى فحسب ما أمرك به . . . ستحضرين الى هنا وتراقبين

الشوارع وسوف تمر سيارة فى حوالى الثانية عشرة ٠٠ وسوف تخفف أضواءها ٠٠ أفهمت ؟ وعندما تصل السيارة فليس عليك سوى أن ترفعى هذه البطارية وتضيئها ثلاث مرات ٠٠ أفهمت؟ هكذا تذكى هذا جيدا، ثم راقبى السيارة التى سوف تلقى خارجها بلقافة ، راقبى هذه اللقافة فسوف تحتوى على النقود بداخلها ، وسوف تسقط اللقافة فوق الثلج ، وعليك أن تلاحظى ٠٠ اذا كان أحد بالقرب من مكانها ٠٠ فاذا لم يكن هناك أحد فاهبطى بسرعة وخذى اللقافة معك الى البيت . ولكن لا تذهبى الى البيت على الفور ، بل عليك أن تتيقنى أن أحدا لا يتبعك ، أفهمت ؟ استقلى ثلاث أو أربع سيارات وابتعدى قدر ما تستطيعين ثم غادرى آخر سيارة على بعد خمس مجموعات من المباني من البيت ثم انظرى خلفك وأنت تسيرين ٠٠ أفهمت ؟ والآن ٠٠ انتبهى جيدا الى ما أقوله : يجب أن تراقبى طريق « ميتشجان » والشارع السادس والثلاثين وتتيقنى أن أحدا لا يتبعك ، وسوف أكون أنا فى بيت « دالتون » طوال اليوم فاذا عرفت أنهم سيكلفون أحدا المراقبة أخطرتك على الفور .

— ببجر ٠٠

— هيا ٠٠ ماذا بك ؟

— عد بى الى البيت

— هل أنت معى ؟

ولم تحر « بيسى » جوابا ٠٠

— لقد أصبحت معى بالفعل ٠٠ فقد أخذت جزءا من المبلغ .

وتنهدت « بيسى » وقالت :

— أعتقد أن الأمر لا يهم الآن

— سوف يكون الأمر سهلا .

— ٠٠ أبدا ٠٠ لن يكون سهلا . سوف يقبضون على ولكن هذا

لا يهم ٠٠ أينما كان الأمر فقد ضعت . لقد كنت ضائعة حين عرفتك ، وأنا الآن ضائعة . ولم يختلف الأمر اذن .

— هيا ٠٠

وعاد بها الى موقف السيارات ووقفا ينتظران دون أن يقول شيئا . وعندما سمع صوت السيارة تقترب أخذ منها كيس نقودها وفتحها ووضع البطارية بداخله ، وتوقفت السيارة وساعدها على الصعود ثم وضع سبعة

سنتات فى يدها المرتعشة ووقف تحت الثلج المتساقط ينظر من خلال النافذة الى وجهها الأسود حتى تحركت السيارة فى ببطء .. ثم انطلقت فى ظلام الليل ..

وسار « بيجر » متجها الى بيت آل « دالتون » تحت الثلج المتساقط وقد وضع يده فى جيب معطفه يتحسس الحطاب ، وعندما وصل الى ممر السيارة أجال بصره فى أرجاء الشارع .. ولم ير أحدا . وتطلع نحو البيت .. ورآه صامتا ساكنا ، فصعد فى السلم ووقف أمام الباب وانتظر لحظة ليرى ما يمكن أن يحدث وهو يحس بأنه مقبل على انتهاك واحدة من المحرمات الخطيرة وبأن كل فضاء السماء لا يلبث أن ينطق ويأمره بأن يكف ويتوقف .. لقد كان يسبح سريعا فى وجه ريح باردة تمتص أنفاسه .. ولكنه كان سعيدا بذلك . وحوله ، كان الصمت والليل والثلج المتساقط كأنما هو يتساقط منذ الأزل وسيظل يتساقط الى الأبد . وأخرج « بيجر » الحطاب من جيبه ودفع به من تحت « عقب » الباب ، ثم استدار يهبط السلم عدوا ، وظل يعدو حول البيت . لقد فعلتها .. الآن فعلتها .

ولسوف يرون الحطاب الليلة أو غدا صباحا .. واتجه الى باب « البدروم » وفتحه وأطل داخله ولم يجد أحدا . وكان الموقد يبور باللهب كوحش غاضب ويلقى بأضوائه الحمراء اللاهبة فوق كل شئ .. ووقف يتطلع الى جمرات الفحم المشتعل من خلال فرجات الموقد . ترى ، هل احترقت « مارى » تماما ؟ .. وأحس برغبة فى أن يقلب الفحم ليتيقن ولكنه لم يجرؤ على أن يفعل ذلك ، فهو يجفل بعيدا عن مرآها حتى فى أفكاره . وجذب الرافعة ليمد الموقد بمزيد من الفحم .. ثم عاد الى حجرته .

وعندما تمدد فوق السرير فى الظلام .. أحس بأن جسده كله يرتعش . كان جائعا مقرورا . ثم ما لبث أن أحس بتيار حار من الخوف أشد حرارة من دمه ، يدفعه الى أن ينهض واقفا على قدميه وسط الحجرة وهو يرى صورا واضحة لقفازه وللقلم والورق . ياإلهى .. كيف فاتته أمرها ؟ يجب أن يحرقها جميعها . الآن يجب أن يفعل ذلك . وأضاء مصباح الحجرة ثم أسرع الى معطفه وأخرج القفاز والقلم والورق ودسها جميعا داخل قميصه ثم اتجه الى الباب وظل لحظات ينصت ، ثم خرج الى الردهة وهبط السلم ووقف أمام الموقد . وفى لهفة ، فتح باب الموقد وقذف بالقفاز والقلم والورق داخله . وظل يراقبها وهى تدخن ثم تحترق ، وأغلق باب الموقد وهو يسمع أوار اللهب ..

واحتواه احساس غريب . شئ ما كالطين يتسلسل الى بطنه

« وفروة » رأسه .. وركبته تتهاويان تحت ثقل جسده ، وأسرع متعثرا يستند الى الحائط وهو يحس بأن موجة من « الحذر » تسرى من بطنه الى باقى جسده والرأس والعينين ، وتضطره الى أن يفتح فمه .. وزايلته القوة .. وانهار على ركبتيه يستند بأصابعه الى الأرض حتى تكف عن الرعشة ، وغمره احساس بالفزع والرعب واصططكت أسنانه وأحس بالعرق يتصبب تحت ابطيه ويغمر ظهره . وأخذ يئن وهو يجاهد ويغالب نفسه وقد ماجت الأشياء أمام ناظريه ثم عادت تنتضح شيئا فشيئا . ومرة أخرى رأى الموقد ، ثم أدرك أنه كان قد أوشك أن ينهار الانهيار التام . ثم ما لبث اللهب وأواره أن انتهيا الى بصره وسمعه ، فأغلق فمه .. « وصر » بأسنانه .. وأحس بالشلل « والحذر » يزايدانه شيئا فشيئا .

وعندما وافته القوة الكافية لأن ينهض دون سند ، وقف ومسح جبهته ، لقد أرهقه الجوع وطول افتقاره الى النوم ، وأضعف الاضطراب نشاطه ، ولعله من الأوفق أن يذهب الآن الى المطبخ ويتناول عشاءه ، نعم ، فلا ينبغي أن يجوع نفسه هكذا . وصعد في السلم الى باب المطبخ .. وطرقه في تردد وحياء .. ولم يسمع جوابا فأدار « أكرة » الباب ودفعه ورأى المطبخ يسبح فى الضوء ، وفوق المائدة تناثرت « فوط » كثيرة بيضاء تخفى تحتها ما خيل اليه أنه أطباق طعام . ووقف « بيجر » يحديق اليها ثم اقترب من المائدة ورفع أركان « الفوط » ورأى تحتها شرائح خبز ولحم ، وبطاطس محمرة ، ومرقا ، وبقولا ، وسبانخ ، وقطعة كبيرة من الكعك المزوج بالشيكولاته . وسال لعابه . أهذا عشاؤه ؟ أين « بيجى » يا ترى ؟ هل يبحث عنها ؟ ولكنه لا يحب أن يسأل عنها فقد يذكره هذا بشئ يكرهه . وظل واقفا فى المطبخ وهو يفكر : هل يأكل ؟ .. ولكنه يخاف أن يفعل ذلك . واستند بأصابعه على حافة المائدة البيضاء ثم انفرجت شفاته فجأة عن ضحكة عالية : لقد قتل فتاة بيضاء ثرية وأحرق جسدها بعد أن قطع رأسها ، وكذب لكى يلقى بتبعة الجريمة على غيره ، وكتب خطابا يطلب فيه فدية قدرها عشرة آلاف دولار .. وبرغم ذلك كله فهو يقف الآن أمام المائدة ويخاف أن يلمس الطعام فوقها ، الطعام الذى هو لاشك عشاؤه ينتظره .

— بيجر :

وأجاب دون أن يعرف من الذى ناداه ..

— « هه » ؟

— أين كنت ؟ إن عشاءك ينتظرك منذ الساعة الخامسة . هناك مقعد

.. اجلس وتناول طعامك ..

... بل بقدر ما تشاء » .. وتوقف عن الانصات اليها ، فقد رأى
في يدها خطاب الاختطاف . « سوف أعد قهوتك .. هيا كل » ترى هل
فضت الخطاب ؟ هل عرفت ما بداخله ؟ كلا ، فالمظروف لا يزال على حاله .
واقتربت « بيجى » من المائدة وأزاحت « الفوط » ، وكانت تحترق ..
ركبتاه ترتعشان من الاضطراب والعرق ينبثق من جبهته ، وبشرته تكاد
« هل تريد اللحم ساخنا ؟ » وخيل اليه أن سؤالها يتناهى اليه من مكان
بعيد .. وهز رأسه دون أن يدرى ماذا يعنيه ذلك .. « هل تشعر
بتعب ؟ »

— لا .. لا بأس .

— يجب ألا تجوع نفسك هكذا .

— لم أكن جائعا ..

— بل أنت جائع أكثر مما تتصور .

ووضعت قدحا وطبقا أمامه .. ثم ألقت بالخطاب على حافة المائدة ..
وجذب الخطاب انتباهه كما لو كان « مغناطيسا » وكانت عيناه قطعتين من
الحديد ثم أحضرت « بيجى » القهوة وصبتها له في القدح . لاشك أنها
أخذت الخطاب لثوها من تحت الباب ولم تجد وقتا لتقدمه للمستتر «دالتون»
.. ووضعت أمامه وعاء من القشدة ثم تناولت الخطاب وهي تقول :

— يجب أن أعطى المستتر « دالتون » آياه وسوف أعود بعد لحظة .

— أمرك ياسيدتى ..

وغادرت المطبخ .. وتوقف هو عن مضغ الطعام .. فقد جف
حلقة . ولكنه يجب أن يأكل ، فقد يثير الشك اذا توقف عن الأكل .
ومن ثم فقد أخذ يلوك الطعام ويرشف رشفة من القهوة ثم يتبعها
ببعض الماء البارد وأرهف السمع ولكن أحدا لم يحضر . وبعد لحظة
فتح الباب ودخلت « بيجى » ولم ير شيئا يرسم على وجهها الأحمر
المستدير . وظل يراقبها بركن عينيه وهي تتجه الى الفرن ومكان وضع
الأطباق وهي تحمل الأواني .

— هل تريد مزيدا من القهوة ..

— لا ياسيدتى .

— الست خائفا من كل هذه المتاعب التى نزلت بهذا البيت

يا بيجى ؟

- أوه .. نعم ياسيدتى .

وتساءل بينه وبين نفسه : هل لاحظت شيئا ما فى سلوكه دفعها الى أن توجه اليه ذلك السؤال .. وتنهدت « بيجى » وهى تقول :

- هذه المسكينة « مارى » .. انها تتصرف كالأطفال .. تصور فتاة كهذه تجعل أبويها يعيشان دائما فى قلق عليها .. ولكن هذا حال الأولاد فى هذه الأيام .

وأسرع ينهى الطعام أمامه دون أن يتكلم . فقد أراد أن يغادر المطبخ بأسرع ما يستطيع ، لقد اتضحَت الأمور الآن : ليس كل الأمور .. ولكن بعضها ، ولا أحد يعلم حتى الآن شيئا عن « مارى » .. ورأى بعين الخيال أسرة « دالتون » وقد أصابها الفزع والاضطراب وهى تعرف أن ابنتها قد اختطفَت .. لسوف يبقِيهم هذا بعيدين عنه الى حد ما فسوف يظنون أنها فعلت رجل أبيض ولن يتصوروا مطلقا أن زنجيا أسود خجولا يمكن أن يقدم على مثل هذه الجريمة ، وسوف يلقون التبعة على كاهل « جان » ، فان كلمة « الحمر » التى ذيل بها الخطاب .. وشارة المطرقة والسكين الدائرية الشكل سوف تجعلهم يوجهون اهتمامهم الى الشيوعيين .

- هل يكفيك هذا الطعام ؟

- نعم ياسيدتى

- حسن .. يجدر بك أن تنظف الموقد من الرماد فى الصباح ..

- أمرك ياسيدتى

- وكن مستعدا فى تمام الثامنة عندما يخرج المستر « دالتون »

- أمرك ياسيدتى

- هل أعجبتك حجرتك ؟

- نعم ياسيدتى ..

وفجأة فتح الباب بعنف .. وتطلع « بيجر » فى ذعر ورأى المستر « دالتون » يدخل المطبخ وقد شحب وجهه ، وينظر الى « بيجى » التى بادلتها النظر وهى تمسك فى يدها بمنشفة أطباق . وكان « دالتون » يمسك فى يده بخطاب .. مفتوح :

- ماذا حدث يامستر « دالتون » ؟

- من .. أين .. من الذى أعطاك هذا الخطاب ؟

- ماذا ؟

- هذا الخطاب ؟

- لا أحد .. لقد وجدته عند الباب ..

- متى ؟

- منذ دقائق .. هل حدث شيء ؟

وأجال المستر « دالتون » بصره في أرجاء المطبخ دون أن ينظر الى شيء معين .. حسب ، كان ينقل بصره بين الجدران الأربعة وقد فتح عينيه دون أن يرى شيئاً بهما .. ثم عاد ينظر الى « بيجى » وكأنه ألقى بنفسه تحت رحمته .. ينتظر أن تقول شيئاً يمكن أن ينزع الفزع من صدره .. وعادت « بيجى » تسأله :

- م .. ماذا حدث يامستر « دالتون » ؟

وقبل أن يجيبها المستر « دالتون » كانت المسز « دالتون » تتخبط في طريقها الى داخل المطبخ وقد رفعت يديها البيضاءوين .. ولاحظ « بيجر » أصابعها المرتعشة في الهواء وهي تتأرجح هنا وهناك حتى استقرت على كتف زوجها وهي تقبض على « سترته » بعنف يكفى أن يخلعها عن جسده .. وأحس « بيجر » - دون أن تطرف له عين - بأن بشرته تحترق .. وبأن عضلات جسده تتصلب ..

وصاحت مسز « دالتون » :

- هنرى .. هنرى .. ماذا حدث ؟

ولم يسمعها المستر « دالتون » الذى كان لا يزال يحرق الى

« بيجى » .

- هل رأيت من ترك هذا الخطاب ؟

- لا يا مستر « دالتون » .

- أنت يا بيجر ؟

وهمس « بيجر » والطعام يملأ فمه :

- لا يا سيدى ..

- هنرى .. قل لى أرجوك .. بحق السماء ..

وأحاط المستر « دالتون » خصر زوجته بذراعه وقربها اليه وقال :

- انه .. انه بخصوص « مارى » .. انه .. انها ..

- ماذا ؟ أين هي ؟

- انهم .. انها عندهم .. لقد اختطفوها .

- هنرى .. لا .. قل شيئا غير هذا .

وأسرعت « بيجى » نحو المستر « دالتون » وهى تنتحب :
- لا .. لا ..

وقال مستر « دالتون » وكأنما هو مضطر الى أن يعيد كلماته كيما يقنع نفسه :

- لقد اختطففت .

واتسعت عينا « بيجر » وهو يوجه الى الثلاثة نظرة واحدة خاطفة . وظلت مسر « دالتون » تبكى على حين انهارت « بيجى » فوق أحد المقاعد وقد دفنت وجهها بين يديها . ثم قفرت واقفة وخرجت تجرى وهى تصيح باكية :

- يا الهى .. امنعهم من قتلها .

وترنحت مسر « دالتون » فأسرع زوجها يسندها ثم يحملها ويحاول أن يخرج بها . وتبعه « بيجر » بعينيه وارتسمت أمامه كالومض .. صورة « مارى » وهو يحملها فوق ذراعيه فى الليلة الماضية ، ثم نهض يفتح الباب للمستر « دالتون » .. وظل يراقبه وهو يسير مترنحا فى الممر المظلم وقد حمل زوجته فوق ذراعيه .

وأصبح وحيدا داخل المطبخ . ومرة أخرى عاودته فكرة الخروج من البيت .. ومرة أخرى أيضا طرح هذه الفكرة جانبا ، فقد أحس برغبة عارمة فى أن يبقى ليرى ما تنتهى اليه الأمور ، حتى ولو انتهت به الى مصير أسود ، كما أحس بأنه أصبح يعيش فوق قمة مرتفعة تهب حوله الرياح من كل جانب . وتناهى الى سمعه صوت نحيب . ثم ساد الصمت . ما الذى يحدث الآن ؟ هل يتصل المستر « دالتون » بالشرطة ؟ وعاد يرهف السمع .. ولكنه لم يسمع شيئا فاتجه الى الباب وخطا بضع خطوات فى الممر .. ولكنه لم يسمع شيئا . وتطلع حوله حتى يثق من أن أحدا لا يراقبه . ثم تقدم على أطراف أصابعه . وبدأت تتناهى الى سمعه أصوات ، كان المستر « دالتون » يتحدث الى شخص ما .. واقترب أكثر ، نعم ، يستطيع الآن أن يسمع جيدا .. « أريد أن أتحدث الى المستر « بريتن » من فضلك » كان المستر « دالتون » يتصل « بالتليفون » .. « .. احضر حالا .. أرجوك نعم حالا ، لقد حدث شيء مفرع ولا أريد أن أحدثك عنه فى التليفون » .. هذا يعنى أن « بريتن » سيعود الآن الى البيت .. ويعنى أيضا مزيدا من الأسئلة يوجهها اليه .. « نعم فى الحال .. أنا فى انتظارك » .

ورأى أنه ينبغي له أن يعود الى حجرته . . فمضى يسير على أطراف أصابعه الى المطبخ ، ثم هبط السلم الى « البدرى » ورأى فرجات الموقد تكشف ما بداخله من لهب يحيل الظلام الى اللون القرمزى ، وسمع أوار اللهب يصخب فى جو الحجرة . هل احترقت تماما ؟ وحتى لو لم تكن قد احترقت ، فمن ذا الذى سيفكر فى البحث عنها داخل الموقد ؟ وصعد الى حجرته ثم أغلق الباب ودلف الى المخزن المجاور وأرهف السمع . لا شئ سوى الصمت . . وخرج من مخزن الملابس وترك بابه مفتوحا وخلع حذاءيه حتى يستطيع أن يهرع الى المخزن مرة أخرى متى أراد ودون أن يحدث صوتا . واستلقى على فراشه وقد امتلأ رأسه بخيالات ورؤى وهواجس . كان فى وسعه أن يهرب ، أو أن يبقى ، وكان فى وسعه أن ينزل اليهم ويعترف بما اقترف من جرم . . أكثر من طريق اذن كان أمامه ، وأمدته كثرتها باحساس من الحرية ، وبأن حياته أصبحت ملك يمينه وبأنه يمسك بمقاديره بين يديه ولكنهم أبدا لن يفكروا فى أنه هو الذى فعلها . . لا ، لا يمكن أن يكون الذى فعل كل هذا صبي أسود هادئ الطباع .

وانحنى من فوق السرير يرهف السمع وقد استشعر أصواتا . . لقد استغرقه التفكير حتى لم يستطع أن يستوثق مما اذا كان حقا قد سمع شيئا أو أنها كانت مجرد أوهام . . لا ، ليست أوهاما ، بل لقد سمع وقع أقدام تحته . وأسرع الى المخزن وتوقفت الأقدام ثم تناهت اليه أصوات بكاء خافت . . كانت « بيجى » هى التى تبكى . . ثم هدأ بكائها ثم ارتفع مرة أخرى فأصبح عويلا . ووقف « بيجر » فترة طويلة من الوقت ينصت الى بكاء « بيجى » والى زفيف الرياح فى الخارج . ثم ما لبثت « بيجى » أن توقفت عن البكاء فجأة . أهى ذاهبة يا ترى لتفتح الباب ؟ وعاد وقع الأقدام مرة أخرى ، . . يبدو أن « بيجى » توجهت الى مقدمة البيت لأمر ما ثم عادت ! وسمع « بيجر » صوتا خشنا . . صوت رجل . ولم يستطع فى بداية الأمر أن يميز ذلك الصوت ولكنه ما لبث أن تحقق صاحبه . . لقد كان صوت « بريتن » .

- . . . ثم وجدت الرسالة ؟

- نعم .

- منذ متى ؟

- منذ حوالى الساعة .

- هل أنت واثقة من أنك لم ترى أحدا يترك الرسالة ؟
- لقد كانت موجودة أسفل الباب .
- فكروى الآن جيدا ، هل رأيت أحدا بالقرب من البيت أو ممر
السيارة ؟

- لا ، لم يكن هناك أحد هنا سوى أنا والولد .
- وأين الولد الآن ؟
- فى حجرته على ما أظن .
- أتعرفين هذا الخط ؟
- لا يا مستر « بريتن » .
- هل تستطيعين أن تحدى أو تفكرى أو تتصورى من ذا الذى
يمكن أن يرسل خطابا كهذا ؟

- لا . لا أحد فى هذه الدنيا الواسعة يا مستر « بريتن » !
وصمت « بريتن » . ثم سمع « بيجر » وقع أقدام أخرى ثقيلة
وصوت مقاعد كثيرة . . هناك قوم كثيرون فى المطبخ . ترى من يكونون ؟
لقد كانت حركاتهم تشبه حركات الرجال ثم سمع « بيجر » صوت « بريتن »
مرة أخرى :

- اسمعى يا « بيجى » قولى لى ، ما رأيك فى تصرفات هذا الولد ؟
- ماذا تقصد يا مستر « بريتن » ؟
- هل يبدو ذكيا ؟ هل يبدو حصيفا ؟
- لست أدرى يا مستر « بريتن » ، انه يشبه غيره من الأولاد
الملونين .

- هل يقول لك « نعم يا سيدتى » و « لا يا سيدتى » ؟
- نعم يا مستر « بريتن » . انه مؤدب .
- هل فقدت شيئا من البيت منذ أن حضر الى هنا ؟
- لا . لا شئ .
- هل حدث أن أهانك مرة . . أو أى شئ من هذا القبيل ؟
- أوه ، لا . مطلقا .
- أى طراز من الأولاد هو ؟

- انه مجرد ولد أسود هادىء .. هذا كل ما أستطيع أن أراه

فيه ..

- هل حدث أن رأيته يقرأ شيئا ؟

- لا يا مستر « بريتن »

- هل يتحدث أحيانا بكاء أكثر من أحيان أخرى ؟

- لا يا مستر « بريتن » انه يتحدث دائما بنفس الطريقة .

- هل فعل شيئا يجعلك تشكين فى أنه يعرف شيئا عن هذا

الخطاب ؟

- لا يا مستر « بريتن » .

- عندما تتحدثين معه ، هل يتردد قبل الاجابة كما لو كان يفكر

جيذا فيما يقول ؟

- لا يا مستر « بريتن » انه يتكلم ويتصرف بطريقة طبيعية .

- وعندما يتحدث ، هل يلوح بيديه كثيرا حوله مثل اليهود ؟

- لم ألاحظ شيئا مثل هذا يا مستر « بريتن » .

- هل سمعته مرة يصف أحدا بلفظة « رقيق » ؟

- لا يا مستر « بريتن » .

- هل يخلع قبعته عندما يدخل البيت ؟

- لم ألاحظ ذلك ، ولكنى أعتقد أنه يفعل هذا يا مستر « بريتن » .

- هل جلس مرة أمامك دون أن تأذنى له كما لو كان قد تعود ذلك

فى حضرة البيض ؟

- لا يا مستر « بريتن » .. انه لا يجلس حتى أطلب منه أن يجلس .

- هل يبدأ هو الكلام أو ينتظر حتى يطلب منه أن يتكلم ؟

- أعتقد يا مستر « بريتن » أنه ينتظر دائما حتى نتكلم نحن قبل

أن يقول شيئا .

- والآن .. اسمعى يا « بيجى » ، حاولى أن تتذكرى جيذا اذا

كان صوته يرتفع عندما يتكلم مثلما يفعل اليهود عندما يتكلمون . هل

تفهمين ماذا أقصد ؟ أنا أحاول يا « بيجى » أن أرى .. اذا كان هذا

الولد قد اختلط بالشيوعيين ..

— لا يا مستر « بریتن » فهو دائما يتحدث كما يتحدث الى الملونون الآخرون .

— أين هو ؟

— فى حجرته .

وعندما سكت « بریتن » .. لم يلبث « بيجر » أن ابتسم . نعم : ان « بریتن » يحاول أن يصيده وأن يحصل على شيء ضده ، ولكنه لم يستطع أن يحصل على شيء يستند اليه . ترى ، هل يصعد اليه « بریتن » الآن لكى يتحدث معه ؟ .. وعادت الأصوات مرة أخرى .

— أوكد أن فرصة بقائها على قيد الحياة واحد الى عشرة .

— نعم . انهم دائما يقتلون ضحاياهم ، فهم يخشونهم عندما يمسون بهم ويعتقدون أنهم قد يتعرفون عليهم فيما بعد .

— هل قال الرجل العجوز انه سيدفع ؟

— طبعا .. فهو يريد أن تعود ابنته .

— اذا أردت رأيى .. فهى مجرد عشرة آلاف دولار تذهب هباء اى الجحيم ..

— ولكنه يريد ابنته ..

— اسمع .. أراهنك على أن هؤلاء الحمر سيحاولون رفع المبلغ ..

— نعم .. أعتقد ذلك ..

— ربما كانت هذه هى الطريقة التى يحصلون بها على أموالهم . انهم يقولون ان هذا الرجل المدعو « برونو هويتمان » .. الرجل الذى قتل طفل « لندنبرج » قد فعل ذلك من أجل النازى . ولا شك أنهم فى حاجة الى المال .

— بودى لو استطعت أن أطلق الرصاص على كل واحد من هؤلاء

الملاعين .. حمرا كانوا أو غير حمر .

وتناهى الى « بيجر » صوت باب يفتح .. ثم مزيد من وقع الأقدام .

— هل نجحت مع الرجل العجوز ؟

وأجاب صوت « بریتن » :

— ليس بعد .

- انه خائف ولا شك ؟
- نعم ؛ ومن ذا الذى لا يخاف ؟
- ألن يستدعى الشرطة ؟
- نعم .. فهو فى غاية الخوف .
- قد يكون الأمر صعبا بالنسبة للأسرة ، ولكن اذا جعلنا هؤلاء القتلة يعرفون أنهم لن يستطيعوا ابتزاز الأموال منا .. فسوف يقلعون عن مثل هذه الفعلة .
- اسمع يا « بريتن » .. حاول معه مرة أخرى .
- نعم ، قل له ان أفضل ما يمكن أن يفعله هو أن يخبر الشرطة .
- أوه .. لست أدري .. فأنا أكره أن أزعبه .
- آه .. انها ابنته بعد كل شيء .. فليعالج الأمر هو نفسه .
- ولكن اسمع يا « بريتن » ، عندما يمسون بهذا المدعو « ابرلون » فسوف يخبر هو نفسه الشرطة وستعرف الصحف بالقصة بطريقة أو بأخرى . فماذا يمنع من أن تخبر الشرطة من الآن ؟ فكلما أسرعوا فى العمل كان ذلك أفضل .
- لا .. سوف أنتظر تعليمات الرجل العجوز ..
- وعرف « بيجر » أن المستر « دالتون » لا يريد أن يبلغ الشرطة . ولكن الى متى سيطل الأمر سرا ؟ لسوف تعرف الشرطة بالقصة بمجرد أن يقبض رجال « دالتون » على « جان » .. وربما قال « جان » ما يكفى أن يجعل الشرطة والصحافة تبدآن تحرياتها . ولكن ماذا يحدث عندما يواجهون « جان » بتهمة اختطاف « مارى » ؟ هل يستطيع « جان » أن يثبت بعده عن مكان الجريمة ؟ .. واذا هو استطاع أن يثبت ذلك فلسوف تبدأ الشرطة فى البحث عن شخص آخر .. ولسوف يبدأون باستجوابه من جديد لكى يعرفوا السبب الذى من أجله كذب بخصوص « جان » وحضوره الى البيت . ولكن ألا تكفى كلمة « الحمر » التى ذيل بها خطابه لأن تجعلهم يصرون على الشك فى « جان » أو رفاقه ؟ وما الذى يدعوهم الى أن يظنوا أن « بيجر » هو الذى اختطف « مارى » ؟
- وخرج « بيجر » من مخزن الملابس وجفف بكمه العرق المتصيب من جبهته .. لقد انحنى فترة طويلة من الوقت حتى ان دماءه توقفت أو كادت عن الجريان فى عروقه ، وأحس بألم كوخز الابر يصعد من أخمصى

قدميه الى جلد ساقيه • واتجه الى النافذة وتطلع الى الثلج المتساقط • •
وكانت الرياح تهب في اعصار والثلج يتساقط في غير ما اتجاه واحد ،
بل كان يملأ الدنيا بعاصفة من مسحوق أبيض متطاير يأخذ أحيانا شكل
الزوابع اللولبية •

وكانت النافذة تطل على فضاء فسيح يقع الى اليمين منه الشارع
الخامس والأربعون • واختبر « بيجر » النافذة ليرى أنه يمكنه أن يفتحها
أو لا ، ورفعها بضع بوصات • • ثم دفعها الى أعلى في صوت مرتفع حاد •
هل سمعه أحد ؟ انتظر قليلا ، ولكن شيئا لم يحدث • حسنا • اذا سمعت
الأمور يستطيع أن يقفز من النافذة ، هنا تماما ؛ ثم يطلق ساقيه للريح • •
لم تكن النافذة مرتفعة الا بمقدار « طابقين » • • وتحتها كومة كثيفة
من الثلج الناعم • وأغلق النافذة ثم عاد الى السرير ينتظر ، وما لبث أن
سمع صوت أقدام ثابتة تصعد في السلم • نعم ، هناك من هو قادم اليه
• • وتوتر جسده • وسمع نقرا فوق الباب :

– نعم يا سيدى •

– افتح •

وأضاء مصباح الحجرة ثم فتح الباب وواجهه وجه أبيض •

– أنت مطلوب فى « الطابق » الأسفل •

– أمرك يا سيدى • •

وتحرك الرجل الأبيض جانبا ومر « بيجر » بحذائه وهبط السلم
الى الردهة ثم الى « البدروم » وهو يحس بأن نظرات الرجل الأبيض تخترق
ظهره ويسمع وهو يقترب من الموقد أوار الذهب ويكاد يرى أمام عينيه رأس
« مارى » الدامى بشعره الأسود اللامع • • تبلله الدماء فوق أوراق
الصحف • ورأى « بريتن » يقف بالقرب من الموقد ومعه ثلاث رجال
من البيض •

– هاللو « بيجر » • •

– نعم يا سيدى

– هل سمعت بما حدث ؟

– نعم يا سيدى

– اسمع يا ولد • أنت تتحدث الآن معى ومع رجالى فحسب • الآن

قل لى ، هل تظن أن لـ « جان » يدا فى هذه المسألة ؟

وأرخی « بیجر » بصره ، ولم یשא أن یجیب فی عجلة ، كما لم یرد أن یتهم « جان » بطریقة قاطعة لأن ذلك قد یدفعهم الى استجوابه بدقة أكثر .. ولكن الأفضل هو أن یشیر فحسب فی اتجاه « جان » .

— لست أدری یا سیدی

— قل لنا فحسب رأیک .

— لست أدری یا سیدی

— هل رأیته حقا هنا فی اللیلة الماضیة ؟

— أوه .. نعم یا سیدی

— وهل تقسم علی أنه أمرک بأن تنزل الحقیبة وبأن تدع السیارة

فی مکانها ؟

— أقسم یا سیدی علی ما هو حق وصدق .

— هل کانت تصرفاته توحی بأنه یدبر أمرا ؟

— لست أدری یا سیدی

— متى غادرت البیت ؟

— قبل الثانیة بقلیل یا سیدی

واستدار « بریتن » الى الرجال الآخرين ، وكان أحدهم یقف بالقرب

من المدفأة وظهره الى النار یدفیء یدیة خلفه وقد فتح ساقیه وتوهج

طرف سیجار یضعه فی رکن فمه ، وقال له « بریتن » :

— لا بد أنه هو ذلك الأحمر ..

وقال الرجل الذی الى جوار الموقد :

— نعم ، والا فما الذی یدعوه الى أن یأمر الولد بأن ینزل الحقیبة

ویدع السیارة بالخارج لقد کان ذلك محاولة لتضلیلنا ..

وعاد « بریتن » یسأل :

— اسمع یا « بیجر » .. هل لاحظت أن ذلك الشخص یتصرف

بطریقة غیر عادیة ؟ أقصد .. بعصبیة مثلا ؟ عم کان یتحدث ؟

— عن الشیوعیین ..

— هل طلب منك أن تنضم الیهم ؟

— لقد أعطانی تلك المواد لأقرأها .

— هیا هیا .. حدثنا عما کان یتحدث ..

وكان « بيجر » يعرف الأمور التي يكره البيض، أن يتطلع اليها الزوج ، وكان يعرف أن هذه هي نفس الأمور التي كان يتحدث عنها الحمر ، وأن البيض يكرهون أن يسمعوا عن هذه الأمور حتى ولو عن بيض مثلهم يدافعون عن الزوج .

وقال « بيجر » متظاهرا بأنه مدفوع بالرغم منه :

- لقد قال لي انه سيأتني يوم لا يكون فيه أغنياء أو فقراء ..

- « هه » ؟

- وقال لي ان الرجل الأسود قد تتاح له فرصة .

- أكمل .. أكمل .

- وقال انه لن يكون هناك شئ على أفرع الشجر .

- وماذا قالت الفتاة ؟

- كانت توافقه على ما يقول

- وكيف كان شعورك نحوهما ؟

- لست أدري يا سيدي .

- أقصد .. هل أعجبك كلامهما ؟

وكان « بيجر » يعرف جيدا أن الرجل الأبيض العادي لا يمكن أن

يقره على الإعجاب بكلام كهذا .. فقال متمتما :

- لقد كنت أقوم بعمل .. لقد كنت أفعل ما يطلبانه مني ..

- هل كانت الفتاة تتصرف كما لو كانت خائفة من شيء ؟

وأدرك ما يحاول هؤلاء البيض أن يقيموه من أدلة حول « جان » ،

وتذكر أن « ماري » كانت قد بكت في الليلة الماضية عندما رفض أن

يذهب معها الى المقهى ليأكل ..

- حسنا .. لست أدري بالضبط يا سيدي ؛ ولكنها بكت مرة ..

- بكت ..؟

وتجمع الثلاثة حوله ..

- نعم يا سيدي .

- هل ضربها ؟

- لم أره يا سيدي .

- وماذا فعل هو عندما بكت ؟

– أحاطها بذراعه .. فكفت عن البكاء .

وكان « بيجر » يقف والحائط خلفه وضوء اللهب القرمزي يسطع على وجوه الرجال البيض .. وصوت الهواء الممتص داخل الموقد يختلط فى أذنى « بيجر » بعويل الرياح فى الخارج .. كان متعبا ، وأغمض عينيه لحظات ثم فتحهما وهو يدرك أنه ينبغى له أن يظل متنبها ويجيب عن الأسئلة كيما ينقذ نفسه .

– هل قال لك « جان » شيئا عن النساء البيض ؟

وتنبه « بيجر » وقد اشتم رائحة الخطر .

– ماذا قلت يا سيدى ؟

– هل قال لك انه سيهين لك فرصة اللقاء مع بعض النساء البيضات ان أنت انضممت الى الحمر ؟

وكان « بيجر » يدرك أن العلاقات بين السود والبيض هى كبرى المحرمات ..

فقال متظاهرا بالاشمئزاز .

– لا يا سيدى .

– هل أوصلتهما حجرة أو الى فندق ؟

– لا ياسيدى .. المتنزه فحسب .

– هل كانا يجلسان فى المقعد الخلفى ؟

– نعم يا سيدى .

– كم من الوقت أمضيتم فى المتنزه ؟

– .. ساعتين تقريبا على ما أعتقد .. يا سيدى .

– كانا ثملين .. أليس كذلك ؟

– بلى يا سيدى ، لقد أسرفا فى الشرب .

وسمع أصوات سيارات تدخل الممر المخصص للسيارة . أهم رجال الشرطة ؟

وتساءل « بریتن » :

– من هؤلاء ؟

– وأجابه أحد الرجال :

– لست أدري .

- لعله من الأفضل أن أرى أنا نفسي .
- وفتح « بريتن » الباب .. ورأى « بيجر » أربع سيارات تقف بالخارج وأنوارها مضاءة .. وصاح « بريتن » :
- ما هذا ؟
- وأجابه صوت من الخارج :
- الصحافة .
- فقال « بريتن » في غضب وضيق :
- ليس هنا شيء لكم ..
- وأجابه صوت :
- لا تخدعنا .. ان طرفا من الحكاية قد نشر بالفعل في بعض الصحف . وعليك أنت أن تقول الباقي .
- وسأل « بريتن » رجلا يدخل « البدروم » .
- ما الذي نشرته الصحف ؟
- ودس رجل طويل أحمر الوجه ، يده في جيبه وأخرج صحيفة قدمها الى « بريتن » .. وهو يقول :
- ان الحمر يقولون انكم تتهمونهم باختطاف ابنة الرجل العجوز .
- وألقى « بيجر » بنظرة الى الصحيفة وهو واقف في مكانه .. وقرأ العنوان التالي :
- « القبض على أحد الحمر بعد اختفاء فتاة »
- وقال « بريتن » :
- يا للعنة .
- وتأفف الرجل الطويل أحمر الوجه وهو يقول :
- يا لها من ليلة . أحد الحمر يقبض عليه .. وعاصفة ثلجية . ونحن هنا الآن في مكان يبدو كما لو كان مسرحا لجريمة قتل ..
- وصاح فيه « بريتن » :
- ماذا دهاك .. أنت الآن في بيت المستر « دالتون » ؟
- أوه .. معذرة ..
- أين الرجل العجوز ؟

- « بالطابق » الأعلى ولا يريد أن يضايقه أحد .
- هل اختفت الفتاة حقا أو أنها مجرد « لعبة » ؟
- وقال « بريتين » :
- لا أستطيع أن أقول شيئا .
- من هذا الولد ؟
- فأسرع « بريتين » يقول :
- الزم الصمت يا « بيجر » .
- أهو الولد الذي قال « جان » انه اتهمه ؟
- ووقف « بيجر » وظهره للحائط . ينظر حوله في ذهول وتساءل
- أحد الرجال :
- هل ستلعب معنا « لعبة الصمم » ؟
- فقال « بريتين » :
- اسمعوا يا رجال . اهدءوا وسأذهب لأرى . . . هل الرجل
- العجوز يستطيع مقابلتكم . . .
- لقد أرف الوقت . نحن في الانتظار . « فالتليفونات » كلها الآن
- تحمل هذه القصة .
- وصعد « بريتين » في السلم وترك « بيجر » واقفا مع الرجال .
- وسأله الرجل ذو الوجه الأحمر :
- هل اسمك « بيجر توماس » ؟
- وصاح أحد رجال « بريتين » :
- الزم الصمت يا « بيجر »
- ولم يقل « بيجر » شيئا . . .
- ما هذا ؟ هذا الولد يستطيع أن يتكلم اذا أراد ذلك ؟
- وصاح رجل آخر :
- أكاد أشم رائحة أمر خطير . . .

ولم يكن « بيجر » قد رأى من قبل أناسا كهؤلاء . ولم يدر كيف يتصرف ازاءهم وماذا يمكن أن يتوقع منهم . لم يكونوا أغنياء مشهورين مثل المستر « دالتون » . وكانوا أصلب مراسا من « بريتين » ولكن

بأسلوب ادعائي .. أسلوب قد يكون أبعد خطرا من أسلوب « بريتن » .
وكانوا جميعا يذرعون أرض « البدروم » جيئة وذهابا على ضوء الموقد
وقد وضعوا قبعاتهم فوق رؤوسهم ودس كل واحد منهم سيجارا أو
سيجارة في فمه .. وأحس فيهم « بيجر » ذلك النوع من البرود الذي
لا يلقي بالا لأحد .. وبدوا له جميعا كأنهم حفنة من الرجال خرجوا
ليمارسوا رياضة عنيفة ، وقد يبقى هؤلاء الرجال في البيت فترة طويلة
ما دامت الشرطة ألقت القبض على « جان » واستجوبته . ترى ما رأيهم
فيما ذكره عن « جان » ؟ هل هناك فائدة من وراء عدم الكلام معهم كما
أمره « بريتن » ؟ .. ظل « بيجر » ينظر الى الصحيفة المذكورة في يد رجل
منهم ترتدى قفازا . آه لو استطاع أن يقرأ ما في هذه الصحيفة ولكن
الرجال كانوا صامتين ينتظرون عودة « بريتن » ، ثم ما لبث أحدهم أن
استند الى الحائط بالقرب منه .. ونظر اليه « بيجر » بطرف عينه دون أن
يقول شيئا ورأى الرجل يشعل سيجارة :

— هل تدخن يا ولد ؟

وتتمم « بيجر » :

— لا يا سيدي .

ثم أحس بشيء يلمس راحته يده . فالتفت ليري ما هو .. ولكن
همسة هزته :

— اهدأ .. هذه لك . أريد أن تقص على كل الحكاية ..

وأطبقت أصابع « بيجر » على ورقة رقيقة وعرف على الفور أنها
ورقة مالية وأنه ينبغي ألا يقبلها .. وظل ممسكا بالورقة يتربص الفرصة
المواتية لكي يردّها .. وكان كل شيء قد حدث بسرعة أحس معها « بيجر »
بأنه لم يكن عادلا معهم . كان مرهقا وود لو استطاع أن ينام قليلا أو أن
تؤجل هذه الأمور ساعات قليلة حتى يستريح ويصبح قادرا بعد ذلك على
مواجهة كل الاحتمالات . لقد مرت الأحداث كأنها تفاصيل حلم رهيب
يحدث بلا سبب . ولقد أحس أحيانا بأنه لا يستطيع أن يتذكر تماما
ماذا حدث من قبل وما كان يتوقع أن يحدث .. وفتح الباب في أعلى
السلم ورأى « بريتن » .. وبينما كان الآخرون يتطلعون الى « بريتن »
دس « بيجر » الورقة المالية في يد الرجل الذي نظر اليه وهز رأسه
وألقي « بسيجارته » بعيدا ثم سار الى وسط الحجرة .

وقال « بريتن » :

— معذرة يا جماعة .. فالرجل العجوز لن يستطيع مقابلتكم قبل

يوم الثلاثاء .

وفكر « بيجر » بسرعة .. لعل هذا يعنى أن المستر « دالتون » سيدفع النقود وأنه لن يخبر الشرطة .

– الثلاثاء ؟

– ماذا حدث ؟

– أين الفتاة ؟

وقال « بريتن » :

– أنا آسف ..

– انك تضعنا فى مركز سنضطر معه الى ان نكتب أى شىء نستطيع

الحصول عليه حول هذا الموضوع ..

فعاد « بريتن » يقول :

– أنتم جميعا تعرفون المستر « دالتون » .. وأرجوكم ألا تفعلوا

هذا . وأستحلفكم بالله أن تمنحوا الرجل فرصة .. لا أستطيع الآن أن

أذكر السبب ، ولكن هذا مهم والرجل قد خدمكم كثيرا من قبل ..

– هل اختفت الفتاة ؟

– لا أدرى .

– هل هى هنا داخل البيت ؟

– لا .. لست أعتقد ذلك .

– ومتى غادرت البيت ؟

– لا أدرى .

– ومتى ستعود ؟

– لا أستطيع أن أقول .

– هل هذا المدعو « ايرلون » يقول الصدق ؟ انه يقول ان المستر

« دالتون » يحاول أن يشنع بالحزب الشيوعى من وراء القبض عليه ويقول

أيضا انها محاولة لافساد العلاقة بينه وبين الأنسة « دالتون » .

فقال « بريتن » :

– لا أدرى .

فعاد الرجل يقول :

– لقد قبضوا على « ايرلون » ونقلوه الى مقر قيادة الشرطة

واستجوبوه فادعى أن هذا الولد يكذب بخصوص وجوده في البيت الليلة الماضية . هل هذا صحيح ؟

- الحق أننى لا أستطيع أن أقول شيئا حول هذا الموضوع .
- هل منع المستر « دالتون » .. ذلك المدعو « إيرلون » من أن يرى الآنسة « دالتون » ؟
وقال « بريتن » وهو يخرج من جيبه منديلا يجفف به عرق جبهته:
- لا أدري .. والله أنا لا أستطيع أن أقول شيئا .. يجب أن تقابلوا الرجل العجوز ..

وفجأة رفع الكل أبصارهم .. فقد كان المستر « دالتون » يقف بأعلى السلم وقد ابيض وجهه وأمسك بورقة بين أصابعه . وأدرك « بيجر » على الفور أنه يمسك بخطاب الاختطاف ... ترى ما الذى سيحدث الآن ؟ وارتفعت الضجة .. فقد كان الجميع يتكلمون فى وقت واحد .. يوجهون الأسئلة ويطلبون أن يسمح لهم بالتصوير .
- أين الآنسة « دالتون » ؟

- هل أنت الذى طلبت اصدار الأمر بالقبض على « إيرلون » ؟
- هل كانا مخطوبين ؟

- هل تعترض على ميوله السياسية ؟
- ألا تريد أن تصدر تصريحاً يا مستر « دالتون » ؟

- ورأى « بيجر » أن المستر « دالتون » يرفع يده طالبا منهم السكوت ، ثم رآه يهبط السلم فى هدوء وببطء ويقف قريبا منهم فوق السلم .. وتجمعوا حوله وقد أمسكوا بآلات التصوير ..

- هل لديك تعليق على ما ذكره « إيرلون » حول سائقك ؟

وسألهم « دالتون » :

- وماذا قال عنه ؟

- انه قال انكم دفعتم نقودا للسائق لكى يكذب فى أقواله عنه .

فقال المستر « دالتون » فى لهجة قاطعة :

- ليس هذا صحيحا .

وزوى « بيجر » ما بين حاجبيه وهو يرى الرجال يخفضون آلات التصوير ثم ما لبث المستر « دالتون » أن بدأ يتكلم :

- أيها السادة .. أرجوكم . امنحوني الفرصة لحظات ، فانا أريد أن أدلى بتصريح .

ثم صمت لحظة وشفتاه ترتعشان ، واستطاع « بيجر » أن يرى أنه كان في حالة عصبية شديدة :

- أيها السادة .. أريد أن أدلى بتصريح .. وأريد منكم أن تكتبوه بأقصى عناية ممكنة ، ذلك أنه سيتوقف على معالجتكم لهذا التصريح حياة أو موت شخص قريب الى هذه الأسرة ؛ قريب الى أنا .. شخص ..

وارتجف صوت المستر « دالتون » .. وامتلاً جو « البدروم » بالهمس . وسمع « بيجر » حفيف خطاب الاختطاف بين أصابع المستر « دالتون » الذي كان وجهه شاحبا شحوب الميت وعيناه المحمرتان غائرتين فوق هالتي من السواد . وكانت النار في الموقد قد هدأت وخف أوارها الى ما يشبه الهمس .. ورأى « بيجر » شعر المستر « دالتون » الأبيض يبرق كالفضة الذائبة على ضوء اللهب الشاحب .

وفجأة .. وبطريقة جعلت الرجال كلهم يشبهقون ، ظهرت مسز « دالتون » عند الباب خلف زوجها .. بملابسها البيضاء .. وبعينين واسعتين متحجرتين وقد رفعت يديها ، منفرجة أصابعها الى شففتيها وسرعان ما ملأ جو « البدروم » بريق آلات التصوير .

وتحركت مسز « دالتون » تهبط السلم كأنها شبح حتى وقفت الى جوار زوجها وفي أعقابها قطتها البيضاء ، ثم استندت بيد الى « الدرابزين » ورفعت يدها الثانية في الهواء . ولم يتحرك المستر « دالتون » أو ينظر الى الحلف ولكنه وضع يده على يدها المسكة « بالدرازين » وهو ينظر الى الرجال أمامه وحوله .. وما لبثت القطة أن قفزت تهبط السلم ثم عادت تقفز لتستقر فوق كتف « بيجر » ، وجد « بيجر » وهو يحس بأن القطة قد كشفت أمره وقالت للجميع : « هذا هو قاتل ماري ! » .. وحاول أن ينزلها من فوق كتفه ولكنها تشبثت بمعطفه .. ومضت آلات التصوير . وأدرك أن الرجال يلتقطون صورا له والقطة فوق كتفه .. وعاد يحاول أن ينزل القطة، وقذف بها فهوت الى الأرض وهي تموء بصوت كالعويل .. وبدأت تتمسح بساقي « بيجر » . يا للجنة ! لماذا لا تتركه هذه القطة وشأنه ؟

وسمع المستر « دالتون » يتحدث الى الرجال :

- أيها السادة ... يمكنكم أن تلتقطوا ما شئتم من صور ولكن
انتظروا لحظة . لقد اتصلت بالشرطة تليفونيا منذ قليل وطلبت منهم أن
يفرجوا عن المستر « ايرلون » على الفور ، وأحب أن يعلم الجميع أنني لن
أوجه اليه الاتهام . ويهمنى كثيرا أن يكون هذا واضحا ومفهوما ...
وأرجو أن تنشروا ذلك فى الصحف التى تمثلونها .

وتساءل « بيجر » بينه وبين نفسه : هل كان ذلك يعنى أن الشكوك
أصبحت تتجه الآن بعيدا عن « جان » ؟ ترى ماذا يحدث لو أنه حاول
أن يغادر البيت ؟ هل هم يراقبونه ؟

- وأريد بالاضافة الى ذلك أن أعلن على الملأ اعتذارى عن القبض
عليه واغلاق راحته ثم بلل المستر « دالتون » شفتيه بلسانه وهو ينظر
الى الرجال المنهمكين فى كتابة تصريحه على أوراقهم البيضاء :

- وأريد أيضا أيها السادة ، أن أقول ان الآنسة « دالتون » ابنتنا
... الآنسة « دالتون » ...

وعادت الكلمات تتعثر بين شفتيه وقد وقفت زوجته بجانبه وهى
تضع يدها فوق ذراعه ومرة أخرى رفع الرجال آلات التصوير ...
وعادت ومضاتها تملأ جو الغرفة . ثم استأنف المستر « دالتون » حديثه
بصوت هادئ جلجل فى أرجاء الحجرة بالرغم من أنه لم يكن يعدو الهمس
... وقال :

- ... قد اختطفت ...

- اختطفت ؟

- أوه !

- متى ؟

فقال المستر « دالتون » :

- نحن نعتقد أن ذلك تم فى الليلة الماضية .

- وماذا يريد خاطفوها ؟

- عشرة آلاف دولار .

- هل لديك فكرة عن يكونون ؟
- لا نعلم شيئا ..
- هل تلقيت أى خطاب منها يا مستر « دالتون » ؟
- لا .. ليس بالضبط . ولكننا تلقينا خطابا من خاطفيها ..
- هل هذا هو الخطاب ؟
- نعم .
- ومتى وصلك ؟
- الليلة .
- بالبريد ؟
- لا .. بل تركه أحدهم تحت بابنا ..
- هل ستدفع الفدية ؟
- نعم .. سوف أدفع . والآن اسمعوا جيدا يا سادة ، فى وسعكم أن تساعدونى .. وربما استطعتم أن تنقذوا حياة ابنتى بأن تذكروا فى صحفكم أننا سندفع على النحو الذى طلبه منى خاطفوها . والأهم من ذلك أن تقولوا لخاطفيها فى صحفكم اننى لن أخبر الشرطة واننى سأفعل كل ما طلبوه منى .. وقلوا لهم يجب أن يردوا إلينا ابنتنا . استحلفوهم بالله ألا يقتلوها .. وأكدوا لهم أنهم سيحصلون على ما يريدون ..
- هل لديك أية فكرة يا مستر « دالتون » عن يكونون ؟
- لا ..
- هل نستطيع أن نرى الخطاب ؟
- لا تستطيعون مع الأسف . فتعليمات تسليم النقود مدونة به وقد حذرونى أن أكشف عنها شيئا . ولكن قولوا فى صحفكم اننى سأتابع هذه التعليمات .
- متى شوهدت الآنسة « دالتون » آخر مرة ؟
- فى صباح الأحد .. حوالى الساعة الثانية .
- ومن الذى رآها ؟
- سائقى وزوجتى ..

ونظر « بيجر » أمامه مباشرة دون أن يسمح لعينيه أن تتحركاً .
ثم عاد المستر « دالتون » يقول :

— أرجوكم ألا توجهوا إليه أى سؤال . وأنا أتكلم فى ذلك باسم الأسرة كلها ، فليست أريد أن أثير حول هذا الموضوع لغطاً مجنوناً . نحن نريد أن تعود ابنتنا . . وهذا هو كل ما يهمنا الآن ، وأرجو أن تطمئنوها فى صحفكم الى أننا سنفعل كل ما فى وسعنا لكى نعيدها وأنها عفونا بالنسبة لكل شيء . . قولوا لها اننا . .

وعاد صوته يتعثر . . ولم يستطع متابعة الكلام . . وقال أحد الرجال :

— أرجوك يا مستر « دالتون » أن تسمح لنا بصورة واحدة نلتقطها لهذا الخطاب .

— كلا . . كلا ، لا أستطيع أن أسمح بذلك .
— وكيف كان التوقيع بذيل الخطاب ؟

ونظر المستر « دالتون » أمامه مباشرة . . وانتظر « بيجر » اجابته بلهفة . . وتحركت شفقتا « دالتون » فى ببطء . . وقال ويداه ترتعشان :

— نعم . . سوف أقول لكم كيف كان التوقيع . .

ودار وجه زوجته نحوه وهى تتشبث بأصابعها فى « سترته » .
وأدرك « بيجر » أنها تطلب منه فى صمت ألا يتكلم . . وأدرك أيضاً أن المستر « دالتون » لديه من الأسباب ما يغريه بالكلام . . ربما لكى يجعل « الحمر » يتيقنون أن خطابهم قد وصله بالفعل .

— نعم . . « الحمر » . . هكذا كان التوقيع .

— الحمر ؟

— نعم .

— هل تعرف كاتب الخطاب ؟

— لا . .

— ألا تشك فى أحد ؟

— وتحت التوقيع رسمت شارة الحزب الشيوعى . . . المطرقة والمنجل .

وساد الصمت .. ورأى « بيجر » الدهشة تعلو الوجوه ولم ينتظر بعضهم أكثر من ذلك بل اندفعوا خارج « البدروم » لكى ينقلوا الى صحفهم القصة « بالتليفون » .

– لست أدري بالضبط .. ولا أستطيع أن أنهم أحدا بعينه ، وأنا لم أفض بهذه المعلومات الا لكى يعلم الجمهور والحافظون أنني تلقيت هذه الرسالة ، واذا أعيدت الى ابنتى فلن اسأل بعدها أحدا ..

– هل كانت ابنتك تختلط بهؤلاء الناس يا مستر « دالتون » ؟
– لا أعلم شيئا عن هذا الأمر .

– هل منعت ابنتك من التعاون مع « ايرلون » ؟

– أرجو ألا يكون لهذا علاقة بالأمر .

– هل تعتقد أن « لايرلون » يدا فى هذه القصة ؟

– لا أدري .

– لماذا طلبت الافراج عنه ؟

– لقد طلبت القبض عليه قبل أن أتلقى هذه الرسالة .

– هل تحس بأنه قد يعيد الفتاة اذا أصبح خارج السجن ؟

– لا أدري ؛ ولا أدري اذا كان هو الذى اختطفها . كل ما أعرفه

هو أن المسز « دالتون » تريد – مثلما أريد أنا – أن تعود إلينا ابنتنا ..

– اذن لماذا طلبت الافراج عن « ايرلون » ؟

– لأنه ليست لدى اتهامات أستطيع أن أوجهها اليه .

– مستر « دالتون » .. أمسك بالخطاب وارفع يدك كما لو كنت

تقدم التماسا . حسن ، الآن امدد يدك هكذا .. حسن . أثبت على هذا الوضع .

وعادت ومضات آلات التصوير من جديد . ووقف المستر «دالتون» وزوجته فوق السلم ؛ هى بملابسها البيضاء ، وهو يمسك بالخطاب فى يده وعيناه تنظلعان مباشرة الى الحائط الخلفى « للبدروم » . وسمع « بيجر » همس النيران داخل الموقد ورأى الرجال منهمكين فى التصوير على حين انهمك بعضهم فى الكتابة بطريقة عصبية . ومرة أخرى برقت ومضات آلات التصوير .. وأفزع « بيجر » أن يرى الآلات موجهة اليه . وأراد أن يخفى رأسه أو يدفع بيديه أمام وجهه ولكن بعد فوات الأوان .

لقد حصلوا على صور كثيرة تكفى أن يتعرف عليه أى شخص ولو وسط الزحام .. وغادر آخرون « البدروم » على حين استدار المستر « دالتون » وزوجته يصعدان فى السلم فى ببطء ثم يختفيان داخل المطبخ تتبعهما القطة البيضاء الضخمة . وكان « بيجر » لا يزال واقفا وقد استند بظهره الى الحائط .. يراقب : ويحاول أن يقيم كل حركة من حيث علاقتها به وبفرصته فى الحصول على النقود .

وسأل أحد الرجال المستر « بريتن » :

- هل يمكن أن نستخدم « تليفون » المستر « دالتون » ؟
- بالتأكيد ..

وقاد « بريتن » مجموعة منهم عبر السلم الى المطبخ على حين جلس الرجال الثلاثة الذين حضروا مع « بريتن » فوق احدى درجات السلم وهم يحدقون الى الارض فى وجوم .. ثم ما لبث الرجال الذين خرجوا ليتصلوا بصحفيهم أن عادوا .. وعاد « بريتن » هو الآخر وجلس فوق السلم .

www.liilas.com/vb3/

وسأله أحد المراسلين :

- اسمع : ألا تستطيع أن تعطينا مادة أكثر للكتابة ؟
- لقد قال لكم المستر « دالتون » كل شيء ..
فقال آخر :

- انها قصة كبيرة يا رجل .. قل لى ، كيف تلقت المسز «دالتون» هذه المأساة ؟

- لقد انهارت تماما ..

وساد الصمت لحظة ، ثم ما لبث « بيجر » أن رأى الرجال ينظرون اليه واحدا اثر الآخر . فأرخی بصره وأدرك أنهم يتحرقون لهفة على توجيه الأسئلة اليه .. ولم يعجبه ذلك . وجال بصره فى أرجاء الحجرة ووقع على النسخة المكورة من الصحيفة الملقاة فى الركن . وأحس برغبة عارمة فى أن يقرأها .. لسوف يلتقطها فى أول فرصة ممكنة ليعرف فحسب ما ذكره « جان » فى أثناء استجوابه . وكان الرجال قد بدءوا يجيلون أبصارهم فى أرجاء « البدروم » بلا هدف .. ينظرون فى أركانها ويفحصون الجاروف وصندوق المهملات والحقيبة ، ولاحظ « بيجر » أن أحد الرجال يقف أمام الموقد ويمد يده ويفتح بابَه وضوء اللهب يكسو وجهه وهو يطل الى الداخل ويتطلع الى وسادة الفحم المشتعل . ماذا

يحدث لو أنه قلب الفحم ؟ ماذا لو أن عظام « ماري » ظهرت ؟ وحبس « بيجر » أنفاسه . ولكن الرجل لم يقلب الفحم . . لا أحد اذن يشك فيه . لم يكن سوى مهرج أسود . وعاد يتنفس بعمق والرجل يفلق باب الموقد . وأحس بعضلات وجهه تهتز بعنف وتكاد تحمله على الضحك فأدار رأسه جانبا كيما يسيطر على أعصابه . فقد تملكته «الهستيريا» . وقال أحد الرجال :

— اسمع ؛ هل هناك مانع من أن نرى حجرة الفتاة ؟

فقال « بريتن » :

— ولم لا . .

وتبع الجميع « بريتن » يصعدون في السلم . . وأصبح « بيجر » وحده . . واتجه بصره على الفور الى الصحيفة . . أراد أن يلتقطها ولكنه كان خائفا . فأتجه الى الباب الخلفي لكي يتيقن أنه مغلق ثم صعد في السلم لكي يرى . . اذا كان هناك أحد داخل المطبخ . . ثم أسرع يهبط السلم ويختطف الصحيفة . وفتحها ورأى في قمته عناوين بحروف سوداء ضخمة :

البحث في هايد بارك عن وريثة اختفت منذ يوم السبت . .

يعتقد أن الفتاة تختفي عند الشيوعيين . .

البوليس يقبض على قائد الحمر المحليين . .

ويستجوبه عن علاقته بماري دالتون . .

السلطات تستند الى معلومات أدلى بها والد الفتاة . .

ورأى صورة « جان » تتصدر الصفحة الأولى . نعم كان « جان » عينه . . وبدأ « بيجر » يقرأ القصة المنشورة :

« هل هو الحلم بحل مشاكل البؤس الانساني والفقر عن طريق تقسيم ملايين أبيها على الطبقة الدنيا ، هو الذي أجبر « ماري دالتون » على أن تترك بيت أبويها المستر والسز . هنري ج . دالتون ؛ ٤٠٦٥ طريق دريكسل في حي هايد بارك ، وتبدأ حياتها تحت اسم جديد مع أصدقائها ذوى الشعور المسدلة في الحركة الشيوعية ؟ » .

« كان هذا هو السؤال الذى حاول رجال الشرطة أن يجدوا له جوابا في وقت متأخر من هذه الليلة عندما بدءوا يستجوبون جان ايرلون ؛ السكرتير التنفيذي لجماعة (المدافعين عن العمال) وهى منظمة

طلائعية شيوعية يقال ان « ماري » كانت عضوا فيها بالرغم من معارضة أبيها ... » .

ومضت القصة تقول ان « جان » قد ألقى القبض عليه للتحري في مركز شرطة الشوارع الحادي عشر وان « ماري » قد اختفت من بيتها منذ الساعة الثامنة في ليلة السبت . وأشارت الصحيفة كذلك الى أن « ماري » كانت في رفقة « إيرلون » حتى ساعة مبكرة من صباح يوم الأحد بمقهى سييء السمعة بالحى الجنوبي .. داخل « الحزام الأسود » .

كان هذا هو كل ما نشرته الصحيفة .. ولكن « بيجر » كان يتوقع أكثر من ذلك . وتفحص الصحيفة .. آه ، هناك شيء آخر فعلا ... هناك صورة « لماري » بدت أمام « بيجر » كما لم كانت حية ترزق .. فتذكر كيف كانت تبدو عندما رآها لأول مرة ثم أغمض عينيه قليلا : ها هو ذا مرة أخرى ينظر إليها فيتصبب عرق الخوف ليغمر جسده .. ويكاد يراها ورأسها ملقى تنزف الدماء منه وتسيل فوق أوراق الصحف . وقرأ « بيجر » عبارة فوق الصورة :

« التقطت لها وهي مع أبيها في هولندا » .. ورفع بصره عن الصورة ونظر الى الموقد .. وهو لا يكاد يصدق أنها بداخله تحترق ..

لم تكن القصة المنشورة في الصحيفة تدعو الى الانزعاج كما تصور .. ولكن ماذا سيحدث يا ترى بعد أن عرفوا أن « ماري » قد اختطفت ؟ وعندما سمع « بيجر » وقع أقدام رعى بالصحيفة الى الركن ووقف في مكانه الأول وظهره الى الحائط وعيناه فارغتان كمن يغالبه النوم . وفتح الباب وهبط الرجال السلم وهم يتحدثون في أصوات منخفضة مضطربة . ومرة أخرى لاحظ « بيجر » أنهم يحدجونه بنظراتهم .. وكان « بريتن » هو الآخر قد عاد معهم ..

وقال أحدهم :

— ولكن .. لماذا لا نستطيع أن نتحدث الى هذا الولد ؟

فقال « بريتن » :

— لأنه ليس لديه شيء يمكن أن يقوله .

— ولكنه يستطيع أن يقول لنا ما رآه ، فهو الذى كان يقود السيارة في الليلة الماضية .

— لا مانع عندي ... ولكن المستر « دالتون » قال لكم كل شيء .

واتجه أحدهم الى « بيجر » :

– اسمع يا « مايك » ، هل تظن أن هذا المدعو « إيرلون » هو الذى فعلها ؟

فقال « بيجر » فى ضيق وغضب :

– اسمى ليس « مايك » !

– أوه .. لست أقصد شيئاً . ولكن هل تظن أنه هو الذى فعلها ؟

وقال له « بريتن » :

– أجب عن سؤاله يا بيجر .

وأحس « بيجر » بالأسف لأنه سلك فى البداية أسلوب الغضب .
انه لا يستطيع الآن أن يحتمل الشعور بالغضب ، كما أنه ليس هناك
ضرورة تدعوه الى ذلك . ولماذا يغضب من مجموعة من الحمقى ؟ لقد كانوا
يبحثون عن فتاة .. والفتاة على بعد عشرة أقدام منهم .. تحترق ..
لقد قتلها وهم لا يعرفون أنه قتلها ؛ فليدعهم ينادونه بـ « مايك » كما
يشاءون !

وأخيرا قال « بيجر » :

– لست أدري يا سيدى .

– هيا هيا .. قل لنا ماذا حدث .

– أنا أشتغل هنا فحسب يا سيدى .

– لا تخف . لن يؤذيك أحد ..

– يستطيع المستر « بريتن » أن يقول لكم ..

وهز الرجال رؤوسهم وابتعدوا عنه وقال أحدهم :

– يا الهى .. « بريتن » .. كل ما حصلنا عليه عن قصة الاختطاف

أنكم تلقيتم خطاباً وأن « إيرلون » سيتم الافراج عنه وأن الخطاب موقع
بكلمة « الحمر » وأن هناك شارة المنجل والمطرقة .. وكل هذا لا يقيم
قصة تصلح للنشر . فلتقدم لنا اذن بعض التفاصيل ..

– اسمعوا يا رجال . أرجوكم أن تمنحوا الرجل العجوز فرصة

انه يحاول أن يسترد ابنته ؛ حية .. لقد أعطاكم مادة قصة ضخمة ،
فانتظروا الآن .

– قل لنا بصراحة الآن ، متى شوهدت الفتاة آخر مرة ؟

وسمع « بيجر » .. « بريتن » يقص لهم « الحكاية » كلها من جديد .
وأنصت في اهتمام الى كل كلمة قالها « بريتن » والى اللهجة التي وجه
بها الرجال أسئلتهم ، لأنه كان يريد أن يعرف .. اذا كان أحدهم يشك
فيه .. ولكنهم لم يظهروا ما يدل على ذلك .. فقد كانت أسئلتهم كلها
تشير الى « جان » :

وعاد أحدهم يسأل :

— ولكن لماذا يريد الرجل العجوز الافراج عن « جان » ؟

— خمن السبب كما تشاء ..

— هل تظن أن « لجان » يدا في اختطاف ابنته فهو يريد أن يفرج
عنه لكي يعيدها ؟

— لا أدري .

— أوه .. تكلم يا بريتن وأفصح .

— استخدم خيالك ..

وانصرف اثنان منهم ، وأدرك « بيجر » أنهما خرجا ليتصلا
تليفونيا بصحيفتيهما وينقلا اليهما مزيدا من المعلومات . وليقولوا ان
« جان » حاول أن يجعل منه شيوعيا وأنه أعطاه منشورات شيوعية وخرا
وحقيبة نصف فارغة طلب منه أن يحملها الى المحطة .. ولسوف يقولان
في النهاية كل ما سمعاه عن خطاب الاختطاف وعن طلب « العشرة آلاف
دولار » . وبدأ بعض الرجال « يفحصون » أرجاء « البدروم » ببطارياتهم
.. وكان « بيجر » لا يزال يقف مستندا الى الحائط على حين جلس
« بريتن » فوق إحدى درجات السلم . وكانت النيران قد بدأت تخمد
داخل الموقد ، وأدرك « بيجر » أنه ينبغي أن يخرج الرماد المتخلف في
أقرب فرصة ممكنة لأن النيران لم تكن مشتعلة كما ينبغي ، قد يستطيع
أن يفعل ذلك عندما تهدأ الضجة ويغادر الرجال كلهم البيت .

وسأله « بريتن » :

— أمر محزن للغاية يا بيجر .. أليس كذلك ؟

— بلى يا سيدى .

— أراهن بمليون دولار على أنها فعلة « جان » .

ولم يقل « بيجر » شيئا فقد كان يحس بما يشبه الشلل وهو
يقف مستندا الى الحائط وبأن قوة ليست في ذاته هي التي تصلب عوده .

وكانت الساعات التي مرت عليه قد اضطرتة فى النهاية الى ألا يجهد نفسه أكثر مما فعل ، ولم يعد فى وسعه أن يلجأ الى مزيد من الحيوية أو النشاط فى جسده ، ومن أجل هذا فقد تناسى حتى مجرد المحاولة ... ووجد نفسه يواجه الأمور كما اتفق .

وبدأ يحس بشيء من القشعريرة وهو يرى النار تتمد داخل الموقد حتى لا يكاد أوارها يسمع . وفجأة فتح باب « البدروم » ودخل أحد الرجال الذين كانوا قد خرجوا للاتصال بصحفهم وقد فغر فاه وابتل وجهه واحمر من أثر الثلج المتساقط فى الخارج .. وصاح :

- اسمعوا ..

- نعم ؟

- ماذا حدث ؟

- لقد أخبرنى محرر شئون المدينة بأن « ايرلون » لن يغادر

السجن ..

ولأول وهلة جعلتهم غرابة النبأ يلزمون الصمت .. واعتدل « بيجر » فى وقفته وهو يحاول أن يفهم ما يمكن أن يعنيه هذا النبأ . ثم ما لبث أحدهم أن وجه سؤالاً كان « بيجر » يود لو استطاع هو أن يوجهه :

- لن يغادر السجن ؟ .. ماذا تقصد ؟

- لقد رفض « ايرلون » أن يخرج من السجن عندما قالوا له ان المستر « دالتون » هو الذى طلب الافراج عنه . ويبدو أنه قد عرف بخبر الاختطاف وقال انه لا يريد الخروج من السجن .

فقال « بريتين » :

- هذا يؤكد أنه مذنب . انه لا يريد الخروج من السجن لأنه يعلم أنهم سيقتفون أثره ليعرفوا مكان الفتاة .. أفهتتم ؟ .. انه خائف ..

- وماذا أيضاً ؟ ..

- انه يقول أيضاً ان هناك أكثر من عشرة أشخاص يستطيعون أن يقسموا أنه لم يحضر الى البيت فى الليلة الماضية .

وتصلب جسد « بيجر » وانحنى الى الامام قليلا على حين قال

« بريتين » :

- هذا كذب . لقد رآه هذا الولد .

— أهذا صحيح يا ولد ؟

وتردد « بيجر » .. واشتم رائحة فنج ينصب له .. ولكن اذا كان « جان » يستطيع حقا أن يثبت بعده عن مكان الجريمة وقت حدوثها فلا بد أن يتكلم هو ويبيدهم عن التفكير فيه :

— نعم يا سيدى .

— اه .. لا بد أن هناك من يكذب ، ان « ايرلون » يقول انه يستطيع ان يثبت ذلك فصاح « بريتن » :

— الى الجحيم هذا الاثبات .. لا بد أن أصدقاءه من الحمر سوف يكذبون لمصلحته .. هذا كل ما فى الأمر ..

— ولكن لماذا لا يريد أن يغادر السجن ؟

— انه يقول ان بقاءه فى السجن سوف يؤكد أنه لا علاقة له بحكاية الاختطاف .. ويقول ايضا ان الولد يكذب ويدعى أنهم أمروه بأن يدلى بهذه الأقوال لكى يسيئوا الى اسمه وسمعته يقسم بأن العائلة تعرف مكان ابنتها وأن المسألة كلها مدبرة لالهاب المشاعر الحمر .. وتجمع الرجال حول « بيجر » :

— اسمع يا ولد .. احك لنا القصة الآن : هل حقا أن « جان » جاء الى هنا فى الليلة الماضية ؟

— نعم يا سيدى .. لقد كان هنا .

— هل رأيته أنت نفسك ؟

— نعم يا سيدى .

— أين ؟

— لقد أوصلته هو والآنسة « دالتون » الى هنا بالسيارة وصعدنا فى السلم معا لنحضر الحقيقة .

— وتركته هناك ؟

— نعم يا سيدى .

وكان قلب « بيجر » يدق بعنف ولكنه حاول أن يسيطر على وجهه وصوته فلم يكن يريد أن يلاحظ أحد أنه اضطرب لدى سماع تلك التطورات الجديدة ... وكان يعجب بينه وبين نفسه من أن « جان » يستطيع حقا أن يثبت أنه لم يحضر الى البيت فى الليلة الماضية ... ويفكر فى هذه النقطة بالذات عندما سأل أحدهم :

- وعلام يستند « جان » في اثباته هذا ؟
- انه يقول ان صديقا قابله بعد أن غادر الحفلة في الليلة الماضية وانه انضم الى حفل بعد أن ترك الآنسة « دالتون » في الثانية والنصف .
- وأين كان ذلك الحفل ؟
- في مكان ما بالحى الجنوبي
- اذا كان ما يدعيه صحيحا فلا بد أن فى هذا البيت شخصا مشبوها .

فقال « بريتن » :

- .. أبدا .. أراهنكم على أنه ذهب الى زملائه الذين دبروا معه الخطة . بالتأكيد هذا هو ماحدث . ولماذا اذن لا يؤكدون بعده عن مكان الجريمة ؟

- اذن فأنت تجزم بأنه هو الفاعل ؟
- بالطبع هو . ان هؤلاء الحمر يفعلون أى شىء . وهم دائما متعاونون .. بالتأكيد هو يستطيع أن يثبت بعده عن مكان الجريمة ولماذا لا يستطيع ؟ ان أمامه كثيرا ممن يعملون معه . ومحاولته البقاء داخل السجن ليست سوى خدعة .. ولكنه ليس ذكيا على أية حال . انه يعتقد أن زملاءه فى « العملية » سوف يتصرفون وحدهم ويتركونه بعيدا عن الشبهة .. ولكن خطته هذه لن تنجح .

وتوقف الحديث فجأة عندما فتح الباب الذى فى أعلى السلم وظهرت « بيجى » .

- هل تريدون بعض القهوة يا سادة ؟

- بالتأكيد ..

- هذا رائع

- حسن .. سوف أحضرها حالا ..

ثم أغلقت الباب خلفها .

- من تكون هذه المرأة ؟

فقال « بريتن » :

- انها الطباخة ومدبرة البيت .

– هل تعرف شيئا عن الموضوع ؟

– لا ..

واتجهت أنظار الرجال مرة أخرى الى « بيجر » الذى أحس بأنه يجب أن يقول لهم شيئا آخر جديدا . ان « جان » يقول انه يكذب . . . وعليه هو أن يزيل الشك من عقولهم . وقد يعتقد هؤلاء الرجال أنه يعرف الكثير اذا هو لم يتكلم . ثم ان تصرفاتهم حياله تؤكد أنهم لا يفكرون مطلقا فى أن يكون على صلة بحادث الاختطاف ، فلم يكن فى نظرهم سوى زنجى أسود جاهل ومن ثم فعليه أن يوجه انتباههم الى وجهة أخرى ، . . . « جان » . . . أو أصدقاء « جان » .

واقترب منه أحدهم وهو يستند بقدمه الى حافة الحقيبة وقال له :

– اسمع . . . هل حدثك « ايرلون » عن الشيوعية ؟

– نعم يا سيدي

وصاح « بريتن » :

– أوه . . .

– ماذا ؟

– لقد نسيت . دعونى أطلعكم على المنشورات التى أعطى الولد اياها ليقراها . . .

ووقف « بريتن » وقد كسا الانفعال وجهه . ودس يده فى جيبه وأخرج حزمة المنشورات التى أعطاها « جان » « بيجر » ثم لوح بها أمامهم وسرعان ماهرع الرجال الى آلات التصوير يلتقطون بها صورا للمنشورات . . . وسمع « بيجر » أنفاسهم المتلاحقة الثقيلة وأدرك أن المسألة أثارت انتباههم . . . وعندما انتهوا ، عادوا يلاحقونه :

– اسمع يا ولد . . . هل كان « جان » ثملا ؟

– نعم يا سيدي .

– والفتاة أيضا ؟

– نعم يا سيدي .

– وهل صعد الفتاة عندما وصلتكم الى البيت ؟

– نعم يا سيدي .

– قل لى : ما رأيك فى الملكية العامة ؟ هل تظن أن على الحكومة أن تبني للناس بيوتا يسكنون فيها ؟

ورمش « بيجر » بعينه وقال :

— ماذا تقصد ياسيدى ..

— مارأيك فى الملكية الخاصة ؟

— ليست لدى أملاك ياسيدى ..

— أوه .. انه غبى حقا ولا يعرف شيئا ..

وساد الصمت وعاد « بيجر » يستند الى الحائط وهو يأمل أن تكفيهم كلماته تلك ولو لفترة من الوقت . وكانت النار قد خمدت تماما داخل الموقد . وفتح الباب مرة ثانية وهبطت « بيجي » السلم وهى تحمل وعاء القهوة بيد ، وباليدي الأخرى تهيب مائدة صغيرة وضعت وعاء القهوة فوقها . ورأى « بيجر » خيطا رفيعا من البخار نقل الى خياشيمه رائحة القهوة . وأحس بشوق الى شئ منها .. ولكنه كان يعرف أنه لا يمكنه بحال أن يطلب ذلك على حين أن الرجال البيض يشربون . وتمتمت « بيجي » تقول وهى تنظر فى حياء الى الوجوه الغريبة حولها :

— أشكركم يا سادة .. سوف أحضر السكر والقشدة وبعض الأقداح ..

وقال « بريتن » :

— بيجر .. قل للرجال كيف سمح لك « جان » بأن تأكل معهما .

— نعم .. قص علينا هذه الحكاية .

— أحدث هذا حقا ؟

— نعم يا سيدى .

— وأنت لم تكن تريد أن تأكل معهما ؟

— لا يا سيدى .

— هل أكلت من قبل مع قوم من البيض ؟

— أوه .. لا يا سيدى .

— وكيف كان احساسك وأنت تأكل معه ومع الأنسة دالتون ؟

— لا أدري يا سيدى . لقد كنت أعمل فى خدمتها .

— لم تحس بالارتياح . أليس كذلك ؟

— سيدى . لقد طلبا منى أن آكل .. فأكلت .

— تعنى أنك اضطررت الى أن تأكل معهما حتى لا تفقد عملك .

— نعم يا سيدى .

وأحس « بيجر » بأن ذلك يجعله يبدو كرجل قليل الحيلة .
وصاح أحد الرجال :

- يا إلهي . يالها من قصة . ألا ترون معي أنها قصة غريبة ؟
هؤلاء الزوج يريدون أن يدعهم الناس وشأنهم . ثم يأتي هؤلاء الحمر
فيجبرونهم على أن يعيشوا معهم . . . رأيتم ؟ لسوف تحمل أسلاك البرق
في البلاد كلها هذه القصة .

وقال آخر :

- انها تفوق قصة « لويب » و « ليوبولد » . .
- سوف أتطرق بموضوع هذه القصة الى الحديث عن الزنجي
البدائي الذي لا يريد أن تقتحم حضارة البيض عليه حياته .
- انها فكرة مبدعة .

- وهل « إيرلون » هذا مواطن أمريكي حقا ؟

- هناك شك في ذلك .

- تبدو في اسمه مسحة أجنبية .

- هل هو يهودي ؟

- لست أدري

- على أية حال . . . ما عرفناه يكفي . . . فانت لا تستطيع أن تحصل
على كل ما تريد .

- انها مسألة تقليدية .

- انها مسألة طبيعية .

وقبل أن ينتبه « بيجر » وقف الرجال يوجهون نحوه آلات
التصوير . فحنى رأسه في بطاء حتى لا يدعهم ينتبهون الى أنه يحاول
أن يروغ منهم .

- اثبت قليلا يا ولد .

- قف معتدلا .

- انظر هكذا . حسنا . . . هكذا تماما .

نعم ، لسوف تكون لدى الشرطة صور كافية له . وأحس بالمرارة
وهو يفكر في ذلك : ثم ابتسم ابتسامة لم تصل قط الى شفثيه أو
عينيه .

وعادت « بيجى » تحمل الأقداح والأطباق والملاعق والقشدة
والسكر .

هيا يا سادة . القهوة أمامكم .

ثم استدارت الى « بيجر » وقالت له :

— الحرارة منخفضة فى البيت ، ويجدر بك أن تنظف الموقد من

الرماد وتشعل نارا جيدة .

— أمرك يا سيدتى .

ينظف الموقد . يا الهى . ليس الآن ، والرجال كلهم حوله . ولم
يتحرك من مكانه الى جوار الحائط . . بل ظل يوجه بصره نحو « بيجى »
وهى تصعد فى السلم ثم تغلق الباب خلفها . حسن ، لابد أن يفعل
شيئا . . لقد ألفت اليه « بيجى » بتعليماتها أمام هؤلاء الرجال . فإذا
لم ينفذها فسوف يبدو ذلك أمرا شاذا . وحتى اذا لم يقولوا شيئا ،
فلسوف تعود « بيجى » بعد قليل وتسأله عما فعل . نعم ، ينبغي له
أن يفعل شيئا . واتجه الى باب الموقد وفتحته وكان الفحم فى قاع الموقد
لا يزال مشتعلا . . ولكنه أدرك من ضعف الحرارة التى أحس بها وجهه أن
النار داخل الموقد ليست قوية كما ينبغي فلم تكن بالقوة التى كانت
عليها لحظة أن دفع « مارى » الى داخل الموقد . وحاول أن يفكر بسرعة
ليرى ما يمكن أن يفعله . ماذا يمكن أن يفعل حتى يتجنب مضايقات
الرماد المتخلف ؟ انحنى قليلا ، وفتح الجزء السفلى من الباب . .

ورأى الرماد المتساقط من الموقد يكاد يصل الى مستوى أعلى الباب
السفلى ، ومن ثم فلن يتاح للهواء الوصول الى جوف الموقد . هل يكتفى
بأن يضغط الرماد فيهبط قليلا بمستواه بالقدر الذى يكفى حتى يغادر
الرجال البيت ؟ فليحاول . أمسك باليد وحركها الى الأمام والى الخلف
وهو يراقب الرماد المتساقط الى الجزء السفلى من الموقد . ويسمع الرجال
خلفه يتبادلون الاحاديث وأصوات الملاعق فى الأقداح تصل الله . حسن ،
هكذا . لقد أسقط جانبا من الرماد الى القاع : ولكن الرماد ارتفع بما
يكفى منع وصول الهواء . . وعليه الآن أن يضع مزيدا من الفحم وأغلق
بابى الموقد العلوى والسفلى ثم جذب الرافعة وسمع صوت الفحم
المتساقط يرتطم بجدران الموقد من الداخل . . وامتلا جوف الموقد بالفحم
الأسود ولكن اللهب لم يرتفع . . ولم تشتعل النار . يا للجنة . وقف
ينظر الى الموقد فى يأس . هل يحاول أن يخرج من هنا ويترك كل
شئ ؟ كلا . لا جدوى هناك من الخوف . . فما زالت أمامه فرصة الحصول

على النقود . فليضع مزيدا من الفحم . . وقد يشتعل الفحم بعد قليل . . وعاد يجذب الرافعة . . وتساقط مزيد من الفحم واستطاع أن يرى الفحم داخل الموقد وهو يدخن ، كانت هناك فى البداية خيوط ضئيلة من الدخان الأبيض ثم بدأ الدخان يسود . . ويتسلسل الى خارج الموقد . وبدأت عينا « بيجر » تدمعان . . وبدأ يسعل

وبدأ الدخان يتسلسل بشدة الى خارج الموقد فى سحبات ثقيلة تكبر شيئا فشيئا وتملأ جو « البدروم » . وتراجع « بيجر » وقد امتلأ صدره بالدخان وانحنى يسعل بشدة . وسمع الرجال يسعلون . . ورأى أنه يجب أن يفعل شيئا بخصوص ذلك الرماد . . وبسرعة . ومد يديه وتناول الجاروف وفتح باب الجزء السفلى من الموقد . فانطلق الدخان كثيفا رهيبا . . ياللعنة .

وصاح فيه أحد الرجال :

– يجب أن تفعل شيئا لهذا الرماد يا ولد .

وانتهى اليه صوت « بريتن » يقول :

– ليس هناك هواء يصل الى النار يا « بيجر » .

– أمرك ياسيدى .

ولم يكن يستطيع أن يرى خلال هذا الدخان . . فوقف . ساكنا وقد أغمض عينيه وثقلت أنفاسه وهو يحاول أن يوقف هذا الدخان ويطرده . . وأمسك بالجاروف وحاول أن يتحرك ليفعل شيئا .

• ولكنه لم يدر ماذا يمكن أن يفعل .

– يا ولد . أخرج بعض هذا الرماد من هنا .

– ما الذى تفعله يا ولد . هل تحاول أن تخنقنا ؟

– وقال « بيجر » متمتما دون أن يتحرك من مكانه :

– اننى أخرجك يا سيدى .

ثم سمع صوت قذح يسقط فوق الأرض الصلبة واندفع أحد الرجال

يلعن :

– لا أستطيع أن أرى . . لقد أعمى الدخان عيني .

وسمع « بيجر » صوتا بجانبه ، وأحس بأن الرجل يحاول أن يجذب الجاروف من يده فتشبث به فى يأس لا يريد أن يتركه ويحس بأنه ان فعل ذلك فسوف ينكشف سره . . وتضيق حياته .

وقال الرجل صاخبا وهو يسعل بشدة :

— هات الجاروف . ب . ب . ب . سوف أب . . ساعدك .

وقال « بيجر » :

— لا ياسيدى . . . أ . . . أستطيع أ . . . أن أفعل ذ . . . ذلك .

— هات ياولد . . . دع ال . . . جا . . . روف .

وتراخت أصابع « بيجر » . . . وقال وهو لا يدرى ماذا يمكن أن يقول غير ذلك :

— أمرك يا سيدى .

— وسمع وسط سحببات الدخان ضربات الجاروف والرجل يحركه داخل الجزء السفلى من الموقد الذى يتلقى الرماد . وسعل « بيجر » بشدة وتراجع الى الخلف وقد التهبت عيناه كما لو كانت النار قد قفزت الى داخلهما ، وخلفه كان الرجال الآخرون يسعلون ، وفتح « بيجر » عينيه وحاول أن يرى ما يحدث ، وأحس بأن هناك حملا ثقيلا معلقا فوق رأسه يوشك أن يهبط فوقه ويسحقه سحقا . وبالرغم من الدخان . . . وبالرغم من عينييه المحترقتين وصدره الذى امتلأ بالدخان ، فقد ظل متصلبا فى مكانه وأحس برغبة فى أن ينقض على الرجل ويجذب الجاروف من يده ويهوى به فوق رأسه ثم ينطلق هاربا . ولكنه وقف جامدا فى مكانه ينصت الى ضربات الجاروف داخل الموقد . وأدرك أن الرجل يحرك الجاروف فى جنون داخل الجزء السفلى من الموقد وهو يحاول أن ينظفه بالقدر الذى يكفى أن يمر الدخان من الموقد الى المواسير ثم الى المدخنة .

وسمع الرجل يصيح :

— افتحوا الباب . . . أكاد أختنق .

وارتفعت الضجة . . . وهرع البعض يفتح الباب ، وأحس « بيجر » بهواء الليل البارد يلسعه . . . واكتشف فجأة أن العرق يكسو كل جسده . لقد حدث كل شيء فجأة وخرجت الأمور كلها من يده — ووقف مشدود الأعصاب ينتظر ما يمكن أن تأتى به الأحداث . . . وكان الدخان ينداح بحذائه نحو الباب المفتوح . . . وبدأت الحجرة تخلو تدريجا من الدخان ، ثم مالبت أن سمع الرجل يزوم وهو ينحنى ويتابع عمله . وفكر فى أن يتقدم منه ويطلب منه الجاروف ويقول له انه يستطيع اتمام عملية التنظيف ، ولكنه عجز عن الحركة وأحس بأنه سمح للأمور بأن

تنزلق من يده الى مدى لا يستطيع بعده أن يجمعها من جديد . ثم بدأ يسمع أوار اللهب بعد أن تخلل الهواء جوف الموقد . . وارتفع الأوار . . وأصبح صوت مرور الهواء واضحا .

وصاح الرجل :

— لقد كان هناك رماد كثير بداخل الموقد يا ولد . لا ينبغي أن تدعه حتى يصبح على هذه الحالة .

وقال « بيجر » فى همس :

— أمرك ياسيدي .

وارتفع أوار اللهب أكثر وأكثر . . وازداد صوت مرور الهواء وضوحا .

وقال أحد الرجال :

— أغلق الباب يا ولد . فقد برد جو الحجرة .

وأراد « بيجر » أن يتجه نحو الباب ويخرج ثم يغلقه ولكنه عجز عن الحركة .

وأغلق أحدهم الباب . . وأحس « بيجر » بأن الهواء البارد لم يعد يلسع جسده فنظر حوله ، وكان الرجال لا يزالون يقفون بالقرب من المائدة وقد احمرت عيونهم وهم يحتسون القهوة . .

وسأله أحدهم :

— ماذا بك يا ولد ؟

— لاشئ يا سيدى . . .

ووقف الرجل الذى كان يمسك بالجاروف أمام الموقد وجاس ببصره خلال الرماد المتساقط فوق أرض « البدروم » . ماذا يفعل هذا الرجل يا ترى ؟ رأى الرجل ينحنى ويقلب الرماد بالجاروف . الى أى شئ ينظر يا ترى ؟ . . وتصلبت عضلاته . وود لو هرع الى جوار الرجل ليرى ذلك الشئ الذى ينعم فيه النظر . . وارتسمت أمامه صورة رأس « مارى » ملقى هناك أمام عيني الرجل . . وهو لم يحترق بعد . وفجأة اعتدل الرجل . . لينحنى مرة أخرى كما لو كان عاجزا عن أن يصدق ما يراه . وتحرك « بيجر » الى الأمام قليلا وقد حبس أنفاسه . . وأصبح هو نفسه موقدا ضخما لا يصل الى جوفه هواء . . وكان الخوف الذى يتسلل الى بطنه وأعماقه ويهزه هذا ، أشبه بسحب الدخان التى كانت تخرج من خزان الرماد .

ونادى الرجل بصوت يملؤه الشك والتساؤل ..

— يا جماعة ..

وأجابه أحد الرجال على المائدة :

— ماذا ؟

— تعالوا الى هنا . انظروا .

وكان صوت الرجل منخفضا يعرفه الاضطراب والتوتر ، ولكنه كان يتكلم كمن تقطعت أنفاسه .. وكانت الكلمات تخرج من بين شفثيه دون جهد .

وترك الرجال أفداحهم وأسرعوا نحو كومة الرماد ، على حين ظل « بيجر » واقفا :

— ماذا هناك ؟

— ماذا حدث ؟

وسار « بيجر » على أطراف أصابعه ونظر من فوق أكتافهم دون أن يدري كيف واثته القوة على أن يفعل ذلك ، كل ماحدث أنه وجد نفسه يسير فجأة .. ثم وجد نفسه يقف خلفهم وقد اشرب عنقه فوق أكتاف الرجال ، ثم رأى كومة الرماد .. ولا شيء غير ذلك .. ولكن .. لابد أن هناك شيئا . والا فلماذا طلب اليهم الرجل أن ينظروا ؟

— ماذا حدث ؟

— انظروا ؟ هذه .

— ماذا ؟

— انظروا . انها ...

ولم يكمل الرجل عبارته .. ولكنه عاد مرة أخرى ويدفع الجاروف عميقا الى داخل كومة الرماد . واستطاع « بيجر » أن يرى على سطح كومة الرماد قطعاً كثيرة من العظام البيضاء واحتواه رعب غامر . نعم : كان ينبغي له أن ينظف الموقد من الرماد ولكنه كان مضطربا وخائفا .. ومن ثم أوقع نفسه بنفسه . الآن ، يجب أن يغادر البيت .. ويجب ألا يسكوا به .. ومضت بذهنه هذه الخواطر جميعها تزيد من ضعفه وقلة حيلته .

— انها عظام .

— أوه .. انها مجرد نفاية تحترق .

— كلا .. انتظر ، .. فلنر هذه ..

— «تورمان» اقترب هنا . لقد درست الطب ..

ودفع المدعو « تورمان » بقطعة العظام بقدمه بعيدا عن كومة الرماد فاستقرت على بعد بوصات قليلة منها فوق أرض الحجرة الصلبة .

— يا الهى . انها عظام آدمية .

— وانظر أيضا .. هناك شئ آخر ..

وانحنى أحد الرجال والتقط قطعة من معدن مستديرة وقربها من عينيه .

— انه قرط ..

وساد الصمت فجأة . وظل « بيجر » يحدق ببصره دون أن يفكر .. ودون أن يخطر بذهنه شئ . لم يعد يحس بغير احساسه القديم ، احساسه بأنه يملك حياته : كان زنجيا أسود وقع فى المحذور ، والرجال البيض كانوا ينظرون الى شئ سرعان ما سيتهمونه بشأنه . نفس الاحساس القديم ، ولكنه يجيء فى هذه المرة قويا ملحا .. أن يقبض بيديه على شئ ويهوى به على وجه أحدهم . وكان يدرك جيّدا أنهم ينظرون الى عظام جسد « مارى » ، وكان يدرك أيضا دون أن يحتاج الى مزيد من الايضاح ، كيف حدث ذلك . لابد أن بعض العظام لم تحترق تماما وسقط الى الجزء السفلى من الموقد عندما حرك اليد « ليخلخل » الرماد . وقد حرك الرجل الأبيض الرماد بالجاروف لكى يسمح للهواء بالمرور فظهرت العظام وسقطت مع ما سقط من الرماد على الأرض . وها هى ذى ملقاة أمامهم .. وسط كومة الرماد . لا يستطيع أن يبقى الآن هنا ، فقد يشكون فيه فى أية لحظة .. ولسوف يمسون به ولا يدعونه حتى ولو لم يكونوا على يقين من أنه هو الذى « فعلها » . كذلك فان « جان » لا يزال داخل جدران السجن يقسم أن لديه ما يثبت وجوده بعيدا عن مكان الجريمة . ولسوف يعرفون أن « مارى » قد ماتت بعد أن عثروا على عظامها .. ولسوف يبحثون عن القاتل .

وساد الصمت . وانحنى الرجال جميعا ينظرون الى كومة الرماد ويقلبونها . ووقع بصر « بيجر » على الساطور . يا الهى . الدنيا كلها تهتز الآن أمام ناظرية . وألقى « بيجر » بنظرة خاطفة الى ظهورهم وهم منحنون .. أنهم لا يرونه : كانت نيران الموقد تنعكس على وجوههم على

حين يعلو أوار اللهب . نعم . الآن يجب أن يخرج . سار الى الخلف من
الموقد على أطراف أصابعه . . وتوقف لحظة يرهف السمع . وكان
الرجال يتبادلون الهمسات فى ذعر .

— انها الفتاة . .

— يا الهى .

— من تظنون قد فعل هذه الفعلة ؟

وتسلل « بيجر » خارجا . . وصعد فى السلم على أطراف أصابعه
وهو يأمل أن يصرفهم أوار اللهب فى جوف الموقد وأصواتهم المختلطة
وصوت الجاروف عن أن ينتبهوا الى صوت صريف درجات السلم تحت
أقدامه . ووصل الى أعلى السلم وتنفس بعمق وأحس بالألم من طول
ماحبس أنفاسه فى صدره ثم تسلل الى باب حجراته وفتحه ودخل وأضاء
النور ، وثم استدار نحو النافذة ووضع يديه تحت رافعتها السفلى ورفعها
فأحس باندفاع الهواء المحمل بالثلج . وسمع صيحات مختلطة تتناهى
اليه من أسفل السلم فأحس بجوفه يكاد يحترق وأسرع الى الباب يغلقه
ثم أطفأ النور وتسلىق حافة النافذة والرياح الباردة المحملة بالثلج
تضرب وجهه ، وظل لحظة وقد انحنى فوق حافة النافذة والرياح تهز
جسده الذى يكسوه العرق وتطلع ببصره وهو يحاول عبثا أن يرى
الأرض من خلال الثلج المتساقط . . وأخيرا قفز من النافذة ، دون أن
يفكر وهو يحس مع اندفاعه بأن جسده يدور فى الهواء المحمل بالثلج
. . وظل لحظة فى الهواء المحمل بالثلج وقد أغمض عينيه وضم قبضتيه
حتى ارتطم بالأرض . وخيل اليه فى البداية أنه ارتطم بالأرض برفق ،
ولكن عنف الصدمة مالبث أن صعد الى ظهره ثم الى رأسه . . ووجد
نفسه ملقى على الأرض فى ذهول وقد غطته كومة من الثلج البارد الذى
وجد طريقه الى داخل فمه والى عينيه وأذنيه وتسلل الى ظهره . وكانت
يده باردتين مبللتين . ثم أحس بأن كل عضلات جسده تهتز بعنف وقد
تمسكتها تشنجات لا ارادية . وبأن الماء الدافئ يبلل نصفه الأسفل .
كان قد بال على نفسه ، فلم يستطع أن يسيطر على عضلات جسده الدافئ
وقد كسا الثلج البارد جسده كله . ورفع رأسه ورمش بعينيه ثم نظر
الى أعلى وعطس . الآن يعود الى ذاته . حاول أن يبعد الثلج عن جسده ونهض
واقفا بعيدا عما كان يحيط به من ثلج ثم سار . . ثم حاول أن يعدو ولكنه
أحس بضعف بالغ . وسار فى طريق « دريكسل » دون أن يدري الى أين

هو ذاهب .. كل ما كان يعرفه لحظتها أنه يجب عليه أن يبتعد عن هذه الضاحية البيضاء . وتجنب خط السيارات ، ولجأ الى الشوارع المظلمة وهو يسرع فى مشيته أكثر وأكثر .. بصره الى الامام وان كان ينظر الى الخلف من حين لآخر .

نعم .. يجب أن يخبر « بيسى » بآلا تذهب الى ذلك البيت . لقد انتهى كل شيء وعليه الآن أن ينقذ نفسه . ولكن هروبه ذلك كان شيئاً مألوفاً . فقد كان يحس طول حياته بأن شيئاً كهذا سوف يحدث له ان عاجلاً أو آجلاً .. وها قد حدث له ما ظل دائماً يحس به . وقد كان يحس دائماً بأنه غريب عن هذا العالم الأبيض ، وها هو ذا احساسه يتحقق ، الأمر الذى يجعل الأشياء واضحة أمامه . وتحسس بيده المسدس داخل قميصه نعم ، كان لا يزال فى مكانه .. وربما اضطر الى استخدامه .. وربما اضطر أن يطلق النار قبل أن يسمح لهم بالامساك به : هو الموت على أية حال ومهما اختلفت الطرق ، ولسوف يطلق النار قبل أن يموت .. وحتى آخر رمق فيه .

ووصل الى طريق « كوتيج جروف » وسار جنوباً . وأدرك أنه لا يستطيع أن يدبر أية خطة حتى يقابل « بيسى » ويحصل على النقود . وحاول أن يبعد عن ذهنه الخوف من أن يقبضوا عليه .. وحنى رأسه تحت الثلج المتساقط وظل يسير فى شوارع كساها الثلج وقد ضم قبضتيه بقوة . وبالرغم من أن يديه كانتا قد تجمدتا تقريبا فانه لم يضعهما فى جيوبه حتى يتسنى له أن يدافع عن نفسه اذا فاجأته الشرطة .. وظل يسير بحذاء مصابيح الانارة التى تكسوها الثلوج فتبدو كأنها أقمار متجمدة فوق رأسه . وقد أحس بالألم يعتصر وجهه من أثر البرودة التى هبطت درجتها الى ما تحت الصفرة والرياح التى تصطدم بجسده المبتل فكأنها نصال مدى طويلة حادة تنغرس فى قلبه .

وأصبح الشارع السابع والأربعون على مرمى بصره .. ورأى وسط الثلج المتساقط صبياً يقف فى « كشك » لبيع الصحف ، فجذب طرف قبعته الأمامى الى أسفل ودلف الى مدخل أحد البيوت ليتقى الثلج وينتظر سيارة ، واستطاع أن يرى الى الخلف من الصبى بائع الصحف كومة عالية من الصحف .. وأراد أن يقرأ العناوين الضخمة ولكن ستارة الثلج المتساقط حجبت عنه الرؤية .. لسوف تمتلئ الصحف بأخباره الآن وهو أمر لا يبدو غريباً بالنسبة اليه ، فقد ظل يحس طوال حياته

بأن كل ما يحدث له ينبغي أن يجد طريقة الى هذه الصحف ولكن هذه الصحف لن تنشر قصته الا بعد أن قاداته أحاسيسه تلك الى أن يفعل ما فعل . لقد كان يشعر بأن هذه الصحف لم تكن لتنشر كلمة واحدة عن قصته تلك لو أنه أبقاها حبيسة تحترق في أعماق قلبه ، ولو لم يقذف بها هو نفسه في وجه أولئك الذين أجبروه على أن يعيش كما أردوا ورسوموا . وأخرج من جيبه « سنتين » ثم اتجه الى الصبي بائع الصحف وهو يحرص على ألا يرى وجهه وقال :

— صحيفة « تريبيون » .

ثم عاد بالصحيفة الى مدخل البيت الذي كان يحتوى به . . . وقفز بصره الى العناوين الرئيسية :

اختطاف وريثة مليونير . . الخاطفون يرسلون خطابا يطلبون فيه عشرة آلاف دولار كفدية .

أسرة « دالتون » تطلب الافراج عن الشيعي المشتبه فيه .

نعم ، لقد عرفوا الحقيقة الآن . . . وما أسرع ما ستنشر الصحف قصة موتها ، وقصة المراسلين الذين عشروا على عظامها داخل الموقد ، وقصة رأسها الذي فصل عن جسدها وقصة هروبه وسط الاضطراب الذي ألم بهم . ورفع بصره قليلا وقد سمع صوت سيارة تقترب وعندما اقتربت وجدها خالية من الركاب أو تكاد . جميل . . . وانطلق يعدو في الشارع حتى أدرك سلم السيارة بعد آخر رجل يصعد اليها . . . ودفع الأجرة . . . وتطلع ليري . . . هل « الكمساري يراقبه ؟ ثم سار داخل السيارة وهو يراقب وجوه الركاب . . . هل هناك من ينظر اليه في اعماق ؟ . . . ثم وقف خلف السائق . اذا حدث شيء ما . . . يستطيع أن يفادر السيارة بسرعة . وتحركت السيارة وعاد هو يفتح الصحيفة . . . ويقرأ :

« كان أهم ما حدث من تطورات في القضية التي تحير الرأي العام وشرطة الولاية ، هو أن خادمة البيت اكتشفت مساء أمس خطابا مكتوبا بالقلم الرصاص يطلب أصحابه فيه عشرة آلاف دولار ، كفدية في مقابل إعادة « ماري دالتون » الوريثة التي اختفت في شيكاغو وقد طلبت أسرة « دالتون » فجأة ، الافراج عن « جان إيرلون » الزعيم الشيوعي الذي تم القبض عليه للاشتباه في وجود علاقة له باختفاء الفتاة »

« ولقد عثرت على ذلك الخطاب الذي يحمل توقيع « الحمر » ورسم

ثم قرأ « بيجر » سطورا طويلة تصف « استجواب سائق زنجى »
.. وتشير الى « الحقيقية نصف الفارغة » و « المنشورات الشيوعية » و
« السكر .. » و « الأبوين المذعورين » و « قصة جان المختلفة » والتقطت
عيناه عبارات « الاجتماعات السرية » اتاحت الفرصة لاتمام عملية الاختطاف
و « طلب عدم تدخل الشرطة » و « الأسرة القلقة تحاول أن تتصل
بالخاطفين » ثم :

« ويسود الاعتقاد بأن الأسرة تلقت معلومات تؤكد أن ايرلون يعرف
كل شيء عن مكان الآنسة دالتون . وتقرر دوائر الشرطة أن هذا هو
السبب فى أن الأسرة طلبت الافراج عن ذلك المتطرف « جان » .

ومن ناحية أخرى فقد طلب ايرلون أن تعلن على الرأى العام التهم
التي من أجلها ألقى القبض عليه .. بدعوى أن الشرطة قد فعلت ذلك
كجزء من خطة ترمى الى طرد الشيوعيين من شيكاغو . وحين لم يجب
طلبه رفض أن يغادر السجن : الأمر الذى دفع سلطات الشرطة الى ابقائه
داخل « زنزانه » بتهمة السلوك المنافى للنظام والقانون .

ورفع « بيجر » بصره عن الصحيفة ونظر حوله وتيقن أن أحدا
لا يراقبه . وكانت يدها ترتعشان من الاضطراب على حين السيارة تواصل
طريقها وسط الثلوج .. وعندما لاح له عن قرب الشارع الخمسون
اتجه الى باب السيارة وقال :

— سوف أنزل .

وتوقفت السيارة .. وهبط منها الى أرض الشارع قريبا من بيت
« بيسى » . وتطلع نحو نافذتها ورآها مظلمة . وأثار غضبه احتمال
وجودها الآن فى الخارج تشرب الخمر مع بعض أصدقائها . ودلف الى
المدخل وسره أنه مضاء .. وسره أكثر أن جسده بدأ يحس بشيء من
الدفء . يستطيع الآن أن يكمل قراءة الصحيفة .. عاد يفتحها ثم رأى
لأول مرة صورته ، وفوقها عبارة « الحمر حاولوا أن يصطادوه » ..
كانت صورة صغيرة كتب اسمه تحتها .. يبدو فيها هادئا أسود اللون
ينظر الى الأمام مباشرة والقطعة البيضاء تستقر فوق كتفه وعيناها

الواسعتان السوداوان تخفيان سرا لاستطيع أن تبوح به • ثم • آه •
هذه صورة للمستتر والمسر دالتون يقفان على درجات سلم « البديوم » •
نفس الصورة التي رآها على الطبيعة قبل ساعتين فحسب • يا الهى ،
ان هذا العالم الأبيض الذى يستطيع أن يفعل هذه الأشياء بمثل هذه
السرعة ، يستطيع أيضا أن يقتفى أثره ويوقع به : لقد كانت صورة
الرجل العجوز الأشيب والمرأة العجوز بشعرها ناصع البياض وهما يقفان
على درجات السلم ويدهما مبسوطتان أمامهما فى توسل ورجاء •
كانت هذه الصورة أشبه برمز قوى للألم واليأس وقلة الحيلة يكفى أن
يثير ضده أكبر قدر من الكراهية عندما يكتشفون أن زنجيا هو الذى قتل
« مارى » •

وأحس « بيجر » بشفتيه تتصلبان • لم يعد هناك أمل الآن فى
الحصول على النقود ، فقد عثروا على « مارى » ولن يوقفهم بعد هذا شيء
حتى يعثروا على قاتلها ، ولسوف يخرج أكثر من ألف شرطى ليقترحوا
الحى الجنوبي بحثا عنه أو عن أى رجل يشبهه •

وضغط زر الجرس وانتظر الاجابة • أهى فى حجرتها ؟ • وعاد
يضغط زر الجرس ويبقى أصبعه فوقه حتى جاء الرد فانطلق يصعد فى
السلم لاهت الأنفاس • وعندما وصل الى الطابق « الثانى » كانت
أنفاسه قد تقطعت • فاضطر الى التوقف وأغمض عينيه ليستريح قليلا •
ثم فتح عينيه بعد لحظة ورفع بصره ورأى « بيسى » تنظر اليه كالنائمة
وقد « وارت » باب حجرتها • وصعد « بيجر » فى السلم ثم دخل
الحجرة ووقف أمامها لحظة وسط الظلام • ثم قال :

– أضيئى النور •

– بيجر • ماذا حدث ؟

– قلت لك أضيئى النور •

ولم تقل شيئا • ولم تتحرك من مكانها ، وترنح هو الى الأمام
باحثا بيده عن مفتاح النور حتى وجده وأضاء الحجرة ، ثم استدار ينظر
حوله كمن يتوقع أن يرى أحدا يختبئ فى أركانها • وتقدمت منه
« بيسى » ونست ملابسها وهى تقول :

– ماذا حدث ؟ • ان ملابسك مبتلة •

– لقد انتهى كل شيء •

فقالت فى لهفة :

– لن أفعل اذن شيئا ؟

وقال لنفسه : هاهى ذى الآن تفكر فى نفسها فحسب • وهاهو
ذا قد أصبح وحيدا •

– بيجر •• قل لى ماذا حدث ؟

– لقد عرفوا كل شيء •• ولسوف يكونون فى أثرى بعد قليل •

والجمها الخوف عن أن تبكى أو تصيح •• وظل هو يدور وسط
الحجرة بلا هدف وقدماء تتركان حلقات من الماء القذرة على أرض الحجرة
الحشبية •

– قل لى يا بيجر •• أرجوك ••

كانت تتقرب الكلمة التى تحررها من ذلك الكابوس المفزع ، ولكنه
لا يريد أن يقولها •

•• كلا •• فلتنظل معه ، فليظل أحد معه الآن •

وأمسكت بمعطفه وأحس بجسدها يرتعش •
– وهل سيبحثون عنى أنا أيضا يا بيجر ؟ أنا لم أكن أريد أن أفعل
ذلك ••

نعم : سوف يقولها لها •• وسوف يدعها تعرف كل شيء ، ولكن
بطريقة تربط مصيرها بمصيره •• ولو لفترة ما على الأقل ، فهو لا يريد
أن يصبح الآن وحيدا •• قال لها :

– لقد وجدوا الفتاة •

– وماذا سنفعل يا بيجر ؟ رأيت ما فعلته بى ؟

وبدأت تبكى •

– كفى عن البكاء •

– هل قتلتها حقا ؟

– لقد ماتت •• وعثروا عليها •

وألقيت « بيسى » بنفسها فوق السرير وأخذت تبكى • ثم عادت
تسأله وقد التوى فمها وبللت الدموع عينيها :

– و •• و •• هل أر •• سلت الخطاب ؟

– نعم ••

وانتجبت «بيسى» وهى تصيح :

• بيجر •

— لا فائدة الآن من البكاء •

— يا الهى • لسوف يبحثون عنى •• وسوف يعرفون أنك أنت الذى فعلتها ويبحثون عنك فى بيتك ويسألون أمك وأخاك •• وكل انسان ولسوف يحضرون الى الآن بالتأكد •

كان كل ما تقوله صحيحا ، ولم يعد أمامها الا أن تكون معه حيثما ذهب ، فلو أنها بقيت بحجرتها لقدموا اليها •• ولسوف تنام هى ببساطة فوق سريرها وتفضى اليهم بكل شيء •• ولن تملك أن تفعل شيئا غير ذلك • وكل ما سوف تقوله لهم : طباعه ، وحياته •• سيساعدهم فى اقتفاء أثره •

— هل النقود معك ؟

— انها فى جيب ثوبى •

— كم ؟

— تسعون دولارا ••

— حسنا •• وماذا تنوين أن تفعلى ؟

— أود لو استطعت أن أقتل نفسى •

— لا تتكلمى بهذه الطريقة ••

— ليست هناك طريقة أخرى يا بيجر •

•• وواتته فكرة خاطفة •• فليجربها ••

— اذا لم تتكلمى بطريقة أفضل ، فسوف أخرج •

وصاحت وهى تنهى •• وتهرع نحوه :

— لا •• لا •• لا يا بيجر •

— حسن •• كفى عن ذلك اذن •

ثم استدار يجلس على احد المقاعد وهو يحس بمدى التعب الذى يستبد به • لقد أتاحته بعض القوة أن يهرب من بيت « دالتون » وأن يجرى الى هنا ليقف ويتحدث الى « بيسى » ولكنه يحس الآن بأنه لن تواتيه القوة التى تمكنه من أن يتابع الهرب ان اقتحمت عليه الشرطة الحجره فجأة •

وسألته « بيجى » وهى تتحسس كتفه :

— هل أنت مصاب ؟

وانحنى يدفن وجهه بين راحتيه •

— بيجر •• ماذا حدث ؟

وتنهذ قائلاً :

— أنا متعب •• وأحس بحاجة شديدة الى النوم •

— سأعد لك شيئاً تأكله ••

— بل أريد شيئاً أشربه ••

— لا •• لا ويسكى •• أنت تحتاج الى بعض اللبن الساخن •

وانتظر وهو يسمع حركتها بالقرب منه •• وخيل اليه أن جسده قد تحول الى كتلة من الرصاص البارد الثقيل يكسوها العرق ويفريها الألم • وأفرغت « بيسى » زجاجة من اللبن داخل وعاء وضعت فوق موقد « كهربائى » ثم عادت اليه ووضعت يديها فوق كتفيه وقد بللت الدموع عينيها :

— أنا خائفة يا بيجر •

— ينبغي ألا تخافى الآن •

— لم يكن ينبغي أن تقتلها يا حبيبى •

— لم أقصد ذلك • ولكننى كنت مضطراً • وأقسم لك •

— ماذا حدث ؟ انك لم تقبل لى قط ماذا حدث •

— أوه •• ياللجنة لقد كنت داخل حجرتها •

— حجرتها ؟

— نعم • لقد كانت ثملة وغائبة عن الوعى • و ••• وحملتها الى هناك •

— وماذا فعلت ؟

— لم •• لم أفعل شيئاً • ودخلت أمها الحجرة •• انها عمياء ؟

— الفتاة ؟

— كلا •• أمها هى العمياء • ولم أرد أن تجدنى هناك ، وحاولت الفتاة

أن تقول شيئاً فتملكنى الخوف ووضعت حافة الوسادة فوق فمها و ••

لم أقصد أن أقتلها • كل ما فعلته أنني وضعت الوسادة فوق وجهها • •
فماتت • لقد دخلت أمها الحجرة وحاولت الفتاة أن تقول شيئاً لأمها • •
وكانت أمها تمد يديها نحوها هكذا • • أرأيت وخشيت أن تلمسني
فضغطت على الوسادة بقوة فوق وجه الفتاة لكي أمنعها من الصياح • •
ولم تلمسني أمها فقد رغبت بعيداً عن يديها ، ولكن عندما غادرت الأم
الحجرة ، اتجهت الى السرير و • • ورأيت أن الفتاة • • قد ماتت • • هذا
هو كل ما حدث • • • • • لقد ماتت • • ولم أكن أقصد •

– ألم تكن تفكر في قتلها ؟

– • • مطلقاً • • وأقسم على ذلك • ولكن ما الفائدة ؟ • • لن
يصدقني مخلوق •

– أرأيت يا حبيبي ؟

– ماذا • •

– سوف يقولون • •

ثم عادت تبكي فأمسك بوجهها بين يديه وقد انتبه جيداً • • وود
لو استطاع أن يرى الأمور كلها في تلك اللحظة من خلال عينيها • •

– ماذا سيقولون ؟

– سوف • • سوف يقولون انك قتلتها •

وجمدت نظراته • كان قد نسي تماماً تلك اللحظة التي حمل فيها
« ماري » وصعد بها في السلم • • ومن ثم فقد أجهد نفسه كيما يعود
فيتذكرها فيتضح له معناها الحقيقي • • لسوف يقولون بالفعل انه قتلها
ولن تكون هناك وسيلة يستطيع أن يثبت بها أنه لم يقتلها عمداً •

وسألته « بيسي » :

– هل عثروا عليها ؟

– « هه » ؟

– هل عثروا عليها ؟

– نعم • • عظامها • •

– عظامها ؟

– أوه يا « بيسي » • • لم أكن أدري ماذا أفعل • • لقد رضعتها

في الموقد •

وارتمت « بيسي » بوجهها تدفنه بين طيات معطفه المبلل وهي تصرخ
فى عنف :

- بيجر ..

- « هه » ..

- ماذا نحن فاعلان ؟

- لا أدرى .

- لسوف يبحثون عنا ..

- ولديهم صورتي .

- أين يمكننا أن نختبئ ؟

- نستطيع أن نختفى مدة فى بيت من تلك البيوت القديمة .

- ولكنهم قد يعثروا علينا هناك .

- هناك كثير من هذه البيوت .. وإذا نحن اختفينا فى أحدها

فكأننا اختفينا فى أدغال .

وكان اللبن يغلى فوق الموقد .. ونهضت « بيسي » وهي لا تزال
تبكى وأطفأت الموقد وصبت اللبن فى كوب عادت به اليه . وأخذ
« بيجر » يحتسى اللبن فى بطة ثم أزاح الكوب جانبا وعاد ينحنى على حين
ساد الصمت . وأعادت اليه « بيسي » الكوب مرة أخرى فأفرغه فى جوفه
فملأته له مرة ثانية . ووقف « بيجر » ، وقد أحس بجسده كله يغمره
« خدر » النوم .

-- ارتدى ملابسك وخذى هذه البطاطين « والأخفة » .. فيجب أن
نخرج من هنا .

واتجهت الى السرير تجمع ما فوقه من أغطية ووسائد ، على حين
اقترب « بيجر » منها ووضع يديه على كتفيها وقال :

- أين الزجاجة ؟

وأخرجت « بيسي » الزجاجة من حقيبة يدها وقدمتها اليه فتناول
جرعة كبيرة ثم أعادها فى مكانها وقال :

- هيا .. أسرعى .

وكانت تبكى فى صمت وهي تنهى ما بيدها وتتوقف من لحظة

لأخرى لتمسح دموعها .. ووقف « بيجر » في وسط الحجرة وهو يفكر
لعلهم الآن يبحثون عنه في بيته ، ولعلهم يتحدثون في هذه اللحظة بالذات
الى أمه وأخته فيرا وشقيقه « بدى » .. واتجه الى الستائر فأزاحها
وتطلع الى الشوارع فرآها بيضاء خالية ، فاستدار الى « بيسى » ورآها
قد انحنى فوق كومة الأغطية .. بلا حراك .

– هيا .. يجب أن نغادر هذا المكان .

– لم يعد يهمنى ما يحدث .

– هيا .. ولا تتصرفى هكذا .

ماذا يفعل بها ؟ قد تكون حملا ثقيلا وخطيرا ؟ ولسوف يكون من
المستحيل أن يصحبها معه اذا ظلت تتصرف بهذه الطريقة .. وهو أيضا
لا يستطيع أن يتركها خلفه . لقد أدرك بطريقة تضمن له أن يكون بعيدا
عن أى خطر . ولقد فكر في ذلك الأمر مليا ، وكأنما هبط عليه الحل
نتيجة منطق لم يكن له .. منطق ليست له عليه سيطرة ولكن عليه
طاعته .

– هل تريد أن أدعك هنا ؟
– لا .. لا .. لا .. بيجر ..

– اذن هيا .. ضعى قبعتك على رأسك وارتنى معطفك .

وكانت تواجهه . ثم ما لبثت أن خارت ركبتاها فارتمت على
الأرض وهى تن :

– يا الهى .. وما فائدة الهرب ؟ لسوف يقبضون علينا على أية حال
.. كان ينبغى أن أعرف أن هذا سيحدث .

وضمت يديها أمامها وظلت تميل الى الأمام والى الخلف وقد أغمضت
عينيهما على دموعها . ومضت تقول :

– لقد كانت حياتى مملوءة دائما بالمتاعب : لم أكن جائعة ، ولكننى
كنت مريضة . وحتى عندما لم أكن مريضة كانت المتاعب تحيط بى من كل
جانب ، اننى لم أؤذ مخلوقا فى حياتى .. كنت أعمل فحسب .. أعمل
كل يوم .. ولا أكف عن العمل حتى يهلكنى التعب فألجأ الى الحمر كيما
تنسينى آلامى . كنت أشرب كى أنام . هذا هو كل ما كنت أفعله .
وهأنذا أجد نفسى فى هذه المصيبة ، انهم يبحثون عنى : وعندما يمسون
بى فسوف يقتلوننى .

— ثم مالت برأسها الى الأرض وهى تقول :

— الله وحده يعلم لماذا كنت أسمح لك بأن تعاملنى تلك المعاملة .
والآن أتمنى من الله أن لم أكن قد رأيتك .. أتمنى ان كان أحدا قد مات
قبل أن يولد .. الله يعلم أننى أتمنى ذلك الآن . دائماً كنت تاجر على
المتاعب السوداء . كنت أعتقد أننى سعيدة . ولكننى كنت أدرك فى
أعماقى أننى لست كذلك . أرى الآن جيداً .. أرى كل شيء بعد أن
دفعتنى الى جريمته . لقد كنت غبية عمياء خرساء سوداء سكيرة . الآن
يجب أن أهرب ، وأنا أعلم جيداً أنك لاتهتم بذلك .

ثم توقفت «بيسى» .. وجسدها كله يرتعش . ولم يكن «بيجر»
ينصت الى ما قالت . بل قفزت مع كلماتها الى وعيه آلاف من تفاصيل
حياتها التى عرفها طويلاً . وجعلته هذه الكلمات يدرك أن «بيسى» ليست
فى حالة تسمح لها بأن تمضى معه الى النهاية ، وليست أيضاً فى حالة
تسمح له هو بأن يتركها خلفه . ولم يكن يدرك ذلك بدافع من الغضب
أو الأسف .. بل باحساس رجل يرى ما ينبغى أن يفعله كيما ينقذ نفسه
ويشعر بأنه مضطر الى ذلك .

— هيا يا «بيسى» .. لا يمكن أن نظل هنا هكذا .

وانحنى اليها وأمسك ذراعها بيد ، وحمل «صرة» الأغطية بالأخرى
.. ثم جرها معه خارجاً من باب الحجرة . وأغلقه وراءه . وهبط السلم
وجاءت هى خلفه تتعثر وتبكي . وعندما أصبح فى مدخل البيت أخرج
مسدسه من داخل قميصه ووضعه فى جيب معطفه ، فربما اضطر الى أن
يستخدمه فى أية لحظة .. الآن أصبحت حياته بين يديه ، فكل ما يمكن
أن يحدث منذ هذه اللحظة يتوقف عليه فحسب .. وعندما أحس بذلك
زأبله بعض الخوف .. فقد أصبحت الأمور «بسيطة» مرة أخرى .. وفتح
باب البيت وهبت على وجهه ريح محملة بالثلج فتراجع نحو «بيسى» :

— أين الزجاجاة ؟

ومدت له يدها بالحقيبة فأخرج الزجاجاة وتناول منها جرعة ثم
أعادها اليها :

— خذى .. يحسن أن تشربى قليلاً ..

وشربت .. ثم أعادت الزجاجاة الى داخل الحقيبة . وخرج الاثنان

يسيران فى السّوارع التى كساها الثلج وسط رياح عاصفة • وتوقفت مرة عن السير وبدأت تبكى • فأمسك بذراعها وقال :

– أغلقى فىك •• هيا •

وتوقف الاثنان أمام مبنى مرتفع غطته الثلوج وبدأت نوافذه خالية من «الدرف» ، مثلما تبدو محاجر عيين فى جمجمة فارغة • وتناول «بيجر» الحقيبة من يدها وأخرج البطارية ومد ذراعه يساعدها على صعود السلم حتى باب المبنى الأمامى نصف المفتوح • ثم دس كتفه بين «درفتيه» ودفعه فانفتح محدثا صوتا عاليا خشنا • وبدأ داخل البيت مظلمًا حالك السواد لم يجد معه ضوء البطارية الهزيل • وكانت رائحة العطن تغمر المكان كنه ثم مالبت أن سمع صوت أقدام سريعة فوق الأرض الخشبية •• وشهقت «بيسى» وأوشكت أن تصرخ ، ولكنه ضغط بقوة على ذراعها حتى تعثرت وهى تثن من الألم • وصعدا فى السلم •• وهو يسمع «طرقعات» خفيفة مستمرة مثلما يصدر عن شجرة تهتز وتنحنى للرياح • وأحاط خصرها بيده ووضع الصرة تحت إبطه ، على حين أخذ يزيل عن عينيه وشفتيه نسيج العنكبوت الكثيف • وصعدا الى الطابق الثالث •• واختار حجرة بنافذة تطل على منور ضيق •• وأرضها من الخشب القديم • وصوب ضوء البطارية •• ورأى أرض الحجرة قذرة سوداء •• وأبصر «بقالبى طوب» فى أحد أركانها • ونظر الى «بيسى» ، وكانت تغطى وجهها بيديها وان استطاع أن يلمح دموعها المتساقطة فوق أصابعها السوداء • وألقى الى الأرض بصرة الأغطية والملابس وقال :

– افتحيها وافرشى الأرض •

وأطاعته • ووضع هو الوسادتين بالقرب من النافذة حتى اذا استلقى كانت النافذة فوقه مباشرة • وكان مقرورا يرتعش وأسنانه تصطك ، ووقفت «بيسى» مستندة الى الحائط تبكى •

– هونى عليك ••

وفتح النافذة قليلا ونظر الى المنور ورأى الثلج يتساقط على سطح البيت • ونظر الى أسفل فلم ير سوى الظلام الذى كانت تسبح فيه من حين لآخر تنف بيضاء تهبط من السماء وتهاوى ببطء وتنعكس عليها أشعة البطارية الخافتة • وأغلق «بيجر» النافذة واستدار الى «بيسى» التى لم تكن قد غادرت مكانها •• وسار عبر الحجرة وتناول الحقيبة من يدها

وأخرج الزجاجه ثم أفرغها فى جوفه • وأحسن بذلك صنعا ، فقد ألهبت
الحمر جوفه وأنسته برودة الجو وعويل الرياح فى الخارج • وجلس الى حافة
الفراش وأشعل سيجارة ، وكانت أول سيجارة يدخنها منذ وقت طويل
• • وجعل يجذب أنفاسها الدافئة ثم ينفث دخانها فى بطء • • وكانت
الحمر قد غمرته بالدفع • • وبدأت تدير رأسه • • وعادت «بيسى» تبكى
فى هدوء وبشكل يدعو الى الرثاء •

— هيا • • استلقى هنا •

وأخرج مسدسه من جيب معطفه ووضعها الى جانبه فى متناول يده •

— هيا يا «بيسى» • سوف تتجمدين من البرد اذا ظللت واقفة
هكذا •

ثم وقف وخلع معطفه وبسطه فوق البطانية كغطاء اضافى ، وأطفأ
ضوء البطارية وهو يحس بأن الحمر قد بدأت تهدده وتخدع أحاسيسه
على حين بكاء «بيسى» يتناهى اليه خلال جو الحجرة البارد • وجذب آخر
انفاس السيجارة ثم سحقها • • واقتربت «بيسى» على حين استلقى هو فى
هدوء وهو يحس بدفع الحمر يسرى فى جسده وبأعماقه تنوتر كما لو كان
قد اضطر الى أن يظل واقفا لمدة طويلة فى وضع متعب • • ثم لم يستطع
أن يرخى جسده تماما عندما أتيح له ذلك • •
وتساءل :

— تحسين بالبرد ؟

— نعم •

— اقتربى •

— لم أكن أتصور أن ستكون هذه حالى •

— لن يظل الأمر هكذا دائما •

— ليتنى أموت الآن •

— لا تقولى هذا •

— أحس بالبرد يغمر جسدى كله وبأننى لن أدفأ أبدا •

وتذكر أنه كان قد رأى عندما دخل الحجرة ، قالبى طوب فوق
أرضها • • يجب أن يعثر عليهما أو على واحد منهما على الأقل • لعله كان
من الأفضل ألا يقول لبيسى شيئا عن الجريمة • ولكنه كان خطؤها
هى ، فقد ضايقته كثيرا حتى اضطر الى أن يخبرها • • وكيف كان على

أية حال يتصور أنهم سيعثرون على عظام « ماري » داخل الموقد بهذه السرعة ؟ .. ولحظتها عاودته صورة الدخان المتصاعد من الموقد وقطع العظام البيضاء ، ولكنه لم يشعر بالأسف . لقد ظل يحدق الى هذه العظام دقيقة كاملة ولم يستطع لحظتها أن يتحقق أنها كانت عظام « ماري » حقا . لقد ظن لحظتها أنهم عثروا على دليل آخر يريدون أن يواجهوه به فجأة .. ولم يكن يتصور قط أنه يستطيع أن يقف وينظر الى هذا الدليل دون أن يعرفه ..

وعادت أفكاره الى الحجرة . ماذا عن بيبي ؟ انه لا يستطيع أن يصحبها معه ، كما أنه لا يستطيع أن يتركها خلفه . واستعاد الى ذهنه صورة الحجرة كما رآها على ضوء البطارية عندما دخلها أول مرة لقد كانت النافذة خلفه .. وفوق رأسه تماما . والبطارية كانت الى جواره .. والمسدس الى جوار البطارية ومقبضه الى ناحيته حتى يستطيع الإمساك به واستخدامه بسرعة .. لكنه لم يكن يستطيع أن يستخدم المسدس ، فهو كفيف بأن يحدث صوتا عاليا . يجب اذن أن يستخدم قالب الطوب . وتذكر لحظة أن فتح النافذة .. انها لم تحدث صوتا . نعم . هذا هو بالضبط ما يستطيع أن يفعله بها : أن يلقي بها من النافذة الى المنور الضيق حيث لا يعثر عليها انسان الا اذا تعفنت الجثة .

انه لا يستطيع أن يتركها هنا .. ولا يستطيع أن يصحبها معه . فلو أنه صحبها معه لظلت تبكي كل لحظة ولظلت تلومه على ما حدث .. ولسوف تلاحقه بطلب الويسكي كيما يساعدها على أن تنسى .. ولسوف تكون هناك أوقات يعجز فيها عن أن يلبي طلباتها هذه . وكانت الحجرة مظلمة ساكنة .. والمدينة كأنها ليست كائنة على الاطلاق .. واعتدل جالسا في بطة وقد حبس أنفاسه وأرهف السمع . وسمعها تتنفس بعمق وانتظام وهي نائمة .. انه لا يستطيع أن يصحبها معه .. ولا يستطيع أن يتركها خلفه .. ومد يده وتناول البطارية ثم عاد يرهف السمع وينصت الى أنفاسها المتعبة . وكان في جلسته تلك يرفع الغطاء عن جسدها .. ولم يكن يريد أن تحس بالبرد فتستيقظ ، فأعاد الغطاء في بطة .. ورآها لا تزال نائمة . وضغط على زر البطارية .. وقفزت بقعة من الضوء على الحائط المقابل .. وأدار البطارية في اتجاه الارض حتى لا يوقظها الضوء ، وبينما كان يفعل ذلك قفز الى بصره في لحظة خاطفة أحد قالبى الطوب اللذين رآهما عندما دخل الحجرة ..

وتصلب جسده ، وتلملمت « بيبي » فى رقدتها ، وتوقفت أنفاسها

المنتظمة .. وأرهف « بيجر » السمع ، ولكنه لم يسمع صوت أنفاسها .
وخيل اليه لحظتها أنه « يرى » أنفاسها كخيوط أبيض رفيع يمتد عبر
هوة حالكة السواد . وأحس بأنه يتشبث في يأس بذلك الخيط ..
وينتظر ليرى .. إذا كانت قوة الشد فيه ستسمح له بأن يهبط في
سلام الى الارض .. ثم عاد يسمع أنفاسها من جديد ، شهيق .. زفير ،
شهيق .. زفير .. وعاد هو أيضا يتنفس . ويحاول ألا يرفع صوت
أنفاسه فيوقظها من نومها . ولحظتها أدرك من شدة ما عاناه من خوف
أنه ينبغي أن ينهى الامر بسرعة ، فانسى من تحت البطانية ثم انتظر
قليلا وتيقن أن « بيسي » عادت تتنفس بانتظام . ورفع ذراعه وأزاح
البطانية عن باقى جسده ثم وقف فى حركة بطيئة وهو يسمع عويل
الرياح فى الخارج ، واستندارت يده بالبطارية الى وجهه « بيسي » .
نعم ، لقد كانت نائمة ووجهها الاسود يبدو ملطخا بآثار الدموع ..
وأطفأ البطارية ثم اتجه نحو الحائط وقدماه العاريتان تحسان ببرودة
الارض .. وبحث عن قالب الطوب حتى عثر عليه فقبض عليه بيده وعاد الى
الفراش وهو يسير على أطراف أصابعه يهديه صوت أنفاسها فى الظلام
.. وتوقف حيث تصور موضع رأسها . انه لا يستطيع أن يصحبها
معه .. ولا يستطيع أن يتركها خلفه . ومن ثم كان من الضروري أن يقتلها
لقد كانت حياته فى مقابل حياتها . وأضاء البطارية بسرعة حتى يرى
موضع ضربته بالضبط ثم عاد يطفىء البطارية خوفا من أن تستتيقظ
« بيسي » .. وهو يتخيل فى الظلام وجهها الاسود الهادى فى نومتها
العميقة

وشد قامته ورفع قالب الطوب بيده ولكنه ما لبث أن توقف وقد
ارتفعت ضربات قلبه وكأنها تعتسف طريقها داخل صدره . لا .. ليس
بهذه الطريقة . وغاضت أنفاسه وتصلبت عضلات جسده وهو يحاول
أن يفرض عليه ارادته . وأحس بأنه لم يكن يجدر به أن يستسلم لمثل
ذلك الاحساس . وفجأة زائله الرعب بأسرع مما ألم به ، ولكنه اضطر
الى أن يقف لحظة حتى تعاوده تلك الصورة التى تدفعه وتحركه ..
ورغبته فى أن يفلت من يد القانون . نعم ، يجب أن تتم الامور بهذه
الطريقة .. وعادته صورة الشبح الابيض .. وصورة « ماري » وهى
تحترق .. وصورة « بريتن » .. والقانون الذى يقتفى الآن أثره . ومرة
أخرى أصبح مستعدا : قالب الطوب فى يده ، وفى ذهنه يتصور يده ترتفع
وتهبط فى قوس وهمى سريع وخاطف . وتوقف لحظة يتصور مكان
رأسها وظل فى مكانه بلا حراك : « هكذا ينبغي أن تتم الامور » .. ثم

جذب نفساً عميقاً .. ورفع يده وهوى بها فى الظلام مع نفثه عميقة من صدره امتزجت بصوت اصطدام رهيب .. هكذا .. وسمع شهقة دهشة .. ثم أنينا .. كلا ، لا ينبغي أن يكون هناك أنين . ورفع القلب مرة ثانية وثالثة .. حتى أحس به فى النهاية يصطدم بكتلة ساكنة مبتلة تتهاوى بلا مقاومة تحت كل ضربة .. ثم ما لبث أن أحس بأنه أصبح يضرب كيساً من القطن أو مادة مبتلة رطبة ليس فيها من حياة سوى صوت ارتطام قلب الطوب بها . وأخيراً توقف .. ولم يعد يسمع سوى أنفاسه الثقيلة تدخل وتخرج من صدره ، وقد أحس بالعرق يغمر جسده وابتعد يتسلل إليه . ولم يدرك لحظتها كم مرة رفع قلب الطوب وهوى به على رأسها ، كل ما استطاع أن يدركه أن الحجرة كانت ساكنة باردة .. وأن المهمة قد انتهت ..

وكانت يده اليسرى لا تزال ممسكة بالبطارية لا تسمح منها بغير خيط ضئيل من الضوء ، وأراد أن يوجه ضوءها لكى يطمئن الى موتها حقاً .. ولكنه لم يستطع . وظل واقفاً وقد حنى ركبتيه قليلاً مثلما يفعل عداء فى بداية السباق . وعاوده الخوف مرة أخرى .. وعاد يرهف السمع من جديد . ألم يسمعها تتنفس ؟ وانحنى بنصت ، ولكنها كانت أنفاسه هو .. لقد كان يتنفس بصوت مرتفع الى درجة لم يستطع معها أن يعرف .. اذا كانت « بيسى » لا تزال تتنفس أولاً .

وبدأت أصابعه الممسكة بقلب الطوب تحس بالالام بعد أن ظل ممسكاً به بضع دقائق بكل ما أوتيته جسده من قوة . وأحس بشيء دافئ أزج فوق يده .. وغمره احساسه بذلك الشيء فكأنما سرت حرارته الى جسده كله تغمر بشرته . وأراد أن يلقي بقلب الطوب وأن يزيل ذلك الدم الدافئ الذى يزحف ويكبر ويزداد تمكناً منه مع كل لحظة تمر . ولكن فكرة مفزعة أعجزته عن الحركة . ماذا لو أن « بيسى » لم تكن قد ماتت كما بدا له ؟ ماذا لو أنه أدار ضوء البطارية فرآها ملقاة على الارض هناك تحديق اليه بعينيها الواسعتين السوداوين وقد فتحت فمها الدامى فى فزع ودهشة وألم واتهام ؟ ولفحته رعشة أشد برودة من جو الحجرة وأحاطت بكتفيه كأنها غطاء نسيجه من الثلج ، واستبدت به الى حد لم يعد يحتمله .. وأحس بشيء ما فى أعماقه يصرخ فى ألم صالت ثم انحنى حتى لمس قلب الطوب الارض فانفرجت عنه أصابعه ، ووضع يده على بطنه يمسحها بمعطفه ثم ما لبث أنفاسه أن هدأت حتى لم يعد يسمعها .. وأدرك بعدها بقينا أن « بيسى » لم تكن تتنفس . وكانت الحجرة حوله ساكنة تملؤها البرودة والموت والدم .. والآن العميق لرياح الليل .

ولكنه كان مضطرا الى أن يلقي نظرة ، فرفع البطارية ووجهها نحو رأس « بيسي » . ثم أضاءها فقفزت دائرة الضوء على مساحة خالية من أرض الحجر ، فأخذ يحرك الدائرة . آه . هذه هي . الدماء والشفاه والشعر والوجه كلها تنتجه الى اتجاه واحد . والدماء تسيل في بطنه و « بيسي » تبدو كالمشلولة . الآن يستطيع أن يتصرف . وأطفأ البطارية ثم أخذ يمعن التفكير : « هل يتركها في مكانها ؟ لا . ينبغي ألا يفعل ذلك : فقد يعثر عليها أحد هناك . »

واتجه الى أقصى الفراش وهو يتجنب جثتها ثم استدار وأضاء البطارية وركز دائرة الضوء نحو النافذة ثم اتجه نحوها وتوقف وكأنما ينتظر أن يمنعه أحد أن يفعل ما كان يفعل ، ولكن شيئا لم يحدث . فتشبث بحافة النافذة ورفعها وهبت ريح على وجهه . ثم استدار وعاد الى « بيسي » مرة أخرى ووجه ضوء البطارية الى وجهها ثم أطفأها وأعادها الى جيبه وتقدم في حرص وسط الظلام ونهيا لأن يحملها بين ذراعيه . ولكن ذراعيه تدلنا الى جنبه . وظل واقفا بلا حراك . يجب أن يرفعها . يجب أن يحملها الى النافذة . وانحنى ودفع بيديه تحت جسدها وهو يتوقع أن تصطدم بالدماء . ولكنها لم تصادف دماء في طريقها . ثم رفعها وهو يحس . كما لو أن الرياح تصرخ محتجة على ما يفعل ، واتجه نحو النافذة ورفعها اليها : وكان يعمل في لهفة وسرعة ودفع بها خارج النافذة بقدر ما أوتي من قدرة على أن يمد ذراعيه . ثم خلى عنها يديه ، وسقط الجسد في المنور الضيق يصطدم بجوانبه وهو يهوى في الظلام . قبل أن يرتطم بالقاع .

وأخرج البطارية وأضاءها فوق الفراش وهو يكاد يحس بأنه سيجد « بيسي » لاتزال ممددة هناك ، لكنه لم ير غير بركة من الدماء الدافئة وسحابة ضئيلة من البخار تحوم فوقها وكانت الدماء تلوث الوسائد هي الأخرى : فرفعها بيديه وألقى بها من النافذة . وانتهى كل شيء .

وأغلق « بيجر » النافذة في هدوء . كان يود لو استطاع أن يترك انفراس في مكانه ولكنه كان مقرورا وفي حاجة الى الدفء ، فكومه في « صرة » حملها معه الى « الصالة » ثم توقف فجأة وقد فغرفاه . يا الهي . يا للجنة . لقد كانت داخل جيب ثوبها . لقد قذف بجثة « بيسي » من المنور والنقود داخل جيب ثوبها . ماذا يفعل ؟ هل ينزل ليأخذ النقود ؟ وتملكه الأسى والأسف . كلا ، انه لا يريد أن يراها مرة أخرى ، فقد أحس بأنه رأى وجهها مرة أخرى فقد يتملكه احساس عميق

بالذنب لا يقدر على تحمله • لقد كان أحرق ولا شك حين قذف بجثتها والنقود لاتزال داخل جيبها • وتنهى فى ألم وعاد يسير عبر « الصالة » ثم دلف الى حجرة أخرى • لا بأس ، يجب عليه أن يدبر أموره بدون هذه النقود •• فقد انتهى الأمر • وفرش الأغصية على أرض الحجرة ولف بها نفسه وكان كل ما معه سبعة سنتات •• سبعة سنتات فحسب هى التى تحول بينه وبين الموت جوعا • وبينه وبين القانون والايام الطويلة المقبلة •

وأغضى عينيه تواقا الى نوم لا يريد أن يداعب عينيه • لقد عاش يوميه ولينتيه الاخيرتين ساعات قاسية وسريعة ، لا يستطيع أن يستجمع شتاتها فى ذهنه الا بجهد بالغ ، وكان الخطر والموت قريبين منه الى درجة لم يستطع معها أن يحس بأنه هو حقا الذى نجا منهما • ومع ذلك •• وبعد كل ما حدث •• وبالرغم من كل ما لقيه فى هذين اليومين ، فقد بقى لديه احساس غامض بالقوة •• « هو » الذى فعل ذلك كله ، فهاتان الجريمتان هما أكبر الاشياء التى حدثت له طوال حياته كلها •• معنى • فقد أحس معهما بأنه كان يعيش بصدق وبعمق بصرف النظر عن رأى الآخرين الذين ينظرون اليه بعيون عمياء • ولم يحدث له طوال حياته أن أوتى الفرصة ليعيش ولوللحظات ، بعيدا عن تبعات أعماله أو أن يحس بمثل الحرية التى أحس بها فى هذا اليوم واليلة •• من الجريمة والهرب ••

لقد قتل أخيرا مرتين كما قتل مرات كثيرة من قبل ، ولكنه لم يحس قط قبل اليومين الاخيرين بأنه ارتكب جريمة قتل حقيقية •• طالما ناوشه الغضب الاعمى فكان يضطره الى الاختفاء خلف ستار أو حائط صنعهما لنفسه • أو الى الشجار والقتال • وفى كلتا الحالتين كان يحس بحاجة الى الرضا الكامل وهو يواجه هذه الامور فى تمامها أو القتال فى سبيلها وسط الريح أو تحت الشمس •• أمام أولئك الذين يبلغ كرههم له من العمق أنهم يستديرون نحوه بعد أن يلجئوه الى ركن حقيق من المدينة ليتعفن ويموت •• ثم يقولوا له - مثلما قالت له مارى فى تلك اليلة وهم داخل السيارة : « أود لو استطعت أن أعرف كيف يعيش قومك » •

ولكن ماذا سيحدث الآن ؟ ما الذى كان يريد ؟ ما الذى كان يجب عليه وما الذى كان يكره ؟ لم يكن يدري من ذلك شيئا • كانت هناك أمور « يدركها » وأمور أخرى « يحسها » •• أمور منحه اياها العالم وأخرى حصل عليها هو بنفسه ، أمور كانت تنبسط أمامه •• وأخرى تمتد خلفه •• ولم يحدث قط طوال حياته أن اقترن عالم الفكر وعالم الاحساس ،

عالم الارادة وعالم العقل ، عالم الأمل وعالم الرضا ، كذلك لم يحس قط طوال حياته باحساس السلامة أو الصحة . فلقد كان العالم يبدو له أحيانا وهو جالس داخل حجرته أو سائر في الطريق . . . عالما غريباً كثير المتاهات حتى ولو كانت الطرقات أمامه مستقيمة وكانت الحوائط مربعة . . . فقد كان العالم حوله وهو نوع من الاضطراب والتخبط يجعله يحس بأنه لا بد له من شيء ما بداخله يتيح له أن يفهم هذا العالم ، ولكن ذلك الصراع لم يكن يجد عنده الحل الا تحت ضغط الكراهية ، فهو لم يعيش حياته الا فى بيئة لم تكن تدفعه فيها الى الحركة سوى الصفعات والكلمات القاسية . . . وهى حركة لم تكن تجدى لان الدنيا حوله كانت أشد قسوة من احتماله ، ومن ثم فقد كان يغمض عينيه ويضرب كالأعمى . . . يضرب من يستطيع وما يستطيع دون أن يلقي بالا الى من سيرد الضربة .

وتحت وطأة ذلك كله - وهو أمر كان يزيد الامر صعوبة أمامه - لم يكن يريد أن يصدق ما يحدث له . كان يكره أمه بسبب أسلوبها الذى يشبه أسلوب « بيسى » فان أمه كانت متدبنة . . . وكان هذا التدبين بالنسبة اليها هو « الويسكى » بالنسبة « لبيسى » فهو لم يكن يريد أن يجلس ويغنى أو يستلقى فى ركن وبنام ، ولم يكن يدرك حقيقة ما يريد الا عندما يقرأ الصحف والمجلات أو يتردد على دور « السينما » أو يسير فى الشوارع وسط الجموع . . . لقد كان يحس فى أثناء ذلك بأنه يذوب وسط الآخرين وبأنه جزء من هذا العالم . . . وبأنه يختفى داخله كيما يجد نفسه من جديد : وبأنه يعيش مثل الآخرين بالرغم من كونه أسود لون البشرة .

وتقلب « بيجر » فى قلق فوق فراشه القاسى وأحس بأنه قد أصبح وسط دوامة من الافكار والمشاعر ، وعندما فتح عينيه رأى ضوء النهار من خلال النافذة القذرة القائمة بأعلى رأسه . وقفز من فراشه وتطلع من خلال النافذة ورأى أن الثلج قد توقف هطله وأن المدينة لاتزال بيضاء ساكنة تمتد سطوحها بيضاء مقترنة بالسماء . لقد ظل يفكر فى هذه المدينة ساعات طوالا . . . ثم هامى ذى أمامه بيضاء ساكنة . ولكن ذلك الذى كان يفكر فيه بشأنها كان يختلف عن حقيقتها التى يراها الان على ضوء النهار ، فقد كانت وهو يفكر فيها راقدا فى الظلام ، تفتقر الى شيء ما يراه الان . لماذا ياترى لا ينهض هذا العالم الابيض البارد مثل حلم جميل يستطيع أن يسير فيه ويحيا آمنا كما لو كان فى بيته . . . وأن يعرف فيه « ببساطة » ما يمكنه وما لا يمكنه أن يفعل ؟ ولكن لماذا يفكر

فى مثل هذا الآن ؟ لقد سبق السيف العذل ، وقد ارتكب جريمتى قتل
•• ومن ثم فقد خلق لنفسه عالما خاصا به •

وغادر الحجرة واتجه الى نافذة فى « الطابق » الاول تطلع من
خلالها • وكانت الشوارع لا تزال هادئة خالية من السيارات وعلامات
الطريق مختلفة تحت ركام الثلج ولم يكن هناك شك فى أن العاصفة قد
عطلت حركة المرور فى المدينة كلها •

ورأى بنتا صغيرة تتعثر فى طريقها فوق الثلوج وتتوقف عند
« كشك » لبيع الصحف على « الناصية » •• ورأى رجلا يخرج من أحد
المحال ويبيع البنت احدى الصحف • هل يستطيع ياترى أن يخطف
واحدة من هذه الصحف على حين الرجل داخل المحل يحتذى من البرد ؟
كان الثلج ناعما وكثيفا •• وقد يمسك به الرجل وهو يحاول الهرب
بعيدا عنه • هل يستطيع أن يعثر على مبنى خال يقرأ الصحيفة بداخله
بعد أن يختطفها ؟ نعم ، •• هكذا ينبغي أن يفعل •• تطلع حوله فى حذر
•• ولم ير أحدا بالقرب من المكان ، فخرج من باب المبنى وهو يحس
بلسعات البرد مثل حديد محمى فوق وجهه •• وظهرت أشعة الشمس فجأة
وبقوة فتراجع كما لو كان يروغ من ضربة وقد لمعت أمام عينيه ملايين
انشرارات تؤلمهما •• ثم اتجه نحو « كشك » الصحف ولمح عنوانا رئيسيا
ضخما : « مطاردة زنجرى فى مصرع فتاة » نعم : لقد عرفوا كل شيء •
وتابع سيره وظل يبحث عن مكان يختبئ بداخله بعد أن يسرق الصحيفة ،
ورأى أحد المباني الخالية على احدى « النواصي » بنافذة مفتوحة فى
« الطابق » الاول منه ، نعم ، هذا هو المكان المناسب • لقد رسم خطة
للعمل فى حرص وحذر ، فلم يكن يريد أن يقال انه أقسدم على كل تلك
الأفعال ثم ألقى القبض عليه وهو يسرق صحيفة قيمتها ثلاثة سنتات •

واتجه الى المحل : وتطلع بداخله ورأى الرجل مستندا الى الحائط
يدخن • نعم ، هكذا •• وامتدت يده •• وجذب صحيفة وهو يراقب
الرجل جيدا ويتيقن أنه لا يراه وهو يدخن وقد تدلت السجارة الى
ذقنه الأسود • وقبل أن يحرك قدميه من مكانه •• بدأ يجرى •• ثم
ما لبث أن ترحلق فوق الثلج • ياللعنة • لقد عاد العالم الأبيض يتراقص
أمام عينيه والرياح المحملة بالثلج تصفع وجهه بعنف • وسقط على
الأرض وقطع الثلج تحز فى يديه • ثم نهض على ركبة واحدة •• ثم على
ركبتيه ، وبعدها وجد نفسه يستدير ناحية المحل وهو لا يزال ممسكا

بالصحيفة وقد استبدت به الدهشة والغضب من تصرفه الأحمق .. وفتح باب المحل .. وانطلق « بيجر » يجرى .
- أنت ..

وبينما كان يندفع نحو ممر خصوصى رأى الرجل يقف وسط
الثلوج وينظر اليه وأدرك أنه لن يتبعه .
- هيه .. أنت .

واندفع نحو النافذة وقذف بالصحيفة الى الداخل ثم تشبث بحافتها وقفز الى الداخل ثم عاد يقف على قدميه ويتطلع من خلال النافذة الى الممر .. ورأى كل شيء أبيض ساكناً .. والتقط الصحيفة وسار متجها الى الردهة .. وخرج منها ليصعد فى الدرج الى « الطابق » الثالث مستخدماً بطاريته وهو يسمع صدى وقع أقدامه خافتاً وسط فراغ المبنى وتوقف وتحسس جيبه فى ذعر وقد فغر فاه . نعم ، لا يزال فى مكانه .
نقد ظن لحظة أن مسدسه قد سقط من جيبه عندما ترحلق فوق الثلج منذ لحظات .. ولكنه كان لا يزال فى مكانه . وجلس على آخر درجة بالسلم وفتح الصحيفة .. ولكنه ظل لحظات لا يقرأ .. كان ينصت الى القرقرة التى تحدثها الرياح وهى تهر المبنى . نعم ، لقد أصبح وحده الآن .
وتطلع الى الصحيفة .. وبدأ يقرأ العناوين الرئيسية :

« مندوبو الصحف يعثرون على عظام ابنة دالتون داخل الموقد .
اختفاء سائق زنجى .

خمسة آلاف شرطى يحاصرون حى السود .
السلطات تشير الى جريمة ..

الزعيم الشيوعى يثبت بعده عن مكان الجريمة .
أم الفتاة تنهار .. »

ثم توقف لحظة وعاد يقرأ :

« السلطات تشير الى جريمة » .. هذه الكلمات قد فصلته تماماً عن العالم فعندما تشير السلطات الى وجود هذه الجريمة ، فان ذلك يعنى أنها تحكم عليه بالموت وتنتزع منه الحياة حتى قبل أن يلقى القبض عليه .. معنى ذلك الموت .. حتى قبل أن يجيء الموت . لأن البيض الذين سيقرونها هذه الكلمات سوف يقتلونه على الفور .. بقلوبهم . وعاد يقرأ :

لقد اتضحت فجأة حقيقة مأساة اختطاف الأنسة ماري دالتون عندما اكتشف جماعة من مندوبي الصحف بطريق المصادفة عددا من العظام - اتضح فيما بعد أنها عظام الوارثة المختفية - داخل موقد بيت آل دالتون في وقت متأخر من هذا اليوم ..

« وقد جرى البحث عن الزنجي في بيته « الكائن » بطريق انديانا رقم ٣٧٢١ في قلب الحى الجنوبي .. ولم يسفر هذا البحث عن الكشف عن مكان وجوده الآن . وتعتقد سلطات الشرطة أن الأنسة دالتون قد لقيت مصرعها على يدي هذا الزنجي .. وأن جثة الفتاة البيضاء قد أحرقت لازالة آثار الجريمة » .

ورفع « بيجر » بصره .. وأحس بيده اليمنى تنقبض وتهتز . وأدرك أنه بحاجة الى المسدس فى يده : فأخرجه من جيبه وأمسك به ثم عاد يتابع القراءة :

« وعلى الفور أحاط بالحى الزنجى نطاق من خمسة آلاف شرطى يدعمهم أكثر من ثلاثة آلاف متطوع . وقد صرح جليمان قائد الشرطة هذا الصباح . بأنه يعتقد أن الزنجى لا يزال داخل المدينة حيث أن جميع الطرق المؤدية الى شيكاغو قد أغلقتها الثلوج المتراكمة . وقد احتدت سورة الغضب الى أقصى الحدود بعد أن انتشر نبأ جريمة الزنجى وقتله للوارثة المختفية . وصرحت دوائر الشرطة بأن كثيرا من نوافذ الزوج قد حطمت » .

« ويجرى الان إيقاف كل سيارة أو حافلة أو قطار يغادر الحى الجنوبي للتفتيش كما بدأ رجال الشرطة والمتطوعون المسلحون بالبنادق والغاز المسيل للدموع والبطاريات والمزدودون بصور القاتل ، .. بتفتيش كل منازل الزوج فى الشوارع الثامن عشر بأمر « مفتوح » من المحافظ . وهم يجرون الآن تفتيشا دقيقا لكل المباني المهجورة التى يقال انها مخبىء مألوفة للمجرمين الزوج » .

« وقد توجه وفد من الآباء البيض الى هوارس مينتون المشرف العام على مدارس المدينة يرحونه أن يصدر أوامره بإغلاق كل المدارس حتى يتم القاء القبض على القاتل الزنجى .. وذلك خوفا منه على أرواح أبنائهم » .

وقد وردت أنباء تفيد بأن عددا من الرجال الزوج قد تعرضوا للضرب فى أماكن متفرقة من الاحياء الشمالية والغربية المجاورة لحى

الزواج ، وفي ضاحيتي هايد بارك وانجلوود ، كون الرجال جماعات من المتطوعين وبعثوا الى جليلمان يعرضون استعدادهم للمساعدة » .

« وقد صرح جليلمان صباح اليوم ، بأن مساعدة مثل هذه الجماعات قد لقيت القبول .. وبأن ذلك ضرورى للغاية بسبب النقص الشديد فى قوات الشرطة وارتفاع موجة جرائم الزواج بالمدينة .. هذا وقد تم اللقاء القبض على عدة مئات من الزواج الذين يشبهون بيجر توماس .. وذلك للتفتيش والتحرى » .

« وقد حذر المحافظ ديتز فى اذاعة له فى وقت متأخر من الليلة الماضية ، احتمال حدوث اضطرابات عنيفة .. وطلب من المواطنين أن يلتزموا النظام مؤكدا أن كل المحاولات ستبذل للقضاء على هذا الشر »

« وقد ذكرت الانباء أن بضع مئات من العمال والمستخدمين الزواج فى أرجاء المدينة قد طردوا من أعمالهم .. وصرحت زوجة أحد رجال « البنوك » المعروفين فى اتصال تليفونى بينها وبين هذه الصحيفة بأنها طردت طاهيتها الزنجية حتى لاتدس السم لابنائها فى الطعام » .
« واتسعت عينا « بيجر » وانفجرت شفتاه ، وأسرع يمسح بعينه ما كتبته الصحيفة :

« خبراء الخطوط .. » .. « بصمات أصابع ايرلون لم يعثر عليها فى بيت آل دالتون » .. « الشاب التقدمى لا يزال تحت التحفظ » ، .. ثم ما لبثت جملة أن قفزت نحوه وكأنما هى ضربة عنيفة :

« ولا تزال سلطات الشرطة غير مقتنعة بالمعلومات التى ذكرها ايرلون عن نفسه ، كما لاتزال تعتقد أنه من المحتمل أن يكون على صلة بالزنجى كشريك له فى جريمته ، وأن خطة الجريمة والاختطاف أكثر براعة من أن تكون من تدبير عقل زنجى »

وود « بيجر » فى تلك اللحظة لو أنه خرج الى عرض الشارع ثم انتهى الى أحد رجال الشرطة وقال له « كلا . ان « جان » لم يساعدنى . ليست له أدنى يد فى هذا العمل . أنا - أنا الذى فعلته » والتوت شفتاه فى ابتسامة نصفها خوف ونصفها الآخر تحد .

وعاد يقرأ : « وعندما أمروا الزنجى بتنظيف الموقد .. تردد فى تنفيذ الامر ... وخشى أن ينكشف أمره .. وملاً الدخان « البدروم »

٠٠ مأساة اختلاط الشيوعيين بالملونين احتمال أن يكون الحمر أنفسهم هم الذين أرسلوا خطاب الاختطاف » .

ورفع « بيجر » بصره ، وكان المبنى هادئا ساكنا الا من القرقعات التي كان يحدثها تحت عصف الريح . ولم يكن في مقدوره أن يبقى طويلا هناك ، فقد يحضرون الى هذه المنطقة في أية لحظة ، كذلك فهو لم يكن يستطيع أن يغادر شيكاغو فقد كانت كل الطرق مغلقة .٠٠ كما أن الحافلات والسيارات والقطارات كانت توقف كلها للتفتيش .٠٠ وربما كان من الأفضل لو أنه كان قد انتهر الفرصة وهرب من المدينة بعد انكشاف أمره على الفور .٠٠ وكان في مقدوره آنذاك أن يذهب الى أى مكان ، «جارى» مثلا أو «انديانا» أو «ايفانستون» . ونظر مرة أخرى الى الصحيفة ورأى «خريطة» للحي الجنوبي جرى تظليل جزء منها وكتبت تحتها عبارة :

« الجزء المظلل هو الذى يتم الآن تفتيشه بالفعل » بواسطة « رجال الشرطة والمتطوعين بحثا عن القاتل الزنجى » . أما الجزء الأبيض فيمثل المنطقة التي لم يتم تفتيشها بعد » .

انه في خطر . وينبغى أن يخرج من هذا المبنى فى الحال . ولكن الى أين يستطيع أن يذهب ؟ ان المباني الخالية لا تصلح الا اذا ظل موجودا فى نطاق الجزء الأبيض من «الخريطة» .٠٠ وهذا الجزء يتقلص بسرعة . وتذكر أن الصحيفة طبعت بالامس ، وذلك يعنى أن الجزء الأبيض قد أصبح أصغر مما هو عليه فى « الخريطة » ، وأغمض عينيه ومضى يعد ويحسب : لقد كان فى الشارع الثالث والخمسين .٠٠ ولقد بدأت المطاردة فى الليلة الماضية ابتداء بالشارع الثامن عشر ، فاذا كانوا قد انتهوا بالفعل الى الشارع الثامن والعشرين فى الليلة الماضية فلا بد أنهم قد أصبحوا الآن فى الشارع الثامن والثلاثين ، ولا بد أنهم سيكونون فى الشارع الثامن والاربعين فى منتصف تلك الليلة بالذات .٠٠ وربما أدركوا الشارع الثالث والخمسين أيضا .

وفكر فى « الشقق » الخالية . ان الصحيفة لم تشر الى مثل تلك « الشقق » . ماذا لو أنه عثر على « شقة » خالية فى مبنى يعيش فيه كثيرون من الزنوج ؟ لعلها آمن وسيلة .

وسار الى نهاية « الصالة » وأضاء بطاريتيه فى اتجاه سقف قذر مترب ورأى سلما خشبيا يؤدى الى السطح فتسلقه ودفع بنفسه الى ممر

ضيق فى نهايته باب ظل يدفعه عدة مرات وهو يتهاوى تحت كل دفعة حتى فتحه واستطاع أن يرى الثلج يلمع تحت أشعة الشمس وأحس بالرياح تلسع وجهه فتذكر ضعف جسده والبرد الذى يقرصه . كم من الوقت يا ترى يستطيع أن « يصمد » ؟ ووقف فوق الثلج وبدأت أمامه سطوح المنازل بيضاء مكسوة بالثلج تسطع فوقها أشعة الشمس .

ودس نفسه خلف مدخنة المبنى وتطلع الى الشارع ورأى « كشك » الصحف الذى سرق منه الصحيفة وقد وقف الى جواره الرجل الذى صاح خلفه ، كما رأى رجلين من السود يتوقفان عند « الكشك » ويشترتان صحيفة ثم يدلّقان من باب خارجى لاحد المباني وأحدهما يستند فى اهتمام الى كتف الآخر وهما يحركان شفّتيهما ويشيران الى الصحيفة بأصابعهما السوداء ويهزان رأسيهما وهما يتكلمان وقد انضم اليهما رجلان آخران ثم ما لبث أن أصبحت هناك مجموعة تتحدث وتشير جميعها الى الصحيفة . . ثم انجل عقدها بعد لحظات واختفى الجميع . نعم ، لابد أنهم كانوا يتحدثون عنه هو ، وربما كان السود كلهم رجلا ونساء يتحدثون عنه فى هذا الصباح ، وربما كرهوه جميعا لانه عرضهم لهذا الهجوم من الصحف .

وكان « بيجر » قد ظل فترة طويلة متقوقعا خلف المدفأة . . وعندما حاول أن يتحرك أحس بأن قدميه قد فقدتا كل احساس . . وأفزع أن تكون ساقاه قد تجمدتا . . فمضى يطوح بساقيه هنا وهناك حتى يعيد فيهما جريان الدم ثم زحف على أربع حتى الجانب الآخر من السطح . . ورأى تحته مباشرة نافذة فى « الطابق » الاخير استطاع أن يبصر خلالها بسريرين من الحديد داخل احدى الغرف وفوقهما ملاءات مكومة قدرة ، وفوق أحد هذين السريرين رأى ثلاثة أطفال من السود . . عرايا . . ينظرون الى رجل وامرأة من السود أيضا وهما يتحركان فى اهتزازات رتيبة فوق السرير الآخر تحت بصر الاطفال الثلاثة . ولقد كان ذلك شيئا مألوفًا . . هو نفسه رأى مثل ذلك عندما كان صغيرا وعندما كانوا خمسة ينامون فى حجرة واحدة ، وكثيرا ما كان يستيقظ فى الصباح ليرى مثل ذلك من أبيه وأمه . . واستدار « بيجر » وهو يفكر : خمسة من الآدميين ينامون فى حجرة واحدة داخل مبنى ضخم خال . وعاد زاحفا نحو المدخنة وقد تراقصت أمام عينيهِ صورة الآدميين الخمسة بأجسادهم السوداء ، . . رجل وامرأة يهتزان فى عناق . . وثلاثة أطفال .

واحس بالجوع يفري أمعائه وكأن يدا من الجليد امتدت داخل حلقة
وقبضت على أمعائه وربطتها فى عقدة باردة مشدودة وهى تصرخ من الألم
• • • وعاودته ذكرى زجاجة اللبن التى قدمتها له « بيسى » ساخنة فى
الليلة الماضية • عاودته بقوة حتى أحس بأنه يكاد يتذوق طعم ذلك اللبن •
لر أن معه زجاجة كنتك لاشعل نارا فى الصحيفة ليدفئها • ورأى بعين
التصور أنه يرفع زجاجة اللبن الدافىء الى فمه فيتساقط بعضه فوق
أصابعه السوداء • • ثم ما يلبث أن تلمس الزجاجة شفتيه وهو يحنى
رأسه الى الخلف ليشربها وأحس لحظتها بأن معدته تنقبض وتنسبط
وتحدث « قرقرة » استطاع أن يسمعها ، وبأنه وسط الجوع الذى يفري
أمعائه يدرك بعقم واجبه قويا كقوة حاجته الى التنفس • • ضروريا كضرورة
النبض فى قلبه • وأحس كذلك بأنه يريد أن يركع على قدميه وينظر الى
السماء ويقول « أنا جائع » • • وبأنه يريد أن يخلع ملابسه ويتدحرج
فوق الثلج حتى يتسلل الى جسده شىء يغذيه من خلال مسام بشرته • •
وبأنه يريد أن يقبض بيده على شىء ما • • وبقوة • • حتى يتحرك هذا
الشىء الى طعام • ولكن جوعه ما لبث أن زايله وبدأ يشعر بالتحسن، وعاد
بوجه كل تفكيره الى الخطر الذى يترصده • • وأحس بشىء جامد فى
أركان شفتيه فرفع أصابعه يتحسسها • • كان لعبا متجمدا من شدة
البرد •

وعاد يزحف على أربع من خلال الباب الى الممر الضيق وهبط الدرجات
الخشبية المنخفضة فأصبح فى « الصالة » • • وهبط الى « الطابق » الاول
ووقف الى النافذة التى دخل الى المبنى من خلالها : وكان عليه أن يعثر على
« شقة » فى أحد المباني يستطيع دخولها أن يجد شيئا من الدفء ، وأحس
بأنه ان لم يدفء جسده فسوف ينتهى به الامر « ببساطة » الى أن يستلقى
ويغمض عينيه • ثم واثته فكرة ، وعجب كيف لم تخطر بباله من قبل • •
أشعل عود ثقاب وقربه من الصحيفة وهو ممسك بها فما لبثت النار أن
أمسكت بأوراقها فوضع يدا فوق اللهب • • ثم عاد فوضع اليد الاخرى
وأحس بالحرارة كأنما تأتيه من مكان بعيد • • وعندما احترقت الصحيفة
تماما القى بها من يده ثم سحق بقاياها بخدائه • • يستطيع الآن أن يحس
بيديه على الأقل • • أنهما الآن تؤلمانها وهو أمر يؤكد له أنهما لاتزالان يديه

وخرج « بيجر » من النافذة واتجه شمالا فى الشارع مندسا وسط
المارة ، ولم يتعرف عليه أحد • وظل يبحث عن أى مبنى علقت عليه
« لافتة » « للايجار » • • وسار مخلفا وراءه مجموعتين من المباني دون أن

يعثر على ضالته • وكان يعرف جيدا أن « الشقق » الخالية نادرة في « الحزام الاسود » ، فان أمه كانت تتابع السؤال شهورا كلما أرادت أن تنتقل بهم من سكن الى آخر • وتذكر أن أمه كلفته مرة البحث عن مكان للسكنى فظل يجوب الشوارع شهرين كاملين ، ومرتها قال له « السماسرة » انه لم تعد هناك بيوت تكفى سكنى الزوج بعد أن أصبح معظمها قديما وتخشى مغبة سكانه ، وتذكر أيضا تلك المرة التى جاء فيها رجال الشرطة يطردونه هو وأمه وأخوه وأخته من « شقة » فى مبنى انهار بعد يومين من تركهم له • وطالما سمع أنه يقال ان السود بالرغم من أنهم لا يحصلون على أعمال طبية ، يدفعون ضعف ما يدفعه البيض ايجارا لنفس النوع من « الشقق » • وظل يسير حتى تجاوز خمس مجموعات أخرى من الابنية دون أن يقع بصره على « لافتة » « للايجار » يا لعنة • هل يتجمد اذن وهو يحاول أن يجد مكانا يحس فيه بالدفء ؟ كم كان من السهل عليه أن يختبئ لو أن أمامه المدينة كلها يستطيع أن يتحرك فيها كما يشاء « انهم يحبسونا هنا مثل الحيوانات المفترسة » •• وكان يدرك أن السود لا يستطيعون الخروج من نطاق •• الحزام الاسود •• لسكى يستأجروا احدى « الشقق » •• وأنهم مجبرون على أن يعيشوا فى الجانب المخصص لهم خلف « الخط » •• وليس هناك رجل ابيض واحد يقبل أن يؤجر مسكنا لرجل أسود فى غير الأقسام التى خصصت لسكنى السود •

وشدد « بيجر » قبضتيه • ما فائدة الهرب ياترى ؟ لعله يجب أن يقف الآن حيث هو فى منتصف الطريق الجانبى ويصيح بأعلى صوته لو أنه فعل ذلك لالتف حوله جميع السود ليفعلوا شيئا ، ولتوقف كل البيض كيما يستمعوا اليه • لكنه كان واثقا على أية حال من أنهم سوف يمسكون به « ببساطة » ويقولون انه مجنون • وظل يسير فى الشوارع متخبطا وعيناه الحمراءوان تبحثان عن مكان يختبئ فيه • وتوقف عند احدى « النواصي » ورأى فأرا أسود ضخما يقفز فوق الثلوج ويمرق من جانبه متسللا الى أحد الابواب ليختفى داخل حجرة قريب •• ولحظتها ، نظر الى الجحر فى سخرية ومرارة •

ومر فى أثناء سيره بمخبز ، وأراد أن يدخل ليشتري بعض الكعك بالسنتات السبعة التى كانت كل ما معه ، ولكن المخبز كان خاليا من « الزبائن » وخشى « بيجر » أن يتعرف عليه صاحبه الابيض •• فلينتظر حتى يصل الى مخبز يملكه زنجى • وان كان يعرف أنه ليس هناك مخازن

كثيرة من هذا النوع ، فقد كانت أكثر محال التجبارة في « الحزام الأسود » مملوكة لليهود والايطاليين واليونانيين ، وكان الزنوج يكادون يقتصرون في هذا المجال على مهنة الحانوتية . فقد كان البيض يرفضون بالطبع أن يضايقوا أمزجتهم الرقيقة بجثث السود . ووصل في سيره الى دكان بقالة يباع فيه الرغيف بخمسة سنتات على حين يباع هو نفسه خارج « الحزام الأسود » بأربعة سنتات فقط . ووقف « بيجر » يتطلع من خلال واجهة الدكان الزجاجية الى « الزبائن » في الداخل . هل يدخل ؟ كان جائعا . وكان يقول لنفسه « ان هؤلاء البيض يسرقونا حتى في كل نسمة هواء نتنفسها . . . انهم يخرجون عيوننا من محاجرها » . . . وفتح الباب واتجه نحو « البنك » . . . وأحس بدفء المكان يدغدغ حواسه فاستند الى حافة « البنك » وقد غامت أمام عينيه صفوف متراسة من المعلبات الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء فوق رفوف عالية ، والأصوات الهادئة لرجال ونساء حوله .

— ماذا تريد يا سيدى ؟

وقال هامسا :

— رغيف من الخبز . . .

— شيء آخر يا سيدى ؟

— لا . . .

وابتعد الرجل ثم عاد . . . وسمع « بيجر » حفيف ورقة .

— الجو بارد فى الخارج . . . أليس كذلك ؟

— « هه » ؟ . . . أوه . . . نعم يا سيدى .

ثم وضع قطعة النقود أمامه ورأى الرجل يمد اليه يده بالرغيف

المتراقص أمام عينيه .

— شكرا . . . نحن فى الخدمة . . .

وسار فى غير ما اتزان الى الباب والرغيف تحت إبطه . آه . . .

يا الهى . لو أنه استطاع فحسب أن يخرج الى الشارع . وعند الباب قابل أناسا داخلين الى الدكان فتنحى جانبا لكى يمروا ثم ما لبث أن أصبح فى انشارع تحت وطأة الرياح الباردة يبحث عن « شقة » خالية وهو يتوقع فى أية لحظة أن يسمع أحدا ينادى باسمه أو يحس بيد تمسك بذراعه . وتابع السير . . . وتخطى مجموعات أخرى من الابنية قبل أن يرى مبنى من « طابقين » علقت تحت إحدى نوافذه « لافتة » « للإيجار » ورأى دخانا يتصاعد من مداخن المبنى فأدرك أن المكان دافئ بالداخل واتجه نحو الباب

الامامى وقرأ بيانات معلقة عن « الشقة » موضوع الاعلان وعرف أنها فى مؤخرة المبنى • وسار عبر الممر الخصوصى حتى السلم الخلفى فصعد فيه الى « الطابق » الثانى • ورأى نافذة • • فعالجها وانفتحت بسهولة ها قد ابتسم له الحظ • وأسرع يقذف بنفسه الى داخل حجرة دافئة • • وكانت الحجرة مطبخا • وفجأة • • أرهف السمع • كانت هناك أصوات • • أصوات يبدو أنها كانت صادرة من حجرة فى مواجهة حجرته • ترى هل أخطأ ؟ كلا • فالمطبخ كان خاليا من أى شىء • • ولم يكن يبدو مطلقا أن أحدا يسكنه • وسار على أطراف أصابعه حتى الحجرة التالية ووجدها هى الاخرى خالية ولكن الاصوات أصبحت أكثر وضوحا من ذى قبل • ورأى حجرة أخرى خالية ودخلها • • وازدادت الاصوات وضوحا الى درجة كان يميز معها الكلمات ، كانت هناك مناقشة تدور داخل « الشقة » الامامية • ووقف والرغيف فى يديه • • وقد باعد ما بين ساقيه • • وأرهف السمع • •

– جاك ، هل تريد اذن أن تقف هناك وتقول انك تود لو تمسك بذلك الزنجى لتسلمه الى البيض ؟

– اللعنة • • نعم •

– ولكن ربما كان بريئا يا جاك ؟

– فلماذا بحق جهنم هرب من وجههم ؟

– ربما اعتقد أنهم سيلقون عليه تبعة الجريمة •

– اسمع يا جيم • اذا لم يكن مذنباً كان من واجبه أن يبقى ويواجه الامور • لو أننى أعرف الآن أين يكون هذا الزنجى لامسكت به حتى يتبعد عني هؤلاء البيض •

– ولكن كل زنجى يا جاك يبدو مذنباً عند البيض عندما ترتكب جريمة •

– نعم ، هذا لأن الكثيرين منا يتصرفون مثل بيجر توماس هذا ، وعندما تتصرف مثل بيجر توماس فأنت تجر على نفسك المتاعب •

– ولكن من الذى يثير المتاعب الآن؟ ان الصحف تقول انهم يضربوننا فى كل أرجاء المدينة • انهم لا يبالون بمن يمسكون به ما دام هو أسود • نحن جميعا كلاب فى نظرهم •

– وأن تقتل ؟ • • لا • • وحق جهنم لا • أنا رب أسرة ، عندى زوجة

وطفل ، ولن أبدأ شجارا أحق ، فالمرء لا يستحق العدالة أن هو حمى القتلة ..

– وأنا أقول لك اننا نحن جميعا قتلة فى نظرهم .

– اسمع يا جيم . أنا رجل أشقى فى عملى . أذرع الشوارع طوال اليوم بمكنسة وجاروف عندما تتاح لى الفرصة لأن أفعل ذلك . ولكن صاحب العمل قال لى انه لا يريد أن أذهب الى شوارعهم فى هذا الوقت الذى يلتهب فيه غضب البيض . لقد قال لى اننى قد أقتل ، ولهذا استغنى عن عملى . هأنذا ترى أن ذلك الزنجى الملعون يجر توماس قد تسبب فى أن أفقد عملى . لقد جعل البيض يعتقدون أننا جميعا مثله .

– ولكنى أقول لك يا جاك انهم يعتقدون ذلك دائما . وكانوا يعتقدونه حتى قبل ذلك . أنت رجل طيب ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يقتحموا عليك بيتك . أليس كذلك ؟ الى الجحيم اذن . نحن جميعا سود . ونحن جميعا نتصرف كالسود . هل تفهم الآن ؟

– أوه يا جيم . هذا صحيح . وهو أمر يبعث الى الجنون ، ولكن يجب عليك أن تنظر الى الامور نظرة واقعية . لقد تسبب هذا الشخص فى أن أفقد عملى وليس هذا عدلا . كيف أستطيع اذن أن آكل ؟ لو أننى عرفت مكان هذا الاسود ابن الـ . لاستدعيت الشرطة لتقبض عليه .

– . . أبدا . . أنا لا أفعل مثل هذا . . اننى أفضل أن أموت قبل أن أفعل هذا .

– يا رجل . . أنت مجنون ! ألا تحب بيتك وزوجتك وأولادك ؟ وماذا ستستفيد من هذا ؟ انهم يفوقونا عددا ويستطيعون أن يقتلونا جميعا . ينبغى أن تتعلم كيف تعيش مع هؤلاء الناس .

– البيض يكرهوننى . ولا أحب أن أعائشهم .

– ولكن يجب أن نأكل . . يجب أن نعيش .

– أوه . . لست أبالى . أفضل أن أموت قبل أن أفعل هذا .

– يا لجهنم . . أنت مجنون ولا شك .

– لست أبالى بما تقول . . اننى أفضل أن أموت قبل أن أدعهم

يخيفونني لأدلهم على مكان ذلك الرجل • أقول لك •• اننى أفضل أن أموت قبل أن أفعل هذا •

وعاد « بيجر » الى المطبخ على أطراف أصابعه وأخرج مسدسه • لسوف يبقى هنا واذا ضايقه أبناء جلدته فلسوف يستخدم هذا المسدس • واتجه نحو صنوبر المياه ووضع عليه فمه ثم فتحه فاندفعت المياه الى جوفه بعنف •• وارتمى على ركبتيه من شدة الألم ، ولكن سرعان مازيله الألم فعــاد يشرب من جديد ، ثم أخرج الرغيف من الورقة فى هدوء حتى لا تحدث حفيفا يمكن أن يدل عليه وبدأ يأكل وهو يحس بطعمه اللذيذ كما لو كان يأكل كعكا •• وكانت للرغيف حلاوة فى فمه لم يكن يتصور من قبل أنها توجد فى الرغيف •• وعاوده الجوع بعنف وهو يأكل الرغيف ووقف على أرض المطبخ وهو يمسك بقطعة كبيرة منه فى كلتا يديه ويلوك ما بداخل فمه فتعلو تفاحة آدم فى حلقه كلما ابتلع جانبا منه ، ولم يستطع التوقف الا عندما أصبح فمه جافا الى درجة كانت المضغعة فيها مثل الكرة على لسانه •• فكان يبقئها طويلا داخل فمه وهو يتذوق طعمها •

وأخيرا تمدد على الارض يتنهد •• وكان متعبا يكاد النوم يغلبه •• وعندما أحس بأنه يوشك أن ينام ، انتبه الى نفسه وانتفض بعنف يطرد النوم من عينيه ، ولكنه لم يلبث أن استسلم •• فنام ثم استيقظ بعد قليل وكأنما يستجيب لداعى الخوف فى صدره ، وأخذ يئن وهو يطوح بيديه فى الهواء كأنما يطرد خطرا خفيا ونهض من مكانه وسار بضـع خطوات ويده مبسوطتان ثم ما لبث أن تهاوى على الارض مرة ثانية على بعد خطوات قليلة من المكان الذى كان قد استسلم فيه للنوم • وفى تلك اللحظة ، لم يكن هناك « بيجر » واحد •• بل كان هناك اثنان : الاول هو الذى كان يصر على أن يستريح وينام بأى ثمن : والثانى هو الذى كان يرتجف ذعرا من رؤى مشحونة بالفزع والرعب •• ومرت فترة طويلة لم يتحرك فيها وهو مستلق على ظهره ويده مبسوطتان فوق صدره وفمه فاغر وعيناه مفتوحتان • وكان صدره يعلو ويهبط فى بطء وهدوء حتى لكان أنفاسه تتوقف تماما فى اللحظات القصيرة ما بين شهيقه وزفيره • وتسلمت الى وجهه أشعة الشمس لتلمع تحتها بشرته السوداء مثل معدن صدى •• ثم ما لبثت أن اختفت لتعود الحجرة ظلالا عميقة خالصة •

وتسلمت الى أعماقه وهو مستلق على الارض ، أفكار حاول جاهدا أن يمنعها من أن تسيطر عليه ، ولكن عقله عصاه ولم يستجب له ••

وتراقصت أمام عينيه الصور وهو يحاول أن يفكر في أشياء أخرى
ليبعدا عن ذهنه . تصور أنه يجلس في ملهى « بارى جريل » يستمع
الى موسيقى الحاكى الآلى . ولكن ذلك لم يكن كافيا ، فعاد وتصور أنه
نائم فوق سريريه داخل بيته وأمه تغنى وتهن الفراش لتوقظه . ولكن
هذا التصور أيضا لم يطامن من حدة الافكار التى تناوشته ، ومرة ثالثة
. أخذ يتصور مئات من النساء والرجال السود وهم يدقون الطبول
بأصابعهم . ومرة ثالثة أيضا فشلت تلك الصورة فى أن تمنعه من
التفكير . وأخذ يتقلب على الارض فى ضيق وضجر ثم قفز واقفا على قدميه
وقد أخذ قلبه يدق بعنف وامتلأت أذناه بأصوات غناء وصياح .

واتجه الى النافذة وأطل منها . ورأى فى مواجهته على بعد خطوات
كنيسة أضواؤها شاحبة وقد تجمع بداخلها جمع من النساء والرجال
السود يغنون ويصفقون بأيديهم ويهزون رؤوسهم . وتذكر أن هؤلاء
القوم يؤمون الكنيسة يوما كل اسبوع . وأخذ يلحق شفقيته . واتجه الى
الصنبور يشرب مرة أخرى . ترى هل اقترب رجال الشرطة ؟ كم الساعة
الآن ؟ وتطلع الى ساعته ووجدها قد توقفت . فقد نسى أن يملأ زبركها .
وأحس بالاغنيات التى تنتهى اليه أصواتها من الكنيسة تتسلل الى أعماقه
تهزها وتثير فيه احساسا رهيفا بالأسف والندم . وحاول أن يصم أذنيه
عن سماعها ولكنها كانت تنساب الى مشاعره كأنها تهمس له بأسلوب
آخر فى الحياة والموت وتغريه بأن يستلقى وينام حتى يحضروا اليه ويمسكوا
به . وتقنعه بأن يؤمن بأن الحياة خطيئة ينبغى أن يتقبلها المرء . وهز
« بيجر » رأسه بعنف وهو يحاول أن يهرب من تلك الترانيم . ترى كم
من الوقت ظل نائما ؟ وماذا تقول عنه الصحف الآن ؟ كان هناك سنتان
فقط تبقياً له داخل جيبه . ويستطيع أن يبتاع بهما نسخة من « التايمز » .
والتقط ما تبقى من الرغبة . على حين كانت الموسيقى داخل الكنيسة
تعزف لحن « اهرعوا الى المسيح المخلص . » ووضع بقية الرغبة داخل
جيبه حتى يأكله فيما بعد واستوثق من أن المسدس لا يزال داخل جيبه
الآخر . وأصت الى الترنيمة « اهرعوا . اهرعوا الى البيت . لاشئ
لدى أقوله هنا . » كان البقاء فى المطبخ يندر بالخطر ، ولكن الخروج
أيضا وراءه خطر . وملأت الترنيمة سمعه . واضحة صريحة تسخر من
خوفه ومن وحدته وتقف على طرف نقيض من جوعه . وأحس بامتلائها
وثرائها الروحي يستخران من فراغه . ترى ، ألم يكن من الافضل لو
أنه عاش فى هذا العالم الذى من أجله ترتفع هذه الترنيمة ؟ لعله كان من
الايسر له أن يعيش كذلك . فقد كان ذلك هو عالم أمه المتواضع المحدود

المؤمن ذى المركز المحيط والمحور والقلب .. وكلها أشياء كان يحتاج إليها ولكنه لم يكن ليحصل عليها الا اذا كان قد ألقى برأسه فوق وسادة الاذلال وطرح كل آماله فى العيش فى هذه الدنيا . وهو لم يكن ليقبل ذلك قط .

وسمع صوت سيارة فى الشارع .. ها هى ذى تعود فتجرب مرة أخرى . وقفزت الى ذهنه فكرة . أليس من المحتمل أن يكون رجال الشرطة قد فتشوا هذه المنطقة من قبل ومن ثم فقد أصبح آمنا الآن ؟ ولكن التفكير المتزن أكد له أن ذلك مستحيل .. وتحسس جيبيه ليتيقن أن المسدس لا يزال فى مكانه بداخله ثم تسلق النافذة والرياح الباردة تلمس وجهه . وأدرك أن درجة الحرارة لابد أن تكون تحت الصفر . وسار حتى نهاية الممر الخصوصى ثم استدار الى الطريق الجانبى يمشى وسط تيار الجموع المارة .. وانتظر أن يعترض أحد طريقه .. ولكن أحدا لم يفعل ذلك .

ورأى « بيجر » عند نهاية مجموعة المباني جمعا من الناس . وأحس بالخوف يعصر بطنه . ماذا يفعلون يا ترى ؟ وأبطأ فى سيره ورآهم يتجمعون بالقرب من « كشك » لبيع الصحف . وكانوا جميعا من السود .. وكلهم كانوا يبتاعون الصحف ليقرأوا كيف يحاول البيض أن يقتفوا أثره كيما يقتنصوه . وحنى رأسه واندس وسط الجمع .. وسمعهم يتكلمون فى اهتمام .. ومد هو يده فى حرص وقد أمسك بالسنتين بين أصابعه، وعندما اقترب من « الكشك » استطاع أن يرى الصفحات الاولى بوضوح، وقد توسطتها صورته . وحنى رأسه أكثر وهو يرجو ألا يراه أحد عن كتب ليعرف أنه هو صاحب الصورة المنشورة بالصحيفة . وقال :

— التايمز ..

ثم وضع الصحيفة تحت ابطه وخرج من الجمع واتجه جنوبا وهو يبحث عن « شقة » خالية ورأى على « الناصية » التالية « لافتة » «للايجار» معلقة فوق مبنى كان يعرف أنه مقسم الى حجرات صغيرة للسكنى .. وكان هذا هو ما يريده تماما . واتجه نحو باب المبنى وقرأ تفاصيل اللافتة وعرف أن هناك مسكنا خاليا فى « الطابق » الرابع ، وسار فى الممر الخصوصى للمبنى وبدأ يصعد فى درجات السلم الخلفى الخارجى وقدماه تغوصان فى الثلج . وسمع صوت باب يفتح .. فتوقف وأخرج مسدسه وانتظر راکعا فوق الثلج .

— ما هذا ؟

كان صوت امرأة ٠٠ ثم تنأهى الى سمعه صوت رجل :

— ماذا حدث يا الين ؟

— ظننت أننى سمعت صوتا فى الخارج .

— آه ٠٠ ان أعصابك متوترة فحسب ، فقد أفرعك ما قرأته فى

الصحف .

— ولكنى واثقة من أننى سمعت صوتا .

— أوه ٠٠ أفرغى القمامة وأغلقى الباب فالبرد شديد .

والتصق « بيجر » بجدار المبنى وسط الظلام ، ورأى امرأة تخرج من الباب وتتوقف لحظة وهى تنظر حولها ثم تتجه الى نهاية مدخل المسكن وتضع شيئا داخل صندوق القمامة ثم تعود فتدخل وتغلق الباب خلفها . ولحظتها أدرك « بيجر » أنه كان من الممكن أن يقتلها معا لو أن بصرها وقع عليه . وعاد يصعد فى السلم على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ « الطابق » الرابع رأى نافذتين مظلمتين حاول أن يرفع زجاج احدهما ولكنه وجد أن الثلج قد تجمد على « حوافها » ٠٠ وبدأ يهز النافذة فى رفق حتى استطاع فى النهاية أن يرفع زجاجها ثم قفز من خلالها الى داخل الحجرة المظلمة وأشعل عود ثقاب فرأى مفتاح النور « الكهربائى » فى الجهة المقابلة من الحجرة . وأضاء المصباح وغطاه بقبعته حتى لا يرى الضوء فى الخارج ، ثم بدأ يقرأ الصحيفة . نعم ، هذه صورته ، وفوقها كتبت بالحروف الضخمة عبارة : « ٢٤ ساعة من البحث تفشل فى القبض على القاتل » . وفوق عمود آخر كتبت عبارة : « تفتيش ألف منزل من منازل الزوج . اضطرابات فى الشارع السابع والأربعين وفى هالستيد » . ورأى « خريطة » أخرى للحي الجنوبى ٠٠ وكان الجانب المظلل منها قد اتسع من الشمال والجنوب مخلقا مربعا صغيرا أبيض فى الوسط ٠٠ يمثل قلب « الحزام الاسود » ووقف « بيجر » يحدق الى ذلك المربع الضئيل كما لو كان يحدق الى فوهة ماسورة مسدس . انه هنا فوق هذه « الخريطة » ٠٠ داخل هذه البقعة البيضاء ٠٠ يقف داخل حجرة ويتربق قدومهم اليه ٠٠ ورفع بصره الى أعلى الصحيفة فى ذعر . وأدرك أنه لم يعد هناك شيء أمامه سوى أن يقذف بها بعيدا ٠٠ ولكنه عاد « يفحص » « الخريطة » مرة أخرى ٠٠ ان تفاصيلها تؤكد أن الشرطة قدمت من الشمال حتى الشارع الاربعين ومن الجنوب حتى الشارع الخمسين ، وهذا يعنى أنه لا يزال

« موجودا » فى نقطة ما بين هذين الشارعين وأن رجال الشرطة اصبحوا على بعد دقائق من مكانه .. وعاد يقرأ :

« .. واليوم ، وفى الليلة الماضية .. انتشر ثمانية آلاف رجل مسلح يفتشون فى دقة كل المباني القديمة وأكثر من ألف مسكن زنجى داخل الحزام الاسود فى محاولة فاشلة للقبض على بيجر توماس الزنجى البالغ من العمر عشرين عاما والذي قتل مارى دالتون وقد عثر على عظامها يوم الاحد الماضى داخل الموقد » ..

ومضى « بيجر » يقرأ .. وهو يحاول أن يركز على ما يتصور أنه معلومات هامة بالنسبة له : « وقد انتشرت اشاعة تقول انه قد تم القضاء القبض على القاتل .. ولكن السلطات ما لبثت أن نفتها » .. « وقبل أن يحل الليل ستكون قوات الشرطة والمتطوعين قد مسحت منطقة الحزام الاسود كلها » .. « وتمت الاغارة على عدد كبير من قيادات الشيوعيين فى المدينة » .. « وتم القبض على مئات من الحمر دون الوصول الى أية معلومات » .. « وقد حذر الحاكم الجمهور اثاره القلاقل .. » ثم قرأ .. « وقد تكشف جانب من الضوء اليوم عندما أصبح معروفا أن المبني الذى يعيش فيه الزنجى القاتل وأسرته .. من ممتلكات احدى مؤسسات شركة العقارات التى يديرها ويملكها المستر دالتون » .

وخفض « بيجر » الصحيفة .. فقد عجز عن متابعة القراءة ، ولم يعد يفكر لحظتها فى غير « الثمانية آلاف رجل » المسلحين بالبنادق والغاز الذين يبحثون عنه . ان ما نشرته الصحيفة يؤكد أنهم أصبحوا على بعد عدة مجموعة من المباني فحسب . هل يستطيع يا ترى أن يصعد الى سطح المبني ؟ وان هو استطاع ، فلعله يستطيع أيضا أن يقبع هناك حتى ينتهى التفتيش ؟ وفكر لحظتها فى أن يدفن نفسه تحت ركام الثلج فوق السطح ولكنه أدرك أن ذلك أمر مستحيل . وأطفأ ضوء الحجرة فعادت تسبح فى الظلام وأضاء بطاريته واتجه نحو الباب ففتحه وجال ببصره فى الردهة روأها خالية يسطح فيها شيء من الضوء عند نهايتها . وعاد يطفىء البطارية ويسير على أطراف أصابعه باحثا فى السقف عن باب علوى يؤدى الى سطح المبني . وأخيرا رأى درجتين خشبيتين تؤديان الى أعلى .. وفجأة أحس بعضلاته تتوتر كما لو كان هناك شيء ما قد انغرس فى لحمه عندما سمع صوت « سارينة » يملأ جو الردهة . وسمع على الفور أصواتا مختلطة مضطربة خافتة .. ومن مكان ما بأسفل المبني سمع صوت رجل يصيح :

— لقد جاءوا ..

ولم يكن أمامه ما يفعله سوى أن يصعد ٠٠ وقبض بيديه على حافة الدرجتين الحشيتين وتسلقهما يريد أن يختفى عن الانظار قبل أن يصل أحد الى الردهة ، وفتح الكوة التي فى السقف بعد أن دفعها برأسه وأمسك بشئ صلب وسط الظلام ورفع جسده الى أعلى وهو يتمنى أن يتحمل هذا الشئ الصلب ثقله وألا يهوى به الى أسفل ٠٠ واستند لحظة الى ركبتيه وصدره يعلو ويهبط وألقى نظرة أخيرة الى الردهة ورأى بابها مفتوح ، لقد أصبح الخطر قريباً ٠٠ وارتفع صوت « السارينة » من جديد يتناهى من الشوارع ٠ وأحس وهو يسمع صوت الصفارة بأنها نذير بأن أحدا لا يستطيع الاختفاء منها ، وأن الهرب عمل يائس لا يجدى ، وأن الرجال بينادقهم وقذائف الغاز فى أيديهم لن يلبثوا أن يصلوا ويفتحموا كل مكان اقتحمه صوت « السارينة » قبلهم ٠

وأرهدف السمع ، وتناهت اليه أصوات محركات سيارات وصيحات فى الشوارع وصرخات نساء ولعنات رجال ٠ ثم سمع وقع أقدام على السلم ٠ وخفت صوت « السارينة » ثم عاد يرتفع من جديد عاليا صاخبا فى هذه المرة حتى لقد أحس بأنه يود لو تشبث بأصابعه فى رقبته ٠ فصوتها يكاد يعجزه عن التنفس ، يجب أن يصل الى السطح ٠

وأضاء البطارية وزحف من خلال الكوة الضيقة وأزاح بابها بكتفه فانهار بابها فجأة تحت ضغطه ٠ وجعل فى دعر وهو يظن أن أحدا قد فتح الباب من أعلى ٠ ورأى فى نفس اللحظة أرض السطح مغطاة بالثلج تلمع وسط الظلمة الشاحبة ٠ وتناهت اليه الأصوات ترتفع شيئا فشيئا : مكبرات صوت ٠ وسارينات سيارات الشرطة ٠ وصرخات ٠ وأحس بأن فى تلك الأصوات جوعا ولهفة وهى تقتحم قمم السطح ، ٠ وقد اختلطت بها أصوات أخرى خافته متميزة : أصوات خائفة ٠ لعنات رجال ٠ وبكاء أطفال ٠

نعم ، لقد كانوا يبحثون عنه فى كل مبنى وفى كل حجرة ٠ كانوا يريدونه ٠ وأدار بصره فجأة ليرى شعاعا ضخما من الضوء الأصفر يرتفع الى السماء ، يتلوه آخر يخترق السماء مثل السكين ٠ ثم ثالث ٠٠ ورابع ٠ وما لبثت السماء أن امتلأت بالأشعة ٠ وهى تحيط به فى دائرة تحبسه فى حدودها وكأنها هى قضبان سجن أو حوائط بينه وبين بقية العالم ٠٠ قضبان تكون حائطا من الضوء لا يريد هو أن يقترب منه ٠ وكان هو قد أصبح فى وسطها تماما ٠٠ لقد كان ذلك هو نفس الشئ الذى هرب منه منذ تلك الليلة التى اقتحمت فيها « مسز دالتون » الحجرة

فملأت صدره برعب دفعه الى أن يمسك بالوسادة بأصابع من فولاذ
ليمنع الهواء عن رثني « ماري » .

ومن أسفل منه ، كان هناك ما يشبه هزيم الرعد يتناهى من بعيد .
وكان لابد أن يصل الى السطح . . جاهد لكي يصعد ثم سقط ممددا فوق
الثلج وعيناه تبصران برجل أبيض عبر الشارع يقف فوق سطح مبنى
مقابل . . وظل « بيجر » يراقب الرجل وهو يحرك ضوء بطارية معه .
ترى هل سينظر الرجل فى اتجاهه ؟ هل سيكشفه ضوء البطارية ؟ ظل
يراقبه وهو يتحرك هنا وهناك . . ثم يختفى .

ونفض بسرعة وأغلق باب الكوة حتى لا يثير الشك ، ثم عاد يرتدى
ممددا وهو يرهف السمع . . كانت هنالك أصوات أقدام كثيرة تجرى
أسفل منه ، وخيل اليه أن هناك جيشا بأكمله يصعد فى السلم . لم يعد
هناك مكان آخر يستطيع أن يهرع اليه الآن . . سواء وقع فى أيديهم أم
فشلوا فى الإمساك به . وارتفعت الأصوات . . وأدرك « بيجر » أنهم قد
يقترّبون من « الطابق » الأعلى ، ودار ببصره فى كل اتجاه وهو يراقب
سطوح المنازل الى يمينه ويساره ، فلم يكن يريد أن يفاجئه أحد من
الخلف . ورأى أن سطح المنزل الذى كان الى يمينه لا يتصل بالسطح
الذى كان هو يستلقى فوق أرضه . وهذا يعنى أن أحدا لم يكن يستطيع
أن يتسلل الى مكانه ليفاجئه من ذلك الاتجاه بعكس المبنى الذى كان الى
يساره والذى كان يتصل بالآخر بممر طويل كساه الثلج . ورفع رأسه
ورأى أن هناك سطوحا أخرى تتصل بالسطح الذى كان يستلقى فوق
أرضه . وكان بمقدوره اذن أن يهرب الى واحد من هذه السطوح حتى
يصل الى واحد منها يقفز منه الى الشارع . هكذا اذن كان تقديره
للموقف . هل يجازف ويقفز ويعرض نفسه للموت ؟ لم يكن يدرى ماذا
يحس به أن يفعل ، ولكنه كان يحس متفائلا بأنه اذا ما تخرجت الأمور
فسوف يقفز الى ذهنه خاطر يدفعه الى التصرف السليم . . التصرف الذى
يمكنه من أن يموت بلا خزي أو عار .

وسمع صوتا قريبا . . ونظر حوله ليرى وجها أبيض . . ثم كتفين
يخرجان من الكوة فى سطح المبنى الذى الى يمينه ، ووقف رجل أبيض . .
ورأى « بيجر » قامته فى وضوح وهو يدير ضوء بطاريته فوق الثلج ، ورفع
« بيجر » مسدسه ووجهه نحو الرجل . . وانتظر ، اذا أدركه ضوء البطارية
فسوف يطلق النار عليه . وماذا يمكن أن يفعل بعد ذلك ؟ لم يكن يدرى .

ولكن دائرة الضوء لم تدرك مكانه . . وعاد الرجل يهبط من حيث صعد حتى اختفى .

واسترخى «بيجر» قليلا . . لقد أمن على الأقل سطح المبنى الذى الى يمينه . وانتظر أن يسمع أصواتا تنذر بقدوم أحد من كوة سطح المبنى الذى يختبئ فوقه فى الوقت الذى ارتفع فيه الضجيج أسفل منه وهو يزداد جدة مع مضي اللحظات . ولكنه لم يستطع أن يجزم بأن أحدا فى طريقه اليه . . وانتظر والمسدس فى يده وفوق رأسه امتدت السماء باردة زرقاء تغطى المدينة كأنما هى راحة يد يكسوها الحرير . واشتدت الرياح قاسية محملة بالثلج لا تنقطع ، وخيل اليه أنه قد تجمد بالفعل وأنه من الممكن أن تنفصل عن جسده أجزاء مثلما يقطع المرء أجزاء من قطعة من الثلج . ومن أجل أن يظل واثقا من وجود المسدس فى يده كان لابد أن ينظر اليه لأن يديه كانتا قد فقدتا كل احساس .

وفجأة ألجمه الخوف : فقد سمع وقع أقدام أسفل منه مباشرة ، ثم صعدت الأقدام فأصبحت فى «الطابق» الأعلى . هل يجرى هاربا الى سطح المبنى الذى الى يساره ؟ ولكنه لم ير أحدا يفتش هذا السطح . ولو أنه جرى نحوه لكان من المحتمل أن يجد نفسه وجها لوجه مع شخص خارج من كوة ذلك السطح . وجال ببصره حوله وهو يتصور أن أحدا يزحف نحوه . . ولكنه لم ير أحدا . بيد أن صوت وقع الأقدام ارتفع أكثر وأكثر . . وألصق «بيجر» أذنه بالثلج وهو يرهف السمع ، نعم ، انهم يسيرون الآن على مقربة منه ومن كوة السطح . وعاد يتطلع نحو السطح الذى الى اليسار منه وهو يفكر فى أن يجرى بسرعة ليختبئ ولكن الخوف منعه عن الحركة . أتراهم فى طريقهم اليه ؟ وأنصت جيدا ، ولكن الأصوات كانت مختلطة بدرجة لم يتمكن معها من أن يميز الكلمات . ولم يكن يريه أن يهبط الى الشارع وهو ينظر الى وجوه أولئك الذين قد يقتلونه وارتفع صوت «سارينة» رهيبا عاليا . . واقتربت منه الأصوات وأصبح فى مقدوره أن يميزها :

- يا الهى . . ولكننى متعب .
- وأنا أحس بالبرد .
- أوكد لك أننا نبدد الوقت .
- اسمع يا جبرى . أنت الذى ستصعد الى السطح هذه المرة .
- نعم . . سأفعل .

- ربما يكون هذا الزنجى فى نيويورك الآن .
- صحيح . . ولكن من الأفضل أن نرى .
- اسمع . . هل رأيت تلك البنت ذات البشرة البنية ؟
- تلك التى لم تكن ترتدى ملابس كافية فوق جسدها ؟
- نعم .
- آه يا ولد . لقد كانت « خوخة » شهية . أليس كذلك ؟
- بالضبط . وانى لأعجب حقاً لماذا يفكر زنجى فى قتل امرأة بيضاء وعنده مثل هذا الجمال فى نساء جنسه .
- أتعرف يا ولد . . لو سمحت لى هذه البنت بالبقاء هنا معها الليلة لكففت عن هذه المطاردة الملعونة .
- هيا هيا . ساعدنى على الصعود . أمسك هذا السلم جيداً فيبدو أنه متهالك .
- حسناً .

واضطرب « بيجر » ونشبت بمدخنة على بعد قدم واحدة من الكوة . هل يظل مستلقياً بطوله فوق الأرض أو يقف لصق المدخنة ؟ وفضل الوقوف وهو يحاول ألا يبين منه شيء . وأمسك بمسدسه وانتظر . هل صعد الرجل إلى السطح ؟ وتطلع نحو السطح الذى إلى يساره ورآه خالياً . ولكن أليس من المحتمل أن يصطدم به أحد ان هو حاول الهرب إليه ؟ وسمع وقع أقدام . نعم ، ان الرجل قادم نحوه . وانتظر يترقب فتح باب الكوة وقد شدد قبضته على المسدس بعنف وقوة حتى كان من المحتمل أن تنطلق رصاصاته دون أن يريد ، فقد كانت أصابعه باردة متجمدة بحيث لم يكن يدرى أى قدر من الضغط يتعرض له « زناد » المسدس . ولحظتها خطر بباله فجأة مثلما يمزق نجم فى كبد السماء ، أنه من المحتمل أن تكون أصابعه قد تيبست من شدة البرودة بحيث قد لا يستطيع جذب « الزناد » . . وتحسس فى لهفة يده اليمنى بيده اليسرى ، ولكن ذلك لم يطمئنه فقد كانت يده اليمنى باردة بحيث لم يشعر بأكثر من أن جزءاً بارداً من لحمه قد لمس جزءاً آخر . ولم يكن أمامه سوى أن ينتظر ليرى . كان لابد أن يتذرع بالايمان وأن يثق بنفسه .

وفتح باب الكوة . . وتطلع نحوه بفم مفتوح . . وبعينين ملأتهمما

دموع دفعتها اليهما الريح الباردة .. ورأى الرأس العارى لرجل أبيض - من الخلف - واضحا فى خلفية قضبان الضوء التى لم تكن تكف عن الحركة هنا وهناك . ثم استدار الرأس فى ببطء ورأى « بيجر » الوجه من الجانب .. وظل يراقب الرجل وهو يتحرك مثل شبح على « الشاشة » فى منظر كبير حركته بطيئة .. يخرج من الكوة ثم يقف موليا إياه ظهره وفى يده بطارية . وراودته فكرة . « أضربه . أضربه . أضربه فى الرأس » ولم يكن يدرى .. اذا كان ذلك سيفيده فى شئ .. ولم يكن يهتم بأن يفيده أو لا يفيده . كان لابد أن يضرب هذا الرجل قبل أن يدير تلك الدائرة من الضوء فتستقر عليه فينادى الآخرين . وخيل إليه أن اللحظة الخاطفة التى رأى فيها رأس الرجل .. ليست لحظة ، بل ساعة كاملة . ساعة زاخرة بالألم والشك والمفاجأة .. وبحياة كأنما يحيها جالساً فوق طرف ابرة .. ورفع ذراعه اليسرى وتناول بها المسدس الذى كان يمسكه بيده اليمنى .. وأدار المسدس ثم عاد فأمسك به من ماسورته بيده اليمنى ، كل ذلك فى حركة واحدة سريعة وصامتة وهو يحبس أنفاسه ويحرق فى ترقب وتحفز . « أضربه » ورفع يده «المسدس» عالياً . نعم ، « أضربه » وكانت شفتاه تكونان هذه الكلمة وهما مزمومتان فى مزيج من اللعنة والصلاة الصامتة والألم .

وأحس بوقع الضربة على طول ذراعه . وتوقفت يده فى الهواء عند النقطة التى ارتطم فيها معدن المسدس بعظام الجمجمة ، . توقفت يده ساكنة متجمدة كأنما هى على وشك أن ترتفع لتهوى من جديد . وفى نفس اللحظة التى تمت فيها الضربة صدر عن الرجل الأبيض ما يشبه السعال الخفيف وسقطت بطاريته فوق الثلج ليختفى على الفور ضوءها الذى كان يصدر عنها ، وارتدى الرجل على وجهه بعيداً عن « بيجر » وفوق الثلج دون أن ينطق : .. مثلما يحدث لرجل يغيب فجأة فى حلم عميق . وخشى « بيجر » من أن يكون صوت ارتطام معدن المسدس بعظام جمجمة الرجل الرجل قد نبه زميله الآخر . فقد ظل الصوت يدوى فى أذنه لحظة مثلما يبقى أثر الضوء فى العينين عندما ينطفئ النور فجأة . ولم يتحرك « بيجر » من موضعه وكانت يده اليمنى لاتزال معلقة فى الهواء . فأنزلها وهو ينظر الى الرجل وقد بدأ طنين الضربة يخفت فى أذنيه شيئاً فشيئاً مثلما يموت صدى الهمس .

وكان صوت « السارينة » قد توقف لحظة ثم عاد يرتفع من جديد ، وخيل إليه أن اللحظة التى توقف فيها الصوت تخفى وراءها خطراً جاعاً

مخبوءاً • واتجه ببصره نحو حزم الضوء المتراقصة حوله ورأى على وهجها كوة تفتح فى سطح المبنى الذى الى يساره ، ووقف وجلا والمسدس فى يده يراقب وينتظر • آه لو أن الرجل يغفل عنه عندما يصعد من الكوة الى السطح ، وبرز رأس الرجل الأبيض ثم مالبت أن وقف فوق السطح المغطى بالثلج •

وارتجف «بيجر» •• فقد كان هناك من يحدث صوتا تحته مباشرة • هل سيقع فى المصيدة ؟ وتناهى صوت يشوبه قليل من الخوف ينادى من خلال الكوة التى صعد منها الرجل الذى ضربه هو بمسدسه :

— جبرى •• !

وكان الصوت واضحا بالرغم من صخب « السارينى » والدراجات البخارية •

— جبرى •• !

وارتفع الصوت أكثر • وكان صوت زميل الرجل المضروب • وعاد «بيجر» ينظر نحو السطح الذى الى يساره ورأى الرجل الآخر لا يزال واقفا هناك يدير ضوء البطارية حوله ، آه لو أمكنه فحسب أن يغادر هذا المكان •• يجب أن يبتعد بسرعة عن هذه الكوة القريبة ، فلو أن ذلك الرجل صعد ليرى ماذا حدث لزميله ثم وجده ملقى فوق الثلج فسوف يصرخ قبل أن تنتهى له الفرصة لضربه هو الآخر ، والتصق «بيجر» بالمدفأة بشدة وهو يراقب الرجل فوق السطح الذى الى يساره •• ويحبس أنفاسه • واستدار الرجل وعاد الى الكوة ، وانتظر «بيجر» أن يسمع صوت اغلاقها • وعندما سمع الصوت المرتقب أدرك أن ذلك السطح أصبح خاليا ومأمونا ، وتنفس فى عمق وصمت وكأنه يصل •

— جبرى •• !

وزحف «بيجر» عبر السطح والمسدس فى يده حتى أدرك حائطا من الطوب حيث يتصل المبنى بالآخر ، وتوقف «بيجر» لحظة وتطلع الى الخلف ورأى الكوة لاتزال خالية وأدرك أنه اذا حاول أن يعبر الوصلة الى المبنى الآخر فقد يبرز الرجل من الكوة فى نفس اللحظة ويراه ، ولكنه كان مضطرا الى أن يغامر ، فأمسك بحافة الوصلة وزحف فوقها ثم تمدد بطوله لحظة فوق الثلج •• ثم عاد يزحف حتى تدرج فى الجانب الآخر وهو يحس بالثلج يغطى وجهه ويملاً عينيه ، وبصدره يعلو ويهبط فى

عنف • وتابع الزحف حتى وصل الى مدخنة أخرى فتوقف ينتظر • وسمع الصوت مرة أخرى • • عاليا فى هذه المرة :

- جىرى • • !!

وتطلع من خلف المدخنة ورأى الكوة لاتزال خالية • ولكنه أدرك عندما سمع الصوت مرة أخرى أن الرجل بدأ يبرز من الكوة الى السطح • لأنه كان يستطيع أن يميز الصوت وكأنما هو صادر من شخص يقف الى جواره •

- جىرى • • !

ثم رأى وجه الرجل يبرز من الكوة • • وعندما عاد الصوت مرة أخرى أدرك « بيجر » أن الرجل رأى صاحبه ملقى فوق الثلج •

- جىرى • • يا الهى !

ورفع « بيجر » يده المسككة بالمسدس • • وانتظر •

- جىرى • • !

وخرج الرجل من الكوة ووقف الى جوار زميله الملقى ومضى يصرخ •

- ماهذا ؟ • • جىرى !

نعم ، لسوف يصرخ الرجل أكثر وأكثر • هل يهرب الآن ؟ ماذا لو أنه هبط الآن من كوة سطح مبنى آخر ؟ كلا • لسوف يكون هناك ولاشك أناس يتجمعون فى ردهات المبنى ولسوف يفزعهم مرآه • • وربما ارتفعت أصواتهم بالصراخ فيقبض عليه • ولسوف يرحب هؤلاء بتسليمه ليضعوا حدا لهذا الرعب الذى يحيط بهم • لعله من الأفضل اذن أن ينتقل الى سطح مبنى آخر بعيد • ونهض « بيجر » ، وفى اللحظة التى تنهيا فيها للجىرى رأى رأسا يطل من الكوة ، ثم برز رجل آخر ووقف الى جوار « جىرى » • وكان رجلا طويل القامة انحنى نحو « جىرى » ثم بدا كما لو كان يضع يده فوق وجهه • ثم مالبت رجل ثالث أن خرج من الكوة ، وركز أحدهم ضوء بطاريته على جسم « جىرى » على حين انحنى الثانى وقلبه « ليفحصه » • وأضاءت البطارية وجه « جىرى » فى اللحظة التى هرع فيها واحد من الثلاثة الى حافة سطح المبنى ونظر الى الشارع • ورآه « بيجر » يرفع يده نحو فمه • • ثم سمع صوت صفارة • وماتت

الضجة التي كانت فى الشارع ، وتوقف صوت « السارينة » ولكن حزم الضوء ظلت تدور هنا وهناك . وفى وسط هذا الهدوء المفاجئ صاح الرجل :

– حاصروا المبنى .

وسمع « بيجر » شخصا يجيب :

– هل توصلت الى أثر ؟

– أعتقد أنه قريب .

وارتفعت صيحات صاحبة . نعم ، لقد أحسوا الآن بأنهم أصبحوا قريبين منه . وعاد الرجل يطلق صفاراته ليختلط صوتها بالضجة الصاخبة فى الشارع . الضجة المتزجة ببعض صيحات الفرح الوحشى .

– ابعثوا بمحفة وبيعض الرجال .

– حسنا .

واستدار الرجل ثم عاد الى « جبرى » الممدد فوق الثلج . وسمع « بيجر » بضع كلمات .

– . . كيف حدث هذا ؟

– يبدو أنه ضرب .

– . . ربما كان قريبا .

– أسرعوا . ألقوا نظرة على السطح .

ورأى « بيجر » أحدهم ينهض والبطارية فى يده ، وكانت دائرة حزم الضوء الصادرة عن الكشافات فى الشارع قد تركزت فوق سطح المبنى فأحاله الى نهار ، واستطاع « بيجر » أن يرى أن أحد الرجال يحمل مسدسا . وكان لابد لبيجر أن ينتقل الى سطح آخر قبل أن يدركه هذا الرجل أو غيره ، فلا بد أنهم سوف يفتشون كل بوصة من أسطح هذه المجموعة من المنازل ، وبدأ « بيجر » يزحف على أربع حتى انتهى الى الوصلة التي تؤدى الى مبنى آخر وتشبث بحافتها ثم عاد ينظر خلفه ورأى الرجل لا يزال واقفا وهو يدير ضوء البطارية حوله . وتمدد « بيجر » بطوله فوق الوصلة وبدأ يزحف فوقها دون أن يدرى مدى ما يحتاج اليه من جهد وقوة لكي يصل الى السطح الآخر ويبدأ بالجرى . . . فقد أنساه الخوف كل شيء : أنساه أنه لم تعد لديه القوة التي تمكنه من أن يفعل ذلك . وفجأة سمع الرجل خلفه يصيح :

- هاهو ذا •

وألجمته الكلمات الثلاثة • فتوقف • لقد ظل طوال تلك الليلة ينتظرها •

وعندما سمعها خيل اليه أن السماء قد أطبقت فوقه • مافائدة الهرب الآن ؟ أليس من الأفضل أن يقف ويرفع يديه الى أعلى ويستسلم ؟ الى الجحيم هذا الحاطر • كلا • وتابع الزحف على أربع :

- قف مكانك •

وانطلقت رصاصة ومقرت بجوار رأسه ، ونهض هو يجرى من حافة الى أخرى ويمرق ما بين المداخل حتى تتعذر على مطارديه اصابته ، ونظر أمامه ورأى شيئا ضخما دائريا وأبيض اللون يلمع وسط الظلمة • كانت كومة من شيء ما يرتفع حادا واضحا يبرق على ضوء الكشافات المنطلقة من الشارع • وسرعان ما أصبح « بيجر » عاجزا عن أن يبتعد أكثر من ذلك فقد أصبح قريبا من نقطة ينتهى عندها السطح فلا يصبح وراءه بعد ذلك سوى الشارع - وظل يتحرك من المداخل وقدماه تنزحلقان فوق الثلج وهو يفكر فى ذلك الشيء الأبيض المرتفع فى مواجهته • أهو شيء يمكن أن يساعده فى هربه؟ هل يستطيع أن يتسلق هذا الشيء أو يختبئ خلفه ليحتمى من مطارديه ؟ وكان يرهف السمع وهو يتوقع مزيدا من الطلقات • ولكن الطلقات توقفت •

وتوقف بالقرب من حافة السطح وهو ينظر خلفه ورأى رجلا يتعثر فوق الثلج • هل يطلق عليه الرصاص ؟ كلا • فلسوف يجرى آخرون بعد لحظات فلا يكون قد فعل شيئا أكثر من اضاءة الوقت • وكان لا بد أن يجد مكانا يختبئ بداخله • مكانا يستطيع فيه على الأقل أن يحتمى به مثل الكمين ليقا تل اذا اضطر الى القتال • وأسرع يجرى نحو حافة أخرى مرتفعة وهو يمرق بحذاء ذلك الشيء الأبيض الذى أصبح ينتصب أمامه واضحا جليا ، ثم توقف وهو يرمش بعينه وينظر الى الشارع ليرى بحرا من الوجوه البيضاء • وخيل اليه لحظة أنه يسقط وسط هذا المحيط من الكراهية •

وقبض بقوة على الحاجز المكسو بالثلج وهو يتصور أنه لو كان قد أسرع فى الجرى • لوصل الى سطح المبنى الرابع ببساطة • وما لبث أن تراجع كالمذهول ، فقد كانت تلك هى النهاية ولم تعد هناك سطوح أخرى يستطيع أن يهرب اليها • وألقى نظرة الى الخلف ورأى الرجل لا يزال

مقبلا فى اتجاهه . ونهض « بيجر » واقفا وقد ارتفع صوت « السارينه » كثيرا عن ذى قبل كما تزايدت الضجة والصيحات والصراخ . نعم ، ان هؤلاء الذين يمثلون الشارع الان يعرفون أن رجال الشرطة قد أوقعوه فى المصيدة . فوق السطح : وتذكر ذلك الشيء الأبيض الذى رآه منذ لحظة منتصباً أمامه ، فرفع بصره ورأى فوقه مباشرة خزاناً للمياه ذا سطح منبسط . ورأى سلماً من الحديد يودى الى أعلاه فتشبث به وصعد فيه دون أن يدرى الى أين هو ذاهب ، فكل ما كان يديره لحظتها أنه لا بد أن يختبئ .

وصل الى قمة الخزان ومرقت ثلاث رصاصات الى جوار رأسه فارقتى ينام على بطنه فوق الثلج وكان قد أصبح فى قمة مرتفعة تتيح له مجالا أكثر اتساعاً للرؤية . ورأى رجلاً يصعد حاجزا قريبا وخلفه عدد آخر من زملائه ووجوههم البيضاء تلمع تحت ضوء الكشافات كما رأى آخرين يصعدون من السكوة الى السطح ويتحركون نحوه بسرعة وهم يحتمون بالمداخل . ورفع « بيجر » مسدسه وصوبه ثم أطلقه ، وتوقف الرجال ولكن أحدا منهم لم يسقط على الأرض . وكان قد أخطأ الهدف . وأطلق مسدسه مرة أخرى ، ولكن أحدا لم يسقط للمرة الثانية وإن كانت مجموعة الرجال تفرقت تحتوى بالجدران والمداخل . وارتفعت الضجة فى الشارع وهى تتحول فى سرعة الى فرحة طاغية غريبة . ولم يكن هناك شك فى أن صوت طلقات المسدس جعلت من بالشارع يظنون أنه أصيب وتم القبض عليه . أو قتل .

ورأى « بيجر » رجلاً يجرى نحو خزان المياه عبر مسافة مكشوفة ، فأطلق عليه الرصاص واندفع الرجل يحتمى بالمدخنة . لقد أخطأ للمرة الثالثة . ربما كانت يده باردتين الى درجة لا يستطيع معها أن يقبض على المسدس بثبات ؟ ولعل من الأوفق أن ينتظر حتى يقتربوا منه أكثر قليلا . وأدار رأسه فى نفس اللحظة التى كان فيها أحد الرجال يتسلق حافة السطح من جهة الشارع عن طريق سلم كان يستند الى جانب المبنى ، ورفع « بيجر » مسدسه ليطلقه . ولكن الرجل قفز الى السطح بسرعة وابتعد عن خط الرؤية ثم اختفى أسفل الخزان .

وسقط شيء أسود بالقرب من رأسه فوق الثلج . شيء كان يصدر زفيفا ثم ما لبث أن انطلق منه دخان أبيض أبعداه الريح عنه . غاز مسيل للدموع . وبضربة من يده أطاح بذلك الشيء بعيدا ولكن مثله سقط فى نفس المكان . وعاد هو يطيح به بعيدا عنه . مرة واثنين . وكانت

الرياح تهب قوية من اتجاه البحيرة وتبعد الغاز عن عينيه وأنفه . . . وسمح
أحد الرجال يصيح :

– أوقف الغاز . . ان الرياح تبعدة عنه . وهو يعيدها نحونا .
وارتفعت الضجة فى الشارع . . وبرز مزيد من الرجال من الكوة
الى السطح .

وتهيأ « بيجر » لاطلاق مسدسه ولكنه تذكر أنه لم يعد بالمسدس
سوى ثلاث طلقات ففضل أن ينتظر حتى يصبحوا قريبين منه كيما يوفر
رصاصه لنفسه . . فلن يسمح لهم بأن ينالوه حيا .
– انزل يا ولد .

ولم يتحرك من مكانه وظل راقدا ينتظر والمسدس فى يده . وفجأة
برزت أربع أصابع بيضاء تحت بصره مباشرة تمسك بحافة خزان الماء .
وصر « بيجر » على أسنانه وسمع فى أعقاب ذلك صوت جسم ثقيل يرتطم
بأرض السطح المكسوة بالثلج . . وانتظر هو محاولات أخرى للصعود
إليه ، ولكن أحدا لم يكرر المحاولة .
– لا فائدة من المقاومة يا ولد . لقد أحطنا بك . . انزل .

وأدرك أنهم كانوا خائفين ، ولكنه أدرك أيضا أن الأمر كله سوف
ينتهى بطريقة أو بأخرى : قد يقبضون عليه . . وقد يقتلونه . وأدهشه
أنه لم يكن يشعر لحظتها بالخوف وكأنما بدأ جانب من عقله ينفصل ليختفى
خلف ستار أو حائط وينظر الى ما يدور بعين الرضا لقد أصبح لحظتها
بعيدا عن ذاته . . يقف تحت سماء شتاء تضيئها حزم طويلة من الضوء
المتأرجح ويسمع صرخات عطشى وصيحات جوعى . . وشدد قبضته على
المسدس فى اصرار . . وبلا خوف .

– قل لهم لا بد أن يحضروا خرطوم المياه . . فهذا الزنجى مسلح .
ماذا يقصدون ؟ ودارت عيناه فى محجريهما وهو يتطلع الى أى شىء
يمكن أن يطلق عليه رصاص مسدسه ، ولكنه لم ير أحدا . ولم يعد
جسده يهيمه فى تلك اللحظة ، كل ما كان يهيمه أنه مازال فى مكانه يمسك
بمسدسه فى يده وقد أحاط به أناس يريدون أن يقتلوه ثم سمع صوتا
مجلجلا كالمطرقة . . واتجه ببصره ورأى كوة تفتح خلف حافة إحدى
المدائن ، وسمع صوتا أجش يقول :
– يا ولد . . اننا نمحك آخر فرصة . . انزل الآن .

وظل «بيجر» فى مكانه . ترى ماذا يعدون له الآن ؟ كان يعلم تماما أنهم لن يطلقوا عليه النار لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤيته . فماذا سيفعلون اذن ؟ .. وسرعان ما جاء الجواب : اندفعت المياه مثل الفضة السائلة تحت أضواء الكشفات تمرق فوق رأسه بعنف وقوة لترتطم فى النهاية بسطح المنزل الذى يقع الى الخلف منه . لقد صوبوا نحوه خرطوم مياه .. لا بد أن ادارة المطافئ هى التى أعدت له ذلك ، كانوا يحاولون اذن أن يجبروه على أن يخرج الى منطقة مكشوفة من السطح . وكانت المياه تأتي من مكان خلف المدخنة حيث انفتح باب الكوة ، ولكنها لم تلمسه بعد ، فقد كانت تتأرجح مندفعة هنا وهناك وكأنما تحاول أن تصل اليه . ثم ما لبثت أن ارتطمت به بشدة وكأنها مقدمة سيارة . وزايلته أنفاسه ، وأحس بألم موجه فى جنبه أخذ يسرى الى باقى جسده فى سرعة . وكانت المياه تحاول أن تدفعه بقوة من فوق الحزان . وأخذ هو يتشبث بحافته وهو يحس بقواه تخور وبصدره يعلو ويهبط . وأدرك من عنف الألم الذى أحس به أنه لن يستطيع المقاومة أكثر مما فعل والمياه تندفع نحوه بتلك القوة . وأحس بالبرد يغمر جسده وبأن الدماء داخل عروقه قد تحولت الى ثلج . وشقق بعنف وفغر فاه .. ثم بدأت أصابعه تتراخى عن قبض المسدس ، وحاول أن يشدد عليه قبضته من جديد ولكنه لم يستطع . وابتعدت عنه المياه لحظة وظل هو فى مكانه يلهث وقد خارت كل قواه .

— ألقى بهذا المسدس يا ولد .

وضغط فكيه . وعادت المياه ترتطم به وكأنما هى يد عملاق . وبرح الألم بذراعيه .. وعاد يعيش مرة أخرى خلف حائطه ينظر الى نفسه وهو يتجمد تحت وطأة المياه ورحمة رياح بلغت برودتها أقل من الصفر . ثم ابتعدت المياه عن جسده مرة أخرى .

— ألقى بهذا المسدس يا ولد ..

وبدأ جسده يرتعش .. وتراخت أصابعه تماما عن المسدس فسقط الى جواره فوق الحزان . حسنا ، لقد انتهى الأمر . لماذا لا يصعدون اليه اذن؟ تشبث بحافة الحزان وهو يغوص بأصابعه فى ركام الثلج وقد زايلته قواه تماما . لقد استسلم . وانقلب على ظهره ونظر الى قبة السماء فى اعياء .. لقد انتهى كل شيء . يستطيعون الآن أن يطلقوا عليه الرصاص . لماذا لا يفعلون ؟ لماذا لا يصعدون اليه ؟

— ألقى بالمسدس يا ولد ..

كانوا يريدون المسدس • ولم يكن المسدس معه • لم يعد يحس بالخوف ، فلم تكن لديه حتى القوة التي تمكنه من ذلك •

– ألق بالمسدس يا ولد •

« نعم ، • أمسك بالمسدس وألقى به نحوهم » •

ومد يده ببطء وحاول أن يلتقط المسدس ولكن أصابعه كانت متخشبة • وأحس بشيء ما يضحك في أعماقه • شيء بارد قاس ، لقد كان يضحك من نفسه • لماذا لا يصعدون اليه ؟ لقد كانوا خائفين • وأدار بصره وتطلع الى المسدس باشتياق ، وفي نفس اللحظة عادت المياه • لترتطم بالمسدس وتقفز به بعيدا • الى السطح •

هذا هو •

– انزل يا ولد • انزل • لقد انتهيت •

– لا تصعدوا اليه • فربما يكون معه مسدس آخر •

– انزل يا ولد • انزل •

ولكنه كان بعيدا عنهم تماما ، كان أضعف من أن يظل ممسكا بحافة الخزان • وبقي ممددا على سطحه وقد فغر فاه وهو يستمع الى هدير المياه فوق رأسه • وعادت المياه تضربه بعنف • في جنبه ، وأحس بجسده ينزلق فوق سطح الخزان المكسو بالثلج • وأراد أن يتشبث بحافة الخزان فلم يستطع • وما لبث جسده أن اقترب من الحافة • وما لبث ساقاه أن تارجحتا في الهواء ، ثم هوى • ليتمدد فوق السطح ورأسه الى الأرض وسط الثلج •

وفتح عينيه ورأى دائرة من الوجوه البيضاء • ولكنه كان بعيدا عنهم • بعيدا خلف حائطه الخاص • وسمعهم يتكلمون ، وكانت أصواتهم كأنما تنتهي اليه من مكان بعيد •

– حسنا • لقد انتهى •

– أنزلوه الى الشارع •

– لقد أفلحت المياه •

– انه يكاد يتجمد من البرد •

– حسنا ، هيا • أنزلوه الى الشارع •

وأحس بأنهم يجذبون جسده ويجرونه فوق الثلج ، ثم يرفعونه ويهبطون به من الكوة .

— هل أمسكتم به ؟

— نعم .. تلقفوه .

— حسنا .

وهوى بين أيد قاسية في الحجرة المظلمة . وكانوا يجرونه من قدميه . وأغمض عينييه ورأسه ينزلق فوق أرض خشنة . وأدرك أنه أصبح داخل المبنى عندما أحس بهواء دافئ يلمس وجهه . وعادوا يجرونه من قدميه عبر « الصالة » فوق سجادة ناعمة .

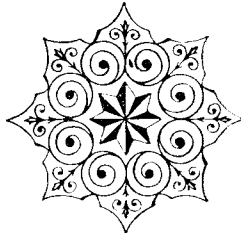
ثم توقفوا لحظة .. وعادوا يجرونه من قدميه هابطين به السلم ورأسه يرتطم بكل درجة من درجاته ، ولف ذراعيه الميلتين حول رأسه ليحميه ولكن ارتطامه بدرجات السلم استنفد كل قواه فعاد يسترخي وهو يحس برأسه يكاد ينفجر من الألم . وأغمض عينييه وهو يحاول أن يغيب عن الوعي . ولكنه ظل يحس بالألم مع كل درجة من درجات السلم الطويل وكأنما هناك مطرقة تدق رأسه بعنف . ثم توقفوا مرة ثانية ، وأحس بأنهم قد اقتربوا به من الشارع ، فقد تناهت إليه الصرخات والصيحات من الخارج فى هدير كهدير المياه .. ثم ما لبث أن أحس بأنه قد أصبح فى الشارع والقوم يجرونه فوق الثلج وفجأة ارتفعت ساقاه وقد أمسكت بهما أيد قوية .

— اقتلوه .

— اشنقوه .

— هذا الأسود ابن الـ ..

ثم تركوا ساقيه .. وظل هو ممددا على ظهره فوق الثلج وقد أحاطت به أمواج من الضجة والصخب . وفتح عينييه قليلا ، ثم أحس بقدمين تضغطان على قبضتى يديه من اليمين واليسار وتدفعانها داخل الثلج .. وأغمض عينييه فى بطاء .. ثم ما لبث أن احتوته ظلمة حالكة .





المصير

www.lilas.com/vb3/
florist

[www.liilas.com/vb3/
florist](http://www.liilas.com/vb3/florist)





يعد « بيجر » يشعر الآن بتتابع الليل والنهار .
فلم يكن هناك أمامه سوى وقت متصل ممتد . .
وقت قصير غاية في القصر يمضي بطيئا متثاقلا
ثم - تحين النهاية . الآن لم يعد يشعر بالخوف من أى شخص فى هذا
الوجود ، فهو يدرك تماما أن الخوف لم يعد يجدى . ولم يعد يضمّر
كراهية لأحد فى هذه الدنيا لأنه كان يعلم ذلك لن ينفعه .

وبالرغم من أنهم نقلوه من مركز شرطة الى آخر ، وعلى الرغم من
صنوف التهديد والضرب والاغراء والتعذيب التى اتبعوها معه فانه رفض
بشبات أن يتكلم . . كان يقضى معظم الوقت جالسا مطأطئ الرأس يحدق
الى أرض «زنزانتة» أو مستلقيا على بطنه دافئا وجهه فى ثنية أحد
كوعيه . . تماما كما يستلقى الآن على فراشه الخشن وأشعة شمس فبراير
الصفراء الباهتة تتسلل اليه من خلال القصبان الحديدية الباردة لمركز
شرطة الشارع الحادى عشر .

وكانت صحاف الطعام التى يحضرونها له ترفع بعد ساعة دون أن
تمس ، وكانت صناديق السجائر التى يقدمونها له تلقى على الارض دون
أن تفتح . حتى الماء لم يكن يشربه ، كان فحسب مستلقيا أو جالسا
لا يتفوه بشئ ولا «يلتفت» لدخول أحد أو خروجه من «زنزانتة» . وكانوا
يقودونه من معصمه عندما يريدون نقله من مكان الى آخر ليذهب معهم
دون أية مقاومة وهو يسير دائما بخطى متثاقلة مطأطئ الرأس ، وحتى
عندما كانوا يجذبونه من «ياقته» فان جسده المتهالك كان ينجذب فى يسر
مع الجاذبين دون أن يبدو عليه أمل أو حنق وعيناه كبيركتين ساكنتين من
الحبر الأسود وسط وجهه المترهل . . لا أحد يشاهده الا الموظفون
الرسميون وهو من ناحيته لا يطلب رؤية أحد . وفى خلال الايام الثلاثة

التالية للقبض عليه ، لم تمر بمخيلته على الإطلاق صورة مما بدر منه . بل لقد دفع بالأمر جميعه فيما وراءه حيث ظل فظيحا مروعا . . . ولم يكن قط فى حالة ذهول بقدر ما كانت تستبد به قبضة عزم « فسيولوجى » يمنعه من أن يتأثر بأى شىء . . .

واذ وجد «بيجر» أن حادث القتل الذى تورط فيه عرضا قد ألقى به فى موقف تكشف له فيه قدر من الترتيب أو المعنى للعلاقات بينه وبين الناس المحيطين به . . . واذا وجد نفسه يشعر بالاثم ويتقبل مسئولياته كاملة ازاء هذه الجريمة - لان ذلك جعله يحس بأنه حر طليق لأول مرة فى حياته . . . واذا شعر برغبة قلبية فى أن يلتمس الأنس بالناس وحاول الحصول على المال اللازم للافراج عنه بكفالة حتى يحقق ذلك . . . اذا فعل ذلك كله وأخفق فقد آثر ازاء هذا الاخفاق أن يكف عن النضال . وبعزيمة فائقة تنبع من ذات كيانه ، انسلخ من حياته وألقى خلف ظهره الشريط الطويل للاحداث الرهيبة التى نبتت من تلك الحياة .

وبالرغم من رغبته فى أن يسحق كل ايمان فى نفسه ، فان هذه الرغبة فى حد ذاتها كانت تقوم على أساس من الايمان . . . كان حسه يدفع بأنه اذا لم يكن هناك امتزاج بمن حوله من الرجال والنساء فلا أقل من أن يمتزج بجانب آخر من العالم الطبيعى الذى كان يعيش فيه . ومن ثم فقد قفزت مرة أخرى الى أعماقه رغبة فى القتل ، ولكنها لم تكن موجهة فى هذه المرة الى الخارج . . . الى الناس ، بل كانت موجهة الى ذاته نفسها . ولماذا لا يقتل فى ذات نفسه ذلك الشوق الشاذ الذى قاده الى هذه النهاية ؟ لقد انسل الى الخارج فقتل دون أن يحقق حلا . فلماذا اذن لا ينفذ الى أعماق ذاته ليقتل ذلك الشىء الذى خدعه ؟ . لقد قفز اليه ذلك الخاطر بطريقة آلية مثلما تكون البقسايا العطنة لأعواد القمح بعد حصاده تربة خصبة لينمو من جديد .

وقبل هذا كله وبعده ، كان هناك الخوف من الموت الذى أصبح يقف الآن فى مواجهته عاريا أعزل بلا قدرة على الدفاع . كان لا بد أن يضى الى الأمام قدما ليواجه نهايته مثل أى شىء حى آخر على وجه الارض . لقد كانت هناك حقيقة تنظم موقفه تجاه الموت . . . أنه أسود ، محتقر ، لا يدانى الآخرين من البيض . ولكنه كان جائعا - بطريقة سلمية - الى فلك آخر بين قطبين يهيئان له العيش من جديد . . . الى أسلوب من الحياة جديد يمكن أن يلحق به فى أزمة الكراهية والحب . وانه لحتم أن تحوم فوق رأسه كالنجوم فى قبة السماء ، صور ورموز

لا حصر لها تستطيع بما لديها من سحر وقوة أن ترفعه عاليا وتجعله يعيش حياته بطولها وعرضها . . ساحة ذيل النسيان فوق مخاوفه من أنه أسود لا أمل له في مساواة . حتى الموت . . يهون حينئذ ، ويصبح انتصارا في حد ذاته . . انه لحتم أن يحدث ذلك قبل أن يواجه الناس مرة أخرى ، ولسوف يولد في نفسه حينئذ شعور جديد بالكبرياء وشعور جديد بالتقوى : التقوى المنبعثة من الاحساس بالترابط والانتماء لجانب من جوانب هذا العالم الذي يعيش فيه . . ولسوف يكون هذا الاحساس أساسا لأمل جديد سيعمل عمله في ذات نفسه كالكبرياء والكرامة سواء بسواء .

على أن ذلك قد لا يحدث ، وقد لا يكون هناك مكان له بالنسبة لمثل ذلك الشيء . . وربما يكون قد كتب عليه أن يمضي الى نهايته هكذا : أبكم مسوقا تملأ عينيه ظلال الفراغ . ربما كان الامر قد انتهى . ربما كان الأمل المختلج والحيرة والاضطراب والتوتر أشياء تقود كلها الى لا شيء . ربما كانوا صادقين عندما قالوا ان البشرة السوداء سوءة ، وانه ليس أكثر من حيوان يشبه القرد . ربما لم يكن هو أكثر من انسان سييء الحظ : انسان ولد لمصير مظلم ، أو لعله يكون مجرد سخرية فاضحة تحدث وسط الضوضاء والوجوه البيضاء ودوائر الضوء تحت سماء باردة ناعمة كالحرير . ولكنه لم يكن يستطيع أن يحس بذلك زمنا طويلا . فقد كانت أفكاره كلها تغيب عندما تصل الى مثل تلك الحلول والنتائج وتخل مكانها لاقتناع في أعماقه بأن هناك سبيلا الى الخلاص . ولقد كان ذلك الاقتناع في حالته تلك وهو داخل «نزانته» قويا يكاد يشل جسده .

وفي صباح أحد الايام جاءت مجموعة من الرجال اقتصادته من معصميه الى غرفة كبيرة في مشرحة «كوك كاونتي» حيث تجمع عدد كبير من الناس . وعندما دلف الى الغرفة بئرته الأضواء القوية الساطعة وتناهت الى سمعه أصوات عالية، ووقف هو يحملق في ذهول في مجموعة الوجوه البيضاء المتراسة ووميض آلات التصوير الذي لا ينقطع . وأحس بأن دفاعه عن نفسه بالتزام اللامبالاة . . لم يعد يجدى في حمايته . وطن للوهلة الاولى أن محاسنكمته قد بدأت ، ومن ثم فقد أعد نفسه للاستغراق في أحلام لا تعنى شيئا . ولكن الغرفة لم تكن قاعة محكمة ! فهي بعيدة عن أن تكون كذلك . وأحس «بيجر» بمثل ما أحس به عندما حضر مندربو الصحف لأول مرة واجتمعوا في « بدروم » منزل المستر « دالتون » وقبعاتهم فوق رؤوسهم يدخنون السيجار ولفافات التبغ وهم

يوجهون اليه الأسئلة .. وان كان احساسه الآن أقوى بكثير . كذلك فقد أحس «بيجر» في جو الغرفة باستهزاء صامت يتحداه ، ولم يكن شعوره نحو الحاضرين مجرد الكراهية وانما كان شيئاً أعمق من هذا وأكبر . فقد أدرك أن مشاعرهم وسلوكهم وموقفهم تجاهه قد جاوز حد الكراهية ، وشعر من نبرات أصواتهم ومن نظراتهم المهددة به باقتناعهم الجازم بثبوت الجريمة ضده . ولم يكن في مقدوره أن يعبر عما يجول بخاطرهم في كلمات ، فقد شعر بأنهم لا يصرون على قتله فحسب .. بل ويبيتون النية على أن يكون في موته مغزى أكبر من كونه مجرد عقوبة وأنهم يعتبرونه بدعة في عالم السود الذى يخشونه ويحرصون على إبقائه تحت سيطرتهم . ولقد أدرك « بيجر » من جو الجماهير التى أحاطت به أنهم يريدون أن يجعلوا من اعدامه أمثلة دامية للذعر والارهاب يلوحون به أمام أعين ذلك العالم الاسود . وعندما أحس بذلك كله تحركت عوامل الثورة في صدره . كان قد وصل به الأمر الى آخر درك في جانب الموت، ولكنه ما ان أحس بأن حياته قد أصبحت مرة أخرى تحت وطأة التهديد بأسلوب يعنى أن ينحدر في طريق مظلم يصبح هو فيه مجرد مشاهد رياضى لا حيلة له فيه لمجرد امتناع الآخرين .. حتى انتفض يتحرك .. في حياة .. واصرار .

وحاول أن يحرك يديه ، ولكنه اكتشف أنهما مقيدتان بقيد قوى من الصلب الى معصمى رجلى الشرطة البيضاء اللذين كانا يجلسان عن يمينه ويساره . ونظر حوله ، فرأى رجل شرطة يقف أمامه وآخر يقف خلفه . ثم ما لبث أن سمع صليل معدن .. وأحس بيديه وقد أصبحتا طليقتين .. وانتبه على صوت حركة عالية أدرك بعدها أنه هو الذى أحدثها وهو يجلس في مكانه . وفجأة تركزت عيناه على وجه أبيض تبدو عليه علائم التوتر والقلق . كانت « مسز دالتون » بوجهها المحاط بهالة من الشعر الابيض تجلس في هدوء ويدها الضعيفتان الباهتتان كالشمع مطويتان في حجرها . وتذكر « بيجر » وهو ينظر اليها لحظات الفزع الرهيب التى انتابته عندما كان يقف الى جانب من المخدع في الغرفة الزرقاء المظلمة يسمع دقات قلبه بين ضلوعه وأصابعه تضغط الوسادة على وجه «مارى» حتى لا تحدث صوتا . وكان يجلس الى جوار «مسز دالتون» زوجها المستر «دالتون» وهو ينظر أمامه بعينين مفتوحتين لا ترمشان . وفجأة استدار ووجه نظره « بيجر » الذى أرخى بصره .

ورأى «جان» بشعره الأشقر وعينه الزرقاوين ووجهه العنيد الرقيق

وهو ينظر اليه . وشعر بخجل شديد ينتابه بمجرد أن تذكر ما حدث داخل السيارة . بل وأحس أيضا بأصابع «جان» وهي تضغط على يده . وفجأة تحول خجله الى ثورة جامحة عندما تذكر مواجهة «جان» له على «الرصيف» وسط الثلوج .

وكان الاجهاد قد بدأ ينتابه . وبقدر ما كان يتمالك نفسه ، كان الشعور بالارهاق يتسلل اليه . ونظر «بيجر» الى ملابسه فوجدها مبللة بالعرق «وأكمامه» مرفوعة الى منتصف ذراعيه . وكان في مقدوره أن يرى بشرة صدره السوداء الداكنة من خلال قميصه المفتوح . وفجأة شعر بأصابع يده اليمنى تخفق بالألم ، كان هناك ظفران منزوعان من اصبعين من أصابع يده : انه لا يستطيع أن يتذكر كيف حدث ذلك ! وأراد أن يحرك لسانه ولكنه وجده منتفخا . وكانت شفتاه جافتين متشققتين . وأحس بحاجة ماسة الى شربة ماء . ثم شعر بأنه يترنح . وبأن الأضواء والوجوه تبدو أمامه كالأرجوحة . وما لبث أن تهاوى الى الارض .

وعندما فتح عينيه رأى نفسه ممددا على فراش من القش وشاهد وجه رجل أبيض ينحني فوقه فحاول أن ينهض ولكنه أحس بمن يدفعه الى الخلف مرة ثانية . ثم سمع صوتا يقول له :

— اهدأ يا ولد . . . واشرب هذا

وأحس «بيجر» بكوب يلمس شفتيه . هل يشرب ؟ . وما الفارق اذا فعل ؟! . وابتلع شيئا ساخنا . وكان كوبا من اللبن . وعندما فرغ الكوب استلقى على ظهره وحملق في السقف الأبيض وعادته بقوة ذكرى «بيسى» واللبن الذى قدمته له ساخنا . وأغمض عينيه عندما تذكر مشهد موتها وحاول أن ينسى كل ما حدث ، على حين كان يشعر بمعدته « تقرر » من الجوع . ولكن سرعان ما شعر بالراحة . وبدأ يحس بطنين أصوات خافتة ، فأمسك بحافة الفراش ونهض ، فابتدره أحد الموجودين قائلا :

— كيف حالك الآن يا ولد ؟

— « هه » . . ؟!

وكانت تلك هى أول مرة تنفرج فيها شفتاه عن كلمة منذ ألقوا القبض عليه .

كيف حالك الآن ؟

وأغمض «بيجر» عينيه وأدار رأسه الى الخلف وهو يدرك أنهم بيض وهو أسود وبأنهم آسروه وهو الأسير . وقال أحدهم :-

— لقد بدأ يفيق .

— نعم ، لا بد أن هذه الضجة هي التي أيقظته .

— تكلم يا ولد . هل تريد شيئاً تأكله ؟

ولم يحر « بيجر » جواباً .

— هات له شيئاً يأكله . انه لا يعرف ما يريد .

— من الأفضل أن ترقد الآن يا ولد . فمن الواجب أن تذهب للتحقيق مرة أخرى بعد الظهر .

وشعر «بيجر» بأيديهم تدفعه الى الخلف على فراشه . وأغلق الباب، فنظر حوله ووجد نفسه قد أصبح وحيداً وقد ساد السكون جو الغرفة . ومرة ثانية عاد الى دنياه وأحس بأنه يدور هنا وهناك تحت وطأة قوى طاغية غريبة لا يدرك كنهها . ولم يعد هدفه الآن أن ينفذ حياته . فلم يعد يعنيه ما يمكن أن يفعلوه به . بل انه على استعداد لأن يضعوه فوق الكرسى «الكهربائي» الآن توا . ان كل ما أصبح يهمه هو أن يحافظ على كرامته وكبريائه . فهو لا يريد أن يجعلوا منه ملهاة لهم . ولو أنهم كانوا قد قتلوه في تلك الليلة التي كانوا يجرونه فيها الى أسفل الدرج لكان ذلك دليلاً واضحاً على أنهم أقوى منه . ولكنه يشعر الآن بأنه ليس من حقهم أن يجلسوه أمامهم ليتفرجوا «عليه» أو يستخدموه كيفما يشاءون .

وفتح الباب بعد فترة . ودخل أحد رجال الشرطة وهو يحمل «صينية» طعام وضعها فوق المقعد المقابل وتركها وانصرف . وكان الطعام يتكون من شريحة من اللحم المشوى مع بعض البطاطس المقلية . وبرفق قطع «بيجر» قطعة من الشواء ووضعها في فمه . وكان مذاقها جيداً حتى انه كاد يبتلعها قبل أن يمضغها . وجلس على حافة الفراش وجذب اليه المقعد حتى يكون الطعام في متناول يده . وكان يأكل بسرعة لدرجة أن فكيه بدأ يؤلمانه فاضطر الى التوقف عن مضغ الطعام عندما شعر بلعابه يسيل على شديقيه . وعندما انتهى من تناول طعامه أشعل سيجارة ثم استلقى على فراشه وأغمض عينيه واستسلم لنوم منقطع .

وفجأة نهض جالساً . انه لم يقرأ صحيفة منذ مدة طويلة . ترى

ما الذى يقولونه عنه الآن ؟ ونهض من فراشه ولكنه ترنح وأحس بالحجرة تتمايل أمامه فقد كان لا يزال واهنا لم يبق بعد من الدوار . واستند الى الحائط وسار ببطء الى الباب ثم سحب المزلاج بحذر فانفرج الباب ووجد أمامه وجه رجل الشرطة الذى ابتدره قائلا :

— ماذا بك يا ولد ؟

ورأى مسدسا ضخما معلقا الى خاصرة الرجل . وأمسك به رجل الشرطة من معصمه وقاده الى فراشه وهو يقول :—

— اهدأ يا ولد .

—أريد صحيفة .

فقال رجل الشرطة فى دهشة :

— « هه » .. صحيفة ؟

— أريد أن أقرأ الصحف .

— انتظر لحظة وسوف أرى ما يمكن عمله .

وانصرف رجل «البوليس» وعاد من فوره ومعه مجموعة كبيرة من الصحف ثم قال :

— هاهى ذى الصحف يا ولد .. انها جميعا تتحدث عنك .

ولم ينظر «بيجر» الى الصحف الا عندما غادر رجل الشرطة الغرفة، ثم بسط أمامه صحيفة «التريبون» وقرأ العنوان التالى : « الزنجى القاتل ينهار فى التحقيق » .. لقد فهم الآن .. كانوا اذن قد أخذوه للتحقيق عندما أغمى عليه .. ثم أعادوه الى هنا .. وعاود «بيجر» القراءة :

« انهيار هذا الصباح بطريقة مسرحية الزنجى قاتل النساء (بيجر توماس) فى أثناء التحقيق معه فى جريمة قتل (مارى دالتون) الوريثة الوحيدة لمليونير شيكاغو عندما رأى أصحاب الدعوى . فعندما أفاق القاتل الأسود من ذهوله لأول مرة منذ القاء القبض عليه ليلة الاثنين الماضى ، جلس مذعورا من النظرات الخاطفة التى كان يوجهها اليه مئات الحاضرين . وقد صاحت فتاة بيضاء من الحاضرات بفزع وهى ترى السفاح الاسود محمولا على المحفة بعد أن أغمى عليه وقالت : انه يشبه القرد تماما » .

« وبالرغم من أن جسم القاتل الزنجى لا تبدو عليه متانة التكوين

فان شكله يوحى بأنه يتمتع بقوة غير طبيعية • وهو يبلغ فى الطول حوالى خمس أقدام وتوسع بوصات وبشرته حالكة السواد • وكان فكه الأسفل بارزا للأمام بصورة منفرة تذكر المرء بأحد وحوش الادغال • وكانت ذراعه الطويلتان مدلاتين الى ركبتيه • ومن السهل أن يتصور المرء كيف قام هذا الرجل وقد فقد شعوره الجامح بالتغلب على الفتاة الصغيرة مارى دالتون وقتلها وقطع رأسها واللقاء بجثتها بعد ذلك فى أتون موقد متأجج ليخفى بذلك آثار جريمته » •

« وكانت كتفاه ضخمتين مفتولتي العضلات ، وكان يقيهما منحيتين كما لو كان يتأهب للوثوب عليك فى أية لحظة •• وهو ينظر أمامه نظرات غريبة متبرمة وكأنما يتحدى كل مساعى الشفقة والرحمة » •

« انه يبدو كالوحش من كل ناحية •• وكأنما لم تمسه على الإطلاق مظاهر المدنية الحديثة • كذلك فانه تنقصه فى كلماته وسلوكه مظاهر اللطف والوداعة والبشاشة التى يحبها الأمريكيون حبا جما فى زنجى الجنوب » •

« وفى اللحظة التى ظهر فيها القاتل فى التحقيق تعالت الصيحات •• اقتصوا منه بلا محاكمة •• اقتلوه • ولكن يبدو أن الزنجى المتوحش غير مكترث بمصيره وكان التحقيقات والمحاكمة بل والكرسى «الكهربائى» الذى يلوح مؤكدا لا تبعث فى نفسه الفزع • وكان يبدو غريبا بالفعل عن مجتمع الحضارة البيضاء ، وكانت كل تصرفاته توجى بأنه ليس الا الحلقة القديمة المفقودة فى تطور الجنس البشرى » •

« وقد علق ضابط شرطة أيرلندى فى اقتناع عميق بقوله : اننى أؤمن بأن القتل هو العلاج الوحيد لأمثاله » •

« وقد رفض الزنجى أن يتناول أى طعام طوال ثلاثة أيام • وتعتقد دوائر الشرطة أنه يحاول أن ينهى حياته ليتجنب الكرسي « الكهربائى » ، أو ربما كان يستدر الاحساس بالعطف عليه » •

« وقد وافانا (ادوارد روبرتسون) محرر صحيفة (جاكسون ديل ستار) الذى فى الميسيسيبى بتحقيق صحفى عن (بيجر توماس) فى أيام صباه فى هذه المنطقة وقد أبرق لنا المحرر بالتالى :

« نشأ (بيجر توماس) من أسرة زنجية فقيرة من النوع الفاسد عديم الحيلة . وقد شب هناك . وهو معروف لدى سكان المنطقة بأنه أفاق ولص حقير وغير مهذب . ولم تتمكن من إرساله الى السجن بسبب صغر سنه » .

« ان واقع خبرتنا هنا في (ديكسي) مع أمثال هؤلاء الزوج الفاسدين تدل على أن عقوبة الاعدام التي يجري تنفيذها بطريقة علنية عامة ، هي العقوبة الوحيدة التي تؤثر في عقلية هؤلاء الزوج . ولو كان (توماس) الزنجي قد ارتكب جريمة مثل هذه في المسيسيبي لما كانت هناك قوة على ظهر الأرض تستطيع انقاذه من الموت على أيدي المواطنين الساخطين » .

« وأعتقد أنه من المناسب أن أقول لكم ان كثيرا من الأوساط هنا تعتقد أن بيجر توماس هذا - بالرغم من سواد بشرته الحالكة - قد تكون في عروقه نسبة ولو ضئيلة من الدم الأبيض . . نسبة تكفي عادة تكوين مجرم وكيان نفسى لا يمكن تحليله » .

« اننا هنا في (ديكسي) نجبر الزوج بحزم على البقاء فى المناطق المخصصة لهم ونجعلهم يدركون جيدا أنهم اذا مسوا امرأة يضاء على أية صورة ، فان ذلك سيكون معناه أنهم لن يستطيعوا متابعة الحياة ، وعندما يشكو الزوج من مظالم يتوهمونها فان الطريقة الوحيدة التي تردهم سريعا الى الرشدهى أن يتولى المواطنون تنفيذ القانون بأيديهم كيما يجعلوا من الزنجى المشاغب عبرة للآخرين » .

« ان الجرائم التي يرتكبها القتلة من أمثال (بيجر توماس) يمكن أن تنخفض نسبتها بعزل جميع الزوج عن البيض فى الحدائق والملاعب والمقاهى والمسارح « والأوتوبيسات » ، ومثل هذه الاجراءات كفيلة بإبعاد الزوج قدر الامكان عن الاتصال المباشر بالنساء البيضات . . ومن ثم سيققل من اعتداءاتهم عليهن » .

« اننا نحن أهل الجنوب ؛ نعتقد أن أهل الشمال يشجعون الزوج على تلقى قدر من التعليم أكبر من قدرتهم على الاستيعاب . ولقد كانت النتيجة أن الزوج الشماليين أكثر شقاء وتعسا وأقل استقرارا من زوج الجنوب . ولو أنكم فى الشمال أخذتم بنظام المدارس المنفصلة فسيكون من السهل تحديد تعليم الزوج عن طريق تحديد الاعتمادات التي تنفق على تعليمهم من جانب المدينة والمقاطعة والدوائر التشريعية فى الدولة » .

« وهناك أيضا أسلوب نفسى رادع يمكن تحقيقه بتعويد الزوج

تقديم الاحترام والاجلال للشخص الأبيض الذى يحتكون به . ويمكن الوصول الى ذلك عن طريق تنظيم أقوالهم وأفعالهم . وقد اكتشفنا أن ادخال عقدة الرعب والخوف فى نفوسهم ساعدنا كثيرا فى معالجة المشكلة »

وعندما انتهى « بيجر » من قراءة ذلك التقرير الصحفى ألقى بالصحيفة . فلم يعد فى مقدوره أن يتابع القراءة . نعم ، انهم فى طريقهم بالطبع الى أن يقتلوه ، ولكنهم ينوون التسلل والاستهزاء به قبل أن يفعلوا ذلك . وظل لحظات ساكنا لا يتحرك وهو يحاول أن يصل الى قرار . لم يكن يفكر ، ولكنه كان يحس فحسب بكل مايعتمل فى ذهنه . هل يهرب من سجنه ؟ وهل فى مقدوره أن يهرب الآن ؟ انه يشعر بأنه لا يستطيع . ثم ان هناك شيئا آخر : ألا يحتمل أن تنقلب محاولته عليه مثل أعماله السابقة ؟ . فلماذا اذن يضاعف كراهيتهم له ؟ واستلقى « بيجر » على الفراش وقد انتابه الشعور الذى كان يشعر به فى تلك الليلة عندما أمسكت أصابعه بالحواف المكسوة بالجليد لخزان المياه تحت الأضواء الساطعة . انه يدرك تماما أن الحراس يربضون خلفه بالخارج بالنادق ومسيلات الدروع . كما يسمع صيحات عشرة آلاف ترعد خارجهم بالصراخ والصفيير .

وحين غلبه النعاس . أغمض عينيه ثم ما لبث أن فتحهما فجأة . فقد فتح الباب وشاهد وجهها أسود . ترى من يكون ؟ تقدم نحوه رجل أسود فارح الطول حسن الهندام ثم توقف . ونهض « بيجر » واستند على أحد كوعيه على حين تقدم الرجل الى الفراش ومد يدا سوداء لمس بها يد « بيجر » .

— يا ولدى المسكين . لعل الرب الرحيم يشملك برحمته .

وحملق « بيجر » فى رداء الرجل الأسود الفاحم وأدرك على الفور من يكون . انه القس « هاموند » راعى كنيسة أمه . وفى لحظة كان قد أخذ حذره من الرجل وأغلق قلبه وحاول أن يكتم مشاعره داخل صدره ، فقد خشى أن يجعله الواعظ يشعر بتأنيب الضمير . وأوشك أن يطلب من الرجل أن ينصرف ، ولكنه لم يستطع وهو يدرك سريعا مكانة الرجل عند أمه وما يمثله بالنسبة اليها . انه لا يستطيع بأحاسيسه أن يفرق بين ما أثاره ذلك الرجل فى نفسه وبين ما أحدثته فيه السطور التى قرأها فى الصحيفة . ان حبه لقومه وكراهيته للآخرين يجعلانه يحس الآن بأنه مذنب .

وسأله الرجل :

– بماذا تشعر الآن يا بنى ؟

– ولم يحر « بيجر » جوابا .. فاستطرد الرجل يقول :

– لقد طلبت منى أمك أن أحضر لأراك ، وهى تريد أيضا أن تحضر

اليك .

وجئنا الواعظ على الأرض «الحرسانية» وأغمض عينيه . « وصر »
« بيجر » بأسنانه وتوترت عضلاته ... فقد أدرك ما الذى سيحدث
بعد ذلك .

– يا اله يسوع .. اشمل بنظرتك هذا الفتى المذنب التعس وانظر
ما بداخل قلبه . لقد قلت ان الرحمة دائما عندك واننا اذا طلبناها على
ركبتين جاثيتين فانك ستضعها فى صدورنا لنعود الى الحياة .. اننا
نسألك اياها الآن .. يا الهى ، اننا نسألك اياها من أجل هذا الفتى
المذنب التعس الذى يقف الآن فى أشد الحاجة اليها . واذا كانت ذنوبه
حمراء قانية فظهر قلبه يا الهى « وامسح » على ذنوبه لتصبح بيضاء
كالثلج . سامحه يا الهى على ما اقترفت يداه ودع نور حبك يحفظه فى
هذه الأيام المظلمة وساعد من يحاولون مد يد العون له يا الهى .. انفذ
الى قلوبهم وضع الرحمة فى صدورهم .. آمين » .

وكان « بيجر » يحدق ، دون أن يهتز له جفن ، الى الحائط الأبيض
المقابل وكلمات الواعظ تتسلل اليه . لقد كان يعرف – دون أن يسمع –
ما تعنيه تلك الكلمات .. انها نفس كلمات أمه عن المعاناة والحب والأمل
فى عالم آخر ، وكان هو ينفر منها لأنها كانت تسبب له احساسا بالذنب
تماما كصوت هؤلاء الناس الذين يضمرون له الكراهية .. واستطرد
الرجل يقول :

– يا بنى ..

ورما « بيجر » بنظره .. ثم انتحى جانبا .. وتابع القس كلامه :

– انس كل شئ يا بنى وحاول أن تسمو بروحك .. أسقط كل
شئ من ذهنك واذكر فحسب حياة أبدية .. انس ما قالتها الصحف
وانس يا بنى أنك أسود فان الله لا « يلتفت » الى لونك وانما يتغلغل الى
نفسك وروحك . انه يحبك ويريدك .. أعطه نفسك يا بنى .. أنصت

الى ودعنى أنيتك لماذا أنت هنا • دعنى أرو لك قصة تبعث السعادة
والسكينة الى قلبك ..

وكان « بيجر » يجلس ساكنا وهو لا ينصت • وبرغم ذلك فان
أحدا لو كان قد سألته أن يكرر كلمات الواعظ فقد كان فى مقدوره أن
يفعل ذلك • كان يشعر ويحس بمعانيها • وكان يرى أمامه فى أثناء
الحديث فضاء ساكنا مظلما فسيحا ، وكانت تتراءى أمامه صورة الواعظ
وهو يسبح فى ذلك الفضاء ويزداد حجما وقوة • • انها نفس المتاهات
التي كانت تبعثها أمه فى نفسه وهى تحمله فوق ركبتيها عندما كان طفلا
صغيرا فتثير فى نفسه خواطر خبت منذ مدة طويلة • • خواطر أخمدها
وظن أنه أسقطها من حياته الى الأبد • خواطر منحتة مرة أسباب الحياة
وأرته العالم ، ثم ها هى ذى نفس الخواطر تلقى بعواطفه وأحاسيسه فى
هوة من الخوف والحيرة •

ومضى القس يحكى :

« • • • • • بادئ ذى بدء • • • • • كان هناك امتداد لا نهائى لمياه هادئة
عميقة يعلوها الظلام • • • • • ولم تكن للأرض صورة واضحة محدودة المعالم • •
لم تكن هناك شمس ولا نجوم ولا أرض • • • • • ثم تنهى صوت من الظلام
استجاب له الأمواه • • • • • ثم استحال فى بطاء لتصبح كرة كبيرة تدور
حول نفسها • • • • • وقال الصوت آمرا : ليشتغل الكون نور • • • • • فبزغ على الكون
نور باهر مضى • • • • • وعاد الصوت مرة أخرى : لتظهر السماء ، فانهسرت
الأمواه وظهر فضاء عظيم فسيح فوق المياه التى تشكل منها جزء فى
هيئة سحب امتدت بين الماء والسماء • • • • • ومرة أخرى عاد الصوت كالصدى
من بعيد : فلتظهر الأرض الجافة • • • • • وانهسرت المياه فى هدير مرعد وبرزت
قمم الجبال فى الأفق وظهرت الوديان والأنهار • • • • • ونادى الصوت الأرض
والبحار • • • • • فأنبتت الأرض الكلاً والزهور والأشجار التى كانت تسقط
الحب والبذور على الأرض لتعود فتنمو • • • • • وأضيئت الأرض بنور النجوم
الكثيرة • • • • • واختصت الشمس بالنهار واختص القمر بالليل وأصبح هناك
أيام وأسابيع وشهور وأعوام • • • • • ثم نادى الصوت فخرجت المخلوقات الحية
من المياه • • • • • حيتان وزواحف من جميع الأنواع • • • • • وعلى الأرض كانت هناك
وحوش وماشية • • • • • وعاد الصوت نداءه : فليكن الانسان • • • • • وخرج
رجل من الأرض المتربة وظهر قبالة النهار والشمس • • • • • وتبعته امرأة
ظهرت ليلا قبالة القمر • • • • • وعاشا معا فى محبة واندمجا روحا وجسدا • •
ولم يكن هناك ألم ولا شوق ولا زمن ولا موت ، فقط ، كانت الحياة

كالزهور النضرة الزاهرة المحيطة بهم فى حديقة الأرض اليانعة . ومن وراء السحب تنهى الصوت يقول : لا تأكلا شيئا من فاكهة الشجرة التى فى وسط الحديقة ولا تمسها ولا فسوف تموتان .. » .

وتوقف القس ونظر اليه « بيجر » بركن عينيه ورأى وجهه الأسود الحزين فأحس بالذنب أكثر مما أحس بعد قتله لمارى . لقد قتل من قبل الصورة التى رسمها الواعظ للحياة .. قتلها حتى قبل أن يقتل « مارى » ، وكانت أول جريمة قتل ارتكبها . وها هو ذا القس يعيدها أمام عينيه تمشى كشبح فى ظلام الليل خالقة فى أعماقه عبئا أشد ثقلا وبرودة من كتلة من الجليد . لماذا تعود هذه الصورة الى صدره لتنقص نفسه بعد أن كان قد ضغط وسادة من الخوف والكرهية على وجهها ليخمد أنفاسها ويسلبها الحياة ؟ انه ليس بشرا عند هؤلاء الذين يريدون أن يقتلوه .. ليس جزءا من تلك الصورة التى رسمها القس للخلقة .. ومن أجل هذا قتلها ، ومن أجل أن يعيش ، خلق لنفسه دنيا أخرى جديدة ، ولأنه فعل ذلك كان لابد أن يموت !!

ومرة أخرى تسللت كلمات الواعظ الى مشاعره :

- يا بنى .. أتعرف ماذا كانت تلك الشجرة ؟ لقد كانت شجرة المعرفة . لقد أصر الرجل على أن يعرف السبب . وكل ما كان يريد منه الرب هو أن ينمو ويزهر مثل الزهور .. وأن يعيش كالأطفال . ولكن الرجل أراد أن يعرف السبب .. ومن أجل هذا هوى من النور الى الظلام .. وأخرجه الرب من الجنة وأنبأه بأنه يجب عليه أن يحصل على طعامه بعرق جبينه ، وأخبر المرأة بأنها ستنجب أبناءها بالألم والحزن ، وأصبح عليهما أن يجاهدا فى الدنيا كى يعيشا فيها .. ومضيا يسيران فى خوف وجزع وسط الأشجار وأيديهما تغطى عوراتهما . وكان خلفهما فى الشفق فوق السحاب .. ملاك يلوح بحسام ملتهب يقودهما فى الليالى الموحشة الباردة الرياح .. الى خارج الجنة .. الى الألم والدموع والموت . وأخذ الرجل والمرأة غذاءهما وأحرقاه ليصعد دخانه الى السماء ليستعظفا الرب عسى أن يمن عليهما بالمغفرة ... يا بنى ، نحن نصلى منذ آلاف السنين ... نصلى للرب عسى أن يرفع عنا اللعنة . وقد استمع الله الى صلواتنا وأخبرنا بأنه سيرينا طريقنا اليه .. وجاء يسوع الى الأرض وبث المحبة البشرية ، وعاش لكى يرينا الطريق . لا يوجد سوى طريق واحد يا بنى ، وهو طريق المسيح ... طريق المحبة والغفران . لا تقاوم وكن كالمسيح . واحمد الرب .. ان المحبة هى التى ستحميك يا ولدى .. انظر الى يا ولدى ..

وأراح « بيجر » وجهه الأسود على يديه .. ولم يحرك ساكنا .
- عدنى يا ولدى بأنك ستستل من حنايا صدرك البغضاء والكراهية
حتى تتغلغل محبة الرب فى قلبك .
ولم ينبس « بيجر » ببنت شفة .
- ألن تعدنى يا ولدى ؟
وغطى « بيجر » عينيه بيديه .
- قل لى فحسب انك ستحاول يا ولدى .

وأحس « بيجر » أنه قد يقفز من مكانه ليضرب القس اذا هو لم
يتوقف عن القاء الأسئلة .. كيف يتسنى له أن يؤمن بما يقوله ؟ كان
مذنباً . ونهض القس وهو يتنهد وأخرج من جيبه صليبا خشبيا صغيرا
ذا سلسلة واستطرد يقول :

- « انظر يا ولدى .. اننى أمسك بين يدي صليبا خشبيا مأخوذا
من شجرة .. هذه هي الحياة يا ولدى ، الصبر على الشدائد .. كيف
لا تؤمن بالرب يا ولدى وأنا أضع أمام عينيك الشيء الوحيد الذى يعطى
حياتك معنى ؟ استمع الى .. دعنى أضعه حول رقبتك ، وعندما تنفرد
بنفسك تستطيع أن تتطلع اليه .. لتؤمن . »

وخيم السكون على المكان .. وكان الصليب الخشبي معلقا على صدر
« بيجر »

والتفت « بيجر » على صوت مزلاج الباب يدور . وفتح الباب .
وظهر « جان » على « عتبته » ، وهب « بيجر » كالمصعوق من هول
المفاجأة .. ووقف القس هو الآخر وتراجع خطوة الى الخلف وهو ينحنى
قائلا للقادم :

- عمت صباحا يا سيدى .

وعجب « بيجر » من حضور « جان » ، ما الذى يريده الآن منه ؟
ألم يقبضوا عليه .. أو ليس الآن فى انتظار المحاكمة ؟ .. ألم يحقق
« جان » انتقامه ؟ .. وجمد « بيجر » فى مكانه عندما خطا « جان » الى
منتصف الغرفة ثم وقف قبالته . وفجأة أدرك أنه ليس هناك ما يدعوه
الى أن يظل واقفا أو أن يخشى من أن يوقع به « جان » أذى جسديا داخل
« زنزانته » . وجلس وحنى رأسه وعاد السكون يخيم على جو الغرفة حتى

كاد « بيجر » يسمع أنفاس « جان » والقس . ها هو ذا الرجل الأبيض الذى حاول أن يلقي على كتفيه وزر جريمته يقف أمامه . . على حين يجلس فى انتظار سماع كلماته الغضبية . لا بأس . . ولكن ، لماذا لا يتكلم ؟

ورفع « بيجر » بصره ولكنه عاد فأرخى عينيه عندما وجد « جان » ينظر اليه مباشرة . ولكن الغضب لا يبدو على وجه « جان » . . لماذا حضر اذن . . وما الذى يبغيه منه ؟ ونظر اليه مرة ثانية ورأى شفثيه تختلجان دون كلام . وعندما بدأ « جان » يتكلم . . كان صوته منخفضا وكلماته متعثرة تتخللها فترات سكوت . . وخيل الى « بيجر » أنه ينصت الى رجل يتحدث الى نفسه .

- « بيجر » . . ربما لا تكون لدى الكلمات المناسبة للتعبير عما أود أن أقوله لك ولكننى سأحاول على أية حال . لقد كان وقع الحادث على شديدا كالقنبلة . . ولقد . . . استغرق منى الأمر أسبوعا كاملا للسيطرة على نفسى . لقد ألقوا بى فى السجن ولم أكن أتصور طيلة حياتى أن ذلك يمكن أن يحدث لى . اننى . . اننى لا أريد أن أزعجك يا « بيجر » . . أنا أدرك أنك فى مأزق ، ولكن لدى ما ينبغي أن أقوله لك . . ولست مضطرا الى أن تقول لى شيئا الا اذا رغبت أنت فى ذلك . « بيجر » ، أنا أعتقد أننى أدرك حقيقة ما تشعر الآن به . . أنا لست أبله . . اننى أستطيع أن أفهم بالرغم من أنه كان يبدو على فى تلك الليلة أننى لا أفهم شيئا .

وتوقف جان برهة وازدرد ريقه وأشعل سيجارة ثم استطرد يقول :

- حسن . . انك متضايق منى . . لقد أدركت الآن ذلك ، أنا مثل الأعمى . . ولكننى لست غاضبا منك ، لقد أردت فحسب أن أحضر اليك هنا لأخبرك بأننى لست غاضبا . اننى لست غاضبا منك وكل ما أريده هو أن تسمح لى بمساعدتك . . أنا لا أضمر لك الكراهية لمحاولتك القاء تبعة ما حدث على كاهل ، ربما كان لديك أسبابك المقنعة لتفعل ذلك ، لست أدرى . . وربما أكون أنا المذنب الحقيقى .

وتوقف « جان » مرة أخرى وجذب بشراة نفسا طويلا من سيجارته ثم نفث دخانه ببطء وهو يعرض على شفثيه بعصبية . . واستأنف حديثه قائلا :

- « بيجر » أنا لم أقترف انما طوال حياتي في حقك أو في حق بنى جلدتك .. ولكننى أبيض ، وربما جعلنى هذا أطلب الكثير عندما أطلب منك ألا تبغضنى وخاصة أنك ترى كل رجل أبيض يضمرك الكراهية . أنا أدرك أن وجهى يبدو لك مثل وجوههم جميعا بالرغم من أن شعورى يختلف عن شعورهم نحوك .. ولكننى لا أعتقد أننا كنا بعيدين .. أحدنا عن الآخر .. حتى هذه الليلة . أنا أستطيع أن أدرك الآن لماذا رفعت فى وجهى مسدسك عندما انتظرتك خارج المنزل لأتحدث معك . لقد كان هذا هو التصرف الوحيد الذى تستطيع أن تفعله معى ، ولكننى لم أكن أعرف لحظتها أن وجهى الأبيض يجعلك تشعر بأنك مذنب محكوم عليه .

وصمت « جان » وظلت شفتاه مغلقتين دون أن تخرج منهما الكلمات .. وكانت عيناه تبحثان فى أرجاء الغرفة ..

وجلس « بيجر » ساكنا مرتبكا وهو يحس .. كما لو كان يجلس فوق عربة سريعة عمياء تدفعها عصفاء شاردة من الرياح .

وتقدم القس نحو « جان » وقال :

- هل أنت مستر إيرلون ؟

واستدار نحوه « جان » وقال :

- نعم ..

- لقد كان ما قلته الآن يا سيدى شيئا جميلا جدا ، وإذا كان هناك من يحتاج الى المساعدة فهو هذا الفتى التعس .. أنا القس هامون .

ورأهما « بيجر » يتصافحان ، ثم ما لبث « جان » أن جلس واستدار نحو « بيجر » وقال :

- بالرغم من أن هذا الحادث قد آلمنى فأننى خرجت منه بفائدة .. لقد جعل نظرتى للرجال أكثر عمقا ولقت نظرى الى أشياء كنت أعرفها ولكننى أنسيتها .. لقد .. لقد فقدت شيئا عزيزا ولكننى استعدت فى الوقت ذاته شيئا آخر ..

وشد « جان » رباط عنقه وساد الغرفة جو من السكون انتظارا لتكملة الحديث ..

- لقد علمتنى هذه التجربة أن من حقك يا « بيجر » أن تكرهنى ..

لقد اكتشفت الآن أنك لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً آخر غير ما فعلته ،
فقد كان هذا هو كل ما تستطيعه . وإذا أنا قلت أنك عني حق في أن
تكرهني فإن ذلك يجعل بعض الأمور تختلف قليلاً . . . أليس كذلك ؟ . .
منذ أن خرجت من السجن وأنا أفكر في هذا الموضوع وأقلب الأمر على
وجوهه المختلفة ، ولقد أحسست بأنني أنا الذي كان ينبغي أن يكون في
السجن ثمناً لجريمة القتل بدلاً منك ، ولكن ذلك لم يكن ممكناً . « بيجر »
. . أنا لا أستطيع أن أحمل على كتفي وزر ما اقترفه مائة مليون من
البشر .

وانحنى « جان » الى الأمام وأخذ يحملق في أرض الغرفة ثم استطرد
يقول :

— أنا لا أحاول أن أتقرب منك يا بيجر . . ولم أحضر الى هنا
لأقول لك انني أشعر بالأسف من أجلك ، فلست أعتقد أنك أسوأ حالا
منا نحن الذين نعقد الأمور في هذه الدنيا . ولكنني جئت الى هنا لأنني
أحاول أن أدرك حقيقة هذا الذي حدث والذي أراه الآن ، وهو ليس أمراً
سهلاً يا بيجر . . انني . . انني . . كنت أحب هذه الفتاة التي قتلتها
أنت . . لقد — أحببت . .

وارتعش صوته وتهدج قبل أن يكمل كلامه :

— . . . في أثناء وجودي في السجن كان الحزن يملأ قلبي من أجل
« ماري » ، ووجدت نفسي أفكر في كل الرجال السود الذين قتلوا والذين
يتألمون ويحزنون من أجل أحبائهم الذين يختطفون من بينهم في ظل
العبودية . . وقلبت لنفسي انه اذا كانوا هم قد استطاعوا أن يتحملوا
ما حدث لهم يجب على اذن أن أتحمل مثلهم .

وسحق « جان » بقايا سيجارته بحدائه ثم استأنف حديثه :

— وفي البداية ، ظننت أن الرجل العجوز « دالتون » يريد أن يلفق
التهمة ضدي وتمنيت أن أقتله . وعندما عرفت أنك أنت الذي ارتكبت
الجريمة أردت أن أقتلك ، ثم ما لبثت عندما استغرقت في التفكير أن
اكتشفت أنني لو قتلت فسوف يستمر الأمر طويلاً ولن يتوقف . وعدت
أقول لنفسي انني سوف أساعد هذا الشخص إذا سمح لي بذلك .

وهنا قال القس :

— عسى الله أن يباركك يا ولدي .

وأشعل « جان » لفافة أخرى وقدم واحدة الى « بيجر » ولكنه رفضها بأن أبقى يديه مطويتين أمامه وهو يحملق بعناد الى الأرض . كانت كلمات « جان » غريبة بالنسبة اليه . فلم يحدث له أن سمع كلاما مثل هذا من قبل . كان كل ما قاله « جان » شيئا جديدا على سمعه الى درجة أنه لم ينفعل له وبقي جالسا يحملق في دهشة وفي خوف حتى من مجرد النظر الى « جان » . وعاد « جان » يقول :

- دعنى أقف بجانبك يا « بيجر » ، أنا أستطيع أن أجاهد معك فى هذا الأمر ، تماما كما بدأته أنت . فى استطاعتى أن أنساخ من وسط كل هؤلاء البيض لأقف هنا بجوارك . أرجوك أن تستمع الى . ان لى صديقا يعمل محاميا . اسمه « ماكس » ، وهو يفهم حقيقة ما حدث ويريد أن يساعدك . ألا تريد أن تتحدث معه ؟

وأدرك « بيجر » أن « جان » لا يراه مذنبا فيما فعل . . أهو فنج ينصبه له ؟ ونظر « بيجر » الى « جان » . . ورأى وجها أبيض . . ولكنه رآه وجها أميناً . ان هذا الرجل الأبيض يؤمن بأنه غير مذنب . وفى اللحظة التى شعر فيها « بيجر » بحقيقة مشاعر « جان » نحوه عاوده مرة أخرى احساسه بأنه مذنب ولكن بطريقة مختلفة هذه المرة . فجأة يجيئه هذا الرجل الأبيض ليزيح الستار جانبا ويتسلل الى حياته . ولكن حديث « جان » كان بمثابة إعلان لصدائقه له ، وذلك كقيل بتعريضه الى كراهية البيض الآخرين . لقد فصلت ذرة صغيرة من الصخرة البيضاء نفسها من جبل كراهية البيض وتدرجت الى سفح المنحدر ثم وقفت ساكنة أمام قدميه . لقد تجسدت الكلمات أمامه . ولأول مرة فى حياته يرى رجلا أبيض يتصرف معه كأنسان ، ولقد جاءته انسانية « جان » هذه بتأنيب الضمير . لقد آذى هذا الرجل وآله حين قتل « الانسان » التى يحبها . . وها هو ذا يرى « جان » فى صورة جديدة وكأنما أجرى له شخص ما عملية جراحية فى عينيه . . أو كأنما نزع شخص ما قناعا مشوها من على وجه « جان » .

ونفض « بيجر » بغتة وفى عصبية . ووضع القس يده على كتفه وقال فى لهجة حازمة :

- لست أريد أن أقحم نفسى أو أتطفل فيما لا يعينى يا سيدى . ولكن لا فائدة ترجى من وراء اقحام الشيوعية فى هذا الأمر . اننى أحترم مشاعرك بقوة يا سيدى ، ولكن ما تطلبه سوف لا يؤدى الا الى اثاره المزيد من البغض والكراهية ان ما يحتاجه هذا الفتى التعس هو الفهم . .

فقال جان :

- ولكن ينبغي أن يناضل من أجل ذلك .
- أنا معك يا سيدي في ذلك عندما تبغى تغيير قلوب الرجال ، ولكننى لا أستطيع أن أكون معك فيما يثير مزيدا من الكراهية .
- وكان « بيجر » يجلس حائرا وهو يحيل بصره بين الاثنين .
- وعاد « جان » يقول :

- كيف بالله عليك تستطيع أن تغير قلوب الناس على حين تقوم الصحف كل يوم ببث البغض والكراهية فى نفوسهم ... ؟

- ان الرب قادر على ذلك ..

ونظر « جان » الى « بيجر » وقال :

- ألا تريد أن تدع صديقى يساعدك يا « بيجر » ؟

وأخذت عينا « بيجر » تدوران فى الغرفة كأنما يبحث عن وسائل للهرب ... ما الذى يستطيع أن يقوله ؟ ... انه مذنب . وأخيرا قال :

- انس كل شئ .. ولا تهتم بأمرى .

- ولكننى لا أستطيع ذلك .

- لقد انتهى الأمر بالنسبة لى ..

- ألا تؤمن بنفسك ؟

فأجابه « بيجر » فى صوت كالهمس :

- نعم ..

- ولكن إيمانك كان كافيا من قبل لأن تقتل . ولابد أنك كنت ترى أنك بذلك تؤكد شيئا ما .. والا ما كنت أقدمت على القتل .

وحملق « بيجر » ولم يجب . هل يؤمن به هذا الرجل الى هذا الحد ؟

وعاد « جان » يقول :

- أريد منك أن تتحدث الى « ماكس » .

واتجه « جان » الى الباب الذى فتحه أحد رجال الشرطة من الخارج ،
وكان « بيجر » فاعرا فاء يحاول أن يدرك الى أين سيقوده ذلك كله .
وشاهد رأس رجل يدلف من الباب . . رأسا غريبا أبيض يجلبه شعر
فضى فوق وجهه أبيض نحيل لم يسبق له أن رأى مثله من قبل . . وسمع
« جان » يقول :

– تفضل بالدخول .

– شكرا . .

وكان الصوت هادئا وحازما ولكنه كان رقيقا . وكانت ترتسم على
شفتيه ابتسامة واهنة تبدو كأنها جزء لا يتجزأ من طبيعة وجهه . وخطا
الرجل الى الداخل ، وكان فارغ الطول ، وابتدر « بيجر » قائلا :

– كيف حالك يا « بيجر » ؟

ولم يجبه « بيجر » ، فقد عاوده الشك مرة ثانية . أهو فح ينصبونه
له بطريقة خاصة ؟ وقال جان :

– هذا هو القس هاموند يا ماكس .

وصافح « ماكس » القس ثم نظر الى « بيجر » قائلا :

– أريد أن أتحدث معك . . أنا عضو فى جماعة المدافعين عن العمال
وأريد أن أقدم لك المساعدة .

فقال « بيجر » :

– أنا لا أستطيع الحصول على أى نقود يا سيدى .

– أعرف هذا . . استمع الى يا « بيجر » . . لا تتوجس خيفة منى
أو من « جان » ، نحن لسنا ضدك . . اننى أريد أن أنوب عنك فى المحكمة
. . هل تحدثت الى محام آخر ؟

وعاد « بيجر » يجيل بصره بين ماكس وجان ، كانا يبدوان صادقين .
ولكن كيف بالله يستطيعان مساعدته ؟ انه يحتاج حقا الى المساعدة ،
ولكنه لم يجرؤ على التفكير فى أن هناك انسانا يمكن أن يفعل الآن شيئا
من أجله .

وقال « بيجر » هامسا :

– لا يا سيدى . .

- كيف كانت معاملتهم لك ؟ هل ضربوك ؟
ولما كان « بيجر » يدرك أنه يجب عليه أن يوضح لماذا رفض الكلام
والطعام طيلة ثلاثة أيام فقد أجابه قائلا :

- لقد كنت مريضا يا سيدي ولا أعرف شيئا ..
- هل أنت راغب حقا في أن تدعنا نعالج قضيتك ..
- لست أستطيع الحصول على أى نقود .

- دعك من هذا واستمع الى ، انهم سوف يأخذونك الى التحقيق
بعد الظهر ، وعليك ألا تجيب عن أى سؤال . أفهمت ؟ اجلس فحسب
ولا تقل شيئا ، وسوف أكون هناك ومن ثم لا يجب أن يتملكك الخوف .
وبعد التحقيق سوف يأخذونك الى سجن « كوك كاوتتى » وسوف ألحق
بك هناك لأنحدث معك .

- حسن يا سيدي ..

www.liilas.com/vb3/
- خذ هذه السجائر .
- شكرا لك يا سيدي .

وهنا فتح باب الغرفة بغتة وتقدم للداخل فى عجلة رجل طويل
ضخم الوجه ذو عينين رماديتين . ووقف ماكس وجان والقس فى جانب
واحد . وأخذ « بيجر » يحملق فى وجه الرجل القادم ، وشعر بالمضايقة .
ثم تذكر ذلك الوجه .. نعم .. انه هو عينه .. « بكلى » .. الرجل
الذى شاهد العمال يلصقون صورته على لوحات اعلانات منذ أيام قليلة .
وأنصت « بيجر » الى حديث الرجال الموجودين وشعر من نغمة أصوات
« بكلى » و « ماكس » بعداوة عميقة يكنها كل منهما للآخر :

- أنت تعود الى دس أنفك مرة أخرى يا ماكس .. هه ؟

فقال « ماكس » :

- ان هذا الفتى موكل ولن يوقع على أية اعترافات .

وصاح « بكلى » متسائلا :

- وما حاجتى الى اعترافه بحق الجحيم . ان لدينا ضده من الأدلة

ما يكفى أن نضعه فوق اثني عشر كرسيًا « كهربائيا » !

فقال ماكس :

- سوف أعمل على أن تكون حقوقه مكفولة .

- يا للجحيم .. يا رجل ، أنت لا تستطيع أن تفعل شيئا من أجله .

ونظر « ماكس » الى « بيجر » وقال :

- لا تدع هؤلاء الناس يخيفونك .

وسمع « بيجر » هذه الكلمات ولكنه لم يجب ، وعاد « بكلي » يتكلم وهو يمسح يديه فوق عينيه :

- بحق الحميم .. ماذا يمكن أن تجنوه أيها الحمر من اهتمامكم بشيء أسود كهذا .. الله وحده يعلم .. !

فقال « جان » متسائلا :

- أنت تخشى ألا تستطيع قتل هذا الفتى قبل انتخابات إبريل اذا نحن تولينا معالجة هذه القضية .. أليس هذا صحيحا يا بكلي ؟

واستدار « بكلي » قائلا :

- بحق الآله .. لماذا لا تختارون شخصا مناسبا لتدافعوا عنه ؟ ..
شخصا يقدر صنيعكم ويجله .. لماذا تتعاملون أيها الحمر مع نفاية كهذه ؟

فرد عليه « ماكس » قائلا :

- أنت ومناوراتك هما اللذان دفعانا للدفاع عن هذا الفتى .

فقال « بكلي » :

- ما الذى تعنيه ؟

فقال « ماكس » :

- لو لم تزج باسم الحزب الشيوعى فى هذه الجريمة لما كنت أنا هنا .

- يا لجهنم .. ولكن هذا الفتى وقع خطاب الاختطاف باسم الحزب الشيوعى .

- أعرف هذا .. لقد واثته الفكرة من صفحات الجرائد . أنا أدافع عن هذا الفتى لأنى مقتنع بأن رجلا مثلك هم الذين أوصلوه الى ما هو عليه الآن . ولم تكن محاولته القاء التبعة على الشيوخين سوى رد الفعل الطبيعى لديه . فقد سمع رجلا مثلك يشوهون الحقائق لدرجة أنه صدقهم . واذا استطعت أن أجعل شعب هذا البلد يفهم السبب الذى من أجله تصرف هذا الفتى على هذا النحو فاننى سأكون بذلك قد فعلت ما هو أكثر من مجرد الدفاع عنه .

وقهقه « بكلى » ضاحكا ، وقضم بأسنانه طرف سيجارة جديدة وأشعلها ووقف ينفث دخانها ثم تقدم الى وسط الغرفة ورأسه يميل الى جانب .. ثم أخرج السيجارة من بين شفثيه وحول عينيه بخبث الى « بيجر » :

- هل تصورت من قبل أن تكون رجلا مهما مثلما أنت الآن فعلا ؟

وكان « بيجر » على وشك قبول صداقة « جان » و « ماكس » . والآن ، يقف الرجل فى طريقه . ثم ، ما معنى صداقة واهية بمثل جان وماكس بالنسبة لما يراه مليون رجل مثل « بكلى » ؟ وقال « بكلى » :

- أنا المدعى العام لهذه الولاية ..

وبدأ يسير فى أرجاء الغرفة وقد أمال قبعته الى مؤخرة رأسه وبرز من الجيب الأمامى « لسترتة » منديل أبيض ، ثم توقف عند الفراش شامخا فوق « بيجر » . ولحظتها تساءل « بيجر » بينه وبين نفسه : « هل سيقتلوننى قريبا ؟ » ان نفحة الأمل الدافئ التى جعلها « جان » و « ماكس » تهب عليه برفق تحولت الى صقيع تحت وطأة نظرات « بكلى » الباردة المتفرسة ..

- اسمع يا ولد .. أحب أن أقدم لك نصيحة طيبة ، ولسوف أكون معك أمينا صادقا وأقول لك انك لست مجبرا على التحدث معى الا اذا أردت أنت ذلك ، وان ما ستقوله لى سوف يستخدم ضدك فى المحكمة .. أفهمت ؟ ولكنك يا فتى مقبوض عليك ، وهذا هو أول شئ ينبغى أن تفهمه . نحن نعلم أنك قد ارتكبت الجريمة ولدينا الأدلة الكافية لاثبات ذلك ، ولهذا فالأفضل لك أن تتكلم ..

فرد « ماكس » قائلا :

— انه سوف يقرر ذلك معى أنا .

وواجه « بكلى » و « ماكس » كل منهما الآخر :

— اسمع يا ماكس ، أنت تضيع وقتك سدى . لن تستطيع انقاذ هذا الولد ولو ظلمت تدافع عنه مليون سنة . وليس هناك من يستطيع أن يرتكب جريمة ضد أسرة مثل أسرة « دالتون » ثم يفر من تبعتها ، ولسوف يكون هذان الولدان التعسان فى قاعة المحكمة ليشهدا سحق هذا الولد . . . لقد قتل ابنتهما الوحيدة ، واذا كنت تريد أن تنقذ ماء وجهك يمكنك أن تنصرف الآن أنت وصديقك ، وسوف لا تعلم الصحف بأنكما كنتما هنا . . .

فقال « ماكس » :

— أنا وحدى الذى أقرر أننى سأدافع عنه أو لا . . .

واتجه « بكلى » نحو الباب وهو يقول :

— اسمع يا ماكس . . . ربما تظن أننى أحاول أن أخدعك . . . أليس كذلك ؟

دعنى اذن أريك شيئاً . . .

وفتح أحد رجال الشرطة الباب . . . وقال « بكلى » :

— دعه يدخل . . .

— حسن . . .

وكانت الغرفة ساكنة ، وكان « بيجر » يجلس على الفراش وهو يحملق فى أرض الغرفة انه يكره هذا كله ، واذا كان هناك ما يمكن أن يفعل لمصلحته فانه يفضل أن يفعله هو نفسه لا أن يفعله الآخرون . وكان وهو يشاهد الآخرين يجهدون أنفسهم يحس بالتفاهة والضياع . ورأى « بيجر » رجل الشرطة يفتح الباب على مصراعيه . . . ثم رأى المستر « دالتون » وزوجته يدلغان من باب الغرفة ويتقدمان ببطء ثم يقفان . وكان المستر « دالتون » ينظر اليه بوجهه الأبيض الشاحب . وتلملم « بيجر » بعنف ثم جلس ثانية وعيناه مرفوعتان دون أن تريا شيئاً . ثم ما لبث أن انطرح على فراشه . . .

وعبر « بكلى » الغرفة بسرعة وصافح المستر « دالتون » ثم عاد الى زوجته وابتدرما قائلاً :

- اننى فى أشد حالات الحزن يا سيدتى •
وشاهد « بيجر » المستر « دالتون » ينظر نحوه ثم يحول بصره الى
« بكلى » ويقول :

- هل اعترف باسم الذى كان مشتركاً معه فى الجريمة ؟
فقال « بكلى » :

- انه أفاق منذ لحظات •• ولديه محاميه الآن •
وقال « ماكس » :

- لقد عهد الى بالدفاع عنه •
ونظر المستر « دالتون » الى « جان » نظرة خاطفة ثم قال لبيجر :
- بيجر •• سوف تكون بالغ الحقم اذا أنت لم ترشد عن شريكك
فى هذه الجريمة •
وبدا الضيق على « بيجر » ولم يحرج جواباً • واتجه « ماكس » نحوه
وقال :

- سوف أتحدث أنا معه يا مستر دالتون •
فقال المستر « دالتون » :

- أنا لم أجيء الى هنا لأشأغب هذا الفتى ، ولكن الأمر سوف يكون
سهلاً بالنسبة له اذا هو أدلى بكل مايعرفه •

وساد الغرفة جو من السكون ، وتقدم القس ببطء وقد أمسك
بقبعته فى يده ، ثم وقف أمام المستر « دالتون » ووجه حديثه اليه قائلاً :
- أنا واعظ الانجيل يا سيدى ، واننى لفى أشد حالات الأسف لما
حدث لابنتك • أنا أعرف يا سيدى عملك الطيب ، وما كان ينبغى قط
أن يحدث هذا لك •

وتنهى المستر « دالتون » وقال بضجر :

- شكراً لك •

ونظر « بكلى » الى « ماكس » وقال :

- ان أفضل مايمكن أن تفعله هو أن تساعدنا •• لقد ارتكب خطأ

فطيع في حق شخصين طالما قدما مساعدات للزواج أكثر من أى شخص آخر أعرفه .

فقال « ماكس » موجهًا كلامه الى المستر « دالتون » :

– ان مشاعري وعواطفى معك يا مستر دالتون ، ولكن قتل هذا الفتى لن يقدم لك أو لنا أية فائدة .

فرد مستر « دالتون » قائلا :

– لقد حاولت أن أساعده .

وتبعته مسر « دالتون » قائلة بصوت واهن :

– لقد كنا ننوى ارساله الى مدرسة .

فقال « ماكس » :

– أنا أعرف هذا ، ولكن هذه الأشياء لا تحل المشكلة الأساسية القائمة هنا . لقد نشأ هذا الفتى في قوم عانوا كثيرا من الظلم . ومن ثم ينبغي لنا أن نضع هذا في اعتبارنا حتى لو كان قد ارتكب خطأ .

فقال المستر « دالتون » :

– أريد أن تعرف أن قلبى ليس حاقدا ، وما فعله هذا الفتى لن يؤثر أبدا على علاقتى بالزواج .. فليس هناك ما يدعو الى ذلك .
لقد أرسلت اليوم اثنتى عشرة منضدة « بنج بونج » الى نادى الشباب فى الحى الجنوبى

وتقدم « ماكس » فجأة وهو يصيح :

– يا الهى .. وهل « البنج بونج » يا رجل يوقف الناس عن القتل ؟ ألا يمكنك أن تدرك وترى ؟ أو تظل سائرا بنفس أسلوبك حتى بعد أن فقدت ابنتك ؟ ألا تستطيع أن تسلم بحق الرجال الآخرين فى الاحساس بالحياة مثلك ؟ .. وهل يمكن أن يعوقك « البنج بونج » عن تكوين ملايينك ؟ .. ان هذا الشاب وملايين مثله يريدون حياة كريمة لها معنى .. وليس « البنج بونج » ..

فسأله المستر « دالتون » فى برود :

– وما الذى تريد منى أن أفعله ؟ .. هل تريد منى أن أموت لأكفر

عن مأساة لم أتسبب فيها ؟ • أنا لست مسئولاً عن أحوال هذا العالم ،
وانما أفعل كل ما يمكن أن يفعله رجل واحد • أم لعلك تريد مني أن
أحمل نقودي وألقى بها الى الملايين الذين لا يملكون شيئاً ؟

فقال « ماكس » :

— لا •• لا •• لا ، ليس هذا ما أعنيه ، لو أنك فحسب أحسست
بأن هناك ملايين غيرك قد خبروا الحياة وعركوها بعمق مثلك ولكن بطريقة
مختلفة ، لاكتشفت أن ما تفعله الآن لا جدوى من ورائه •• ان شيئاً
ذا أساس وأكثر واقعية ••

فصاح « بكلي » مقاطعاً وقد مط شفتيه :

— الشيوعية •• « هه » • أيها السادة ، لا تدعونا نبدو كالأطفال •
ان هذا الولد سيقدم الى المحاكمة ، وواجبى هو أن أنفذ قوانين هذه
الولاية ••

ثم توقف عن الكلام وقد فتح الباب ، وأطل الى الداخل شرطى •

— ماذا حدث ؟

— ان أسرة الولد هنا ••

فقال « بيجر » فى استعطاف :

— ليس بهذه الطريقة •• وليس هنا •• وليس الآن ••

لم يكن يريد أن تحضر أمه وكل هؤلاء موجودون معه • ونظر
حوله وقد ارتسم على وجهه احتجاج هائج • ونظر « بكلي » الذى كان
يراقبه الى رجل الشرطة وقال :

— ان لهم الحق فى أن يروه •• دعهم يدخلوا •

وجلس « بيجر » وهو يشعر بساقيه ترتجفان • وكان التوتر قد
استبد بذهنه وبدنه حتى أنه قفز عندما فتح الباب ووقف فى منتصف
الغرفة • ورأى « بيجر » وجه أمه •• كان يريد أن يهرع اليها ويدفعها
الى الخارج • وكانت الأم تقف ساكنة واحدى يديها تمسك بمقبض الباب
والأخرى تقبض على حقيبة نقود صغيرة ممزقة مالبثت أن تركتها تسقط
واندفعت اليه وألقت بذراعيها حوله وصاحت باكية :

— يا طفلى ••

وكان جسد « بيجر » متصلبا من الرهبة والحيرة ، وأحس بذراعى أمه تحيطان به بقوة ، ونظر من فوق كتفها فرأى « فيرا » و « بدى » يتقدمان ببطء ويقفان وهما ينظران حولهما فى هلع ، ورأى خلفهما « جس » و « ج.ه » و « جاك » وقد فغروا أفواههم من الرعب . وكانت شفقتا « فيرا » ترتعشان وشفقتا « بدى » مزومتين بعصبية . أما « بكلى » و « القس » و « جاك » و « ماكس » والمستر والمسز « دالتون » فقد كانوا يقفون خلفه الى الحائط ينظرون فى هدوء . وود « بيجر » لحظتها لو أنه استطاع أن يغيبهم عن نظره . لقد نسي كلمات « جان » و « ماكس » الرقيقة ولم يعد يشعر الا بأن البيض « الموجودين » جميعا بالحجرة يقيسون كل بوصة من ضعفه . وأحس بخزيه العارى هو وأسرته أمام أعين هؤلاء الناس البيض . وبينما كان ينظر الى شقيقه وشقيقته ويحس بذراعى أمه الملتفتين حوله ، كان يعرف أن « جاك » و « ج.ه » و « جس » يقفون فى مدخل الباب يحملقون فيه فى جمود غريب . ثم ما لبث أن أحس بموجة عارمة من الاقتناع الغريب القوى تجتاحه : كان ينبغى أن يكونوا جميعا مسرورين . لقد كان شعوره هذا غريبا ولكنه كان نابعا من أعماق أعماقه . ألم يأخذ على كاهله وحده عبء جريمة كونه أسود اللون ؟ ألم يقدم على ما كان الآخرون جميعا يخشونه ؟ لا ينبغى إذن أن يقفوا أمامه هكذا يتحسرون من أجله ويبكون عليه ، ولكن عليهم أن يروه فحسب ثم يعودوا الى منازلهم فخورين شاعرين بأن العار الذى كان لاحقا بهم قد غسل .

وصاحت أمه مولولة :

— أواه يا ولدى بيجر . لقد كنا فى أشد حالات القلق ، ولم نستطع أن ننام ليلة واحدة . فقد كانت الشرطة معنا طوال الوقت . وكانوا يقفون خارج بابنا ويقومون بمراقبتنا وتتبعنا فى كل مكان . ولدى . . . ولدى . . .

وسمع « بيجر » بكاءها . ولكن ما الذى يستطيع أن يفعله ؟ . . ما كان ينبغى لها أن تحضر اليه هنا . . .

وتقدم اليه شقيقه « بدى » مترددا وييده قبعته وقال له :

— « بيجر » . . اذا كنت لم ترتكب هذه الجريمة فأخبرنى فحسب وسوف أوقفهم عند حدهم . سأحمل بندقية وأردى أربعة أو خمسة منهم قتلى . . .

وصمت كل من بالغرفة مبهوتين لدى سماعهم تلك الكلمات • وأدار « بيجر » وجهه سريعا ورأى الوجوه البيضاء قد صدمت وأصابتها الدهشة وعراها الفزع • وقالت الأم باكية :

— لا تتكلم بهذه الطريقة يا « بدى » • أم لعلك تريد أن أموت
توا فى هذه اللحظة ؟ أنا لا أستطيع أن أتحمل المزيد وينبغى ألا تتكلم
بهذه الطريقة • ان لدينا الآن ما يكفيننا من المتاعب ••

ووجه « بدى » حديثه الى « بيجر » قائلا فى جراءة :

— لا تدعهم يعاملونك معاملة سيئة يا بيجر ••

وود « بيجر » لو استطاع أن يريحهم من وجود أولئك البيض ،
ولكن كيف السبيل الى ذلك • وبدأ يبحث فى يأس وقنوط عن شىء
يقوله •• وغلى فيه الشعور بالحجل والكراهية للناس « الموجودين » خلفه ،
وحاول أن يفكر فى الكلمات التى يمكنه بها أن يتحداهم وينابذهم بها ••
كلمات تدعهم يعرفون أن له عالمه وحياته بالرغم منهم ، وفى الوقت نفسه
توقف دموع أمه وشقيقته وتهدى غضب أخيه وتلطفه • كان يتحرق الى
ايقاف تلك الدموع وذلك الغضب لأنه كان يدرك أن ذلك كله لا طائل
من ورائه وأن أولئك الواقفين خلفه على طول الحائط يملكون مصيره ومصير
أسرته فى أيديهم •

وقال « بيجر » لأمه وقد اعترته قوة عصبية مستبدة غريبة :

— أمى •• لا تقلقوا على •• فسوف أخرج من هذا الموضوع

سريعا ••

وحملت فيه أمه مرتابة فيما يقول • وأدار « بيجر » رأسه ثانية
ونظر فى تحد الى الوجوه البيضاء المتراسة على طول الحائط •• كانوا
جميعا يحملقون فيه بدهشة وكانت شفتا « بكلى » ترتعشان فى ابتسامة
صفراء • أما « جان » و « ماكس » فكان يبدو عليهما الفزع • وكانت
مسز « دالتون » تستمع اليه وقد فغرت فاهها وتحول وجهها الى لون الحائط
الأبيض القاتم خلفها • ان أحدا داخل الغرفة — باستثناء شقيقه « بدى »
— لا يصدقه •

وأعادت أمه رأسها الى وراء وانخرطت فى البكاء على حين ركعت
« فيرا » على الأرض وغطت وجهها بيديها •

وجاء صوت أمه منخفضا هادئا .. قالت له وهي تأخذ وجهه بين راحتى يديها :

- « بيجر » .. قل لى يا ولدى .. هل ثمة مايمكن أن نفعله من أجلك ؟

وكان « بيجر » يدرك أن سؤال أمه كان نتيجة قوله لها انه سيتخلص سريعا من المأزق الذى هو فيه . وكان يدرك أيضا أنهم لا يملكون شيئا ، لقد كانوا فقراء يعتمدون فيما يمسك رمقهم على الصدقة والاحسان . انه ليحس الآن بالحجل من فعلته هذه .. ويجب أن يصرح لهم بالحقيقة . لقد كانت مجرد ثورة نفية جامحة وحمقاء ، تلك التى دفعته الى أن يحاول الظهور أمامهم بمظهر البرىء القوى . وسوف يذكره البيض بهذه الكلمات الحمقاء ثم يقتلونه . وكانت عينا أمه الحزینتان المتشككتان تنظران اليه .. وتترقبان اجابته فى رفق وصبر . نعم ، يجب أن يمحو أثر هذه الكذبة ، ليس فحسب لأنهم يجب أن يعرفوا الحقيقة ولكن ليريح نفسه أيضا من نظرات هذه الوجوه البيضاء المصطفة بطول الحائط الأبيض . انه يدرك أنه قد انتهى .. ولكنه لم يتذلل أو يتملق .. ولن يكذب فى حضور هؤلاء البيض الذين خلفه بالحجرة .

وتمتم « بيجر » قائلا :

- ليس هناك شيء يا أماه .. ولكننى بخير .

وساد السكون ، وأرخى « بدى » بصره ، وانخرطت « فيرا » فى البكاء بصوت أعلى وهى تبدو ضئيلة لا حيلة لها .. ما كان ينبغي لها أن تحضر اليه . ان حزنها ليزيده شعورا بالذنب . ليته يستطيع أن يحملها الى أن تعود الى البيت . لقد كان يتصرف نحوهم فى غلظة وخشونة لمجرد ألا يحس بما يحسه الآن من كراهية وخزى ، وها هو ذا يقف عاجزا عن أن يفعل شيئا .

وجالت عينا « بيجر » فى أرجاء الغرفة ورأى « جس » و « ج . ه » و « جاك » . وعندما رآوه ينظر اليهم تقدموا نحوه . وقال « جاك » وعيناه تنظران الى أرض الغرفة :

- اننى آسف لما حدث يا « بيجر » .

وقال « ج . ه » محاولا التسرية عنه :

- لقد قبضوا علينا نحن أيضا ، ولكن المستر « ايرلون » والمستر

« ماكس » أخرجانا • لقد حاولوا أن يجعلونا ندلى بأمور لم تحدث منا
•• ولكننا لم نقل شيئا •

وقال « جس » متسائلا :

– هل هناك ما يمكن أن نعمله يا « بيجر » ؟

– أنا بخير تماما •• ولكن أرجو عندما تنصرفون أن تصحبوا أمي
الى المنزل •• أيمكنكم أن تفعلوا هذا ؟

فأجابوه جميعا :

– بالتأكيد •• بالتأكيد •

وعاد السكون يخيم على الغرفة ، وبدأت أعصاب « بيجر » المشدودة
تؤله لتزيد من حدة الموقف عليه • وسأل « بيجر » شقيقته نيرا :

– هل تعجبك دروس الحياكة فى جمعية الشبان المسيحيين

يا نيرا ؟

وشدت « نيرا » يديها فوق وجهها وأجهشت أمه بانبياء وحاولت أن
تتكلم من خلال دموعها المنسابة :

– بيجر •• يا حبيبي ، انها لا تريد الاستمرار فى الذهاب الى
المدرسة ، فهم يقول ان الفتيات ينظرن اليها نظرات تجعلها تشعر
بالخزى ••

انه عاش دائما •• وكان يتصرف دائما على أساس أنه وحيد
بمفرده ، ولكنه يكتشف الآن أنه لم يكن كذلك ، فها هم أولاء يعانون
وزر ما أقدم على فعله •• وليس هناك قط مايمكن أن يجعلهم ينسونه ،
ولن يستطيعوا ذلك ان أرادوا • ان أسرته قطعة منه •• ليس فحسب
فى الدم ، ولكنها قطعة من روحه ••

وجلس « بيجر » على فراشه وركعت أمه عند قدميه ووجهها يتطلع
الى وجهه وعيناها خاويتان •• فالعيون تنظر دائما الى أعلى عندما يضع
آخر أمل فى الأرض •

– اننى أصلى من أجلك يا ولدى •• وهذا كل ما يمكننى أن أفعله ،
يعلم الله أننى بذلت كل ما فى وسعى من أجلك أنت ومن أجل أختك
وأخيك • لقد كنت أنظف وأغسل وأكوى من الصباح الى المساء يوما
بالمنزى ويوما خارج المنزل وبقدر ما كانت تسمح به قوة جسدى العجوز •

لقد كنت أؤدى كل ما أعرفه يا ولدى ، وإذا كنت قد تركت شيئا ولم أؤديه فقد كان ذلك يرجع فحسب الى عدم المامى به أو قدرتى عليه ولأن أمك العجوز المسكينة لم تكن تبصر جيّدا يا ولدى . وعندما سمعت بما حدث ركعت على ركبتى ورفعت بصرى الى الله ، وسألته أن يحملنى أنا وحدى عبء ما حدث لك اذا كنت أنا التى تسببت فيه . يا ولدى الحبيب ، ان أمك التمسعة الشقية لا تستطيع الآن أن تفعل شيئا ، اننى عجوز . . وهذا كثير جدا بالنسبة لى . . لقد أشرفت على النهاية . اسمع يا ولدى . . ان أمك العجوز التمسعة تريد منك أن تعدها بشيء واحد . . يا ولدى الحبيب ، عندما تخلو بنفسك ولا يكون أحد معك . . اركع على ركبتيك واعترف لله بكل شيء واطلب منه أن يحفظك ويرعاك . هذا هو كل ما يمكنك أن تفعله . . ولدى ، عدنى بأنك سوف تلجأ الى الله . .

وقال القس بصوت منغم :

— آمين . .

وقال « بيجر » :

— لا تشغلى نفسك بالتفكير فى يا أماه . .

— يا ولدى . . أنا قلقة عليك قلقا لا أستطيع الخلاص منه . يجب أن تنقذ روحك . أنا لن أشعر بالراحة طوال حياتى كلما فكرت فى أنك غادرتنا دون أن تسأل الله العون . « بيجر » يا ولدى ، نحن نعيش فترة عصيبة فى هذه الدنيا ، ولكننا كنا جميعا معا . . ألم نكن كذلك يا ولدى . .

وهمس « بيجر » قائلا :

— بلى يا أماه . .

— يا ولدى . . هناك مكان فسيح يمكننا أن نتجمع فيه عما قريب مرة أخرى . لقد هيا الله هذا المكان من أجل أن نلتقى . لقد حدد لنا مكان اللقاء ، مكانا يمكننا أن نحيا فيه بلا خوف ، ولن يزعجنا هناك شيء مما يحدث لنا هنا وفى مقدورنا أن نعيش معا فى جنة الله . « بيجر » . . ان أمك العجوز تستعطفك وترجوك أن تعدها بأنك سوف تصلى .

وقال القس :

— انها تقول الحق يا ولدى .

وقال « بيجر » :

- لا تشغلي نفسك بالتفكير في يا أماء .

- ألا تريد أن ترى أمك العجوز ثانية يا ولدى ؟

ووقف « بيجر » في بطاء ورفع يديه وحاول أن يلمس وجه أمه ويجيبها على ما طلبته منه ، وعندما أوشك أن يفعل صرخ شيء ما في أعماقه بأن هذه كذبة . أن يراها بعد أن قتلوه . شيء لا يمكن أن يحدث . ولكن هذه الأم تؤمن بذلك . وهو أملها الأخير . الأمل الذي ربما أعانها على متابعة العيش خلال السنين الطوال . وهي مؤمنة بذلك خلال محنتها التي جرها هو إليها . وأخيرا لمست يدها وجهها . وبالرغم من اقتناعه بأن ذلك لا يمكن أن يحدث واحساسه بأن قلبه غير مقتنع . وبالرغم من ادراكه بأنه عندما يموت فسينتهى كل شيء الى الأبد ، فقد قال لها وهو يتنهد بعمق :

- سوف أصلي يا أماء .

وهرعت اليه « فيرا » واحتضنته بين ذراعيها . وبدأ على « بدى » الشكر والامتنان ولم يسمع أمه الا أن تجهش بالبكاء من فرط الفرح . وابتسم « جاك » و « ج . ه » و « جس » ثم وقفت أمه وأحاطته بذراعيها وقالت وهي تنتحب :

- تعالى الى هنا يا « فيرا »

وتقدمت فيرا . .

- وأنت يا « بدى » . .

وأقبل « بدى »

- والآن . . أحيطا أحكما بأيديكما . .

ووقفوا جميعا يبكون وسط الغرفة وأيديهم حول « بيجر » الذي ظل جامد الوجه وقد أحس بالكراهية نحوهم ونحو نفسه وهو يشعر بهؤلاء البيض الذين يقفون على طول الحائط يرقبونه . وتمتمت أمه بصلاة . . على حين كان القس يردد بعض التراتيل :

- يا الهى . . ها نحن أولاء هنا . . وربما لآخر مرة . لقد منحتنى هؤلاء الأطفال يا الهى ، وأمرتنى بأن أنشئهم ، فإذا كنت قد فشلت يا الهى فأننى بذلت قصارى جهدى . . (آمين) . ان هؤلاء الأطفال التعسفين كانوا معى مدة طويلة وهم كل مالى فى الحياة . . يا الهى ، أتوسل

إليك ، دعنى أرهم حيث أستطيع أن أمنحهم حى فى سلام وأمان • دعنى
أرهم مرة ثانية بعد غيبة القبر • (كن رحيما يا يسوع) • لقد قلت
أنك ستسمع صلواتنا يا الهى •

وقال القس :

- آمين •• باركك الله يا أختاه •

ورفعوا أذرعهم من حول « بيجر » ببطء وهدوء وأداروا وجوههم
بعيدا كأنما جعلهم ضعفهم يشعرون بالحجل فى حضرة من هم أقوى
منهم •

وقالت أمه :

- اننا نتركك الآن يا « بيجر » فى رعاية الله ، وكن واثقا يا ولدى -
وصل لله • وقبلوه جميعا • وتقدم « بكلى » للأمام قائلا :

- مسز « توماس » •• ينبغى لكم أن تنصرفوا الآن •

ثم نظر الى المستر والمسز دالتون قائلا :

- اننى آسف يا مسز ومستر دالتون ، فلم أكن أقصد أن أبقيكما
هنا طويلا ، ولكنكما تريان كيف سارت الأمور •

ورأى « بيجر » أمه تتماسك فجأة وتحملق فى السيدة البيضاء
العمياء •

- هل أنت السيدة دالتون ؟

وتحركت المسز «دالتون» بعصبية ورفعت يديها البيضاءوين الناحلتين
ورفعت رأسها وفتحت فمها وهمست تقول :

- نعم ••

ووضع زوجها احدى ذراعيه حولها على حين قال « بكلى » فى لهفة •

- مسز « دالتون » •• تعالى •• من هذا الطريق •

- لا •• شكرا لك •• ماذا تريدين يا مسز « توماس » ؟

وهرعت الأم وركعت عند قدمى المسز « دالتون » •• وقالت مولولة:

- أتوسل إليك أيتها الأم الا تدعيهم يقتلون ولدى • أنت تعرفين

مشاعر الأم • بالله عليك •• نحن نقيم فى منزلك •• طلبوا منا الرجل عنه ، نحن لا نمتلك شيئاً ••

وشل « بيجر » من الحجل وانتابه احساس بأنه انتهبك وصاح صيحة تنم عن الحجل أكثر مما تنم عن الغضب :

— أماء ••

وتقدم « جان » و « ماكس » نحو المرأة السوداء وحاولا أن ينهضاها •• وقال « ماكس » :

— كفى يا مسز توماس •• تعالى معى ••

وقالت المسز « دالتون » :

— انتظر ••

وقالت الأم وهى تنتحب :

— أتوسل اليك أيتها الأم • لاتدعيهم يقتلون ولدى • انه لم يأخذ قط فرصة فى هذه الحياة • انه مجرد ولد شقى تعس •• لاتدعيهم يقتلونه ولسوف أعمل فى خدمتك حتى آخر عمرى •• لسوف أنفذ كل ما تطلبينه منى •

وانحنى المسز « دالتون » ببطء ويدها ترتعشان فى الهواء ولمست رأس الأم وقالت فى هدوء :

— ليس هناك ما يمكننى أن أفعله الآن •• ان الموضوع أصبح خارج يدى ، وقد فعلت كل ما أستطيع عندما أردت أن أمنح ابنتك فرصة الحياة • ان أحدا لا يستطيع أن يلومك على ما حدث ، ويجب أن تتذرعى بالشجاعة وربما كان ذلك من الخير •••

وقالت الأم وهى تبكى :

— انك اذا تكلمت معهم فسوف ينصتون اليك يا سيدتى • اطلبى منهم أن يكونوا رحيمين بولدى •

— مسز توماس •• لقد فات الأوان بالنسبة لما يمكن أن أفعله • ويجب ألا تفكرى بهذه الطريقة • ان لديك أطفالا آخرين عليك أن تفكرى فيهم •

- أنا أعرف أنك تكرهيننا يا سيدتى :.. لقد فقدت ابنتك ..

- لا .. لا .. اننى لا أكرهكم .

وزحفت الأم من تحت قدمى المسز دالتون الى قدمى زوجها وقالت
باكية :

- أنت غنى وقوى .. فاحفظ لى ولدى .

وجاهد « ماكس » مع المرأة السوداء حتى استطاع أن يوقفها على
قدميها . وتحول خجل « بيجر » لحظتها الى كراهية ووقف وقد شد
قبضتى يديه وعيناه تقدحان شررا وهو يحس بأنه قد يشب عليها فى
أى لحظة .

وقال « ماكس » :

- لا عليك يا مسز توماس ..

وتقدم المستر دالتون نحوها وقال :

- مسز توماس .. ليس هناك ما يمكننا أن نفعله . لقد خرج
الموضوع من أيدينا . وما عدا ذلك فيمكننا أن نساعذك . ولكن ليس
عن هذا الطريق . ان الناس يجب أن يحموا أنفسهم .. وسوف أطلب
منهم ألا يجبروك على الرحيل .

وأخذت المرأة السوداء تنتحب ثم ما لبثت أن هدأت بالقدر الذى
يسمح لها بمواصلة الكلام :

- شكرا لك يا سيدى . الله يعلم أننى ممتنة لك .

والتفتت الأم مرة أخرى نحو « بيجر » ولكن « ماكس » قادها الى
خارج الغرفة على حين أمسك « جان » بقوة بذراع « فيرا » وقادها الى
الباب ثم توقف عند مدخل الغرفة ونظر الى « جاك » وزميله :

- أذهبون الى الحى الجنوبي يا فتيان ؟

- نعم ..

- حسن .. تعالوا اذن ، ان معى سيارة وسوف آخذكم معى .

- حسن .

وتباطأ « بدى » وهو ينظر الى « بيجر » فى شوق .. ثم قال :

— الى اللقاء يا بيجر .

وتمتم « بيجر » :

— الى اللقاء يا « بدى » .

واتجه القس نحو « بيجر » وضغط على ذراعه وقال :

— باركك الله يا ولدى .

وغادر الجميع المكان ما عدا « بكلي » . وجلس « بيجر » مرة أخرى على فراشه منهك القوى على حين وقف « بكلي » أمامه وقال :

— أرايت الآن يا « بيجر » مدى الكدر الذى تسببت فيه ؟ والآن ..
لقد كنت أحب أن أنتهى من هذه القضية بأقصى سرعة مستطاعة فبقدر
ما تطول مدة وجودك فى السجن ستزداد الثورة والهيّاج ضدك ولن يكون
هذا فى مصلحتك . ولا تصدق من يقول لك غير هذا .. وليس أمامك الآن
يا فتى الا أن تكون صادقا . أنا أعرف أن هؤلاء الحمر « ماكس »
و « ايرلون » قد قالوا لك جملة أشياء عما هم بسبيل أن يفعلوه من أجلك ،
ولكن لا تصدقهم . انهم يجرون وراء الدعاية .. وراء الدعاية فحسب
انهم لا يهتمون الا بأن يرتفعوا على حسابك ، أفهمت ؟ انهم لن يستطيعوا
أن يفعلوا شيئا من أجلك . أنت الآن تتعامل مع القانون ، فاذا تركت
هؤلاء الحمر يبتشون مجموعة من الأفكار الحمقاء داخل رأسك فمعنى هذا
أنك تقامر بحياتك .

وتوقف « بكلي » وأشعل سيجارة وأمال رأسه جانبا ثم تساءل
بنعومة :

— هل سمعت ما قلت ؟

ونظر اليه « بيجر » فى حيرة .. ثم أرهف السمع .. وتناهت اليه
ضجة بعيدة ، وهنا نهض « بكلي » وأمسك بذراع « بيجر » وهو يقول :

— تعال هنا يا فتى .. أريد أن أريك شيئا ..

وبدا على « بيجر » أنه محجم عن النهوض معه ..

— تقدم .. فلن يؤذيك أحد .

وتبعه « بيجر » خارج الباب ، وكان هناك كثيرون من رجال
الشرطة يقفون للحراسة فى الدهليز . وقاده « بكلي » الى نافذة نظر

« بيجر » من خلالها فشاهد الشوارع الخلفية مزدحمة بكتل بشرية فى جميع الاتجاهات .

- هل ترى هؤلاء يا فتى ؟ ان هؤلاء الناس سيفضلون الاقتصاد منك بدون محاكمة ، وهذا ما يدعونى الى أن أطلب منك أن تثق بى وتحدث معى بصراحة ، اذ كلما أسرعنا فى انهاء هذا الأمر كان ذلك أفضل بالنسبة لك . نحن نحاول أن نمنعهم من ايذاءك والتعرض لك ، ولكن ألا ترى أنه كلما طالّت مدة بقاءك هنا وبقائهم بالخارج ازدادت صعوبة السيطرة عليهم ؟

وترك « بكلى » ذراع « بيجر » ورفع سياج النافذة فتسللت لفحة هواء بارد الى الداخل وسمع « بيجر » هدير أصوات صاخبة فتراجع الى الخلف بحركة لا ارادية . هل سيقتممون عليه السجن ؟ وأغلق « بكلى » النافذة وعاد به الى الغرفة . وجلس « بيجر » على فراشه وجلس « بكلى » قبالة :

- أنت تبدو فتى ذكيا . وهأنذا ترى ما أنت فيه ، فانبثني اذن بحقيقة هذا الأمر ولا تدع هؤلاء الحمر يخدعونك بقولهم أنك غير مذنب . أنا أتكلم معك الآن بأمانة كما لو كنت أتحدث الى واحد من أبنائى . وقع اعترافا لتنهى هذا الأمر .

وجلس « بيجر » فوق الأرض . . ولم يقل شيئا .
- هل « جان » مشترك معك فى هذا الأمر ؟

وسمع « بيجر » أصوات الغوغاء الثائرة فى الخارج تتناهى اليه ضعيفة عبر حوائط المبنى « الحرسانية » .

- لقد استطاع أن يثبت أمام المحقق أنه كان بعيدا عن مكان الجريمة وقت حدوثها وهو الآن حر ، فأخبرنى اذن ، . . هل تركك وأنت تمسك بالحقيقة ؟

وسمع « بيجر » صليلا بعيدا فى الطريق . .

- اذا كان قد دفعك الى ارتكاب هذه الجريمة فوقع شكوى ضده .

ورأى « بيجر » المقدم اللامع لحذاء الرجل الأسود والثنيات الحادة فى سرواله المخطط والوميض الناصع النظيف للنظارة المستقرة فوق انفه الطويل المرتفع .

وقال « بكلى » بصوت مرتفع جعل « بيجر » يجفل :

— يا ولد .. أين « بيسى » ؟

واتسعت عينا « بيجر » ، فهو لم يفكر فى « بيسى » سوى مرة واحدة منذ أن قبضوا عليه . ان موتها غير ذى أهمية بجانب موت « ماري » وهو يعلم أنهم عندما يقتلونه فسيكون ذلك بسبب موت « ماري » وليس « بيسى » .

— حسن يا ولد .. لقد وجدناها . لقد ضربتها بقلب من الطوب ولكنها لم تمت .

وأخذت عضلات « بيجر » تهزه الى أخمص قدميه . « بيسى » حية ترزق ؟

ولكن صوت « بكلى » ظل مستمرا .. على حين عاد « بيجر » يجلس مرة أخرى ..

— لقد حاولت الخروج من حيث قذفت أنت بها ولكنها لم تستطع وأشرفت على الموت من البرد . وقد عثرنا نحن على قلب الطوب الذى ضربتها به وعثرنا أيضا على البطاطين والوسادات التى أخذتها من حجرتها ، كما عثرنا على خطاب فى كيس نقودها كانت قد كتبت لك — ولكنها لم ترسله بالبريد — تقول لك فيه انها لا تريد أن تستمر فى محاولة ابتزاز الفدية . وهأنذا يا فتى ترى أننا قد ضيقنا عليك الحناق .. والآن ، هيا وأخبرنى بكل شيء ..

ودفن « بيجر » وجهه بين يديه .. ولم يقل شيئا .

— حسن اذا كنت لا تريد أن تتحدث عن « بيسى » فحدثنى عن تلك المرأة التى خنقتها حتى الموت عند شارع الجامعة فى الحريف الماضى . هل يريد الرجل أن يفزعه ، أو أنه يظن حقيقة أنه ارتكب جرائم قتل أخرى ؟

— اسمع يا ولد .. يجب أن تقول كل شيء .. ان لدينا علما بكل ما ارتكبت . ثم ما هى أيضا حكاية الفتاة التى هاجمتها فى حديقة « جاكسون » فى الصيف الماضى ؟ أنصت الى يا ولد .. عندما كنت تنام فى « زنزانتك » ولا تتكلم ، أحضرنا نحن نساء للتعرف عليك . وقد أقسمت امرأتان على اتهامك . احدهما هى السيدة « كلينتون » شقيقة

السيدة التى قتلتها أنت فى الحريف الماضى ، والثانية هى الآنسة «آشتون»
التي ذكرت أنك هاجمتها فى الصيف الماضى بعد أن تسللت الى حجرة
نومها منه خلال النافذة .

— أنا لم أتعرض لأية امرأة . . لا فى الصيف ولا فى الحريف
الماضيين .

— ان الآنسة « آشتون » تعرفت عليك وأقسمت أنك أنت الذى
اعتديت عليها .

— أنا لا أعرف عنها شيئا .

— ولكن السيدة « كلينتون » شقيقة المرأة التى قتلتها فى الحريف
الماضى حضرت الى « زنزانتك » وتعرفت عليك ، فمن ذا الذى سيصدقك
عندما تقول انك لم تفعل ذلك ؟ . لقد قتلت امرأتين فى يومين ، فمن ذا
الذى سيصدقك عندما تدعى أنك لم تقتل الأخريات ؟ هيا يا ولد .
فليس لديك أية فرصة تتشبهت بها .

www.liilas.com/vb3/

— أنا لا أعرف شيئا عن النساء الأخريات .

وتساءل « بيجر » بينه وبين نفسه الى أى مدى يصدق الرجل
فيما يقول ، أهو يكذب بالنسبة للنساء الأخريات حتى يدفعه الى الحديث
عن « ماري » و « بيسى » ؟ أم أنهم يحاولون حقيقة أن يشبثوا عليه ارتكاب
جرائم أخرى ؟

— اسمع يا ولد . . عندما تحصل الصحف على الأدلة التى جمعناها
ضدك فسيكون فى ذلك نهايتك ، ولست أنا الذى يفعل هذا . . ان
ادارة الشرطة تنقب عن المخازى ثم « تحيطنى بها علما » . لماذا لا تتكلم ؟
هل قتلت النساء الأخريات ؟ أو لعل شخصا آخر دفعك الى ذلك ؟ هل
لـ « جان » « ضلع » فى هذا الموضوع ؟ هل الحمر يساعدونك ؟ أنت أحق
ولا شك اذا كان لـ « جان » « ضلع » فى هذا الموضوع وأنت لا تريد
أن تتكلم .

وضم « بيجر » ساقيه وأنصت الى صوت يتناهى ضعيفا لعربة
أخرى تمر بالطريق على حين انحنى « بكلي » الى الأمام وأمسك بذراع
« بيجر » وأخذ يتكلم :

– أنت لا تؤذى بسكوتك أحدا إلا نفسك يا فتى • قل لى •• هل
« مارى » و « بيسى » وشقيقة المسز « كلينتون » والآنسة « آشتون »
هن الوحيدات اللانى قتلتهن !

واندفعت الكلمات من فم « بيجر » :

– أنا لم أسمع قبل الآن عن الآنسة كلينتون أو الآنسة آشتون •

– ألم تهاجم فتاة فى حديقة « جاكسون » فى الصيف الماضى •

– لم يحدث •

– ألم تخنق امرأة على طريق الجامعة فى الحريف الماضى • ؟

– لم يحدث •

– ألم تتسلل من احدى النوافذ فى « أنجلوود » فى الحريف الماضى

لتعتدى على امرأة ؟

– مطلقا ••• لقد قلت لك اننى لم أفعل ذلك •

– أنت لا تقول الحقيقة يا ولد •• ان الكذب لن يجديك نفعا •

– بل أنا أقول الحقيقة •

– من هو صاحب فكرة خطاب الاختطاف ؟ •• أهو « جان » ؟

وقال « بيجر » وهو يدرك رغبة الرجل الشديدة فى دفعه الى

توريط « جان » :

– ليس لى « جان » أدنى علاقة بهذا الموضوع •

ما فائدة اصرارك على العناد يا فتى ؟ •• دع الأمور تسير بسهولة

•• فهذا أفضل لك •

لماذا لا يتكلم وينهى الأمر ؟ انهم يعرفون أنه مذنب ويستطيعون

اثبات ذلك عليه • واذا لم يتكلم فلسوف يقررون أنه ارتكب كل جريمة

يعتقدون أنه هو مرتكبها •

– لماذا لم تقم يا ولد أنت وزملاؤك بسرقة مخزن « بلوم » كما أعددتكم

لذلك يوم السبت الماضى ؟

ونظر اليه « بيجر » بدهشة • لقد اكتشفوا ذلك أيضا !

– أنت لم تكن تظن أننى سأعرف هذه الحكاية •• أليس كذلك ؟

ولكننى أعرف الكثير من هذا يا ولد .. أنا أعرف أيضا اللعبة القذرة التى دبرتها أنت وصديقك «جاك» فى مسرح «ريجال» .. هل أنت مندهش لعلمنى بها ؟ لقد أخبرنا المدير عندما كنا نحقق الموضوع ، أنا أعرف ماذا يفعله الأولاد من أمثالك يا «بيجر» . والآن ، هيا .. لقد كتبت أنت خطاب الاختطاف ، أليس كذلك ؟

وتنهذ «بيجر» وقال :

— بلى .. لقد فعلت .

— ومن الذى عاونك فى اعداده ؟

— لا أحد .

— من الذى كان يسعى لمساعدتك فى جمع مبلغ الفدية ؟

— بيسى ..

— هيا استمر .. هل هو «جان» ؟

— لا ..

— بيسى ؟

— نعم ..

— لماذا قتلتها اذن ؟

وبعصية ، تلمست أصابع «بيجر» علبه السجائر وأخرج لفافة . وأشعل «بكلى» عود ثقاب وقرب اليه النار ، ولكن «بيجر» أشعل نفسه عودا وتجاهل اللهب المقدم اليه . ثم قال :

— عندما رأيت أننى لا أستطيع الحصول على النقود قتلتها حتى لا تتكلم .

— وقتلت مارى أيضا ؟

— لم أكن أقصد قتلها .. ولكننى لا أهتم الآن .

— ولكن «جان» هو الذى كتب خطاب الاختطاف .. أليس كذلك ؟

— أنا لم أر جان قبل تلك الليلة .

— ولكن .. ألم يكتب الخطاب ؟

— قلت لك انه لم يفعل ذلك .

— هل كتبه أنت ؟

- نعم •

- وهل « جان » هو الذى نصحك بكتابتته ؟

- لا ••

- لماذا قتلت «مارى» ؟

- ولم يجب «بيجر» •

- انتبه الى يافتى •• هذا الذى تقوله ليس معقولا ولا يمكن أن يقبله المرء • أنت لم تكن فى بيت آل «دالتون» حتى مساء يوم السبت ، ومع ذلك فانك - فى ليلة واحدة - قتلت وسرقت ، وفى الليلة التالية كتبت خطاب الاختطاف •• هيا اذن خبرنى بتفاصيل كل ما حدث وما يتعلق بكل من ساعدوك •

- ليس هناك سوى •• ولست أهتم بما يحدث لى ، ولكنك لن تجربنى على أن أقول شيئا عن أناس آخرين •

- ولكنك قلت للمستتر « دالتون » ان «جان» كان مشتركا فى هذا الامر ؟

- لقد كنت أحاول أن ألقى التهمة عليه •

- حسن •• قل لى ما حدث بالتفصيل •

وتحرك «بيجر» وتوجه الى النافذة • وأمسكت يده فى قوة بالقضبان الحديدية الباردة وأدرك وهو يقف فى مكانه انه لا يستطيع أبدا أن يقول لماذا قتل ، لا لأنه لا يريد حقيقة أن يقول شيئا فى هذا الصدد ، ولكن لأن كلامه قد يفسر حياته كلها ولم يكن الدافع الحقيقى الذى من أجله قتل «مارى» و «بيسى» هو الذى يهمله فى المحل الأول ، ولكن الذى كان يهمله حقيقة هو أنه لن يستطيع أن يقنع أحدا بالسبب الذى من أجله ارتكب هاتين الجريمتين • لقد اكتشفوا جريمتيه ، ولكنهم لن يعرفوا حقيقة ما كان يشعر به قبل أن يرتكبهما • ولربما كان يسعده أن يقر بما ارتكب لو أنه كان واثقا من أنه وهو يفعل ذلك يعطى معنى حقيقيا للكراهية العميقة التى كانت هى جماع حياته ، تلك الكراهية التى لم يكن يريد لها ولكنه لم يكن يملك الا أن يستشعرها • كيف كان بوسعه أن يفعل ذلك ؟ ان ما يمكن أن يدفعه الى الكلام •• شىء عميق تماما كما كان الباعث على القتل •

وأحس بيد تلمس كتفه ، ولم يلتفت • وأرخی بصره ورأى حذاء الرجل الأسود اللامع - أنا أفهم حقيقة مشاعرك يافتى • فانت ملون وتشعر بأنك لم تنل فرصة عادلة • أليس كذلك ؟

وبدأ صوت الرجل ينخفض ويصبح أكثر رقة • وأحس «بيجر» وهو ينصت إليه بالكرامية نحوه لأنه يقول ما يعرف «بيجر» أنه الصدق • وأراح «بيجر» رأسه المكدود على القضبان الحديدية وهو يتساءل كيف أمكن هذا الرجل أن يعرف الكثير عن مشاعره ثم يظل فى نفس الوقت على ذلك الموقف الصارم منه •

واستمر صوت الرجل رقيقا منخفضا :

- لعلك كنت تفكر منذ زمن طويل فى مسألة اللون هذه • أليس كذلك يا ولد ؟ ولعلك تظن أننى لا أدرك ذلك ؟ ولكن ذلك ليس صحيحا ، فأنا أدرك حقيقة المشاعر التى قد تتناوب وأنت تسير فى الشوارع مثلما يسير سائر الناس وترتدى مثلما يرتدون • وتتكلم بنفس اللغة • وبالرغم من ذلك ترى نفسك منبوذا لغير ما سبب سوى أنك أسود أنا أعرف أبناء جلدتك ، وليس هناك ما يدعوهم الى أن يمنحونى أصواتهم فى الحى الجنوبى فى كل انتخاب • لقد تحدثت مرة الى فتى ملون قتل امرأة • تماما كما قتلت شقيقة المسر «كلينتون» • وصرخ «بيجر» :

- أنا لم أفعل ذلك •

- لماذا تصر على الإنكار ؟ انك اذا تكلمت فقد يساعدك القاضى • اعترف اعترافا كاملا وأنه هذا الأمر وسوف تشعر بأنك أحسن حالا • أنصت الى جيدا ، لو أنك قلت لى كل ما حدث فسوف أنظر فى ارسالك الى مستشفى لاجراء فحص طبى عليك ، أرأيت اذن ؟ • وربما نجوت من الموت اذا هم قرروا أنك لست مسئولا عن أفعالك •

وازداد غضب «بيجر» فهو لم يكن مجنونا ، كذلك فهو لا يريد أن يقال عنه ذلك •

- أنا لا أريد أن أذهب الى مستشفى •

- ولكنه طريقك للخلاص يافتى •

- لست أريد طريقا للخلاص •

- استمع الى .. ولنبدأ من البداية . من هى أول امرأة قتلتها ؟

ولم يجب «بيجر» اراد أن يتكلم ولكنه لم يرتح للهفة الشديدة الواضحة فى لهجة الرجل . وسمع «بيجر» صوت الباب الموصل خلفه يفتح واستدار ينظر فى نفس اللحظة التى أطل فيها رجل أبيض متسائلا :

- لقد ظننت أنك تريدنى ؟

وقال «بكلى» :

- نعم .. تقدم .. ادخل ..

ودلف الرجل الى الغرفة وجلس على مقعد وأمسك بقلم ووضع أوراقا فوق مكتبته على حين قال « بكلى » وهو يمسك « بيجر » من ذراعه :

- اجلس هنا وأخبرنى بكل ما يتعلق بالموضوع .

واراد «بيجر» أن يصف حقيقة مشاعره عندما أمسك «جان» بيده ، وعندما سألته «مارى» عن حياة الزنوج ، والثورة الهائلة التى استبدت به طوال اليوم الذى أمضاه فى بيت آل دالتون - ولكنه لم يجد الكلمات التى تسعفه .

- لقد ذهبت الى منزل الميستر «دالتون» فى الخامسة والنصف من يوم السبت أليس كذلك ؟

وتمتم «بيجر» :

- بلى ..

وبدأ «بيجر» يتكلم فى مهل .. ويتتبع كل تصرف أقدم عليه . وكان يتوقف لدى كل سؤال يوجهه اليه «بكلى» ويتساءل بينه وبين نفسه فى دهشة كيف استطاع أن يربط بين تصرفاته المجردة وبين حقيقة ما كان يشعر به ، بيد أن كلماته جاءت جوفاء جامدة . وكان الرجال البيض ينظرون اليه ويترقبون كلماته . وزايلته لحظتها كل مشاعره .. تماما كما حدث له عندما كان فى السيارة جالسا بين «جان» و «مارى» .. وأحس بالضيق أكثر مما حدث له عند القبض عليه .

ووقف «بكلى» .. ونهض الرجل الأبيض الآخر ووضع الاوراق أمامه ليوقع عليها . وتناول بيجر القلم من يده .. حسن ، لماذا لا يوقع ؟ انه مذنب وضائع ، وهم فى سبيلهم الى أن يقتلوه .. ولا أحد يستطيع أن

يساعده • وكانوا يقفون أمامه وقد انحنوا فوقه •• يرقبونه •• ويتربصون
واهتزت يد «بيجر» ثم وقع •

وطوى «بكي» الأوراق ببطء ووضعها داخل جيبه • ونظر «بيجر»
الى الرجلين وهو يحس بالعجز •• على حين نظر «بكي» الى الرجل الأبيض
الآخر وابتنسم قائلا :

– لم يكن الأمر صعبا كما توقعت •

وقال الرجل الآخر :

– لقد مشى معي كما تمشى الساعة •

ونظر «بكي» بركن عينه الى «بيجر» وهو يقول :

– انه ليس أكثر من ولد مرتعب من المسيسي •

وسادت فترة سكوت قصيرة وأحس «بيجر» بأنهما نسيا أنه موجود •
ثم سمعهما يتكلمان :

– هل هناك شيء آخر أيها الرئيس ؟

– لا •• وسوف أكون في النادي • عليك أن تخبرني بما تسفر عنه
التحريات ••

– حسن أيها الرئيس •

– الى اللقاء •

– الى اللقاء أيها الرئيس •

وانتاب «بيجر» احساس بالفراغ وبأنه مغلوب على أمره حتى أنه
انزلق من مكانه الى الأرض • وسمع وقع أقدام الرجلين وهما يسيران
بعيدا •• وفتح الباب ثم أغلق وأصبح وحيدا مضيقا لا يستطيع الفكك •
وتدحرج على الأرض وانخرط في البكاء وهو يسأل نفسه •• ما الذي ألم
به •• ولماذا هو هنا ؟

استلقى «بيجر» على الأرض الباردة وهو ينشج بالبكاء ، ولكنه كان
فى الحقيقة يقف بقلب نادم •• واضعا حياته بين يديه محملا فى تساؤل
كان يبكى مستلقيا فوق الأرض الباردة ، ولكنه كان فى الحقيقة يندفع الى

الأمام بقوة الصنيعة في مواجهة عالم أكبر وأقوى منه كثيرا . كان في الحقيقة يتلمس طريقه الى الأمام بحمية متقدمة في حمأة ظروف أحس بأنها تضم مياه تبل غلة قلبه وعقله .

كان يبكي لأنه عاد مرة ثانية فمنح ثقته لأحاسيسه . ولكنها خدعته لماذا أحس بحاجته الى الافصح عن مشاعره ؟ ولماذا لم يسمع رجع الصدى لمشاعره في قلوب الآخرين ؟ كانت هناك أوقات طالما سمع فيها الأصداء ، ولكنها كانت تصدر في نغمات لا يملك أن يجيبها أو يتقبلها وهو يعيش كزنجي دون أن يفقد القدرة على أن يرى الدنيا التي حركت في أعماقه أنشودة الرجولة . لقد خشي القس الواعظ . وأحس تجاهه بالكراهية لأنه طلب منه أن ينحني ويطلب الرحمة التي كان يعرف أنه يريدتها ، ولكن كبرياءه وشممه منعاه من أن يفعل ذلك . . أن يدفن نفسه في جانب من قبر على حين أن الشمس مشرقة ساطعة . كذلك «جان» و «ماكس» . لقد كانا يطلبان منه أن يؤمن بنفسه . لقد تقبل من قبل برضا تام كل ما اضطرت له حياته الى أن يحس به . . حتى بالنسبة للقتل . لقد أفرغ الكأس التي ملأتها الحياة له ثم أدرك أن افراغ الكأس لم يكن له معنى . . وهاهي ذى كأسه تمتلئ مرة ثانية تنتظر من يفرغها ولكن . . لا . . لن تفرغ الكأس هذه المرة بطريقة عمياء . لقد أحس بأنه لن يقدر على النهوض مرة أخرى مالم يتخلص من أحاسيسه الذاتية من أساسها ، وأحس كذلك أنه في حاجة الى الضوء كيما يتصرف الآن ويعمل .

وشيئا فشيئا توقف عن البكاء واستلقى فوق ظهره يحلق في سقف الغرفة . ولم يكن ذلك راجعا الى طمأنينة روحه بقدر ما كان راجعا الى فقدانه لقواه . لقد اعترف ، وأصبح الموت يلوح واضحا مؤكدا بطريقة علمية . كيف يمكن ياترى أن يمضى الى الموت وهذه الوجوه البيضاء تنظر اليه وتقول ان الموت وحده هو الذى سيسفيه من داء قذف احساسه بسواد بشرته في وجوههم ؟ كيف يمكن أن يصبح الموت الآن . . نصرا ؟

وتنهذ . . ثم نهض واستلقى على فراشه بين النوم واليقظة . وفتح الباب ودخل أربعة من رجال الشرطة وقفوا أمامه وربت أحدهم على كتفه قائلا :

– هيا يا ولد .

ونهض «بيجر» ونظر اليهم متسائلا :

– سوف تعود الى التحقيق .

وكبلوا معصميه بالقيود الحديدية واقتادوه الى الردهة حيث كان
المصعد فى انتظارهم • وأغلقت الأبواب • وهبط المصعد وهو واقف بين
أربعة رجال فارعى الطول يرتدون الزى الأزرق • وتوقف المصعد ففتحت
أبوابه وشاهد مجموعة ثائرة من الناس • وسمع أصواتا كثيرة متداخلة •
واقنيد خلال ممشى ضيق •

— ابن الكلبة ••

— •• أليس أسود اللون !

— اقتلوه ••

وأصابت صدغه لكمة قوية طرحته على الأرض وغابت عنه الوجوه
والأصوات ورأسه يختلج بالألم وقد تخدر الجانب الأيمن من وجهه • ورفع
ذراعه ليحمى نفسه وأحس بمن يرفعه مرة أخرى ليوقفه على قدميه •
وعندما عاد الى صوابه رأى أحد رجال الشرطة مشتبكا مع رجل أبيض
نحيل • وارتفع الصياح فى زمجرة قوية • ورأى رجلا آخر أبيض يدق
على منضدة بمطرقة من الحشب •

— اهدءوا •• والا فسيوف نخلى الغرفة من الجميع ماعدا الشهود •

وخفتت الأصوات • ونهض أحد رجال الشرطة يدفع «بيجر» ليجلس
فوق أحد المقاعد ، وعلى طول حوائط الغرفة الأربعة كان يقف صف من
الوجوه البيضاء • وكان رجال الشرطة يقفون فى كل مكان وقد أمسكوا
بمراياتهم فى أيديهم والشارات المعدنية تلمع فوق صدورهم وقد عبست
وجوههم البيضاء وارتسمت اليقظة فى عيونهم الرمادية والزرقاء •

وكان الى يمين الرجل الذى يجلس الى المنضدة ، ستة رجال يجلسون
هادئين ساكنين وقد وضعوا قبعاتهم ومعاطفهم فوق ركبهم •• وكانوا
يجلسون فى صفين •• كل صف من ثلاثة منهم •

وتطلع « بيجر » ورأى كومة من العظام البيضاء فوق منضدة والى
جوارها خطاب الاختطاف • ورأى فى منتصف المنضدة رزمة بيضاء من
الورق المشبوك بعضه الى بعض بمشبك معدنى •• انه اعترافه الذى وقع
منذ لحظات •

وكان هناك أيضا المستر «دالتون» بوجهه الأبيض وشعره الأشيب
وبجواره زوجته ساكنة معتدلة فى جلستها ووجهها مرفوع الى أعلى كالعادة
فى ثقة واعتزاز • ثم رأى الحقيبة التى حشاها بجسد «مارى» • الحقيبة

التي جرها الى أسفل السلم ثم حملها الى المحطة • وكان هناك أيضا «البطة»
السوداء • • وقطعة صغيرة مستديرة من المعدن • وأحس «بيجر» بنقرة
خفيفة فوق كتفه ، وتطلع الى الخلف ورأى «ماكس» يبتسم له :

— اطمئن «يا بيجر» • • انك لن تقول شيئا هنا ، ولن يستغرق الأمر
وقتا طويلا •

وعاد الرجل الذي يجلس الى المنضدة يدق بمطرقة مرة ثانية :

— هل يوجد هنا أحد من عائلة المتوفاة • • شخص يستطيع أن يحدثنا
عن الأسرة ؟

واجتاحت الغرفة همهمات • ونهضت امرأة وتوجهت بسرعة الى
السيدة «دالتون» العمياء وأمسكت بذراعها بقوة واقتادتها الى مقعد علي
أقصى يمين الرجل الذي كان يجلس الى المنضدة وفي مواجهة الرجال الستة
الجالسين في صفين وقال «بيجر» لنفسه : لابد أنها مسز «باترسون»
وتذكر ماقالته له «بيجي» عن وصيفة السيدة «دالتون» •

— هل تفضلين برفع يدك اليمنى ؟

وارتفعت يد مسز «دالتون» البيضاء كالشمع في بطاء وسألها
الرجل : هل الشهادة التي ستدلي بها هي الحق • • كل الحق • • ولا شيء
غير الحق • • وأن الله على ماتقول شاهد ووكيل • •
وأجابت مسز «دالتون» قائلة :

— نعم ياسيدي • • سأفعل •

وجلس «بيجر» بغلظة محاولا ألا يدع أحدا من الموجودين يلحظ عليه
الخوف ، وكانت أعصابه مشدودة وهو يصغي الى كلمات المرأة العجوز ردا
على أسئلة الرجل • قالت ان عمرها ثلاثة وخمسون عاما وأنها تسكن في
رقم ٤٠٠ بطريق «دريكسيل» وانها كانت مدرسة وانها الآن على المعاش
• • وانها والدة «ماري» وزوجة «هنري دالتون» •

وعندما بدأ الرجل يوجه اليها أسئلة تتعلق «بماري» مال أفراء
الجمهور الى الأمام في مقاعدهم • وذكرت مسز «دالتون» أن «ماري» كانت
وحيدتها وأنها كانت تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما وأنها كانت تملك
وثيقة تأمين قيمتها نحو ثلاثين ألف دولار كما كانت تملك عقارات عينية

تبلغ قيمتها حوالى ربع المليون من الدولارات وأنها كانت نشيطة حتى تاريخ وفاتها •

وبدأ صوت مسز «دالتون» يختليج ويضعف • وتسائل «بيجر» بينه وبين نفسه الى أى مدى يستطيع أن يتحمل أكثر من هذا • ألم يكن من الأفضل كثيرا أن يقف تحت تلك الأضواء الباهرة ويجعلهم يطلقون عليه الرصاص ؟ انه الآن يستطيع أن يخدعهم ويفوت عليهم هذا الغرض الممتع والصيد المشوق •

وقال الرجل :

— سيديتي •• أنا هنا أمثل الاتهام • وأنا أوجه اليك هذه الأسئلة وكللى احساس بالقلق من أجلك ، ولكنى مضطر الى ذلك حتى أستطيع أن أعرف جيدا على شخصية القتيلة •

وقالت مسز «دالتون» فى دمسى :

— أجلى ياسيدي •• لا بأس •

ورفع الرجل فى حرص قطعة صغيرة سوداء من المعدن كانت تستقر فوق المنضدة الكائنة الى جانبه ثم استدار وواجه مسز «دالتون» وتوقف لحظة • وكانت الغرفة هادئة لدرجة أن «بيجر» كان بمقدوره أن يسمع خطوات الرجل فوق الأرض الخشبية وهو يتجه نحو مسز «دالتون» •• وأمسك الرجل يدها فى رقة وقال :

— أنا أضع فى يدك هذا الشيء المعدنى الذى عثر عليه رجال الشرطة داخل الموقد فى الطابق الأول لمنزلك •• مسز «دالتون» ، أريد منك أن تتحسسى هذا الشيء بعناية وحرص ثم تخبرينى •• اذا كنت تذكرين أنك قد لمستته من قبل ••

وأزاد «بيجر» أن يحول عينيه بعيدا ولكنه لم يستطع فأخذ يراى وجه مسز «دالتون» • وشاهد اليد المسكة بقطعة المعدن ترتعش • وهز «بيجر» رأسه ، وبدأت امرأة تبكى فى «هستيرية» واجتاحت الغرفة موجة من الهمسات • وعاد ممثل الاتهام خطوة سريعة الى الخلف فى اتجاه المنضدة وقرع عليها بمفاصل أصابعه فى حدة • وعاد السكون الى الغرفة ونظر «بيجر» الى مسز «دالتون» ، وكانت يدها تتحسسان قطعة المعدن فى عصبية • واهتز كتفها من البكاء :

— هل تعرفت عليها •• ؟

- ن . . . ن . . . نعم . . .
- فماذا تكون اذن ؟
- ان . . . انها قرط . . .
- ومتى كانت صلتك بهذا القرط لآخر مرة ؟
- وهذأت مسز «دالتون» قليلا وأجابت ودموعها على خديها :
- عندما كنت فتاة . . . منذ سنوات طويلة مضت .
- هل تذكرين متى على وجه التحديد ؟
- منذ خمسة وثلاثين عاما . . .
- هل كنت صاحبته ؟
- نعم . . . وهذه واحدة من زوج .
- نعم يا مسز «دالتون» ، ولا شك أن الأخرى احترقت داخل المدفأة على حين سقطت هذه من خلال القضبان الحديدية الى المستودع أسفل القرن
- والآن يا مسز «دالتون» : ما هي المدة التي ظللت فيها تملكين هذا القرط؟
- ثلاثة وثلاثون عاما .
- وكيف انتقل الى ملكيتك ؟
- أعطتني اياه امي عندما كبرت ، وكانت جدتي قد أعطت أمي اياه كذلك ، وأنا بدوري أعطيت ابنتي اياه عندما أصبحت في سن مناسبة ؟
- ما الذى تعنيه بالسن المناسبة ؟
- فى الثامنة عشرة .
- ومتى أعطيت ابنتك اياه ؟
- منذ نحو خمسة أعوام ؟
- وهل كانت تستخدمه باستمرار ؟
- نعم .
- هل أنت واثقة من أن هذه واحدة من زوج القرط ؟
- نعم ولا يمكن أن أخطئ ، فهو متاع موروث ولا توجد أقراط تشبهه ، فقد صممته جدتي وصنع بناء على طلبها .
- مسز « دالتون » . . . ماهى آخر مرة كنت فيها فى صحبة القتيلة ؟
- ليلة السبت . وبمعنى أصح فى صباح الأحد المبكر .

- فى أية ساعة ؟

- أعتقد أنها كانت الثانية صباحا على وجه التقريب .

- وأين كانت هى ؟

- فى الفراش .. داخل غرفتها .

- هل كنت معتادة رؤية .. أعنى معتادة مقابلة ابنتك فى ساعة

كهنه ؟

- لا .. ولكننى كنت أعرف أنها تنوى السفر الى «دثرويت» فى

صباح الأحد ، وعندما سمعتها عائدة أردت أن أعرف لماذا بقيت فى الخارج

الى ذلك الوقت المتأخر .

- هل تحدثت معها ؟

- لا .. فقد ناديتها مرارا ولكنها لم تجب .

- هل لمستها ؟

- نعم .. لمستها فى خفة .

- ولكنها لم تجب ؟

- ليس تماما .. فقد سمعت بعض الدمدمة .

- هل عرفت لمن كانت هذه الدمدمة ؟

- لا ..

- مسز «دالتون» : هل يمكن القول - طبقا لتقديرك - بأن ابنتك

كانت ميتة فى ذلك الوقت وأنك لم تكتشفى ذلك أو تشكى فيه ؟

- لا أدرى .

- هل تعرفين ان ابنتك وأنت توجهين إليها الكلام .. كانت حية ؟

- لا أدرى .. ولكننى افترضت ذلك .

- هل كان بالحجرة فى ذلك الوقت شخص آخر ؟

- لا أدرى .. ولكننى شعرت بشيء غير عادى .

- شيء غير عادى ؟ ما الذى تعنيه بـ «شيء غير عادى» .. ؟

- لست أدرى تماما ، ولكننى لم أكن مرتاحة لسبب لا أعرفه ..

وبدا لى أن هناك شيئا ينبغى أن أفعله أو أقوله ، ولكننى قلت لى نفسى

«انها لابد مستغرقة فى النوم» .

- اذا كنت قد شعرت بعدم الارتياح ، فلماذا غادرت الغرفة دون أن تحاولي إيقافها ؟

وتمهلت مسز «دالتون» قبل أن تجيب ، وكان فيها الدقيق مفتوحا
•• ووجهها مائلا الى ناحية ، ثم همست قائلة :

- لقد شممت رائحة كحول فى الحجرة •

- حقا ؟

- لقد ظننت أن «مارى» كانت مخمورة •

- وهل حدث أنك وجدت ابنتك مخمورة قبل تلك المرة ؟

- نعم •• ولعل هذا هو السبب الذى دعانى الى الاعتقاد بأنها
مخمورة فى ذلك الوقت ، فقد كانت نفس الرائحة •

- مسز «دالتون» •• لو أنه كان هناك شخص ما قد اعتدى على
ابنتك فى أثناء نومها فى مخدعها ، أكنت - بطريقة أو بأخرى - تلاحظين
ذلك ؟

وساد الحجرة طنين ، وعاد المحقق يقرع المنضدة طالبا النظام •

وهمست مسز «دالتون» قائلة :

- لا أدري •

- بقيت أسئلة قليلة اذا سمحت يامسز «دالتون» • ما الذى أثار
شكوكك فى أن شيئا ما قد حدث لابنتك ؟

- عندما توجهت الى غرفتها فى الصباح تحسست مخدعها واكتشفت
أنها لم تنم فيه ، ثم تحسست رف ملابسها ووجدت أنها لم تأخذ الملابس
الجديدة التى ابتاعتها •

- مسز «دالتون» • أنت وزوجك كنتما تقدمان مبالغ كبيرة من المال
من أجل منشآت التعليم الزنجية •• أليس كذلك ؟

- بلى •

- هل يمكنك أن تذكرى لنا مقدار هذه المبالغ على وجه التقريب ؟

- ما يربو على «الخمسة ملايين» من الدولارات •

- ومع ذلك فأنت لا تحملين أية ضغينة نحو الزنوج ؟

– لا .. أبدا .. مهما يكن .

مسز «دالتون» .. أخبرينا من فضلك ، ما هو آخر شيء فعلته عندما كنت تقفين أمام مخدع ابنتك فى صباح ذلك الأحد ؟

– ١٠٠ اننى ..

وتوقفت برهة وخفضت رأسها وجففت عينيها ثم استطردت تقول .

– لقد ركعت بجوار المخدع .. وصليت ..

وخرجت كلماتها فى لهجة مشوبة باليأس والقنوط .

– لقد انتهى الأمر الآن . وشكرا لك يامسز «دالتون» .

وتنهى كل من الغرفة ، ورأى «بيجر» المرأة تعود بمسز «دالتون» الى مقعدها . وكانت عيون كثيرة – من رمادية وزرقاء – مثبتة على «بيجر» فى تلك اللحظة .. عيون تحمل من الكراهية البالغة ما هو أسوأ من الصراخ واللعنات . ولم يجد «بيجر» بدا من أن يكف عن النظر الى ذويها حتى يتخلص من نفرسهم فيه ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت عيناه مفتوحتين . ونظر ممثل الاتهام الى الرجال الستة المصطفين الى يمينه وقال :

– أيها السادة المحلفون .. هل لأحدكم معرفة بالمتوفاة أو بأحد أعضاء أسرتها ؟

ونفض أحد الستة وقال :

– لا ياسيدى .

– هل يوجد أى سبب يمنعكم من اصدار قرار عادل منصف فى هذه القضية ؟

– لا ياسيدى .

– هل يوجد ثمة من يعارض فى أن يكون هؤلاء الرجال محلفين فى هذه القضية ؟

وقد وجه المحقق سؤاله الأخير لكل الموجودين داخل الغرفة ، ولم يجبه واحد من الحاضرين .

– اننى أطلب من المحلفين باسم قاضى التحقيق أن ينهضوا ويقتربوا من هذه المنضدة ليروا بقايا القتيلة .. « ماري دالتون » .

ونهبض الرجال الستة فى هدوء واقتربوا من المنضدة ، ونظر كن منهم الى كومة العظام البيضاء ، وعندما عادوا الى مقاعدهم ثانية نادى المحقق قائلاً :

— سوف نسمع الآن «جان ايرلون» •

ونهبض «جان» ، وتقدم الى الامام فى نشاط • وطلب منه أن يحلف اليمين فأداها • وارتاب «بيجر» فى أن ينقلب «جان» عليه وفيما اذا كان بمقدوره أن يثق فى أى رجل أبيض •• حتى هذا الرجل الأبيض الذى جاءه يعرض عليه صداقته •

ومال «بيجر» الى الأمام لينصت جيداً • وسأل «جان» عدة أسئلة عما اذا كان أجنبياً فأجاب بالنفى • واقترب ممثل الاتهام من مقعد «جان» وانحنى عليه وسأله بصوت مرتفع :

— هل تؤمن بالمساواة الاجتماعية بالنسبة للزواج ؟

وماجت الغرفة على اثر هذا السؤال •• وأجاب «جان» :

— اننى أؤمن بأن جميع الأجناس متساوية •

— أجب بنعم أو لا يامستر «ايرلون» أنت لست واقفاً فوق صندوق

صابون (١) • هل تؤمن بالمساواة الاجتماعية بالنسبة للزواج ؟

— نعم •

— هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى ؟

— نعم •

— ما الحالة التى كانت عليها مس «دالتون» عندما تركتها فى صباح

الأحد الماضى ؟

— ماذا تعنى ؟

— هل كانت مخمورة ؟

— لم تكن مخمورة ، ولكنها تناولت جرعات قليلة •

— كم كانت الساعة عندما تركتها ؟

(١) يقصد أنه ليس فى موقف خطابه واقفاً فوق صندوق خشبى أمام الجماهير ••

- حوالى الواحدة والنصف صباحا على ما أذكر .
 - هل كانت تجلس فى المقعد الأمامى للسيارة ؟
 - نعم . . . كانت تجلس فى المقعد الأمامى .
 - هل كانت تجلس فى المقعد الأمامى طول الوقت ؟
 - لا .
 - هل كانت فى المقعد الأمامى عندما غادرتم المقهى ؟
 - لا .
 - هل وضعتها فى المقعد الأمامى عندما غادرت السيارة ؟
 - لا . بل هى التى قالت انها تريد أن تجلس فى الأمام .
 - وانت لم تطلب منها ذلك ؟
 - لا .
 - عندما تركتها . . هل كانت فى حالة تمكنها من مغادرة السيارة بمفردها ؟
 - أعتقد ذلك .
 - هل حدث بينك وبينها فى أثناء جلوسكما فى المقعد الخلفى علاقة يمكن أن تجعلها مذهولة مثلا بحيث تعجز عن مغادرة السيارة بمفردها
 - لا .
 - أصحيح يامستر «ايرلون» أن الآنسة «دالتون» كانت فى حالة لاتسمح لها بحماية نفسها ، وبالرغم من ذلك نقلتها الى المقعد الأمامى ؟
 - لا . . أنا لم أنقلها الى المقعد الأمامى .
 ودوى صوت «جان» فى أرجاء الغرفة . . وسمعت تمتات مناقشات سريعة .
 - لماذا تركت فتاة بيضاء بمفردها بلا حماية ، داخل سيارة ؛ . . مع زنجى مخمور ؟
 - لم ألاحظ أن «بيجر» مخمور . . كما أننى لم أجد ما يدعونى الى الاعتقاد بأن «مارى» بلا حماية .
 - هل سبق لك أن تركت الآنسة «دالتون» فى أى وقت بمفردها بمرافقة زنوج ؟

— لا •

— ألم تستخدم الآنسة «دالتون» طعاما للاغراء من قبل ؟ •• هل فعلت ذلك ؟

وجفل «بيجر» من هدير الضوضاء خلفه فأدار رأسه ورأى «ماكس» يهب واقفا ويقول :

— سيدي •• أنا أدرك أن هذه ليست محاكمة ، ولكن الأسئلة التي تلقى الآن ليست لها أية علاقة بسبب وكيفية موت المتوفاة •

— مستر «ماكس» ، نحن نسمح بقدر من الافاضة هنا • وسوف تقرر هيئة المحلفين الموقرة أن البيانات التي تقدم هنا لها علاقة بالقضية أولا •

— لكن الأسئلة التي من هذا النوع تثير الرأي العام •

— اسمع يامستر «ماكس» • دعني أقل لك ان أى سؤال يوجه في هذا المكان لن يثير الرأي العام أكثر مما أثاره مقتل «ماري دالتون» وأنت تدرك هذا ، ولك الحق كل الحق في مناقشة أى شاهد من هؤلاء الشهود ، ولكنني لن أسمح بأية محاولة من أمثالك لاستغلال هذا المكان للشهرة والدعاية •

— ولكن المستر «ايرلون» لم ينجى الى هنا ليحاكم ياسيدي •

— ان موقفه يحمل على الشك لتورطه في حادث كهذا • اننا نتعقب قاتل هذه الفتاة •• ونريد أن نعرف الأسباب التي دفعته الى ذلك • واذا كنت ترى أن هذه الأسئلة تسير في الطريق الخاطئ فعليك أن تسأل الشاهد عندما تنتهي نحن • ولكنك لا تستطيع أن تحدد لنا الأسئلة التي نلقها •

وجلس «ماكس» وهدأت الغرفة ، واتجه المحقق الى الأمام ثم الى الخلف بضع ثوان قبل أن يعود الى الكلام وقد احمر وجهه وزم شفتيه :

— — مستر «ايرلون» •• ألم تعط هذا الزنجي أشياء تخص الحزب الشيوعي ؟

— بلى •

— ما هي طبيعة هذه المواد ؟

- لقد أعطيته بعض الكتيبات عن مشكلة الزواج .
- مواد تدافع عن المساواة بين البيض والزوج ؟
- لقد كانت توضح ..
- هل كانت هذه المواد تحتوى على دعوة الى الوحدة بين البيض والسود ؟

- نعم . لماذا ؟

- هل أخبرت هذا الزوجي المخمور خلال اثارك له بأنه من الممكن أن ينشئ السود علاقات مع نساء البيض ؟
- لا .

- هل نصحت الآنسة «دالتون» بأن تنشئ علاقات معه ؟
- لا .

- هل كنت تصافح هذا الزوجي ؟

- نعم .

هل أنت الذى عرضت عليه مصافحته ؟

- نعم .. وأى شخص مهذب ..

- نرجو يا مستر «ايرلون» أن تقتصر على الاجابة عن الاسئلة التى توجه اليك .. فنحن لانريد هنا شيئاً من ايضاحاتك الشيوعية . والآن أخبرنى ، هل أكلت مع هذا الزوجي ؟

- نعم .

- وكانت الآنسة «دالتون» تجلس على المائدة عندما دعوته أنت الى الجلوس ؟

- نعم .

- ما هى عدد المرات التى سبق أن أكلت فيها مع زوج ؟

- لا أعرف .. ولكن هذا حدث مرارا .

- هل تحب الزوج ؟

- أنا لا أميز .

- هل أنت تحب الزوج يا مستر «ايرلون» ؟

وصاح «ماكس» :

- أنا أعترض • كيف بالله يمكن أن يكون هذا متعلقا بالقضية •
وصاح ممثل الاتهام :

- أنت لامتلك أن تحدد لنا الأسئلة •• وقد سبق أن نبهتكم الى هذا
هناك امرأة قتلت بطريقة قذرة دنيئة ، وهذا الشاهد هو الذى تسبب فى
وجود القتيلة مع آخر شخص رآها حية ، ومن ثم فلنا الحق فى أن نقرر
وضع هذا الشاهد بالنسبة لهذه الفتاة وهذا الزنجى •
وعاد مرة ثانية الى «جان» وقال :

- والآن يا مستر «ايرلون» ، ألم تطلب من هذا الزنجى الجلوس فى
المقعد الأمامى للسيارة بينك وبين الأنسة «دالتون» ؟

- نعم •• لقد كان موجودا بالفعل فى المقعد الامامى •
- ولكنك لم تطلب منه الرجوع الى المقعد الخلفى •• أليس كذلك ؟
- نعم ••

- ولماذا لم تفعل ذلك ؟
- يا الهى •• ان الرجل انسان •• لماذا لا تسألنى ؟
- أنا الذى أوجه الأسئلة هنا وليس أنت •• وعليك أن تجيب •
والآن قل لى يامستر «ايرلون» ، هل كنت تقبل أن تدعو هذا الزنجى الى
أن ينام معك ؟

- اننى ارفض الاجابة عن هذا السؤال •
- ولكنك لم ترفض اعطاء هذا الزنجى المخمور الحق فى أن يكون مع
تلك الفتاة ؟ أليس كذلك ؟

- ان حقه فى أن يعرفها هى أو أى شخص آخر لم يكن موضوع بحث
- هل حاولت ابعاد هذا الزنجى عن الأنسة «دالتون» ؟
- اننى لم ••

- أجب بنعم أولا ••
- لا •

- هل لك أخت ؟

- نعم •• لماذا ؟

- أين هى ؟

- فى نيويورك •
- هل هى متزوجة ؟
- لا ••
- هل تقبل لها زوجا زنجيا ؟
- ليس لى شأن بمن تتزوجه •
- ألم تطلب من هذا الزنجى المخمور أن يناديك بجان بدلا من السيد «جان» ؟
- نعم •• ولكن •
- اقتصر فحسب على الاجابة عن الأسئلة :
- ولكنك يا سيدى تستنتج •
- أنا أحاول اثبات الدافع الى قتل هذه الفتاة البريئة •
- لا •• أنت لا تفعل ذلك •• أنت تحاول اتهام جنس بشرى وحزب سياسى •
- نحن لا نريد هنا خطبا • قل لى ، هل كانت الأنسة «دالتون» فى حالة تسمح لها بأن تقول لك «الى اللقاء» عندما تركتها فى تلك السيارة مع هذا الزنجى المخمور ؟
- نعم •• لقد قالت «الى اللقاء» •
- خبرنى •• ما كمية الشراب التى قدمتها للآنسة «دالتون» فى تلك الليلة ؟
- لا أدرى •
- ما هو نوع المشروب الذى تناولتموه ؟
- روم •
- لماذا فضلت الروم ؟
- لا أعرف •• كل ما فى الأمر اننى طلبت الروم ••
- لأنه ينبه الجسم الى مدى بعيد ؟
- لا ••
- ما الكمية التى طلبتها ؟
- خمس جالون •

- من الذى دفع ثمنها ؟
- أنا •
- هل كان هذا المال من خزينة الحزب الشيوعى ؟
- لا •
- ألم يكونوا يسمحون لك بالتصرف فى مبلغ من المال نظير نفقات
- التعبئة للحزب ؟
- مطلقا
- ما كمية الشراب التى تناولتموها قبل أن تبتاع خمس الجالون
- من الروم ؟
- كنا قد شربنا قليلا من كتوس الجعة •
- ما مقدارها ؟
- لا أتذكر •
- أنت لا تذكر الكثير مما حدث فى تلك الليلة •• أليس كذلك ؟
- أنا أقول كل ما أتذكره •
- كل ما تذكره ؟ •• حقا ؟
- نعم
- أمن الممكن أن تكون قد نسيت بعض الأشياء ؟
- أنا أقول كل ما أتذكره •
- هل كنت مخمورا الى الدرجة التى تجعلك لا تذكر كل ماحدث ؟
- لا •
- كنت اذن تعرف ما تفعل ؟
- نعم •
- وتركت الفتاة عامدا وهى على تلك الحالة ؟
- انها لم تكن فى «حالة» ما •
- فكيف اذن كانت حالتها بعد أن شربت البيره و «الروم» ؟
- كان يبدو أنها تدرك ما تفعله •
- هل قامت لديك مخاوف بخصوص مدى قدرتها على الدفاع عن
- نفسها ؟
- لا •

- وهل كنت تهتم بذلك ؟
- بالطبع نعم .
- هل رأيت أن الأمور ستكون على مايرام مهما حدث ؟
- لقد رأيت أنها على ما دام .
- قل لي يا مستر «ايرلون» ما درجة السكر التي كانت عليها الآنسة «دالتون» ؟

- لقد كانت منشرحة شيئا ما . . . اذا كنت تدرك ما أعنيه .
- تعنى كانت تشعر بسعادة ؟
- نعم . يمكنك أن تقول هذا .
- يعنى مستعدة للتقبل ؟
- لست أفهم ما تعنيه .
- هل كنت مكثفيا عندما تركتها ؟
- ماذا تقصد ؟
- هل استمتعت بصحبتها ؟
- نعم . . . لماذا ؟
- هل انتابك الفتور بعد الاستمتاع بفتاة كهذه ؟
- أنا لا أفهم ما تقصد .
- كان الوقت متأخرا . . . أليس كذلك يا مستر «ايرلون» ؟ وأردت أن تعود الى منزلك ؟

- بلى .
- ولم ترد البقاء معها وقتا أطول ؟
- لا . . . فقد كنت متعبا .
- ولهذا فقد تركتها للزنجى ؟
- لقد تركتها داخل السيارة ، ولم أتركها لأحد ما . . .
- ولكن الزنجى كان داخل السيارة ؟
- نعم .
- وانتقلت هي الى المقعد الأمامى . . . بجواره ؟
- نعم .
- ولم تحاول منعها من ذلك ؟

- لا .
- وكنتم ثلاثتكم مخمورين ؟
- نعم .
- وكننت راضيا عن تركها هكذا مع زنجى مخمور ؟
- ماذا تقصد ؟
- ولم يخالجك خوف عليها ؟
- لا . . ولماذا أخاف عليها .
- وكننت تشعر بأنها - وهي مخمورة - ستكون سعيدة مع أى شخص آخر . . تماما كما كانت معك ؟
- لا . . لا . . ليس كذلك . . أنت تستنتج . . .
- أجب فحسب عن الأسئلة . هل كانت للآنسة «دالتون» - على حسب معرفتك بها - أية علاقات مع زنجى قبل ذلك ؟
- لا . .
- هل كنت تظن أنه وقت مناسب لها . . لكى تتعلم ؟
- لا . . لا . .
- ألم تعد الزنجى بالاتصال به اذا هو انضم الى الحزب الشيوعى ؟
- أنا لم أقل اننى اتصلت به .
- ألم تخبره بأنك ستتصل به فى غضون يومين أو ثلاثة ؟
- نعم .
- مستر « ايرلون » . . هل أنت واثق من أنك لم تقل ذلك ؟
- أوه . . نعم . ولكن الأمر لم يكن بالصورة التى تحاول أن تضفيها عليه .
- مستر « ايرلون » . . هل دهشت عندما سمعت بوفاة الآنسة «دالتون» ؟
- نعم . . وكننت فى البداية مذهولا الى درجة أننى لم أصدق ما سمعت . . واعتقدت أن هناك بالتأكيد خطأ ما . .
- انك لم تتوقع أن هذا الزنجى المخمور سيذهب بعيدا الى هذا الحد . . أليس كذلك ؟

- أنا لم أتوقع أى شيء .

- ولكنك طلبت من هذا الزوجى أن يقرأ تلك الكتبات الشيوعية .
أليس كذلك ؟

- لقد أعطيته اياها .

- وطلبت منه أن يقرأها ؟

- نعم .

- ولكنك لم تتوقع منه أن يمضى بعيدا الى حد قتل فتاة ؟

- أنا لم أتوقع أى شيء فى هذا الاتجاه على الإطلاق .

- حسن . هذا هو كل ما فى الأمر يا مستر « ايرلون » .

وراقب « بيجر » جان وهو يعود الى مقعده وأدرك حقيقة ما يحس به
وفهم أيضا ما كان الرجل يحاول أن يصل اليه بالقائه هذه الأسئلة وأنه
ليس وحده موضع الكراهية فى هذا المكان ، فقد تسبب ما يريد
الشيوعيون فى كراهية المحقق لجان هو الآخر .

وتساءل المحقق :

- هل يتفضل المستر « هنرى دالتون » بالتقدم ؟

واستمع « بيجر » الى ما ذكره المستر « دالتون » بخصوص استخدام
أسرة « دالتون » للزواج دائما كسائقين لسياراتهم وخصوصا عندما يكون
هؤلاء الفتيان الزوج متعطلين نتيجة الفاقة أو نقص التعليم أو سوء الحظ
أو لسبب جسمانى . وقد قرر المستر « دالتون » أن ذلك كان بقصد
تمكينهم من إعالة أسرهم ولاتاحة الفرصة لهم للذهاب الى المدرسة . كما
ذكر كيفية حضور « بيجر » الى المنزل وتصرفه بخوف ووجل ، ووصف
تأثر الأسرة وتحرك عواطفها نحوه ، وأضاف أنه لم يدر بخلده أن « لبيجر »
أدنى علاقة باختفاء « ماري » الأمر الذى دعاه الى أن يطلب من « بريتن »
ألا يستجوبه ، كما ذكر كيفية تسلمه لحطاب الاختطاف وأنه صدم عندما
أخبروه بأن « بيجر » هرب من منزله ، الأمر الذى يثبت جرمه .

وعندما انتهت أسئلة المحقق ، سمع « بيجر » (ماكس) وهو يقول :

- هل يمكننى توجيه بعض الأسئلة ؟

وقال المحقق :

- بالتأكيد . . . تفضل .

وتقدم « ماركس » للأمام ووقف أمام المستر « دالتون » مباشرة وبدأ
فى توجيه أسئلته :

- أنت مدير شركة « دالتون » للعقارات .. أليس كذلك ؟

- بلى .

- وشركتك هى التى تمتلك المبنى الذى أقامت فيه أسرة « بيجر
توماس » فى السنوات الثلاث الأخيرة ؟

- ليس بالضبط .. ان شركتى تمتلك حصة فى شركة تمتلك
هذا المنزل .

- حسن .. وما اسم هذه الشركة ؟

- شركة الحى الجنوبى العقارية .

- اذن .. فأسرة « توماس » تدفع لك ..؟

- لا .. ليس لى .. انهم يدفعون الايجار لشركة الحى الجنوبى
العقارية .

- وأنت تمتلك الجانب الأكبر المتحكم من رأس مال شركة دالتون
العقارية .. أليس كذلك ؟

- بلى .. لماذا ؟

- وهذه الشركة من ناحية أخرى تمتلك الحصة المتحكم فى رأس
مال شركة الحى الجنوبى العقارية .. أليس كذلك ؟

- بلى .. لماذا ؟

- يمكننى اذن أن أقول ان أسرة « توماس » تدفع الايجار لك .

- بطريق غير مباشر .. نعم .

- من الذى يرسم سياسة هاتين الشركتين ؟

- أنا .. لماذا ؟

- لماذا تفرض على أسرة توماس وعلى عائلات زنجية أخرى ايجارا
يزيد على الايجار الذى تتقاضاه من البيض القاطنين فى مساكن من نفس
النوع ؟

فقال « دالتون » :

— أنا لم أحدد فئات الإيجار .

— فمن اذن الذى يحددها ؟

— ان قانون العرض والطلب هو الذى يحدد ايجار المساكن .

— والآن يا مستر « دالتون » لقد قيل انك وهبت ملايين الدولارات لتعليم الزنوج ؟ فلماذا فرضت على أسرة « توماس » ايجارا باهظا قدره ثمانية دولارات أسبوعيا نظير غرفة عديمة التهوية .. وكر للفيران .. ينام فيها أربعة أفراد ويأكلون ؟

وقفز المحقق على قدميه وهو يقول :

— أنا لن أسمح لك باهانة هذا الشاهد . أليس لديك احساس بقواعد اللياقة ؟ ان هذا الرجل واحد من أكثر الرجال احتراما فى هذه المدينة . وأسئلتك ليست لها علاقة ..

وصاح « ماكس » قائلا :

— بل لها علاقة بالتأكيد .. لقد قلت انه يمكننا أن نستفيض هنا فى الأسئلة . وأنا أحاول أيضا أن أصل الى الشخص المذنب . ان « جان ايرلون » ليس الشخص الوحيد الذى أثر فى « بيجر توماس » . وهناك أشخاص كثيرون سيقوه الى ذلك ، ولى كل الحق فى تحديد مدى تأثير موقفهم على سلوكه ، تماما كما فعلت انت لتحديد تأثير « جان ايرلون » .

وقال المستر « دالتون » بهدوء :

— اننى أرغب فى الإجابة عن أسئلته اذا كانت ستوضح الأمور .

— شكرا لك يامستر « دالتون » والآن قل لى ، لماذا فرضت على أسرة « توماس » ثمانية دولارات فى الأسبوع أجرا لغرفة واحدة فى مسكن ؟

— .. توجد أزمة مساكن .

— فى جميع أنحاء شيكاغو ؟

— لا .. هنا فحسب فى الحى الجنوبى .

— هل تملك بيوتا فى قطاعات أخرى من المدينة ؟

— نعم .

— اذن لماذا لم يؤجر هذه البيوت للزواج ؟
— ٠٠ ابنى ٠٠ لم أتصور أنهم يرغبون فى السكنى فى مكان آخر .

— من الذى أخبرك بذلك ؟
— لا أحد .

— هل وصلت الى هذا الاستنتاج من تلقاء نفسك ؟
— ... نعم .

— لماذا ؟

— انه تقليد قديم .

— وهل ترى أن هذا التقليد سليم ؟

فرد المستر « دالتون » قائلا :

— أنا نفسى لم أضع هذا التقليد .

وسأله « ماكس » ثانية :

— هل ترى أن هذا التقليد سليم ؟

— حسن ٠٠ اننى أعتقد أن الزواج يكونون سعداء عندما يكونون

معا .

— ومن الذى قال لك ذلك ؟

— .. لا أحد .

أيكونون مريحين أكثر عندما يكونون معا ؟

— لست أفهم ما تعنى ؟

— مستر « دالتون » ٠٠ ألا تتجه سياسة شركتك هذه الى جعل

الزواج فى منطقة واحدة من الحى الجنوبى ؟

— حسن ، انها تسير فى هذا الاتجاه ، ولكنى لست أنا الذى

أنشأه .

— مستر « دالتون » أنت تمنح الملايين لمساعدة الزواج ، فهل لى

أن أسألك لماذا لا تتقاضى ايجارا أقل وتستقطع الفرق من ميزانيتك

الخيرية ؟

— ان تحميلهم ايجارا أقل من ذلك سيكون عملا غير أخلاقى .

— غير أخلاقى ؟

• - نعم .. فسوف أغبن منافسى •

- هل هناك اذن اتفاق بين الملاك العقاريين على تحديد الأجر الذى يفرض على الزوج ؟

- لا ، ولكن يوجد عرف أخلاقى فى العمل •

- اذن فان الأرباح التى تتقاضاها من أفراد أسرة توماس ومن الايجارات ، تعود فتعطيهم اياها بعد ذلك مرة أخرى لتخفيف آلام حياتهم وحتى تتغلب على تأنيب ضميرك ؟

- هذا تشويه للحقيقة يا سيدى •

- مستر « دالتون » ، لماذا تهب نقودا لتعليم الزوج ؟

- أريد أن أراهم وقد نالوا فرصتهم •

- هل سبق لك أن وظفت زوجا من الذين ساعدتهم فى التعليم ؟

• - لا •

- مستر « دالتون » ، هل نطن أن الشروط المجحفة التى كانت تخضع لها أسرة « توماس » فى أثناء اقامتها فى أحد منازلك ، ربما يكون لها علاقة بطريقة ما بوفاة ابنتك •

- لست أفهم ما تعنيه •

فقال « ماكس » :

- هذا كل ما فى الأمر •

وبعد أن غادر المستر « دالتون » المنصة ، تقدم كل من « بيجر » و« برين » ثم حشد من الأطباء والصحفيين وعدد كبير من رجال الشرطة • ونادى المحقق :

- سوف نستمع الآن الى « بيجر توماس » ••

وعمت الحجرة موجة من الأصوات الثائرة ، وضغطت أصابع « بيجر » بقوة على ذراعى المقعد ، ونظر الى « ماكس » عندما أحس بيده تلمس كتفه • وهمس اليه « ماكس » قائلا :

- اجلس ساكنا •

ثم نهض « ماكس » وقال :

– سيدى المحقق .

– نعم ؟

– أريد أن أقرر طبقا لحق الدفاع وبصفتى محامى « بيجر توماس » ،

أن « بيجر » لا يرغب فى أداء الشهادة هنا .

وقال المحقق :

– ان شهادته ستساعد على توضيح أى شك فى سبب وفاة

القتيل .

– ان موكلى موجود حاليا فى معتقل الشرطة . ومن حقه أن

يرفض .

– حسن . حسن ، وهو كذلك .

وهمس « ماكس » « لبيجر » بعد أن جلس :

– ابقى فى مقعدك . فالأمر على ما يرام .

واسترخى « بيجر » وهو يحس بضربات قلبه المرتفعة ، وتمنى أن يحدث شئ يشغل تلك الوجوه البيضاء المحملقة فيه . وأخيرا تحولت الأبصار عنه ، وأوسع المحقق الخطى الى المنضدة ورفع خطاب الاختطاف بحركة بطيئة رقيقة متمهلة . ثم وجه حديثه الى الرجال الستة المصطفين على المقاعد قائلا :

– أيها السادة ، لقد سمعتم شهادة الشهود . وأعتقد فضلا على

ذلك أنه يجب أن تتاح لكم الفرصة لفحص الأدلة المقدمة من ادارة الشرطة .

وقدم المحقق خطاب الاختطاف لأحد المحلفين الذى قرأه ، ثم ناول الآخرين اياه وقام المحلفون جميعا بفحص كيس النقود والسكين الملوث بالدماء ونصل « اليلطة » الأسود والكتيبات الشيوعية وكذا زجاجة الروم والحقيبة والاعتراف الموقع من « بيجر » .

وقال المحقق :

– نظرا للطبيعة الخاصة لهذه الجريمة ، ونظرا لأن جثة القتيل قد

احترقت تماما ، فأننى أجد من المحتم أن « تفحصوا » دليلا اضافيا واحدا

سوف يساعد على القاء الضوء على الطريقة التى تمت بها وفاة القتيل .

ثم استندار وأوماً الى رجلين كانا يرتديان ثيابا بيضاء ويقفان بجوار الباب الخلفى . وكانت الغرفة هادئة ، وتساءل « بيجر » . الى متى سيستمر ذلك الأمر ؟ فقد شعر بأنه لم يعد يستطيع المقاومة أكثر من ذلك . وبين الحين والحين كانت الغرفة تذوب فى ناظريه حين ينتابه دوار خفيف ، ولكن عضلاته كانت تتوتر فتمر الأزمة . . . وارتفع دوى الأصوات فجأة وأخذ المحقق يطرق على المنضدة طالبا الهدوء . ثم هبت جلبة صاحبة وساد الهرج والمرج . وسمع « بيجر » صوتا يقول :

— افسحوا الطريق من فضلكم .

ونظر « بيجر » . . ورأى الرجلين اللذين يرتديان الملابس البيضاء يدفعان منضدة مستطيلة مغطاة بملاء وسط الزحام أسفل الممشى . . . وتساءل « بيجر » عما يكون فوق المنضدة . . ثم شعر بيد « ماكس » تستقر فوق كتفه :

— هون عليك ، سينتهى الأمر سريعا .

وسأله « بيجر » فى همس قلنى :

— ماذا يفعلون ؟

ولم يجب « ماكس » على الفور . . ثم قال بعد انتظار :

— لست أدري بالضبط .

ودفعت المنضدة المستطيلة الى مقدم الغرفة ، وتكلم المحقق بصوت بطيء عميق . . وفى لهجة مؤثرة :

— لقد قررت باعتبارى محققا مفوضا — وتحقيقا للعدالة — أن أقدم ضمن أدلة الاتهام الجثة المشوهة لـ « بيسى ميرز » ، وشهادة ضباط الشرطة والأطباء المتعلقة بسبب وطريقة وفاتها .

وضاع صوت المحقق وسط الضوضاء التى سادت الغرفة ، واضطر رجال الشرطة الى الدق بهراواتهم على الحوائط لمدة دقيقتين حتى يعيدوا الهدوء . وجلس « بيجر » ساكنا كالجماد . . على حين اندفع « ماكس » من خلفه وتوقف على بعد أقدام قليلة من المنضدة المغطاة بالملاء . . وقال :

— أيها السيد المحقق . . هذا أمر شائن . ان عرضك الفاضح لجنة

الفتاة القاتل ٠٠ لا يخدم أى غرض ٠٠ اللهم الا استفزاز مشاعر السوقه والغوغاء واثارتهم .

وقال المحقق فى صرخة مملوءة بمزيج من الغضب والحقد :

— ان ذلك سوف يمكن المحلفين من أن يقرروا على وجه التحديد كيف قتلت « مارى » . على يد نفس الرجل الذى قتل « بيسى ميرز » .
وصاح ماكس :

— ان اعتراف « بيجر توماس » يغطى كل الأدلة اللازمة للمحلفين .
وأنت تلجأ الآن اذن الى اثارة الهياج بطريقة آثمة .

— ان تقرير هذا متروك لهيئة المحلفين الموقرة ٠٠ وأنت لاتستطيع تعطيل هذه الاجراءات أكثر من هذا . واذا أنت أصرت على هذا الوضع فسوف تخرج من هذه الغرفة . ولتعلم أن القانون يمنحنى الحق كل الحق فى أن أقرر ما هو ضرورى من الأدلة .

واستدار «ماكس» فى ببطء وسار الى مقعده مكفهر الوجه منكس الرأس .

وكان « بيجر » محطما بأثسا . لقد نسى « بيسى » تماما فى أثناء التحقيق فى مقتل « مارى » وقد أدرك الآن حقيقة ما يجرى . ان تقديم جثة « بيسى » كدليل اثبات على أنه قتل « مارى » بنفس الطريقة ، سيجعله يبدو وحشا وسوف يثير عليه مزيدا من الحقد . ولم تكن وفاة « بيسى » قد أثرت خلال التحقيق ، ومن ثم فقد تولت الدهشة التامة جميع الوجوه البيضاء « الموجودة » داخل الغرفة . ولم يكن نسيانه « بيسى » راجعا الى قلة اكترائه بمصيرها ٠٠ ولكن وفاة « مارى » هى التى أصابته بأكبر قدر من الرعب ٠٠ لا لوفاتها فى حد ذاته ، وانما لما يعنيه ذلك بالنسبة له هو كزنجى . وهاهم أولاء الآن يحضرون جثة « بيسى » الى الغرفة لا لشيء الا ليجعلوا الرجال والنساء البيض يشعرون بأنه ليس هناك أفضل من التخلص السريع من حياته كى يعيدوا السلام والهدوء الى المدينة . فهم اذن يستغلون قتله « لبيسى » لاعدامه نظير قتله « لمارى » وذلك بالقائه تحت ضوء يجيز أى تصرف يتخذ للقضاء عليه .

وبالرغم من أنه قتل فتاة سوداء وأخرى بيضاء ، فانه كان يعلم تماما أن عقابه سيكون نظير مقتل الفتاة البيضاء . فالفتاة السوداء لم

تكن سوى مجرد دليل • وهو يدرك أن البيض لا يهتون حقيقة بمقتل « بيسى » ، فهم لا يتعقبون الزوج الذين يقتلون زوجا مثلهم • بل لقد سمع كثيرا أن البيض يفرحون عندما يقتل أحد الزوج زنجيا آخر ، فذلك يعنى نقصان زنجي من الذين يعادونهم • وليست هناك جريمة بالنسبة للزنجي الا اذا أذى البيض فى حياتهم أو ممتلكاتهم •

وبمرور الوقت لم يعد « بيجر » يستطيع المضى فى الانصات ومشاهدة ما يجرى فى الغرفة ؛ واستقرت عيناه بقلق على الشئ المستطيل الساكن « الموجود » بأسفل الملاءة فوق المنضدة •• وشعر لحظتها بعطف عميق تجاه « بيسى » •• عطف لم يشعر بمثله عندما كانت حية • وكان يدرك أن « بيسى » بالرغم من وفاتها •• وبالرغم من أنه هو قاتلها ، تستنكر استغلال جثتها بهذه الطريقة •

وتحركت فى صدره عوامل الغضب وهو يتذكر شعورا قديما كانت « بيسى » تصفه له مرارا عندما كانت تعود بعد الساعات الطويلة المرهقة من العمل فى مطابخ البيض شعورها بأنها ستظل الى الأبد خاضعة تماما للآخرين ، لدرجة تجعل من التفكير والاحساس بالذات أمرا مستحيلا • وهو أيضا •• لم يقتصر الأمر على كونه قد عاش حيث كانوا يلزمونه بأن يعيش ، ولا على أنه فعل ما كانوا يأمرونه بأن يفعل ، ولا على أنه قام بكل هذه الأشياء الى أن ارتكب جريمة القتل ليخلص نفسه منهم •• ولكنهم ما زالوا يتحكمون فيه حتى بعد الطاعة وبعد القتل •• فهو من أملاكهم قلبا وروحا • جسدا ودما •• يسيطرون على كل ذرة فيه •• حتى نومه وصحوه • ويتحكمون فى حياته ويملون شروط موته •

وأخذ المحقق يدق طلبا للهدوء ، ثم نهض واتجه الى المنضدة • وبحركة سريعة واحدة من ذراعه طوح بالملاءة من فوق جسد « بيسى » • وجفل « بيجر » بالرغم من منظر الجثة السوداء الملطخة بالدماء ورفع كلتا يديه الى عينيه • وفى ذات اللحظة بهره وميض آلات التصوير واستقرت عيناه على مؤخرة الغرفة • فقد شعر بأنه لو رأى « بيسى » مرة ثانية فسوف ينهض من فوق مقعده ويطوح بذراعيه فى محاولة لمحو هذه الغرفة وإبادة من فيها من الناس •• ومن ثم أعانه كل عصب فى جسده على أن يحملق دون أن يرى •• وعلى أن يجلس وسط الضوضاء دون أن يسمع •

وبدأ « بيجر » يشعر بألم حاد فى مقدم رأسه فوق عينيه مباشرة •

وكانت الدقائق تمر بطيئة متشاقلة ، على حين كان جسده يتصبب بالعرق البارد . واندفعت الدماء الى أذنيه وأحس بشفتيه جافتين يابستين ، وأراد أن يبللها بلسانه ولكنه لم يستطع ، فقد أصبح عاجزا عن أن يحرك عضلة واحدة من جسده نتيجة الجهد الذى بذله للاحتفاظ بوعيه بعد مرأى جسد « بيسى » وطنين الأصوات التى ملأت جو الغرفة . وظل جالسا . ساكنا كأنما أحيط بقالب من « الحرسانة » غير مرئى . على أنه لم يستطع الاستمرار فى « الصمود » فانحنى الى الأمام ودفن وجهه بين يديه . ثم سمع صوتا . كأنما يجيء من مكان بعيد . سينسحب المحلفون الآن الى الغرفة الأخرى .

ورفع « بيجر » رأسه ورأى الرجال الستة ينهضون ويخرجون من الباب الخلفى وكانت الملاء قد سحبت على جسد « بيسى » المسجى ولم يعد فى استطاعته أن يراها وازدادت الأصوات فى الغرفة ارتفاعا ودق المحقق المنضدة طلبا للنظام والهدوء ، وعاد المحلفون بعد برهة وجلسوا الى مقاعدهم . ثم أعطى أحدهم المحقق ورقة طويلة . .

ونفض المحقق ورفع يده طالبا الهدوء التام . ثم بدأ يقرأ سلسلة من الكلمات لم يفهم « بيجر » منها شيئا . ولكنه التقط بعض العبارات :

(. . . المذكورة . . . « مارى دالتون » وافتها المنية فى مخدعها بمنزلها الكائن فى طريق (دريكسيل) رقم ٤٦٠٥ . . . ماتت مختنقة نتيجة قوة غير عادية . . . عندما خنقها بيديه شخص ما . . « بيجر توماس » . . نحن المحلفين نعتقد أن الحادث المذكور هو جريمة قتل . . . نوصى بتقديم « بيجر توماس » الى المحاكمة أمام هيئة المحلفين الكبار متهما بالقتل الى أن يفرج عنه بالاجراء القانونى الواجب . . .)

واستمر الصوت . . ولكن « بيجر » لم يعد يسمع شيئا . ذلك اذن يعنى أنهم سيمضون به الى السجن ليبقى هناك حتى يحاكم وينفذ فيه حكم الاعدام ؟ . . وتوقف الصوت فى النهاية . . وامتلأت الغرفة بالطين . وسمع « بيجر » رجالا ونساء يمرون بالقرب منه . ونظر حوله كما يفعل رجل يستيقظ لتوه من نوم عميق ، وأمسك « ماكس » بذراعه :

— « بيجر » ؟

وأدار « بيجر » رأسه باستخفاف . .

— سوف أراك هذه الليلة ، انهم سيأخذونك الى سجن « كوك كاونتى » ، وسأحضر اليك هنا وأناقش معك بعض الأمور . وسوف نرى

ما يمكن أن نفعله . والآن اطمئن واحداً . . وحاول قدر ما تستطيع أن تنال قسطاً من النوم . . أسمعتنى ؟

وتركه « ماكس » ، ورأى « بيجر » اثنين من رجال الشرطة يسبحان جسد « بيسى » من خلال الباب . أما رجال الشرطة اللذين كانا يجلسان الى جانبيه فقد أمسكا بذراعيه وقيدا يديه الى أيديهما بالاضافة الى اثنين آخرين كانا يقفان أمامه ومثلهما خلفه .

— هيا يا ولد .

وسار رجالا الشرطة فى المقدمة يفسحان له طريقا وسط الزحام الكثيف . وكان كلما مر برجال أو نساء من البيض صاحوا فى وجهه وارتفعت أصواتهم عندما يبتعد عنهم قدر خطوات قليلة . وأخرجوه من الباب الخلفى الى الردهة . . وطن أنهم سوف يتوجهون به الى أعلى فتحرك فى اتجاه المصعد ، ولكنهم جذبوه الى الحلف بخشونة .

— من هذا الطريق .

وساروا به من الباب الأمامى الى الطريق . . وكانت أشعة الشمس الصفراء تغمر المبانى « والأرصعة » . . وكان على « الرصيف » حشد ضخم من الناس . وهبت ريح قوية ، ومن خلال الصراخ والصياح الحاد
التقط « بيجر » بعض الكلمات الجلية الواضحة . .

— دعوه لنا . .

— افعلوا به ما فعله بالفتاة . .

— دعونا نتولى أمره . .

— أحرقوا هذا القرد الأسود .

وأفسحوا له ممرا ضيقا بعرض « الرصيف » يقود الى سيارة فى الانتظار . وعلى مدى ما كان يمتد اليه بصره . . كان يرى رجالا من البيض يرتدون حللا زرقاء تلمع فوق صدورهم نجوم فضية لامعة . وحشروه باحكام فى المقعد الخلفى للسيارة بين رجلى الشرطة المقيد اليهما . وارتفع صوت « الموتور » . . وشاهد « بيجر » سيارة تندفع أمام سيارته وتنطلق فى الطريق تحت أشعة الشمس وهى تطلق صفاراتها العالية ثم تبعتها أخرى . . ثم أربع أخريات ، ثم انطلقت السيارة التى كانت تقله خلف تلك السيارات وفى نفس الاتجاه . . وسمع أصوات سيارات

تنطلق خلفه وهي تطلق صفاراتها الصارخة . وأخذ ينظر الى المباني التي كانت تبدو من النافذة الجانبية للعربة ، ولكنه لم يستطع التعرف على أى علامات مألوفة لديه . وعلى الجانبين . . كانت هناك وجوه بيضاء ترمقه بأفواه فاغرة . ومع ذلك فقد اكتشف سريعا أنهم كانوا يتجهون به جنوبا . وكانت صفارات الانذار تصرخ حادة حتى بدا له أنه يركب متن موجة صوتية . وانحرفت العربات الى شارع الولاية . . وبدأت المعالم تبدو مألوفة لديه فى الشارع الخامس والثلاثين . واستطاع أن يتعرف على منزله فى الشارع السابع والثلاثين . ترى ماذا تفعل أمه وشقيقه وشقيقته الآن ؟ وأين كان « جاك » و « ج . هـ » و « جس » ؟ . وكانت اطارات المطاط تهدر فوق « الأسفلت » المهد . . وكان هناك رجل شرطة عند كل « ناصية » يوجه السيارات . . ترى الى أين يأخذونه ؟ ربما كانوا فى طريقهم الى سجن من سجون الحى الجنوبى ؟ وربما كانوا فى طريقهم به الى مركز شرطة « هايد بارك » . وعندما وصلوا الى الشارع السابع والأربعين انعطفوا نحو الشرق فى اتجاه طريق « كوتيج جروف » ، ثم وصلوا الى طريق « دريكسيل » وعرجوا به ثانية فى اتجاه الشمال . وتصلب « بيجر » واتكأ الى الأمام . ان « مستر دالتون » يقيم فى هذا الشارع . ترى ماذا سيفعلون به ؟ . . وأبطأت السيارات من سرعتها ثم وقفت أمام بوابة منزل « دالتون » مباشرة . لماذا أحضروه الى هنا ؟ ونظر الى المنزل الكبير المبنى بالآجر المكشوف الغارق فى أشعة الشمس . . . الساكن الهادئ . ونظر الى وجهى رجلى الشرطة اللذين كانا يجلسان الى جانبيه ورآهما يحملقان أمامهما فى هدوء . وتطلع من النافذة . . وعلى « الأرصفة » ، أمامه وخلفه ، كانت هناك صفوف طويلة من رجال الشرطة شاهرين بنادقهم على حين كانت الوجوه البيضاء تملأ جميع نوافذ المساكن حواليه والناس يتدفقون من الأبواب ويعدون فى اتجاه منزل « دالتون » .

وتقدم رجل شرطة على صدره نجمة ذهبية الى باب السيارة وفتحها ورمقه بنظرة سريعة ثم استدار الى رجلى الشرطة وقال :

— حسن يا فتيان . . أخرجوه .

واقتراده الجميع الى حافة الطريق . . وكانت هناك كتلة متراسة من الزحام تقف على « الأرصفة » والشوارع والأرض المكسوة بالحشائش . وخلف صفوف رجال الشرطة سمع فتى أبيض يصرخ :

— هذا هو الزنجى الذى قتل « مارى » .

واقتراده من خلال البوابة ثم عبر الممشى ، وعلى درجات السلم .

ووقف هنيهة يواجه « الطابق » الأول لمنزل دالتون عند نفس الباب الذى وقف أمامه فى أقصى حالات الذلة منذ أقل من أسبوع مضى وهو يمسك بيده قبعته . وفتح الباب ، ثم اقتادوه عبر « الصالة » الى الدرج الخلفى ثم الى أعلى حتى « الطابق » الثانى . ثم الى غرفة « مارى » . وكان يبدو أنه عاجز عن أن يتنفس . ترى لماذا أحضروه الى هنا ؟ . وغمر العرق جسده مرة أخرى . الى متى يستطيع أن يقف هكذا دون أن ينهار ؟

واقتادوه الى داخل الغرفة . وكانت تزدهم رجال الشرطة المسلحين ورجال الصحافة المستعدين بآلات التصوير . ونظر حوله ، وكانت الغرفة هى هى . تماما كما رآها فى تلك الليلة . كان هناك المخدع الذى أخذ فوقه أنفاس « مارى » ، والساعة بمينائها المتوهج فى مكانها فوق « التسريحة » الصغيرة . ونفس الستائر رآها فوق النوافذ . « والسواتر » كانت لا تزال مرفوعة كما كانت فى تلك الليلة عندما وقف بالقرب منها ورأى المسز « دالتون » تتلمس طريقها ببطء فى الغرفة الزرقاء المظلمة ويدأها مرفوعتان أمامها . . . وأحس بنظرات الرجال المستقرة عليه ، وتصلب جسده واستشاط خجلا وغضبا . وتقدم اليه الرجل ذو النجمة الذهبية فوق صدره وتكلم بصوت ناعم منخفض :

– والآن يا « بيجر » . كن ولدا طيبا . هدىء روعك . نحن نريد منك فحسب أن ترينا ما حدث فى تلك الليلة . أفهمت ؟ لا تلق بالا الى الصور التى يلتقطونها لك ، واستمر فحسب فى تأدية الحركات التى أتيتها فى تلك الليلة .

وحملق « بيجر » . وتصلب جسده كله . وقال الرجل :

– هيا . لن يؤذيك أحد . لا تخف .

وكان الغضب يحرق وجه « بيجر » .

– هيا . أرنا ما فعلت .

ووقف بلا حراك ، فأمسك الرجل بذراعه وحاول أن يقوده نحو المخدع فارتدى الى الخلف وعضلاته مشدودة وأحس . . . كما لو كانت هناك نار تحرق حلقه واصطكت أسنانه بقوة حتى أنه لم يستطيع الكلام عندما حاول أن يتكلم ، واستند بظهره الى الحائط وأرخى بصره فى خنوع .

— ماذا بك يا ولد ؟

وانفرجت شفطنا « بيجر » عن أسنانه البيضاء ، واختلج جفناه . . . وظل وميض آلات التصوير يضيء الغرفة . . . وأدرك لحظتها أنهم التقطوا صورته وظهره الى الحائط وأسنانه مكشوفة .

— أخائف أنت يا ولد ؟ . . . ولكنك لم تكن خائفا في تلك الليلة التي كنت فيها هنا مع الفتاة . . . أليس كذلك ؟

وأراد « بيجر » أن يملأ صدره بالهواء ليصرخ ويقول : « بلى . . . لقد كنت خائفا » . . . ولكن من ذا الذي سيصدق ؟ . . . لسوف يمضي الى حتفه دون أية محاولة لوصف ما كان يحس به في تلك الليلة . . . وعندما تحدث الرجل مرة ثانية كانت لهجته قد تغيرت .

— هيا يا ولد . . . لقد عاملناك برقة متناهية ، ولكننا نستطيع أن نكون قساة ان الأمر استدعى ذلك . . . أفهمت ؟ ان الأمر يرجع اليك . . . اصعد فوق هذا المخدع وأرنا كيف قتلت تلك الفتاة . . . وقال « بيجر » من خلال شفقتين متيبستين :

— لا أريد ذلك .

— يجب أن تفعل . . . florist

— لن أفعل . . .

— حسن . . . سوف نجبرك على ذلك .

— انك لا تستطيع أن تجبرني على شيء . . . الا الموت .

وعندما نطق بهذه العبارة ، ود لو أنهم أطلقوا عليه الرصاص حتى يتخلص منهم الى الأبد . . . وتقدم رجل آخر أبيض على صدره نجمة ذهبية وقال :

— لا داعي لذلك ، لقد جمعنا ما يلزمنا بخصوص القضية .

— هل تظن ذلك ؟

— بالتأكيد . . . ما الفائدة ؟

— حسن . . . هيا يا فتيان ، خذوه الى السيارة .

ووضعوا القيود الحديدية حول رصغيه واقتادوه الى أسفل . . . واستطاع أن يسمع هدير الأصوات من بعيد حتى قبل أن يفتح الباب الأمامي وعلى

حدى ما كان يستطيع أن يمد اليه البصر من خلال الزجاج على طول الطريق ، كان هناك رجال بيض يقفون فى الريح الباردة وتحت أشعة الشمس . واقتادوه من خلال الباب ، وازداد الهدير ارتفاعا حتى أصبح يصم الأذان عندما ظهر لهم . واستمر الهدير وهو يرتفع أكثر وأكثر مع كل لحظة تمر . وكان رجال الشرطة يحيطون به . فحملوه - أو كادوا - من خلال البوابة وعبروا الممر الضيق بين الكتل البشرية المترصدة نحو السيارة التى كانت فى الانتظار . . .

- أيها القرد الأسود .

- اقتلوا هذا اللقيط .

وشعر ببصقة دافئة تلتصق وجهه وحاول أحدهم أن يثب اليه ولكن رجال الشرطة دفعوه الى الخلف بعيدا عنه . وتعثر « بيجر » . . . وجذب انتباهه شيء مرتفع متوهج . وتطلع ببصره الى أعلى . . . وعلى قمة مبنى عبر الطريق ، ومن فوق رعوس الناس ، ظهر صليب مشتعل . وأدرك على الفور أنه هو المعنى بذلك . ولكن لماذا يحرقون صليباً ؟ وعاد يحملق فيه . . . فتذكر على الفور ذلك الوجه المكدود المبلل بالعرق للقس الزنجى وهو يتكلم داخل « زنزانته » فى هذا الصباح . . . تذكره وهو يتحدث بحرارة وهيبة عن المسيح وعن ضرورة احتفاظه معه بصليب . . . صليب لكل شخص . تذكر كيف حمل المسيح المتواضع الصليب ممهدا الطريق عارضا كيف يكون الموت . . . والحب . . . والحياة الأبدية . ولكنه لم يسبق له أن رأى صليباً يحترق بهذه الصورة على سطح أحد المنازل . هل يريد منه البيض أيضا أن يحب المسيح ؟ . . . وسمع صوت الريح تؤجج ألهب . . . كلا . . . ليس هذا صوابا أبدا . . . لا ينبغي لهم أن يحرقوا الصليب ! ووقف أمام السيارة ينتظر أن يدفعوا به الى الداخل وقد اتسعت عيناه من الدهشة . وتبلورت خواطره وهو يحاول أن يتذكر شيئا ما . . .

- انه ينظر اليه .

- انه يراه جيدا .

ولم تكن الوجوه والعيون المحيطة به بالصورة التى وصفها له القس الزنجى عندما كان يصلى ويبتهل وهو يتحدث عن المسيح والحب الذى ينادى به . . . والصليب الذى تحدث عنه القس كان ملطخا بالدماء ولم يكن مشتعلا بالنيران ، كان وديعا ولم يكن عدوانيا . . . لقد جعله

يشعر بالهية والعجب ولم يجعله يشعر بالخوف والهلح ... جعله يريد أن يركع ويبكى . ولكن هذا الصليب يدفعه الى أن يسب ويلعن ... لحظتها تنبه الى الصليب الذى علقه القس حول عنقه ، وتحسسه وهو مستقر على صدره .. ثم انتبه مرة أخرى الى الصليب المائل الذى تتأجج ناره عاليا فوق السطح فى مواجهة السماء الزرقاء الباردة وألسنة نيرانه المندلعة تزيدها الريح هياجا وفجيجا .

- احرقوه ..

- اقتلوه ..

وألمحه خاطر مفزع .. نعم .. هذا ليس صليب المسيح ، ولكنه صليب ال « كو كلوكس كلان » . ان هناك صليبا للخلاص حول عنقه ولكنهم الآن يحرقون صليبا آخر ليعبروا له عن كراهيتهم له . لا .. انه لا يريد . هل خدعه القس ؟ وأحس بأنه قد خدع ، وأراد أن ينزع الصليب من حول عنقه ويلقيه بعيدا . ورفعوه الى داخل السيارة المنتظرة وجلس بين اثنين من رجال الشرطة وهو ينظر فى هلع الى الصليب المشتعل . ثم صرخت « الأبواق » .. وتحركت السيارات ببطء خلال الطرقات المزدحمة .. وكان لا يزال يحس بالصليب الذى يلامس صدره وكأنما هو سكين مسدد الى هذا الصدر وآلمته أصابعه وهو يحاول أن ينزعه . انه نحس .. وسوء طالع . وتتابعت السيارات صارخة واحدة فى اثر الأخرى فى شارع الولاية ثم غربا الى الشارع السادس والعشرين وتوقفت السيارات أمام مبنى ضخيم ، وصعدوا به بضع درجات ثم اقتادوه عبر عدة دهاليز .. ثم توقفوا به أمام باب « زنزانة » دفعوه الى داخلها ثم فكوا أغلاله وأغلقوا عليه الباب .. وانصرف الرجال فى مهل وهم ينظرون اليه بفصول .

وجذب نفسا عميقا وهو يمزق قميصه غير مبال بمن يراه ، ثم أمسك بالصليب وجذبه من عنقه وألقى به بعيدا وهو يسب سبابا أقرب الى الصراخ .

- أنا لا أريده .. لا أريده .

- ونظر اليه الرجال بذهول .

- لا تقذف به يا ولد .. انه صليبك .

- يمكننى أن أموت بدون .

- الله وحده يستطيع أن يساعدك الآن يا ولد .. ومن الأفضل لك أن تطهر روحك .

- أنا لا أملك روحاً .

وقام أحد الرجال بالتقاط الصليب وعاد به اليه .

- خذ يا ولد .. احتفظ به ..

- لا يهمنى .

وقال أحد الرجال :

- دعوه وشأنه .

وانصرفوا وقد تركوا الصليب يسقط داخل باب « الزنزانة » فعاد يلتقطه ويلقى به بعيداً . ثم اتكأ في ضعف الى القضبان . ما الذي يحاولون أن يفعلوه به ؟ ورفع رأسه وهو يسمع وقع أقدام ، وشاهد رجلاً أبيض يتقدم نحوه وخلفه رجل أسود .. وشد قامته - انه هو نفسه القس الزنجي العجوز الذي صلى من أجله هذا الصباح . وفتح الرجل الأبيض الباب . وصاح « بيجر » :

- أنا لا أريدك .

وقال القس مؤنباً :

- يا ولدى .

- أنا لا أريدك .

- ماذا بك يا ولدى ؟

- خذ مسيحك وارحل عني .

- يا ولدى . انت لا تدرك ما تقول . دعني أصل من أجلك .

- صل لنفسك .

وأمسك الحارس الأبيض القس من ذراعه وأشار الى الصليب الملقى فوق الارض ثم قال :

- انظر أيها المحترم .. لقد ألقى بصليبه على الأرض .

ونظر القس الى الصليب .. ثم قال :

— يا ولدى .. لاتبصق ..

فقال « بيجر » :

— وسوف أبصق فى وجهك اذا لم تدعنى وحدى .

فقال الحارس وهو يرسم بيده علامة الصليب على صدره :

— لقد كان الشيوعيون يتحدثون اليه

وصاح « بيجر » :

— هذه كذبة لعينة .

وتصلب جسده على حين كانت الكلمات الغاضبة تنساب من فمه
بعصبية وهستيرية ، ثم أردف يقول :

قلت لك اننى لا أريدك ، واذا حضرت هنا فسوف أقتلك .. دعنى
وحدى .

وانحنى القس العجوز الأسود فى هدوء ليلتقط الصليب على حين
أولج الحارس المفتاح فى القفل ودفع الباب للداخل .. وقفز « بيجر »
نحو الباب وأمسك بالقضبان الحديدية .. ثم دفع الباب الى الأمام وهو
يغلقه بعنف فارتطم بوجه القس العجوز الأسود وألقاه مترنحا الى الخلف
وارتطم بالحائط « الحرسانى » . وترددت أصداء فرقة الحديد فى أرجاء
الدھليز الساكن الطويل .. ثم « تلاشت » شيئا فشيئا .

وقال الحارس :

— من الأفضل أن تتركه الآن وشأنه .. انه يبدو هائجا للغاية ..

ونهض القس فى ببطء وجمع قبعته والكتاب المقدس والصليب من
فوق الأرض :

ووقف لحظة ويده تعالج وجهه « المروض » .

— حسن يا ولدى .. سأتركك لربك .

وتنهذ بحسرة وهو يلقي بالصليب داخل « الزنزانة » ثم سار مبتعدا
يتبعه الحارس . وأصبح « بيجر » وحده .. وكانت عواطفه قد بلغت قمة
التوتر فلم يعد يرى أو يسمع شيئا . وأخيرا استرخى جسده الناثر
المكدود . ولكنه حين رأى الصليب ، التقطه وأمسك به لحظات بين أصابع
متيبسة ، ثم طوح به مرة ثانية من خلال قضبان الزنزانة فارتطم بالحائط
محدثا فرقة موحشة .

لم يعد يرغب فى أن يستشعر شيئا كالأمل . فقد كان هذا هو خطؤه . . لقد سمح للواعظ بأن يتحدث اليه حتى نفذ الى مكان ما بداخله . . بدأ يشعر منه بأن شيئا ما قد يحدث . . حسن لقد حدث شيء ما بالفعل : لقد احترق الصليب المعلق حول عنق الواعظ ، أمام عينيه .

ونفض من على الأرض بعد أن زایلته « هستيريته » . ورأى بعينه القائمتين عيون الآخرين تتفحصه من وراء قضبان الزنانات الأخرى وسمع أصداء همهمات خافتة . وفى نفس اللحظة أدرك الحقيقة بوجوده . . وبلا مراة - مثلما يخرج الانسان من بيته فى طريقه الى عمله فيلاحظ أن الشمس مشرقة - انهم حتى هنا فى سجن « كوك كاونتى » يعزلون البيض عن الزوج فى « زنانات مستقلة »

واستلقى فوق مخدعه مغمض العينين وقد أراحه الظلام بعض الشيء وبين الحين والآخر كانت عضلاته تتقلص كلما تذكر العاصفة النفسية القاسية التى اجتاحتها وحظتها عقد العزم على ألا يعود فيثق بمخلوق . . حتى « جان » و « ماكس » . ربما كانوا جميعا على حق : ولكن ينبغي أن يصدر من داخله هو فحسب كل ما سيراه أو يفعله بعد الآن . . نعم ، من داخله وحده والا فانه لن يفعل شيئا . انه لم يعد بحاجة الى مزيد من الصلبان تتحول الى قطعة من اللهب وهى لم تنزل بعد فوق صدره .

وبدأت أحاسيسه المتهبة تهدأ تدريجا . . وفتح عينيه عندما سمع نغرا خفيفا على الحائط المجاور . . ثم همسة حادة .

- اسمع أيها القادم الجديد .

وجلس متنبها . . ترى ماذا يريدون ؟

- ألسنت أنت ممن أحضروه الى هنا فى قضية دالتون ؟

وتقلصت قبضته . . وعاد يسترخى على ظهره . لم يكن يريد أن يتحدث الى أحد فهو لاء ليسوا على شاكلته ولم يوضعوا فى هذا المكان لمثل جريمته . . انه لا يريد أن يتحدث الى البيض لأنهم بيض ، ولا يريد أن يتحدث الى الزوج لاحساسه بالخجل . أما من هم على شاكلته فلسوف يكونون ولا شك فضولين معه .

وظل مسترخيا فترة طويلة وهو خالى الذهن حتى سمع صوت الباب يفتح . . فجلس على حين وضع الرجل الأبيض صفحة طعام فوق الفراش وقال :

— لقد أرسل المحامى هذا اليك • لقد وكلت محاميا ممتازا ياولد :
وسأله « بيجر » :

— اسمع : هل أستطيع الحصول على جريدة ؟
وقال الرجل الأبيض وهو يهرش رأسه :

— لا بأس •• نعم ، بكل تأكيد • هاك جريدتى • لقد انتهيت من قراءتها • آه ، اسمع ، لقد أحضر لك محاميك بعض الملابس وطلب منى أن أخبرك بذلك • ولم ينصت « بيجر » الى ماكان يقول ، لقد تجاهل حتى الطعام أمامه وبسط الجريدة ثم انتظر برهة حتى يغلق الباب • وعندما سمع صريره انحنى ليقراً •• ثم توقف برهة أخرى يعجب لأمر الرجل الذى غادره توا وكيف كان ودودا فى معاملته وكيف أنه لم يستشعر منه الخوف ولو للحظة •• انه شىء لم يستطع له تفسيراً •

وعاد يرفع الجريدة ويقربها من عينيه ليقراً :

« القاتل الزنجى يوقع اعترافاته بجريمتى قتل • القاتل يجفل عندما يواجهونه بجثة الفتاة المذبوحة • المحاكمة تبدأ غدا • الحمر يتولون الدفاع عن القاتل • احتمال تقديم أسانيد براءة » •

ثم جرت عيناه فوق الصفحة بحثا عن ثقب ينفذ منه الى ما يمكن أن يحدد مصيره ••• : « ••••• سينال الجاني ولاشك أقصى العقوبة عن جرائمه •• فلا شك فى أنه ارتكب الجريمتين ••• الشك فحسب فى عدد الجرائم الأخرى التى ارتكبتها ••• هجوم على القاتل فى أثناء التحقيق •• »

« قال المستر ديفيد • أ • بكلى : •• مدعى الولاية معلقا على دفاع الشيوخيين عن المعتصب القاتل الزنجى : •• ماذا تنتظرون من عصاة كهذه غير ذلك ؟ من رأى أنه ينبغى القضاء عليهم تماما ••• شكلا وموضوعا ، واننى مقتنع بأننا لو تغلغلنا الى أعماق النشاط الأحمر فى هذا البلد لتوصلنا الى جذور عديد من الجرائم التى لم تحل الغازها بعد • »

« وعندما سئل عن مدى تأثير محاكمة توماس فى انتخابات ابريل القادم التى هو مرشح فيها •• وعن مدى تأثيرها فى نجاحه • انتزع المستر بكلى قرنفلته الحمراء من عروة « سترته » الصباحية • وصرف الصحفيين بضحكة عالية »

ورنت فجأة صرخة طويلة فألقى « بيجر » بالجريدة وقفز واقفا على قدميه ثم هرع الى الباب ذى القضبان الحديدية يستطلع الأمر ، فرأى

سنة من البيض وهم يصارعون زنجيا داكن اللون عبر الدهليز .. كانوا يجرّونه من قدميه فوق الأرض ثم توقفوا تماما أمام باب « الزنزانة » التي فتحت فجأة أيضا على مصراعيها على حين عاد « بيجر » الى الخلف واستلقى فوق فراشه وقد غفرافه من الدهشة . وكان الرجل يدور ويتلوى وهو يجاهد يائسا لتخليص نفسه من قبضة الرجال البيض . وظل يصرخ ..

– فكوا قيودي .. : .. دعوني ..

وحمله الرجال الى حيث ألقوا به داخل « الزنزانة » أوصدوا الباب وانصرفوا .. وظل الرجل برهة ملقى على الأرض ثم هب واقفا واندفع الى الباب وهو يصرخ :

– اعيدوا الى أوراقى .

ورأى « بيجر » عيني الرجل تقدحان شررا والزبد يعلو جانبي شفثيه على حين كان وجهه الأسود يلمع بالعرق . وعندما تشبث بالقضبان فى جنون كان جسده يهتز وهو يتابع الصراخ .. كان يبدو معذبا .. وعجب « بيجر » : لماذا لا يعطيه هؤلاء الرجال متعلقاته ؟؟ .. وبالعاطفة ؟ انضم اليه « بيجر » .

– لا يمكن أن تأخذوها !

وتقدم « بيجر » نحوه ووضع يده فوق كتفه وسأله :

– قل لى .. ما هذا الذى أخذوه منك ؟

ولكن الرجل تجاهله واستمر يصرخ .

– سأرفع الأمر الى الرئيس .. أتسمعون ؟ .. اما أن تردوا الى أوراقى أو تخرجونى من هنا أيها البيض الغشاشون ، تريدون أن تقضوا على أدلة براءتي .. لكنكم لن تستطيعوا أبدا أن تستتروا على جرائمكم .. لسوف أنشرها على الملأ !

أنا أعرف لماذا تضعوننى داخل السجن : لقد أمركم الأستاذ بأن تفعلوا هذا ! ولكنه أبدا لن يفلت بها ..

وظل « بيجر » يرقبه مأخوذا خائفا وقد انتابه احساس بأن الرجل قد اضطرت انفعالاته لما أخذوه منه أيا كان هذا الشيء .. ومع ذلك فقد

كانت انفعالات الرجل تبدو حقيقة أثرت فيه وانتزعت شففته عليه وعاد الرجل يصرخ .

— تعالوا .. أعيدوا الى أوراقى والا أبلغت الرئيس وتسببت فى فصلكم من أعمالكم .. ! وتساءل بيجر .. ما هى ياترى طبيعة تلك الأوراق التى اغتصبوها منه ؟ .. ومن هو الرئيس الذى يستصرخه الرجل ؟ .. ومن هو الأستاذ الذى يشير اليه ؟ .. وسمع «بيجر» صوتا من الزنزانة المجاورة يعلو على صرخات الرجل ..

اسمع أيها القادم الجديد ..

وتجنب «بيجر» الرجل المحنق واتجه ناحية الباب وسمع رجلا أبيض يقول :

انه رجل معتوه .. دعهم يخرجوه من « زنزانتك والا فسيفقتلك لقد فقد عقله لكثرة استذكاره فى الجامعة .. كان يؤلف كتابا عن حياة الملوين ويقول ان بعضهم سرق كل البراهين التى جمعها : ويقول انه توصل الى الحقيقة سر معاملة البيض للملونين بقسوة وانه سوف يطلع رئيس الجمهورية على كل شيء ليغير الأوضاع .. هل فهمت ! .. انه معتوه .. انه يقسم بأن أستاذة فى الجامعة هو الذى تسبب فى اعتقاله .. لقد قبضت عليه الشرطة صباح اليوم وهو بملابسه الداخلية وكان داخل بهو مبنى البريد ينتظر مكالمة من رئيس الجمهورية .. !!

وجرى « بيجر » الى فراشه وقد « تلاشى » خوفه من الموت وتلاشت كراهيته وخجله أمام رعبه الذى انتابه من ذلك المجنون . ماذا لو أنه انقض عليه فجأة ؟

.. كان الرجل لا يزال ممسكا بالقضبان الحديدية وهو يصرخ . وكان فى حجم « بيجر » تقريبا .. وانتاب « بيجر » احساس غريب بأن اجتهاده يقوم حدا فاصلا تتوازن فوقه مشاعره وبأن جنون ذلك القادم الجديد سوف يبتلعه فى دوامته الملتهبة .

والقى « بيجر » بنفسه على فراشه وقد عقد يديه فوق رأسه والقلق الغامض يمزقه كلما استمع الى صراخ الرجل .. وقد عجز عن أن يهرب من ذلك الصراخ .. وتابع الرجل صراخه :

— انتم تخشوننى .. وهذا هو السر فى وضعى هنا : ولكننى سأخبر الرئيس على أى حال : سأقول له كيف انكم تكذبوننا فى الحى

الجنوبى حتى ليصاب منا بالجنون واحد من كل عشرة .. سأقول له كيف انكم تدفعون بالطعام العفن الفاسد الى الحى الجنوبى وتبيعونه بأكثر مما تفعلون فى مكان آخر ، سأقول له انكم تتقاضون منا الضرائب ولكنكم لا تبون لنا المستشفيات ، سأقول له اننا آخر من يؤجر حقه وأول من يحرق ! .. سأقول ذلك كله للرئيس ولعصبة الأمم ..

وبدأ الرجال داخل « الزنانات » الأخرى يهدرون ..

- اخرس أيها المعتوه ...

- أخرجوه ..

- ألقوا به الى الخارج .

- عليك اللعنة .

- وصاح الرجل .

- لن تخيفونى .. أنا أعرفكم ، .. لقد وضعوكم هنا لمراقبتى !

وارتفع صبحيج صاخب . ولكن سرعان ما أقيلت حفنة من الرجال وهم يرتدون ملابس بيضاء ويحملون بينهم محفة .. ثم فتحو باب « الزنانة » واختطفوا الرجل المحنق الهادر وألبسوه قميصا ثم ألقوا به فوق المحفة التى حملوها وساروا بها بعيدا ...

واعتدل « بيجر » فى جلسته وهو يحملق أمامه فى يأس . وسمع أصواتا تنتقل من « زنانة » الى أخرى .

- ترى ماذا أخذوا منه ؟

- لاشئ .. انه مجرد مجنون !

وأخيرا هدأ كل شئ .. ولأول مرة منذ اعتقاله أحس « بيجر » بحاجته الى انسان يكون قريبا منه .. الى شئ ملموس يتعلق به .. ولهذا أحس بالسعادة عندما فتح الباب وأطل منه الحارس .

- هيا يافتى .. محاميك هنا .

واقترع مقيد اليدين عبر « الصالة » الى غرفة صغيرة كان « ماكس » يقف بداخلها .. ثم أطلقوا يديه من القيود الحديدية التى كانت تكبل رسغيه .. ودفعوا به الى داخل الغرفة .. وسمع صوت الباب يغلق خلفه .

— اجلس يا « بيجر » ... خبرنى بماذا تشعر الآن ؟

وجلس « بيجر » على حافة المقعد ولم يجب . كانت الغرفة صغيرة يتدلى من سقفها مصباح « كهربائى » أصفر الضوء وفى أحد جدرانها نافذة تكسوها القضبان الحديدية . كان كل ما حول الاثنين داخل الحجره يطبق عليه سكون عميق . وجلس « ماكس » قبالة « بيجر » الذى أرمى بصره عندما التقت عيناه بعينيه . وأحس « بيجر » بأنه يجلس كما لو كان ممسكا بحياته بين يديه ينتظر أن يخبره « ماكس » عما يمكن أن يفعله بها ، وكره نفسه . . . واستبدت به رغبة آلية فى التوقف عن الحياة وانها وجوده . . . انه لا يعرف اذا كان هو الضعيف . . . بالغ الضعف ، أو أن العالم هو القوى . . . بالغ القوة . . . لقد حاول مرة تلو مرة أن يخلق لنفسه عالما يعيش فيه ؛ ولكنه كان يفشل فى كل مرة : والآن ، . . . ومرة أخرى هاهو ذا ينتظر أن يخبره أحد بشئ ما . . . ومرة أخرى أصبح على شفا محاكمته ليودع السجن . . .

وما الذى يستطيع « ماكس » أن يفعله من أجله الآن ؟ . . . وحتى لو حاول « ماكس » وجهاد بقوة وباخلاص ، أليس هناك آلاف من الأيادى البيض التى ستوقفه ؟ . . . لماذا لا يطلب منه أن يعود الى بيته ؟

وارتعشت شفتاه ليتكلم ليطلب من « ماكس » الانسحاب ، ولكن الكلمات لم تخرج . . . فقد أحس بأنه اذا تكلم بهذه الطريقة فسوف يكشف عن اليأس الذى يحس به وسيعرض نفسه بذلك لمزيد من المهانة .

وقال ماكس :

— لقد ابتعت بعض الملابس من أجلك ، وعندما يعطونك اياها فى الصباح يجب أن ترتديها فعليك أن تبدو فى أحسن مظهر عندما تمثل أمام الاتهام .

وكان « بيجر » صامتا . . .

ورمقه بنظره . . . ثم ابتعد . . .

— ما الذى يشغل بالك يا « بيجر » ؟

وهمهم بيجر قائلا :

— لا شئ . . .

— حسن . . . انصت الى اذن . . . أريد منك أن تحدثنى عن نفسك . . .

وقال «بيجر» فى طيش :

— مستر «ماكس» .. لا فائدة من وراء كل ما تفعله ..

ورمقه «ماكس» بنظرة حادة :

— هل تفكر حقا بهذه الطريقة يا «بيجر» ؟

— ليست هناك طريقة أخرى أفكر بها يا مستر «ماكس» ..

— أريد أن أقول لك باخلاص .. اننى لا أرى طريقا للخلاص مما أنت

فيه عدا تخفيف الحكم . ويمكننا أن نطلب استعمال الرأفة .. فيحكموا عليك بالسجن مدى الحياة .

— اننى أفضل الموت .

— هراء .. انك تريد أن تعيش .

— ومن أجل أى شىء أعيش ؟

— ألا تريد أن تناضل فى سبيل ماتؤمن به ؟

— وماذا بوسعى أن أفعل ؟ .. لقد نالونى وانتهى الأمر .

— ينبغى ألا تتكلم بهذه الطريقة يا بيجر :

— لست أهتم الآن بالطريقة التى أموت بها .

— اسمع يا ولدى .. أنت الآن تجابه بحرا من الكراهية . وهذا

لا يختلف كثيرا عما سبق أن جابهته طوال حياتك . ومن أجل هذا يجب

أن تناضل . انهم ان تمكنوا من القضاء عليك فسوف يتمكنون أيضا من

القضاء على آخرين غيرك وهمهم «بيجر» وهو يضع يديه فوق ركبتيه

ويحملق فى «الأرضية» السوداء ..

— نعم .. ولكنى لا أستطيع أن انتصر .

— قبل كل شىء يا بيجر .. هل أنت تثق بى ؟

وازداد غضب بيجر ، وقال وهو ينظر مباشرة فى عيني ماكس :

— أنت لا تستطيع أن تساعدنى يا مستر ماكس .

وعاد «ماكس» يسأله :

— ولكن .. هل تثق بى يا بيجر ؟

ونظر «بيجر» بعيدا .. وأحس بأن ماكس يصعب عليه الأمور ..

ولم يعد يستطيع أن يطلب منه الانسحاب .

- لست أدري يا مستر ماكس .

وقال ماكس :

- بيجر : أنا أعرف أن وجهي أبيض وأن كل الوجوه البيضاء التي قابلتها في حياتك تعنى في الغالب نفس الشيء بالنسبة اليك حتى ولو لم تكن تعرف هذه الوجوه جميعا . فكل رجل أبيض يرى أن من واجبه أن يقيم حاجزا بينه وبين الرجل الأسود . انه لا يعرف في أغلب الأحيان لماذا يفعل هذا ، ولكنه يتصرف بهذه الطريقة على أي الأحوال . هذا هو ما جرت عليه الأمور يا «بيجر» ، ولكنني - أريد منك أن تدرك أنه يمكنك أن توليني ثقتك .

- لافائدة ترجى الآن يا مستر ماكس .

- هل تمنع في أن أتولى قضيتك ؟

- انك لن تستطيع مساعدتي . لقد ضيقوا على الخناق .

وأدرك «بيجر» أن «ماكس» يحاول أن يجعله يشعر بأنه يتفق معه في نظرته الى الأمور ، وقد جعله ذلك يحس بنفسه الاحساس الذي انتابه عندما صافحه «جان» الى جوار السيارة في تلك الليلة . ويعيش مرة ثانية ذلك الاحساس المؤلم القاسي . ويشعر بنفس المهانة والخوف اللذين انتهيا بانتهاء تلك الفترة . وجعله ذلك في الوقت ذاته يكره نفسه لأن هذا الشعور تولاه : لقد وثق بماكس ، ولكن . . . ألا يأخذ «ماكس» على عاتقه مهمة ستلحق به كراهية البيض الآخرين ؟ بل انه ليشك في أن باستطاعة «ماكس» أن يجعله ينظر الى الأمور بطريقة تمكنه من تقبل مصيره المحتوم . انه ليشك في أن المولى نفسه يستطيع أن يهب له هذه القدرة . . . فلسوف يقودونه الى الكرسي «الكهربائي» كما سبق أن جروه فوق الدرج في الليلة التي ألقوا فيها القبض عليه . انه لا يريد أن يعذب أحد بمشاعره ويخشى أن يقع في فخ آخر . وحتى لو أنه عبر عن ثقته وإيمانه بماكس . . . وتصرف على ضوء من هذه الثقة وهذا الايمان ، أفلم ينتهي الأمر تماما كنهاية جميع الجرائم الأخرى ؟ . . . انه يتوق الى الايمان بما يقوله «ماكس» . ولكنه كان خائفا . . . انه يحس بأنه سيلتقي بماكس في منتصف الطريق ، ولكنه - وكما يحدث دائما عندما يتحدث اليه رجل أبيض - سوف يجد نفسه في نهاية الأمر يعيش في عالم آخر . . .

جلس « بيجر » غائضا في مقعده وقد حنى رأسه ولم يكن ينظر الى « ماكس » الا خلسة ..

— « هه » .. خذ سيجارة يا « بيجر » .

واشعل ماكس سيجارتين له وليبجر ... وأخذ الاثنان يدخنان لفترة قصيرة .. حتى قال ماكس :

— بيجر .. أنا محاميك .. وأريد أن أتحدث اليك فى صراحة .
ما رأيك فى أن تولينى ثقتك الكاملة ؟

وحملق « بيجر » فى « ماكس » وشعر بالأسف من أجله وهو الرجل الأبيض .

أدرك أن « ماكس » يخشى ألا يتكلم على الاطلاق . ولم تكن به أدنى رغبة فى أن يلحق الأذى بـماكس الذى اتكأ الى الأمام وقد بدت عليه علائم التصميم .. لا بأس اذن .. قل له ما يريد .. تكلم وأنه هذا الأمر ودع « ماكس » يمضى لحاله .

— .. اننى لست أهتم الآن بما أقوله .. أو بما أفعله .

فقال « ماكس » بسرعة :

.. بل انك لتهتم .

وللحظة عابرة انتابت « بيجر » رغبة فى الضحك .. ثم زابلته .
كان «ماكس» تواقا الى مساعدته ولكنه هو .. كان مخلوقا عليه بالموت .

وتكلم « بيجر » فى ببطء :

.. ربما كنت أهتم .

— اذا كنت لاتهتم بما تقوله أو تفعله فلماذا اذن لم تعد تمثيل تلك الجريمة فى منزل دالتون اليوم ؟

— من المستحيل أن أفعل شيئا من أجلهم ..

— لماذا ؟

— انهم يكرهون السود ..

— ولماذا يا بيجر ؟

— لا أدرى يا مستر « ماكس » ..

- « بيجر » .. ألا تعرف انهم يكرهون الآخرين أيضا ؟
- ومن الذى يكرهونه ؟
- انهم يكرهون نقابات العمال .. ويكرهون الفئات التى تحاول أن تلم شملها .. ويكرهون « جان » ..
- فقال بيجر :
- ولكنهم يكرهون السود ، أكثر ما يكرهون هؤلاء .. انهم لم يعاملوا التابعين للنقابات مثلما عاملونى ..
- نعم نعم ، هذا صحيح .. أنت تعتقد أن لوك جعل من السهل عليهم أن يلتقطوك ويعزلوك ويستعبدوك ، ولكنهم يفعلون نفس الشيء مع الآخرين أيضا . لقد كرهونى أنا لأننى أحاول أن أساعدك .. لقد أرسلوا الى خطابات نعتونى فيها « بالقدر » .
- وقال « بيجر » عابسا :
- كل ما أعرفه أنهم يكرهوننى ..
- « بيجر » .. لقد أعطانى مدعى الولاية نسخة من اعترافك .
- والآن .. قل لى ؛ هل ذكرت له كل الحقيقة ؟
- نعم ؛ فلم يكن أمامى سوى أن أفعل ذلك ..
- لماذا فعلت اذن ما فعلت ؟
- وتنهده « بيجر » وهز كتفيه وملاً صدره بالدخان وقال وهو ينفثه فى بطة :
- لا أدرى ..
- هل كنت قد أعددت للجريمة ؟
- لا ..
- هل ساعدك أحد .. ؟
- لا ..
- هل كنت تفكر فى ارتكاب أمر كهذا منذ مدة طويلة ؟
- لا ..
- فكيف حدث اذن ما حدث ؟

- لقد حدث فحسب .. وهذا كل ما فى الأمر يا مستر ماكس .
- وهل أنت آسف ؟ ..

- وما الفائدة الآن من وراء الشعور بالأسف؟ ان ذلك لن يساعدنى .
وكان « بيجر » يحملق أمامه مباشرة وقد اتسعت عيناه . وحرك
حديثه مع « ماكس » رغبته فى أن يتحدث ويفصح عن مشاعره . وغمرته
موجة من الثورة وأحس بأنه ينبغي له أن يصبح قادرا على الوصول بيديه
المجردتين الى الأسباب القوية التى دفعته الى القتل .

انه اذا استطاع أن يفعل هذا فسوف يستريح .. سوف يكون
فى مقدوره أن يجلس ينتظر الى أن يطلبوا منه أن يسير الى الكرسى
« الكهربائى » . وسوف يسير لحظتها فى هدوء ..

- مستر « ماكس » . اننى لا أدرى .. لقد اختلط على الأمر ..
لقد كانت تتبائنى لحظتها أحاسيس مختلفة وكثيرة فى وقت واحد .

- ما هى مدة معرفتك بها ؟
- ساعات قليلة .
- هل أحببتها ؟
- أحببتها ؟

هدر صوت « بيجر » فجأة حتى ان « ماكس » جفل . ثم قفز على
قدميه وقد اتسعت عيناه وارتفعت يده حتى اقتربتا من وجهه وهما
ترتعثان وقال « ماكس » :

- اهدأ يا بيجر .. اهدأ ..

وصاح « بيجر » :

- أنا أحببتها ؟ .. لقد كرهتها .. ساعدنى يا الهى . لقد
كرهتها !!

- اجلس يا بيجر :

- اننى أكرهها الآن .. أكرهها بالرغم من أنها ميتة .. الله يعلم
أننى أكرهها حتى الآن ..

وأمسك به « ماكس » وأجلسه فوق مقعده وقال :

- لا تثر هكذا يا بيجر وهدى من روعك .
- وهذا « بيجر » ولكن عينيه كانتا تجولان فى أرجاء الغرفة . وأخيرا حنى رأسه وعقد أصابعه وانفرجت شفتاه قليلا .
- قلت انك كرهتها ؟
- نعم .. ولست آسفا على وفاتها .
- ولكن ما الذى فعلته بك ؟ .. لقد قلت ان معرفتك بها لم تتعد هذه المقابلة ؟ :
- لست أدرى .. انها لم تفعل بى شيئا .
- وتوقف « بيجر » برهة .. ومز يد مرتعشة على جبهته ثم أردف يقول :
- هى .. لقد كانت .. يا للجحيم . لست أدرى ، لقد سألتنى بعض الأسئلة .
- لقد كانت تتصرف معى بطريقة جعلتني أكرهها . لقد جعلتني أشعر كما لو كنت كلبا ! كنت سأجن .. وكدت أبكى ..
- وصدرت كلماته فى نسيج مؤلم وهو يلحق شفتيه . كان قد وقع أسير ذاك رته المبهمة المترابطة : رأى صورة شقيقته « فيرا » جالسة على حافة المقعد تبكى لأنه أخجلها بالنظر اليها .. رآها تنهض وتقذفه بحذاءها .. وهز رأسه مضطربا :
- مستر « ماكس » .. : لقد طلبت منى أن أخبرها كيف يعيش الزنوج . لقد انتقلت الى المقعد الأمامى حيث كنت ..
- ولكن ليس هذا سببا يجعلك تكره الناس يا « بيجر » لقد كانت رقيقة معك ..
- رقيقة ؟ : .. يا للجحيم : .. أبدا .. انها لم تكن رقيقة معى !
- ماذا تعنى ؟ .. لقد اعتبرت كى آدمى آخر ..
- مستر « ماكس » . ان ما تعتبره أنت رقة ليس كذلك على الإطلاق .
- لم أكن أعرف شيئا عن هذه المرأة .. وكل ما أعرفه أنهم يقتلوننا من أجل نساء مثلها . نحن نعيش معزولين . ثم تجيء هذه الفتاة وتتصرف معى هكذا !
- بيجر .. يجب أن تفهم . لقد كانت تتصرف معك بالطريقة التى تعرفها ..

وأجال « بيجر » بصره محملاً في أرجاء الغرفة الصغيرة باحثاً عن
اجابة وكان يدرك أن أقواله لا تبدو منطقية ، ومن ثم فقد أثر ألا يحاول
تعليلها بالمنطق وعاد يتكلم عن مشاعره .

- حسن . . وأنا تصرفت معها بالطريقة التي أعرفها . . لقد كانت
ثرية . . وهى وجنسها يمتلكون الأرض ويقولون ان السود ليسوا أكثر
من كلاب ! انهم لا يدعونك تفعل غير ما يريدونه هم . .

- ولكن هذه المرأة كانت تحاول أن تساعدك !

- انها لم تكن تتصرف بما يوحى بهذا .

- وكيف كان يجب عليها أن تتصرف اذن ؟

- . . لست أدري . . لست أدري يا مستر « ماكس » ان البيض
والسود غرباء لا يعرف كل جانب منهما كيف يفكر الجانب الآخر . ربما
كانت تحاول حقيقة أن تكون رقيقة ؟ ولكنها لم تتصرف بما يؤكد ذلك .
وكانت تبدو بالنسبة لى وكأنها تتصرف مثلما يفعل البيض الآخرون
كلهم . .

- ولكنها لا تلام على هذا يا « بيجر » . .

فقال « بيجر » مدافعاً :

- انها بيضاء ، كباقي جنسها .

- ولكن يا « بيجر » . . عندما دلفت السيدة «دالتون» الى الحجرة ؛

. . لماذا لم تقف كما كنت وتخبرها بالحقيقة ؟ . لو أنك فعلت ذلك لما
أصبحت فى مثل هذا المأزق . . ثم . .

- ساعدنى يا الهى . . . مستر « ماكس » أنا لم أكن أستطيع

أن أفعل شيئاً عندما تلفت حولى ورأيت تلك المرأة تقترب من المخدع .
بحق الاله لم أكن أدري ما كنت أفعله . .

- هل تعنى أنك لم تكن فى وعيك ؟

- لا . . لا ، . . كنت أعرف ما أفعل . ولكن لم يكن بمقدورى

أن أتحاشاه . هذا ما أريد أن أوضحه . كان الأمر كما لو كان هناك
رجل آخر يقف بداخلى ويتصرف بدلا منى . .

- قل لى يا بيجر • هل كنت تشعر بميل الى « مارى » أكثر من
ملك الى نساء جنسك ؟

- •• أبدا •• ولكنهم يقولون هذا •• وهو غير صحيح • لقد
كرهتها •• وما زلت أكرهها حتى الآن •

- ولكن ما الذى دعاك الى قتل « بيسى » ؟

- لكى أمنعها من الكلام • ولا تنس يا مستر ماكس أنه بعد قتل
امراة بيضاء ليس من الصعب قتل أى شخص آخر • ولم أكن لأهتم
كثيرا بقتل « بيسى » • ولكننى عندما أدركت أنه يجب على أن أقتلها
•• فقد قتلها • كان على أن أذهب بعيدا ••

- وهل كنت تكره بيسى ؟

- لا ••

- هل كنت تحبها ؟

- لا •• كنت خائفا • أنا لم أكن أحبها ولكنها كانت صديقتى فحسب
ولا أحسب أننى أحببت أى فتاة طوال حياتى • لقد قتلتها لكى أحمى
نفسى •

- قل لى يا « بيجر » متى بدأت تكره « مارى » ؟

- لقد كرهتها بمجرد أن تكلمت معى •• بمجرد أن رأيته ، بل
أحسب أننى كرهتها حتى قبل أن أراها ••

- ولكن لماذا ؟

- لقد أخبرتك •• ما الذى تركه لنا قومها لكى نفعله ؟

- ولكن ما الذى تريد أن تفعله بالضبط يا بيجر ؟

وتنهذ « بيجر » وجذب نفسا من سيجارته ••

- لا شئ •• أحسب أننى لا أريد شيئا على وجه التحديد • ولكننى
أريد فحسب أن أفعل ما يفعله الآخرون •

- ولأنك لم تستطع ، فقد كرهتها ؟

ومرة أخرى أحس « بيجر » بأن تصرفاته منطقية •• ومرة أخرى
لجأ الى مشاعره الذاتية باحثا عن اجابة عن سؤال « ماكس » •

- مستر « ماكس » •• ان المرء ليحس بالتعب والضيق وهو يسمع

كل لحظة عما يمكن أن يفعله على حين هو عاجز عن أن يفعل شيئاً • ان الواحد منا يلتحق بعمل ما هنا •• وعمل آخر هناك •• أعمال صغيرة تافهة : يمسح الأحذية ويكنس الشوارع •• أو أى شيء •• ثم لا يحصل بعد ذلك على ما يقيم أوده ولا يعرف متى تكون نهايته • ان المرء عندما يصل الى هذه النهاية ولا يكون فى مقدوره أن يأمل شيئاً فانه يستمر فحسب فى الحركة لمجرد أن يفعل ما يريده آخرون أن يفعله حتى يفقد رجولته •• انه يعمل فحسب •• يوما بعد يوم حتى تستمر عجلة الحياة فى الدوران وحتى يستطيع الآخرون أن يحيوا حياة طيبة • أنت تعرف يا مستر « ماكس » أننى أفكر دائماً فى البيض ••

وتوقف بيجر فانحنى « ماكس » الى الامام ولمسه قائلا :

— استمر يا بيجر •••

— •• انهم يملكون كل شيء •• انهم يخنقونك على وجه الأرض وكأنهم آلهة •• وابتلع « بيجر » ريقه وأغمض عينيه وتنهد بعمق ••

— انهم لا يتيحون لك حتى مجرد الشعور بما تريد أن تشعر به •• أنت تستطيع فحسب أن تشعر بما يفعلونه بك • انهم يقتلونك قبل أن تموت •

— ولكننى سألتك يا « بيجر » عما كنت تريد أن تفعله أكثر من أى شيء آخر ثم لم تستطع •• فكرهتهم من أجل ذلك ؟

— لا شيء •• أحسب أننى لم أكن أريد أن أفعل شيئاً ••

— ولكنك قلت ان أناسا مثل « مارى » وقومها لم يدعوك قط تفعل شيئاً •• ؟

— وما الذى يدعونى الى أن أريد أن أفعل شيئاً ••• ان الفرصة لم تتح لى •• وأنا لم أعرف شيئاً ذا بال •• اننى مجرد مخلوق أسود وهم الذين يضعون القوانين ••

— وماذا كنت تود أن تكون ؟

وصمت « بيجر » فترة طويلة ثم ضحك بلا صوت ودون أن يحرك شفتيه ••

— أردت مرة أن أصبح طيارا •• ولكنهم ماكانوا ليدعونى التحق بالمدرسة التى تهيئنى لأن أصبح كذلك • لقد بنوا مدرسة ضخمة ثم

رسموا حولها خطا وقالوا انه لا يمكن أن يلتحق بها سوى هؤلاء الذين يعيشون داخل الخط .. وأصبح كل الصبية الملونين خارجها .

– ثم ماذا غير ذلك ؟

– .. وأردت مرة أن ألتحق بالجيش .

– ولماذا لم تفعل ؟

– يا للجهيم ؛ .. انه جيش للبيض فحسب ، وكل ما يريدونه من الرجل الأسود هو أن يحفر الخنادق . وكل ما كان يمكننى أن أفعله فى البحرية مثلا هو أن أغسل الأطباق .. وأمسح سطوح السفن .

– وهل هناك شيء آخر كنت تريد أن تفعله ؟

– .. لست أدرى .. ولكن ما الفائدة الآن ؟ لقد نالونى ...

وسوف أموت ..

– حدثنى عن الأشياء التى تعتقد أنك كنت تحب أن تفعلها ..

– كنت أريد أن أعمل فى التجارة ، ولكن ما هى فرصة انسان أسود فى التجارة ؟ .. اننا لانحصل على نقود .. ولانملك مناجم ولا خطوطا حديدية . اننا لانملك شيئا .. وهم أيضا لا يريدوننا .. لقد حصرونا فى بقعة صغيرة واحدة ..

– وأنت لم تكن تريد أن تبقى داخل هذه البقعة !

وومضت عينا « بيجر » .. وزم شفتيه . كان هناك كبرياء فى عينيه الحمراوين .. وقال :

– نعم .. لم أكن أريد .

وحملق فيه « ماكس » .. ثم تنهد قائلا :

– اسمع يا بيجر .. لقد حدثتنى عن الأشياء التى لم تستطع أن

تفعلها ، ولكنك مع ذلك فعلت شيئا . لقد ارتكبت هذه الجرائم .. لقد قتلت امرأتين ، فما الذى ظننت أنك رابح من ذلك .

ونفض « بيجر » ووضع يديه فى جيبه واتكأ على الحائط ..

ومرة أخرى نسى أن « ماكس » معه داخل الغرفة :

- لست أدري .. ربما كانت هذه الأصوات المجنونة .. ربما قتلوني بالكرسي « الكهربائي » جزاء تفكيرى بهذه الطريقة ولكننى لست نادما لأننى قتلت هاتين المرأتين .. لقد كنت حرا ولو لفترة قصيرة .. كنت أفعل شيئا ما .. ربما كان خطأ ، ولكننى كنت أشعر أننى بخير .. ربما عاقبنى الله على ما فعلت وإن هو فعل فلا بأس .. ولكننى لست نادما .. لقد قتلتها لأننى كنت ضائعا مذعورا ، ولكننى كنت ضائعا ومذعورا طوال حياتى .. وبعد أن قتلت الأولى أحسست لفترة قصيرة بأننى لم أعد ضائعا أو مذعورا ..

- ومم كنت تخاف يا بيجر ؟

- من كل شيء ..

ثم تنفس .. ودفن وجهه فى راحتيه ..

- « بيجر » .. ألم تأمل قط أن تحقق لنفسك شيئا ؟

وتتمم « بيجر » قائلا :

- ولماذا ؟ .. اننى ماكنت لأستطيع أن أحقق ما أريد .. اننى

أسود :

- ألم تأمل قط أن تكون سعيدا .. ؟

وأجاب « بيجر » على الفور :

- بلى .. أعتقد ذلك ..

- فكيف اذن تصورت السعادة ؟

- لست أدري .. لقد أردت أن أحقق أشياء .. ولكن كل ماتطلعت الى تحقيقه انتهى الى الفشل .. أردت أن أفعل مايفعله الصبية البيض فى المدرسة .. بعضهم يذهب الى الكلية .. والبعض الآخر يلتحق بالجيش .. ولكننى لم أستطع ذلك ..

- ولكن أما زلت تتمنى أن تكون سعيدا ؟

- بلى .. فكل شخص يتمنى السعادة ..

- وهل كنت تعتقد أنك لن تحققها لنفسك أبدا ؟

- لست أدري .. لقد كنت آوى الى فراشى فى الليل وأنهض فى الصباح .. كنت فحسب أعيش يوما بعد يوم وأتصور أنه قد يأتى يوم أصبح فيه سعيدا ..

— كيف ؟

فقال « بيجر » فى صوت يغلب عليه الأنين :

— لست أدرى .

— كيف تخيلت السعادة اذن ؟

— لست أدرى ، ولكنها ليست ما أنا فيه على أية حال .

— كان ينبغى على الأقل أن تكون لديك فكرة عما تريده :

— مستر « ماكس » ... لو أننى كنت سعيدا لما كنت فى حاجة

الى أن أتمنى شيئا أعرف أنه لا يمكننى تحقيقه ..

— ولماذا كنت تتمنى ذلك دائما .. ؟

— ألم يكن باستطاعتى أن أمنع ذلك . ان كل انسان يشعر بمثل

ما كنت أشعر به . وكنت أنا أيضا كذلك .. وربما لم أكن طبيعيا لأننى

لم أستطع تحقيق شيء أردت أن أحققه . وربما كان ذلك الخوف زایلنى

إذا أنا استطعت أن أحققه وربما كان قد زایلنى أيضا ذلك الجنون .

وتلك الكراهية التى كنت أكنها للبيض .. وبما كنت قد أحسست

بالأمان أو بشيء قريب من الأمان ..

— ألم تذهب قط الى نادى فتيان الحى الجنوبى .. ذلك النادى

الذى كان المستر « دالتون » يرسل اليه طاولات « البنج بنج » ؟

— بلى كنت أذهب . ولكن بحق الجحيم .. ماذا يمكن أن يفعله

المرء بالبنج بنج ؟

— هل كنت تشعر بأن هذا النادى يزيل عن نفسك القلق والضيق؟

— يبعد عنى القلق والضيق .. ؟

ثم أردف يقول :

— .. أبدا .. لقد كان هذا النادى هو المكان الذى نخطط فيه

لأغلب أعمالنا .

— « بيجر » .. ألم تذهب قط الى الكنيسة ؟

— بلى ، عندما كنت صغيرا . ولكن ذلك كان منذ وقت طويل .

— هل كانت عائلتك متدينة ؟

- نعم .. كانوا يواظبون على الذهاب الى الكنيسة .
- ولماذا توقفت أنت عن الذهاب اليها ؟

- لم أحبها فلم يكن بها شيء .. ان كل ما كانوا يفعلونه هو
الغناء والصياح والصلاة طوال الوقت . وهذا لم يكن ليفيدهم في شيء ..
ان كل السود يفعلون ذلك ولكن ذلك لا يفيدهم ، فالبيض ينالون
كل شيء .

- ألم تشعر قط بالسعادة وأنت داخل الكنيسة ؟
- أبدا .. لا أحد سوى فقراء الناس ينال السعادة داخل الكنيسة .
- ولكنك فقير أنت الآخر يا « بيجر » ؟
ومرة أخرى ومضت عينا « بيجر » بكبرياء .. وقال :
- لست هذا الفقير ..

-- ولكنك قلت انك لو كنت حيث لا يكرهك الناس ولا تكرههم
فان ذلك كفيلا بأن يجلب لك السعادة . ان أحدا لن يكرهك داخل
الكنيسة . ألا تشعر داخلها كأنك في منزلك ؟

- كنت أريد أن أكون سعيدا داخل هذا العالم وليس خارجه .
اننى لم أكن أريد ذلك النوع من السعادة . ان البيض يريدون منا أن
نكون أتقياء متدينين حتى يستطيعوا أن يفعلوا بنا ما يشاءون .

- قلت لى منذ لحظات ان الله خلقك لكى تقتل هؤلاء النسوة ..
فهل يعنى ذلك أنك تؤمن بالله .. ؟
- لست أدري .

- ألا تخاف مما سيحدث لك بعد أن تموت ؟
- نعم .. ولكننى لا أريد أن أموت .
- ألم تكن تعرف ان الموت هو جزاء من يقتل امرأة بيضاء ؟
- بلى كنت أعرف ذلك ؟ ولكننى شعرت كما لو كانت هى التى
تقتلنى .. ومن ثم فلم أهتم ..

- اذا كان من الممكن أن يجلب لك التدين السعادة الآن ، فهل
كنت تريد ذلك ؟

- لا .. صحيح أن موتى أصبح قريبا جدا ، ولكننى لو كنت
متدينا لكنت قد مت قبل الآن

- ولكن الكنيسة تعد بالحياة الأبدية ؟

- انه للمعذبين فى الأرض .

- انك لا تشعر شعور انسان نال فرصته .. أليس كذلك ؟

- نعم . ولكننى لا أسأل أحدا أن يأسف من أجلى .. نعم ، اننى لا أسأل ذلك اطلاقا . اننى أسود وهم لا يمنحون رجلا أسود فرصة ، ومن ثم فقد أخذت فرصتى بنفسى وضعت . ولكننى لا أهتم بشيء .. لقد تمكنوا منى وانتهى كل شيء .

- هل تشعر بأنه سوف تتاح لك فرصة ذات يوم بشكل ما وفى مكان ما لأن تعوض ما لم تحققه هنا على الأرض ؟

- يالللجحيم .. لا .. عندما يقيدوننى الى هذا الكرسي الكهربائى ويوصلون « الكهرباء » .. فسوف أنتهى الى الأبد .

- « بيجر » أريد أن أسألك سؤالا .. هل تحب قومك ؟

- لست أدرى يا مستر « ماكس » . كلنا أسود .. والبيض يعاملوننا جميعا بنفس الطريقة .

- ولكن قومك يفعلون أشياء من أجلك ، فهناك زنوج يقودون بنى جنسك .. ؟

- نعم .. أعرف ذلك . لقد سمعت عنهم وهم على حق تماما .. أعتقد ذلك .

- ألا تعرف أحدا منهم ؟

- نعم ..

- « بيجر » .. هل يوجد كثيرون مثلك من الصبية الزنوج ؟

- أحسب هذا . وكل الذين أعرفهم لم يظفروا بشيء ، فقد سدت كل السبل أمامهم .

- ولماذا لم تذهب الى بعض الزعماء زعماء قومك وتخبرهم بما كنت تشعر به أنت وباقى الصبية ؟

- يا للبحيم .. انهم ما كانوا لينصتوا الى . انهم أغنياء ، وبالرغم من ذلك فان البيض يعاملونهم غالبا كما يعاملوننى . انهم يقولون ان أمثالى من الأشخاص يجعلون من الصعب عليهم أن يعيشوا البيض .

- ألم تسمع قط خطبا لأحد من زعماء قومك ؟

- بلى .. سمعت .. فى فترة الانتخابات ..

- وماذا كنت تعتقد فيهم ؟

- لست أدرى .. انهم جميعا متشابهون ويريدون النقود مثل أى

شخص آخر .. انها مجرد مباراة وهم « يلعبونها » ..

- ولماذا لم « تلعبها » معهم ؟

- يالللجحيم .. وماذا كان بوسعى أن أقول ؟ اننى لم أئل شيئا ..

ولم يكن ليهتم بى أحد .. اننى مجرد شخص أسود بلا ميزة .. لقد ذهبت
فحسب الى المدرسة الاعدادية على حين السياسة مملوءة بالدهاة المهرة
من خريجي الكليات ..

- ألم تكن تثق بهم ؟

- لا أحسب أنهم كانوا يريدون من أحد أن يشق بهم .. لقد كان كل

همهم أن يحصلوا على المنصب .. وهم يدفعون لك لكى تصوت فى
صالحهم ..

- ألم تمارس قط حقك الانتخابى ؟

- بلى .. مرتين فحسب .. ولم اكن كبيرا بما يكفى ومن ثم فقد

رفعت سنى حتى أتمكن من التصويت وحتى أقبض الدولارات الخمسة ..

- ألم تمنع فى بيع صوتك ؟

- نعم .. ولماذا أمانع ؟

- ألم تفكر فى أن السياسة يمكن أن تجعلك تظفر بشيء ؟

- بلى .. انها تجعلنى أظفر بخمسة دولارات فى يوم الانتخاب :

- بيجر .. ألم يحدثك أحد من البيض عن اتحادات العمال ؟

- نعم .. لا أحد سوى جان ومارى .. وكان يجب ألا تفعل ذلك ..

ولكنى على أية حال لم أستطع أن أمنع نفسى عما فعلت .. وجان ؟ ..
أحسب أننى سببت له المتاعب بتوقيعى على خطاب طلب الفدية بكلمة
« الحمر » ..

- هل تعتقد أنه صديقك الآن ؟

- انه ليس ضدى على الأقل ، فلم يحمل على فى ذلك اليوم الذى

استجوبوه فيه ، ولست أعتقد أنه يكرهني مثل الآخرين . ومع ذلك فأننى أعتقد أنه متألم من أجل الأنسة دالتون .

— هل كنت تتصور أن هذا سيحدث لك ؟

— أقول لك الحق يا مستر « ماكس » : ان وجودى هنا ومواجهتى للكرسى « الكهربائى » يبدو أمرا طبيعيا . وعندما أفكر الآن فى هذا الأمر فانه يبدو لى أن شيئا كهذا كان لا بد أن يحدث لى .

وصمت الاثنان ، ووقف « ماكس » وتنهد . بعقب على حين أخذ « بيجر » يرقبه ليستطلع ما يفكر فيه . ولكن وجهه ماكس كان ممتعنا . . . وأخيرا قال « ماكس » : —

— حين يا بيجر . . سوف ندفع أمام الاتهام غدا بأنك غير مذهب ولكننا سنقر بالذنب ونطالب بالرفقة عندما تبدأ المحاكمة . انهم يتعجلون المحاكمة وربما تنعقد المحكمة فى مدى يومين أو ثلاثة . وسوف أبذل كل ما فى وسعى لأعرض على القاضى حقيقة المشاعر التى انتابنتك وأسبابها . وسأحاول التأثير عليه ليحكم عليك بالسجن المؤبد ، وهذا هو كل ما يمكننى أن أفعله تحت هذه الظروف . ولست بحاجة الى أن أحدثك عن مشاعرهم نحوك . . . فأنت زنجى وتستطيع بالطبع أن تدرك هذا . لا تؤمل كثيرا . . . فهناك فى الخارج محيط زاهر من الكراهية البغيضة نحوك ، وسوف أحاول أن أزيل شيئا منها . انهم يريدون حياتك ويتطلعون الى الانتقام . لقد ظنوا أنهم كانوا قد أحكموا عليك النطاق كأسود بحيث لم يكن ممكنا أن تفعل ما فعلت . . . ولقد انتابهم الآن جنون رهيب لأنهم يؤمنون فى أعماقهم بأنهم هم الذين دفعوك الى أن تفعل ذلك . . . وعندما يفكر الناس بهذه الطريقة فان الأمر يتوقف كثيرا على القاضى الذى سينظر الدعوى . ان أى اثنى عشر رجلا فى هذه الولاية قد حكموا عليك الآن بالفعل ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نثق بالمحلفين . . . لا بأس يا « بيجر » ، . . . فليسوف أبذل غاية ما فى وسعى . . .

وصمت الاثنان . . . وقدم ماكس سيجارة لبيجر ، وأخذ أخرى لنفسه وراح « بيجر » يرقب « ماكس » وشعره الأشيب ووجهه المستطيل وعينيه الرماديتين العميقتين الرقيقتين الحزينتين . . . وأحس بأنه انسان عطوف وأحس بالأسى من أجله . . .

— مستر « ماكس » . . . لو كنت فى مكانك لما أزعجت نفسى على الاطلاق . . . لو كان كل الناس مثلك فربما لم أكن الآن هنا ، ولكنك

لا تستطيع الآن أن تفعل شيئا من أجل لسوف يكرهونك لأنك تحاول أن
تمد لي يد العون . اننى ضائع هالك .. لقد نالونى حقا ..

وقال « ماكس » :

- نعم .. لسوف يكرهوننى .. ولكننى أستطيع أن أتحمل ذلك
وهذا هو الفرق .. انهم يكرهوننى ولكننى أعرف السبب ويمكننى أن
أناضل . وأحيانا يستحيل على المرء أن ينتصر بصرف النظر عن أسلوب
القتال .. كذلك فان المرء يعجز عن أن ينتصر اذا لم يكن لديه الوقت
الكافى لهذا القتال .. انهم يضغطون علينا الآن ولكن لا داعى لأن تقلق
على . ان الخوف من هذه الكراهية هو الذى منع كثيرا من البيض من
محاولة مد يد العون لك ولأمثالك من بنى جنسك .

وجذب « ماكس » نفسا من سيجارته ثم أردف يقول :

- يجب أن أنصرف الآن .

ثم استدار وواجه « بيجر » :

- « بيجر » كيف تشعر الآن ؟

- لست أدرى .. اننى فحسب باق هنا . أنتظر حضورهم
ليقودونى الى ذلك الكرسي .. ولست أعرف .. اذا كنت سأستطيع
السير على قدمى أم لا .

وحول « ماكس » وجهه وفتح الباب .. وحضر حارس فأمسك
« بيجر » من معصمه . وصاح ماكس :

- سوف أراك فى الصباح يا بيجر .

ومرة ثانية وقف بيجر فى وسط الزنزانة لا يتحرك . لم يكن
الآن معنى الاكتاف ولا مشدود العضلات . وتنفس فى سهولة ويسر وهو
يعجب من نسمة السكينة الرطبة التى تغمر جسده . وكان كأنما يحاول
أن ينصت الى ضربات قلبه . كان كل ما حوله ظلاما خاليا من أى صوت ،
ولم يكن يستطيع لحظتها أن يتذكر متى أحس من قبل باسترخاء كهذا
الذى أحس به . لم ينتبه الى ذلك عندما كان « ماكس » يتحدث معه ،
ولم يكتشف أنه كان يتكلم مع « ماكس » كما لم يتكلم قط من قبل ..
لم ينتبه الى ذلك الا بعد أن انتابه غضب شديد . لقد خدعه « ماكس »
.. ولكن لا .. ان « ماكس » لم يجبره على الكلام . لقد تكلم بمحض
ارادته تدفعه ثورة مشاعره وفضوله .. ان « ماكس » لم يفعل شيئا أكثر .

من الجلوس والقاء الأسئلة والانصات . وسرعان ما زائله غضبه ليحل محله شعور بالخوف . الو أن شعورا كهذا انتابه عندما تحين ساعته لوجدوا أنفسهم مضطرين الى أن يجروه جرا الى الكرسي « الكهربائي » . وكان عليه أن يتخذ قرارا : كان يجب عليه لكي يسير على قدميه الى الكرسي « الكهربائي » أن ينسج مشاعره في درع صلب من الأمل أو الكراهية . فان السقوط بينهما يعني الحياة أو الموت وسط ضباب من الخوف .

انه الآن يقف على خيط ضئيل . لا أحد يدفعه الى الأمام أو الى الخلف . لا أحد يجعله يحس بأن له قيمة أو أهمية . لا أحد سواه هو نفسه .

ومسح عينيه يديه يحاول أن يحل عقدة المشاعر والأحاسيس التي تخفق داخل جسده . لقد كان يعيش داخل وعى حاد بمصيره ويحس بأن الوقت يمضى بسرعة وأن الظلام الذي يحيط به يكاد يحيا ويتنفس . وكان يتطلع وسط هذا كله الى أن يتيح لجسده مرة ثانية أن يتذوق مهلة الراحة النفسية القصيرة التي استشعرها بعد حريته مع ماكس وجلس فوق فراشه . وكان يجب عليه أن يفهم هذا الأمر . لماذا وجه اليه « ماكس » كل هذه الأسئلة ؟ لقد أدرك أن « ماكس » كان يتقصى الحقائق ليخبر بها القاضي . ولكنه وجد نفسه من خلال أسئلة « ماكس » يتعرف على حياته ومشاعره وأحاسيسه التي لم يسبق له أن واجهها من قبل . ماذا حدث ؟ هل أخطأ في حق ذاته ؟ هل ترك نفسه تقع في حبال خيانة أخرى ؟ أحس بأنه تخلى عن حذره أكثر مما ينبغي . ولكن . . هذه . . هذه الثقة ؟ لم يكن من حقه أن يستكبر ؟ ولكنه مع ذلك كان يتكلم مع « ماكس » وكأنه يملك شيئا . لقد قال « لماكس » انه لم يكن يحب الكنيسة . ولم يكن من حقه أن يقول ذلك . لم يكن من حقه أن يفكر بهذه الطريقة . لم يكن من حقه أن ينسى أنه يجب أن يموت وأنه أسود وقاتل . لم يكن من حقه أن ينسى ذلك كله ولو للحظة واحدة . ومع ذلك فقد نسي .

أمن الممكن حقا أن يكون هذا شعور كل واحد في هذه الدنيا ؟ وهؤلاء الذين يكرهونه . أمن الممكن أن يكون بأعماقهم من المشاعر والأحاسيس مثلما رآه « ماكس » في أعماقه ؟ وأي دافع ياترى يدفع ماكس الى أن يساعده ولماذا يثير « ماكس » على نفسه هذا البحر الزاخر من الكراهية ؟ لأول مرة في حياته يحظى بهذا الاحساس الذي يجعله قادرا على أن يرى علاقات غامضة لم يحلم بمثلها قط في حياته . لو أن

تلك الجبال البيضاء الشاهقة من الكراهية لم تكن جبالا .. بل كانت أناسا فحسب ، أناسا مثله ومثل « جان » - اذن لواجهه أمل كبير لم يواجهه فى حياته .. بل ولم يفكر فى مثله من قبل ، ولواجهه أيضا يأس كان يدرك أنه لا يستطيع أن يتحمل حقيقة أعماقه . وانتابته أحاسيس مضادة قوية تحذره أن ينساق وراء هذه الأمور التى يراها أو يحس بها لأول مرة والتى لن تقوده الا الى غربة موحشة عمياء والى احساس آخر أعمق بالكراهية والمهانة .

وبرغم ذلك فقد رأى حياة واحدة وأحس بها .. حياة كانت أكثر من مجرد حلم . وكان يدرك أنه لن يصحو بعد موته ليتحسر ويعجب من « بساطه » هذا الحلم وحماقته . لقد كانت هذه الحياة التى رآها قصيرة .. ولكنها كانت تحركه . وكانت تدفعه لهفة عصبية . ووقف فى منتصفه أرض « زنزانته » يحاول أن يرى حقيقة نفسه على ضوء من علاقته بالآخرين وهو الشيء الذى كان يتحاشى دائما أن يفعله وقد امتلأ عقله بكراهية الآخرين له . وبعد ذلك الحديث مع « ماكس » ، وبعد تلك الرؤى الجديدة عن قيمته الذاتية التى أضفاها عليه ذلك الحديث ، بدأ يحاول أن يحس بأنه اذا كان « ماكس » قد استطاع أن يرى فيه حقيقة الانسان وسط فعلته الوحشية القاسية ووسط عناصر الخوف والكراهية والجريمة والهروب واليأس ... اذا كان « ماكس » قد استطاع ذلك فانه - هو أيضا كان يكره لو أنه فى مكانهم .. تماما كما يكرههم بيحر الآن ويبادلونه الكراهية . ولأول مرة فى حياته أحس بأرض صلبة تحت قدميه .. وأراد أن تظل حيث هى .. وكان متعبا محموما ويحس برغبة شديدة فى أن يخلد الى النوم ، ولكنه لم يشأ أن يستلقى على فراشه وهذه الحرب الضارية تستخدم داخله كانت هناك أفكار عمياء تمور داخل جسده .. وكان يحاول بذكائه أن يجعلها واضحة لنفسه عن طريق مجموعة من الصور والرؤى التى يمكن أن تزيدها تفسيرا . لماذا لا استبد به ذلك الخوف والكراهية ؟ كان يقف داخل « الزنزانة » وهو يرتجف ويرى صورة مظلمة تتأرجح وتسبح أمام ناظره .. كان يرى سجناء مظلماء مملوءا « بزنانات » سوداء ضئيلة يعيش بداخلها مجموعة من الناس ويدخل كل « زنزانة » منها جرة من الحجارة مملوءة بالماء وقطعة من الخبز الجاف ، ولا أحد يستطيع أن ينتقل من « زنزانة » الى أخرى وصيحات الألم واللغات والعذاب تملأ كل زنزانة دون أن يسمعها أحد لأن الجدران كانت سميقة ولأن الظلام كان يخيم على كل مكان .

لماذا يزخر العالم بكل هذا العدد من « الزنانات » ؟ ولكن .. هل هذا صحيح ؟ كان يريد أن يصدق .. ولكنه كان خائفاً . أيجرؤ على أن يخدع نفسه الى هذا الحد ؟ وهل سيسقط ميتا اذا هو ساوى نفسه بغيره .. حتى ولو كان ذلك فى الخيال ؟

وأحس بالضعف يمنعه من أن يستمر واقفا داخل « زنزانتة » فجلس مرة أخرى على حافة فراشه . كيف ياترى يستطيع أن يتحقق صدق مشاعره وأن غيره قد يشعرون بمثل ما يشعر به ؟ وكيف يستطيع المرء أن يدرك حقيقة الحياة على حين هو على وشك أن يموت ؟ .. ورفع يديه ببطء وسط الظلام وأبقاهما فى الهواء وقد بدأت أصابعهما تنفرج فى ضعف . ترى ، ماذا لو تحول ذراعا الى أسلاك « كهربائية » .. وقلبه الى بطارية تمد ذراعيه بالحياة والحرارة ، وماذا لو أن ذراعيه طالتا حتى تلمسا أناسا آخرين أو تلمسا تلك الحوائط الحجرية فتحسان بوجود أذرع أخرى متصلة بقلوب أخرى - لو أن ذلك حدث ... فهل يا ترى يجد اجابة عن أسئلته ؟ انه لا يريد لذلك أن يحدث لمجرد أن ينتقل اليه دفء هذه القلوب .. ولكن ليحس فحسب بأنها موجودة ودافئة : لهذا فحسب يريد أن يحدث ذلك .. ولا شيء أكثر من هذا .. ان فى هذا الكفاية .. بل وأكثر من الكفاية . فان فى هذه اللمسة - هذه الاستجابة - يكمن أكثر من الالتحام والوحدة .. يكمن الاحساس بالكل فى واحد ، ... تلك الحقيقة التى أنكرته طوال حياته ..

وقفز خاطر جديد من أعماقه نابع من حاجة يائسة ملحة ، صوره ذهنه فى شكل شمس باهرة الضوء تبعث بأشعتها على حين هو يقف وسط جمع من الناس لا يحدهم البصر .. جمع من البيض ومن السود ومن كل أجناس البشر تذيب أشعة الشمس الالهية كل ما بينهم من اختلافات فى اللون والملبس وترفع الى الشمس كل ما هو مشترك وجميل بينهم ... وتمدد فوق فراشه وهو يئن . ترى .. أهو أحق اذ يحس بهذا ؟ أهو الخوف والضعف اللذان جعلاه هذه الرغبة تقفز بداخله على حين هو قريب من الموت ؟ ولكن ، كيف يمكن أن يكون خطأ هذا الاحساس العميق الذى يستبد به ؟ ولكنه أسلم نفسه اليه بالفعل . وأحس بأنه أصبح يكره حياته على أساس من أحاسيس مجردة . فلماذا لايقبل الأمر على علاته ؟ ولكن هل قتل مارى ويبسى وجلب الأسى لآمه وأخيه وأخته ووضع نفسه تحت ظلال الكرسي « الكهربائي » لمجرد أن يصل الى هذا التسليم ؟ وهل كان أعمى طوال حياته ؟ .. لفائدة الآن .. فليست هناك وسيلة يستطيع

أن يدرك بها الحقيقة .. لقد فات الأوان .. لو أن عرف معنى هذا كله لما ألقى بالا الى الموت .. ان الموت قد يصبح أمرا هينا لو أنه أدرك مكانه من العلاقة بين البشر الذين يعيشون حوله . وحقيقة الأرض التي يقف فوقها . هل خفى عنه من قبل أن لدى كل انسان معركته الخاصة التي يخوض غمارها ؟ ولكن .. اذا كانت هذه الحقيقة قد خفيت عليه حقا .. أفلا يلام البيض أنفسهم على ذلك ؟ أليسوا هم من يستحقون الكراهية منه حتى الآن ؟ ربما كان هذا صحيحا ولكنه لم يعد يهتم الآن بأن يكرههم .. فقد كتب عليه الموت وأهم من ذلك الآن هو أن يجد تفسيراً لكل هذا الطنين الجديد .. والمعنويات المرتفعة الجديدة .. والاضطراب الجديد .

وبدأ يحس بأنه يريد أن يعيش - لا ليهرب من تبعة جريمته - ولكن ليتحقق أن ذلك كان صحيحا ويحس به بعمق .. بل ويموت داخل الحقيقة اذا كان لابد أن يموت . وبدأ يحس أيضا بأنه سيكون قد فقد كل شيء ان هو مات قبل أن يصل الى الحقيقة ويدركها عن يقين .. ولكن، هل من سبيل ؟ .. لقد فات الأوان ..

وعاد يرفع يديه الى وجهه ليلمس شفتيه المرتعشتين . لا .. لا .. واندفع نحو الباب وأمسك بالقضبان الحديدية بيديه الساخنتين وشدد عليها قبضته وقد تصلب جسده ودفن رأسه بينها وهو يحس بدموعه تنحدر على خديه .. وتبلل شفتيه . ثم انهار فوق ركبتيه وهو ينتحب لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت ...

كان قد تقرر أن يمثل أمام المحكمة بعد أن أعلن أنه غير مذنب أمام هيئة المحلفين العليا .. ووجد «بيجر» نفسه في صباح يوم غائم غابت شمسهُ . يستلقى فوق فراشه ويحدق الى القضبان الحديدية لسجن .. كوك كاونتى .

لسوف يساق فى خلال ساعة واحدة الى قاعة المحكمة حيث يحكموا عليه .. وحيث سيعرف أنه سيحيا أو سيموت .. ومتى سيموت .. وخلال الدقائق القليلة الى أن يحين موعد المحاكمة كان لا يزال يعمل فى صدره ذلك الحنين الغامض الى ان يعود اليه ذلك الشيء الذى حركه « ماكس » فى أعماقه . أحس بأنه لابد أن يعود اليه الآن ذلك الشيء ، فكيف يستطيع أن يواجه محكمة الرجل الأبيض دون شيء يستند اليه ؟ فمنذ تلك الليلة التى وقف فيها وحيدا داخل « زنزانته » وهو يحس بذلك السحر العارم الذى أمده به حديث « ماكس » .. منذ تلك الليلة

وهو يحس بأنه أصبح غاريا أكثر من أى وقت مضى فى مواجهة لذعات الكراهية الحارة .

وكانت هناك لحظات تمنى فيها بمرارة وأسى لو أنه لم يحس يوما بمثل تلك الأحاسيس . . . ولو أنه استطاع أن يعود مرة أخرى ليختفى خلف ستائره ولكن ذلك كان مستحيلا ، فقد أصبح الآن صيدا فى العراء . . . صيد مرتين مرة بوجوده داخل السجن جزاء جريمته ، ومرة أخرى بفقدانه لمصادر أحاسيسه وعواطفه بعد أن سلخوه عنها كى يسلموه الى الموت .

وأراد أن يتحدث الى «ماكس» مرة أخرى فى محاولة منه لأن يستعيد تلك الليلة ، ولكن «ماكس» كان مشغولا بأعداد مرافقته التى ينقذ بها حياته أمام المحكمة . بيد أن «بيجر» كان يريد أن ينقذ حياته «هو» . . . وان كان يدرك تماما أن لسانه لن يتحرك فى اللحظة التى يحاول فيها أن يصوغ أحاسيسه ومشاعره فى كلمات . وما أكثر ما انفرد بنفسه داخل «زنازته» بعد أن غادره «ماكس» ، فظل يعجب من نفسه فى مرارة وسخرية ويتساءل : هل كانت هناك مجموعة من الكلمات يشترك مع الآخرين فى معرفتها ويستطيع عن طريقها أن يثير فى الآخرين الاحساس بنفس اللهب الذى يعتمل فى صدره . . .

ولقد كان ينظر الى العالم والناس حوله نظرة ذات وجهين . . . وجه يرى به الموت ويرى فيه نفسه وحيدا مشدودا الى الكرسي «الكهربائى» . ينتظر التيار أن يسرى فى جسده . ووجه آخر يرى به الحياة ويرى فيه نفسه وسط أناس ضائعين منحقين ولكنهم يتمسكون بأهداب الامل فى أن ينهضوا مرة أخرى خلفا جديدا بلا خوف . ولكنه لم يكن يرى سوى الوجوه البيضاء المفعمة بالكراهية . . . لأن الموت كان هو الحقيقة المحتومة امامه . ومع هذه الوجوه يرى نفسه داخل نفس «الزنازة» السوداء تقيده الساعات الطويلة الموحشة وتحيط به القضبان الحديدية الباردة القاسية .

أتكون رغبته فى أن يؤمن بصورة جديدة للعالم حوله هى التى تجعله يتصرف فى حمق ويجلب على نفسه ذعرا فوق ذعر ؟ ألم يكن احساسه القديم بالكراهية أفضل دفاعا من هذه الحيرة التى تعذبه ؟ ألا يخدعه هذا الامل المستحيل ويدفعه حثيثا الى نهايته ؟ وفى كم جبهة

يا ترى يستطيع الرجل أن يحارب مرة واحدة وهل يستطيع مثلا أن يخوض معركة داخل نفسه كما يخوضها خارجها ؟ مهما يكن الأمر فقد أحس بأنه لا يستطيع أن يخوض معركة من أجل حياته قبل أن يكسب في البداية تلك المعركة التي تحتدم بداخله .

كانت أمه وشقيقته « فيرا » وشقيقه « بدى » قد جاءوا لزيارته . ومرة أخرى كذب عليهم وقال أنه كان يصلى ويشعر بالطمأنينة والسلام نحو العالم ونحو الناس .. ولكن هذه الأكذوبة جعلته يشعر بمزيد من المهانة لنفسه .. ومزيد من الكراهية لهم . لقد آذنه لأنه كان يتوق فعلا الى تلك الحقيقة التي كانت أمه تتحدث عنها وتصلى من أجلها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يصل الى هذه الحقيقة على أساس من المفهوم الذى أحس بأنه هو السبيل الوحيد اليها ، ومن ثم فقد طلب من « ماكس » بعد انصرافهم ألا يدعهم يحضرون اليه مرة ثانية

وقبل بدء المحاكمة ببضع دقائق حضر حارس الى « زنرانت » ومعه صحيفة تركها « لبيجر » قائلا :
- محاميك أرسل هذه لك ..

ثم غادر الحارس المكان ..
وفض « بيجر » صحيفة التريبيون ، والتقطت عيناه العناوين التالية : -

« الجيش يحرس محاكمة القاتل الزنجى »

الجيش .. وانحنى « بيجر » للأمام وتابع قراءة العناوين : -

« حماية القاتل من ثورة الغوغاء »

ثم انتقل الى العمود ..

« ... خوفا من ثورة الغوغاء .. قد أصدر الحاكم هـ.م دورست أوامره الى كتيبتين من الحرس الوطنى لولاية لينوى بحفظ الأمن العام فى أثناء محاكمة « بيجر توماس » القاتل الزنجى ، وقد أعلن هذا الأمر من العاصمة سبرنجنفيلد صباح اليوم »

ثم التقطت عيناه بعض العبارات : -

« الشعور العام ضد القاتل لا يزال نائرا ... »

« الهلع يزداد في قطاع الزنوج ... »

« الرأى العام يطالب بعقوبة الاعدام ... »

« .. المدينة تعيش في توتر وقلق ... »

وتنهذ « بيجر » وحملق في فراغ وتدلّت شفتاه وفغرفاه وهز رأسه ببطء .. ألم يكن أحقق غبيا لمجرد انصاته الى حديث « ماكس » عن انقاذ حياته ؟ ألم يكن هذا الحديث يزيد من الرعب الذى تنطوى عليه نهايته هو نتيجة الشد والتوتر بعد أمل كان يخفق في حنايا صدره ؟ ألم يكن ذلك الصوت .. صوت الكراهية ، يدوى قبل مولده بزمن طويل ، .. وسيظل مدويا لمدة طويلة بعد موته ؟

وعاد الى القراءة .. وعيناه تلتقطان الجمل : -

« القاتل الزنجى يدرك تماما أنه معرض لخطر الذهاب الى الكرسي الكهربائى » ... انه يمضى أغلب وقته فى قراءة مقالات الصحف عن جريمته ويتناول الوجبات المترفة التى يبعث بها اليه أصدقائه الشيوعيون ... القاتل يميل الى العزلة ولا يتحدث كثيرا ... العمدة يثنى على شجاعة الشرطة ... أدلة كثيرة تتجمع ضد القاتل ... »

ثم : -

« أعلن الدكتور كالفين ه . روبنسون الخبير النفسانى لادارة الشرطة فى تقريره عن الحالة العقلية للزنجى القاتل : انه لا نزاع فى أن « بيجر » كان أكثر انتباها عقليا وذهنيا مما نظن . ان محاولته القاء التبعة على الشيوعيين .. وخطاب الاختطاف .. كل هذا يدل على أنه ربما يخفى جرائم أخرى كثيرة » .

« وقد أشيع أن يوريس . أ . ماكس - المحامى الشيوعى عن الزنجى القاتل - سوف يدفع بأن موكله غير مذنب ويحاول تبرئته خلال المحاكم ... »

والقى « بيجر » بالصحيفة وتمدد على الفراش ثم أغمض عينيه ... انه نفس الشئ يتكرر مرة ثانية ... ماذا كانت الفائدة من القراءة ؟ ..

- « بيجر » ..

وكان « ماكس » يقف خارج « الزنزانة » ثم دلف الى الداخل بعد ان فتح الحارس الباب .

— حسن « يا بيجر » .. كيف حالك ؟

وتمتم « بيجر » : —

— أعتقد أنني بخير ..

— نحن على وشك الذهاب الى المحكمة

ونفض « بيجر » وآجال بصره الخاوى « بالزنزانة » ..

— هل أنت مستعد ؟

— نعم ..

ثم تنهد قائلاً : —

— أعتقد أنني كذلك ..

— أنصت الى ياولدى .. لا تكن عصبيا وهون عليك الأمر

— هل سيجلسوننى بالقرب منك ؟

— طبعا ، وعلى نفس المنضدة ، وسأكون هناك طوال المحاكمة .

فلا تنزعج واقتاده أحد الحراس الى خارج الباب حيث كان رجال الشرطة مصطفىين على جانبي الدهليز الساكن . وأحاط به شرطيان قيد من معصميه اليهما على حين كانت الوجوه السوداء والبيضاء ترمقه من خلف القضبان الحديدية .

وسار متخشبا بين رجلى الشرطة وأمامه مباشرة سار ستة آخرون . وعدد آخر خلفه . ثم اقتادوه الى مصعد نقله عبر ممر تحت الأرض وساروا به فى نفق طويل حتى وصلوا الى مصعد آخر استقلوه الى أعلى حيث عادوا الى السير فى دهليز مزدحم بأناس ثائرين وبرجال شرطة كثيرين ، حتى اذا مروا باحدى النوافذ لمح « بيجر » بنظرة سريعة جمهرة عظيمة من الناس يقف خلفهم عن كثب صفوف من رجال الجيش يرتدون الزى « الكاكي » . نعم ، هؤلاء اذن هم رجال الجيش والفوغاء الذين تحدثت عنهم الصحف :

وقاده حارس الى احدى الغرف على حين أخذ « ماكس » طريقه الى منضدة . وجلس « بيجر » بعد أن فكوا قيوده الحديدية وقد أحاط به رجلا الشرطة . ووضع « ماكس » يده اليمنى برقة على ركبتى « بيجر » وقال : —

— ليس لدينا الا بضع لحظات قليلة

وتمتم « بيجر »

– لا بأس ..

وكانت عيناه نصف مغمضتين ، وكان رأسه مائلا قليلا الى أحد الجانبين وعيناه تنظران الى فراغ ..

وقال « ماكس » : –

– هيا .. أصلح ربطة عنقك .

وشد « بيجر » ربطته بلا اكتراث

– والآن : ربما اضطرت الى أن تتكلم ولو مرة واحدة فحسب ... أفهمت ؟

– تعنى داخل القاعة ؟

– نعم ... ولكننى ..

وانسعت عينا « بيجر » هلعا .. وقال : –

– لا ...

– استمع الى ياولدى ..

– ولكننى لا أريد أن أقول شيئا ..

– اننى اسعى لانقاذ حياتك ..

وبدأت أعصاب « بيجر » تثور وصاح بعصبية :-

– انهم سيقتلوننى : أنت تعلم جيدا أنهم سيقتلوننى :

– « بيجر » .. يجب أن تفعل هذا .. الآن ، اسمعنى جيدا .

– الا تستطيع أن تدبر أنت الأمر بحيث لا أضطر الى الكلام .. ؟

– انها فحسب كلمة أو كلمتان .. فعندما يسألك القاضى عن

احتجاجك .. فقل له « مذنب »

– وهل سأكون مضطرا الى الوقوف ؟

– نعم .

– ولكننى لا أريد ذلك .

– الا تدرك اننى اسعى لانقاذ حياتك ؟ ساعدنى اذن بهذا القدر

اليسير ..

— أحسب أن هذا لا يعنيني . اننى أعتقد أنه لا يمكنك أن تنقذ حياتى .

— ينبغي لك ألا تفكر بهذه الطريقة ..

— لا أستطيع أن أمنع نفسى عن ذلك ..

— هناك شئ آخر .. ستكون المحكمة زاخرة عن آخرها بالحضور .. وما عليك ألا أن تدخل وتجلس وسوف تكون الى جوارى مباشرة . ودع القاضى يرى أنك تلاحظ ما يحدث .

— أرجو ألا تكون أُمى موجودة هناك

وقال « ماكس » : —

— لقد طلبت منها أن تحضر : فأنا أريد أن يراها القاضى .

— سوف تكون حالتها سيئة ..

— كل هذا من أجلك يا « بيجر » ..

— أعتقد اننى لا أستحق ذلك

— لا بأس يا ولدى : هذه الأمور فوق مستوى ادراكك . الحقيقة يا ولدى أن كل زنوج أمريكا يحاكمون هنا اليوم :

— لسوف يقتلوننى على أية حال .

— الا اذا كافحنا ... الا اذا أخبرتهم كيف كنت مضطرا الى أن تعيش ..

وتقدم أحد رجال الشرطة الى « ماكس » وربت على كتفه فى رقة وقال : —

— القاضى ينتظر .

— حسن .. هيا يا « بيجر » . هيا نذهب ، .. وارفع رأسك .

ووقف الاثنان ورجال الشرطة يحيطون بهما . ثم بدأ « بيجر » يسير الى جوار « ماكس » عبر دهليز طويل انتهى الى باب تجمع وراءه جمع كثير من الرجال والنساء . ورأى « بيجر » عددا قليلا من الوجوه السوداء فى جانب من الغرفة . وارتفع طنين الهمهمات على حين أخذ

شرطيان يدفعان الجماهير الى أحد الجانبين ليفسحا الطريق «لماكس»
و «بيجر» الذى أخذ يسير فى بطء وهو يحس بيد «ماكس» تحتك بكم
«سترتة» حتى وصل الاثنان الى مقدمة الغرفة فهمس «ماكس» : -

- اجلس

وبينما كان «بيجر» يجلس ومضت آلات التصوير فى عينيه
حيث كان المصورون يلتقطون له مزيدا من الصور .. وارتعشت شفتاه
ولم يعد يدرى ماذا يفعل بيديه ، كان يريد أن يدسهما فى ثنانيا «سترتة»
أو فى جيبه ولكن ذلك كان سيتطلب منه مجهودا كبيرا ويثير الانتباه
أليه . وأبقاهما طليقتين فوق ركبتيه وراحتا يديه الى أعلى والحيرة
لا تزال تملكه . وتسلسل ضوء الشمس الشاحب من نافذة مرتفعة يخترق
جو الغرفة .

وتطلع «بيجر» حوله . نعم ، هذه أمه ومعها شقيقه وشقيقته
وكلهم يتطلعون نحوه : وهناك أيضا كثيرون من زملائه فى المدرسة واثنان
من مدرساته .. و «ج . هـ» و «ج . ك» و «ج . س» و «دوك» ..
وخفض «بيجر» بصره . هؤلاء هم أنفسهم الذين كان ما يتفاسر
بينهم ويدعى القسوة والعنف ويسخر منهم : وها هم أولاء الآن يرونه
جالسا .. متهما ولعلمهم يحسون فى هذه اللحظة بأنهم كانوا على حق
وبأنه هو الذى كان على باطل . وعادته الرعشة القديمة تملك معدته
وحلقه . لماذا لا يطلقون عليه النار فى الحال .. ليربحوه ؟ لسوف يفشلونه
على أية حال فلماذا لا يتعجلون ذلك ؟ وانتبه على صوت عميق ..
ودقات مطرقة خشبية ..

- فلينهض الجميع ..

ووقف كل من بالغرفة . وأحس «بيجر» بيد «ماكس» تلمس
ذراعه فنهض واقفا معه . وخرج من باب خلفى رجل يرتدى ثوبا
أسود طويلا ..

رجل أبيض : ثم جلس خلف «منصة» مرتفعة هذا هو القاضى .

وعاد «بيجر» يجلس فوق مقعده ..

ومرة أخرى عاد الصوت العميق .. واستطاع «بيجر» أن يلتقط
أمشاجا مختلطة مما قال : -

- اسمعوا .. انصتوا .. هذا الفرع المحترم من محكمة جنايات

«كوك كاوتى» .. ينعقد الآن .. القاضى المحترم ايفين . س .

هانلى ..

ورأى « بيجر » القاضى ينظر الى « بكلى » ثم اليه والى « ماكس » .
ونهض « بكلى » واتجه الى مواجهة « المنصة » : ونهض «ماكس»
هو الآخر وتقدم نحو « المنصة » وتحدث الاثنان قليلا مع القاضى فى
اصوات منخفضة ثم عاد كل منهما مرة أخرى الى مكانه . ونهض رجل
كان يجلس الى أسفل من القاضى ثم بدأ يقرأ ورقة طويلة فى صوت أجش
غير مرتفع حتى أن « بيجر » لم يستطع أن يميز من كل ما قرأه غير :
عبارات قليلة :

« ... الدعوى رقم ٩٨٣ - ٦٦٦ .. شعب ولاية الينوى ضد
« بيجر توماس » .. ثم اختيار هيئة المحلفين الكبار وأقسموا اليمين .
وهم يقررون أن « بيجر توماس » قد اعتدى بالخنق باليد .. وحرق
الجثة فى موقد .. وفصل الرأس عن الجسد باستخدام سكين وساطور
.. الجرائم المذكورة حدثت فى حق المدعوة مارى دالتون وضد أم
وسلام شعب ولاية الينوى .. »

ونطق الرجل باسم « بيجر » مرة تلو أخرى وأجس « بيجر »
.. كما لو كان مشدودا الى آلة تدور عجلاؤها به . ومرة تلو أخرى
كان الرجل يذكر أنه - أى « بيجر » قد قتل مارى ويبسى وأنه فصل
رأس مارى عن جسدها وأنه ضرب ويبسى بقلب طوب وبأنه أحرق جسد
مارى داخل الموقد وبأنه ألقى بيبسى من المنور وتركها تتجمد حتى الموت
فى الجليد وبأنه ظل مقيما داخل منزل عائلة « دالتون » على حين
كانت جثة مارى تحترق ، وبأنه أرسل خطاب الاختطاف . وعندما
انتهى الرجل من كلامه ارتفعت فى القاعة شهقات الدهشة ورأى
« بيجر » أن كل العيون قد تحولت نحوه .

ودق القاضى على « المنصة » طالبا الهدوء .. ثم قال : -

- هل المتهم مستعد لمواجهة التهمة ؟

ونهض « ماكس » : -

- نعم ياسيدى القاضى .. ان المتهم « بيجر توماس » يقر بأنه

مذنب . وارتفعت الصيحات . وأدار « بيجر » رأسه وبأى بضعة
رجال يندفعون الى خارج قاعة المحكمة وسط الجمهور . وأدرك أنهم

من الصحفيين . وعاد القاضى يدق على « المنصة » طالبا الهدوء والنظام . وحاول « ماكس » أن يكمل حديثه ولكن القاضى أوقفه :-

— دقيقة واحدة يامستر « ماكس » .. يجب أن يسود النظام والهدوء

وساد القاعة هدوء .

— سيدى القاضى : .. بعد امعان طويل وجاد : قررت أن أبادر فأسحب دفعنا السابق وأدفع من جديد بأن المتهم مذنب .

ان قانون هذه الولاية يسمح بتقديم الأدلة التى يمكن على أساسها تخفيف العقوبة ولسوف أطلب من المحكمة — بقدر مايتسع لى صدرها — أن تتاح لى الفرصة لتقديم الأدلة الكافية من واقع تصرفات هذا الصبى العقلية والعاطفية . لكى أظهر للمحكمة مدى مسئوليته عن هذه الجرائم . وأود أيضا أن أقدم الدليل من واقع حداثة سن هذا الصبى . وأخيرا فاننى أطلب من المحكمة أن تجعل من اقرار هذا الصبى بأنه مذنب : مبررا قانونيا لتخفيف العقوبة عليه ..

وصاح « بكلى » مقاطعا : —

— سيدى القاضى :

فقال « ماكس »

—دعنى اكمل كلامى ..

وتقدم « بكلى » نحو « المنصة » وقد أحمر وجهه وصاح :

— أنت لا تستطيع أن تدفع بأن هذا الولد مذنب ومجنون فى نفس الوقت واذا أنت دفعت بأن « بيجر توماس » مجنون فلسوف يطلب الادعاء أن يحاكم أمام المحلفين ..

فقال « ماكس »

—سيدى القاضى : أنا لا أدفع بأن هذا الصبى مجنون من الوجهة القانونية ولكننى سوف أصل من مناقشة اللابسات الى تفسير تصرفات هذا الصبى العقلية والعاطفية وتوضيح مدى مسئوليته عن هذه الجرائم

فصاح « بكلى » : —

— هذا دفاع يستند الى دفع بجنون المتهم

— أنا لا أدعى ذلك .

— ولكن الرجل اما أن يكون مجنوننا واما أن يكون عاقلا

— ولكن هناك درجات في اختلال القوى العقلية . وقوانين هذه الولاية تسمح بسماع تفاصيل الملابس التي تستطيع المحكمة بعدها أن تحدد مدى المسؤولية كذلك فان القانون يسمح بتقديم الأدلة التي قد تسمح بتخفيف العقوبة .

— أن الادعاء سوف يستند الى الشهود والملابس لكي يثبت أن المتهم يتمتع بكامل قواه العقلية .

ودارت مناقشة طويلة لم يفهم منها « بيجر » شيئا . واستدعى القاضي الاثنين أمامه وظلا يتحدثان ساعة كاملة .. وأخيرا عاد كل منهما الى مكانه .. واتجه القاضي ببصره الى « بيجر » وقال :

— « بيجر توماس » .. قف .

وأحس بجسده وكأنه يحترق : تماما كما أحس لحظة أن اقتربت منه مسز « دالتون » وهو الى جوار فراش « ماري » . وتماها كما أحس عندما جلس داخل السيارة بين « جان » و « ماري » .. وعندما رأى « جس » قادما من الباب وهو يدخل « صالة البلياردو » — انه يحس الآن بنفس الاحساس : خوف رهيب يستبد به ويشد جسده . وفي تلك اللحظة بدا له أن أى شيء يمكن أن يحدث له في الدنيا .. لابد أن يكون أفضل من تلك الوقفة التي كان يقفها . وود لو قفز من فوق مقعده واندفع لينهى تلك المعركة غير المتكافئة . ولكن « ماكس » أمسك بيده .

— قف يا « بيجر » .

ونفض « بيجر » مستندا الى حافة المنضدة وركبته ترتعشان حتى خيل اليه أنهما سينهاران تحت ثقله . ونظر اليه القاضي طويلا قبل أن يتكلم . وسمع « بيجر » من خلفه طنين همهمات . ودق القاضي على « المنصة » يطلب الهدوء : —

— الى أى مرحلة وصلت في تعليمك ؟

وقل « بيجر » وقد أدهشه السؤال :

— الصف الثامن

— اذا كنت تقر بجريمتك .. فقد تحكم عليك المحكمة بالموت ..
وقد تحكم عليك بالسجن مدى حياتك .. وقد تحكم عليك بالسجن مدة
لا تقل عن أربع عشرة سنة .. هل تفهم الآن ما أعنيه ؟

ونظر « بيجر » الى « ماكس » الذى أوما اليه براسه
وقال القاضى : —

— تكلم .. اذا لم تكن قد فهمت ماقلتة الآن .. فقل لنا انك لم
تفهم .

وهمس « بيجر » : —

— ز .. ز .. نعم يا سيدى .. افهم .

— حسن . مادمت قد أدركت كل هذه الاحتمالات : فهل تظل
تقر بأنك مذنب ؟

— ز .. نعم .. نعم ياسيدى

واحس وهو ينطق بهاتين الكلمتين بأن ذلك كله كان حلما وحشيا
رهيبا ينبغى أن يزول فوراً .. وبأى شكل .

— حسن .. تستطيع اذن أن تجلس

فجلس .

وسأل القاضى : —

— هل الادعاء مستعد لتقديم أدلته وشهوده ؟

— نعم ياسيدى القاضى .

ثم نهض يواجه القاضى والجمهور

— سيدى القاضى : ان كلمتى الآن سوف تكون قصيرة فلست فى
حاجة الى أن أشرح للمحكمة تلك التفاصيل الرهيبة لتلك الجرائم
المرعبة . ان شهود الاثبات والاعتراف الذى وقعه المتهم نفسه والأدلة
الثابتة .. كل هذه سوف تكشف طبيعة هذا العمل البشع والخطيئة
ضد الله والناس : سوف تكشفها بأكثر مما أستطيع أنا من فصاحة
او بلاغة . والحق أننى اعترف بأن هذه القضية التى أحس فيها من
أكثر من وجه ، بأننى عاجز عن أن أوصل الى هيئة المحكمة الموقرة

بعض حقائق جريمتها الشريرة الخيالية التي يصعب تصديقها الى جانب وحشيتها وغرابتها عن كل مفاهيمنا في هذه الحياة .

والحق أيضا أنه لم يسبق لى طوال عملى الرسمى الطويل كمدافع عن هذا الشعب أن وجدت نفسى فى موقف أحس فيه بواجبى المقدس مثلما احس الآن . وليس هنا اليول مجال لتفسيرات فى القانون تفيض بالمرأغة وتفرق فى النظريات والخيالات .

وتوقف بكلى « لحظات وهو ينظر الى الجمهور فى القاعة ثم اتجه الى منضدة التقط من فوقها « السكين الذى فصل به « بيجر » رأس مارى عن جسدها .. ثم استطرد قائلا : -

- ان هذه القضية حادة قاطعة مثل سكين الجريمة : السكين التى قضت على حياة فتاة بريئة :

ثم توقف مرة ثانية والتقط قالب الطوب الذى ضرب به « بيجر » رأس « بيسى » ثم عاد يقول : -

- سيدى القاضى : ان هذه القضية صلبة مثل هذا القالب : ...
القالب الذى هشم به القاتل رأس فتاة مسكينة :

وعاد « بكلى » ينظر الى الجمهور : -

- وليس كثيرا ياسيدى القاضى ما يجد ممثل الشعب جماهير المواطنين الذين انتخبوه يقفون خلفه فى صلابة وينتظرون منه أن ينفذ القانون ..

وساد القاعة سكون كسكون القبور على حين اتجه « بكلى » الى النافذة .. وفتحها بحركة سريعة من يده فتناهت من خلالها أصوات الغوغاء المحتشدين بالخارج . وماجت القاعة ..

- اقتلوه الآن ...

- اشنقوه

ودق القاضى على « المنصة » يطلب الهدوء .. ثم قال : -

- اذا لم تتوقف هذه الضجة فسوف آمر باخلاء القاعة ..

وقفز « ماكس » .. وصاح : -

- اننى اعترض ، هذه فوضى ضد القانون . والواقع انها محاولة للتأثير على المحكمة فقال القاضى : -

– الاعتراض مقبول . أستمروا ولكن في أسلوب تحترم فيه وظيفتك وتحترم فيه هذه المحكمة بإسيادة مدعى الولاية :
وقال « بكلي » وهو يجفف عرقه بمنديل : –

– معذرة يا سيدي القاضي . لقد كنت أرزح تحت عبء ثقيل من المشاعر . وقد كان كل قصدي أن أعبر للمحكمة عن أهمية القضية وضرورة التعجيل فيها ..

فقال القاضي : –

– المحكمة في انتظار مرافعتك

فقال « بكلي » : –

– « نعم ياسيدي القاضي . والآن ، ما موضوعاتنا هنا ؟ ان الدعوى توضح في جلاء طبيعة الجريمة التي اعترف المتهم بأنه مذنب فيها . ان محامي الدفاع يدعى – ويحاول أن يحمل المحكمة على تصديقه – أن مجرد اقرار المتهم بجريمته يصلح أساسا لتخفيف العقوبة »

« اننى اذ أتكلم باسم عائلتي ماري دالتون ويسى ميرز – العائلتين المنكوبتين الخزيتين – وباسم شعب ولاية ينوى الذين يحتشد آلاف منهم خلف هذه النافذة في انتظار كلمة القانون داخل هذه القاعة ... اننى اذ أتكلم باسم هؤلاء جميعا أقول انه لا يمكن أن تعترض أساليب الخداع والمراوغة حكم هذه المحكمة أو أن تخدع القانون : »

« هناك رجل ارتكب جريمتين من أفظع ما ارتكب من جرائم في تاريخ الحضارة الأمريكية . ثم اعترف بجريمتيه .. فيأتى محاميه ليحاول أن يحملنا على أن – نصدق أن المتهم بعد أن اعترف بجريمته التى خرق بها القانون ، وبعد ان حاول قتل ممثلى القانون يمكن أن يتوسل باعترافه هذا الى تخفيف العقوبة عليه

« اننى أقول ياسيدي القاضي : ان هذه تعتبر اهانة بالغة للمحكمة .. بل ولشعب هذه الولاية الذكى : واذا كانت جرائم كهذه تسمح بمثل هذا الدفاع : واذا كانت حياة قاتل ستوهب له على أساس دفاع كهذا ، فلسوف أقدم استقالتى من منصبى وأقول لهؤلاء الناس المنتظرين فى الشوارع اننى لم أعد أستطيع أن أحمى أرواحهم وممتلكاتهم ولسوف أقول لهم ان محاكمنا الفارقة فى العاطفة الكريهة لم تعد أجهزة صالحة لحماية الأمن العام .. ولسوف أقول لهم اننا قد تخلينا عن معركة الحضارة .

« ان الدفاع عن المتهم يقرر أنه سوف يطلب من المحكمة أن تصدق أن حياة المتهم الذهنية والعاطفية لم تكن لتسمح له بأن يتحمل تبعه جرائمه البشعة . وهو يطلب من المحكمة أن تتصور عالما أسطوريا من الأفكار والمشاعر لا يملكه انسان بعينه . وهو يقول لنا ان الانسان عاقل بما يكفى أن يرتكب جريمة : ولكنه لا يكون عاقلا بما يكفى أن يحكم عليه من أجل هذه الجريمة : .. وأنا لم يسبق لى فى حياتى كلها أن سمعت مثل هذا اللغو القانونى ولا مثل هذه المحاولة المحسوبة المبيتة لخرق القانون والهروب منه : .. ولكننى أقول : ان هذا لن يكون »

« ان هذه الولاية تصر على أن يحاكم هذا الرجل عن طريق هيئة المحلفين اذا استمر الدفاع فى ادعائه بأنه ليس خاطئا . واذا كانت مرافعته ستقتصر على الاقرار بالذنب فان الولاية تطالب بعقوبة الاعدام على هذه الجرائم السوداء »

« ولسوف أقدم فى الوقت الذى تحدده المحكمة الأدلة والشهود الذين يؤكدون أن هذا المتهم بكامل قواه العقلية وأنه مسئول عن هذه الجرائم الدموية .. »

وقال ماكس : -

سيدى القاضى :

فصاح « بكلى » : -

- لسوف يكون لديك الوقت الكافى للدفاع عن موكلك .. فدعنى اكمل كلامى :

واستندار القاضى الى «ماكس» وسأله : -

- هل لديك أى اعتراض

- نعم : لقد ترددت فى مقاطعة مدعى الولاية . ولكن الانطباع الذى يحاول أن يتركه هنا هو اننى ادعى أن هذا الولد ليس بكامل قواه العقلية . وهذا ليس صحيحا . سيدى القاضى ، دعنى أقرر مرة أخرى أن هذا الولد المسكين ، « بيجر » ، يعترف بجريمته ..

وصاح « بكلى » مرة أخرى : -

- اننى أعترض .. أعترض على ان يتحدث الدفاع عن هذا المتهم

أمام المحكمة فيطلق عليه اسما غير اسمه المكتوب في أوراق القضية : ان أسماء مثل « بيجر » ومثل « هذا الولد المسكين » تذكر خصيصا لاستشارة الشفقة ..

فقال القاضي : -

- الاعتراض مقبول . وينبغي للدفاع مستقبلا أن يلتزم بالاسم الوارد في أوراق القضية . مستر « ماكس » : اعتقد أنك ستسمح لدعى الولاية بأن يكمل كلامه

وقال « بكلي » : -

- ليس هناك ما أضيفه ياسيادة القاضي . واذا رغبت المحكمة فسوف أطلب الشهود الى المثول ..

فتساءل « ماكس » :

- وكم شاهدا لديك ؟ ستون ؟

فقال ماكس :

- سيدي القاضي .. ان « بيجر توماس » قد اعترف بجريمته يبدو لي من ثم أنه لا حاجة الى هؤلاء الشهود الستين ولكن « بكلي » صاح :

- اننى أهدف الى أن أثبت للمحكمة أن هذا المتهم بكامل قواه العقلية وأنه كان ولا يزال مسئولا عن هذه الجرائم المفزعة فقال القاضي :

- سوف تسمح المحكمة للشهود .

فقال ماكس : -

- سيدي القاضي . دعنى أوضح لكم هذا الأمر . كما تعلمون يا سيدي ، فان الوقت الذي منحته لكى أعد دفاعى عن «بيجر توماس» كان قصيرا للغاية .. قصيرا بشكل لم يسبق له مثيل . ان هذه الدعوة قد رفعت الى قمة «الرول» حتى تجرى محاكمة هذا الولد ، على حين مشاعر الناس لا تزال ملتهبة . ان تغيير موعد نظر الدعوى سوف يكون الآن غير ذى قيمة فان نفس حالة « الهستيريا » لا تزال تسود هذه الولاية . ولقد وضعتنى كل هذه الظروف والملايسات فى موضع لا أفعل معه ما هو أفضل وأكثر حكمة بقدر ما أفعل الشئ الذى أضطر الى أن أفعله : ولو أن شخصا آخر غير زنجى هو الذى اتهم بهذه الجريمة لما حرص مدعى الولاية على أن يستعجل نظرها وعلى أن يطالب بعقوبة الاعدام .

ولقد حاول الادعاء أن يوهمكم أننى سوف أدفع بأن المتهم مجنون

ولكن هذا ليس صحيحا . وسوف لا أقدم شاهدا واحدا على « المنصة » ولكننى أنا الذى سأشهد فى صالحه وأقدم الدليل على أن صغر سنه وحياته العقلية والعاطفية والأسباب التى دفعته الى الاقرار بجريمته ينبغي أن تكون جميعا مبررا لتخفيف العقوبة عليه . . . ان الادعاء يحاول أيضا أن يقنعكم بأننى أحاول أن أجعل من اقرار المتهم بجريمته عنصرا للمفاجأة « وتغطية » لأسلوب من أساليب الخداع القانونى أصل عن طريقها الى تخفيف العقوبة ولكننا طالما شهدنا أكثر من قضية كهذه القضية هنا فى ولاية لينوى . . وأقرب مثال على ذلك قضية « لويب وليوبولد » . ان ما فعلته اذن ليس أكثر من وسيلة عادية ومشروعة أتاحها قانون تقدمى متحرر فى هذه الولاية . واذا كان الأمر كذلك فأننى أتساءل :

الآن هذا الصبى فقير وأسود ، فاننا نسلبه حق الحماية ونفس الفرص التى منحناها غيره من قبل ؟

سيدى القاضى ، أنا لست جبانا : ولكننى لا أستطيع أن أطلب بالافراج عن هذا الصبى وبمنحه فرصة الحياة على حين هذه الغوغاء تعوى خلف هذه النافذة . أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك . . وإنما أنا أفعل ماأنا مضطر اليه . اننى أطلب على الرغم من هذه الصيحات المحمومة – بألا تحكموا عليه بالموت

. . ان قانون ولاية لينوى ينص بالنسبة الى مسألة الاقرار بالجريمة أمام المحكمة على ما يلى : أن تحكم المحكمة بالموت أو أن تحكم بالسجن مدى الحياة أو أن تحكم بالسجن لمدة لا تقل عن أربع عشرة سنة . وعلى هدى من هذا القانون فان المحكمة تستطيع أن تسمع مبررات تخفيف العقوبة ذلك أن الهدف من ورائه هو تنبيه المحكمة الى ضرورة البحث عن الأسباب التى من أجلها ارتكب القاتل جريمته وبالتالي استخلاص المبررات التى تخفف العقوبة بمقتضاها . وقد لاحظت أن مدعى الولاية لم يحاول أن يطرق الأسباب التى دفعت « بيجر توماس » الى أن يقتل هاتين الفتاتين . وكأنه يقول : ان هناك غوغاء تنتظر خارج هذه القاعة . . فلنقتله لننتهى : ان كل أسانيده التى يقدمها اذن هى أنه اذا لم نقتل نحن هذا الصبى فان الغوغاء فى الخارج هى التى ستفعل ذلك .

كذلك فان مدعى الولاية لم يناقش الدوافع التى حفزت «بيجر توماس» على ارتكاب جريمته . . وهو لم يفعل ذلك لأنه لا يستطيع . ومن ثم فان من مصلحته أن تعالج القضية فى عجلة قبل أن يفكر الناس جيدا أو قبل

أن تتضح لهم كل الحقائق . ذلك أنه يعلم أن هذه الحقائق اذا وضحت :
وأنه اذا أتيحت للناس فرصة كافية للتفكير فانه يستطيع بالتالى أن يقف
هنا ويصيح طالبا الموت .

ما الدوافع المباشرة التى حفزت «بيجر توماس» الى ارتكاب جريمته؟
الاجابة ، هى أنه لا دوافع مباشرة على الاطلاق على حسب مفهوم لفظة
الدوافع فى قوانيننا الحالية ، ولسوف أفسر ذلك عندما أدلى بمرافعتى .
وأنا أقول : اننى أصر على أن حياة هذا الصبى العقلية والعاطفية يجب أن
يحسب حسابها عند تقرير العقوبة نظرا لطبيعة هذه الجريمة المميزة . وما
دام المدعى العام للولاية يحاول أن يثير « شهية » الغوغاء باستعراض
لا داعى له للشهود : وما دام يلهب أخيلة الناس أكثر وأكثر بتفاصيل
جريمة الصبى . فلسوف أستمع اليه لأقول للمحكمة فى النهاية . . لماذا
ارتكب « بيجر توماس » جريمته . . ان هذا الصبى صغير . . ليس فى
السن فحسب ، بل فى طبيعة تصرفاته تجاه الحياة . انه أصغر سنا من أن
يدل بصوته فى الانتخابات وهو - حيث يعيش داخل منطقة الحزام الأسود
- أصغر من غالبية الصبية الذين هم فى مثل سنه : - ذلك لأنه لم تتح
له فرص الاحتكاك بمختلف أوجه الحياة العريضة وأعماقها . وليس لديه
سوى شيئين يحركان عواطفه : العمل والجنس - وهو لا يعرف هذين
الشيئين الا فى أكثر مستوياتهما هبوطا .

. . ولسوف أسأل هذه المحكمة أن تمنح هذا الصبى الحياة . وكلى
ايمان بأن هذه المحكمة سوف تستجيب لى .

ثم جلس « ماكس » على حين ملأت الهمهمات القاعة . .

وقال القاضى :

- سوف ترفع الجلسة لمدة ساعة وتعود الى الانعقاد فى تمام الواحدة .
واقتيد « بيجر » الى ردهة مكتظة بالناس وقد أحاط به رجال
الشرطة . . ومرة أخرى مر الى جوار النافذة ورأى جماهير الغوغاء وقد
أحاطت بها قوات الحرس الوطنى . وقادوه الى حجرة رأى فيها صحيفة
طعام فوق مائدة . وكان « ماكس » فى انتظاره .

- هيا . . اجلس . . كل شيئا .

- لا أريد أن أكل .

- هيا . . هيا ؟ يجب أن تتماسك

- لست جائعا

- حسن .. خذ ودخن .

لا -

- هل تريد أن تشرب قليلا من الماء ؟

لا .

وجلس « بيجر » منحنيا الى الأمام وقد أراح ذراعيه فوق المائدة ودفن وجهه فى حنايا مرفقيه .. كان يحس بالتعب ويحس بذلك الضيق والتوتر الذى كان يحس به عندما كان الرجال فى المحكمة يتجادلون حول مصيره . وساعتها زایلته كل أفكاره الغامضة المثيرة عن العثور على وسيلة للحياة أو الموت ولم يعد باقيا بأعماقه سوى الخوف والهلع داخل تلك القاعة . وعندما عاد القاضى نهض مع الباقيين .. ثم عاد فجلس

وقال القاضى :-

- يستطيع المدعى الآن أن يستدعى شهوده .

فقال بكلى :-

- حسن يا سيدى القاضى .

وكان أول الشهود سيدة عجوز لم يسبق لبيجر أن رآها من قبل . وسمع خلال سؤالها أن « بكلى » يدعوها باسم السيدة « رولسون » ، ثم سمع السيدة وهى تقول انها والدة السيدة « دالتون » . ورأى « بيجر » أن « بكلى » يقدم لها القرط الذى رآه فى أثناء التحقيق معه وسمع السيدة وهى تحكى كيف أن هذا القرط تداولته الأمهات والبنات سنين طويلة . وعندما انتهت السيدة « رولسون » قال « ماكس » انه لا يريد أن يسألها هى أو غيرها من شهود الادعاء . واقتيدت السيدة « دالتون » بدورها لتقول نفس ما قالته من قبل فى أثناء التحقيق .. وذكرت مرة أخرى أنها قد استأجرت « بيجر » .. ثم أشارت اليه باسم « الصبى الزنجى الذى جاء الى بيتى للعمل » . كذلك جاءت « بيجى » لتشير اليه وتقول وسط نشيجها :- « نعم ، انه هو » وذكروا جميعا أنه كان يتصرف تصرفات هادئة كأى صبى عاقل .

وعندما جاء دور « بريتن » ذكر كيف أنه كان يشك فى أن « بيجر » كان يعلم شيئا عن اختفاء « مارى » .. وقال ان « هذا الولد الزنجى عاقل مثلى تماما »

وتقدم للشهادة أحد الصحفيين فذكر كيف أن دخان الموقد هو

سبب اكتشاف عظام « ماري » . وعندما انتهى الصحفي من شهادته نهض
ماكس : -

- سيدي القاضي : أريد أن أعرف كم من الصحفيين لا يزال ينتظر
دوره للشهادة ؟

فقال بكلي : -

- مازال لدى أربعة عشر صحفيا ..

فصاح « ماكس » : -

- سيدي القاضي ، هذا عدد لا داعي له على الإطلاق . ان هناك اقرارا
من المتهم بجريمتة ...

فصاح « بكلي » بدوره : -

- اننى أبرهن على أن القاتل ليس مجنونا

فقال القاضي : -

- سوف تسمع المحكمة شهاداتهم ... استمر يا مستر « بكلي »

وجاء أربعة عشر صحفيا آخرون ليتحدثوا عن الدخان والعظام ..
ويقولوا ان « بيجر » كان يتصرف « تماما مثل كل الصبية الملونين غيره »
.. وفي الساعة الخامسة رفعت الجلسة للاستراحة وجاء لبيجر بطعام فى
حجرة صغيرة وحوله ستة من رجال الشرطة . ولم يستطع « بيجر » سوى
أن يحتسى القهوة . وفي الساعة السادسة عاد الى قاعة المحكمة التى كانت
قد أضيئت مصابيحها .. وعاد استعراض الشهود حتى لم يعد « بيجر »
يحس بما يجرى أمامه بالفعل . وجاء خمسة رجال من البيض ليشهدوا
بأن خطاب الاختطاف مكتوب بخط يده وبأن هذا الخط هو نفس خطه الذى
عثر عليه فى ملفه بالمدرسة التى سبق أن كان ملتحقا بها . وجاء رجل
آخر أبيض ليقول ان بصمات أصابع « بيجر توماس » قد التقطت من فوق
باب « حجرة الأنسة دالتون » .. ثم تبعه ستة من الأطباء البيض الذين
أكدوا حالة « بيسى » قبل قتلها . وفى أعقابهم جاء أربعة من السقاة
الملونين ممن يعملون فى مطعم « ايرنى » وأشاروا اليه باعتباره « الولد
الملون الذى كان يجلس على المائدة فى تلك الليلة مع الرجل الأبيض والفتاة
البيضاء » ، ثم ذكروا أن هذا الولد كان يتصرف بهدوء كأي انسان عاقل :
« وبعد هؤلاء الأربعة جاءت سيدتان بيضاوان مدرستان شهدتا بأن

« بيجر » : « كان صبيا قميئا ٠٠ ولكنه عاقل وليس مجنوناً ٠٠٠ وتتبع الشهود يذوب الواحد منهم في الآخر حتى لم يعد « بيجر » يهتم بهم على الإطلاق وظل يحرق أمامه دون امعان ٠٠ وكان يسمع بين الحين والآخر صوت الرياح وهى تزار فى خارج القاعة ٠ وأحس بالسعادة عندما انتهى الاستعراض ٠

وقبل أن يعيدوه الى « زنزانته » سأل « ماكس » : -

- الى متى يستمر هذا ؟

- لست أدري يا بيجر : ولكن ينبغى أن تكون شجاعا وأن تتماسك ٠

- كنت أرجو أن ينتهى الأمر سريعا ٠٠

- انها حياتك يا « بيجر » ويجب أن تقاتل من أجلها ٠

- لم أعد أهتم بما سيفعلونه بى ٠٠ كل ما أرجوه هو أن ينتهى

الأمر ٠٠

وأيقظوه فى صباح اليوم التالى فتناول طعامه وأعادوه مرة أخرى الى قاعة المحكمة وجاء « جان » للشهادة وكرر ما ذكره فى التحقيق ولم يحاول « بكلى » فى هذه المرة أن يربط بين « جان » وبين مقتل «مارى» ٠ وعندما جاء دور « ج ٠ هـ » و « جس » و « جاك » ٠ ذكروا كيف أنهم اعتادوا أن يسرقوا المحال « واكشاك » الصحف ، وأشاروا الى الشجار الذى نشب فى صباح اليوم الذى دبروا فيه خطة سرقة محل « بلوم » ثم تبعهم « دوك » فذكر كيف مزق « بيجر » « قماش » مائدة البلياردو ٠ وقال ٠ ان « بيجر » كان « سافلا وشريرا ٠٠ ولكنه عاقل : « وجاء بعده ستة عشر شريطا فأشاروا جميعا اليه وشهدوا بأنه «بيجر توماس»، الرجل الذى قبضنا عليه » ثم ذكروا أن الرجل الذى يستطيع أن يهرب من القانون بمهارة مثل « بيجر » لابد أن يكون « عاقلا ومستولا ٠ وتقدم للشهادة رجل من محكمة الاحداث فقرر أن « بيجر » قد نفذ حكما بثلاثة أشهر داخل مدرسة للإصلاح والتهديب لأنه سرق اطار سيارة ٠

ورفعت الجلسة للاستراحة وفى فترة ما بعد الظهر تقدم خمسة من الأطباء ليؤكدوا أن « بيجر » : « عاقل ، ولكنه سوداوى وسلبى » ثم أحضر « بكلى » السكين وكيس النقود اللذين أخفاهما « بيجر » فى صندوق النفاية وذكر للمحكمة أن المدينة قد فتشت تفتيشا دقيقا لمدة أربعة أيام قبل العثور عليهما : كذلك أطلع المحكمة على قالب الطوب

الذى استخدم فى قتل « بيسى » . ثم على البطارية والمنشورات الشيوعية والمسدس والقرط المتفحم والساطون والاعتراف الموقع عليه من « بيجر » وخطاب الاختطاف وزجاجة الروم الفارغة التى عثر عليها وسط الجليد عند أحد المنحنيات . ثم جىء بعظام « مارى » فبدأت النساء فى قاعة المحكمة يبكين ، ثم دخل اثنا عشر عاملاً يحملون الموقد قطعة قطعة ليعيدوا تركيبه فوق « منصه » عالية أعدت خصيصاً ، ووقف كل من فى القاعة ليتطلعوا إليه . فأمرهم القاضى بالجلوس .

وجاء « بكلى » بفتاة بيضاء فى مثل حجم « مارى » ، وطلب ، منها أن تحاول - الدخول فى الموقد ليثبت « أن جسدها يمكن أن يدخل ويحترق مثلما احترق جسد مارى دالتون البريئة الطاهرة . وأن رأس الفتاة لا يمكن أن يتسع له الموقد ومن ثم فإن « بيجر » فصله عن الجسد . واستخدم « بكلى » جاروفا حديدياً من « بدروم » منزل عائلة « دالتون » ليبين كيف أمكن اخراج العظام ثم شرح كيف أن « بيجر » استطاع « بحذق » ومهارة أن يتسلل الى الدرج وسط الاضطراب . ثم ركن الى الفرار .

ثم قال وهو يجفف العرق فوق جبينه :-

- ان الادعاء استراح الآن . يا سيدى القاضى

وقال القاضى :-

- مستر « ماكس » تستطيع أن تستدعى شهودك .

- ان الدفاع لا يعترض على كل الشهود الذين جاء بهم الادعاء . ومن ثم فاننى أستغنى عن الشهود . وكما ذكرت من قبل ، فاننى سوف أقدم فى الوقت المناسب مرافعتى عن « بيجر توماس » .

وطلب القاضى من « بكلى » أن يقدم مرافعته . واستمر « بكلى » طوال ساعة كاملة يعلق على شهادة شهود الاتهام ويعرض أدلته . ثم انتهى الى أن قال :- « ان خصائص الجنس البشرى الذهنية والأخلاقية ينبغى أن توضع فى الحسبان اذا كانت الأدلة وشهادة الشهود التى قدمها الادعاء لا تكفى أن تجبر المحكمة على توقيع عقوبة الموت على «بيجر توماس» ، ... قاتل النساء »

وسأل القاضى « ماكس » :-

مستتر « ماكس » : هل أنت مستعد للادلاء بمرافعتك غدا ؟

— سوف أفعل يا سيدى القاضى .

وعاد « بيجر » الى « الزنانة » .. وارتقى فوق فراشه كمن ضاعت حياته .. قريبا .. قريبا جدا سوف ينتهى كل شيء : وربما يكون الغد آخر أيامه .. كم يأمل أن يحدث ذلك : لقد زايله تماما كل احساس بالزمن : بالليل .. أو بالنهار :

وأيقظوه فى صباح اليوم التالى عندما جاءه « ماكس » . وتساءل بينه وبين نفسه وهو فى طريقه الى « قاعة » المحكمة : ترى ماذا يمكن أن يقول « ماكس » اليوم ؟ هل يستطيع حقا أن ينقذ حياته ؟ .. ولكنه ما لبث أن طرد ذلك الحاطر . انه ان ظل مستبعدا ذلك الأمل عن ذهنه . فان أى شيء يحدث له بعد ذلك سوف يبدو طبيعيا . وعندما قادوه عبر الردهة بحذاء النافذة رأى أن الغوغاء مازالوا يحيطون بمبنى المحكمة خارج نطاق الجنود على حين كان المبنى من الداخل مثل خلية النحل حتى أن رجال الشرطة اضطروا الى أن يفسحوا له ممرا وسط الجماهير . واستبدت به رعدة الخوف عندما أدرك أنه هو الذى سيخطو أولا نحو المائدة فقد كان « ماكس » بعيدا عنه الى الخلف ضائعا وسسط الزحام . ولحظتها أدرك أكثر من أى وقت مضى ما اصبح « ماكس » يعنيه بالنسبة له . الآن أصبح وحده بلا نصير . فما الذى يمنع هؤلاء الناس من اقتحام المكان واقتياده الى اخارج .. هناك فى الشارع : ما دام « ماكس » بعيدا عنه ؟ وجلس : دون أن يجروا على النظر خلفه وهو يحس بأن كل الأعين مسلطة عليه . ان وجود « ماكس » الى جواره فى أثناء المحاكمة قد جعله يحس بأن هناك شيئا يمكن أن يلوذ به وسط هذا الحشد الذى لا يكف عن التحديق اليه فى اصرار وكراهية . لقد بزغ فى أعماقه الأمل .. الأمل الذى جعله « ماكس » يحس به لأول مرة خلال حديثهما الأول الطويل : ولكنه لا يريد أن يخاطر فيسمح لهذا الامل بأن ينمو لهيبه الآن وسط محاكمة كهذه .. ووسط حمم الكراهية التى يقذف بها « بكلي » . وبرغم ذلك فانه لم ينسلخ عن هذا الأمل تماما .. ولكنه ظل يحبسه فى صدره كآخر ملجأ يلجأ اليه .

وعندما جاء « ماكس » رأى « بيجر » أن وجهه شاحب وأن هناك هالتين سوداوين تحت عينيه . ووضع « ماكس » يده فوق ركبتي « بيجر » وقال هامسا : —

- لسوف أبذل كل ما فى وسعى يا بنى

وفتحت الجلسة . وقال القاضى : -

- هل أنت مستعد يا مستر « ماكس » ؟

- نعم يا سيدى القاضى ...

ونهض « ماكس » وتخلل بأصابع يده شعره الأبيض ثم اتجه الى مقدمة الغرفة واستدار قليلا ليوافقه القاضى و « بكلى » نصف مواجهة على حين اتجه ببصره الى الجمهور من فوق رأس « بيجر » . ثم تنحى وبدأ مرافعته :

« سيدى القاضى ، لم يسبق لى فى حياتى كلها أن وقفت فى ساحة القضاء لألقى بمرافعتى وأنا بمثل هذا اليقين الثابت الذى يملأ قلبى . اننى أعلم جيدا أن ما ينبغى لى أن أقوله اليوم يمس جماهير الأمة العريضة فى مجموعها ، ومن ثم فان مرافعتى هى من أجل أكثر من مجرد رجل واحد أو أناس بعينهم . وربما كان من حسن الحظ بطريقة ما أن المتهم قد ارتكب واحدة من أبشع الجرائم التى تعيها ذاكرتنا ، ذلك أننا اذا حاولنا أن نحيط بحياة هذا الرجل ونلم بكل ما قد حدث له ، واذا استطعنا أن نفهم مدى ارتباط حياته ومصيره بحياتنا نحن ومصائرنا-اذا نحن استطعنا أن نفعل ذلك فلربما وجدنا تفسيراً للمستقبل . . مستقبلا ، ولربما استطاع كل رجل أو امرأة فى هذه الأمة أن يجد نقطة الرؤية النادرة التى يستطيع من فوقها أن يستشرف أن آمالنا ومخاوفنا اليوم هى التى تخلق السعادة أو القبر غدا . »

« سيدى القاضى ، أنا لا أنوى أن أحيى عن واجب الاحترام لهذه المحكمة ، ولكن ينبغى أن أكون أمينا . ان هناك حياة رجل مهددة ، وليس هذا الرجل مجرما فحسب ، ولكنه أيضا مجرم أسود . ومن ثم فانه يجرى الى هذه المحكمة تحت وطأة تهديد معين بصرف النظر عن ادعاءاتنا بأننا جميعا متساوون أمام القانون »

« ان هذا الرجل يختلف عن غيره ، ولو أن جريمته لا تختلف الا قليلا عن مثيلاتها من الجرائم . ان قوى عقد المجتمع قد أفردت أماننا هنا رمزا . رمزا للاختبار ، ان ضغينة الناس قد لوئت هذا الرمز مثلما تلوث جرثومة للاختبار تحت المجهر ، ان كراهية الناس قد أظهرت لنا أبعادا نفسية سوف تمكنا من أن نرى هذا الرمز الاجتماعى الضئيل على ضوء نظامنا الاجتماعى المريض بأكمله . »

« أنا يا سيدى القاضى أقول : ان مجرد فهم « بيجر توماس » سوف يكون سببا فى كشف الدوافع التى يدفنها ركام من الجليد وفى استخلاص الأشكال المتردية من الفزع فى ليالى الرعب والخوف لتظهر حقيقتها على ضوء التعقل والمنطق ، وسوف تكون مدخلا الى ازاحة الستار عن شعائر الموت التى شاركنها فى تحقيقها دونما تفكير ونحن سائرون كالنيام . »

« وأنا لن أقدم دعاوى محدودة يا سيدى القاضى : فأنا لست ساحرا . وأنا لا أقول اننا اذا فهمنا حياة هذا الرجل فسوف نحل كل مشاكلنا . . أو اننا اذا جمعنا كل الحقائق فسوف نعرف بطريقة آلية كيف نتصرف ازاءها . أنا لا أقول ذلك لأننى أدرك تماما أن الحياة ليست على هذا القدر من « البساطة » ولكن الذى لا بد أن أقوله هو أنك اذا أحسست - بعد أن أنتهى - أن موت هذا الرجل أمر ضرورى فانك بذلك تكون قد أبديت رأيك . وما أريد أنا اذن أن أفعله هو أن أنقل الى وجدان المحكمة من خلال مناقشة الأدلة ، جانبى المواجهة المتأحين لنا وما يتبع كل جانب من نتائج حتمية لا مناص منها . ومن هنا . . فاذا كان الموت هو حكمكم . . فليكن ، وإذا كان حكمكم هو الحياة . . فليكن ، ولكن أيا كان الحكم فدعونا نعرف على أى أرض نضع أقدامنا وما هى النتائج المترتبة عليه بالنسبة لنا نحن وبالنسبة لهؤلاء الذين نحاكمهم »

« سيدى القاضى ، أريد منك أولا أن تثق تماما من أننى أقدر طبيعة المسؤولية التى ألقيتها على كاهلكم بالطريقة التى عقدت عزمى على أن تكون سبيل الى الدفاع عن حياة هذا الصبى ، وبقرارى مقدما بأنه مسئول مسئولية كاملة عن الجرائم التى ارتكبها . ولكن ، ماذا كان بوسعى أن أفعل غير ذلك تحت هذه الظروف والملابسات ؟ لقد أمضيت ليالى طويلة لا أستطيع فيها الاخلاص الى النوم وأنا أحاول أن أفكر فى طريقة أصور بها لكم وللعالم كله الأسباب والدوافع التى أدت بهذا الصبى الزنجى الى أن يجلس هنا معترفا بكل ما فعل . ولقد ساءلت نفسى مرارا : كيف أستطيع ؟ . . كيف أستطيع أن أصور بوضوح وقوة ما حدث لهذا الصبى على بساط من المنطق والفهم فى الوقت الذى تصدر فيه ألف صحيفة ومجلة وقد رسمت صورها الخاصة بمداد حالك السواد على مليون صفحة من الأسطر والكلمات ؟ هل أجسر - وأنا الذى أعرف بعمق أصل هذا الصبى وعنصره - على أن أضع مصيره بين أيدي محلفين (ليسوا من جنسه ولكنهم من جنس معاد يكن له الكراهية) تهيات عقولهم بما نشرته

صحافة هذه الأمة ، صحافة وصلت « مسبقا » الى قرار بالادانة . . بل واقتрحت نوع العقوبة فى عديد من المقالات ؟ » .
« . . أبدا . . لا أستطيع ذلك . ولقد حضرت اليوم لأواجه هذه المحكمة وأنا أرفض محاكمة المتهم « بواسطه » المحلفين ، وأقدم التماسا أطلب فيه على هدى قوانين هذه الولاية أن توهب الحياة لهذا الصبى لأسباب أرى أنها تؤثر على أسس حضارتنا هذه »

« ان المعتاد - فى الغالب - أن تأخذ المحكمة بوجهة نظر المدعى العام للولاية وتنطق بحكم الاعدام . . ولقد يكون هذا الحكم نهاية هذه القضية ، ولكنه لن يكون أبدا نهاية هذه الجريمة . وهذا هو السبب الذى من أجله ينبغى للمحكمة أن تفعل العكس » .

« هناك أوقات يا سيدى القاضى ، تحمل فيها الحقيقة ملامح من التعقيدات الأخلاقية تؤكد أنه من المستحيل أن يسلك المرء طريق الالتزام الجامد . كما أن هناك أوقاتا تكون فيها نهايات حياتنا مفككة بحيث يصبح فىنا المنطق والعقل لكى نتوقف قليلا ونعيد جمعها بعضها الى بعض مرة أخرى قبل أن نتابع السير » .

« واننى لأتساءل : أى جو أحاط بهذه المحاكمة ؟ هل المواطنون حريصون بشدة على أن يجرى تنفيذ القانون ؟ . . على أن يكون العقاب على قدر الذنب ؟ . . على أن يقبض على المذنب - والمذنب وحده - لكى يجرى عقابه ؟ »

« دعونى أجب على تساؤلى هذا فأقول : « كلا » . فان كل بادرة ضغينة وحقد قد دست فى هذه القضية . ان سلطات المدينة والولاية قد ألهمت عمدا عقول الجماهير الى درجة جعلتهم لا يخلدون الى الهدوء دون اعلان الأحكام العرفية ، على حين دأبت الصحف ودأب الاتهام - دونما وازع سوى ضمايرهم العفنة - على اذكاء الدعوى الحمقاء بأن الحزب الشيوعى كان بطريقة أو بأخرى على صلة بهاتين الجريمتين . بل ان المدعى العام جاءنا بالأمس فحسب لينسب الى « بيجر توماس » جرائم أخرى لم يستطع اثباتها »

« ان مطاردة « بيجر توماس » قد استخدمت كمبرر لارهاب الزوج كلهم وللقبض على مئات من الشيوعيين والاغارة على مقر اتحاد العمال والمنظمات العمالية . وليس من شك فى أن لهجة الصحافة وصمت الكنيسة وأسلوب سلطات الاتهام ومشاعر الناس المستثارة كانت جميعها

تشير الى أن المطلوب هو (أكثر) من انتقام من رجل أقدم على ارتكاب جريمة من الجرائم » .

« ما الذى يدعو الى كل هذه المشاعر الملتهبة والاضطراب والقلق ؟ أهى جريمة « بيجر توماس » ؟ أكان الزوج محبوبين بالأمس وأصبحوا اليوم مكروهين بسبب ما أقدم على ارتكابه ؟ أهوجمت اتحادات العمال فحسب لأن زنجيا ارتكب جريمة ؟ أكانت تلك العظام البيضاء المعروضة على منضدة هى التى تهدىء من حدة الفزع الذى شمل الأمة كلها ؟ » .

« سيدى القاضى ، أنت تعرف جيدا أن هذا كله لم يكن هو صلب القضية . ان كل عوامل « الهستيريا » القائمة الآن فى مواجهة « بيجر توماس » معروفة قبل اليوم . الزوج والعمال والاتحادات العمالية .. كانت كلها موضع كراهية بالأمس كما هى موضع كراهية اليوم » .

« ان هناك جرائم أبشع وأفظع من هذه الجريمة .. حدثت من قبل فى هذه المدينة ان رجال العصايات قتلوا وأطلق سراحهم ليقتلوا من جديد ، ولكن واحدة من جرائمهم هذه لم تفعل مثلما فعلته جريمة اليوم » .

« سيدى القاضى ، ان هؤلاء الغوغاء لم يحضروا اليوم الى هنا بمحض رغبتهم . انهم جاءوا موجهين . فمئذ أسبوع مضى كان هؤلاء الناس يحبون فى هدوء حياتهم المألوفة ؟ »

« من ذا اذن ، الذى أثار هذه الزوبعة من الغضب ؟ ولصالح من هذا الذى يفعله الغوغاء مدفوعين بلا تفكير ؟ » .

« ان المدعى العام للولاية يعرف الاجابة عن هذا السؤال ، لأنه وعاء أصحاب « البنوك » فى شارع (لوب) بانهاء الاضرابات للمطالبة بزيادة الأجور اذا ما أعيد انتخابه . ان حاكم الولاية يعرف هو الآخر ، لأنه وعد (اتحاد المنتجين) بأن يستخدم القوات المسلحة ضد العمال الذين خرجوا فى مظاهرات . كذلك فان العمدة يعرف ، لأنه أخبر تجار المدينة بأن الضرائب سوف تفرض على أساس الاستجابة الى صراخ الجماهير فى طلب الحاجات الضرورية » .

« ان هناك جريمة تكمن داخل هذه الثورة من الهياج التى تطالب بالقضاء على حياة هذا الرجل على وجه السرعة . ان هناك خوفا يكمن داخل الكراهية التى تحدد تصرفات الغوغاء المتجمهرين على طول وعرض الشوارع عبر هذه النافذة ، كلهم - الغوغاء .. وسادتهم .. المدعورون

وموجهوهم ، القادة وأتباعهم . يعلمون ويعحسون تماما أن حياتهم مبنية على أساس عمل تاريخي خاطيء ضد كثيرين من الناس . الناس الذين قامت رفاهيتهم هم أنفسهم على حساب أرواحهم . ان احساسهم بالذنب عميق مثل احساس هذا الصبي الذى يجلس اليوم هنا ليحاكم . ان الخوف والكراهية والاحساس بالذنب هى كلها مداخل لتفسير هذه المسرحية »

« سيدى القاضى ، من أجل هذا الصبي . . ومن أجل أنا أيضا ، أرجو أن أوفق فى أن أبسط أمام هذه المحكمة وقائع أخرى ذات طبيعة أخلاقية أكثر جدوى . وأود أن أقول ان الحب والطموح والحسد والرغبة فى المخاطرة أو أى احساس عاطفى آخر . . تكمن كلها وراء هاتين الجريمتين . ولو استطعت أن البس هذا الممثل المنكود الحظ مشاعر وأحاسيس ذات طبيعة أكثر ارتقاء لأصبحت مهمتى أسهل بكثير ولازددت ثقة بالنتيجة . ذلك أننى سأكون قد نجحت عندئذ فى أن أطلب الى أناس تحددهم مثل مألوفة أن يحكموا مدفوعين بالشفقة والفهم الصحيح على واحد من اخوتهم أخطأ ووقع فى محذور الصراع . ولكنى لا أملك الخيار فى هذا الصدد . فان الحياة هى التى فرضت ذلك الرداء . . ولست أنا »

« علينا هنا أن تكون معالجتنا للمادة « الحام » للحياة ، للعواطف والبواعث والتصرفات التى لم يستطع العلم ولا الحضارة أن يضصعا « مواصفاتها » . . علينا هنا أن نواجه أول خطأ ارتكبناه . . وحين ارتكبناه كان يبدو معقولا ولا مناص منه ، ثم أن نواجهه ، ونحن نحمل على كواهلنا عقدة الذنب الناتجة عن ذلك الخطأ ، عقدة ذنب أخرى قد يمنعنا الخوف وتمنعنا المصلحة الذاتية من أن نكفر عنها . كذلك ينبغى أن نواجه نوازع الكراهية التى بثها الخطأ الأول فى الآخرين والجرائم البشعة المفزعة الناتجة عن هذه الكراهية . . الكراهية التى تسلت الى أعماق القلوب وشكلت أعمق الحساسيات بين الناس »

« وعلينا هنا أن نضع فى اعتبارنا تلك الحياة المفككة الأوصال التى يحياها ملايين من الناس . . المفككة بصورة تذهل المخيلة والمثقلة بالظروف المؤلمة التى تدفعنا مأساتها الى أن نشيح بوجوهنا عنها الى أن نرفض مجرد التفكير فيها . . تلك الحياة التى طال عليها الزمن بحيث أصبحنا ننظر اليها باعتبارها قانونا من قوانين الطبيعة ، وأصبحنا أيضا نحصر على إبقائها بصورتها البشعة ملتزمسين سندا لحرصنا ضماثر قلقا وأخلاقيات زائفة » .

« علينا هنا أن نضع فى اعتبارنا - من كلا وجهى الصورة ، وبين البيض والسود على السواء ، بين العامين «والعاطلين» - رجالا ونساء يكمن فى عقولهم الخير والشر بدرجات متفاوتة ، ويمثلون نسبة من التكوين والمظهر الشاذين . وعندما تنهض أمامنا ظروف كهذه فإن الناس بدلا من أن يحسوا بأنهم يواجهون أناسا آخرين ، فانهم يحسون بأنهم يواجهون جبالا وفيضانات وبحارا ، ومن ثم فإن عقولهم - ازاء ضخامة هذه الأشياء وقوتها - تنتضال الى درجة غير عادية بالنسبة للحياة الحضارية المألوفة ومن ثم فإن هذا كله يعيش فى حدود الحياة الحضارية يدعمها ويعمل على تحطيمها فى ذات الوقت »

« واسمح لى ياسيدى القصى - قبل أن أصل الى صلب الدعوى وقبل أن ألتمس الرحمة - أن أقرر مخلصا أننى لا أدعى أبدا أن هذا الصبى ضحية ظلم وقع عليه ، كذلك فاننى لا أطلب من هذه المحكمة أن تتعاطف معى ، فليس هذا هدفى من وراء احتضان شخصه وقضيته . ولست أقف الآن هنا لمجرد أن أسرد على مسامعكم صفحات مما عاناه بالرغم من أن هناك كثيرا من جرائم الشنق على فروع الأشجار يتعرض لها الزوج فى طول البلاد وعرضها . ولو أنكم أصدرتم حكمكم على أساس هذا فحسب فسوف تقعون أنتم أيضا - مثلما وقع هو - فى خطأ الانسياق الى العاطفة العمياء - وسوف تستمر اذن حلقات المأساة مثلما يستهى نهر من الدماء .. الى بحر أكثر منه امتلاء بالدماء . فلننزع عن أذهاننا اذن فكرة أن هذا الصبى ضحية سيئة الحظ لعدالة كسيحة ، فان دعوى الظلم لا بد أن تقوم أساسا على افتراض أن هناك ادعاءات ثابتة ، ولكن هذا الصبى لا يدعى ذلك . واذا أنتم تصورتهم ذلك أو احسستموه فأنتم اذن قد أعماكم احساس أكثر ضراوة من الاحساس الذى تحاكمونه الآن من أجله فان هذا الاحساس بالذنب الذى أدى الى الخوف «والهستيريا» بين الغوغاء ليس سوى الشق المقابل للكراهية التى يحس بها هذا الصبى »

« وبدلا من ذلك ، فاننى أتوسل اليكم أن تروا معى نموذجا من الحياة كائنا بيننا : نموذجا من الحياة منسحقا ومهدرا ، ولكنه يملك قوانينه ومطالبه الخاصة . . نموذجا من الحياة لأناس يشبون فى تربة هياتها لهم ارادة جماعية - ولكنها عمياء - لمائة مليون من البشر . واننى لأتوسل اليكم أن تحاولوا ادراك حقيقة حياة بشرية شكلت على نمط مخالف تماما لحياتنا نحن ولكنها برغم ذلك حياة نابعة من تربة حرثناها نحن بأيدينا وغرسنا بذورها . وأطلب منكم أيضا أن تحاولوا ادراك طبيعة القوانين

النابعة عن ظروف كهذه وأن تفهموها وأن تبحثوا عن امكانية تغييرها ، فإذ لم نفعل ذلك فلا ينبغي اذن أن نتظاهر بالفزع أو الدهشة اذا ما عبرت هذه الحياة المهذرة المنسحقة عن ذاتها بالخوف والحقد والجريمة .

« هذه هي حياة جديدة وغريبة : غريبة لأننا نخافها ، وجديدة لأننا حرصنا دائما على أن نشيخ عنها بأبصارنا . هذه هي حياة يحيها قوم في حدود مغلقة وتعبر عن ذاتها بامكانياتها هي وليس على أساس ما نعرفه نحن من خير وشر . والرجال رجال .. والحياة حياة ، وعلينا اذن أن نعالج حياتهم كما هي ، واذا نحن أردنا أن نغير هؤلاء الرجال فعلينا أن نعالج أمورهم واضعين في اعتبارنا طبيعة هذه الحياة » .

« سيدى القاضى .. أرى واجبا على أن أظل أتحدث اليكم بشكل عام لأن «خلفية» حياة هذا الصبى يجب أن توضح لكم .. فهى «خلفية» كان لها أثرها القوى بالغ الأهمية فى سلوكه . لقد جاء أجدادنا الأول الى هذه الارض ليوажهوا أرضا قاسية برية .. ولقد جاءوا تدفعهم أحلام تملأ قلوبهم .. جاءوا من أرض أنكرت عليهم أشخاصهم تماما مثلما أنكرنا نحن شخصية هذا الصبى . جاءوا من مدن فى العالم القديم كانت وسائل العيش فيها قاسية وبعيدة المثال أحيانا . كانوا مستعمرين ، وواجهوا اختبارا صعبا : اما أن يقهروا هذه الأرض واما أن تقهرهم . وليس علينا الآن سوى أن ندير أبصارنا لنرى الطرقات الممهدة والمصانع والمباني لنعرف كيف استطاعوا هم أن يقهروا الأرض . ولكنهم وهم يقهرونها .. استخدموا الآخرين .. استخدموا الأرواح ، تماما مثلما يستخدم المعدن المعول أو مثلما يستخدم النجار المنشار ، فقد اخضعوا ارادة الغير لارادتهم . وكانت الأرواح بالنسبة لهم مجرد أدوات وأسلحة يواجهون بها أرضا وطبيعة تكن لهم العدا » .

« وأنا لا اذكر ذلك على سبيل الاتهام الأخلاقى ، ولا لكى أثير الشفقة فى صدوركم على الرجال السود الذين ظلوا عبيدا طيلة قرنين ونصف القرن من الزمان . لست أقصد ذلك فانه ليكون من الحق أن ننظر الى ذلك كله على ضوء من اعتبارات العدالة أو الظلم . لن نكون اذن سذجا ، فقد فعل الرجال ما كان ينبغي لهم أن يفعلوه حتى فى الوقت الذى كانوا يحسون فيه بأن الرب هو الذى يدفعهم وبأنهم انما يحققون بفعلهم مشيئة الرب . لقد اضطر هؤلاء الرجال الى أن يخوضوا نضالا من أجل الحياة ولم يكن أمامهم تقريبا مجال للاختيار ، فقد كان الأمر كله حلما امبراطوريا فى عصور اقطاعية دفعت الناس الى أن يستعبدوا غيرهم . لقد كانت تدفعهم

شهوة الحكم ، ومن ثم لم يكن فى مقدورهم أن ينشئوا الأمم على هذا الاتساع الا اذا هم أغمضوا أعينهم عن اعتبار انسانية الآخرين الذين كانت حياتهم ضرورية لتحقيق ما يصبون اليه من بناء • ولكن الاختراعات وانتشار الآلات جعل العبودية المباشرة للرجال أمرا صعبا من الناحية الاقتصادية ، ومن ثم فقد انتهى عهد الرق » •

« ودعنى ياسيدى القاضى أستنفذ دقيقة أخرى لأشير الى خطورة النظر الى هذا الصبى على ضوء اعتبارات العدالة أو الظلم ، فلو أننى قلت انه ضحية الظلم لوجب على بالتالى أن أطلب منكم أن تتعاطفوا معه • واذا ما أصر المرء على أن ينظر الى هذا الصبى على ضوء اعتبارات الشفقة والتعاطف: فلسوف يغرقه حتما احساس قوى بالذنب لا يمكن أن نميزه عن احساس الكراهية » •

« ان الانسان أحرص مايكون على ألا يحس بعقدة الذنب • واذا أنت جعلت انسانا يحس بهذه العقدة فلسوف يحاول يائسا أن يبرر هذه العقدة بأية وسيلة من الوسائل ، وحين يفشل فى محاولة التبرير ويرى أنه لا حل لهذه العقدة الا بتضحية كبيرة من حياته وممتلكاته فلسوف يحرص على أن يقتل هذا الشيء الذى يحرك فى أعماقه ذلك الاحساس بالذنب • وهذا أمر يصدق على الناس جميعا سواء أكانوا من البيض أم من السود • • فهو أمر يشكل حاجة عادية وان كانت شاذة وملحة » •

« ان الخوف من الذنب هو النغمة الأساسية فى هذه الدعوى فى الناس الذين تشملهم هذه القضية • فهم يحسون فى قلوبهم بأن هناك خطأ ما قد ارتكب • • وعندما يرتكب زنجى جريمة من الجرائم ضدهم فهو يتصورون انهم يرون أمامهم ذلك الخطأ • • ومن ثم فان أصحاب الثروة وأصحاب الأملاك الذين يحرصون على أن يحموا مكاسبهم يقولون لأجرائهم « ابعدوا هذا الشبح » أو يقولون مثل المستر «دالتون» : (لنفعل شيئا من أجل الرجل حتى لا يحس بمثل ما يحس به) • ولكن الوقت يكون قد فات •

« لقد كان من الممكن أن نصف الأمر بأنه كان بعيدا عن العدالة لو أن عشرة أو عشرين فحسب من الزوج هم الذين كبلت أيديهم بأغلال العبودية • ولكنهم كانوا يعدون بمئات الألوف فى هذا البلد • ولو أن عبوديتهم دامت سنتين أو ثلاثا لاستطعنا أن نصف الأمر بأنه كان ظلما • ولكن هذه العبودية دامت أكثر من مائتين من السنين • ان الظلم الذى

يدوم ثلاثة قرون ويشمل ملايين البشر فوق أرض تمتد آلاف الأميال المربعة لا يمكن أن يستمر تحت هذه الصفة . ولكنه يصبح حقيقة ثابتة من حقائق الحياة يواجه الناس أمورهم « ويتأقلمون » مع الأرض على أساسها . ويخلقون هم أنفسهم قوانين وجودهم ورؤاهم الخاصة بالنسبة للصواب والخطأ ويمنحهم أسلوبهم في كسب العيش أسلوبا آخر في التصرف ازاء الحياة ويصطبغ حديثهم بكل ما ينبغي أن يحققه في هذه الحياة . . . سيدي القاضي . « ان الظلم ينتج شكلا واحدا من أشكال الحياة . . . ولكن شكلا آخر يبرز ليحتل مكان الأول . يفعل ذلك بدافع من حقوقه واحتياجاته وآماله . وان ما يحدث اليوم هنا ليس مجافاة للعدالة . . . ولكنه قهر واستبداد ومحاولة للقضاء على شكل جديد من أشكال الحياة . . . شكل نبت هنا بيننا وسط دهشتنا وحيرتنا . . . شكل يعبر عن نفسه مثلما تفعل بذرة تنبت تحت الصخور وبأسلوب نسميه نحن بالجريمة ومالم نضع أيدينا على هذه المشكلة على ضوء هذه الحقيقة الجديدة فلن نستطيع أن نفعل شيئا سوى أن نخلص أنفسنا من الاحساس بالذنب بارتكاب جريمة أخرى في الوقت الذي يرتكب فيه انسان يعيش تحت ظروف كهذه عملا ما . . . فنصر على أن نصف هذا العمل بأنه جريمة » .

« ان هذا الصبي يمثل وجهًا ضئيلا فحسب من أوجه مشكلة تبسط حقيقتها فوق أكثر من ثلث هذه الأمة . اقتلوه : احرقوا الحياة في جسده : ولكن عندما تنزلق العنصرية الحساسة غير الواعية فلسوف تكون هناك جريمة من جديد . كيف يمكن أن نأمل في تطبيق القانون بنجاح . . . على حين هذا القانون يصم أذنيه عن حياة ملايين من البشر ؟ هل نؤمن بالسحر ؟ هل نؤمن بأن الحرق فوق صليب يمكن أن يفزعهم ويشل ارادتهم ونوازعهم ؟ هل تظنون أن البنات البيض في كل بيوت أمريكا سيصبحن أكثر اطمئنانا اذا أنتم قتلتم هذا الصبي ؟ لا : وأقولها لكم بكل ثقة واخلص : بل انني أقول لكم ان قتل هذا الصبي هو أضمن السبل الى تكرار مثل هذه الجرائم . واذا أنتم انسقتم الى الغضب وعقدة الذنب فلسوف تجعلون الألوف غيره من الرجال والنساء السود يحسون بأن الحواجز أصبحت أكثر ارتفاعا واحكاما . اقتلوا هذا الصبي وسترون أنكم لم تفعلوا شيئا سوى أن تؤدوا بهذا الجزر المؤقت من المشاعر المكبوتة الى مد لا يقتصر على جريمة فردية عضوية ولكن يتعدى ذلك الى أن يصبح شلالا من العواطف الوحشية الملتهبة لا يمكن السيطرة عليه . ان أهم شيء ينبغي أن تتذكره هذه المحكمة جيدا وهي تقرر مصير هذا الصبي هو انه بالرغم من أن جريمته عضوية فان عواطفه التي أطلق لها

العنان فى لحظة كانت كامنة من قبل بأعماقه . عليها أن تتذكر أن طريق حياة هذا الصبى كان طريق الذنب وأن هذه الجريمة عاشت فى أعماقه طويلا قبل مصرع « مارى دالتون » . وأن الطبيعة العضوية لهذه الجريمة ظهرت فى صورة مزق فجائى وعنيف تحت النقاب الذى كان يعيش خلفه . . هذا المزق الذى أتاح لمشاعر الكراهية والاحساس بالغربة أن تقفز الى الأمام لتجد لها هدفها وشكلها الواضح المحدود » .

« لقد حاولنا - بدافع من عقدة الذنب المستحوذة على عقولنا - أن نبعد جثة عن أبصارنا . ثم جددنا بقعة صغيرة من الأرض ودفنا هذه الجثة ، وقلنا لأرواحنا فى ظلمة الليل الحالك انها جثة ميتة وانه لا مدعاة للخوف أو القلق . ولكن الجثة تعود وتغير على بيوتنا . . ونجد بناتنا وقد قتلن وأحرقن : . .

فنصرخ قائلين « اقتلوا . . اقتلوا . . » .

« ولكننى ياسيدى القاضى . . أقول : (كفى . ودعونا ندرك جيدا حقيقة ما نفعله) . ذلك لأن الجثة ليست ميتة . . انها لا تزال حية . وقد اتخذت لنفسها بيتا فى الأدغال الموحشة داخل مدنتنا الكبيرة ووسط النبت المفزع الكثيف فى أحيائها القذرة . . ولقد نسيت هذه الجثة لغتنا . . ومن أجل أن تعيش . شحذت مخالبها . وازدادت ضراوة وقسوة وامتلات بالكراهية والعنف بصورة تعجز عن تصديقها . وأصبحنا لا نستطيع التكهن بتحركاتها . . فهى تزحف بالليل خارجة من مكمنها متسللة الى مراكز الحضارة . . وعندما ترى وجهها طيبا فهى لا تستلقى على ظهرها وتضرب جذلا بأطرافها أو تطلب الى أحد أن يداعبها ويربت عليها . كلا . . انها تقفز . . وتقتل . . »

« نعم . ان مارى دالتون الفتاة البيضاء ذات النية الحسنة . أقبلت نحو « بيجر توماس » والابتسامه على شفيتها . . ومدت اليه يد المساعدة . . كذلك فان المستر دالتون - وقد أحس بأن هناك خطأ اجتماعيا - أراد ان يمنحه عملا تستطيع عائلته أن تأكل من ورائه . . وتستطيع شقيقته وشقيقه أن يلتحقا بالمدرسة . . وقد حاولت المسز دالتون أن تتحسس طريقها فى فضل وكرم لتهيء له فرصة للالتحاق بالمدرسة لكى يتعلم مهنة تساعد فى حياته . . ولكنهم حيناً بسطوا أيديهم جميعا . . ضرب الموت ضربته »

« وهم اليوم ينحون ويطلبون الثأر . . وتستمر عجلة الدم فى الدوران »

« اننى أحس بالعطف على هذين الوالدين الطيبين الاشيبين • ولكنى أقول للمستتر دالتون - وهو الذى يدير ممتلكات عقارية - • أقول له : أنت تؤجر بيوتك للزئوج فى الحى الجنوبى ، وأنت ترفض أن تؤجر لهم بيوتا فى مناطق أخرى من المدينة • • أنت أبقيت « بيجر توماس » داخل هذه الغابة • أنت جعلت الرجل الذى قتل ابنتك غريبا عنها وجعلت ابنتك غريبة عنه »

« ان العلاقة بين أسرة توماس وأسرة دالتون لم تكن سوى علاقة بين مستأجر ومالك • بين « عميل » وتاجر • بين خادم ومخدوم • وكانت أسرة توماس تزداد فقرا على حين كانت أسرة دالتون تزداد غنى • ولقد حاول المستتر دالتون وهو الرجل المتزن أن يخلص مشاعره عن طريق المال • ولكن المال يا صديقى لم يكن كافيا • ان المرء لا يستطيع أن يرشو الجثث • قل لنفسك اذن يامستر دالتون : لقد قدمت ابنتى قربانا • ولكن حتى هذا القربان لم يكن كافيا لأن يجر معه الى القبر ذلك الشيء الذى يضمنى ويعذب ضميرى • »

« ولمسز دالتون • • أقول : ان احسانك كان وباللأساة أعمى مثل عينيك غير المبصرتين • »

« ولما رأى دالتون • • أقول : اذا كانت تستطيع أن تسمعنى • اننى أقف اليوم هنا لأحاول أن أجعل من موتك شيئا ذا معنى • »

« واسمح لى ياسيدى القاضى بأن أزيد فى تفسير معنى حياة « بيجر توماس » • أن فى أعماقه وأعماق أمثاله من الرجال يكمن مثل ما كان يكمن فى أعماق أمثاله من الرجال • يكمن مثل ما كان يكمن فى أعماق أجدادنا الأول عندما قدموا لأول مرة الى هذه الشواطىء الغربية منذ مئات السنين • ونحن محظوظون • • ولكنهم ليسوا كذلك • لقد وجدنا أرضا أخرجت من جهودنا وعملنا أروع مالدينا • وأقمنا بلدا قويا يخشى جانبه • ولقد بذلنا أرواحنا ومازلنا نبذلها فى هذا البلد • ولكننا دأبنا على أن نقول لهم : هذه الأرض وقف على الرجل الأبيض • ومن ثم فهم لا يزالون يبحثون عن أرض تستطيع أن تستغرق من جهودهم وعملهم أروع مالديهم • »

« سيدى القاضى • ضع فى اعتبارك الوجه الخلقى لحضارتنا هذه • كم هى خداعة وبراقة • • كم تثير الحواس • • كم تبدو وكأنما تهىء السعادة كل السعادة لكل انسان وتجعلها فى متناول يده • • كم تلعب

بمشاعرنا في اصرار وثبات أساليب الدعاية والاعلان « والراديو »
والصحف « والسينما » . ولكن تذكر ياسيدي ونحن نشير الى هذه
الأشياء جميعا أنها بالنسبة لكثير منا ليست أكثر من مواضع للسخرية .
ربما تملأ قلوبنا بالغرور والخيلاء . ولكنها تبقى بالنسبة للكثير منا
مجرد سبة تتكرر كل يوم . وتصور يا سيدي رجلا يسير وسط هذا
المشهد وهو جزء منه . . . ويعلم بالرغم من ذلك أنه لانصيب له في شيء
منه » .

« لقد دبرنا نحن مصرع ماري دالتون » ولكننا جئنا اليوم الى قاعة
المحكمة لنقول : لا صلة لنا بكل ماحدث . ولكن كل مدرس في مدرسة
يعرف جيدا أن هذا ليس صحيحا لأن كل واحد منهم يعرف حقيقة القيود
التي فرضت على تعليم الزوج . والسلطات أيضا تعرف هي الأخرى أن
هذا ليس صحيحا . لأن هذه السلطات دأبت على أن توضح في كل
تصرفاتها بما لا يدع مجالا للشك . انها تحرص على أن تبقى «بيجرتوماس»
وأمثاله من الزوج محصورين داخل حدود صارمة . كذلك فان أصحاب
العقارات يعرفون أن هذا ليس صحيحا . لأنهم اتفقوا جميعا فيما بينهم
على أن يظل الزوج محصورين داخل مناطق من المدن محدودة لهم .
سيدي القاضي ، اننا - نحن الذين نجلس هنا اليوم في هذه القاعة -
شهود فنحن نعرف هذا الحادث . . . لأننا نحن الذين ساعدنا على أن
نخلقه » .

« ولكن . قد يثور سؤال : لو أن هذا الفتى تصور أنه ضحية خطأ
ما ، فلماذا لم يتوجه الى ساحة القضاء لكي يعرض مظلّمته ؟ لماذا ينفذ
القانون بيديه ؟ . . . سيدى القاضي ان هذا الفتى لم يكن لديه قبل أن
يقتل - وليس لديه الآن أيضا - أدنى احساس بأن - هناك ظلما قد
أوقعه عليه شخص محدود بعينه . ولكي أكون أمينا معكم . فان حياته
ذاتها هي التي خلقت في ذهنه اطارا للتفكير جعله يتوقع من هذه المحكمة
أقل بكثير مما تتصورون »

« ان جريمة هذا الفتى لم تكن عملا من أعمال الانتقام يرتكبه انسان
مطمعون ضد شخص يظن أنه هو الذى وجه اليه الطعنة »

« ولو أن الأمر كان كذلك . اذن لكانت هذه القضية أمرا سهلا
وواضحا . ولكن هذه القضية هي قضية رجل يخطئ النظرة الى جنس
بأكمله باعتباره جزءا من البناء الطبيعى لهذا الكون ، ومن ثم يتصرف ازاءه
على أساس هذه النظرة . لقد قتل ماري دالتون بطريق المصادفة ودون
أن يفكر أو يخطط للجريمة . بل وبلا أدنى دافع واع مباشر . ولكنه

تقبل جريمته بعد أن ارتكبتها • وهذا هو الشيء المهم • لقد كانت هذه الجريمة بالنسبة اليه أول عمل كامل يقوم به في حياته • كانت أكبر شيء مثير وذى معنى يحدث له • ولقد تقبلها لأنها جعلته يحس بالحرية • ولأنها منحتة الاحساس بالقدرة على الاختيار والحركة • وعلى اهتمبال الفرصة للتصرف مع الشعور العميق بأن لتصرفه هذا وزنا وقيمة » •

« نحن نعالج هنا بواعث ومحركات نابغة من الأعماق • نحن لا نعالج هنا كيف يتصرف انسان ازاء انسان • ولكننا نعالج كيف يتصرف انسان ازاء آخر عندما يحس بأنه ينبغي له أن يدافع عن نفسه في مواجهة العالم الذى يعيش فيه أو أن يوائم نفسه ازاءه • والحقيقة الأساسية التى ينبغي أن نفهمها هنا ليست هى معرفة الأسباب التى دفعت بهذا الصبى الى الخطأ • ولكنها معرفة طبيعة نظرته الى العالم حوله ومن أين اكتسب هذه النظرة التى جعلته يغتصب الحياة من انسان آخر بسرعة وجذبة جعلته يقول بعد ارتكاب الجريمة : (نعم أنا الذى فعلتها وكان لابد أن أفعلها) بالرغم من وجود عنصر المصادفة فى هذه الجريمة » •

« اننى أعرف أن التقليد جرى هذه الأيام على أن يقول المتهم : (ان كل شيء كان يعينى عن حقيقة ما ارتكبت) ولكن هذا الصبى لا يقول هذا • بل انه ليقول العكس • يقول انه كان يعرف ماكان يفعل ولكنه كان يحس بأنه لابد أن يفعله • وهو يقول أيضا انه لا يشعر بالأسقف لأنه أقدم على فعلته تلك » •

« هل يبدي الرجال أسفهم عندما يزهقون الأرواح فى الحرب ؟ » •

« لا ، فأنت تقتل • حتى لا يقتلك الآخرون • ثم تعود بعد حرب مطفرة الى بلد حر • تعود ملوث بالدماء تماما مثل هذا الصبى الذى تلوث يديه دماء (مارى دالتون) • والذى يحس بأنه أصبح حرا لأول مرة فى حياته • »

« ضاعفوا «بيجر توماس» اثنى عشر مليون مرة آخذين فى حسابنا أولئك المختلفين بيئيا ومزاجية وأولئك الزوج الخاضعين خضوعا كليا لتأثير الكنيسة • افعلوا هذا ولسوف تعرفون بوضوح نفسية الجماهير الزنجية • ولو أنكم نظرتهم اليهم جميعا ككل واحد • ولو أن نظرتكم تركت الفرد الى المجموع • اذن لبرزت فى الصورة خصائص أخرى جديدة • فلو أنكم فعلتم ذلك لوجدتم أن اثنى عشر مليوناً من البشر ليسوا بالأمر السهل « البسيط » • ولكنهم فى الحقيقة يشكلون

أمة منفصلة منسحقة مهينة أسيرة كيان هذه الأمة ، مسلوطة الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. وحق التملك »

« هل تتصورون أن بمقدوركم أن تقتلوا واحدا منهم - حتى ولو قتلتم منهم فى كل يوم من أيام السنة - فتجعلوا الذعر يستبد بالآخرين فلا يقتلون ؟ » كلا : ان سياسة حمقاء كهذه لم تنجح ولن تنجح . فبقدر ما تقتلون .. وبقدر ماتعزلون وترفضون .. يبحثون هم عن شكل أو سلوب آخر فى الحياة مهما كان هذا الشكل أو الاسلوب أعمى وبلا وعى . فمن أى مادة اذن سينسجون « قماش » هذه الحياة المختلفة . ويشكلون لأنفسهم وجودا جديدا وهم يعيشون معنا فى نفس المدن والقرى ؟ اننى أسألكم : من أى مادة اذن غير مانحن عليه وغير مانملك ؟ »

« سيدى القاضى : ان عدد الزوج الذين يعيشون فى أمريكا الآن أربعة أضعاف السكان الذين عاشوا فى المستعمرات الأصلية الثلاث عشرة عندما ثاروا من أجل حريتهم . ان هؤلاء الملايين الاثنى عشر متأثرون بأفكارنا وتصرفاتنا كما تأثرنا نحن بتصرفات الأوروبيين عندما جئنا هنا لأول مرة .. هؤلاء الملايين - يناضلون وهم محصورون فى حدود تبلغ من الضيق حدا يصعب تصديقه من أجل أن يحسوا بأنهم يعيشون فى أرض يملكونها .. نفس الاحساس الذى ناضلنا نحن من أجله فى اصرار وعناد . واذا نحن عقدنا مقارنة بين نضالهم ونضالنا فلسوف نجد أن ظروفهم أقسى وأصعب ، وينبغى أن نكون قادرين على أن نعى حقيقة مايتطلعون اليه . فان حياتهم الموحلة التى لحقتها اللعنة تحاول أن تكتسح كل العوائق لكى تحقق لنفسها ماينتطلع نحن بشغف الى تحقيقه : ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك . ونحن عندما أعلننا ان للانسان حقوقا مشروعة من بينها حق الحياة وحق الحرية .. وحق السعادة . فاننا لم نحاول أن نتوقف قليلا لكى نحدد مفهوما للسعادة ، وذلك هو الجانب الذى لم نحاول أن نجد له تفسيراً فى اعلاننا والذى لم نضعه قط موضع التنفيذ . ولعل هذا هو السبب فى أننا نقول « دعوا كل انسان يخدم الرب على طريقته الخاصة » .

« بيد أن هناك خطوطا عريضة لنوع السعادة التى نبحث عنها . فنحن نعلم أن السعادة تتوفر للانسان عندما يستغرقه الاهتمام بعمل أو واجب ذى معنى .. عمل أو واجب يحقق له فى نفس الوقت العدالة والأمان . ونحن نعلم أن هذا الأمر قد يأخذ صورا كثيرة ، فهو فى العقيدة قصة خلق الانسان وسقوطه ثم افتدائه ، .. هى قصة اجباره على الازعان

لنظام فى حياته بطريقة او بأخرى • وهى فى الفن والعلم والصناعة والسياسة والعمل الاجتماعى تأخذ صورا أخرى • ولكن هؤلاء الملايين الاثنى عشر من الزنوج ليس لهم من أشكال هذه السعادة سوى ماتتيحه لهم العقيدة وحدها • وكثيرون منهم يعرفون هذه العقيدة بصورتها البدائية فحسب فان بيئة المراكز الحضارية الكثيفة لم تفعل سوى أن شلت قسرا نوازعهم الى العقيدة - باعتبارها أسلوبا للحياة بالنسبة لهم اليوم » •

» ولكنهم مع ذلك يحسون بإمكانية الوجود والحياة والحركة والانطلاق بأرواحهم الى أشكال محدودة وهادفة بدافع من حمية هى جزء لا يتجزأ من تكوينهم العنصرى وهم ينزلقون خلال حضارتنا المعقدة وكأنهم أشباح تنوح : ويمرقون مثلما تمرق كواكب نارية انحرفت عن مدارها : ويذودون ويموتون وكأنهم أشجار اقتلعت من أرضها » •

سيدى القاضى : تذكر أن الانسسان يمكن أن يموت جوعا بسبب افتقاره الى تحقيق ذاته تماما كافتقاره الى الحبز : • • كذلك فمن الممكن أن يقتل فى سبيل تحقيق هذه الذات • ألم ننشئ نحن أمة ونحارب ونغزو باسم حلم نريد من ورائه أن نحقق شخصيتنا وأن نضمن لها الأمان ؟ • «

» ولكن • • هل ارتكب « بيجر توماس » حقا جريمة قتل ؟ اننى أوجه هذا السؤال وأنا أعلم أننى قد أودى مشاعر هيئة المحكمة - على ضوء المثل التى نعيش فى ظلها • نعم • • ربما تكون جريمة قتل اذا نحن نظرنا إليها من مظهرها الخارجى ، ولكنها بالنسبة اليه لم تكن جريمة • ولو أنها كانت كذلك بالنسبة اليه ، فأين هو الدافع اذن ؟ ان ممثلا الاتهام لم يكف عن الصياح والتهديد • ولكنه لم يقل لنا : لماذا ارتكب « بيجر توماس » هذه الجريمة • • انه لم يقل لنا ذلك لأنه لا يعرف • والحقيقة ياسيدى القاضى هى أن هذا الصبى لم يقتل • • حقا • • مارى دالتون « قد ماتت ، والذى خنقها حتى الموت هو « بيجر توماس » • كذلك فان « بيسى ميرز » قد ماتت : والذى هوى على رأسها بقلب طوب هو نفسه « بيجر توماس » • ولكن • • هل ارتكب بذلك جريمة قتل ؟ هل قتل ؟ أعيرونى أسماكم جيدا يا سادة • ان ما فعله « بيجر توماس » صباح ذلك الأحد بمنزل آل دالتون • • وما فعله فى نفس الليلة داخل ذلك المبنى المهجور ، لم يكن سوى صورة أخرى ضئيلة من كل ما كان يفعله طوال حياته • لقد كان يمارس حياته • يمارسها بالطريقة الوحيدة التى أتيج له أن يعرفها • • أو قولوا بالطريقة الوحيدة التى أجبرناه نحن على أن يحيا بها • ان العمل الذى أدى الى وفاة هاتين الفتاتين كان بالنسبة

له أمرا حيويا لا مناص منه .. تماما مثل التنفس واختلاجة الجفنين .
لقد كان عملا من أعمال (الخلق) . »

« دعوني أيها السادة أزد الأمر وضوحا . قبل هذه المحاكم ذكرت
النصف .. وذكر الاتهام كذلك أن هذا الصبي قد ارتكب جرائم أخرى .
وهذه حقيقة . انه مذنب في جرائم كثيرة .. ولكن .. ابحثوا حتى يوم
تحكمون عليه ولن تجدوا على جرائمه هذه دليلا واحدا . ان هذا الصبي
قتل أكثر من مرة ولكن لا توجد آثار جثث .. ولكي أفسر ذلك أقول :
ان موقف هذا الصبي الزنجي ازاء الحياة هو في حد ذاته جريمة ان
الكرامية والخوف اللذين صبغا حياته واللذين نسجت خيوطهما حضارتنا
داخل كيانه ودمه وعظامه وكل دقائق شخصيته .. هذا الخوف وتلك
الكرامية هما اللذان أصبحا التبرير الأوحده لوجوده » .

« انه يقتل في كل مرة يحتك فيها بنا نحن البيض . انه رد فعل
فسيولوجي وسيكولوجي راسخ في كيانه ووجوده . ان كل فكرة تخطر
بذهنه ليست سوى جريمة قتل .. ان كل يوم يمر عليه يجعله مذنباً في
بعض أعماله وتصرفاته وهو المطرود من مجتمعنا الممنوع عن الذوبان
فيه . والذي يتوق الى أن يرضى نوازع شبيهة بنوازعنا نحن البيض
ولكنه يواجه برفضنا أن يسلك بنوازعه هذه نفس المسالك الى نفس
الأهداف التي أتاحتها لنا قرون طويلة من الزمان .. ان كل رغبة ، وكل
حلم - بصرف النظر عن مدى كونه « لصيقا » أو شخصيا - ليس بالنسبة
لنا سوى مؤامرة . ان كل أمل يختلج في صدره ليس سوى خطة
للتخريب . ان كل نظرة من عينيه ليست سوى تهديد .. بل ان وجوده
ذاته ليس سوى جريمة ضد الدولة » .

« وهكذا ، فانه حدث في تلك الليلة أن فتاة بيضاء كانت في
فراشها .. وكان هناك صبي زنجي بالقرب منها .. صبي استبد به
اندعر .. صبي يكرهها وجاءت الى الغرفة سيدة ضريرة فقتل ذلك الصبي
تلك الفتاة حتى لا ينكشف أمره في موقف كان يعرف جيدا أننا نحن
البيض نعتبره أمرا يستحق عليه عقوبة الموت . ولكن ذلك كان وجهها
واحدا من المسألة كلها : لقد كان مدفوعا الى الجريمة بدافع من الظمأ الى
عمل مثير ومبهج يحقق غروره بقدر ما كان يدفعه الخوف والهلع .. وكان
ذلك هو أسلوب حياته ذاتها » .

« سيدى القاضي . الى هذا الحد . بلغ بنا العمى حدا جعلنا نشكل

حياة أناس من البشر . حتى أصبحت نبضات قلوبهم تخفق نحو لهيب شيطاني لا يمكن وصفه . .

« . . ولكنني لم أفسر بعد علاقة « بيسي ميرز » بهذا الصبى . ان هذا الأمر لم يغيب عن بالي ولكنني تعمدت ألا أشير الى علاقة « بيسي » حتى الآن لأنها هي ذاتها كانت بعيدة عن وعي « بيجر توماس » . ان علاقته بتلك الفتاة السوداء التعسة تكشف لنا هي الأخرى عن طبيعة علاقته بهذا العالم . ولكن « بيجر توماس » ليس هنا الآن ليحكم من أجل قتله لبيسي ميرز . وهو يعرف هذا جيدا . فماذا يعنى هذا ؟ أليست حياة فتاة زنجية فى نظر القانون هي نفس حياة فتاة بيضاء ؟ نعم . . هي كذلك من الناحية النظرية المجردة . ولكن « بيجر توماس » لم يفكر لحظة واحدة فى « بيسي » . . بدافع من الخوف وبضغط من ظروف هربه . . ولم يكن يستطيع أن يفعل . ان موقف أمريكا من هذا الصبى هو الذى نظم حتى تصرفاته مع أبناء جنسه ذانهم . لقد قتل بيسي ميرز بعد أن قتل دالتون حتى يضمن صمتها الى الأبد كيما ينقذ نفسه ، فبعد أن قتل ماري دالتون ملأه الذعر من قتل فتاة بيضاء بحيث هان كل فعل يرتكبه بعد ذلك . ومن ثم لم يفزعه قتل « بيسي » فقد كان ما بقلبه من الفزع أكبر من كل شيء آخر . .

« ولكن المرء قد يتساءل : ألم يكن يجب بيسي ؟ ألم تكن هي صديقتة نعم ، لقد كانت صديقتة ، وكان من الضروري أن تكون له صديقة . . ومن ثم كانت بيسي كذلك ، ولكنه لم يكن يحبها . وهل الحب ممكن فى حياة رجل هي كما وصفتها لهيئة المحكمة ؟ دعونا نبحث الأمر . ان مزاج الاثنين معا جعل مسألة الحب خارج نطاق علاقتهما . ذلك أن الحب ينمو نتيجة علاقات مستقرة وتجارب مشتركة واحساس بالولاء والتضحية والثقة - ولم تكن كل هذه الاشياء تمثل شيئا فى حياة الاثنين . فماذا كان من الممكن أن تتطلع اليه آمالهما ؟ لم تكن هناك رؤى عامة تربط بين قلبيهما ولم يكن هناك أمل مشترك يقود خطاهما فى طريق واحد . وبالرغم من أنهما كانا وثيقي الصلة أحدهما بالآخر . . فقد كان كل منهما يحس بالوحدة . .

ان هذين كانا شجرتين بلا جذور . . . شجرتين تعيشان على أشعة الشمس وعلى ما قد تطره السماء من ماء فوق أرض صلده . وهل تستطيع أرواح متنافرة أن تحب ؟ . . هل تستطيع ذلك على حين يفصل بينها مزاج متقلب مختلف ؟

« سيدى القاضى : هل هذا الصبى هو وحده الذى يحس بالضياح والحيرة ؟ هل هو نسيج وحده أو أن هناك كثيرين غيره مثله ؟ أقول لك ياسيدى القاضى ان هناك غيره ٠٠ ملايين غيره من الزنوج ومن البيض ، وهذا هو الشيء الذى يجعل مستقبلنا يبدو صورة معتمة من صور العنف . ان الاحساس بالقلق والتطلع الى صورة من صور السعادة - فى درجات تختلف حدة وبأساليب تختلف فى وعيها - يزداد حدة فى هذه البلاد يوما بعد يوم . ان يقظة « بيجر توماس » وملايين غيره من البيض أو السود - بقدر مانوجه لهم من ضغوط - هى التى تشكل الرمال المتحركة التى تستقر فوقها أسس حضارتنا ومن يدرى : أليس من المحتمل أن تجيء صدمة ولو ضئيلة لتقتحم التوازن الحساس بين النظام الاجتماعى والآمال الظمأى فتتهوى ناطحات السحاب الى الأرض ؟ أبدو هذا أمرا ممعنا فى الخيال ؟ اننى أؤكد لكم ياسادة أنه ليس أكثر امعنا فى الخيال من هذه الفصائل ومن هؤلاء الغوغاء الذين ينتظرون خارج قاعة المحكمة والذين يشكل وجودهم وغضبهم المستثار نذير شؤم لا نجرؤ حتى على مجرد التفكير فيه .

« سيدى القاضى ٠٠ ان « بيجر توماس » كان على أتم استعداد لأن يتبع رجلا ويمنحه صوته اذا كان هذا الرجل قادرا على أن ينتشله من بئر آلامه وكرهه وخوفه واذا كان هؤلاء الغوغاء يخشون رجلا واحدا ٠٠ فيماذا ياترى يحسون لو أن ملايين من البشر هبت ؟ وكم من الوقت سينقضى لينهض واحد ينطق بالكلمة التى ستفهمها جيدا هذه الملايين المتحفزة : الكلمة التى تحقق وجودهم وحياتهم ؟ أو تبلغ السداجة بهيئة المحكمة أن تظن أن هذه الملايين لن تجرب هى الأخرى حظها الذى لن يكون أكثر مخاطرة مما فعله « بيجر توماس » ٠٠ دعونا نصرف النظر عن اعترافات « بيجر توماس » التى يقول فيها انه قتل دون سبق اصرار فتلك مسألة لاتهم فى حقيقة الأمر ، انما الأمر الذى يهم حقا هو أنه كان مذنباً حتى (قبل) أن يقتل : وهذا هو الذى جعل حياته كلها تتشكل فى سرعة وبأسلوب طبيعى وتحمل معنى جديدا عندما حدثت هذه الجريمة . ومن يدرى ؟ لعل حادثة أخرى تحدث وسط هذه الملايين ٠٠ حادثة تكون يوما مفزعا فى أقدارنا ومصائرنا »

« سيدى القاضى : انه لتكمن فى قلب هذه اللحظة ارهاصات مسألة القوة التى ستتكشف عنها الأيام »
« سيدى القاضى ان حربا أهلية أخرى فى هذه الولايات ليست أمرا بعيدا عن الاحتمال واذا كان سوء تقدير ما تعنيه حياة هذا الصبى تشير

بالتالى الى سوء تقدير رجال الثروة لما لوعى الملايين اليوم فان حربا كهذه لا بد آتية »

« ولست أدعى أننا ينبغي أن نحاول حل هذه المشكلة برمتها هنا فى قاعة هذه المحكمة : فليس هذا من صميم واجبنا ولا هو فى مقدورنا ولكن قرارنا فيما يتعلق بحياة هذا الصبى الأسود أو موته يمكن أن يجيء مطابقا لحقيقة ما هو كائن بالفعل ويمكن على الأقل ان يكون اشارة الى أننا نرى .. وندرك .. ومثل هذه الرؤية وهذا الادراك سوف يشعلان بالضرورة شعورا بأن حياة هذا الرجل سوف تواجهنا لامحالة عشرة ملايين مرة فى الأيام القادمة »

« اننى أسألكم أن تهبوا لهذا الصبى حياته وأن تزجوا به الى السجن مدى الحياة . وماذا يعنى السجن بالنسبة لبيجر توماس ؟ ان فى السجن مزايا لم تحققها له حياة الحرية . ان الزج به فى السجن سوف يكون أكثر من مجرد جنوح الى الرفاة »

« فلسوف يحيا بالسجن لأول مرة فى فلك حضارتنا ، ولسوف يحس بذاته ولو كانت هذه الذات مجرد رقم . وقد يكون لأول مرة فى حياته علاقات صريحة مع هذا العالم . ولربما يكون هذا المبنى الذى سيقضى فيه طيلة عمره أحسن مبنى عرفه فى حياته . ان الزج به فى السجن سوف يكون بالنسبة له أول اعتراف من الغير بشخصيته . وقد تكون السنوات السوداء الفارغة الماضية من حياته لعقله وأحاسيسه الهدف الوحيد الدائم الذى يستطيع أن يبنى حوله معنى لحياته . وقد يصبح زملاؤه فى السجن أول أناس يستطيع أن يشاركهم فى أيامهم على أساس من المساواة وقد تصبح قضبان السجن الحديدية التى تفصله عن المجتمع الذى خرق نظمه قد تصبح هذه القضبان سستار أمان له من الكراهية والخوف »

« سيدى القاضى » .. انى أقول لكم : امنحوا هذا الصبى حياته حتى نكون بذلك قد حققنا المظهرين الأساسيين لحضارتنا .. المظهرين اللذين بنينا بدافع منهما أقوى أمة فى التاريخ .. الشخصية والأمان والاعتقاد بأن المرء ليس دنسا وأن كل ما يمكن أن يساعد فى حياته ليس دنسا هو الآخر »

« ودعونا نتذكر جيدا أن عظمة حياتنا العصرية . طرقتنا الحديدية ومحطات القوى وعابرات المحيط والطائرات ومصانع الصلب انما ازدهرت من هذين المظهرين ونمت بأحلامنا الخلاقة أساسا متينا استطاع الانسان وأستطاعت روحه الوقوف فوقه بأمان »

« سيدى القاضى » • ان هذه المحكمة وتلك الفصائل من الجنود ليسوا جميعا الرسل الحقيقيين لاقرار السلام بين الجماهير بل ان مجرد وجودهم يثبت أننا ندع السلام يفلت من بين أصابعنا • ان سلام الجماهير هو عمل ثقة الجماهير • انه الأمل فى أن يكون الكل فى أمان • وفى أن يظلموا كذلك »

« وعندما يسيء رجال المال استخدام عرض القوة والموت السريع والانتقام العاجل فان ذلك انما يكون لحماية جزء ضئيل من الأمان الخاص فى مواجهة الملايين القلقة المتحفزة التى سيظل أمهلها وحملها فى الأمان يحيا فى أعماق قلوبها »

« سيدى القاضى اننى أسألك باسم كل ما نعيش به ونؤمن أن تهب لهذا الفتى حياته وبكل ذرة من وجودى اطلب ذلك لا من أجل أن يعيش هذا الولد الأسود فحسب : بل من أجل ألا نموت نحن أيضا »

واستمع « بيجر » الى كلمات « ماكس » الأخيرة وهى ترن فى قاعة المحكمة : وعندما جلس « ماكس » لا حظ « بيجر » أن عينيه غاثرتان متعبتان • وكان فى مقدوره أن يسمع أنفاسه تروح وتجيء ثقيلة • ولم يفهم « بيجر » شيئا من المرافعة ولكنه أحس ببعض ما تعنيه من نبرات صوت « ماكس » وهو يلقىها وفجأة أحس « بيجر » بأن حياته لم تكن تستحق كل ذلك الجهد الذى بذله « ماكس » لانقاذها وأعلن القاضى عن فترة استراحة وامتلا جو القاعة بالضجيج على حين نهض « بيجر » واتجه به رجال الشرطة الى غرفة جانبية صغيرة وقف بداخلها ينتظر تحت الحراسة • وجاءه « ماكس » بعد لحظات وجلس الى جواره صامتا مطأطئ الرأس • وأحضر أحد رجال الشرطة صحفه عليها بعض الطعام وضعها فوق المائدة • وقال ماكس :

— كل يا بنى •

— لست جائعا •

— لقد فعلت كل ما بوسعى •

— لا بأس •

ولم يكن يهم « بيجر » فى تلك اللحظة أن خطاب « ماكس » سوف ينقذ حياته أم لا • فقد كان الفخر يملؤه وهو يحس بأن خطاب «ماكس» بأكمله كان من أجله • من أجل أن ينقذ حياته • ولم يكن احساسه

بالفخر راجعا الى ما كانت تحمله كلمات المرافعة من معان، وانما كان راجعا الى عملية المرافعة فقد كانت فى حد ذاتها تعنى شيئا .

وبرد الطعام فوق المائدة وتناهت الى سمع « بيجر » من خلال نافذة نصف مفتوحة أصوات الغوغاء المحتشدة خارج مبنى المحكمة . ما هى الا لحظات ويعود الى غرفة المحاكم ليستسمع الى ما سوف يقوله « بكلى » وينتهى بعد ذلك كل شيء ما عدا ما قد ينطق به القاضى . وعندما يتكلم القاضى سيعرف أنه قد كتبت له الحياة أو كتب عليه الموت وحنى « بيجر » رأسه وأسندته الى يديه وأغمض عينيه ثم سمع « ماكس » وهو يقف ويشعل عود ثقاب ليدخن سيجارة .

— خذ . . دخن يا « بيجر » . .

وتناول « بيجر » سيجارة من يد « ماكس » الذى أشعلها له وتنفس دخانها بعمق حتى ملأ رئتيه . . ثم ما لبث أن أحس بأنه لا يرغب فى تدخينها فظل ممسكا بها بين أصابعه ودخانها يتصاعد فى دوائر أمام عينيه الحمراءوين وفجأة فتح الباب فأدار رأسه ورأى شرطيا يطل من فرجة الباب ويقول :

— ستنعقد المحكمة بعد دقيقتين .

فقال « ماكس » :

— حسن . .

وعاد « بيجر » الى قاعة المحكمة محوطا برجال الشرطة ونهض واقفا عندما دخل القاضى . ثم عاد فجلس . وقال القاضى :

— سوف تسمع المحكمة الآن ممثل الادعاء .

وأدار « بيجر » رأسه ورأى « بكلى » ينهض وقد ارتدى حلة سوداء علقت فى « ياقتها » قرنفلة حمراء صغيرة . وأحس من نظرة الرجل وما تحمله من معان ومن تجهمه الوائق . . أنه قد انتهى وأى فرصة له فى مواجهة رجل كهذا ؟ ولحق « بكلى » شفتيه ونظر الى الجمهور ثم استدرا ليواجه القاضى وبدأ مرافعته :

« سيدى القاضى » نحن جميعا نعيش فى بلاد يسودها حكم القانون فالقانون فيها يحدد ارادة الناس وباعتبارى ممثلا وخادما للقانون ومعبرا

عن الإرادة المنظمة للجماهير فأننى أقف هنا اليوم كيما أطمئن الى أن إرادة هذه الجماهير سوف يجرى تنفيذها بحزم وبدون أى تأخير ومن ثم فإن فى نيتى أن أقف هنا لآتيقن أن هذا سيحدث . . فإذا لم يحدث فلسوف يكون ذلك بالرغم من اعتراضى واحتجاجى الشديدين »

« وباعتبارى ممثلا لسلطة الاتهام فى ولاية النيوى فأننى أقف الآن أمام هيئة المحكمة الموقرة لأقول ان أقصى عقوبة حددها القانون ، عقوبة الموت وهى العقوبة الوحيدة فى القانون التى يخشاها القتلة - هى التى يجب أن تأخذ طريقها الى قرار المحكمة فى هذه القضية البالغة الأهمية »

« اننى أصر على ذلك من أجل حماية مجتمعنا وبيوتنا ومن أجل حماية أولئك الذين نجبهم . . اننى أصر على ذلك أمام واجبى الذى أقسمت على أن أؤديه بأمانة ما دام فى عرق ينبض حتى أطمئن الى أن القانون عدل وأن سلامة الحياة الانسانية وقداستها أمران مكفولان وأن النظام الاجتماعى فى أمان وأن الجريمة تحارب ويعاقب عليها وأؤكد لكم أننى لا أحس بأدنى اهتمام فى هذه القضية بغير أداء واجبى الذى أقسمت على أن أؤديه بأمانة وإخلاص »

« اننى هنا لأمثل عائلات مارى دالتون وبيسى ميرز ومائة مليون من الرجال والنساء الخاضعين للقانون فى هذه الأمة والذين يعملون فى المكاتب أو المصانع . اننى هنا أمثل القوى التى تتيح للفنون والعلوم أن تتنمش فى جو من الحرية والسلامة كيما تثرى حياتنا جميعا »

« وليس فى نيتى أن أحط من كرامة هذه المحكمة ولا من كرامة دعوى الجماهير فأحاول أن أرد على الأفكار السخيفة الغبية الغريبة والخطيرة التى قدمها لكم هنا محامى المتهم . ولست أرى وسيلة أفضل فى الرد على مثل هذه الأفكار الخبيثة من عقوبة الموت توقعونها على عدو البشر . . هذا التمس « بيجر توماس »

« ولقد يبدو صوتى قاسيا عندما أقول : وقعوا عقوبة الموت ودعوا القانون يأخذ مجراه بالرغم من نداء الرأفة المظهرى . . ولكننى أؤكد لكم أننى رحيم ورءوف لأن تنفيذ القانون فى أقصى مظاهره سوف يتيح للملايين من النساء والرجال الشرفاء أن يناموا الليلة فى ظل الطمأنينة وأن يتيقنوا أن الد لى يحمل الى بيوتهم وحياتهم ظلال الموت السوداء »

« وقد يبدو صوتى حقودا عندما أقول لكم : اجعلوا المتهم يدفع أقصى

العقوبة ثمنا لجريمته • ولكن الذى أقوله حقيقة هو أن القانون عطف ورقيق عندما يجرى تنفيذه لحماية مصالح حيوية للملايين • وعندما يحمى الطفل والعجوز والضعيف والأعمى ورقيق الاحساس من عبث رجال لا يعرفون القانون ولا السيطرة على النفس ولا يملكون ذرة من الحكمة والتعقل »

« وقد يبدو صوتى ظالما عندما أقول : ان المتهم يستحق عقوبة الموت بناء على اعترافاته • ذاتها • ولكن الذى أقوله حقيقة هو أن القانون قوى وشامخ بالقدر الذى يسمح لنا جميعا بأن نجلس اليوم هنا فى قاعة المحكمة لتعالج هذه القضية باهتمام بالغ دون أن تستبد بنا رعشة الخوف من أن يكون هناك فى هذه اللحظة بالذات قرد أسود نصف آدمى يتسلل من نوافذ بعض بيوتنا لكى يقتل ويحرق بناتنا »

« سيدى القاضى » اننى أعلن هنا أن القانون مقدس وأنه هو الأساس لكل قيمنا المقدسة ، فهو الذى يسمح لنا بأن نعرف قيمة أشخاصنا : وهو الذى يوجه « نشاطاتنا » الى غايات أكثر رفعة ونبلًا »

« ان الإنسان قد خطا قدما ليخرج من مملكة الوحوش فى اللحظة التى أحس فيها بأنه يستطيع أن يفكر ويحس فى ظل من الأمان لأنه يعرف أن القانون المقدس هو الذى حل محل البندقية والمديّة »

« اننى أعلن هنا أن القانون مقدس لأنه هو الذى يجعلنا آدميين ، وتعبنا للبشر والحضارة هؤلاء البشر حين يخطئون تفسير الرأفة فيضعفون بذلك بناء القانون المتماسك الذى يؤمن أعمال حياتنا المتناسقة على ظهر الأرض »

« سيدى القاضى » اننى لأبدى أسفى لأن الدفاع قد أقحم فى هذه الدعوى المسألة العنصرية • ومن ثم أقحم عنصر الكراهية فى هذه القضية واننى لأبدى عطفى على أولئك الذين أوذيت قلوبهم كما أودى قلبى عندما ندد مستر « ماكس » فى أسلوب ساخر بعاداتنا وتقاليدنا المقدسة كما أشفق على عقل هذا الرجل المنحرف المريض وانه ليوم حزين فى تاريخ الحضارة الأمريكية عندما يحاول رجل أبيض أن يكف يد العدالة عن وحش بهيمى أطاح بواحدة من أراق وأجمل زهرات نسائنا »

« ان كل رجل أبيض عاقل فى أمريكا •• يحق له أن يرقص طربا لأن الفرصة قد واثته لكى يسحق بقدمه رأس الأفعى السوداء حتى يمنعها من أن تزحف الى أبعد مما زحفت فوق الأرض لتنتفث سمومها التى تحمل الموت »

« سيدى القاضى .. أقول لكم الحق .. اننى لأرتجف ذعرا من مجرد اعادة ذكر وقائع الجريمة .. اننى أعجز عن الحديث عنها دون أن أحس بالدنس بطريقة ما لمجرد ذكر تفاصيلها وأن للجريمة ادموية فى الحقيقة مثل هذا الأثر » رجل أبيض رحيم ثرى يقيم فى شيكاغو منذ أكثر من أربعين عاما يبعث الى جمعية خيرية يطلب منها أن تبعث اليه بصبى زنجى ليعمل سائقا لسيارة الأسرة ويحدد الرجل الكريم « مواصفات » خاصة لهذا .. الصبى .. يريده صبيا أساء اليه الفقر أو الظروف العنصرية أو يحمل مسئولية عائلية وتبحث الجمعية فى سجلاتها عن عائلة زنجية تعتقد أنها تستحق هذا العطف : هذه العائلة كانت عائلة «توماس» التى كانت ولا تزال تسكن فى المنزل رقم ٢٧٢١ بطريق أنديانا ويقوم مشرف اجتماعى بزيارة العائلة ويخبر الأم بأن العائلة سوف ترفع من سجلات الاعانة الخيرية لأن ولدها سوف يلحق بعمل ما وتوافق الأم المسيحية التى تظنها قسوة العمل . وتبعث الجمعية اخطارا الى الصبى الأكبر فى هذه العائلة « بيجر توماس » هذا الكلب الاسود المجنون الذى يجلس أمامنا الآن وتخبره بضرورة تقديم نفسه لعمله الجديد »

« فماذا كان رد الفعل لدى هذا الشرير عندما علم بأن الفرصة قد واثته لكى يعول نفسه وأمه وأخته وأخاه الصغيرين ، هل كان سعيدا وممتنا ؟ هل كان مبتهجا لأنه قد اتاحت له فرصة يسجد عشرة ملايين من الرجال فى امريكا شكرا لله اذا اتاحت لهم ؟ »

« كلا .. لقد سب أمه ولعنها قال لها انه لا يريد أن يعمل كان يريد فحسب أن يجوب الشوارع ليسرق « أكشاك » الصحف والمحال ويحتك بالنساء ويتردد على حمامات السباحة ويغشى دور « السينما » الرخصية »

« كان ذلك هو رد الفعل لدى هذا القاتل نصف الآدمى عندما لمستته يد مسيحية حانية لرجل لم يسبق له أن رآه »

« وتوسلت اليه أن .. ولكن توسلاتها لم تؤثر فى هذا الشيء الأسود الجاهد كذلك لم يكن يعنيه فى شيء مستقبل شقيقه الصغيرة الرقيقة التلميذة فى احدى المدارس ولا ما يمكن أن يعنيه العمل بالنسبة لشقيقه الأصغر الذى كان يود العودة الى الالتحاق بالمدرسة .. كل ذلك لم يكن ليهم » بيجر توماس « فى شيء » ولكن فجأة وبعد ثلاثة أيام فى محاولات من أمه لاقناعه .. قبل العمل فهل وجدت توسلاتها الى قلبه طريقها فى

نهاية الامر ؟ وهل بدأ يحس بحقيقة واجبه تجاه نفسه وتجاه عائلته ؟ كلا . . لم يكن لذلك كله تأثير فى نفس ذلك الوحش القاتل ليخرج من عرينه الى العراء لقد قبل فحسب لأن - الجمعية أذرت الأم بأنها ستقطع المعونة عن العائلة اذا لم يقبل ولدها العمل . . ومن ثم قبل أن يذهب ليتسلم عمله . . ان الجوع وحده هو الذى جعله يقبل العمل وهو لا يزال غاضبا يحن الى البقاء متمسكا فى الشوارع ليسرق مثلما كان يفعل من قبل الأمر الذى أدى به مرة الى احدى الاضلاحيات »

« وبعد أن شاهد أحد « الأفلام السينمائية » فى صباح ذلك السبت توجه الى منزل آل دالتون ، وهناك رحبوا به فى عطف ورقة . . ومنحوه غرفة وقالوا له انه سيحصل على نقود اضافية علاوة على أجره الاسبوعى وأطعموه وسألوه هل يريد أن يلتحق بالمدرسة ليتعلم حرفة من الحرف ؟ ولكنه - رفض الالتحاق . . لقد كان عقله وقلبه - اذا كان من الممكن أن يكون للوحش عقل وقلب - بعيدين عن مثل هذا الهدف »

« وبعد أقل من ساعة . . قابل مارى دالتون « التى عرضت عليه أن ينضم الى اتحاد العمال . ان المستر « ماكس » الذى يدمى قلبه عطفاً على العمال لم يذكر لنا السبب فى أن « بيجر آ رفض هذا العرض »

« ترى . . أية أفكار سوداء عشتبت فى مخ هذا الزنجى فى اللحظة التى رأى فيها تلك الفتاة البيضاء الواقفة فيه وهى تقف أمامه ؟ ليس لدينا للأسف وسيلة نعرف بها الاجابة عن هذا السؤال . . وربما كان هذا النفاية الذى يجلس اليوم هنا طالبا الرحمة . . ربما كان حكيما لأنه لم يقل لنا شيئا عن ذلك . . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعمل خيالنا واضعين فى اعتبارنا ما قد ارتكبه بالفعل . »

« وبعد ساعتين كان يقود السيارة بالآنسة دالتون الى محل لوب ، وهنا قد يبرز أول تساؤل فى هذه القضية . فانه يبدو من النظرة العامة أن الآنسة دالتون قد خالفت أبويها عندما طلبت من هذا الزنجى أن يقود بها السيارة الى محل لوب بدلا من التوجه الى المدرسة . ولكن ليس من حقنا نحن أن نحكم على ذلك العمل . فأمر ذلك متروك لله وحده . ولكن الذى تقررره العائلة على أية حال أن مارى دالتون قد خالفت أبويها . ولكن مارى كانت فى السن التى تسمح لها بأن تذهب الى حيث شاءت . »

« قاد هذا الزنجى السيارة اذن الى محل لوب . وهناك قابلت شابا أبيض صديقا لها . ومن هناك اتجه الجميع الى مقهى بالحى الجنوبى

حيث أكلو وشربوا • ولما كانت ماري وصديقتها في حي زنجي ومقهى زنجي فقد وجها الدعوة الى هذا الزنجي لكي يتناول الطعام معهما • وعندما أمرا بالشراب • طلبا منه المزيد من أجله حتى يشاركهما في الشراب أيضا »

«واتجه الجميع بالسيارة بعد ذلك الى حديقة واشنطن وأمشوا فيها نحو ساعتين وفي حوالى الساعة الثانية من صباح الأحد غادر صديق «ماري» السيارة وتوجه لزيارة بعض أصدقائه وترك ماري وحدها داخل السيارة ومعها هذا الزنجي الذى لم يلق منها سوى العطف وبعد ذلك نحن لا نعرف بالتفصيل حقيقة ما حدث لأنه ليس لدينا سوى أقوال هذا الوحش الأسود • وأنا واثق كل الثقة من أنه لم يقل لنا كل شيء »

« ونحن لا نعلم على وجه التحديد متى لقيت «ماري» دالتون مصرعها، ولكننا نعلم جيدا أن الرأس والسد معا قد حشرا فى الموقد وأحرقا »

« يا الهى •• أى مشهد دموى ياترى حدث لهذه المسكينة •• أى يد سريعة مفاجئة أقدمت على ارتكاب تلك الجريمة البشعة ؟ كيف ياترى كفحت تلك الطفلة المسكينة لتفر من وجه هذا القرد الذى أصيب بالجنون ؟ كيف ياترى خرت راکعة على قدميها ودموعها تنحدر من عينيها كى تنجو من لمسة هذا الشخص المرعب ؟ »

«سيدى القاضى •• ألا يمكن أن أن يكون هذا الوحش الجهنمى قد أحرق جسدها كيما يخفى آثار جريمته • لا بد أن هذا الوحش الخائن أدرك أنه لو ظهرت آثار أسنانه فوق الصفحة البيضاء البريئة لصدرها ، لما حظى حتى بشرف الجلوس هنا فى قاعة هذه المحكمة •

« ليست هناك كلمات يمكن أن تقى بوصف عمل أسود بشع كهذا »

« وفى الصباح التالى حمل بيجر توماس حقيبة الأنسة دالتون وهى نصف ممثلة الى محطة شارع لارسال وهو ينوى أن يرسلها بالقطار كما لو أن شيئا لم يحدث وكما لو أن الأنسة دالتون كانت لا تزال حية ترزق ولكن عظام الأنسة دالتون وجدت داخل الموقد فى مساء نفس اليوم •

« ان حرق الجسد وحمل الحقيبة نصف الممثلة الى المحطة يعنيان فى الحقيقة شيئا واحدا ياسيدى القاضى «يعنيان ان القتل كان بتدبير «مسبق» وأن هناك محاولة جرت لاختفاء معالم الجريمة حتى يستطيع الحصول على مبلغ الفدية • ولو أن الأنسة دالتون كانت قد لقيت مصرعها بطريق المصادفة كما حاول هذا الزنجي متشبها أن يحملنا على تصديقه عندما أدلى

باعترافه .. لو أن ذلك كان صحيحا فلماذا اذن أحرق جسدها ولماذا حمل الحقيبة الى المحطة على حين هو يعلم يقينا أنها قد ماتت . ليست هناك سوى اجابة واحدة عن هذا السؤال . انه دبر قتلها .. ثم الحصول على المال بعد ذلك .. لقد أحرق الجسد لكي يخفى آثار جريمته .. وحمل الحقيبة الى المحطة لكي يكتسب وقتنا يستطيع خلاله أن يحرق الجثة ويعد خطاب الاختطاف » .

« ولما كان الزنجي يعلم أن العائلة قد استعانت بمفتش « خصوصي » فقد حاول أن يلقي بظلال الشكوك بعيدا عنه وبمعنى آخر فلم يكن ليهمه أن يموت شخص آخر بجريرة جريمته هو . ولما لم يستطع ذلك فقد لجأ الى الكذب . فقد حاول أن يلقي بتبعية الجريمة على كتف واحد من أصدقاء الآنسة دالتون . ظن أن معتقداته السياسية يمكن أن تكون عوناً له على كذبه ومن ثم فقد أدلى بأكاذيب كبيرة عن أن الآنسة دالتون وصديقتها صعدا معا الى غرفة الاولى .. وقال انها طلبت منه أن يعود الى منزله وأن يدع السيارة في الخارج طوال الليل . وحين أدرك أن أكاذيبه قد انكشفت لجأ الى شيء آخر حاول أن يحصل على المال » .

« وهل هرب هذا القاتل من رؤية مشهدين المفتشين وهم يعملون ؟ كلا وبمنتهى البرود .. وبلا مشاعر .. بقي داخل المنزل يأكل وينام ويحظى بعطف مستر دالتون الذي رفض أن يستجوبه أحد ظنا منه أنه مجرد صبي مسكين يحتاج الى الحماية » .

« ولكن أقول .. انه يستحق من الحماية ما يمكن أن تمنحوه أفعى تتلوى »

وبينما كانت العائلة تبحث عن ابنتها في الأرض وفي السماء كتب هذا الغول المتوحش خطاب اختطاف يطلب منها فيه عشرة آلاف دولار مقابل عودة الآنسة دالتون سليمة آمنة ولكن اكتشاف العظام داخل الموقد وضعت حدا لهذا الحلم الأحمق »

وبعد هذا كله يجيء الدفاع ليحاول أن يقنعنا بأن هذا الرجل ارتكب ما ارتكب بدافع من الخوف ولكن .. متى كان الخوف حتى منذ الأزل . دافعا الى مثل هذا العمل البشع » .

ومرة أخرى لا نجد لدينا المتابعة وصف ما حدث سوى ما قاله هو بنفسه هذا القرد الذي لا يساوى شيئا لقد هرب الى بيت صديقه « بيبي ميرز » التي كان يعرفها معرفة وثيقة منذ زمن طويل . وهناك حدث شيء لا يمكن أن يفعله سوى قرد خبيث . لقد أفرغها حتى اضطرها الى مساعدته

في ارسال خطاب الفدية .. كما حفظ عندها النقود التي سرقها من جثة ماري دالتون . ثم قتل تلك الفتاة المسكينة . وحتى هذه اللحظة ما زلت أعجز عن أن أصدق أن خطة جريمة قتل كهذه يمكن أن تعشش في مخ بشرى . لقد أغرى الفتاة التي أحبته بعرق - بالرغم من ادعاءات المستر «ماكس» .. هذا الشيعوى الملحد الذي حاول أن يقنعنا بشيء آخر .. أقول انه أغرى الفتاة التي أحبته بعرق حتى تهرب معه واختبأ الاثنان في منزل مهجور .. وهناك .. وفي برد تحت الصفر وفي ظلام الليل وقد عصفت بالخارج عاصفة ثلجية .. قتل مرة ثانية .. مرتين ياسيدي القاضى فى أربع وعشرين ساعة فحسب » .

« سيدى القاضى .. أعود فأكرر القول بأننى لا أستطيع أن أصدق لقد عالجت كثيرا من الجرائم فى أثناء خدمتى الطويلة لهذه الولاية .. ولكننى لم أصادف قط جريمة كهذه لقد بلغت الرغبة فى القتل بهذا المتوحش درجة نسى فيها الشيء الوحيد الذى كان من الممكن أن يساعده على أن ينجو بجلده .. نسى النقود التي سرقها من جثة ماري دالتون والتي وجدت فى جيب رداء « بيسى ميرز » لقد حمل الجثة المتهككة لهذه الفتاة العاملة المسكينة - والنقود داخل جيب ثوبها - ثم ألقى بها مسافة أربعة « طوابق » فى المنور . ولقد ذكر لنا الطبيب فيما بعد أن الفتاة لم تكن قد ماتت بعد عندما ارتطم جسدها بقاع المنور ولكنها تجمدت فيما بعد من شدة البرودة وهى تحاول أن تخرج منه » .

« سيدى القاضى .. اننى أعفيسكم من التفاصيل الجانبية لهاتين الجريمةتين فقد عرفتكم بها من الشهود ولكننى أطالب باسم شعب هذه الولاية بأن يموت هذا الرجل جزاء ما ارتكب » .

« اننى أطالب بهذا حتى لا يفكر آخرون فى ارتكاب جرائم مشابهة وحتى يأمن هؤلاء الناس المسالمون السعداء على أرواحهم .. سيدى القاضى ان هناك ملايين تنتظر كلمتكم .. انهم ينتظرون أن تقول لهم ان قانون الغاب لا يمكن أن ينفذ فى هذه المدينة .. انهم ينتظرون أن تقول لهم انه لا شيء يدعوهم الى أن يشحذوا المدي ويحشوا البنادق لكى يحموا أنفسهم انهم ينتظرون يا سيدى القاضى وخلف هذه النافذة فامنحهم الكلمة .. امنحهم كلمتك حتى يستطيعوا أن يخططوا لمستقبلهم وقد امتلات قلوبهم بالطمأنينة .. اقتل يا سيدى وحش الشك الذى يبقى ملايين القلوب وهى تنتظر الليلة .. وملايين الأيدي التى ترتعش وهى تغلق أبواب بيوتها »

« ان جريمة سوداء دموية كهذه حينما ترتكب والناس يحيون حياتهم ويؤدون واجباتهم العادية فان الشلل لابد أن يصيبهم وبثدر ما تزداد شناعة الجريمة ويصاب هدوء المدينة التي تحدث فيها - تزداد قلة حيلة المواطنين ازاءها .

« أعيذوا الثقة اذن الى هؤلاء الذين لا يزالون يحيون منا حتى يستطيعوا المضي قدما ليجنوا ثمار الحياة الرائعة . سيدى القاضى اننى أستحلفك باسم الله العظيم أن تكون بنا نحن ... رحيمًا » .

وجلجل صوت « بكلى » فى أذنى « بيجر » وأدرك مايعنيه الهرج والضجة الزائدان عندما انتهى من مرافعتيه . وكان هناك بعض الصحفيين فى أقصى الغرفة يهرعون متدافعين الى الخارج . . وجفف « بكلى » وجهه الأحمر ثم جلس على حين كان القاضى يطلب الهدوء ثم يقول : -

- ترفع الجلسة لمدة ساعة .

وقفز « ماكس » على قدميه وهو يصيح : -

- سيدى القاضى : لا يمكن أن تفعل هذا . . هل تنوى . . ان القضية تحتاج الى مزيد من الوقت . . أنت .

فقال القاضى : -

- سوف تقول المحكمة رأيها حينئذ .

وارتفع الصياح . . ولاحظ « بيجر » أن شفتى «ماكس » تتحركان ولكنه لم يستطع أن يميز حقيقة ما يقول . . ثم بدأ الهدوء يسود الغرفة شيئًا فشيئًا ورأى « بيجر » أن التعبيرات التى ترتسم على وجوه الرجال والنساء داخل الغرفة بدأت تختلف وأدرك أن الأمر قد تقرر وأن حياته قد انتهت .

وعاد « ماكس » يقول فى صوت هزته المشاعر : -

- سيدى القاضى . . أعتقد . . أعتقد أن الوصول الى تقدير سليم . . للملابسات والمناقشات التى دارت . . فان الامر يحتاج الى مزيد من الوقت . . و . . فرد القاضى قائلا .

- ان من حق المحكمة أن تقرر كم من الوقت يلزم . . يا مستر

ماكس . .

وأدرك « بيجر » أنه قد انتهى وأن المسألة أصبحت مسألة وقت لا غير .. مسألة اجراءات رسمية .. ولم يدرك كيف استطاع أن يعود الى الغرفة الجانبية الصغيرة ولكنه عندما اقتيد اليها وجد صحيفة الطعام لا تزال في مكانها .. كما هي وجلس ينظر الى رجال الشرطة الستة الذين وقفوا قريبا منه في صمت والمسدسات معلقة في صدورهم هل يجذب واحدا من هذه المسدسات ويطلق على نفسه الرصاص . ولكنه لم يكن يملك القدرة على أن يستجيب لهذا الوازع فقد شله الفزع .

وجلس « ماكس » الى جواره وأشعل سيجارة : -

- لا بأس يا بني .. علينا أن ننتظر .. أمامنا ساعة كاملة .

وتناهى صوت دقات فوق الباب فقال «ماكس» لأحد رجال الشرطة :

- لاتدع أحدا من هؤلاء الصحفيين يدخل هنا .

- حسنا .

ومرت الدقائق وبدأ رأس « بيجر » يؤله ، وأدرك أن « ماكس » لم يعد لديه مايقوله له .. وأنه هو الآخر لم يعد لديه ما يقوله « ماكس » وكان عليه أن ينتظر فحسب .. ينتظر شيئا كان يعلم تماما أنه لا بد سيأتى وأحس بجفاف حلقه . وبأنه ضحية خدعة .. لماذا حاكموه اذن اذا كان من المفروض أن تكون نهايته هكذا ؟ وتنهى بعمق وقال يتحدث الى نفسه أكثر مما يتحدث الى « ماكس » .

- حسنا . أعتقد أن كل شيء بالنسبة لى قد انتهى .

- لست أدري .

- ولكننى أدري .

- لا بأس .. فلننتظر .

- انه يحاول أن يصل الى قرار سريع .. وأنا أعلم أننى قد انتهيت

- اننى آسف يا « بيجر » اسمع لماذا لا تأكل .

- لست جائعا .

- الأمر لم ينتهى بعد .. ففى مقدورى أن التمس من الحاكم .

- لا فائدة . لقد أحاطوا بى .

- لست واثقا بعد ..

- بل أنا واثق ..

ولم يقل « ماكس » شيئا على حين استند « بيجر » برأسه الى حافة المائدة وأغمض عينيه وود لحظتها لو تركه « ماكس » وحده . لقد فعل « ماكس » كل ما في وسعه .. وأجدى له الآن أن يمضى الى بيته وينساه .

وفتح الباب .

- ستتعقد المحكمة خلال خمس دقائق .

ووقف « ماكس » وأمعن « بيجر » فى النظر فى وجهه المتعب .

- حسنا يا بنى .. هيا بنا .

وتبعه « بيجر » وهو يسير بين رجلى شرطه .. وعاد الى قاعة المحكمة ولم يجد فرصة لأن يجلس قليلا قبل أن يدخل القاضى فظل واقفا حتى جلس القاضى ثم تهاوى فى ضعف فوق مقعده .. ونهض « ماكس » ليتكلم .. ولكن القاضى رفع يده طالبا الصمت .. ثم قال .

- لينهض « بيجر توماس » ويواجه هيئة المحكمة .

وامتلا .. جو القاعة بالضجيج .. وعاد القاضى يطلب الصمت ونهض « بيجر » وساقاه ترتعشان وهو يحس أنه كما لو كان فى كابوس مفزع .

هل هناك ما تريد أن تقوله قبل أن تعلن المحكمة حكمها عليك .
وحاول « بيجر » ان يفتح فمه ليحجب .. ولكنه لم يستطع ..
وحتى لو كانت لديه القدرة على أن يتكلم .. فلم يكن ليدرى ماذا يمكن أن يقول وهز رأسه وعيناه تهتزان وكانت قاعة المحكمة هادئة تماما ..
وبلبل القاضى شفثيه بلسانه ثم رفع ورقة أمامه سمع حفيفها عاليا وسط صمت القاعة .

- بالنسبة الى الاضطراب المفاجئ الذى أصاب الرأى العام ترى المحكمة ان واجب هذه المحكمة واجب واضح كل الوضوح .

ثم سكوت القاضى لحظة .

وبحثت يدا « بيجر » عن حافة المائدة ليتشبث بها .

- « فى القضية رقم ٩٨٣ - ٦٦٦ - دعوى جريمة قتل فان حكم المحكمة عليك يا « بيجر توماس » هو أنك ستموت فى منتصف ليلة الجمعة

الثالث من مارس أو قبل ذلك بالطريقة «المحددة» في قوانين هذه الولاية .
« وقد وجدت المحكمة أن عمرك عشرون عاما » .

« يستطيع المأمور أن يأخذ سجينه الآن » .

واستطاع « بيجر » أن يفهم معنى كل كلمة : وبدأ كما لو لم يفعل
بوحدة فيها بقدر ما انفعّل بالتعابير المرتسمة على وجه القاضي . ولم
يتحرك : وظل واقفا يتطلع الى وجه القاضي الأبيض دون أن يخلج له
جفن . ثم أحس بيد توضع فوق كتفه ، ورأى « ماكس » يعيده ليجلس
فوق مقعده على حين ارتفعت الضجة في القاعة كالهدوء . ومرة أخرى عاد
القاضي يدق فوق منضدته طالبا الهدوء . ونهض « ماكس » يحاول أن
يقول شيئا لم يستطع « بيجر » أن يميزه وسط الضجيج قبل أن يلتف
القيّد الحديدي حول معصميه وقبل أن يفوده رجال الشرطة الى « زنزانته »
وانهار « بيجر » داخل « الزنزانة » وشيء ما فى أعماق أعماقه يقول :
انتهى الآن كل شيء .. انتهى كل شيء .

وبعد فترة ليست بالقصيرة فتح باب « الزنزانة » ودخل « ماكس »
وجلس الى جوار « بيجر » الذى أدار وجهه نحو الحائط .

- سوف أقابل الحاكم يا « بيجر » .. الأمر لم ينته بعد .

- ابتعد عني

- ينبغي أن ...

- كلا .. : ابتعد عني .

وأحس بيد « ماكس » فوق ذراعه قبل أن يغادر « الزنزانة » ، ثم
سمع الباب يغلق .. وأدرك أنه قد أصبح وحده . ولم يتحرك . بل
ظل راقدا فى مكانه وهو يحس بأنه اذا لم يتحرك فقد يريح نفسه من
الاحساس والتفكير وهو الشيء الذى كان فى أمس الحاجة اليه . واسترخى
جسده شيئا فشيئا ثم انقلب على ظهره وسط الهدوء والظلمة وبسط
يديه فوق صدره وتحركت شفتاه وهو ينتحب فى يأس .

وبدأ يصرف ذهنه تماما عن تتابع الليل والنهار فى محاولة
للدفاع عن النفس . فقد أحس بأنه ان سمح لنفسه بالتفكير فى بزوغ
الشمس ومغيبها وفى القمر أو النجوم وفى السحاب أو المطر ، فقد يموت
ألف مرة قبل أن يسوقوه الى الكرسي « الكهربائي » . ولكى يهيئ عقله

لفكرة الموت على قدر ما يستطيع • فقد جعل من العالم المحيط به كله أرضاً رمادية ممتدة الى مالا نهاية لانهار فيها ولا ليل • يسكنها رجال ونساء غرباء عنه لا يستطيع أن يفهمهم ويود لو استطاع أن يختلط بهم مرة واحدة قبل يمضى الى مصيره •

ولم يكن يأكل داخل « زنزانته » بالمعنى المفهوم من الفعل ، ولكنه كان يدفع بالطعام داخل حلقه دون أن يتذوق طعمه • حتى يبعد عن نفسه وخز الجوع وحتى لا يحس بالدوار • ولم يكن ينام • ولكنه كان يغمض عينيه فحسب من حين لآخر وبصرف النظر عن الوقت • ثم يعود فيفتحهما ويلجأ الى التأمل • كان يريد أن يتحرر من كل شيء يقف بينه وبين مصيره ونهايته • كل شيء : ذاته ، وادراكه المفزع العميق بأن الحياة قد انتهت بلا معنى ودون أن تحقق شيئاً وبغير أن تصل نوازعه المتضاربة الى حل •

ولقد جاءت أمه لتراه هي وأخته وأخوه : • وطلب منهم أن يظلوا في البيت وألا يزوروه مرة أخرى • وأن ينسوه تماماً • كذلك فقد جاءه في « زنزانته » ذلك القس الأسود الذي أعطاه الصليب • ولكنه طرده • وحاول قس آخر أبيض في هذه المرة أن يقنعه بأن يصلى ولكنه قذفه بكوب ساخن من القهوة • وعاد نفس القس ليزور سجيناً آخر ولم يفكر في أن يكرر المحاولة : وأحس « بيجر » بعدها بقيمته تماماً كما أحس بها خلال المرافعة الطويلة التي ألقاها « ماكس » في تلك الليلة • أحس بأنه عندما اضطر القس الى أن يتجنب زيارته وقد تملكته الدهشة لرفضه الصلاة ، فقد كان ذلك نوعاً من الاعتراف بشخصيته وذاته على مستوى لم يألفه هذا من قبل •

كان « ماكس » قد أخبره بأنه سيقابل الحاكم ، ولكنه لم يسمع عن ذلك منه شيئاً ولم يكن يأمل أن يتغير شيء نتيجة هذه المقابلة • ومن ثم فقد كان يذكرها في أثناء تفكيره وكأنها شيء يحدث خارج نطاق حياته ولا يمكن بحال من الأحوال أن يغير مجراها أو يؤثر عليه •

ولكنه كان يتلهف على رؤية « ماكس » والحديث معه مرة أخرى • وكان يستعيد كلمات « ماكس » في المرافعة ويتذكر في عرفان بالجميل صوته ذا النبرات المشحونة بالعطف والمشاعر الطيبة وان كان لم يعرف معاني تلك الكلمات على وجه الدقة • ولقد كان يؤمن بأن « ماكس » يعرف حقيقة ما يحس هو به : وود لو استطاع أن يتحدث اليه مرة أخرى قبل

أن يموت ليعرف ماذا تعنيه حياته وموته . وكان هذا هو الأمل الوحيد الباقي له . . . وكانوا قد سمحوا له فى السجن بأن يكتب ثلاثة خطابات كل أسبوع ، ولكنه لم يكتب لأحد ، فلم يكن هناك أحد يستطيع أن يكتب له شيئا لأنه لم يسبق له من قبل أن وهب كل قلبه لأحد أو لشيء الا الجريمة . وماذا يمكن أن يقول لأمه أو لأخيه أو لأخته ، كذلك فان من بين أفراد « الشلة القدامى » لم يكن هناك سوى « جاك » الذى يرتبط معه بالصدقة ولكنها لم تكن صداقه وطيدة بالمعنى الذى كان يتطلع اليه . . . « وبيسى » قد ماتت . . . وهو الذى قتلها

وعند ما كان يحس بالتعب من كبت مشاعره وأحاسيسه كان لا يفتأ يقول لنفسه انه هو ذاته المخطيء وانه لم يكن انسانا سويا : وانه لو كان قد أقنع نفسه بذلك لكان ذلك حلا لمشاكله . ولكنه لم يستطع أن يقنع نفسه ، فقد كانت أحاسيسه تتلهف على اجابة لا يستطيع عقله أن يتوصل اليها .

لقد كان طوال حياته ذاتيا عندما يواجهه من الأمور ما يجبره على الصراع : وها هو ذا يقبع فى « زنزانتة » ويحس . . . كما لم يحس من قبل بقسوة جوهر هذه الحياة . لقد كان هناك فى وقت ما جبل أبيض يسد عليه المسالك : وها هو ذا الآن يرى حائطا أسود يضيق عليه الحناق أكثر وأكثر من كل ساعة تمضى . ولكنه لا يستطيع الآن أن يضرب كما اتفق مثلما كان يفعل فى الماضى . . . فقد كان الموت شيئا مختلفا . . . شيئا أكبر من كل ما واجهه فى الماضى .

وبالرغم من أنه كان يستلقى داخل « زنزانتة » فقد كانت يدها تحولان داخل مدينة البشر تبحث عن شيء يواجه به ذلك اللهب فى أعماقه . . . شيء يقوده الى المعرفة ولكن المعرفة كانت عنه بعيدة كما كانت دائما . ولم يكن هناك من الحقيقة سوى أن جسده الأسود أصبح ملقى داخل « زنزانة » يبلله عرق الموت المرتقب .

واذا كان حقا أنه لم يكن يساوى شيئا . . . وإذا كان حقا أن تلك هى الحقيقة : فلماذا لا يموت دونما داع لهذا التأخير والانتظار ؟ ومن هو حتى يضطره الى أن يحس بسكرات الألم المحض الذى يغطى حتى على الحوف ؟ ولماذا كتب عليه أن تختلج فى حنايا صدره هذه الحوافز الغريبة وليس هناك شيء يواجهه فى خارجه ويطالبه بالتفسير ؟ ومن ذا يائس الذى دس فى أعماقه هذا التكوين القلق الذى لا يستقر ؟ ولماذا تعيش دائما فى هذه الأعماق رغبة فى الوصول الى شيء لا يعرف مكانه ؟ ولماذا يقوم

دائماً هذا الخليج الأسود بينه وبين الحياة : الدماء الدافئة القانية هنا
والسماء الباردة الزرقاء هناك .. دون أن تتصل وتلتقى .. ودون أن
تصبح كلا لا يتجزأ ولو لمرة واحدة ؟

أهذه هي الحياة ؟ امي اذن حمى ، واحساس بلا معرفة وبحث بلا
نتيجة ؟ أتكون هذه هي الحياة .. بواقعتها ومعناها ونهايتها ؟ .. كانت
الدقائق تمر وهو يسائل نفسه .. ونحل جسده وشابت عينيه حمرة
مثل حمرة الدماء في عروقه وجاء مساء آخر أيامه ، وكان يتلهف أكثر
من أى وقت مضى على أن يتحدث الى «ماكس» دون أن يدري حتى ما يمكن
أن يقوله له : .. أليست سخرية صغيرة أنه يتلهف الى حديث لا يعرف
ما يمكن أن يقول فيه ؟

وجاءه الى « زنزانتة » حارس أعطاه برقية من خلال القضبان ...
وجلس يقرأها : -

« تذرع بالشجاعة . فشلت محاولتى مع حاكم الولاية . فعلت كل
ما بوسعى . سأراك على انفور » وكور البرقية وقذف بها الى ركن
« الزنزانة » ..

لم يعد باقيا من حياته الا ساعات حتى منتصف الليل . وكان قد
سمع أنهم سيأخذونه قبل موعد تنفيذ الحكم بست ساعات ليرتدى مزيدا
من الملابس وليمضوا به الى الحلاق . ثم .. ثم الى « زنزانة » الموت ..
وقد قال له أحد الحراس لاتقلق ، فان هى الا ثمان من الثوانى بعد أن
يخرجوه من « زنزانتة » ويغطوا عينيه بالعصابة السوداء .. حتى يموت
وينتهى كل شيء .

لا بأس اذن : ففى وسعه أن يواجه الأمر بخطة معينة ، فهو
يستطيع أن يرخى عضلات جسده ويغمض عينيه ويحبس أنفاسه ولا
يغامر فى شيء ، على حين هم ينفذون فيه الحكم ، وعندما يسرى التيار :
ينتهى كل شيء :

وعاد يستلقى مسترخيا على ظهره ويحدق الى المصباح الأصفر
الصغير اللامع فى سقف « الزنزانة » ويرى الموت فى لهبه آه لو أن أحدا
أوصل أسلاك هذا المصباح الى فراشه الحديدى - آه لو أنهم نفذوا فيه
الحكم وهو غارق فى حلم عميق .

وكان على وشك أن يستسلم للنوم عندما سمع صوت الحارس .

- توماس .. هذا هو محاميك .

وقفز « بيجر » وجلس فى مكانه .. وكان « ماكس » يقف خلف

قُضبان الزنزانة وفتح الحارس الباب ودخل « ماكس » وأراد « بيجر » أن ينهض واقفا ولكنه عجز وظل جالسا . وسار « ماكس » الى منتصف الزنزانة ثم توقف : وتبادل الاثنان النظرات .

- هالو . « بيجر » .

وفي صمت . هز « بيجر » رأسه . . كان « ماكس » أمامه هادئا . . أبيض . . بلحمه وشحمه ، وأدرك « بيجر » في لحظة خاطفة أن وجوده المحسوس معه داخل « الزنزانة » قد قضى على كل الأفكار والآمال الغامضة التي ما فتئ ينسجها لنفسه في تأملاته . وكان سعيدا بمجيئه ، ولكنه كان حائرا .

- كيف حالك ؟

وتنهذ « بيجر » بعمق . . على حين جلس « ماكس » الى جواره وقال :

- هل وصلتك برقيتي ؟

وأوماً له « بيجر » بالإيجاب .

- انني آسف يا بني .

وساد صمت . . وكان « ماكس » يجلس الى جواره . . الرجل الذي أغراه بأمل شاحب غامض . . حسنا ، لماذا لا يتكلم الآن اذن ؟ هذه هي فرصته . . فرصته الأخيرة . . ورفع بصره الى « ماكس » في حياء . . وكان « ماكس » هو الآخر ينظر اليه كان الذي يريد أن يقوله أقوى بكثير عندما كان يقبع وحده داخل الزنزانة ، وبالرغم من أنه كان يعزو الى « ماكس » كل ما يصدره من مشاعر وأحاسيس ، فقد عجز عن أن يحدثه عن هذه المشاعر والأحاسيس قبل أن ينسى تماما ما أثاره في نفسه حضور . . « ماكس » . . كذلك فقد أفزعه خوفه من أن يعجز عن الحديث عن تلك الحمى التي تستبد به . . وجاهد لكي يسيطر على كيانه : فلم يكن يريد أن يفقد حتى الدافع المحرك والذي لم يعد باقيا له سواء ولكنه أحس في اللحظة التالية أن كل شيء كان هباء : ومن ثم كف عن المحاولة . وما كاد يفعل ذلك حتى وجد نفسه يتكلم . . في همس : -

- لا بأس يا مستر « ماكس » . . لست ملوما فيما سيحدث لي . . .

أنا أعرف أنك فعلت كل ما في وسعك . . .

ثم بدأ صوته يعلو شيئا فشيئا .

- لقد أدركت الآن أنه كان لا بد أن . . . ي . . . يحدث هذا . . .

ثم نهض واقفا .. وأراد أن يتكلم ... و تحركت شفتاه ؛ ولكن
الكلمات لم تخرج . وسأله « ماكس » فى رقة : -

- هل هناك شئ أستطيع أن أفعله من أجلك يا « بيجر » ؟

ونظر « بيجر » الى عينى « ماكس » . الرماديتين . كيف يا ترى
يستطيع أن ينقل الى ذلك الرجل حقيقة ما يريده ؟ آه لو استطاع أن يقول
له وقبل أن يتحقق ما هو مقدم عليه .. هرع الى الباب وتشبث بقضبانه
الحديدية .

- أ ... أ ... أنا ...

- ماذا ... يا « بيجر » ؟

واستدار « بيجر » فى ببطء ثم عاد الى فراشه ووقف فى مواجهة
« ماكس » وقد رفع يده اليمنى وحاول أن يتكلم ... ثم جلس وقد حنى
رأسه .

- ماذا تريد يا بيجر ؟ هل هناك شئ أستطيع أن أفعله من أجلك
فى الخارج ؟ هل تريد أن تحملنى أى رسالة ؟

- لا ...

- فيم تفكر اذن ؟

- لست أدرى ...

كان عاجزا عن الكلام . ووضع « ماكس » يده على كتفه وأدرك « بيجر »
من لمسة يده أنه لا يشك فيما يريده وما يحاول أن يقوله . كان «ماكس»
كمن يعيش بعيدا عنه فى كوكب آخر بعيد . أليست هناك وسيلة ما
لتحطيم هذا الحائط من العزلة ؟ .. وفجأة .. وبلا قصد ، حدق «بيجر»
الى سقف « الزنزانة » وهو يحاول أن يتذكر أين سمع كلمات يمكن أن
تساعده ، ولكنه لم يستطع . لقد عاش دائما خارج حياة الناس الذين
رفضت مثلهم ورؤاهم وعلاقاتهم أن تعترف بوجوده . وبالرغم من ذلك
فان « ماكس » قد منحه الثقة بأن الناس الذين يحيون فى القاع جميعا
عاشوا كما عاش هو وأحسوا بمثل ما أحس به . ولم يكن هلاك من بين
كل من قابلهم من الناس ، من استطاع أن يعرف ما كان يريد أن يقول
... سوى « ماكس » . فهل تركه « ماكس » أيضا ؟ هل تركه لمصيره
وطرده من أفكاره وأحاسيسه بعد أن عرف أنه صائر الى الموت ؟ وارتعشت

شفتاه وغامت عيناه . نعم ، لقد تخلى عنه « ماكس » . لم يكن « ماكس » صديقه . واستبد به الغضب ، ولكنه أدرك أن الغضب لن يجدى .

ونفض « ماكس » واتجه الى نافذة صغيرة داخل « الزنزانة » تتسلل من خلال قضبانها حزمة من ضوء الشمس تسقط على شعره الأبيض . ونظر اليه « بيجر » ورأى تلك الأشعة لأول مرة منذ أيام طويلة ورأى على ضوئها « زنزانته » حقيقة بشعة قائمة بجدرانها الأربعة . . . وتطلع الى ذاته . . . وأحس بأن أشعة الشمس تخترق صدره في قسوة وكأنها هي مثقلة بالرصاص . وانحنى قليلا وأغمض عينيه . لم يكن هناك مثلما كان من قبل ، جبل أبيض يلقى عليه ظلاله الكثبية . . . ولم يكن هناك « جس » يصفر بغمه أغنيته المفضلة وهو يدلف الى « صالة البلياردو » ليجعله يمضى معهم ليسرقوا محل « بلوم » ، . . . ولم يعد واقفا الى جوار فراش « ماري » والشبح الأبيض يهتز عن كثر . . . وأحس بتلك الأشعة تخترق جسده بقسوة ولكنه استجمع قواه ورفع رأسه ونفض في يأس وقد أصر على أن ينفض من قبره وأن يجبر « ماكس » على أن يسمع منه حقيقة حياته .

وبدا يتكلم في صوت مرتفع . . .

- اننى سعيد حقا بأننى عرفتك قبل أن أمضى الى نهايتى . . . :

ثم ساد الصمت : . . . فلم يكن ذلك هو ما أراد أن يقول .

واستدار اليه « ماكس » ونظر اليه ، وكانت نظراته خالية من الاهتمام الذى كان « بيجر » متعطشا الى أن يراه فى عينيه .

- وأنا أيضا أحس بالسعادة لأننى عرفتك يا « بيجر » : ويؤسفنى أن نفترق على هذه الصورة . ولكننى عجوز يا بنى ، وسوف أمضى أنا أيضا الى نهايتى عما قريب . . .

- لقد تذكرت كل تلك الأسئلة التى كنت توجهها الى . . .

- أية أسئلة ؟

واقترب منه ماكس وجلس الى جواره .

- تلك الليلة . . .

- أية ليلة يا بنى ؟

حتى تلك الليلة . . . لا يتذكرها « ماكس » : وأحس « بيجر » بأنه

تلقي صفة قاسية • كم كان أحرق وغيبا عندما بنى أملا فوق رمال متحركة كهذه : ولكن لا بد على أية حال من أن يعرف منه « ماكس » ما يريد هو أن يقوله له : -

- تلك الليلة التي سألتني فيها أن أحدثك عن نفسي ••

- أوه •••

ورأى « ماكس » ينظر الى الارض وقد قطب وجهه ، وأدرك أن الحيرة تملكته •

- لقد وجهت الى أسئلة لم يوجه لي أحد مثلها من قبل • لقد عرفت أنني ارتكبت جريمتين متتابعتين وبالرغم من ذلك فقد عاملتني كرجل •

وتطلع اليه « ماكس » في امعان ثم نهض واقفا في مواجهة « بيجر » الذي كان على وشك أن يصدق أن « ماكس » يعرف ويفهم ، ولكن كلمات « ماكس » التالية أوضحت له أن ذلك الرجل الأبيض كان لا يزال يحاول أن يهدئه في مواجهة الموت •

- أنت بشريا « بيجر » ، انه لمن القسوة بمكان أن يتحدث المرء مثل هذا الحديث الى رجل أوشك أن يموت •••

ثم توقف قليلا وأدرك « بيجر » أن « ماكس » يبحث عن كلمات يمكن أن تريحه ولكنه لم يكن يريد هذه الكلمات •

- « بيجر » •• انني أنظر الى العالم خلال عملي الذي أمارسه في أسلوب لا تفريق فيه بين البيض أو السود وبين المتحضرين أو المتوحشين - فعندما يحاول الناس أن يغيروا الحياة الانسانية على ظهر الأرض فان هذه الامور لا تههم وأنت لا تلاحظها • انها تختفى وحسب • وأنت تنساها • ان السبب في أنني أتحدث اليك هذا الحديث هو أنك تجعلني أحس برغبة الانسان الشديدة في أن يعيش ••

- ولكنني أحس أحيانا بأنه كان من الافضل ألا توجه الى تلك الأسئلة •••

- ماذا تقصد يا « بيجر » ؟

- هذه الأسئلة تجعلني أفكر •• والتفكير يؤدي بي الى شيء من الخوف •••

وأمسك « ماكس » بذراع « بيجر » فى شدة . ثم تراخت أصابعه حتى استراحت على الفراش . ولكن عينيه كانتا لا تزالان مثبتتين فوق وجه « بيجر » نعم ، ان « ماكس » يدرك الآن . وتحت ظلال الموت ود « بيجر » لو أن « ماكس » حدثه عن الحياة

وتساءل « بيجر » : -

- مستر « ماكس » ... كيف يمكن أن أموت ؟ :

وجه « بيجر » سؤاله هذا وهو يدرك أن معرفته بمعنى الحياة هي معرفة بالضرورة لمعنى الموت .

وأشاح « ماكس » بوجهه .. وقال .

- بيجر ... الناس يموتون وحدهم ...

ولكن « بيجر » لم يسمعه ؛ فقد استبدت به مرة أخرى رغبة فى الكلام .. ورفع يديه فى الهواء .. وعندما تكلم حاول أن يدس فى نبرات صوته ما كان هو نفسه يريد أن يسمعه وما هو فى حاجة اليه .
« مستر « ماكس » : لقد رأيت بشكل ما نفسى بعد تلك الليلة ؟
ورأيت الناس الآخرين أيضا ...

وماتت الكلمات على شفثيه .. فقد كان يسمع أصداء كلمات داخل عقله .

ورأى الدهشة والذعر يرتسمان على وجه « ماكس » : وأدرك أنه يود ألا يتحدث اليه بهذه الطريقة : ولكنه لم يكن يملك غير أن يفعل ذلك .. كان لا بد أن يموت وكان لا بد أن يتكلم :

- انها فكرة مضحكة ولا شك يا مستر « ماكس » : فأنا لا أحاول أن أهرب من مصيرى : اننى سوف أموت .. حسنا ، ولا بأس الآن فى ذلك ...

وبدأ صوته يرتفع فى « هستيرية » .

- ... ولكننى أقول لك الحق .. اننى لم أقصد قط أن أؤذى انسانا .. هذه هي الحقيقة يا مستر « ماكس » : فأنا لم أؤذ مخلوقا الا وأنا أحس بأننى مضطر الى ذلك .. لقد كانوا يحيطون بى ولا يمنحوننى الفرصة ولطالما حاولت أن أنساهم ولكننى لم أستطع .. فلم يكونوا يسمحون لى بذلك ...

واثسعت عيناه وغامتاً ٠٠ واندفع يقول :

— ٠٠ مستر « ماكس » ؟ أنا لم أكن أقصد قط أن أفعل ما فعلت
لقد كنت أحاول أن أفعل أشياء أخرى ولكن يبدو لي أنني فشلت في
تحقيق شيء آخر كنت دائماً أريد شيئاً ما ٠٠ وأحس بأن أحداً لن يسمح
لي بأن أحصل عليه من أجل هذا فقد حاربت الناس ٠٠ لقد ظننت أنهم
قساة ٠٠ ومن ثم تصرفت في قسوة ٠٠

ثم توقف قليلاً ٠٠ وبدأ ينتحب معترفاً .

— ولكنني لست قاسياً يا مستر « ماكس » ٠٠ أنا لست قاسياً
قط ٠٠٠

ثم نهض واقفاً ٠٠

— ٠٠٠ ولكنني ٠٠ لن أبكي أبداً عندما يقودونني إلى ذلك الكرسي،
ولكنني سأحس داخل أعماقي ٠٠ وكأنما أنا أبكي ٠٠٠ سوف أحس
وأفكر ٠٠ أحس بأنهم عجزوا عن رؤيتي وبأنني أنا بدوري عجزت عن
رؤيتهم ٠٠٠٠

ثم جرى إلى الباب الحديدى وتشبث بقضبانها وجعل يهزها وكأنما
يحاول أن يحطمها . واتجه إليه « ماكس » وجذبه من كتفيه وقال في
يأس : —

— « بيجر »

وظل « بيجر » متشبثاً بقضبان الباب ٠٠ ثم استند إليه في ضعف
وقال : —

— أنا أعرف أن هؤلاء الذين أرسلوني إلى هنا يكرهونني ٠٠٠ أنا
أعرف ذلك ٠٠ و ٠٠٠

ولكن ٠٠٠ أنت تعرف أيضاً أنهم كانوا مثلي إنما يجرون وراء شيء
ما مثلما كنت أفعل وعندما أموت وينتهي أمرى ٠٠ فلسوف يقولون مثلما
أقول أنا الآن : أنهم لم يقصدوا أن — يصيبوا أحداً بالأذى ٠٠٠ و ٠٠٠
وانهم كانوا هم أيضاً ٠٠ يحاولون أن يصلوا إلى شيء ٠٠٠

ولم يجب « ماكس » ٠٠ ورأى « بيجر » في عينيه نظرة حيرة
ودهشة .

— قل لي يا مستر « ماكس » ، ٠٠ أظن أنهم كانوا كذلك ؟

وقال « ماكس » فى رجاء : -

- « بيجر » ...

- قل لى يا مستر « ماكس »

وهز « ماكس » رأسه وتمتم قائلا : -

- أنت تطلب منى أن أقول أشياء لا أريد أن أقولها

- ولكننى أريد أن أعرف

- أنت ميت يا « بيجر » ..

وخفت صوت « ماكس » ، وأدرك « بيجر » أن الرجل العجوز لم يرد أن يقول ذلك وأنه لم يقله الا لأنه دفعه الى ذلك . وساد الصمت لحظة طويلة قبل أن يقول « بيجر » فى صوت كالهمس : -

- هذا هو السبب الذى من أجله أريد أن أعرف ... أعتقد أن السبب فى اصرارى على أن أعرف هو أننى ماض الى نهايتى ...
واغير وجه « ماكس » ، وخشى « بيجر » أن يتركه ويخرج ..
وتبادل الاثنان النظرات خلال فترة من الصمت .. وتنهده « ماكس » ثم قال : -

- تعال هنا « يا بيجر » .

وتبعه « بيجر » الى النافذة ورأى على البعد الأبنية فى شارع «لوب» وقد جللت أشعة الشمس معالمها . وسأله « ماكس » وهو يضع ذراعه حول كتفيه ويتكلم فى لهجة سريعة وكأنما يحاول أن يشكل مادة ساخنة لينة يخشى أن تبرد بسرعة ...

- هل ترى كل هذه الأبنية يا « بيجر » ؟

- نعم أراها ..

- لقد عشت يوما فى واحد منها .. انها مصنوعة من صلب وحجارة . ولكن الصلب والحجارة ليسا اللذين يقيمانها . أتعرف يا « بيجر » ما الذى يقيم هذه الأبنية ؟ أتعرف ما الذى يبقياها ثابتة فى أماكنها ويمنعها من الانهيار والسقوط ؟

ونظر اليه « بيجر » فى حيرة .

— ان الذى يفعل ذلك كله هو ايمان الانسان . واذا توقف الناس عن الايمان فلسوف تهوى هذه الأبنية . ان هذه الأبنية قد نبعت من قلوب الرجال يا بيجر . . الرجال مثلك . الناس دائما ظلوا جوعى وظلوا فى احتياج . وهذه المباني ظلت تعلو وتكبر . وأنت قلت لى مرة انك تريد أن تحقق أشياء كثيرة ، حسنا . . فهذا هو نفس الاحساس الذى يبقى مثل هذه الأبنية الضخمة قائمة فى أماكنها . . .

— هل تقصد . . . هل تتحدث عما قلته لك فى تلك الليلة عندما قلت اننى كنت أريد أن أفعل أشياء كثيرة ؟
وكان صوت « بيجر » وهو يلقي سؤاله هادئا كصوت الطفل مملوءا بالدهشة .

— نعم . ان ما كنت تحس به وتتطلع اليه : هو نفسه الذى يبقى هذه الأبنية قائمة فى أماكنها هناك . وعندما يريد الملايين من البشر ويتطلعون الى تحقيق شيء ما فان هذه الأبنية تعلو وتكبر . ولكن هذه الأبنية يا « بيجر » لم تعد تعلو وتكبر . فهناك قلة من البشر تقبض فى شدة على هذه الأبنية ومن ثم لا تهين لها فرصة لأن تزيد وتكبر وتتغذى بأحلام البشر . . البشر مثلك . . ولقد بدأ البشر فى داخل هذه الأبنية الضخمة يشكون مثلما أنت تشك الآن . انهم لم يعودوا . يصدقون انهم لم يعودوا يحسون بأن هذا هو عالمهم . انهم قلقون مثلك يا « بيجر » . انهم لا يملكون شيئا ، وليس هناك شيء يمكنهم من خلاله أن — يزدادوا نماء وارتفاعا انهم يخرجون الى الشوارع ويقفون خارج هذه الأبنية ويتطلعون اليها . . . ويتساءلون . . .

— و . . . و . . . ولكن ، لماذا يكرهوننى ؟

— ان الذين يمتلكون هذه الأبنية يخافون . انهم يريدون أن يحتفظوا بما يملكون حتى ولو أدى ذلك الى أن يعانى الآخرون . ومن أجل أن يحتفظوا بها فهم يدفعون بالبشر الى الطين ويقولون لهم انهم وحوش ، ولكن الرجال . . . الرجال مثلك يفضبون ويناضلون ويحاربون لكى يدخلوا مرة أخرى هذه الأبنية من أجل أن يتابعوا الحياة . « بيجر » : لقد قتلت وكان ذلك خطأ ارتكبته . لم يكن القتل هو الوسيلة التى تلجأ اليها . لقد فات الأوان الآن لكى . . لكى تعمل مع . . مع الآخرين الذين يحاولون أن . . أن يؤمنوا ويجعلوا العالم يعيش مرة أخرى . . . ولكن

الأوان لم يفتك لكى تؤمن بصدق ما أحسست به ولكى تفهم حقيقة هذا الذى أحسست به .

وكان « بيجر » يحدق الى اتجاه الأبنية ، ولكنه لم يكن يراها فقد كان يحاول أن يجسم الصورة التى رسمها « ماكس » وهو يحاول أن يقارن بينها وبين ما كان يحس به طوال حياته . . ثم ما لبث أن تمت قائلًا : -

- لقد كنت دائما أريد أن أفعل شيئا .

ثم ساد الصمت ولم يعد «ماكس» مرة أخرى الى الكلام حتى نظر اليه «بيجر» . وأغمض عينيه ثم قال : -

- « بيجر » : أنت صائر الى الموت . وعندما تجيء لحظة الموت فلتمت حرا . أنت تحاول أن تؤمن بنفسك . وفى كل مرة تحاول أن تجد فيها وسيلة للحياة فان عقلك يقف فى الطريق . هل تعرف لماذا ؟ لأن الآخرين قالوا انك شرير وجعلوك تعيش تحت ظروف بالغة السوء . وعندما يسمع المرء ذلك مرة تلو مرات وينظر حوله ويرى أن حياته سيئة: فانه يبدأ بالشك . . وأول ما يشك فيه هو عقله نفسه : ومن ثم تقوده أحاسيسه الى الأمام على حين عقله الذى امتلأ بما قاله عنه الآخرون يحاول أن يعود به الى الخلف . ان مهمة اقناع البشر بالنضال والايان : هى فى جوهرها اقناعهم بأن يؤمنوا بما جعلتهم الحياة يحسون به ، وهى اقناعهم بأن يشعروا بأن أحاسيسهم طيبة كأحاسيس الآخرين . ان الناس الذين يكرهونك يا « بيجر » يحسون مثلما تحس أنت وكل ما يختلفون فيه عنك هو أنهم يقفون الى الجانب الآخر من السور . أنت أسود ، ولكن هذا ليس سوى جانب من وجودك . وسواد بشرتك - كما سبق أن قلت لك من قبل - يجعل الأمر سهلا بالنسبة لهم لكى يفرزوك . فلماذا يفعلون هذا ؟ لأنهم يريدون معطيات الحياة مثلما تريدها أنت أيضا وهم لا يهتمون أبدا بالوسيلة التى يحصلون بها عليها انهم يستأجرون البشر ولا يمنحونهم كل ما يستحقون من أجر . انهم يقتصبون ما يمتلك البشر ويزيدون من سطوتهم . انهم يحكمون الحياة ذاتها وينظمونها : ولديهم من الامكانيات والوسائل الشئ الكثير الذى يمكنهم من أن يفعلوا كل ذلك على حين لا يستطيع البشر أن يستعيدوها بالقوة . وهم يفعلون ذلك مع السود أكثر من غيرهم لأنهم يدعون أن البشر السود أقل منهم فى درجات البشرية . . ولكنهم أيضا يقولون ان العاملين والكادحين

هم أيضا أقل منهم ... والأغنياء يا بنى لا يريدون أن يغيروا الأمور
لأنهم اذا فعلوا فسوف يخسرون الشيء الكثير . ولكنهم يحسون فى
أعماقهم مثلما تحس ومن أجل أن يحتفظوا بما لديهم يحملون أنفسهم
على أن يقتنعوا بأن البشر العاملين ليسوا آدميين . انهم يفعلون مثلما
فعلت أنت يا « بيجر » عندما رفضت أن تشعر بالأسف من أجل «مارى» .
ولكن البشر على كلا جانبي السور يريدون أن يعيشوا وهم يناضلون من
أجل الحياة ومن الذى سيكسب ؟ ... لا شك أن الذى سيكسب هم
أولئك الذين يحسون أكثر من غيرهم بحقيقة الحياة ... هم الجانب الأكثر
انسانية والأكثر عددا .. وهذا هو السبب .. الذى من أجله ينبغي ان
تؤمن بنفسك ... يا « بيجر »

وهز « ماكس » رأسه فى دهشة عندما ضحك « بيجر » ..

— أوه : .. أعتقد أننى أومن بنفسى ... ولم أحصل على شيء ..
وسوف أموت ثم اتجه نحو « ماكس » الذى كان يستند الى النافذة .

— مستر « ماكس » : عد الى بيتك فانا بخير .. قد يبدو هذا
مضحكا يا مستر « ماكس » ولكننى عندما أفكر فيما تقول ... أحس
بنفس ما كنت أريده . أحس بأننى كنت على صواب بشكل أو بآخر .
وأوشك « ماكس » أن يقول شيئا .. ولكن « بيجر » سبقه
واستطرد يقول : —

— أنا لا أحاول أن أسامح أحدا ، كذلك فانا لا أطلب من أحد أن
يغفرلى . ولن أبكى . انهم لن يسمحوا لى بالحياة .. وأنا أيضا قتلت .
ربما لم يكن من الانصاف والعدل أن أقتل : وحقيقة اننى لم أكن أريد
أن أقتل ، ولكننى عندما أفكر فى السبب الذى من أجله قتلت . فاننى
أحس بما كنت أتطلع اليه .. وماكنت ...

ورأى « بيجر » « ماكس » بعيدا عنه وقد زم شفثيه ، ولكنه أحس
بأنه استطاع أن يجعل « ماكس » حينئذ يفهم كيف كانت نظرتة الى
الأمور .. وصاح « بيجر » : —

— أنا لم أكن أريد أن أقتل : ولكن الذى قتلت من أجله .. هو أنا
ولا بد ان ما دفعنى الى أن أقتل كان فى أعماقى : .. لا بد أننى
كنت أحس به قاسيا مفزعا حتى دفعنى الى القتل ...

ورفع « ماكس » يده ليلمس « بيجر » .. ولكنه لم يفعل . على حين قال فى رجاء ويأس : -

- لا .. لا .. لا ليس هكذا يا « بيجر » .

ولكن صوت « بيجر » عاد يرتفع وقد أمضه العذاب والألم .

- لا بد أن الشيء الذى قتلت من أجله كان شيئاً طيباً : .. نعم : لابد أنه كان طيباً : عندما يقتل الرجل ، فإنه يفعل ذلك فى سبيل شيء ما .. اننى لم أعرف أننى أحيأ فى هذا العالم حتى أحسست بقسوة الأمور الى حـد يدفعنى الى أن أقتل هذه هى الحقيقة يا مستر « ماكس » . وأستطيع أن أقولها الآن لأننى سوف أموت . أنا أعرف أن ما أقول هو الحقيقة .. وأعرف كذلك معنى ما أقول ولكننى بخير .. اننى أحس بالراحة عندما أنظر الى الأمور بهذه الطريقة

وامتلأت عينا « ماكس » بالذعر . واهتز جسده مراراً فى عصبية كما لو كان يريد أن يتجه نحو « بيجر » ولكنه لبث واقفاً فى مكانه لا يتحرك .

- أنا بخير يا مستر « ماكس » قل لأمى اننى بخير .. وقل لها لا تحزن من أجل قل لها اننى بخير واننى لم أبك قط .

واغرورقت عينا « ماكس » بالدموع .. وفى بطنه مد يده ، وصافحه « بيجر » .

وقال « ماكس » فى هدوء : -

- الى اللقاء يا « بيجر »

- الى اللقاء يا مستر ماكس

وتحسس « ماكس » كالأعمى مكان قبعته : وعندما أمسك بها طوح بها فوق رأسه ثم اتجه نحو الباب وقد أبقي وجهه متجهاً الى « بيجر » ..

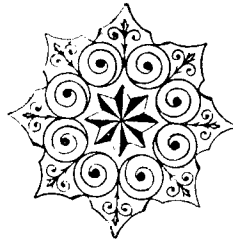
وطوح بذراعيه يشير الى الحارس . وعندما خرج من باب « الزنزانة » وقف لحظة وظهره الى الباب على حين كان « بيجر » يتشبث بقضبانها من الداخل .

- مستر « ماكس »

واستدار « ماكس »

- نعم يا « بيجر » ...
- أنا بخير .. حقيقة .. أنا بخير
- الى اللقاء يا « بيجر »
- الوداع الى اللقاء يا مستر ماكس .
- وسار « ماكس » فى الدهليز الطويل
- مستر « ماكس » :
- وتوقف « ماكس » .. ولكنه لم ينظر خلفه
- قل .. قل لمستر .. قل لمستر « جان » .. هالو ..
- حسنا يا « بيجر » ..
- وداعا ...
- وداعا ... !

وكان لا يزال ممسكا بالقضبان الحديدية . ثم ارتسمت على شفتيه
ابتسامة واهنة مرة . وتناهى الى أذنيه صرير الصلب فوق الصلب عندما
أغلقوا بابا من بعيد .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
الكتاب الأول :	
الخوف	٥
الكتاب الثاني	
الهرب	١٢١
الكتاب الثالث :	
المصير	٣١٩

[www.liilas.com/vb3/
florist](http://www.liilas.com/vb3/florist)

دارالكتاب العربي للطباعة والنشر
بالمسامة
فروع الساحل